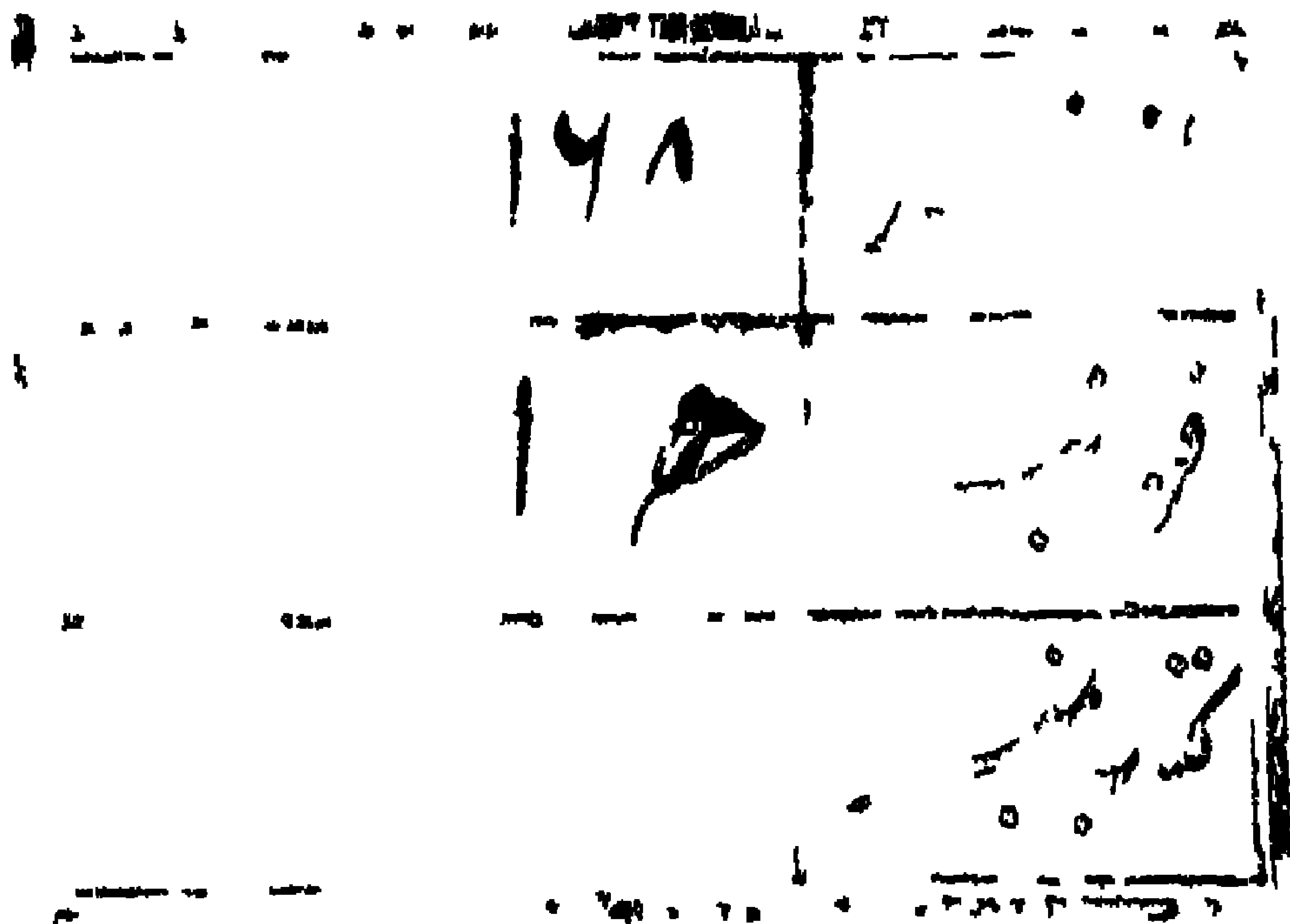
ادب ومقالات لمشاهیر العرب جزء الاول

الشاء

۲۶

[illegible]



مقالات

لبعض مشاهير كتّاب ال

في الانشاء

توطئة

فصل في حقيقة علم الأدب واقسامه واركانه

البحث الاول

في حدّ علم الادب

(عن الزمخشريّ والجرجانيّ وغيرهما بتصرف)

(راجع الجزء الاوّل من علم الادب صفحة ١ من التمهيد)

علم الادب علم يحترز به عن جميع انواع الخطا في كلام العرب لفظا وكتابة. وذلك انّ فائدة التخاطب والمحاورات في افادة العلوم واستفادتها لمّا لم تتبيّن للطالبين الّا بالالفاظ والكتابة واحوالهما كان ضبط احوالهما ممّا اعتنى به العلماء. فاستخرجوا من احوالهما علوما سمّوها بالعلوم الادبيّة لتوقّف ادب الدرس عليها بالذات وادب النفس بالواسطة وتعرف بها التفاهم عمّا في الضمائر

البحث الثاني

في تقسيم الادب وانواع العلوم الادبيّة

(عن الوطواط والجرجاني)

(راجع صفحة ٢ و٣ من تمهيد علم الادب)

ٱلْأَدَبُ نَوْعَانِ نَفْسِيٌّ وَكَسْبِيٌّ. فَٱلنَّفْسِيُّ بِتَوْفِيقِ ٱللهِ يَمْنَحُهُ لِمَنْ يُرِيدُ وَهُوَ مَا كَانَ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلدَّالَّةِ عَلَى كَرَمِ ٱلطِّبَاعِ. وَٱلْكَسْبِيُّ مَا ٱسْتَفَادَتْهُ ٱلْأَنْفُسُ مِنْ أَحَاسِنِ ٱلْأَقْوَالِ ٱلْآخِذَةِ بِإِعَانَةِ ٱلتَّأْدِيبِ وَٱلْأَسْمَاعِ وَهُوَ ٱلَّذِي تَرْجَمْتُ عَلَيْهِ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ يَقَعُ ذِكْرُهُ فِي ٱلنُّفُوسِ أَحْسَنَ مَوْقِعٍ لِتَرْمُقَهُ لِأَجْلِهِ ٱلْعُيُونُ بِٱلْإِجْلَالِ وَتَحِنُّ ٱلنُّفُوسُ بِهِ لِمَيْلِهَا إِلَيْهِ بِتَتَابُعِ ٱلْإِدْلَالِ

وَأَمَّا تَقْسِيمُ ٱلْأَدَبِ ٱلْكَسْبِيِّ فَإِنَّهُمُ ٱخْتَلَفُوا فِي أَقْسَامِهِ فَذَكَرَ ٱبْنُ ٱلْأَنْبَارِيِّ أَنَّهَا ثَمَانِيَةٌ وَقَسَمَهُ ٱلْعَلَّامَةُ ٱلْجُرْجَانِيُّ إِلَى ٱثْنَيْ عَشَرَ قِسْمًا فَقَالَ: لِعِلْمِ ٱلْأَدَبِ أُصُولٌ وَفُرُوعٌ. أَمَّا ٱلْأُصُولُ فَٱلْبَحْثُ فِيهَا: (١) إِمَّا (عَنِ ٱلْمُفْرَدَاتِ) مِنْ حَيْثُ جَوَاهِرِهَا وَمَوَادِّهَا وَهَيْئَاتِهَا فَعِلْمُ ٱللُّغَةِ. أَوْ مِنْ حَيْثُ صُوَرِهَا وَهَيْئَاتِهَا فَقَطْ فَعِلْمُ ٱلصَّرْفِ. أَوْ مِنْ حَيْثُ ٱنْتِسَابِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ بِٱلْأَصَالَةِ وَٱلْفَرْعِيَّةِ فَعِلْمُ ٱلِٱشْتِقَاقِ. (٢) وَإِمَّا (عَنِ ٱلْمُرَكَّبَاتِ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ). فَإِمَّا بِٱعْتِبَارِ هَيْئَاتِهَا ٱلتَّرْكِيبِيَّةِ وَتَأْدِيَتِهَا لِمَعَانِيهَا ٱلْأَصْلِيَّةِ فَعِلْمُ ٱلنَّحْوِ. وَإِمَّا بِٱعْتِبَارِ إِفَادَتِهَا لِمَعَانٍ مُغَايِرَةٍ لِأَصْلِ ٱلْمَعْنَى فَعِلْمُ ٱلْمَعَانِي. وَإِمَّا بِٱعْتِبَارِ كَيْفِيَّةِ تِلْكَ ٱلْإِفَادَةِ فِي مَرَاتِبِ ٱلْوُضُوحِ فَعِلْمُ

البيانِ. وعلمُ البديعِ ذيلٌ لعلمي المعاني والبيانِ داخلٌ تحتهما. (٣) وإمّا (عنِ المركّباتِ الموزونةِ) . فإمّا مِن حيثُ وزنها فعلمُ العروضِ أو مِن حيثُ أواخرِها فعلمُ القوافي

وأما الفروعُ فالبحثُ فيها إمّا أن يتعلّق بنقوشِ الكتابةِ فعلمُ الخطِ او يختصُ بالمنظومِ فالعلمُ المسمّى بقرضِ الشعرِ . أو بالنثرِ فعلمُ الانشاءِ . أو لا يختصُّ بشيءٍ فعلمُ المحاضراتِ ومنهُ التواريخ

البحث الثالث

في موضوع علم الادب واركانهِ

(مقدمة ابن خلدون)

(راجع صفحة ٣ من تمهيد علم الادب)

هذا العلمُ لا موضوعَ لهُ ينظرُ في إثباتِ عوارضهِ أو نفيها وإنّما المقصودُ منهُ عندَ أهلِ اللسانِ ثمرتهُ وهي الإجادةُ في فنّي المنظومِ والمنثورِ على أساليبِ العربِ ومناحيهم . فيجمعونَ لذلكَ من كلامِ العربِ ما عساهُ تحصلُ بهِ الكلمةُ من شعرٍ عالي الطبقةِ وسجعٍ متساوٍ في الإجادةِ ومسائلَ منَ اللغةِ والنحوِ مبثوثةٍ أثناءَ ذلكَ متفرّقةٍ يستقري منها الناظرُ في الغالبِ معظمَ قوانينِ العربيّةِ معَ ذكرِ بعضٍ من أيّامِ العربِ ليفهمَ بهِ ما يقعُ في أشعارِهم منها وكذلكَ ذكرُ المهمِّ منَ الأنسابِ الشهيرةِ والأخبارِ العامّةِ . والمقصودُ بذلكَ كلّهِ أن لا يخفى على الناظرِ فيهِ شيءٌ من كلامِ العربِ وأساليبهم

وَمَنَاحِي بَلَاغَتِهِمْ إِذَا تَصَفَّحَهُ . لِأَنَّهُ لَا تَحْصُلُ ٱلْمَلَكَةُ مِنْ حِفْظِهِ إِلَّا بَعْدَ فَهْمِهِ فَيَحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيمِ جَمِيعِ مَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ فَهْمُهُ . ثُمَّ انَّهُمْ إِذَا ارَادُوا حَدَّ هٰذَا ٱلْفَنِّ قَالُوا : ٱلْأَدَبُ هُوَ حِفْظُ اشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَاخْبَارِهَا وَٱلْأَخْذُ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ بِطَرَفٍ يُرِيدُونَ مِنْ عُلُومِ ٱللِّسَانِ اوِ ٱلْعُلُومِ ٱلشَّرْعِيَّةِ مِنْ حَيْثُ مُتُونُهَا فَقَطْ إِذْ لَا مَدْخَلَ لِغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْعُلُومِ فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ إِلَّا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ عِنْدَ كَلَفِهِمْ بِصِنَاعَةِ ٱلْبَدِيعِ مِنَ ٱلتَّوْرِيَةِ فِي اشْعَارِهِمْ وَتَرَسُّلِهِمْ بِٱلِاصْطِلَاحَاتِ ٱلْعِلْمِيَّةِ . فَٱحْتَاجَ صَاحِبُ هٰذَا ٱلْفَنِّ إِلَى ٱصْطِلَاحَاتِ ٱلْعُلُومِ لِيَكُونَ قَائِمًا عَلَى فَهْمِهَا : وَسَمِعْنَا مِنْ شُيُوخِنَا فِي مَجَالِسِ ٱلتَّعْلِيمِ انَّ اصُولَ هٰذَا ٱلْفَنِّ وَارْكَانَهُ ارْبَعَةُ دَوَاوِينَ وَهِيَ : ادَبُ ٱلْكَاتِبِ لِٱبْنِ قُتَيْبَةَ وَكِتَابُ ٱلْكَامِلِ لِلْمُبَرِّدِ وَكِتَابُ ٱلْبَيَانِ وَٱلتَّبْيِينِ لِلْجَاحِظِ وَكِتَابُ نَوَادِرِ لِأَبِي عَلِيٍّ ٱلْقَالِي ٱلْبَغْدَادِيِّ وَمَا سِوَى هٰذِهِ ٱلْأَرْبَعَةِ فَتَبَعٌ لَهَا وَفُرُوعٌ عَنْهَا وَكُتُبُ ٱلْمُحْدَثِينَ فِي ذٰلِكَ كَثِيرَةٌ . وَكَانَ ٱلْغِنَاءُ فِي ٱلصَّدْرِ ٱلْأَوَّلِ مِنْ اجْزَاءِ هٰذَا ٱلْفَنِّ لِمَا هُوَ تَابِعٌ لِلشِّعْرِ إِذِ ٱلْغِنَاءُ إِنَّمَا هُوَ تَلْحِينُهُ . وَكَانَ ٱلْكُتَّابُ وَٱلْفُضَلَاءُ مِنَ ٱلْخَوَاصِّ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَبَّاسِيَّةِ يَأْخُذُونَ انْفُسَهُمْ بِهِ حِرْصًا عَلَى تَحْصِيلِ اسَالِيبِ ٱلشِّعْرِ وَفُنُونِهِ فَلَمْ يَكُنِ ٱنْتِحَالُهُ قَادِحًا فِي ٱلْعَدَالَةِ وَٱلْمُرُوءَةِ وَقَدْ الَّفَ ٱلْقَاضِي ابُو ٱلْفَرَجِ ٱلْاصْبَهَانِيُّ فِي كِتَابِهِ فِي ٱلْأَغَانِي جَمَعَ فِيهِ اخْبَارَ ٱلْعَرَبِ وَاشْعَارَهُمْ وَانْسَابَهُمْ وَايَّامَهُمْ وَدُوَلَهُمْ . وَجَعَلَ مَبْنَاهُ عَلَى ٱلْغِنَاءِ فِي ٱلْمِائَةِ صَوْتٍ ٱلَّتِي ٱخْتَارَهَا ٱلْمُغَنُّونَ لِلرَّشِيدِ فَٱسْتَوْعَبَ فِيهِ ذٰلِكَ اتَمَّ ٱسْتِيعَابٍ وَاوْفَاهُ . وَلَعَمْرِي

إِنَّهُ دِيوَانُ ٱلْعَرَبِ وَجَامِعُ أَشْتَاتِ ٱلْمَحَاسِنِ وَٱلتَّأْرِيخِ وَٱلْغِنَاءِ وَسَائِرِ ٱلْأَحْوَالِ . وَلَا يُعْدَلُ بِهِ كِتَابٌ فِي ذٰلِكَ فِيمَا نَعْلَمُهُ وَهُوَ ٱلْغَايَةُ ٱلَّتِي يَسْمُو إِلَيْهَا ٱلْأَدِيبُ وَيَقِفُ عِنْدَهَا

البحث الرابع

في شرف الادب ومنافعهِ

(عن الثعالبي وابن عبد ربّهِ والوطواط)

(راجع صفحة ٢ من تمهيد علم الادب)

قَالَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ : ٱلرَّجُلُ بِلَا أَدَبٍ شَخْصٌ بِغَيْرِ آلَةٍ وَجَسَدٌ بِلَا رُوحٍ . وَقِيلَ : ٱلْأَدَبُ أَكْرَمُ ٱلْجَوَاهِرِ طَبِيعَةً وَأَنْفَسُهَا قِيمَةً فَٱطْلُبُوهُ فَإِنَّهُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْفَضْلِ وَٱلنَّبَاهَةِ وَمَادَّةٌ لِلْعَقْلِ وَدَلِيلٌ عَلَى ٱلْمُرُوءَةِ وَمَنْبَهَةٌ لِلرَّأْيِ وَلِلصَّوَابِ وَصَاحِبٌ فِي ٱلْغُرْبَةِ وَأَنِيسٌ فِي ٱلْوَحْدَةِ وَجَمَالٌ فِي ٱلْمَحَافِلِ وَصِلَةٌ فِي ٱلْمَجَالِسِ . وَإِذَا أَكْرَمَكَ ٱلنَّاسُ لِمَالٍ أَوْ سُلْطَانٍ فَلَا يُعْجِبْكَ ذٰلِكَ فَإِنَّ ٱلْكَرَامَةَ تَزُولُ بِزَوَالِهِمَا وَلْيُعْجِبْكَ إِذَا أَكْرَمُوكَ لِدِينٍ أَوْ أَدَبٍ . قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

إِذَا ٱلْفَتَى فَاتَهُ مَالٌ يُجَمِّلُهُ   فَفِي ٱلتَّأَدُّبِ مِمَّا فَاتَهُ خَلَفُ
هُوَ ٱللِّبَاسُ ٱلَّذِي لَا شَيْءَ يَعْدِلُهُ   وَٱلْمَفْخَرُ ٱلدِّينُ فِيهِ ٱلْفَضْلُ وَٱلشَّرَفُ

قَالَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ لِبَنِيهِ : تَأَدَّبُوا فَإِنْ كُنْتُمْ مُلُوكًا بَرَزْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ أَوْسَاطًا فُقْتُمْ وَإِنْ أَعْوَزَكُمُ ٱلْمَعَاشُ عِشْتُمْ . وَقِيلَ : إِنَّ ٱلْأَدَبَ يُفِيدُ ٱلرَّغَائِبَ ٱلْجَلِيلَةَ وَيُعِزُّ بِلَا عَشِيرَةٍ وَيُكْثِرُ ٱلْأَنْصَارَ بِغَيْرِ

رذيلة . قال بزرجمهر : من كثر ادبه كثر شرفه وان كان وضيعا . وبعد صيته وان كان خاملاً . وساد وان كان غريبا وكثرت حوائج الناس اليه وان كان فقيرا . وقالوا : من دأب في طريق الادب ادرك حاجته وملك ناصيته ونبل قدره ونبه ذكره . ينوب الادب عن النسب ولا ينفع نسب بلا ادب وقال الشاعر :

كم من خسيس وضيع القدر ليس له   في العز بيت ولا ينمى الى نسب
قد صار بالادب المحمود ذا شرف   غالٍ وذا حسب محض وذا نشب
يعلي التأدب اقواما ويرفعهم   حتى يساووا ذوي العليا في الرتب

وما احسن قول بعض الاعاجم يفتخر ويعتذر :

ما لي عقلي وهمتي حسبي   ما انا مولى ولا انا عربي
واذا انتمى منتم الى احد   فانني منتم الى ادبي

فالبسوا اذا الادب حلة وتزينوه حلية فانه انفق معاش واجمل رياش ان احتجتم اليه كان لكم مالا وان استغنيتم عنه كان لكم جمالا

فصلٌ في قوى العقل الغريزيَّة

البحث الاوَّل

في العقل وشرفهِ واصل تسميتهِ وتقسيمهِ

(عن الماوردي باختصار وتصرُّف)

(راجع صفحة ٣ من توطئة علم الادب)

اِعلَمْ اَنَّ لِكلِّ فضيلةٍ اُسًّا ولكلِّ ادبٍ ينبوعًا. وأُسُّ الفضائلِ وينبوعُ الآدابِ هوَ العقلُ الَّذي جعلهُ اللهُ تعالى للدِّينِ اصلًا وللدُّنيا عِمادًا فاوجبَ الدِّينَ بكمالِهِ وجعلَ الدُّنيا مُدبَّرةً باحكامِهِ وألَّفَ بهِ بَينَ خلقِهِ معَ اختلافِ هِمَمِهِمْ ومآربِهِمْ . قالَ بعضُ البُلغاء : العقلُ خيرُ المواهبِ والجهلُ شرُّ المصائبِ . قالَ اِبراهيمُ بنُ حسَّانَ :

يَزِينُ الفتى في النَّاسِ صِحَّةُ عقلِهِ ... وَإِنْ كانَ محظورًا عليهِ مكاسِبُهْ
يَشِينُ الفتى في النَّاسِ قِلَّةُ عقلِهِ ... وَإِنْ كَرُمَتْ اعراقُهُ ومناسِبُهْ
يَعيشُ الفتى بالعقلِ في النَّاسِ اِنَّهُ ... على العقلِ يجري عِلمُهُ وتجارِبُهْ
وافضلُ قسمِ اللهِ لِلمرءِ عقلُهُ ... فليسَ مِنَ الاشياءِ شيءٌ يُقارِبُهْ
اِذا اكملَ الرَّحمانُ لِلمرءِ عقلَهُ ... فقدْ كَمُلَتْ اخلاقُهُ ومآرِبُهْ

وقالَ مُطرِّفٌ : ما اُوتيَ العبدُ بعدَ الايمانِ باللهِ تعالى افضلَ مِنَ العقلِ . ويُقالُ : ما تمَّ دِينُ امرئٍ حتَّى يتمَّ عقلُهُ . قالَ بزرجمهر : العقلُ كالمِسكِ اِنْ خبأتهُ عبقَ وَإِنْ بِعتَهُ نفقَ . وقالوا : العقلُ كنورٍ وضعَهُ اللهُ طبعًا وغرزَهُ في القلبِ كالنُّورِ في العينِ وهوَ البصرُ .

وَكَمَا يُدرَكُ بِٱلْبَصَرِ شَوَاهِدُ ٱلأُمُورِ كَذَلِكَ يُدرَكُ بِنُورِ ٱلْعَقْلِ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْمَحْجُوبِ وَٱلْمَسْتُورِ. وَعَمَى ٱلْقَلْبِ كَعَمَى ٱلْبَصَرِ. قال بُزرجمهر: ٱلإِنْسَانُ صُورَةٌ فِيهَا عَقْلٌ فَإِنْ أَخطَأَهُ ٱلْعَقْلُ وَلَزِمَتْهُ ٱلصُّورَةُ فَلَيسَ بِإِنْسَانٍ. قَالَ ٱلْمُتَنَبِّي:

لَوْلَا ٱلْعُقُولُ لَكَانَ أَدْنَى ضَيْغَمٍ   أَدْنَى إِلَى شَرَفٍ مِنَ ٱلإِنْسَانِ

وَسُمِّيَ ٱلْعَقْلُ عَقْلًا تَشْبِيهًا بِعَقْلِ ٱلنَّاقَةِ (١) لِأَنَّ ٱلْعَقْلَ يَمْنَعُ ٱلإِنْسَانَ مِنَ ٱلإِقْدَامِ عَلَى شَهَوَاتِهِ إِذَا قَبُحَتْ كَمَا يَمْنَعُ ٱلْعِقَالُ ٱلنَّاقَةَ مِنَ ٱلشُّرُودِ إِذَا نَفَرَتْ. وَلِذَلِكَ قَالَ عَامِرُ بْنُ قَيْسٍ: إِذَا عَقَلَكَ عَقْلُكَ عَمَّا لَا يَنْبَغِي فَأَنْتَ عَاقِلٌ

البحث الثاني

في تقسيم العقل الى غريزيّ ومكتسَب

(عن الوطواط والماوردي)

اِعْلَمْ أَنَّ بِٱلْعَقْلِ تُعْرَفُ حَقَائِقُ ٱلأُمُورِ وَيُفْصَلُ بَيْنَ ٱلْحَسَنَاتِ وَٱلسَّيِّئَاتِ وَقَدْ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ غَرِيزِيٌّ وَمُكْتَسَبٌ. قَالَ أَحَدُهُمْ: ٱلْعَقْلُ عَقْلَانِ عَقْلٌ تَفَرَّدَ ٱللهُ بِصُنْعِهِ وَهُوَ ٱلأَصْلُ. وَعَقْلٌ يَسْتَفِيدُهُ ٱلْمَرْءُ بِهِ وَهُوَ ٱلْفَرْعُ فَإِذَا ٱجْتَمَعَا قَوَّى كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ تَقْوِيَةَ ٱلنَّارِ فِي ٱلظُّلْمَةِ. وَلِذَلِكَ قَالَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ:

رَأَيْتُ ٱلْعَقْلَ عَقْلَيْنِ   فَمَطْبُوعٌ وَمَسْمُوعٌ

---

١ يُقال عقَل الناقة عقلا اي ربطها في وسط ذراعها بحبل ويسمَّى الحبل عقالا

فَلَا يَنْفَعُ مَسْمُوعٌ ... إِذَا لَمْ يَكُ مَطْبُوعُ
كَمَا لَا تَنْفَعُ ٱلشَّمْسُ ... وَضَوْءُ ٱلْعَيْنِ مَمْنُوعُ *

البحث الثالث

في العقل الغريزيّ وتعريفه

(عن الماوردي باختصار)

إِنَّ ٱلْعَقْلَ ٱلْغَرِيزِيَّ هُوَ ٱلْعَقْلُ ٱلْحَقِيقِيُّ وَلَهُ حَدٌّ يَتَعَلَّقُ بِهِ ٱلتَّكْلِيفُ لَا يُجَاوِزُهُ إِلَى زِيَادَةٍ وَلَا يَقْصُرُ عَنْهُ إِلَى نُقْصَانٍ • وَبِهِ

* قد قسَّم القزوينيُّ القوى العقلية الى اربعة اقسام مرجعها الى هذين القسمين قال: القوى العقلية اربعة اقسام. (الاول) القوة التي بها يفارق الانسان البهائم وهي التي بها استعدّ لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الفكريّة فيقال انها القوة الغريزيّة بها يستعدّ الانسان لادراك العلوم النظريّة. فكما ان الحياة هي الجسم للحركات الاختياريّة والادراكات الحسيّة فكذلك هذه القوّة الغريزيّة تهيئة الانسان للعلوم النظريّة والصناعات الفكريّة والحكماء يقولون لها العقل الهيولاني وهي مجرّد الاستعداد الذي هو موجود في الطفل وغير موجود في ولد البهيمة. (الثاني) القوّة التي تخرج الى الوجود في ذات الطفل المميّز جواز الجائزات واستحالة المستحيلات كالعلم بأن الاثنين اكثر من الواحد والشخص الواحد لا يكون في مكانين فيقال انها التصوّرات والتصديقات الحاصلة للنفس بالفطرة والحكماء يسمونهُ العقل بالملكة. (والثالث) قوّة تحصل بها العلوم المستفادة من التجارب بمجاري الاحوال فمن اتّصف بها يقال انهُ عاقل في العادة ومن لم يتّصف بها يقال انهُ غبيٌّ غمر. فيقال لها معانٍ مجتمعة في الذهن من مقدّمات تستنبط بها المصالح في الاعراض. (والرابع) قوّة بها تُعرف حقائق الامور وعواقبها فتقمع الشهوة الداعية الى اللذة العاجلة وتحتمل المكروه العاجل لسلامة الآجل. فاذا حصلت هذه القوّة يسمّى صاحبها عاقلا من حيث ان اقدامهُ واحجامهُ بحسب ما يقتضيهِ النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة. والأوّلان بالطبع والأخيران بالاكتساب

يمْتَازُ ٱلإنسَانُ عَنْ سائِرِ ٱلحَيَوَانِ فَإِذَا تَمَّ فِي ٱلإنْسَانِ سُمِّيَ عَاقِلاً وَخَرَجَ بِهِ إِلَى حَدِّ ٱلْكَمَالِ كَمَا قَالَ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ ٱلقُدُّوسِ :

اذَا تَمَّ عَقْلُ ٱلْمَرْءِ تَمَّتْ أُمُورُهُ وَتَمَّتْ أَمَانِيهِ وَتَمَّ بِنَاؤُهُ

وَٱخْتَلَفَ ٱلنَّاسُ فِي حَدِّ ٱلعَقْلِ وَفِي صِفَتِهِ عَلَى مَذَاهِبَ شَتَّى فقال قَوْمٌ : هُوَ جَوْهَرٌ لَطِيفٌ يُفْصَلُ بِهِ بَيْنَ ٱلحَقَائِقِ ٱلمَعْلُومَاتِ .. وهذا ٱلقَوْلُ فِي ٱلعَقْلِ بِأَنَّهُ جَوْهَرٌ لَطِيفٌ فَاسِدٌ مِنْ وَجْهَيْنِ : (احدهما) أَنَّ ٱلجَوَاهِرَ مُتَمَاثِلَةٌ فَلَا يَصِحُّ أَنْ يُوجِبَ بَعْضُهَا مَا لَا يُوجِبُ سائرها وَلَوْ أَوْجَبَ سَائِرُهَا مَا يُوجِبُ بَعْضُهَا لَاسْتَغْنَى ٱلعَاقِلُ بوجود نفسه عَنْ وُجُودِ عَقْلِهِ(١) . (وَٱلثَّانِي) أَنَّ ٱلجَوْهَرَ يَصِحُّ قِيَامُهُ بذاته فلو كان ٱلعقل جَوْهَرًا لَجَازَ أَنْ يَكُونَ عَقْلٌ بِغَيْرِ عَاقِلٍ كَمَا جاز أن يَكُونَ جسم بغير عَقْلٍ . فَٱمْتَنَعَ بِهَذَيْنِ أَنْ يَكُونَ ٱلعَقْلُ جَوْهَرًا . وَقَالَ آخرون : العقل هُوَ ٱلمُدْرِكُ لِلْأَشْيَاءِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ حَقَائِقِ ٱلمَعْنَى . وَهذ ٱلقول وَإِنْ كَانَ أَقْرَبَ مِمَّا قَبْلَهُ فَبَعِيدٌ مِنَ ٱلصَّوَابِ مِنْ وجه واحد وهو : أَنَّ ٱلإِدْرَاكَ مِنْ صِفَاتِ ٱلحَيِّ (٢) وَٱلعَقْلُ عَرَضٌ يَسْتَحِيلُ ذلك منه كما يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ مُتَلَذِّذًا أَوْ آلِمًا أَوْ مُشْتَهِيًا (٣) . وقال آخرون من

---

(١) يُريد انهُ لو كان العقل جوهراً مختلفاً عن جوهر النفس ملازماً له لا ينفك في جميع اجزائها لان النفس والعقل بسيطان متماثلان في ذلك واذا تمَّ الاتفاق كان جوهر النفس وجوهر العقل واحدًا فيستغني الانسان عن عقلهِ بوجود نفسه وهذا باطل

(٢) يُريد هنا بالادراك على ما حدَّهُ الحكماء تمثل حقيقة الشيء وحده من غير حكم عليهِ او اثبات ويُسمَّى ايضاً التصوُّر وهذا يعمُّ كل حيّ لا يختص بالانسان فقط

(٣) اي ان العقل لا يمكنهُ ادراك هذه الجزئيات كما يستحيل عليهِ ان يكون ملتذاً او آلمًا او مشتهياً . لان اللذَّة والألم والشهوة من الانفعالات الطارئة على المدرك

ٱلْمُتَكَلِّمِينَ : ٱلْعَقْلُ هُوَ جُمْلَةُ عُلُومٍ ضَرُورِيَّةٍ . وَهٰذَا ٱلْحَدُّ غَيْرُ مَحْصُورٍ لِمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ ٱلْإِجْمَالِ وَتَنَاوَلَهُ مِنَ ٱلْإِحْتِمَالِ . وَٱلْحَدُّ إِنَّمَا هُوَ بَيَانُ ٱلْمَحْدُودِ بِمَا يَنْفِي عَنْهُ ٱلْإِجْمَالَ وَٱلْإِحْتِمَالَ . وَقَالَ آخَرُونَ وَهُوَ ٱلْقَوْلُ ٱلصَّحِيحُ : إِنَّ ٱلْعَقْلَ هُوَ ٱلْعِلْمُ بِٱلْمُدْرَكَاتِ ٱلضَّرُورِيَّةِ . وَذٰلِكَ نَوْعَانِ : أَحَدُهُمَا مَا وَقَعَ عَنْ دَرْكِ ٱلْحَوَاسِّ وَٱلثَّانِي مَا كَانَ مُبْتَدِئًا فِي ٱلنُّفُوسِ . فَأَمَّا مَا كَانَ وَاقِعًا عَنْ دَرْكِ ٱلْحَوَاسِّ فَمِثْلُ ٱلْمَرْئِيَّاتِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلنَّظَرِ وَٱلْأَصْوَاتِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلسَّمْعِ وَٱلطُّعُومِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلذَّوْقِ وَٱلرَّوَائِحِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلشَّمِّ وَٱلْأَجْسَامِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱللَّمْسِ . فَإِذَا كَانَ ٱلْإِنْسَانُ مِمَّنْ لَوْ أَدْرَكَ بِحَوَاسِّهِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ ثَبَتَ لَهُ هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْعِلْمِ . لِأَنَّ خُرُوجَهُ فِي حَالِ تَغْمِيضِ عَيْنَيْهِ مِنْ أَنْ يُدْرِكَ بِهِمَا وَيَعْلَمَ لَا يُخْرِجُهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ كَامِلَ ٱلْعَقْلِ مِنْ حَيْثُ عَلِمَ مِنْ حَالِهِ أَنْ لَوْ أَدْرَكَ لَعَلِمَ . وَأَمَّا مَا كَانَ مُبْتَدِئًا فِي ٱلنُّفُوسِ فَكَٱلْعِلْمِ بِأَنَّ ٱلشَّيْءَ لَا يَخْلُو مِنْ وُجُودٍ أَوْ عَدَمٍ . وَأَنَّ ٱلْمَوْجُودَ لَا يَخْلُو مِنْ حُدُوثٍ أَوْ قِدَمٍ . وَأَنَّ مِنَ ٱلْمُحَالِ ٱجْتِمَاعَ ٱلضِّدَّيْنِ . وَأَنَّ ٱلْوَاحِدَ أَقَلُّ مِنَ ٱلْإِثْنَيْنِ . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْعِلْمِ لَا يَجُوزُ أَنْ يَنْتَفِيَ عَنِ ٱلْعَاقِلِ مَعَ سَلَامَةِ حَالِهِ وَكَمَالِ عَقْلِهِ . فَإِذَا صَارَ عَالِمًا بِٱلْمُدْرَكَاتِ ٱلضَّرُورِيَّةِ مِنْ هٰذَيْنِ ٱلنَّوْعَيْنِ فَهُوَ كَامِلُ ٱلْعَقْلِ

الانساني . ولإدراك العقل يقتضي ان تجرّد مادّته عن المحسوسات وهذا ما يصيّره العقل بالفعل فتنتقل المفردات بذلك الى حالة الكليّات

البحث الرابع

في العقل المكتسب

(عن الماوردي)

إنَّ ٱلعَقْلَ ٱلْمُكْتَسَبَ هُوَ نَتِيجَةُ ٱلعَقْلِ ٱلغَرِيزِيِّ وهو نهايةُ ٱلْمَعْرِفَةِ وَصِحَّةِ ٱلسِّيَاسَةِ وَإِصَابَةِ ٱلفِكْرَةِ وَلَيْسَ لِهٰذَا حَدٌّ لِأَنَّهُ يَنْمِي إِنِ ٱسْتُعْمِلَ وَيَنْقُصُ إِنْ أُهْمِلَ ۰ وَنَمَاؤُهُ يَكُونُ بِأَحَدِ وَجْهَيْنِ : (ٱلوَجْهُ ٱلأَوَّلُ) بِكَثْرَةِ ٱلِاسْتِعْمَالِ إِذَا لَمْ يُعَارِضْهُ مَانِعٌ مِنْ هَوًى وَلَا صَادٌّ مِنْ شَهْوَةٍ كَٱلَّذِي يَحْصُلُ لِذَوِي ٱلأَسْنَانِ مِنَ ٱلْحُنْكَةِ وَصِحَّةِ ٱلرَّوِيَّةِ لِكَثْرَةِ ٱلتَّجَارِبِ وَمُمَارَسَةِ ٱلأُمُورِ ۰ وَلِذٰلِكَ حَمِدَتِ ٱلعَرَبُ آرَاءَ ٱلشُّيُوخِ حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ : ٱلْمَشَايِخُ أَشْجَارُ ٱلوَقَارِ ۰ وَمَنَاجِعُ ٱلأَخْبَارِ ۰ لَا يَطِيشُ لَهُمْ سَهْمٌ ۰ وَلَا يَسْقُطُ لَهُمْ وَهْمٌ ۰ إِنْ رَأَوْكَ فِي قَبِيحٍ صَدُّوكَ ۰ وَإِنْ أَبْصَرُوكَ عَلَى جَمِيلٍ أَمَدُّوكَ ۰ وَقِيلَ: عَلَيْكُمْ بِآرَاءِ ٱلشُّيُوخِ فَإِنَّهُمْ إِنْ فَقَدُوا ذَكَاءَ ٱلطَّبْعِ فَقَدْ مَرَّتْ عَلَى عُيُونِهِمْ وُجُوهُ ٱلعِبَرِ ۰ وَتَصَدَّتْ لِأَسْمَاعِهِمْ آثَارُ ٱلغِيَرِ ۰ وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ ٱلْحِكَمِ : مَنْ طَالَ عُمْرُهُ نَقَصَتْ قُوَّةُ بَدَنِهِ وَزَادَتْ قُوَّةُ عَقْلِهِ: وَقَالَ فِيهِ : لَا تَدَعُ ٱلأَيَّامُ جَاهِلاً إِلَّا أَدَّبَتْهُ ۰ وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : كَفَى بِٱلتَّجَارِبِ تَأَدُّبًا وَبِتَقَلُّبِ ٱلأَيَّامِ عِظَةً ۰ وَقَالَ بَعْضُ ٱلبُلَغَاءِ : ٱلتَّجْرِبَةُ مِرْآةُ ٱلعَقْلِ ۰ وَٱلغِرَّةُ ثَمَرَةُ ٱلْجَهْلِ ۰ وَقَالَ بَعْضُ ٱلأُدَبَاءِ : كَفَى مُخْبِرًا عَمَّا بَقِيَ مَا مَضَى وَكَفَى عِبَرًا لِأُولِي ٱلأَلْبَابِ مَا جَرَّبُوا ۰ وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْعَقْلَ زَيْنٌ لِأَهْلِهِ   وَلٰكِنْ تَمَامُ ٱلْعَقْلِ طُولُ ٱلتَّجَارِبِ

وَقَالَ آخَرُ:

إِذَا طَالَ عُمْرُ ٱلْمَرْءِ فِي غَيْرِ آفَةٍ   أَفَادَتْ لَهُ ٱلْأَيَّامُ فِي كَرِّهَا عَقْلَا

(وَأَمَّا ٱلْوَجْهُ ٱلثَّانِي) فَقَدْ يَكُونُ بِفَرْطِ ٱلذَّكَاءِ وَحُسْنِ ٱلْفِطْنَةِ وَذٰلِكَ جُودَةُ ٱلْحَدْسِ فِي زَمَانٍ غَيْرِ مُهْمَلٍ لِلْحَدْسِ. فَإِذَا ٱمْتَزَجَ بِٱلْعَقْلِ ٱلْغَرِيزِيِّ صَارَتْ نَتِيجَتُهُمَا نُمُوُّ ٱلْعَقْلِ ٱلْمُكْتَسَبِ. كَالَّذِي يَكُونُ فِي ٱلْأَحْدَاثِ مِنْ وُفُورِ ٱلْعَقْلِ وَجُودَةِ ٱلرَّأْيِ حَتَّى قَالَ هَرِمُ بْنُ قُطْبَةَ حِينَ تَنَافَرَ إِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ ٱلطُّفَيْلِيِّ وَعَلْقَمَةُ بْنُ عَلَاثَةَ: عَلَيْكُمْ بِٱلْحَدِيثِ ٱلسِّنِّ. ٱلْحَدِيدِ ٱلذِّهْنِ. وَلَعَلَّ هَرِمًا أَرَادَ أَنْ يَدْفَعَهُمَا عَنْ نَفْسِهِ فَٱعْتَذَرَ بِمَا قَالَ. لٰكِنْ لَمْ يُنْكِرَا قَوْلَهُ إِذْعَانًا لِلْحَقِّ فَصَارَا إِلَى أَبِي جَهْلٍ لِحَدَاثَةِ سِنِّهِ وَحِدَّةِ ذِهْنِهِ. فَأَبَى أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَهُمَا فَرَجَعَا إِلَى هَرِمٍ فَحَكَمَ بَيْنَهُمَا. وَفِيهِ قَالَ لَبِيدٌ:

يَا هَرِمُ ٱبْنَ ٱلْأَكْرَمِينَ مَنْصِبَا   إِنَّكَ قَدْ أُوتِيتَ حُكْمًا مُعْجِبَا

وَقَدْ قَالَتِ ٱلْعَرَبُ: عَلَيْكُمْ بِمُشَاوَرَةِ ٱلشَّبَابِ فَإِنَّهُمْ يُنْتِجُونَ رَأْيًا لَمْ يَنَلْهُ طُولُ ٱلْقِدَمِ. وَلَا ٱسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ رُطُوبَةُ ٱلْهَرَمِ. وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

رَأَيْتُ ٱلْعَقْلَ لَمْ يَكُنِ ٱنْتِهَابًا   وَلَمْ يُقْسَمْ عَلَى عَدَدِ ٱلسِّنِينَا

وَلَوْ أَنَّ ٱلسِّنِينَ تَقَاسَمَتْهُ   حَوَى ٱلْآبَاءُ أَنْصِبَةَ ٱلْبَنِينَا

وَحَكَى ٱلْأَصْمَعِيُّ قَالَ: قُلْتُ لِغُلَامٍ حَدَثٍ مِنْ أَوْلَادِ ٱلْعَرَبِ كَانَ يُحَادِثُنِي فَأَمْتَعَنِي بِفَصَاحَةٍ وَمَلَاحَةٍ: أَيَسُرُّكَ أَنْ يَكُونَ لَكَ

مِئَةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَأَنتَ أَحمَقُ . قَالَ : لَا . قُلْ : فَقُلْتُ : وَلِمَ . قَالَ : أَخَافُ أَنْ يَجْنِيَ عَلَيَّ حُمْقِي جِنَايَةً تَذْهَبُ بِمَالِي وَيَبْقَى عَلَيَّ حُمْقِي . فَانْظُرْ إِلَى هٰذَا الصَّبِيِّ كَيْفَ اسْتَخْرَجَ بِفَرْطِ ذَكَائِهِ وَاسْتَنْبَطَ بِجُودَةِ قَرِيحَتِهِ مَا لَعَلَّهُ يَدِقُّ عَلَى مَنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ سِنًّا وَأَكْثَرُ تَجْرِبَةً . وَأَحْسَنُ مِنْ هٰذَا الذَّكَاءِ وَالْفِطْنَةِ مَا حَكَى ابْنُ قُتَيْبَةَ : إِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مَرَّ بِصِبْيَانٍ يَلْعَبُونَ وَفِيهِمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ فَهَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا عَبْدَ اللهِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : مَا لَكَ لَا تَهْرُبُ مَعَ أَصْحَابِكَ . فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ أَكُنْ عَلَى رِيبَةٍ فَأَخَافَكَ وَلَمْ يَكُنِ الطَّرِيقُ ضَيِّقًا فَأُوسِعَ لَكَ . فَانْظُرْ مَا تَضَمَّنَهُ هٰذَا الْجَوَابُ مِنَ الْفِطْنَةِ وَقُوَّةِ الْمُنَّةِ وَحُسْنِ الْبَدِيهَةِ كَيْفَ نَفَى عَنْهُ اللَّوْمَ وَأَثْبَتَ لَهُ الْحُجَّةَ فَلَيْسَ لِلذَّكَاءِ غَايَةٌ . وَلَا لِجُودَةِ الْقَرِيحَةِ نِهَايَةٌ

البحث الخامس

في التصوُّر والتمثُّل

(من كتاب زجر النفس لهرمس)

يَا نَفْسُ إِنَّ مُبْدِعَ الْأَشْيَاءِ وَمُنْشِئَهَا جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ أَبْدَعَكِ وَجَعَلَكِ ذَاتَ التَّصَوُّرِ وَالتَّمَثُّلِ . فَأَمَّا التَّصَوُّرُ فَتَصَوُّرُكِ الشَّيْءَ عَلَى حَقِيقَةِ مَا أَبْدَعَهُ مُبْدِعُهُ . وَأَمَّا التَّمَثُّلُ فَتَمَثُّلُكِ مَا خَفِيَ عَنْكِ مِنْ عَالَمِ الْعَقْلِ بِمَا شَاهَدْتِهِ فِي عَالَمِ الْحِسِّ مِثْلًا بِمِثْلٍ وَمَعْنًى بِمَعْنًى كَمَا أَنْ تَدُلَّ ذَاتُ الصُّورَةِ الْمَطْبُوعَةِ فِي الشَّمْعِ عَلَى مَعْنَاهُ وَحَقِيقَتِهِ فِي الطَّابِعِ وَكَمَا تَدُلُّ الصُّورَةُ الْمُمَثَّلَةُ فِي الطَّابِعِ عَلَى مَعْنَى حَقِيقَتِهِ فِي نَفْسِ مُمَثِّلِهَا وَمُصَوِّرِهَا وَكَمَا يُؤَثِّرُ الْآثَارُ فِي الزَّمَانِ مَعَانِي حَرَكَاتِهِ وَتَوَجُّهِ

البحث السادس

الخيالُ والخيالي

(عن الحاج خلفا بتصرّف)

(راجع صفحة ٥ من توطئة عام الادب)

اَلْخَيَالُ فِي ٱللُّغَةِ بِمَعْنَى ٱلشَّخصِ وَعِنْدَ ٱلْحُكَمَاءِ يُطْلَقُ عَلَى إِحدَى ٱلْحَوَاسِّ ٱلْبَاطِنَةِ. وَهُوَ قُوَّةٌ تَحْفَظُ ٱلصُّوَرَ ٱلْمُرْتَسِمَةَ فِي ٱلْحِسِّ ٱلْمُشْتَرَكِ إِذَا غَابَتْ تِلْكَ ٱلصُّوَرُ عَنِ ٱلْحَوَاسِّ ٱلْبَاطِنَةِ . وَمَحَلُّهُ مُؤَخَّرُ ٱلتَّجْوِيفِ ٱلْاوَّلِ مِنَ ٱلتَّجَاوِيفِ ٱلثَّلَاثَةِ لِلدِّمَاغِ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ (١). وَٱسْتَدَلُّوا عَلَى وُجُودِ ٱلْخَيَالِ بِأَنَّا إِذَا شَاهَدْنَا صُورَةً ثُمَّ ذَهِلْنَا عَنْهَا زَمَانًا ثُمَّ نُشَاهِدُ مَرَّةً أُخْرَى نَحْكُمُ عَلَيْهَا بِأَنَّهَا هِيَ ٱلَّتِي شَاهَدْنَاهَا قَبْلَ ذٰلِكَ . فَلَوْ لَمْ تَكُنْ تِلْكَ ٱلصُّورَةُ مَحْفُوظَةً فِينَا زَمَانَ ٱلذُّهُولِ لَٱمْتَنَعَ ٱلْحُكْمُ بِأَنَّهَا هِيَ ٱلَّتِي شَاهَدْنَاهَا قَبْلَ ذٰلِكَ. (وَٱلْخَيَالِيُّ) يُطْلَقُ عَلَى ٱلصُّورَةِ ٱلْمُرْتَسِمَةِ فِي ٱلْخَيَالِ ٱلْمُتَأَدِّيَةِ إِلَيْهِ مِنْ طُرُقِ ٱلْحَوَاسِّ. وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى ٱلْمَعْدُومِ ٱلَّذِي ٱخْتَرَعَتْهُ ٱلْمُتَخَيِّلَةُ وَرَكَّبَتْهُ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْمَحْسُوسَةِ أَيِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلْحَوَاسِّ ٱلظَّاهِرَةِ . وَبِقَوْلِنَا مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْمَحْسُوسَةِ خَرَجَ ٱلْوَهْمِيُّ بِمَعْنَى مَا ٱخْتَرَعَتْهُ ٱلْقُوَّةُ ٱلْمُتَخَيِّلَةُ ٱخْتِرَاعًا صِرْفًا عَلَى نَحْوِ ٱلْمَحْسُوسَاتِ وَبِهٰذَا ٱلْمَعْنَى يُسْتَعْمَلُ فِي بَابِ ٱلتَّشْبِيهِ كَمَا فِي قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

وَكَأَنَّ مُحْمَرَّ ٱلشَّقِيقِ م إِذَا تَصَوَّبَ أَوْ تَصَعَّدْ
أَعْلَامُ يَاقُوتٍ نُشِرْ نَ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبَرْجَدْ

(١) ليس هذا الرأي بمقرَّر

فَإِنَّ ٱلْأَعْلَامَ ٱلْيَاقُوتِيَّةَ ٱلْمَنْشُورَةَ عَلَى ٱلرِّمَاحِ ٱلزَّبَرْجَدِيَّةِ مِمَّا لَا يُدْرِكُهُ ٱلْحِسُّ لِأَنَّ ٱلْحِسَّ إِنَّمَا يُدْرِكُ مَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي ٱلْمَادَّةِ حَاضِرَةً عِنْدَ ٱلْمُدْرِكِ عَلَى هَيْئَاتٍ مَحْسُوسَةٍ مَخْصُوصَةٍ بِهِ. لٰكِنَّ مَادَّتَهُ ٱلَّتِي يَتَرَكَّبُ هُوَ مِنْهَا كَٱلْأَعْلَامِ وَٱلْيَاقُوتِ وَٱلرِّمَاحِ وَٱلزَّبَرْجَدِ كُلٌّ مِنْهَا مَحْسُوسٌ بِٱلْبَصَرِ

البحث السابع

في الحافظة

(عن الماوَردي باختصار)

(راجع صفحة ٥٥٦ من توطئة علم الادب)

رُبَّمَا ٱسْتَثْقَلَ ٱلْمُتَعَلِّمُ ٱلدَّرْسَ وَٱلْحِفْظَ وَٱتَّكَلَ بَعْدَ فَهْمِ ٱلْمَعَانِي عَلَى ٱلرُّجُوعِ إِلَى ٱلْكُتُبِ وَٱلْمُطَالَعَةِ فِيهَا عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ فَلَا يَكُونُ إِلَّا كَمَنْ أَطْلَقَ مَا صَادَهُ ثِقَةً بِٱلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ بَعْدَ ٱلِٱمْتِنَاعِ مِنْهُ فَلَا تُعْقِبُهُ ٱلثِّقَةُ إِلَّا خَجَلًا وَٱلتَّفْرِيطُ إِلَّا نَدَمًا . وَهٰذِهِ حَالٌ قَدْ يَدْعُو إِلَيْهَا أَحَدُ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : ٱلضَّجَرُ مِنْ مُعَانَاةِ ٱلْحِفْظِ وَمُرَاعَاتِهِ وَطُولُ ٱلْأَمَلِ فِي ٱلتَّوَفُّرِ عَلَيْهِ عِنْدَ نَشَاطِهِ وَفَسَادُ ٱلرَّأْيِ فِي عَزِيمَتِهِ وَلَيْسَ يَعْلَمُ أَنَّ ٱلضَّجُورَ خَائِبٌ وَأَنَّ ٱلطَّوِيلَ ٱلْأَمَلِ مَغْرُورٌ وَأَنَّ ٱلْفَاسِدَ ٱلرَّأْيِ مُصَابٌ . وَٱلْعَرَبُ تَقُولُ فِي أَمْثَالِهَا: حَرْفٌ فِي قَلْبِكَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفٍ فِي كُتُبِكَ . وَقَالُوا : لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا يَعْبُرُ مَعَكَ ٱلْوَادِي وَلَا يَعْمُرُ بِكَ ٱلنَّادِي . وَأُنْشِدْتُ عَنِ ٱلرَّبِيعِ لِلشَّافِعِيِّ :

عِلْمِي مَعِي حَيْثُ مَا يَمَّمْتُ يَنْفَعُنِي
قَلْبِي وِعَاءٌ لَهُ لَا بَطْنُ صُنْدُوقِ
إِنْ كُنْتُ فِي ٱلْبَيْتِ كَانَ ٱلْعِلْمُ فِيهِ مَعِي
أَوْ كُنْتُ فِي ٱلسُّوقِ كَانَ ٱلْعِلْمُ فِي ٱلسُّوقِ

وَرُبَّمَا ٱعْتَنَى ٱلْمُتَعَلِّمُ بِٱلْحِفْظِ مِنْ غَيْرِ تَصَوُّرٍ وَلَا فَهْمٍ حَتَّى يَصِيرَ حَافِظًا لِأَلْفَاظِ ٱلْمَعَانِي قَيِّمًا بِتِلَاوَتِهَا وَهُوَ لَا يَتَصَوَّرُهَا وَلَا يَفْهَمُ مَا تَضَمَّنَهَا يَرْوِي بِغَيْرِ رَوِيَّةٍ وَيُخْبِرُ عَنْ غَيْرِ خِبْرَةٍ فَهُوَ كَٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي لَا يَدْفَعُ شُبْهَةً وَلَا يُؤَيِّدُ حُجَّةً وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْحَدِيثِ: هِمَّةُ ٱلسُّفَهَاءِ ٱلرِّوَايَةُ. وَهِمَّةُ ٱلْعُلَمَاءِ ٱلرِّعَايَةُ. وَرَوَى ٱبْنُ مَسْعُودٍ: كُونُوا لِلْعِلْمِ رُعَاةً. وَلَا تَكُونُوا لَهُ رُوَاةً. فَقَدْ يَرْعَوِي مَنْ لَا يَرْوِي. وَيَرْوِي مَنْ لَا يَرْعَوِي. وَحَدَّثَ ٱلْحَسَنُ ٱلْبَصْرِيُّ بِحَدِيثٍ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا أَبَا سَعِيدٍ عَمَّنْ. قَالَ: مَا تَصْنَعُ بِعَمَّنْ. أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ نَالَتْكَ عِظَتُهُ وَقَامَتْ عَلَيْكَ حُجَّتُهُ

وَرُبَّمَا ٱعْتَمَدَ عَلَى حِفْظِهِ وَتَصَوُّرِهِ وَأَغْفَلَ تَقْيِيدَ ٱلْعِلْمِ فِي كُتُبِهِ ثِقَةً بِمَا ٱسْتَقَرَّ فِي ذِهْنِهِ وَهٰذَا خَطَأٌ مِنْهُ لِأَنَّ ٱلشَّكَّ مُعْتَرِضٌ وَٱلنِّسْيَانَ طَارِقٌ. وَقَالَ ٱلْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ: ٱجْعَلْ مَا فِي ٱلْكُتُبِ رَأْسَ ٱلْمَالِ وَمَا فِي ٱلْقَلْبِ ٱلنَّفَقَةَ. وَقَالَ مِهْبُودٌ: لَوْلَا مَا عَقَدَتْهُ ٱلْكُتُبُ مِنْ تَجَارِبِ ٱلْأَوَّلِينَ لَانْحَلَّ مَعَ ٱلنِّسْيَانِ عُقُودُ ٱلْآخِرِينَ

البحث الثامن

في تفسير الذوق في مصطلح اهل البيان

(مقدمة ابن خلدون)

(راجع صفحة ٦ من توطئة علم الادب)

اِعلَمْ اَنَّ لَفظَةَ اَلذَّوقِ يَتَداوَلُها اَلْمُعتَنُونَ بِفُنونِ اَلبيانِ ومعناها حُصُولُ مَلَكَةِ اَلبَلاغَةِ لِلسَانِ اَلَّتِي هِيَ مُطابَقةُ اَلكلامِ للمعنى من جَميعِ وُجوهِهِ بِخَواصَّ تقعُ لِلتَّراكيبِ فِي اِفادةِ ذلكَ. فالمتكلمُ بِلِسانِ اَلعَرَبِ وَاَلبليغُ فِيهِ يَتَحَرَّى اَلهيئةَ اَلْمُفيدَةَ لذلكَ على اساليبِ اَلعَرَبِ وَاَنحاءِ مُخاطَباتِهِمْ وَيَنظِمُ اَلكَلامَ عَلَى ذلكَ اَلوجهِ جُهدَهُ. فَاِذَا اَتَّصَلَتْ مَقاماتُهُ بِمُخالَطَةِ كَلامِ اَلعَرَبِ حَصلتْ لهُ اَلملكةُ فِي نَظْمِ اَلكَلامِ عَلى ذلِكَ اَلوَجهِ وَسَهُلَ عَلَيْهِ اَمرُ اَلتَّركيبِ حتى لا يكادُ يَنْحُو فِيهِ غَيرَ مَنْحَى اَلبَلاغَةِ اَلَّتِي لِلعَرَبِ. وَاِنْ سَمِعَ تَركيبًا غيرَ جارٍ عَلَى ذلِكَ اَلمَنْحَى مَجَّهُ وَنَبا عَنْهُ سَمْعُهُ بادنى فِكرٍ بَلْ وَبِغَيرِ فِكرٍ اِلا بما اَستَفادَهُ مِنْ حُصُولِ هٰذِهِ اَلْمَلَكَةِ. فَاِنَّ اَلمَلَكاتِ اذا استقرتْ وَرَسَختْ فِي مَحالِّها ظَهَرَتْ كَاَنَّها طَبيعةٌ وَجِبِلَّةٌ لِذلِكَ المحلِّ. ولذلك يَظُنُّ كَثيرٌ مِنَ اَلْمُغَفَّلِينَ مِمَّنْ لَمْ يَعرِفْ شَاْنَ اَلمَلَكاتِ اَنَّ اَلصوابَ لِلعَرَبِ فِي لُغَتِهِمْ اِعرابًا وَبَلاغَةً امرٌ طَبيعِيٌّ وَيَقُولُ: كَانَتِ العربُ تَنطِقُ بِالطَّبعِ. وَلَيْسَ كَذلِكَ. وَاِنَّما هِيَ مَلَكَةٌ لِسانيةٌ فِي نَظْمِ الكلامِ تَمَكَّنَتْ وَرَسَخَتْ فَظَهَرَتْ فِي بادِي اَلرَّأْيِ اَنها جِبِلَّةٌ وَطَبعٌ وهذه

ٱلْمَلَكَةُ كَمَا تَقَدَّمَ إِنَّمَا تَحْصُلُ بِمُمَارَسَةِ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَتَكَرُّرِهِ عَلَى ٱلسَّمْعِ وَٱلتَّفَطُّنِ لِخَوَاصِّ تَرَاكِيبِهِ. وَلَيْسَتْ تَحْصُلُ بِمَعْرِفَةِ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْعِلْمِيَّةِ فِي ذٰلِكَ ٱلَّتِي ٱسْتَنْبَطَهَا أَهْلُ صِنَاعَةِ ٱللِّسَانِ. فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلْقَوَانِينَ إِنَّمَا تُفِيدُ عِلْمًا بِذٰلِكَ ٱللِّسَانِ وَلَا تُفِيدُ حُصُولَ ٱلْمَلَكَةِ بِٱلْفِعْلِ فِي مَحَلِّهَا. وَإِذَا تَقَرَّرَ ذٰلِكَ فَمَلَكَةُ ٱلْبَلَاغَةِ فِي ٱللِّسَانِ تَهْدِي ٱلْبَلِيغَ إِلَى وُجُوهِ ٱلنَّظْمِ وَحُسْنِ ٱلتَّرْكِيبِ ٱلْمُوَافِقِ لِتَرَاكِيبِ ٱلْعَرَبِ فِي لُغَتِهِمْ وَنَظْمِ كَلَامِهِمْ. وَلَوْ رَامَ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ حَيْدًا عَنْ هٰذِهِ ٱلسَّبِيلِ ٱلْمُعَيَّنَةِ وَٱلتَّرَاكِيبِ ٱلْمَخْصُوصَةِ لَمَا قَدَرَ عَلَيْهِ وَلَا وَافَقَهُ عَلَيْهِ لِسَانُهُ لِأَنَّهُ لَا يَعْتَادُهُ وَلَا تَهْدِيهِ إِلَيْهِ مَلَكَتُهُ ٱلرَّاسِخَةُ عِنْدَهُ. وَإِذَا عُرِضَ عَلَيْهِ ٱلْكَلَامُ حَائِدًا عَنْ أُسْلُوبِ ٱلْعَرَبِ وَبَلَاغَتِهِمْ فِي نَظْمِ كَلَامِهِمْ أَعْرَضَ عَنْهُ وَمَجَّهُ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ ٱلَّذِينَ مَارَسَ كَلَامَهُمْ. وَرُبَّمَا يَعْجِزُ عَنِ ٱلِٱحْتِجَاجِ لِذٰلِكَ كَمَا تَصْنَعُ أَهْلُ ٱلْقَوَانِينِ ٱلنَّحْوِيَّةِ وَٱلْبَيَانِيَّةِ. فَإِنَّ ذٰلِكَ ٱسْتِدْلَالٌ بِمَا حَصَلَ مِنَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْمُفَادَةِ بِٱلِٱسْتِقْرَاءِ. وَهٰذَا أَمْرٌ وِجْدَانِيٌّ حَاصِلٌ بِمُمَارَسَةِ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ حَتَّى يَصِيرَ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ. وَمِثَالُهُ لَوْ فَرَضْنَا صَبِيًّا مِنْ صِبْيَانِهِمْ نَشَأَ وَرَبِيَ فِي جِيلِهِمْ فَإِنَّهُ يَتَعَلَّمُ لُغَتَهُمْ وَيُحْكِمُ شَأْنَ ٱلْإِعْرَابِ وَٱلْبَلَاغَةِ فِيهَا حَتَّى يَسْتَوْلِيَ عَلَى غَايَتِهَا وَلَيْسَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ٱلْقَانُونِيِّ فِي شَيْءٍ. وَإِنَّمَا هُوَ بِحُصُولِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ فِي لِسَانِهِ وَنُطْقِهِ. وَكَذٰلِكَ تَحْصُلُ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ لِمَنْ بَعْدَ ذٰلِكَ ٱلْجِيلِ بِحِفْظِ كَلَامِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ وَخُطَبِهِمْ وَٱلْمُدَاوَمَةِ عَلَى ذٰلِكَ بِحَيْثُ يَحْصُلُ ٱلْمَلَكَةَ وَيَصِيرُ كَوَاحِدٍ مِمَّنْ نَشَأَ فِي جِيلِهِمْ وَرَبِيَ بَيْنَ

احيائهم. والقوانين بمعزل عن هذا. واستعير لهذه الملكة عندما ترسخ وتستقر اسم الذوق الذي اصطلح عليه اهل صناعة البيان. والذوق انما هو موضوع لادراك الطعوم لكن لما كان محل هذه الملكة في اللسان من حيث النطق بالكلام كما هو محل لادراك الطعوم استعير لها اسمه وايضا فهو وجداني للسان كما ان الطعوم محسوسة له فقيل له ذوق. واذا تبين لك ذلك علمت منه ان الاعاجم الداخلين في اللسان العربي الطارئين عليه المضطرين الى النطق به لمخالطة اهله كالفرس والروم والترك بالمشرق وكالبربر بالمغرب فانه لا يحصل لهم هذا الذوق لقصور حظهم في هذه الملكة التي قررنا امرها. لان قصاراهم بعد طائفة من العمر وسبق ملكة اخرى الى اللسان وهي لغاتهم ان يعتنوا بما يتداوله اهل المصر(١) بينهم في المحاورة من مفرد ومركب لما يضطرون اليه من ذلك وهذه الملكة قد ذهبت لاهل الامصار وبعدوا عنها كما تقدم. وانما لهم في ذلك ملكة اخرى وليست هي ملكة اللسان المطلوبة. ومن عرف تلك الملكة من القوانين المسطرة في الكتب فليس من تحصيل الملكة في شيء انما حصل احكامها كما عرفت وانما تحصل هذه الملكة بالممارسة والاعتياد والتكرر لكلام العرب. فان عرض لك ما تسمعه من ان سيبويه والفارسي والزمخشري وامثالهم من فرسان الكلام كانوا اعجاما مع حصول هذه الملكة لهم فاعلم ان اولئك قوم

(١) وفي نسخة: اهل المضر

الَّذين تسمع عنهم إنَّما كانوا عجمًا في نسبهم فقط وأمَّا المربى والنشأة فكانت بين اهل هذه الملكة من العرب ومن تعلمها منهم فاستولوا بذلك من الكلام على غاية لا وراءها . وكأنهم في اول نشأتهم من العرب الذين نشأوا في احيائهم(١) حتى ادركوا كنه اللغة وصاروا من اهلها . فهم وإن كانوا عجمًا في النسب فليسوا بأعجام في اللغة والكلام لانهم ادركوا الملة في عنفوانها واللغة في شبابها ولم تذهب آثار الملكة ولا من اهل الامصار . ثم عكفوا على الممارسة والمدراسة لكلام العرب حتى استولوا على غايته . والواحد اليوم من العجم اذا خالط اهل اللسان العربي بالامصار فاوّل ما يجد تلك الملكة المقصودة من اللسان العربي ممتحية الآثار ويجد ملكتهم الخاصة بهم ملكة اخرى مخالفة لملكة اللسان العربي . ثم اذا فرضنا انه اقبل على الممارسة لكلام العرب واشعارهم بالمدارسة والحفظ يستفيد تحصيلها فقل ان يحصل له ما قدمناه من ان الملكة اذا سبقتها ملكة اخرى في المحل فلا تحصل الا ناقصة مخدوشة . وإن فرضنا عجميا في النسب سلم من مخالطة اللسان العجمي بالكلية وذهب الى تعلم هذه الملكة بالحفظ والمدارسة فربما يحصل له ذلك لكنه من الندور بحيث لا يخفى عليك بما تقرر . وربما يدعي كثير ممن ينظر في هذه القوانين البيانية حصول هذا الذوق له بها وهو غلط او مغالطة وانما حصلت له الملكة ان حصلت في تلك القوانين البيانية

(١) وفي نسخة : في احيالهم

وَلَيْسَتْ مِنْ مَلَكَةِ ٱلعِبَارَةِ فِي شَيْءٍ وَٱللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

البحث التاسع

في المطالعة

(المثل السائر لابي الفتح بن الاثير الموصلي)

(راجع صفحة ٨ من توطئة علم الادب)

إِنَّ فِي ٱلإِطِّلَاعِ عَلَى كَلَامِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ ٱلْمَنْظُومِ وَٱلْمَنْثُورِ فَوَائِدَ جَمَّةً لِأَنَّهُ يُعْلَمُ مِنْهُ أَغْرَاضُ ٱلنَّاسِ وَنَتَائِجُ أَفْكَارِهِمْ وَيُعْرَفُ بِهِ مَقَاصِدُ كُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ وَإِلَى أَيْنَ تَرَامَتْ بِهِ صَنْعَتُهُ فِي ذٰلِكَ. فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ مِمَّا تَشْحَذُ ٱلْقَرِيحَةَ وَتُزَكِّي ٱلْفِطْنَةَ. وَإِذَا كَانَ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ عَارِفًا بِهَا تَصِيرُ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي ذُكِرَتْ وَتَعِبَ فِي ٱسْتِخْرَاجِهَا كَالشَّيْءِ ٱلْمُلْقَى بَيْنَ يَدَيْهِ يَأْخُذُ مِنْهُ مَا أَرَادَ. وَأَيْضًا فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ مُطَّلِعًا عَلَى ٱلْمَعَانِي ٱلْمَسْبُوقِ إِلَيْهَا قَدْ يَنْقَدِحُ لَهُ مِنْ بَيْنِهَا مَعْنًى غَرِيبٌ لَمْ يُسْبَقْ إِلَيْهِ. وَمِنَ ٱلْمَعْلُومِ أَنَّ خَوَاطِرَ ٱلنَّاسِ وَإِنْ كَانَتْ مُتَفَاوِتَةً فِي ٱلْجَوْدَةِ وَٱلرَّدَاءَةِ فَإِنَّ بَعْضَهَا لَا يَكُونُ عَالِيًا عَلَى بَعْضٍ أَوْ مُنْحَطًّا عَنْهُ إِلَّا بِشَيْءٍ يَسِيرٍ. وَكَثِيرًا مَا تَتَسَاوَى ٱلْقَرَائِحُ وَٱلْأَفْكَارُ فِي ٱلْإِتْيَانِ بِٱلْمَعَانِي حَتَّى إِنَّ بَعْضَ ٱلنَّاسِ قَدْ يَأْتِي بِمَعْنًى مَوْضُوعٍ بِلَفْظٍ ثُمَّ يَأْتِي ٱلْآخَرُ بَعْدَهُ بِذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى وَٱللَّفْظِ بِعَيْنِهِمَا مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ مِنْهُ بِمَا جَاءَ بِهِ ٱلْأَوَّلُ وَهٰذَا ٱلَّذِي يُسَمِّيهِ أَرْبَابُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وُقُوعَ ٱلْحَافِرِ عَلَى ٱلْحَافِرِ

البحث العاشر

في الارتياض والممارسة

(المثل السائر والوشي المرقوم لابن الاثير)

(راجع صفحة ٩ و١٠ من توطئة علم الادب)

اعلم ايها الناظر في كتابي ان مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم الذي هو انفع من ذوق التعليم. وهذا الكتاب وان كان فيما يلقيه اليك استاذا او اذا سألت عما ينتفع به في فنه قيل لك هذا فان الدربة والادمان اجدى عليك نفعا واهدى بصرا وسمعا. وهما يريانك الخبر عيانا ويجعلان عسرك من القول امكانا وكل جارحة منك قلبا ولسانا . فخذ من هذا الكتاب ما اعطاك واستنبط بادمانك ما اخطاك . وما مثلي فيما مهدته لك من هذا الطريق الا كمن طبع سيفا ووضعه في يمينك لتقاتل به وليس عليه ان يخلق لك قلبا فان حمل النصال غير مباشرة القتال

وانما يبلغ الانسان غايته ما كل ماشية بالرحل شملال

وان صاحب الكتابة لا يرى في امره الا صعوبة ووعورة وطريقا متشكلة المذاهب كثيرة الشعاب . فاذا اكره خاطره على سلوكها وشجعه على تورّدها فما يمضي به هنيهة حتى يستقر به الطريق ويتضح اديه . والتعب على منازل العلياء امارة

البحث الحادي عشر

في طرائق مختلفة من الممارسة والتمرين

(المثل السائر باختصار)

(راجع صفحة ١٠ من توطئة علم الادب)

هٰذَا ٱلْفَصْلُ هُوَ كَنْزُ ٱلْكِتَابَةِ وَمَنْبَعُهَا وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا يَتَكَلَّمُ فِيهِ بِشَيْءٍ وَلَمَّا حُبِّبَتْ إِلَيَّ هٰذِهِ ٱلْفَضِيلَةُ وَبَلَّغَنِي ٱللّٰهُ مِنْهَا مَا بَلَّغَنِي وَجَدْتُ ٱلطَّرِيقَ يَنْقَسِمُ فِيهَا إِلَى ثَلَاثِ شُعَبٍ :(ٱلْأُولَى) أَنْ يَتَصَفَّحَ ٱلْكَاتِبُ كِتَابَةَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ وَيَطَّلِعَ عَلَى أَوْضَاعِهِمْ فِي ٱسْتِعْمَالِ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِي ثُمَّ يَحْذُو حَذْوَهُمْ . وَهٰذِهِ أَدْنَى ٱلطَّبَقَاتِ عِنْدِي .(ٱلثَّانِيَةُ) أَنْ يَمْزُجَ كِتَابَةَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ بِمَا يَسْتَجِيدُهُ لِنَفْسِهِ مِنْ زِيَادَةٍ حَسَنَةٍ إِمَّا فِي تَحْسِينِ ٱلْأَلْفَاظِ أَوْ فِي تَحْسِينِ ٱلْمَعَانِي.وَهٰذِهِ ٱلطَّبَقَةُ ٱلْوُسْطَى وَهِيَ أَعْلَى مِنَ ٱلَّتِي قَبْلَهَا . (ٱلثَّالِثَةُ) أَنْ لَا يَتَصَفَّحَ كِتَابَةَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ وَلَا يَطَّلِعَ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا بَلْ يَصْرِفَ هِمَّتَهُ إِلَى حِفْظِ ٱلْحَدِيثِ وَٱلْاخبار وَعدة مِنْ دَوَاوِينِ فُحُولِ ٱلشُّعَرَاءِ مِمَّنْ غَلَبَ عَلَى شِعْرِهِ ٱلْإِجَادَةُ فِي ٱلْمَعَانِي وَٱلْأَلْفَاظِ . ثُمَّ يَأْخُذُ فِي ٱلْإِقْتِبَاسِ مِنْ هٰذِهِ فَيَقُومُ وَيَقَعُ وَيُخْطِئُ وَيُصِيبُ وَيَضِلُّ وَيَهْتَدِي حَتَّى يَسْتَقِيمَ عَلَى طَرِيقَةٍ يَفْتَتِحُهَا لنفسه.وَأَخْلِقْ بِتِلْكَ ٱلطَّرِيقِ أَنْ تَكُونَ مُبْتَدَعَةً غَرِيبَةً لَا شَرِكَةَ لِأَحَدٍ مِنَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ فِيهَا . وَهٰذِهِ ٱلطَّرِيقُ هِيَ طَرِيقُ ٱلْإِجْتِهَادِ وَصَاحِبُهَا يُعَدُّ إِمَامًا فِي فَنِّ ٱلْكِتَابَةِ . إِلَّا أَنَّهَا مُسْتَوْعِرَةٌ جِدًّا وَلَا يَسْتَطِيعُهَا إِلَّا مَنْ رَزَقَهُ ٱللّٰهُ

تعالى إِنساناً مجاماً وخاطراً رقاماً وإِنما تكون نفاسة الأشياء بعزة حصولها ومشقة وصولها :

ليس حلواً وجودك الشيء تبغيه م طلاباً حتى يعز طلابه

وهذه الطريق يجهلها كثير من متعاطي هذه الصناعة والذي يعلمها منهم يرضى بالحواشي والأطراف ويقنع من لآليها بمعرفة ما في الأصداف . ولا أريد بهذه الطريقة أن يكون الكاتب مرتبطاً في كتابته بما يستخرجه بحيث أنه لا ينشئ كتاباً إِلا من ذلك بل أريد أنه إِذا حفظ مما قدمنا شيئاً ثم نقب عن ذلك تنقيب مطلع على معانيه مفتش عن دفائنه وقلبه ظهراً لبطن عرف حينئذ من أين تؤكل الكتف فيما ينشئه من ذات نفسه واستعان بالمحفوظ على الغريزة الطبيعية . ألا ترى صاحب الاجتهاد من الفقهاء يفتقر إِلى معرفة أخبار الأحكام وإِلى معرفة علم العربية والفرائض والحساب من المعلوم والمجهول . وكذلك يجري الحكم في الكاتب إِذا أحب الترقي إِلى درجة الاجتهاد في الكتابة فإِنه يحتاج إِلى أدوات كثيرة سنذكرها

فصلٌ في صفة الكاتب وما يحتاج اليهِ من المعارف

البحث الاوَّل

في صفة الكاتب الظاهرة

(عن ابراهيم الشيباني وآثار الاول للحسن بن عبدالله)

قِيلَ إِنَّهم قدِ ٱستَحسَنُوا فِي ٱلكَاتِبِ ٱعتِدَالَ ٱلقَامَةِ وَصِغَرَ ٱلهَامَةِ وَخِفَّةَ ٱللَّهَازِمِ وَصِدقَ ٱلحِسِّ وَلُطفَ ٱلمَذهَبِ وَحَلَاوَةَ ٱلشَّمَائِلِ وَحُسنَ ٱلإِشَارَةِ وَمَلَاحَةَ ٱلزِّيِّ حَتَّى قَالَ بَعضُ ٱلمَهَالِبَةِ لِوُلدِهِ : تَزَيَّوا بِزِيِّ ٱلكُتَّاب فَإِنَّ فِيهِم أَدَبَ ٱلمُلُوكِ وَتَوَاضُعَ ٱلسُّوقَةِ . وَقِيلَ : إِنَّ مِن كَمَالِ آلَةِ ٱلكِتَابَةِ أَن يَكُونَ ٱلكَاتِبُ نَقِيَّ ٱلمَلبَس نَظِيفَ ٱلمَجلِسِ ظَاهِرَ ٱلمُرُوءَةِ دَقِيقَ ٱلذِّهنِ حَسَنَ ٱلفَهمِ وَافِرَ ٱلعِلمِ وَٱلعَقلِ صَادِقَ ٱلحِسِّ حَسَنَ ٱلبَيَانِ صَحِيحَ ٱلرَّأيِ وَٱلعِبَارَةِ مَلِيحَ ٱلتَّأَنِّي فِي نَظمِ ٱلمَعَانِي وَنَثرِهَا دَقِيقَ حَوَاشِي ٱللِّسَانِ حُلوَ ٱلإِشَارَةِ مَلِيحَ ٱلِاستِعَارَة لَطِيفَ ٱلمَسَالِكِ مُستَقِرَّ ٱلتَّركِيبِ . وَلَا يَكُونَ مَعَ ذٰلِكَ قَدِمَ ٱلمَنظَرِ مُتَفَاوِتَ ٱلأَجزَاءِ مُضطَرِبَ ٱلخَلقِ . فَإِنَّهم زَعَمُوا أَنَّ هٰذِهِ ٱلصُّورَة لَا يَلِيقُ بِصَاحِبِهَا ٱلذَّكَاءُ وَٱلفِطنَةُ.وَإِنِ ٱتَّفَقَ أَن يَكُونَ حَسَنَ ٱلخَطِّ فَهُوَ كَمَالُهُ وَإِلَّا فَيَكُونُ هُوَ ٱلمُنشِئُ وَغَيرُهُ ٱلكَاتِب . وَنَظَرَ أَحمَدُ ٱبنُ خَصِيبٍ إِلَى رَجُلٍ مِنَ ٱلكُتَّابِ عَلَى هٰذِهِ ٱلهَيئَةِ فَقَالَ : لَأَن يَكُونَ هٰذَا قِنطَاسَ مَركَبٍ أَشبَهُ مِن أَن يَكُونَ كَاتِبًا . قَال بَعضُهُم :

عَلَيكَ بِكَاتِبٍ لَبِقٍ رَشِيقٍ ذَكِيٍّ فِي شَمَائِلِهِ حَذَارَه

تُنَاجِيهِ بِطَرْفِكَ مِنْ بَعِيدٍ فَيَفْهَمُ رَجْعَ لَحْظِكَ بِالْاِشَارَهْ

فَإِذَا اجْتَمَعَتْ لِلْكَاتِبِ هٰذِهِ الْخِلَالُ وَانْتَظَمَتْ فِيهِ هٰذِهِ الْخِصَالُ فَهُوَ الْكَاتِبُ الْبَلِيغُ وَالْأَدِيبُ النِّحْرِيرُ وَإِنْ قَصُرَتْ بِهِ آلَةٌ مِنْ هٰذِهِ الْآلَاتِ وَقَعَدَتْ بِهِ اَدَاةٌ مِنْ هٰذِهِ الْأَدَوَاتِ فَهُوَ مَنْقُوصُ الْجَمَالِ مُنْكَسِفُ الْحُسْنِ مَبْخُوسُ النَّصِيبِ

البحث الثاني

في ادوات علم الكتابة

(عن المثل السائر لابن الاثير الموصلي باختصار)

اِعْلَمِ اَنَّ صِنَاعَةَ تَأْلِيفِ الْكَلَامِ مِنَ الْمَنْظُومِ وَالْمَنْثُورِ تَفْتَقِرُ اِلَى آلَاتٍ كَثِيرَةٍ . وَقَدْ قِيلَ : يَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ اَنْ يَتَعَلَّقَ بِكُلِّ عِلْمٍ حَتَّى قِيلَ : كُلُّ ذِي عِلْمٍ يَسُوغُ لَهُ اَنْ يَنْسُبَ نَفْسَهُ اِلَيْهِ فَيَقُولَ : فُلَانٌ النَّحْوِيُّ وَفُلَانٌ الْفَقِيهُ وَلَا يَسُوغُ لَهُ اَنْ يَنْسُبَ نَفْسَهُ اِلَى الْكِتَابَةِ فَيَقُولَ : فُلَانٌ الْكَاتِبُ وَذٰلِكَ لِمَا يَفْتَقِرُ اِلَيْهِ مِنَ الْخَوْضِ فِي كُلِّ فَنٍّ . وَمِلَاكُ هٰذَا كُلِّهِ الطَّبْعُ فَاِنَّهُ اِذَا لَمْ يَكُنْ ثَمَّ طَبْعٌ فَاِنَّهُ لَا تُغْنِي تِلْكَ الْآلَاتُ شَيْئًا . وَمِثَالُ ذٰلِكَ كَمَثَلِ النَّارِ الْكَامِنَةِ فِي الزِّنَادِ وَالْحَدِيدَةِ الَّتِي يُقْدَحُ بِهَا . اَلَا تَرَى اَنَّهُ اِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الزِّنَادِ نَارٌ لَا تُفِيدُ تِلْكَ الْحَدِيدَةُ شَيْئًا . وَكَثِيرًا مَا رَاَيْنَا مِنْ غَرَائِبِ الطِّبَاعِ فِي تَعَلُّمِ الْعُلُومِ حَتَّى اِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَكُونُ لَهُ نَفَاذٌ فِي تَعَلُّمِ عِلْمٍ مُشْكِلٍ الْمَسْلَكِ صَعْبِ الْمَأْخَذِ فَاِذَا كُلِّفَ تَعَلُّمَ مَا هُوَ دُونَهُ مِنْ سَهْلِ الْعُلُومِ نَكَسَ

عَلَى عَقِبَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِ نَفَاذٌ . وَأَغْرَبُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ صَاحِبَ الطَّبْعِ فِي الْمَنْظُومِ يُجِيدُ فِي الْمَدِيحِ دُونَ الْهِجَاءِ أَوْ فِي الْهِجَاءِ دُونَ الْمَدِيحِ أَوْ يُجِيدُ فِي الْمَرَاثِي دُونَ التَّهَانِي أَوْ فِي التَّهَانِي دُونَ الْمَرَاثِي. وَكَذَلِكَ صَاحِبُ الطَّبْعِ فِي الْمَنْثُورِ. هَذَا ابْنُ الْحَرِيرِيِّ صَاحِبُ الْمَقَامَاتِ قَدْ كَانَ عَلَى مَا ظَهَرَ عَنْهُ مِنْ تَنْمِيقِ الْمَقَامَاتِ وَاحِداً فِي فَنِّهِ فَلَمَّا حَضَرَ بِبَغْدَادَ وَوَقَفَ عَلَى مَقَامَاتِهِ قِيلَ هَذَا يَسْتَصْلِحُ لِكِتَابَةِ الْإِنْشَاءِ فِي دِيوَانِ الْخِلَافَةِ وَيَحْسُنُ أَثَرُهُ فِيهِ . فَأُحْضِرَ وَكُلِّفَ كِتَابَةَ كِتَابٍ فَأُفْحِمَ وَلَمْ يَجْرِ لِسَانُهُ فِي طَوِيلَةٍ وَلَا قَصِيرَةٍ . . . . وَبَلَغَنِي عَنِ الشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدٍ أَحْمَدَ بْنِ الْخَشَّابِ النَّحْوِيِّ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : ابْنُ الْحَرِيرِيِّ رَجُلُ مَقَامَاتٍ أَيْ إِنَّهُ لَمْ يُحْسِنْ مِنَ الْكَلَامِ الْمَنْثُورِ سِوَاهَا وَإِنْ أَتَى بِغَيْرِهَا لَا يَقُولُ شَيْئاً . فَانْظُرْ أَيُّهَا الْمُتَأَمِّلُ إِلَى هَذَا التَّفَاوُتِ فِي الصِّنَاعَةِ الْوَاحِدَةِ مِنَ الْكَلَامِ الْمَنْثُورِ ومن أجل ذلك قِيلَ : شَيْئَانِ لَا نِهَايَةَ لَهُمَا الْبَيَانُ وَالْجَمَالُ

البحث الثالث

فيما يجب على الكاتب معرفته

(عن صناعة الترسّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

وَمِمَّا يَجِبُ عَلَى الْكَاتِبِ أَنْ يَتَرَشَّحَ بِهِ لِلْكِتَابَةِ قِرَاءَةُ مَا يَتَّفِقُ مِنْ (كُتُبِ النَّحْوِ) الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا الْمَقْصُودُ مِنْ مَعْرِفَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِحَيْثُ يَجْمَعُ بَيْنَ طَرَفَيِ الْكِتَابِ الَّذِي يَقْرَأُهُ وَيَسْتَكْمِلُ اسْتِشْرَاحَهُ وَيَكِبُّ عَلَى

الإعراب ويلازمه ويجعله دأبه ليرتسم في فكره ويدور على لسانه وينطلق به عقال قلبه وكلمه ويزول به الوهم عن سجيته ويكون على بصيرة من عبارته. فإنه لو أتى من البلاغة بأتم ما يكون ولحن ذهبت محاسن ما أتى به وانهدت طبقة كلامه وألغي جميع ما يحسنه ووقف به عند ما جهله. ويتعلق بذلك قراءة ما تهيأ من مختصرات (كتب اللغة) كالفصيح لثعلب وكفاية المتحفظ وغير ذلك من كتب الألفاظ ليتسع عليه نطاق النطق وينفسح له مجال العبارة وينفتح له باب الأوصاف فيما يحتاج إلى وصفه من خيل أو سلاح أو حرب أو سير أو قتال أو غير ذلك مما يحتاج إلى وصفه ويضطر إلى نعته. ويتصل بذلك حفظ (خطب البلغاء) من الصحابة وغيرهم ومخاطباتهم ومحاوراتهم ومراجعاتهم وما ادعاه كل منهم لنفسه أو لقومه وما نقضه عليه خصمه لما في ذلك من معرفة الوقائع بنظائرها وتلقي الحوادث بما شاكلها والاقتداء بطريقة من فلج على خصمه واقتفاء آثار من اضطر إلى عذر أو إبطال دعوى أو إثباتها فلحن بحجته وتخاص بلطف مأخذه ودقة مسلكه وحسن عبارته . . .

فانظر في هذا وأمثاله والحفظ منه والإكثار من مطالعته مما يشحذ القرائح ويفتق الأذهان ويرتسم في الخواطر ويكمن في الأفكار حتى يفيض ما غاض منه على لسان القلم ويدومنه لكل واقعة منوال ينسج عليه ومثال ينظر في نظائر الأمور إليه

ثم النظر في (أيام العرب) ووقائعهم وحروبهم وتسمية الأيام

ٱلَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ وَمَعْرِفَةِ يَوْمِ كُلِّ قَبِيلَةٍ عَلَى ٱلْأُخْرَى وَمَا جَرَى بَيْنَهُمْ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ وَٱلْمُنَاقَضَاتِ . إِلَّا فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ بِمَا يُسْتَشْهَدُ بِهِ مِنْ وَاقِعَةٍ قَدِيمَةٍ أَوْ يَرِدُ عَلَيْهِ فِي مُكَاتَبَةٍ مِنْ ذِكْرِ أَيَّامٍ مَشْهُورَةٍ أَوْ ذِكْرِ فَارِسٍ مُعَيَّنٍ . . . وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ فِي نَظَائِرِهِ كَثِيرَةٌ فِي ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ عَارِفًا بِكُلِّ يَوْمٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَيَّامِ عَالِمًا بِمَا جَرَى فِيهَا لَمْ يَدْرِ كَيْفَ يُجِيبُ عَمَّا يَرِدُ إِلَيْهِ مِنْ مِثْلِهَا وَلَا مَا يَقُولُ إِذَا سُئِلَ عَنْهَا وَحَسْبُهُ ذٰلِكَ نَقْصًا فِي صِنَاعَتِهِ وَقُصُورًا عَمَّا يَتَحَتَّمُ عَلَيْهِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَحُسْنِ ٱلْجَوَابِ فِيهِ عِنْدَ ٱلسُّؤَالِ عَنْهُ

ثُمَّ (ٱلنَّظَرُ فِي ٱلتَّوَارِيخِ) وَمَعْرِفَةُ أَخْبَارِ ٱلدُّوَلِ مِنَ ٱلِٱطِّلَاعِ عَلَى سِيَرِ ٱلْمُلُوكِ وَسِيَاسَاتِهِمْ وَذِكْرِ وَقَائِعِهِمْ وَمَكَائِدِهِمْ فِي حُرُوبِهِمْ وَمَا ٱتَّفَقَ لَهُمْ مِنَ ٱلتَّجَارِبِ ٱلَّتِي بَلَغُوا بِهَا أَقْصَى ٱلْمَآرِبِ وَغَدَتْ لِمَنْ بَعْدَهُمْ كَٱلْمِرْآةِ ٱلَّتِي تُصَوِّرُ لَهُمْ وُجُودَ ٱلتَّدْبِيرِ وَتُرِيهِمْ مَا ٱسْتَتَرَ عَنْهُمْ مِنْ صَغِيرِ أَحْوَالِهِمْ وَٱلْكَبِيرِ . فَإِنَّهُ قَدْ يُضْطَرُّ إِلَى ٱلسُّؤَالِ عَنْ أَحْوَالِ مَنْ سَلَفَ مِنْ أَوَّلِ ٱلْعَصْرِ وَإِلَى ٱلْآنَ وَيُسْتَخْبَرُ كَيْفَ كَانَ ٱلْأَمْرُ بَيْنَ زَيْدٍ وَعَمْرٍو وَكَيْفَ ٱنْتَصَرَ فُلَانٌ عَلَى فُلَانٍ . أَوْ يَرِدُ عَلَيْهِ فِي كِتَابٍ ذِكْرُ وَاقِعَةٍ بِعَيْنِهَا أَوْ يُحْتَجُّ عَلَيْهِ بِصُورَةٍ قَدِيمَةٍ فَلَا يَعْرِفُ حَقِيقَتَهَا مِنْ مَجَازِهَا وَلَا صِدْقَهَا مِنْ مَيْنِهَا

ثُمَّ (حِفْظُ أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ) وَمُطَالَعَةُ شُرُوحِهَا وَٱسْتِكْشَافُ غَوَامِضِهَا وَٱلتَّوَفُّرُ عَلَى مَا ٱخْتَارَهُ ٱلْعُلَمَاءُ مِنْهَا كَٱلْحَمَاسَةِ وَٱلْمُفَضَّلِيَّاتِ وَٱلْأَصْمَعِيَّاتِ وَدِيوَانِ ٱلْهُذَلِيِّينَ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ إِلَّا فِي

ذٰلِكَ مِنْ غَزارَةِ ٱلْمَوادِّ وَصِحَّةِ ٱلِاسْتِشْهادِ وَكَثْرَةِ ٱلنَّقْلِ وَصَقْلِ مِرْآةِ ٱلعَقْلِ وَٱنْتِزاعِ ٱلأَمْثالِ وَٱلأَخْذِ فِي ٱخْتِراعِ ٱلْمَعانِي عَلَى أَصَحِّ مِثالٍ وَٱلِاطِّلاعِ عَلَى أُصُولِ ٱللُّغَةِ وَشَواهِدِها وَٱلِاضْطِلاعِ مِنْ نَوادِرِ ٱلعَرَبِيَّةِ وَشَوارِدِها . وَقَدْ كانَ ٱلصَّدْرُ ٱلأَوَّلُ يَعْتَنُونَ بِذٰلِكَ غايَةَ ٱلِاعْتِناءِ . فَذُكِرَ أَنَّ عُمَرَ كانَ يُقَدِّمُ زُهَيْرَ بْنَ أَبِي سُلْمَى فِي ٱلشِّعْرِ فَقِيلَ لَهُ : بِمَ ٱسْتَحَقَّ ذٰلِكَ عِنْدَكَ . فَقالَ : كانَ لا يُعاظِلُ بَيْنَ ٱلقَوْلِ وَلا يَتْبَعُ حُوشِيَّ ٱلكَلامِ وَلا يَصِفُ ٱلرَّجُلَ إِلَّا بِما يَكُونُ فِي ٱلرِّجالِ . فَإِذا أَكْثَرَ ٱلْمُتَرَشِّحُ لِلْكِتابَةِ مِنْ حِفْظِ خِيارِ ٱلشِّعْرِ وَتَدَبَّرَ مَعانِيَهُ يَسْهُلُ عَلَيْهِ حَلُّهُ وَظَهَرَتْ لَهُ مَواضِعُ ٱلِاسْتِشْهادِ بِهِ وَساقَهُ ٱلكَلامُ إِلَى إِبْرازِ ما فِي ذَخِيرَةِ حِفْظِهِ وَوَضْعِهِ فِي مَكانِهِ وَنَقْلِهِ فِي ٱلِاسْتِشْهادِ أَوِ ٱلتَّضْمِينِ إِلَى ما كَأَنَّهُ وُضِعَ لَهُ . . . .

وَكَذٰلِكَ حِفْظُ جانِبٍ جَيِّدٍ مِنْ شِعْرِ ٱلْمُحْدَثِينَ كَأَبِي تَمّامٍ وَمُسْلِمِ ٱبْنِ ٱلوَلِيدِ وَٱلبُحْتُرِيِّ وَٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ وَٱلْمُتَنَبِّي لِلُطْفِ مَأْخَذِهِمْ وَدَوَرانِ ٱلصِّناعَةِ فِي كَلامِهِمْ وَدِقَّةِ تَوْلِيدِ ٱلْمَعانِي فِي أَشْعارِهِمْ وَقُرْبِ أُسْلُوبِهِمْ مِنْ أُسْلُوبِ ٱلْخَطابَةِ وَٱلكِتابَةِ وَخُصُوصًا ٱلْمُتَنَبِّي ٱلَّذِي كَأَنَّهُ يَنْطِقُ عَنْ أَلْسِنَةِ ٱلنّاسِ فِي مُحاوَراتِهِمْ . وَكَثُرَ ٱلِاسْتِشْهادُ لِشِعْرِهِ حَتَّى قَلَّ مَنْ يَجْهَلُهُ وَحَتَّى ٱكْتُفِيَ بِٱلبَيْتِ ٱلواحِدِ فِي ٱلدَّلالَةِ عَلَى ٱلقَصْدِ وَبُلُوغِ ٱلغَرَضِ فِي ٱلْجَوابِ كَما كَتَبَ بَعْضُ مُلُوكِ ٱلعَرَبِ إِلَى مَنْ كَرَّرَ كُتُبَهُ وَأَرْسَلَهُ إِلَيْهِ بِقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَلا كُتْبَ إِلَّا ٱلْمَشْرَفِيَّةُ عِنْدَهُ ... وَلا رُسُلٌ إِلَّا ٱلْخَمِيسُ ٱلعَرَمْرَمُ

وَكَذٰلِكَ ٱلنَّظَرُ فِي رَسَائِلِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ دُونَ حِفْظِهَا لِمَا فِي ٱلنَّظَرِ فِيهَا مِنْ تَنْقِيحِ ٱلْقَرِيحَةِ وَإِرْشَادِ ٱلْخَاطِرِ وَتَسْهِيلِ ٱلطُّرُقِ وَٱلنَّسْجِ عَلَى مِنْوَالِ ٱلْمُجِيدِ وَٱلِٱقْتِدَاءِ بِطَرِيقَةِ ٱلْمُحْسِنِ وَٱسْتِجْلَاءِ مَا ٱنْتَجَتْهُ ٱقْرَائِحُ مِنْ أَبْكَارِ ٱلْأَفْكَارِ وَٱسْتِجْلَاءِ مَا رَوَّقَتْهُ ٱلْخَوَاطِرُ مِنْ حِيَاضِ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱسْتِدْرَاكِ مَا فَاتَ ٱلْقَاصِرَ وَٱلِٱحْتِرَازِ مِمَّا أَظْهَرَهُ ٱلنَّقْدُ وَرَدَ مَا بَهْرَجَهُ ٱلسَّبْكُ. فَأَمَّا ٱلنَّهْيُ عَنْ حِفْظِ ذٰلِكَ فَلِئَلَّا يَتَّكِلَ ٱلْخَاطِرُ عَمَّا فِي حَاصِلِهِ وَيَسْتَنِدَ ٱلْفِكْرُ إِلَى مَا فِي مُودَعِهِ وَيَكْتَفِيَ بِمَا لَيْسَ لَهُ وَيَتَلَبَّسَ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ....

وَكَذٰلِكَ (ٱلنَّظَرُ فِي كُتُبِ ٱلْأَمْثَالِ) ٱلْوَارِدَةِ عَنِ ٱلْعَرَبِ نَظْمًا وَنَثْرًا كَأَمْثَالِ ٱلْمَيْدَانِيِّ وَٱلْفَضْلِ بْنِ سَلَمَةَ ٱلضَّبِّيِّ وَحَمْزَةَ ٱلْأَصْبَهَانِيِّ وَغَيْرِهِمْ وَأَمْثَالِ ٱلْمُحْدَثِينَ ٱلْوَارِدَةِ فِي أَشْعَارِهِمْ كَأَبِي ٱلْعَتَاهِيَةِ وَأَبِي تَمَّامٍ وَٱلْمُتَنَبِّي وَأَمْثَالِ ٱلْمُوَلَّدِينَ وَٱلْأَمْثَالِ ٱلْمَوْضُوعَةِ عَلَى أَلْسُنِ ٱلْحَيَوَانِ لِلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ لِيَسْتَشْهِدَ بِٱلْمَثَلِ فِي مَوْضِعِهِ وَيُورِدَهُ فِي مَكَانِهِ وَيَكُونَ مِنْ وَرَاءِ ٱلْمَعْرِفَةِ بِأَصْلِهِ وَأَوَّلِ مَنْ أَرْسَلَهُ مَثَلًا وَمَنِ ٱسْتَشْهَدَ بِهِ وَذِكْرِ سَبَبِهِ....

وَأَمَّا (ٱلتَّمَثُّلُ بِٱلشِّعْرِ) فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ تَمَثَّلَ يَوْمًا بِقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ:

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لَا تَلُمُّهُ ... عَلَى شَعَثٍ أَيُّ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُهَذَّبُ

ثُمَّ قَالَ: لِمَنْ هٰذَا. فَقِيلَ لَهُ: لِلنَّابِغَةِ. فَقَالَ: ذَاكَ أَشْعَرُ شُعَرَائِكُمْ. وَسَأَلَ عُمَرُ ٱبْنَ عَبَّاسٍ عَنْ شَيْءٍ فَأَجَابَهُ عَنْهُ فَأَعْجَبَهُ جَوَابُهُ فَقَالَ:

شِنْشِنَةٌ أعرِفُها مِنْ أخزَمِ. وأمثالُ ذلِكَ مِمَّا تَمثَّلَ بِهِ الصَّحابةُ كَثِيرٌ.

وكَذلِكَ النَّظرُ في (الأحكامِ السُّلطانِيَّةِ) فإنَّهُ قد يُؤمَرُ بِأمرٍ فيَعرِفُ بِها كيفَ يُخلِصُ قلمَهُ على حُكمِ الشَّريعةِ المُطهَّرةِ مِنْ وِلايةِ القَضاءِ والحِسبةِ وغيرِ ذلِكَ. فهذِهِ أمورٌ كُلِّيَّةٌ لا بُدَّ لِلمُتَرَشِّحِ لِهذِهِ الصِّناعةِ مِنَ التَّصدِّي للاطِّلاعِ علَيها والإكبابِ على مُطالعَتِها والاستِكثارِ مِنها. يُنفِقُ مِنْ تِلكَ المَوادِ ويَسلُكُ في الوُصولِ إلى تِلكَ الصِّناعةِ بِذلِكَ الجَوادِ وإلا فليَعلَمْ أنَّهُ في وادٍ والكِتابةُ في وادٍ

وأمَّا الأمورُ الخاصَّةُ الَّتي تَزيدُ مَعرِفتُها قَدرَهُ ويَزِينُ العِلمُ بِها نَظمَهُ ونَثرَهُ فإنَّها مِنَ المُكمِّلاتِ لِهذا الفَنِّ وإنْ لَمْ يَضطَرَّ إلَيها ذو الذِّهنِ الثَّاقِبِ والطَّبعِ السَّليمِ والقَريحةِ المُطاوِعةِ والفِكرةِ المُنقَّحةِ والبَديهةِ المُجيبةِ والرَّوِيَّةِ المُتصرِّفةِ. لكِنَّ العالِمَ بِها مُتَمَكِّنٌ مِنْ أزِمَّةِ المَعاني يَقولُ عَنْ علمٍ ويَتَصرَّفُ عَنْ مَعرِفةٍ ويَنتَقِدُ بِحُجَّةٍ ويَتَخَيَّرُ بِدَليلٍ ويَستَحسِنُ بِبُرهانٍ ويَصوغُ الكَلامَ بِتَرتيبٍ

فَمِنْ ذلِكَ (عِلمُ المَعاني والبَيانُ والبَديعُ) وما يَلحَقُ بِها وأنا أُشيرُ الآنَ إلى نُكَتٍ مِنها تَدُلُّ على جَلالةِ قَدرِ هذا العِلمِ وعِظَمِ الفائدةِ بِهِ وأنَّ الأديبَ والكاتِبَ العارِيَيْنِ مِنهُ قاصِرانِ عَنْ أدنى رُتَبِ الكَمالِ يُجيدانِ ولا يَدرِيانِ كيفَ يُجيبانِ. فلَوْ سُئِلَ عَنْ عِلَّةِ مَعنًى استَحسَنَهُ أو لَفظٍ استَحلاهُ أو تَركيبٍ استَجادَهُ لَمْ يَقدِرْ على الإتيانِ بِدَليلٍ على ذلِكَ كما قالَ بَعضُهُمْ:

يا أبا جَعفَرٍ أتَحكُمُ في الشِّعرِ م وما فيكَ آلةُ الحُكَّامِ

إِنَّ نَقْدَ ٱلدِّينَارِ إِلَّا عَلَى ٱلصَّـ ... رْفِي صَعْبٌ فَكَيْفَ نَقْدُ ٱلْكَلَامِ
قَدْ رَأَيْنَاكَ لَسْتَ تَفْرِقُ فِي ٱلْأَ ... م شْعَارِ بَيْنَ ٱلْأَرْوَاحِ وَٱلْأَجْسَامِ

وَحَكَى ٱلْإِمَامُ عَبْدُ ٱلْقَاهِرِ ٱلْجُرْجَانِيُّ قَالَ: رَكِبَ ٱلْكِنْدِيُّ ٱلْمُتَفَلْسِفُ إِلَى أَبِي ٱلْعَبَّاسِ وَقَالَ لَهُ: إِنِّي أَجِدُ فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ حَشْوًا. فَقَالَ لَهُ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ: فِي أَيِّ مَوْضِعٍ وَجَدْتَ ذٰلِكَ. قَالَ: وَجَدْتُ ٱلْعَرَبَ تَقُولُ: عَبْدُ ٱللهِ قَائِمٌ. ثُمَّ يَقُولُونَ: إِنَّ عَبْدَ ٱللهِ قَائِمٌ. ثُمَّ يَقُولُونَ: إِنَّ عَبْدَ ٱللهِ لَقَائِمٌ. فَٱلْأَلْفَاظُ مُتَكَرِّرَةٌ وَٱلْمَعْنَى وَاحِدٌ. فَقَالَ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ: بَلِ ٱلْمَعَانِي مُخْتَلِفَةٌ لِٱخْتِلَافِ ٱلْأَلْفَاظِ. فَقَوْلُهُمْ: عَبْدُ ٱللهِ قَائِمٌ إِخْبَارٌ عَنْ قِيَامِهِ. وَقَوْلُهُمْ: إِنَّ عَبْدَ ٱللهِ قَائِمٌ جَوَابٌ عَنْ سُؤَالِ سَائِلٍ. وَقَوْلُهُمْ: إِنَّ عَبْدَ ٱللهِ لَقَائِمٌ جَوَابٌ عَنْ إِنْكَارِ مُنْكِرٍ قِيَامَهُ. فَمَا أَحَارَ ٱلْمُتَفَلْسِفُ جَوَابًا. فَإِذَا ذَهَبَ مِثْلُ هٰذَا عَلَى ٱلْكِنْدِيِّ فَمَا ٱلظَّنُّ بِغَيْرِهِ. وَإِنْ كَانَ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْكَلَامِ مَا لَا يَحْكُمُ فِي ٱمْتِزَاجِهِ بِٱلْقُلُوبِ غَيْرُ ٱلذَّوْقِ ٱلسَّلِيمِ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

شَيْءٌ بِهِ فُتِنَ ٱلْوَرَى غَيْرُ ٱلَّذِي ... يُدْعَى ٱلْجَمَالَ وَلَسْتُ أَدْرِي مَا هُوَ

لٰكِنَّ ٱلْغَالِبَ فِي ٱلْكَلَامِ يُعْلَمُ سَبَبُ تَحْسِينِهِ وَتُعَارُ مَوَادُّ تَمْكِينِهِ وَيُجَابُ عَنِ ٱلْعِلَّةِ فِي ٱنْحِطَاطِهِ وَٱرْتِفَاعِهِ وَيُذْكَرُ ٱلْمَعْنَى فِي ٱرْتِقَائِهِ مِنْ حَضِيضِ ٱلْقَوْلِ إِلَى أَيْفَاعِهِ



الجزء الأول

في علم الانشاء

بحث في تعريف الانشاء

(عن ابي الخير وعن آداب المنشئ لابن صدر الدين)

(راجع الجزء الاول من علم الادب صفحة ١)

إِنَّ ٱلْإِنْشَاءَ عِلْمٌ يُبْحَثُ فِيهِ عَنِ ٱلْمَنْثُورِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ بَلِيغٌ وَفَصِيحٌ وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى ٱلْآدَابِ ٱلْمُعْتَبَرَةِ عِنْدَهُمْ فِي ٱلْعِبَارَاتِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ وَٱللَّائِقَةِ بِٱلْمَقَامِ . وَمَوْضُوعُهُ وَغَرَضُهُ وَغَايَتُهُ ظَاهِرَةٌ مِمَّا ذُكِرَ وَمَبَادِيهِ مَأْخُوذَةٌ مِنْ تَتَبُّعِ ٱلْخُطَبِ وَٱلرَّسَائِلِ بَلْ لَهُ ٱسْتِمْدَادٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلْعُلُومِ سِيَّمَا ٱلْحِكْمَةِ ٱلْعَمَلِيَّةِ وَٱلْعُلُومِ ٱلشَّرْعِيَّةِ وَسِيَرِ ٱلْمُلُوكِ وَوَصَايَا ٱلْعُقَلَاءِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْغَيْرِ ٱلْمُتَنَاهِيَةِ . هٰذَا مَا ذَكَرَهُ أَبُو ٱلْخَيْرِ . وَيَنْدَرِجُ فِيهِ مَا أَوْرَدَهُ فِي عِلْمِ مَبَادِئِ ٱلْإِنْشَاءِ وَأَدَوَاتِهِ فَلَا وَجْهَ لِجَعْلِهِ عِلْمًا آخَرَ . وَأَمَّا ٱبْنُ صَدْرِ ٱلدِّينِ فَإِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ سِوَى مَعْرِفَةِ ٱلْمَحَاسِنِ وَٱلْمَعَايِبِ وَنُبْذَةً مِنْ آدَابِ ٱلْمُنْشِئِ . وَزُبْدَةُ كَلَامِهِ أَنَّ لِلنَّثْرِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ نَثْرٌ مَحَاسِنُ وَمَعَايِبُ يَجِبُ عَلَى ٱلْمُنْشِئِ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا فَيَتَحَرَّزَ عَنِ ٱلْمَعَايِبِ . وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ أَعْلَى كَعْبًا فِي ٱلْعَرَبِيَّةِ مُحْتَرِزًا عَنِ ٱسْتِعْمَالِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْغَرِيبَةِ وَمَا يُخِلُّ لَهُ بِفَهْمِ ٱلْمُرَادِ وَيُوجِبُ

صُعُوبَتَهُ وَأَنْ يَتَحَرَّزَ عَنِ ٱلتَّكْرَارِ وَأَنْ يَجْعَلَ ٱلْأَلفَاظَ تَابِعَةً لِلْمَعَانِي دُونَ ٱلْعَكْسِ . إِذِ ٱلْمَعَانِي إِذَا تَرَكَّبَتْ عَلَى سَجِيَّتِهَا طَلَبَتْ لِأَنْفُسِهَا أَلْفَاظًا تَلِيقُ بِهَا فَيَحْسُنُ ٱللَّفْظُ وَٱلْمَعْنَى جَمِيعًا . وَأَمَّا جَعْلُ ٱلْأَلفَاظِ مُتَكَلَّفَةً وَٱلْمَعَانِي تَابِعَةً لَهَا فَهُوَ كَلِبَاسٍ مَلِيحٍ عَلَى مَنْظَرٍ قَبِيحٍ فَيَجِبُ أَنْ يُجْتَنَبَ عَمَّا يَفْعَلُهُ بَعْضُ مَنْ لَهُمْ شَغَفٌ بِإِيرَادِ شَيْءٍ مِنَ ٱلْمُحَسِّنَاتِ ٱللَّفْظِيَّةِ فَيَصْرِفُونَ ٱلْعِنَايَةَ إِلَى ٱلْمُحَسِّنَاتِ وَيَجْعَلُونَ ٱلْكَلَامَ كَأَنَّهُ غَيْرُ مَسُوقٍ لِإِفَادَةِ ٱلْمَعْنَى فَلَا يُبَالُونَ بِخَفَاءِ ٱلدَّلَالَاتِ وَرَكَاكَةِ ٱلْمَعْنَى . وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يَلِيقُ لِمَنْ يَتَعَاطَى ٱلْإِنْشَاءَ أَنْ يَكْتُبَ مَا يُرَادُ لَا مَا يُرِيدُ . كَمَا قِيلَ فِي ٱلصَّاحِبِ وَٱلصَّابِئِ : إِنَّ ٱلصَّابِئَ يَكْتُبُ مَا يُرَادُ وَٱلصَّاحِبُ يَكْتُبُ مَا يُرِيدُ . وَلَا بُدَّ أَنْ يُلَاحَظَ فِي كِتَابِ ٱلنَّثْرِ حَالُ ٱلْمُرْسِلِ وَٱلْمُرْسَلِ إِلَيْهِ وَيُعَنْوِنَ ٱلْكِتَابُ بِمَا يُنَاسِبُ ٱلْمَقَامَ

الفصل الاول

في الفصاحة

البحث الاوَّل

في تحديد الفصاحة

(عن الفصاحة والبلاغة للامام السيوطي باختصار)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الاول من علم الادب)

اَلْفَصَاحَةُ لُغَةً تُنْبِئُ عَنِ ٱلْإِبَانَةِ وَٱلظُّهُورِ يُقَالُ : فَصُحَ ٱلْاَعْجَمِيُّ وَاَفْصَحَ اِذَا ٱنْطَلَقَ لِسَانُهُ وَخَلُصَتْ لُغَتُهُ مِنَ ٱللُّكْنَةِ وَجَادَتْ فَلَمْ يَلْحَنْ . وَاَفْصَحَ بِهِ اَيْ صَرَّحَ . وَعِنْدَ اَهْلِ ٱلْمَعَانِي تُطْلَقُ عَلَى مَعَانٍ مِنْهَا : وَصْفٌ فِي ٱلْكَلَامِ بِهِ يَقَعُ ٱلتَّفَاضُلُ وَيَثْبُتُ ٱلْإِعْجَازُ . قَالَ ٱلْإِمَامُ فَخْرُ ٱلدِّينِ ٱلرَّازِيُّ : اِعْلَمْ اَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ خُلُوصُ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلتَّعْقِيدِ . وَاَصْلُهَا مِنْ قَوْلِهِمْ : اَفْصَحَ ٱللَّبَنُ اِذَا ذَهَبَتْ عَنْهُ ٱلرَّغْوَةُ . وَهِيَ بِٱلْاِصْطِلَاحِ : عِبَارَةٌ عَنِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْبَيِّنَةِ ٱلظَّاهِرَةِ ٱلْمُتَبَادِرَةِ اِلَى ٱلْفَهْمِ وَٱلْمَأْنُوسَةِ ٱلْاِسْتِعْمَالِ لِمَكَانِ حُسْنِهَا

البحث الثاني

في الفرق بين الفصاحة والبلاغة وموضوعهما

(عن كتاب الصناعتين الكتابة والانشاء لابي هلال العسكري باختصار)

اَلْبَلَاغَةُ مِنْ قَوْلِهِمْ : بَلَغْتُ ٱلْغَايَةَ اِذَا ٱنْتَهَيْتُ اِلَيْهَا وَبَلَّغْتُهَا

غيري. ومَبلَغ الشيءِ منتهاه . والمبالغة في الشيء الانتهاء الى غايته. فسُمِّيت البلاغة بلاغة لأنها تُنهي المعنى الى قلب السامع فيفهمه وسُمّيت البُلغة بُلغة لأنك تتبلّغ بها فتنتهي بك الى ما فوقها وهي البلاغ ايضاً. ويقال: الدنيا بلاغ لأنها تؤديك الى الآخرة. والبلاغ ايضاً التبليغ. ومنه: هذا بلاغ للناس اي تبليغ. ويقال: بلغ الرجل بلاغة اذا صار بليغاً كما يقال نبل نبالة اذا صار نبيلاً. وكلام بليغ وبَلْغ (بالفتح) كما يقال وجيز ووَجْز. ورجل بِلْغ (بالكسر) يبلغ ما يريد وفي مثل لهم: احمق بِلْغ. ويقال: ابلغت في الكلام اذا اتيت بالبلاغة فيه كما تقول: ابرحت اذا اتيت [illegible] الأمر الجسيم. والبلاغة من صفة المتكلم فلهذا لا [illegible] الله عز وجل بانه بليغ اذ لا يجوز ان يوصف بصفة [illegible] للكلام وتسميتنا المتكلم انه [illegible] بليغ كما تقول: فلان رجل محكم [illegible] وكذلك كثرة الاستعمال جعلت تسمية [illegible] كالحقيقة

اما الفصاحة فقد قال قوم [illegible] في نفسه اذا اظهره. والشاهد على [illegible] افصح الصبح اذا اضاء وفصح [illegible] بعد ان لم يكن يبين وفصح [illegible] على جهة الصواب دون [illegible]

وَٱلْبَلَاغَةُ بِمَعْنًى وَاحِدٍ إِذَا كَانَ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِنَّمَا هُوَ ٱلْإِبَانَةُ عَنِ ٱلْمَعْنَى وَٱلْإِظْهَارُ لَهُ. وَقَالَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا: ٱلْفَصَاحَةُ تَمَامُ آلَةِ ٱلْبَيَانِ. فَلِهَذَا لَا يَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى ٱللهُ تَعَالَى فَصِيحًا إِذَا كَانَتِ ٱلْفَصَاحَةُ تَتَضَمَّنُ مَعْنَى ٱلْآلَةِ وَلَا يَجُوزُ عَلَى ٱللهِ تَعَالَى ٱلْآلَةُ. وَيُوصَفُ كَلَامُهُ بِٱلْفَصَاحَةِ لِمَا يَتَضَمَّنُ مِنْ تَمَامِ ٱلْبَيَانِ. وَٱلدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ ٱلْأَلْثَغَ وَٱلتَّمْتَامَ لَا يُسَمَّيَانِ فَصِيحَيْنِ لِنُقْصَانِ آلَتِهِمَا عَنْ إِقَامَةِ ٱلْحُرُوفِ. وَقِيلَ: زِيَادٌ ٱلْأَعْجَمُ. لِنُقْصَانِ آلَةِ نُطْقِهِ عَنْ إِقَامَةِ ٱلْحُرُوفِ وَكَانَ يُعَبِّرُ عَنِ ٱلْحِمَارِ بِٱلْهِمَارِ فَهُوَ أَعْجَمُ وَشِعْرُهُ فَصِيحٌ لِتَمَامِ بَيَانِهِ. فَعَلَى هَذَا تَكُونُ ٱلْفَصَاحَةُ وَٱلْبَلَاغَةُ مُخْتَلِفَتَيْنِ وَذَلِكَ أَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ تَمَامُ آلَةِ ٱلْبَيَانِ فَهِيَ مَقْصُورَةٌ عَلَى ٱللَّفْظِ لِأَنَّ ٱلْآلَةَ تَتَعَلَّقُ بِٱللَّفْظِ دُونَ ٱلْمَعْنَى. وَٱلْبَلَاغَةُ إِنَّمَا هِيَ إِنْهَاءُ ٱلْمَعْنَى فِي ٱلْقَلْبِ فَكَأَنَّهَا مَقْصُورَةٌ عَلَى ٱلْمَعْنَى. وَمِنَ ٱلدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ تَتَضَمَّنُ ٱللَّفْظَ وَٱلْبَلَاغَةَ تَتَنَاوَلُ ٱلْمَعْنَى أَنَّ ٱلْبَبْغَاءَ يُسَمَّى فَصِيحًا وَلَا يُسَمَّى بَلِيغًا إِذْ هُوَ مُقِيمٌ ٱلْحُرُوفِ وَلَيْسَ لَهُ قَصْدٌ إِلَى ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي يُؤَدِّيهِ. وَقَدْ يَجُوزُ مَعَ هَذَا أَنْ يُسَمَّى ٱلْكَلَامُ ٱلْوَاحِدُ فَصِيحًا بَلِيغًا إِذَا كَانَ وَاضِحَ ٱلْمَعْنَى سَهْلَ ٱللَّفْظِ جَيِّدَ ٱلسَّبْكِ غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ فَجٍّ وَلَا مُتَكَلَّفٍ وَخِمٍ وَلَا يَمْنَعُهُ مِنْ أَحَدِ ٱلْإِسْمَيْنِ شَيْءٌ لِمَا فِيهِ مِنْ إِيضَاحِ ٱلْمَعْنَى وَتَقْوِيمِ ٱلْحُرُوفِ. وَشَهِدْتُ قَوْمًا يَذْهَبُونَ إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ لَا يُسَمَّى فَصِيحًا حَتَّى يَجْمَعَ مَعَ هَذِهِ ٱلنُّعُوتِ فَخَامَةً وَشِدَّةَ جَزَالَةٍ فَيَكُونَ مِثْلَ كَلَامِ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ: إِنَّ ٱلنَّاسَ عَبِيدُ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلدِّينُ لَغْوٌ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ يَحُوطُونَهُ مَا دَرَّتْ بِهِ مَعَايِشُهُمْ فَإِذَا

مُحِصُوا بِٱلْأَبْتِلَاءِ قَلَّ ٱلدَّيَّانُونَ . وَمِثْلُ ٱلْمَنْظُومِ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ :

تَرَى غَابَةَ ٱلْخَطِّيِّ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ كَمَا أَشْرَقَتْ فَوْقَ ٱلصِّوَارِ قُرُونُهَا

(قَالُوا) وَإِذَا كَانَ ٱلْكَلَامُ يَجْمَعُ نُعُوتَ ٱلْجُودَةِ وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ فَخَامَةٌ وَفَضْلُ جَزَالَةٍ سُمِّيَ بَلِيغًا ثُمَّ فَصِيحًا كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ وَقَدْ سُئِلَ عَنْ حَالِهِ عِنْدَ ٱلْوَفَاةِ فَقَالَ : مَا حَالُ مَنْ يُرِيدُ سَفَرًا بَعِيدًا بِلَا زَادٍ وَيَقْدَمُ عَلَى مَلِكٍ عَادِلٍ بِغَيْرِ حُجَّةٍ وَيَسْكُنُ قَبْرًا مُوحِشًا بلا انيس . وَقَوْلِ آخَرَ لِأَخٍ لَهُ : مَدَدتَ إِلَى ٱلْمَوَدَّةِ يَدًا فَشَكَرْنَاكَ وشفعتَ ذَٰلِكَ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلْجَفَاءِ فَعَذَرْنَاكَ وَٱلرُّجُوعُ إِلَى مَحْمُودِ ٱلْوُدِّ أَوْلَى بِكَ مِنَ ٱلْمُقَامِ عَلَى مَكْرُوهِ ٱلصَّدِّ . وَٱسْتَدَلُّوا عَلَى صِحَّةِ هٰذا ٱلْمَذْهَبِ بِقَوْلِ ٱلْعَاصِي بْنِ عَدِيٍّ : ٱلشَّجَاعَةُ قَلْبٌ رَكِينٌ وَٱلْفَصَاحَةُ لِسَانٌ رَزِينٌ . وَٱللِّسَانُ هَا هُنَا ٱلْكَلَامُ . وَٱلرَّزِينُ ٱلَّذِي فِيهِ فَخَامَةٌ وَجَزَالَةٌ وليس ٱلْغَرَضُ فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ سُلُوكَ مَذْهَبِ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ . وَإنما قصدتُ فِيهِ مَقْصَدَ صُنَّاعِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَٱلْكُتَّاب فلهذا لم أُطِلِ ٱلْكَلَامَ فِي هٰذَا ٱلْفَصْلِ

البحث الثالث

في حقيقة الفصاحة

(عن المثل السائر)

(راجع صفحة ٣ من علم الادب)

إِعْلَمْ أَنَّ هٰذَا بَابٌ مُتَعَذِّرٌ عَلَى ٱلْوَالِجِ وَمَسْلَكٌ مُتَوَعِّرٌ عَلَى

ٱلنَّاهِجِ وَلَمْ يَزَلِ ٱلْعُلَمَاءُ مِنْ قَدِيمِ ٱلْوَقْتِ وَحَدِيثِهِ يُكْثِرُونَ ٱلْقَوْلَ فِيهِ وَٱلْبَحْثَ عَنْهُ وَلَمْ أَجِدْ مِنْ ذٰلِكَ مَا يُعَوَّلُ عَلَيْهِ إِلَّا ٱلْقَلِيلَ . وَغَايَةُ مَا يُقَالُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ أَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ هِيَ ٱلظُّهُورُ وَٱلْبَيَانُ فِي أَصْلِ ٱلْوَضْعِ ٱللُّغَوِيِّ يُقَالُ: أَفْصَحَ ٱلصُّبْحُ إِذَا ظَهَرَ ثُمَّ إِنَّهُمْ يَقِفُونَ عِنْدَ ذٰلِكَ وَلَا يَكْشِفُونَ عَنِ ٱلسِّرِّ فِيهِ . وَبِهٰذَا ٱلْقَوْلِ لَا تَتَبَيَّنُ حَقِيقَةُ ٱلْفَصَاحَةِ لِأَنَّهُ يُعْتَرَضُ عَلَيْهِ بِوُجُوهٍ مِنَ ٱلِاعْتِرَاضَاتِ . (أَحَدُهَا) : أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنِ ٱللَّفْظُ ظَاهِرًا بَيِّنًا لَمْ يَكُنْ فَصِيحًا ثُمَّ إِذَا ظَهَرَ وَتَبَيَّنَ صَارَ فَصِيحًا. (ٱلْوَجْهُ ٱلثَّانِي) : أَنَّهُ إِذَا كَانَ ٱللَّفْظُ ٱلْفَصِيحُ هُوَ ٱلظَّاهِرَ ٱلْبَيِّنَ فَقَدْ صَارَ ذٰلِكَ بِٱلنِّسَبِ وَٱلْإِضَافَاتِ إِلَى ٱلْأَشْخَاصِ فَإِنَّ ٱللَّفْظَ قَدْ يَكُونُ ظَاهِرًا لِزَيْدٍ وَلَا يَكُونُ ظَاهِرًا لِعَمْرٍو فَهُوَ إِذَنْ فَصِيحٌ عِنْدَ هٰذَا وَغَيْرُ فَصِيحٍ عِنْدَ هٰذَا . وَلَيْسَ كَذٰلِكَ بَلِ ٱلْفَصِيحُ هُوَ فَصِيحٌ عِنْدَ ٱلْجَمِيعِ لَا خِلَافَ فِيهِ بِحَالٍ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ لِأَنَّهُ إِذَا تَحَقَّقَ حَدُّ ٱلْفَصَاحَةِ وَعُرِفَ مَا هِيَ لَمْ يَبْقَ فِي ٱللَّفْظِ ٱلَّذِي يَخْتَصُّ بِهِ خِلَافٌ . (ٱلْوَجْهُ ٱلثَّالِثُ) : أَنَّهُ إِذَا جِيءَ بِلَفْظٍ قَبِيحٍ يَنْبُو عَنْهُ ٱلسَّمْعُ وَهُوَ مَعَ ذٰلِكَ ظَاهِرٌ بَيِّنٌ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فَصِيحًا وَلَيْسَ كَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ وَصْفُ حُسْنٍ لِلَّفْظِ لَا وَصْفُ قُبْحٍ . فَهٰذِهِ ٱلِاعْتِرَاضَاتُ ٱلثَّلَاثَةُ وَارِدَةٌ عَلَى قَوْلِ ٱلْقَائِلِ إِنَّ ٱللَّفْظَ ٱلْفَصِيحَ هُوَ ٱلظَّاهِرُ ٱلْبَيِّنُ مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ. وَلَمَّا وَقَفْتُ عَلَى أَقْوَالِ ٱلنَّاسِ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ مَلَكَتْنِي ٱلْحَيْرَةُ فِيهَا وَلَمْ يَثْبُتْ عِنْدِي مِنْهَا مَا أُعَوِّلُ عَلَيْهِ وَلِكَثْرَةِ مُلَابَسَتِي هٰذَا ٱلْفَنَّ وَمُعَارَكَتِي إِيَّاهُ ٱنْكَشَفَ لِي ٱلسِّرُّ فِيهِ وَسَأُوضِحُهُ فِي كِتَابِي هٰذَا

وَأُحقِّقُ ٱلْقَوْلَ فِيهِ فَأَقُولُ : إِنَّ ٱلْكَلَامَ ٱلْفَصِيحَ هُوَ ٱلظَّاهِرُ ٱلْبَيِّنُ وَأَعْنِي بِٱلظَّاهِرِ ٱلْبَيِّنِ أَنْ تَكُونَ أَلْفَاظُهُ مَفْهُومَةً لَا يُحْتَاجُ فِي فَهْمِهَا إِلَى ٱسْتِخْرَاجٍ مِنْ كِتَابِ لُغَةٍ . وَإِنَّمَا كَانَتْ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ لِأَنَّهَا تَكُونُ مَأْلُوفَةَ ٱلِٱسْتِعْمَالِ بَيْنَ أَرْبَابِ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ دَائِرَةً فِي كَلَامِهِمْ . وَإِنَّمَا كَانَتْ مَأْلُوفَةَ ٱلِٱسْتِعْمَالِ دَائِرَةً فِي ٱلْكَلَامِ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ لِمَكَانِ حُسْنِهَا . وَذٰلِكَ أَنَّ أَرْبَابَ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ غَرْبَلُوا ٱللُّغَةَ بِٱعْتِبَارِ أَلْفَاظِهَا وَسَبَرُوا وَقَسَّمُوا فَٱخْتَارُوا ٱلْحَسَنَ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ فَٱسْتَعْمَلُوهُ وَنَفَوُا ٱلْقَبِيحَ مِنْهَا فَلَمْ يَسْتَعْمِلُوهُ فَحُسْنُ ٱلِٱسْتِعْمَالِ سَبَبُ ٱسْتِعْمَالِهَا دُونَ غَيْرِهَا وَٱسْتِعْمَالُهَا سَبَبُ ظُهُورِهَا وَبَيَانِهَا . فَٱلْفَصِيحُ إِذَنْ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ هُوَ ٱلْحَسَنُ . فَإِنْ قِيلَ : مِنْ أَيِّ وَجْهٍ عَلِمَ أَرْبَابُ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ ٱلْحَسَنَ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ حَتَّى ٱسْتَعْمَلُوهُ وَعَلِمُوا ٱلْقَبِيحَ مِنْهَا حَتَّى نَفَوْهُ وَلَمْ يَسْتَعْمِلُوهُ . قُلْتُ فِي ٱلْجَوَابِ : إِنَّ هٰذَا مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْمَحْسُوسَةِ ٱلَّتِي شَاهِدُهَا مِنْ نَفْسِهَا لِأَنَّ ٱلْأَلْفَاظَ دَاخِلَةٌ فِي حَيِّزِ ٱلْأَصْوَاتِ فَٱلَّذِي يَسْتَلِذُّهُ ٱلسَّمْعُ مِنْهَا وَيَمِيلُ إِلَيْهِ هُوَ ٱلْحَسَنُ وَٱلَّذِي يَكْرَهُهُ وَيَنْفِرُ عَنْهُ ٱلْقَبِيحُ . أَلَا تَرَى أَنَّ ٱلسَّمْعَ يَسْتَلِذُّ صَوْتَ ٱلْبُلْبُلِ مِنَ ٱلطَّيْرِ وَصَوْتَ ٱلشُّحْرُورِ وَيَمِيلُ إِلَيْهِمَا وَيَكْرَهُ صَوْتَ ٱلْغُرَابِ وَيَنْفِرُ عَنْهُ وَكَذٰلِكَ يَكْرَهُ نَهِيقَ ٱلْحِمَارِ وَلَا يَجِدُ ذٰلِكَ فِي صَهِيلِ ٱلْفَرَسِ . وَٱلْأَلْفَاظُ جَارِيَةٌ هٰذَا ٱلْمَجْرَى فَإِنَّهُ لَا خِلَافَ فِي أَنَّ لَفْظَةَ ٱلْمُزْنَةِ وَٱلدِّيمَةِ حَسَنَةٌ يَسْتَلِذُّهَا ٱلسَّمْعُ . وَأَنَّ لَفْظَةَ ٱلْبُعَاقِ قَبِيحَةٌ يَكْرَهُهَا ٱلسَّمْعُ . وَهٰذِهِ ٱللَّفَظَاتُ ٱلثَّلَاثُ مِنْ صِفَةِ ٱلْمَطَرِ وَهِيَ تَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ . وَمَعَ هٰذَا فَإِنَّكَ تَرَى لَفْظَتَيِ ٱلْمُزْنَةِ

وَالدِّيمَةِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمَا ، أَلُوفَيْ الاسْتِعْمَالِ وَتَرَى لَفْظَ الْبُعَاقِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُ ، مَتْرُوكًا لَا يُسْتَعْمَلُ . وَإِنْ اسْتُعْمِلَ فَإِنَّمَا يَسْتَعْمِلُهُ جَاهِلٌ بِحَقِيقَةِ الْفَصَاحَةِ أَوْ ذَوْقُهُ غَيْرُ ذَوْقٍ سَلِيمٍ وَإِنْ كَانَ عَرَبِيًّا مَحْضًا مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأَقْدَمِينَ فَإِنَّ حَقِيقَةَ الشَّيْءِ إِذَا عُلِمَتْ وَجَبَ الْوُقُوفُ عِنْدَهَا وَلَمْ يُعَرَّجْ عَلَى مَا خَرَجَ عَنْهَا . وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ الْفَصِيحَ مِنَ الْأَلْفَاظِ هُوَ الظَّاهِرُ الْبَيِّنُ وَإِنَّمَا كَانَ ظَاهِرًا بَيِّنًا لِأَنَّهُ مَأْلُوفُ الِاسْتِعْمَالِ وَإِنَّمَا كَانَ مَأْلُوفَ الِاسْتِعْمَالِ لِمَكَانِ حُسْنِهِ وَحُسْنُهُ مُدْرَكٌ بِالسَّمْعِ . وَالَّذِي يُدْرَكُ بِالسَّمْعِ إِنَّمَا هُوَ اللَّفْظُ لِأَنَّهُ صَوْتٌ يَأْتَلِفُ عَنْ مَخَارِجِ الْحُرُوفِ فَمَا اسْتَلَذَّهُ السَّمْعُ مِنْهُ فَهُوَ الْحَسَنُ وَمَا كَرِهَهُ فَهُوَ الْقَبِيحُ وَالْحَسَنُ هُوَ الْمَوْصُوفُ بِالْفَصَاحَةِ وَالْقَبِيحُ غَيْرُ مَوْصُوفٍ بِفَصَاحَةٍ لِأَنَّهُ ضِدُّهَا لِمَكَانِ قُبْحِهِ . وَقَدْ مَثَّلْتُ الْمِثَالَ الْمُتَقَدِّمَ بِلَفْظَةِ الْمُزْنَةِ وَالدِّيمَةِ وَلَفْظَةِ الْبُعَاقِ وَلَوْ كَانَتِ الْفَصَاحَةُ لِأَمْرٍ يَرْجِعُ إِلَى الْمَعْنَى لَكَانَتْ هَذِهِ الْأَلْفَاظُ فِي الدَّلَالَةِ عَلَيْهِ سَوَاءً لَيْسَ مِنْهَا حَسَنٌ وَمِنْهَا قَبِيحٌ . وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ عَلِمْنَا أَنَّهَا تَخُصُّ اللَّفْظَ دُونَ الْمَعْنَى . وَلَيْسَ لِقَائِلٍ هَهُنَا أَنْ يَقُولَ لَا لَفْظَ إِلَّا بِمَعْنَى فَكَيْفَ فَصَلْتَ أَنْتَ بَيْنَ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى . قُلْتُ : لَمْ أَفْصِلْ بَيْنَهُمَا وَإِنَّمَا خَصَصْتُ اللَّفْظَ بِصِفَةٍ هِيَ لَهُ وَالْمَعْنَى يَجِيءُ فِيهِ ضِمْنًا وَتَبَعًا

البحث الرابع

في احكام الفصاحة وشروطها

(عن المثل السائر)

(راجع صفحة ٤٣ من علم الادب)

اِعلَمْ أَنَّهُ يحتاجُ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي تَأْلِيفِهِ إِلَى ثَلاثَةِ أَشْيَاءَ : (ٱلْأَوَّلُ) مِنْهَا ٱخْتِيَارُ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُفْرَدَةِ . وَحُكْمُ ذٰلِكَ حُكْمُ ٱللَّآلِئِ ٱلْمُبَدَّدَةِ فَإِنَّهَا تُتَخَيَّرُ وَتُنْتَقَى قَبْلَ ٱلنَّظْمِ . (ٱلثَّانِي) نَظْمُ كُلِّ كَلِمَةٍ مَعَ أُخْتِهَا فِي ٱلْمُشَاكَلَةِ لَهَا لِئَلَّا يَجِيءَ ٱلْكَلَامُ قَلِقًا نَافِرًا عَنْ مَوَاضِعِهِ وَحُكْمُ ذٰلِكَ حُكْمُ ٱلعِقْدِ ٱلْمَنْظُومِ فِي ٱقْتِرَانِ كُلِّ لُؤْلُؤَةٍ مِنْهُ بِأُخْتِهَا ٱلْمُشَاكِلَةِ لَهَا . (ٱلثَّالِثُ) ٱلْغَرَضُ ٱلْمَقْصُودُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِ وَحُكْمُ ذٰلِكَ حُكْمُ ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي يُوضَعُ فِيهِ ٱلعِقْدُ ٱلْمَنْظُومُ فَتَارَةً يُجْعَلُ إِكْلِيلًا عَلَى ٱلرَّأْسِ وَتَارَةً يُجْعَلُ قِلَادَةً فِي ٱلْعُنُقِ وَتَارَةً يُجْعَلُ شَنْفًا فِي ٱلْأُذُنِ وَلِكُلِّ مَوْضِعٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعِ هَيْئَةٌ مِنَ ٱلْحُسْنِ تَخُصُّهُ . فَهٰذِهِ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ لَا بُدَّ لِلْخَطِيبِ وَٱلشَّاعِرِ مِنَ ٱلْعِنَايَةِ بِهَا وَهِيَ ٱلْأَصْلُ ٱلْمُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي تَأْلِيفِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ . فَٱلْأَوَّلُ وَٱلثَّانِي مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلْمَذْكُورَةِ هُمَا ٱلْمُرَادُ بِٱلْفَصَاحَةِ . وَٱلثَّلَاثَةُ بِجُمْلَتِهَا هِيَ ٱلْمُرَادُ بِٱلْبَلَاغَةِ . وَهٰذَا ٱلْمَوْضِعُ يَضِلُّ فِي سُلُوكِ طَرِيقِهِ ٱلْعُلَمَاءُ بِصِنَاعَةِ صَوْغِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ فَكَيْفَ ٱلْجُهَّالُ ٱلَّذِينَ لَمْ تَنْفَحْهُمْ رَائِحَتُهُ . وَمَنْ

ٱلَّذِي يُؤْتِيهِ ٱللهُ فِطْرَةً نَاصِعَةً يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ حَتَّى يَنظُرَ إِلَى مَا يَسْتَعْمِلُهُ مِنَ ٱلأَلْفَاظِ فَيَضَعَهَا فِي مَوَاضِعِهَا

وَقَدْ ذَكَرَ مَنْ تَقَدَّمَنِي مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْبَيَانِ لِلأَلْفَاظِ ٱلْمُفْرَدَةِ خَصَائِصَ وَهَيْئَاتٍ تَتَّصِفُ بِهَا وَٱخْتَلَفُوا فِي ذٰلِكَ وَٱسْتَحْسَنَ أَحَدُهُمْ شَيْئًا فَخُولِفَ فِيهِ وَكَذٰلِكَ ٱسْتَقْبَحَ ٱلآخَرُ شَيْئًا فَخُولِفَ فِيهِ . وَلَوْ حَقَّقُوا ٱلنَّظَرَ وَوَقَفُوا عَلَى ٱلسِّرِّ فِي ٱتِّصَافِ بَعْضِ ٱلأَلْفَاظِ بِٱلْحُسْنِ وَبَعْضِهَا بِٱلْقُبْحِ لَمَا كَانَ بَيْنَهُمْ خِلَافٌ فِي شَيْءٍ مِنْهَا

وَقَدْ رَأَيْتُ جَمَاعَةً مِنَ ٱلْجُهَّالِ إِذَا قِيلَ لِأَحَدِهِمْ إِنَّ هٰذِهِ ٱللَّفْظَةَ حَسَنَةٌ وَهٰذِهِ قَبِيحَةٌ أَنْكَرَ ذٰلِكَ وَقَالَ : كُلُّ ٱلأَلْفَاظِ حَسَنٌ وَٱلْوَاضِعُ لَمْ يَضَعْ إِلَّا حَسَنًا . وَمَنْ يَبْلُغُ جَهْلُهُ إِلَى أَنْ لَا يُفَرِّقَ بَيْنَ لَفْظَةِ ٱلْغُصْنِ وَلَفْظَةِ ٱلْعُسْلُوجِ وَبَيْنَ لَفْظَةِ ٱلْمُدَامَةِ وَلَفْظَةِ ٱلإِسْفِنْطِ وَبَيْنَ لَفْظَةِ ٱلسَّيْفِ وَلَفْظَةِ ٱلْخَنْشَلِيلِ وَبَيْنَ لَفْظَةِ ٱلأَسَدِ وَلَفْظَةِ ٱلْفَدَوْكَسِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُخَاطَبَ بِخِطَابٍ وَيُجَاوَبَ بِجَوَابٍ

وَقَدْ بَقِيَتْ هُنَاكَ أَوْصَافٌ أُخَرُ يَنْبَغِي أَنْ يُنَبَّهَ عَلَيْهَا . فَمِنْهَا أَنْ لَا تَكُونَ ٱلْكَلِمَةُ وَحْشِيَّةً . وَقَدْ خَفِيَ ٱلْوَحْشِيُّ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنَ ٱلْمُنْتَمِينَ إِلَى صِنَاعَةِ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ وَظَنُّوهُ ٱلْمُسْتَقْبَحَ مِنَ ٱلأَلْفَاظِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ بَلِ ٱلْوَحْشِيُّ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ أَحَدُهُمَا غَرِيبٌ حَسَنٌ وَٱلآخَرُ غَرِيبٌ قَبِيحٌ . وَذٰلِكَ أَنَّهُ مَنْسُوبٌ إِلَى ٱسْمِ ٱلْوَحْشِ ٱلَّذِي يَسْكُنُ ٱلْقِفَارَ وَلَيْسَ بِأَنِيسٍ وَكَذٰلِكَ ٱلأَلْفَاظُ ٱلَّتِي لَمْ تَكُنْ مَأْنُوسَةَ ٱلِٱسْتِعْمَالِ . وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ ٱلْوَحْشِ أَنْ يَكُونَ مُسْتَقْبَحًا بَلْ أَنْ يَكُونَ نَافِرًا لَا يَأْلَفُ

ٱلإنس فتارةً يكونُ حسناً وتارةً يكونُ قبيحاً . وعلى هذا فإنَّ أحد قسمي ٱلوحشيّ وهو ٱلغريبُ ٱلحسَنُ يختلفُ بإختلافِ ٱلنسبِ وٱلإضافاتِ . وأمّا ٱلقسمُ ٱلآخرُ من ٱلوحشيّ ٱلذي هو قبيحٌ فإن ٱلناسَ في ٱستقباحِهِ سواء ولا يختلفُ بهِ عربيٌّ بادٍ ولا قرويٌّ متحضّر . وأحسنُ ٱلألفاظِ ما كانَ مألوفاً متداولاً لأنَّهُ لم يكنْ مألوفاً متداولاً إلّا لمكانِ حُسْنِهِ وقد تقدَّمَ ٱلكلامُ على ذلكَ في بابِ ٱلفصاحةِ . فإنَّ أربابَ ٱلخطابةِ وٱلشعرِ نظروا إلى ٱلألفاظِ ونقّبوا عنها ثمَّ عدلوا إلى ٱلأحسنِ منها فٱستعملوهُ وتركوا ما سواهُ وهو أيضاً يتفاوتُ في درجاتِ حُسْنِهِ فٱلألفاظُ إذنْ تنقسمُ ثلاثةَ أقسام : قسمانِ حسنانِ وقسمٌ قبيحٌ . فٱلقسمانِ ٱلحسنانِ أحدُهما ما تداولَ ٱستعمالَهُ ٱلأوّلُ وٱلآخرُ من ٱلزمنِ ٱلقديمِ إلى زمانِنا هذا ولا يطلَقُ عليهِ أنهُ وحشيٌّ . وٱلآخرُ ما تداولَ ٱستعمالَهُ ٱلأوّلُ دونَ ٱلآخرِ ويختلفُ في ٱستعمالهِ بٱلنسبةِ إلى ٱلزمنِ وأهلِهِ وهذا هو ٱلذي لا يُعابُ ٱستعمالُهُ عندَ ٱلعربِ لأنَّهُ لم يكنْ عندَهم وحشيّاً وهو عندَنا وحشيٌّ

ولا يسبقْ وهمكَ أيُّها ٱلمتأمّلُ إلى قولِ ٱلقائلِ ٱلذي غلبَ عليهِ غِلَظُ ٱلطبعِ وفجاجةُ ٱلذهنِ بأنَّ ٱلعربَ كانتْ تستعملُ من ٱلألفاظِ كذا وكذا فهذا دليلٌ على أنَّهُ حسنٌ . بلْ ينبغي أنْ تعلمَ أنَّ ٱلذي نستحسنُهُ نحنُ في زمانِنا هذا هو ٱلذي كانَ عندَ ٱلعربِ مستحسناً وٱلذي نستقبحُهُ هو ٱلذي كانَ عندَهم مستقبحاً . وٱلاستعمالُ ليسَ بدليلٍ على ٱلحُسْنِ فإنّا نحنُ نستعملُ ٱلآنَ من ٱلكلامِ ما

ليس بحسن وإنما نستعمله لضرورة فليس استعمال الحسن بممكن في كل الأحوال . وهذا طريق يضل بغير العارف بمسالكه ومن لم يعرف صناعة النظم والنثر وما يجده صاحبها من الكلفة في صوغ الألفاظ واختيارها فإنه معذور في أن يقول ما قال :

لا يعرف الحزن إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

ومع هذا فإن قول القائل : بأن العرب كانت تستعمل من الألفاظ كذا وكذا وهذا دليل على أنه حسن . قول فاسد لا يصدر إلا عن جاهل . فإن استحسان الألفاظ واستقباحها لا يؤخذ بالتقليد من العرب لأنه شيء ليس للتقليد فيه مجال وإنما هو شيء له خصائص وهيئات وعلامات إذا وجدت علم حسنه من قبحه . وأما الذي نقلد العرب فيه من الألفاظ فإنما هو الاستشهاد بأشعارها على ما ينقل من لغتها والأخذ بأقوالها في الأوضاع النحوية في رفع الفاعل ونصب المفعول وجر المضاف إليه وجزم الشرط وأشباه ذلك وما عداه فلا . وحسن الألفاظ وقبحها ليس إضافيا إلى زيد دون عمرو أو إلى عمرو دون زيد لأنه وصف ذوقي لا يتغير إلا بالإضافة . ألا ترى أن لفظة المزنة متلاحسنة عند الناس كافة من العرب وغيرهم وهلم جرا لا يختلف أحد في حسنها . وكذلك لفظة البعاق فإنها قبيحة عند الناس كافة من العرب وغيرهم فإذا استعملتها العرب لا يكون استعمالهم إياها مخرجا لها عن القبح ولا يلتفت إذن إلى استعمالهم إياها بل يعاب مستعملها ويغلظ له النكير حيث استعملها

فَلَا تَظُنَّ أَنَّ ٱلْوَحْشِيَّ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ مَا يَكْرَهُهُ سَمْعُكَ وَيَثْقُلُ عَلَيْكَ ٱلنُّطْقُ بِهِ وَإِنَّمَا هُوَ ٱلْغَرِيبُ ٱلَّذِي يَقِلُّ ٱسْتِعْمَالُهُ فَتَارَةً يَخِفُّ عَلَى سَمْعِكَ وَلَا تَجِدُ بِهِ كَرَاهَةً وَتَارَةً يَثْقُلُ عَلَى سَمْعِكَ وَتَجِدُ مِنْهُ ٱلْكَرَاهَةَ. وَذٰلِكَ فِي ٱللَّفْظِ عَيْبَانِ: (أَحَدُهُمَا) أَنَّهُ غَرِيبُ ٱلِٱسْتِعْمَالِ (وَٱلْآخَرُ) أَنَّهُ ثَقِيلٌ عَلَى ٱلسَّمْعِ كَرِيهٌ عَلَى ٱلذَّوْقِ. وَإِذَا كَانَ ٱللَّفْظُ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ فَلَا مَزِيدَ عَلَى فَظَاظَتِهِ وَغَلَاظَتِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلْوَحْشِيَّ ٱلْغَلِيظَ وَيُسَمَّى أَيْضًا ٱلْمُتَوَعِّرَ وَلَيْسَ وَرَاءَهُ فِي ٱلْقُبْحِ دَرَجَةٌ أُخْرَى وَلَا يَسْتَعْمِلُهُ إِلَّا أَجْهَلُ ٱلنَّاسِ مِمَّنْ لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِهِ شَيْءٌ مِنْ مَعْرِفَةِ هٰذَا ٱلْفَنِّ أَصْلًا. فَإِنْ قِيلَ: فَمَا هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ. قُلْتُ: قَدْ ثَبَتَ لَكَ أَنَّهُ مَا كَرِهَهُ سَمْعُكَ وَثَقُلَ عَلَى لِسَانِكَ ٱلنُّطْقُ بِهِ. وَسَأَضْرِبُ لَكَ فِي ذٰلِكَ مِثَالًا فَمِنْهُ مَا وَرَدَ لِتَأَبَّطَ شَرًّا فِي كِتَابِ ٱلْحَمَاسَةِ:

يَظَلُّ بِمَوْمَاةٍ وَيُمْسِي بِغَيْرِهَا جَحِيشًا وَيَعْرَوْرِي ظُهُورَ ٱلْمَسَالِكِ

فَإِنَّ لَفْظَةَ (جَحِيش) مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُنْكَرَةِ ٱلْقَبِيحَةِ. وَيَا لِلّٰهِ ٱلْعَجَبُ أَلَيْسَ أَنَّهَا بِمَعْنَى (فَرِيد) وَفَرِيدٌ لَفْظَةٌ حَسَنَةٌ رَائِقَةٌ وَلَوْ وُضِعَتْ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ مَوْضِعَ جَحِيشٍ لَمَا ٱخْتَلَّ شَيْئًا مِنْ وَزْنِهِ. فَتَأَبَّطَ شَرًّا مَلُومٌ مِنْ وَجْهَيْنِ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ: أَحَدُهُمَا أَنَّهُ ٱسْتَعْمَلَ ٱلْقَبِيحَ. وَٱلْآخَرُ أَنَّهُ كَانَتْ لَهُ مَنْدُوحَةٌ عَنِ ٱسْتِعْمَالِهِ فَلَمْ يَعْدِلْ عَنْهُ. وَمِمَّا هُوَ أَقْبَحُ مِنْهَا مَا وَرَدَ لِأَبِي تَمَّامٍ قَوْلُهُ:

قَدْ قُلْتُ لَمَّا ٱطْلَخَمَّ ٱلْأَمْرُ وَٱنْبَعَثَتْ عَشْوَاءُ تَالِيَةً غُبْسًا دَهَارِيسَا

فَلَفْظَةُ (اطْلَخَمَّ) مِنَ ٱلْأَلفَاظِ ٱلْمُنكَرَةِ ٱلَّتِي جَمَعَتِ ٱلْوَصْفَيْنِ ٱلْقَبِيحَيْنِ فِي أَنَّهَا غَرِيبَةٌ وَأَنَّهَا غَلِيظَةٌ فِي ٱلسَّمْعِ كَرِيهَةٌ عَلَى ٱلذَّوْقِ وَكَذٰلِكَ لَفْظَةُ (دَهَارِيسَ) أَيْضاً . وَعَلَى هٰذَا وَرَدَ قَوْلُهُ مِنْ أَبْيَاتٍ يَصِفُ فَرَساً مِنْ جُمْلَتِهَا :

نِعَمٌ مَتَاعُ ٱلدُّنْيَا حَبَاكَ بِهِ   أَرْوَعُ لَا جَيْدَرٌ وَلَا جِبْسُ

فَلَفْظَةُ (جَيْدَر) غَلِيظَةٌ . وَأَغْلَظُ مِنْهَا قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

جَفَخَتْ وَهُمْ لَا يَجْفَخُونَ بِهَا بِهِمْ   شِيَمٌ عَلَى ٱلْحَسَبِ ٱلْأَغَرِّ دَلَائِلُ

فَإِنَّ لَفْظَةَ (جَفَخَ) مُرَّةُ ٱلطَّعْمِ وَإِذَا مَرَّتْ عَلَى ٱلسَّمْعِ ٱقْشَعَرَّ مِنْهَا وَأَبُو ٱلطَّيِّبِ فِي ٱسْتِعْمَالِهَا كَٱسْتِعْمَالِ تَأَبَّطَ شَرّاً لَفْظَةَ جَحِيش . فَإِنَّ تَأَبَّطَ شَرّاً كَانَتْ لَهُ مَنْدُوحَةٌ عَنِ ٱسْتِعْمَالِ تِلْكَ ٱللَّفْظَةِ كَمَا أَشَرْنَا فِيمَا تَقَدَّمَ . وَكَذٰلِكَ أَبُو ٱلطَّيِّبِ فِي ٱسْتِعْمَالِ هٰذِهِ ٱللَّفْظَةِ ٱلَّتِي هِيَ جَفَخَتْ فَإِنَّ مَعْنَاهَا فَخَرَتْ وَٱلْجَفْخُ ٱلْفَخْرُ يُقَالُ : جَفَخَ فُلَانٌ إِذَا فَخَرَ . وَلَوِ ٱسْتَعْمَلَ عِوَضاً عَنْ جَفَخَتْ فَخَرَتْ لَٱسْتَقَامَ ٱلْبَيْتُ وَحَظِيَ فِي ٱسْتِعْمَالِهِ بِٱلْأَحْسَنِ . وَمَا أَعْلَمُ كَيْفَ يَذْهَبُ هٰذَا وَأَمْثَالُهُ عَلَى مِثْلِ هٰؤُلَاءِ ٱلْفُحُولِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ . وَهٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرْتُهُ وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ هُوَ ٱلْوَحْشِيُّ ٱلْغَلِيظُ ٱلَّذِي لَيْسَ لَهُ مَا يُدَانِيهِ فِي قُبْحِهِ وَكَرَاهَتِهِ . وَهٰذِهِ ٱلْأَمْثِلَةُ دَلِيلٌ عَلَى مَا أَوْرَدْنَاهُ . وَٱلْعَرَبُ إِذَنْ لَا تُلَامُ عَلَى ٱسْتِعْمَالِ ٱلْغَرِيبِ ٱلْحَسَنِ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَإِنَّمَا تُلَامُ عَلَى ٱلْغَرِيبِ ٱلْقَبِيحِ . وَأَمَّا ٱلْحَضَرِيُّ فَإِنَّهُ عَلَى ٱسْتِعْمَالِ ٱلْقِسْمَيْنِ مَعاً وَهُوَ فِي أَحَدِهِمَا أَشَدُّ مَلَامَةً مِنْهُ فِي ٱلْآخَرِ

البحث الخامس

في الالفاظ المترادفة والاسماء المشتركة

(عن المثل السائر لابن الاثير)

(راجع صفحة ٦ من علم الادب)

وَيَفْتَقِرُ مُؤَلِّفُ ٱلْكَلَامِ إِلَى مَعْرِفَةِ عِدَّةِ أَسْمَاءٍ لِمَا يَقَعُ ٱسْتِعْمَالُهُ فِي ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ لِيَجِدَ إِذَا ضَاقَ بِهِ مَوْضِعٌ فِي كَلَامِهِ بِإِيرَادِ بَعْضِ ٱلْأَلْفَاظِ فِيهِ ٱلْعُدُولَ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ مِمَّا هُوَ فِي مَعْنَاهُ . وَهٰذِهِ ٱلْأَسْمَاءُ تُسَمَّى ٱلْمُتَرَادِفَةَ وَهِيَ ٱتِّحَادُ ٱلْمُسَمَّى وَٱخْتِلَافُ أَسْمَائِهِ كَقَوْلِنَا : ٱلْخَمْرُ وَٱلرَّاحُ وَٱلْمُدَامُ . فَإِنَّ ٱلْمُسَمَّى بِهٰذِهِ ٱلْأَسْمَاءِ شَيْءٌ وَاحِدٌ وَأَسْمَاؤُهُ كَثِيرَةٌ . وَكَذٰلِكَ يَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَةِ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِيَسْتَعِينَ بِهَا عَلَى ٱسْتِعْمَالِ ٱلتَّجْنِيسِ فِي كَلَامِهِ وَهِيَ ٱتِّحَادُ ٱلِٱسْمِ وَٱخْتِلَافُ ٱلْمُسَمَّيَاتِ. كَالْعَيْنِ فَإِنَّهَا تُطْلَقُ عَلَى ٱلْعَيْنِ ٱلنَّاظِرَةِ وَعَلَى يَنْبُوعِ ٱلْمَاءِ وَعَلَى ٱلْمَطَرِ وَغَيْرِهِ . إِلَّا أَنَّ ٱلْمُشْتَرَكَةَ تَفْتَقِرُ فِي ٱلِٱسْتِعْمَالِ إِلَى قَرِينَةٍ تُخَصِّصُهَا كَيْ لَا تَكُونَ مُبْهَمَةً . لِأَنَّا إِذَا قُلْنَا : عَيْنٌ . ثُمَّ سَكَتْنَا وَقَعَ ذٰلِكَ عَلَى مُحْتَمَلَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنَ ٱلْعَيْنِ ٱلنَّاظِرَةِ وَٱلْعَيْنِ ٱلنَّابِعَةِ وَٱلْمَطَرِ وَغَيْرِهِ مِمَّا هُوَ مَوْضُوعٌ بِإِزَاءِ هٰذَا ٱلِٱسْمِ . وَإِذَا قُرِنَ إِلَيْهِ قَرِينَةٌ تُخَصِّصُهُ زَالَ ذٰلِكَ ٱلْإِبْهَامُ بِأَنْ تَقُولَ : عَيْنٌ حَسْنَاءُ أَوْ عَيْنٌ نَضَّاخَةٌ أَوْ غَيْرَ ذٰلِكَ . وَهٰذَا مَوْضِعٌ لِلْعُلَمَاءِ فِيهِ مُجَاذَبَاتٌ جَدَلِيَّةٌ . فَمِنْهُمْ مَنْ يُنْكِرُ أَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ ٱلْمُشْتَرَكُ حَقِيقَةً فِي ٱلْمَعْنَيَيْنِ جَمِيعًا وَيَقُولُ

اِنَّ ذٰلِكَ يُخِلُّ بِفَائِدَةِ وَضْعِ ٱللُّغَةِ لِاَنَّ ٱللُّغَةَ اِنَّمَا هِيَ وَضْعُ ٱلْاَلْفَاظِ فِي دَلَالَتِهَا عَلَى ٱلْمَعَانِي اَيْ وَضْعُ ٱلْاَسْمَاءِ عَلَى ٱلْمُسَمَّيَاتِ لِتَكُونَ مُنْبِئَةً عَنْهَا عِنْدَ اِطْلَاقِ ٱللَّفْظِ وَٱلِاشْتِرَاكِ لَا بَيَانَ فِيهِ وَاِنَّمَا هُوَ ضِدُّ ٱلْبَيَانِ. لٰكِنَّ طَرِيقَ ٱلْبَيَانِ اَنْ يُجْعَلَ اَحَدُ ٱلْمَعْنَيَيْنِ فِي ٱللَّفْظِ ٱلْمُشْتَرَكِ حَقِيقَةً وَٱلْآخَرُ مَجَازِيًا. فَاِذَا قُلْنَا: هٰذِهِ كَلِمَةٌ. وَاَطْلَقْنَا ٱلْقَوْلَ فُهِمَ مِنْهُ ٱللَّفْظَةُ ٱلْوَاحِدَةُ. وَاِذَا قَيَّدْنَا ٱللَّفْظَ فَقُلْنَا: هٰذِهِ كَلِمَةٌ شَاعِرَةٌ. فُهِمَ مِنْهُ ٱلْقَصِيدَةُ ٱلْمَقْصَدَةُ مِنَ ٱلشِّعْرِ وَهِيَ مَجْمُوعُ كَلِمَاتٍ كَثِيرَةٍ. وَلَوْ اَطْلَقْنَا مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ وَاَرَدْنَا ٱلْقَصِيدَةَ مِنَ ٱلشِّعْرِ لَمَا فُهِمَ مُرَادُنَا ٱلْبَتَّةَ. هٰذَا خُلَاصَةُ مَا ذَهَبَ اِلَيْهِ مَنْ يُنْكِرُ وُقُوعَ ٱللَّفْظِ ٱلْمُشْتَرَكِ فِي ٱلْمَعْنَيَيْنِ حَقِيقَةً. وَفِي ذٰلِكَ مَا فِيهِ. وَسَأُبَيِّنُ مَا يَدْخُلُهُ مِنَ ٱلْخَلَلِ فَاَقُولُ فِي ٱلْجَوَابِ عَنْ ذٰلِكَ مَا ٱسْتَخْرَجْتُهُ بِفِكْرِي وَلَمْ يَكُنْ لِاَحَدٍ فِيهِ قَوْلٌ مِنْ قَبْلِي وَهُوَ: اَمَّا قَوْلُكَ: اِنَّ فَائِدَةَ وَضْعِ ٱللُّغَةِ اِنَّمَا هُوَ ٱلْبَيَانُ عِنْدَ اِطْلَاقِ ٱللَّفْظِ وَٱللَّفْظُ ٱلْمُشْتَرَكُ يُخِلُّ بِهٰذِهِ ٱلْفَائِدَةِ. فَهٰذَا غَيْرُ مُسَلَّمٍ بَلْ فَائِدَةُ وَضْعِ ٱللُّغَةِ هُوَ ٱلْبَيَانُ وَٱلتَّحْسِينُ

(اَمَّا ٱلْبَيَانُ) فَقَدْ وَفَى ٱلْاَسْمَاءُ ٱلْمُتَبَايِنَةُ ٱلَّتِي كُلُّ ٱسْمٍ وَاحِدٍ دَلَّ عَلَى مُسَمًّى وَاحِدٍ. فَاِذَا اُطْلِقَ ٱللَّفْظُ فِي هٰذِهِ ٱلْاَسْمَاءِ كَانَ بَيِّنًا مَفْهُومًا لَا يَحْتَاجُ اِلَى قَرِينَةٍ وَلَوْ لَمْ يَضَعِ ٱلْوَاضِعُ مِنَ ٱلْاَسْمَاءِ شَيْئًا غَيْرَهَا لَكَانَ كَافِيًا فِي ٱلْبَيَانِ

(وَاَمَّا ٱلتَّحْسِينُ) فَاِنَّ ٱلْوَاضِعَ لِهٰذِهِ ٱللُّغَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ ٱلَّتِي هِيَ اَحْسَنُ ٱللُّغَاتِ نَظَرًا اِلَى مَا يَحْتَاجُ اِلَيْهِ اَرْبَابُ ٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْبَلَاغَةِ فِيمَا يَصُوغُونَهُ

مِنْ نَظْمٍ وَنَثْرٍ وَرَأَى أَنَّ مِنْ مُهِمَّاتِ ذٰلِكَ ٱلتَّجْنِيسَ وَلَا يَقُومُ بِهِ إِلَّا ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُشْتَرَكَةُ ٱلَّتِي هِيَ كُلُّ ٱسْمٍ وَاحِدٍ دل عَلَى مُسَمَّيَيْنِ فَصاعدا فَوَضَعَهَا مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ . وَهٰذَا ٱلْمَوْضِعُ يَتَجَاذَبُهُ جَانِبَانِ يَتَرَجَّحُ أَحَدُهُمَا عَلَى ٱلْآخَرِ . وَبَيَانُهُ أَنَّ ٱلتَّحْسِينَ يَقْضِي بِوَضْعِ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ وَوَضْعُهَا يَذْهَبُ بِفَائِدَةِ ٱلْبَيَانِ عِنْدَ إِطْلَاقِ ٱللَّفْظِ . وعَلَى هٰذا فَإِنْ وَضَعَهَا ٱلْوَاضِعُ ذَهَبَ بِفَائِدَةِ ٱلْبَيَانِ وَإِنْ لَمْ يَضَعْ ذَهَب بِفائِدة ٱلتَّحْسِينِ. لٰكِنَّهُ إِنْ وَضَعَ ٱسْتَدْرَكَ مَا ذَهَبَ مِنْ فَائِدَةِ ٱلبيان بِٱلْقَرِينَةِ وَإِنْ لَمْ يَضَعْ لَمْ يَسْتَدْرِكْ مَا ذَهَبَ مِنْ فَائِدَةِ ٱلتَّحْسِينِ فَتَرَجَّحَ حِينَئِذٍ جَانِبُ ٱلْوَضْعِ فَوُضِعَ

البحث السادس

في فصاحة المفرد وفصاحة المركَّب

(من شرح بديعيَّة العميان لابن جابر الاندلسي باختصار)

(راجع صفحة ٤٥ من علم الادب)

اَلْفَصَاحَةُ فِي ٱلْمُفْرَدِ هِيَ أَنْ تَكُونَ مِمَّا ٱسْتَعْمَلَتِ ٱلْعَرَبُ ٱلْعَرَبُ كَثِيرًا وَدَارَ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ فَسَلِمَ مِنْ سِتَّةِ أَشْيَاءَ . (الاول) : أَنْ لَا يَتَرَكَّبَ مِنْ حُرُوفٍ مُتَنَافِرَةٍ كَلَفْظَةِ (ٱلْعُخْعُخِ) وَهُوَ نَبْتٌ . سئل اعرابي عَنْ نَاقَتِهِ فَقَالَ : تَرَكْتُهَا تَرْعَى ٱلْعُخْعُخَ. وَإِنَّمَا تَنَافَرَتْ حُرُوفُ هٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ لِكَوْنِهَا مِنْ مَخْرَجٍ وَاحِدٍ وَهُوَ ٱلْحَلْقُ . (الثاني) : أَنْ لَا تَتَوَالَى فِيهِ أَكْثَرُ مِنْ حَرَكَتَيْنِ يَحْدُثُ بِسَبَبِهِمَا ثِقَلٌ . (الثالث) :

اَنْ لَا يَكُونَ مُتَنَاهِيًا فِي كَثْرَةِ الحُرُوفِ بِلَا زِيَادَةِ مَعْنًى نَحْوُ : خَنْدَرِيس . وَلَا فِي قِلَّتِهَا نَحْوُ : حِد عَنْ ذَا الْمَرْءِ . وَخَيْرُ الْأُمُورِ اَوْسَطُهَا وَهُوَ الثُّلَاثِيُّ اِذْ لَا فَضْلَةَ فِيهِ عَمَّا يُحْتَاجُ اِلَيْهِ مِنْ حَرْفِ الِابْتِدَاءِ وَحَرْفِ الْوَقْفِ وَحَرْفٍ فَاصِلٍ بَيْنَ الْوَقْفِ وَالِابْتِدَاءِ . اَمَّا لَوْ كَانَتْ زِيَادَةُ الْحُرُوفِ تَدُلُّ عَلَى مَعْنًى زَائِدٍ لَكَانَتِ اللَّفْظَةُ فَصِيحَةً نَحْوُ : اخْشَوْشَنَ . مَعْنَاهُ اَزْيَدُ مِنْ خَشُنَ . (الرَّابِعُ) : اَنْ لَا يَكُونَ وَحْشِيًّا غَيْرَ مَأْلُوفٍ نَحْوُ : الْاِسْفِنْطِ لِلْخَمْرِ وَالْخَنْشَلِيلِ لِلسَّيْفِ وَالْفَدَوْكَسِ لِلْاَسَدِ . فَهَذِهِ الْاَلْفَاظُ غَرِيبَةٌ يَمُجُّهَا الطَّبْعُ وَلَا يُطَّلَعُ عَلَى مَعْنَاهَا اِلَّا بَعْدَ بَحْثٍ فِي كُتُبِ اللُّغَةِ . (الْخَامِسُ) : اَنْ لَا يَكُونَ مُبْتَذَلًا وَذَلِكَ نَحْوُ اَنْ يَخْرُجَ اللَّفْظُ عَنْ اَصْلِ وَضْعِهِ وَيُسْتَعْمَلُ فِي شَيْءٍ مُسْتَقْبَحٍ . (السَّادِسُ) : اَنْ لَا يَكُونَ مُشْتَرَكًا بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ اَحَدُهُمَا مَكْرُوهٌ كَمَا لَوْ قُلْتَ : لَقِيتُ فُلَانًا فَعَزَّرْتُهُ . فَاِنَّهُ يَحْتَمِلُ الْاِكْرَامَ وَالْاِهَانَةَ . فَلَوْ كَانَ فِي الْكَلَامِ قَرِينَةٌ تَدُلُّ عَلَى الْمَعْنَى الْحَسَنِ لَكَانَ اللَّفْظُ فَصِيحًا كَقَوْلِكَ : لَقِيتُ فُلَانًا فَعَزَّرْتُهُ وَنَصَرْتُهُ . فَلَفْظُ (نَصَرْتُهُ) يُعَيِّنُ فِيهِ الْمَعْنَى الْحَسَنَ . وَعَلَيْهِ يَكُونُ اللَّفْظُ حَسَنًا فِي نَفْسِهِ فَيُعَدُّ قَبِيحًا بِسَبَبِ مَحَلِّهِ مِنَ الْكَلَامِ وَمَوْقِعِهِ مِنْهُ

وَاَمَّا الْفَصَاحَةُ فِي التَّرْكِيبِ فَهُوَ اَنْ يَسْلَمَ مِنْ خَمْسَةِ اَشْيَاءَ . (الْاَوَّلُ) : سَلَامَةُ مُفْرَدَاتِهِ مِنَ السِّتَّةِ الْاَشْيَاءِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرِ فِي الْمُفْرَدِ لِاَنَّ لِلْمُرَكَّبِ حُكْمَ مَا تَرَكَّبَ مِنْهُ . (الثَّانِي) : اَنْ يَسْلَمَ مِنْ ضَعْفِ التَّأْلِيفِ وَهُوَ خُرُوجُهُ عَنْ قَوَاعِدِ الْعَرَبِيَّةِ كَقَوْلِهِ :

جَزَا رَبُّهُ عَنِّي عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ   جَزَاءَ ٱلْكِلَابِ ٱلْعَاوِيَاتِ وَقَدْ فَعَلْ

فَإِنَّهُ خَالَفَ ٱلْقِيَاسَ فِي إِعَادَةِ ٱلضَّمِيرِ فِي (رَبِّهِ) الى عَدِيٍّ وَهُوَ مُتَأَخِّرٌ لَفْظًا وَمَعْنًى . وَٱلْقَاعِدَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ أَنْ يَعُودَ ٱلضَّمِيرُ على مَا قَبْلَهُ أَوْ عَلَى مَا بَعْدَهُ لَفْظًا لَا مَعْنًى . (ٱلثَّالِثُ) : انْ يَسْلَمَ مِنْ تَنَافُرِ ٱلْكَلِمَةِ وَذٰلِكَ أَنْ تَكُونَ ٱلْكَلِمَةُ حَالَ ٱلْإِفْرَادِ غَيْرَ مُتَنَافِرَة فَإِذَا رُكِّبَتْ حَصَلَ ٱلتَّنَافُرُ نَحْوُ قَوْلِهِ :

وَقَبْرُ حَرْبٍ (١) بِمَكَانٍ قَفْرُ   وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

قِيلَ : إِنَّ هٰذَا ٱلْبَيْتَ لَا يُمْكِنُ إِنْشَادُهُ فِي ٱلْغَالِبِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مُتَوَالِيَةٍ إِلَّا وَيَغْلَطُ ٱلْمُنْشِدُ فِيهِ لِأَنَّ نَفْسَ اجْتِمَاعِ ٱلْكَلِمِ وَٱلْقُرْبَ فِي ٱلْخَارِجِ يُحْدِثَانِ ثِقَلًا . وَإِذَا كَانَ ٱلتَّنَافُرُ فِي حُرُوفِ ٱلْكَلِمَةِ فَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى عَدَمِ فَصَاحَةِ ٱلْفَرْدِ وَلَا يَسْلَمُ ٱلْمُرَكَّبُ مِنَ ٱلتَّنَافُرِ مَتَى تَسْلَمْ مُفْرَدَاتُهُ كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

كَرِيمٌ مَتَى أَمْدَحْهُ أَمْدَحْهُ وَٱلْوَرَى   مَعِي وَإِذَا مَا لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَحْدِي

فَٱلتَّنَافُرُ فِيهِ مِنْ وَجْهِ تَكْرَارِ (أَمْدَحْهُ) لَا مِنْ وَجْهِ أَنَّ حُرُوفَ (أَمْدَحْهُ) مُتَنَافِرَةٌ لِاجْتِمَاعِ حَرْفَيِ ٱلْحَلْقِ . (ٱلرَّابِعُ) : أَنْ يَسْلَمَ مِنَ ٱلتَّعْقِيدِ وَهُوَ إِيرَادُ كَلَامٍ خَفِيِّ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنَاهُ وَهُوَ مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ وَمِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى . فَمِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ كَتَأْخِيرِ ٱلْأَلْفَاظِ وَتَقْدِيمِهَا عَلَى مَوَاضِعِهَا وَحُصُولِ ٱلْفَصْلِ إِذْ ذَاكَ بَيْنَ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُتَلَازِمَةِ كَشِعْرِ ٱلْفَرَزْدَقِ يَمْدَحُ إِبْرَاهِيمَ خَالَ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ :

---

(١) حرب اسم رجل

وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ إِلَّا مُمَلَّكًا أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهُ (١)

ٱلتَّقْدِيرُ: وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ حَيٌّ يُقَارِبُهُ فِي ٱلشَّرَفِ إِلَّا مُمَلَّكٌ أَبُو أُمِّ ذٰلِكَ ٱلْمُمَلَّكِ أَبُو هٰذَا ٱلْمَمْدُوحِ. فَتَأَمَّلْ مَا فِيهِ مِنَ ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ ٱلْمُؤْذِنِ بِٱلتَّعْقِيدِ ٱللَّفْظِيِّ . وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى فَهُوَ أَنْ يُرِيدَ ٱلْمُتَكَلِّمُ ٱلدَّلَالَةَ فِي ٱللَّفْظِ عَلَى لَازِمِ مَعْنَاهُ فِي ٱعْتِقَادِهِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ فِي ٱلْمَشْهُورِ مِنْ كَلَامِ ٱلْفُصَحَاءِ كَقَوْلِ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلْأَحْنَفِ :

سَأَطْلُبُ بُعْدَ ٱلدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ ٱلدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا (٢)

فَجَعَلَ سَكْبَ ٱلدُّمُوعِ كِنَايَةً عَمَّا يَلْزَمُ فِرَاقَ ٱلْأَحِبَّةِ مِنَ ٱلْكَآبَةِ وَٱلْحُزْنِ وَأَصَابَ . لٰكِنَّهُ أَخْطَأَ فِي جَعْلِ جُمُودِ ٱلْعَيْنِ كِنَايَةً عَمَّا يُوجِبُهُ دَوَامُ ٱلتَّلَاقِي مِنَ ٱلْفَرَحِ وَٱلسُّرُورِ لِٱعْتِقَادِهِ أَنَّ ٱلسُّرُورَ بِمَعْنَى ٱلْجُمُودِ. لِأَنَّ جُمُودَ ٱلْعَيْنِ عِنْدَ ٱلْفُصَحَاءِ إِنَّمَا يَلْزَمُ بُخْلَهَا بِٱلدُّمُوعِ عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهِ لَا ٱلسُّرُورَ. وَٱعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ ٱلدِّينِ ٱلطِّيبِيَّ جَعَلَ بَيْتَ ٱلْعَبَّاسِ (سَأَطْلُبُ بُعْدَ ٱلدَّارِ) مِنَ ٱلْمُطَابَقَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَلَيْسَ فِيهِ عِنْدَهُ تَعْقِيدٌ مَعْنَوِيٌّ لِأَنَّهُ رَأَى أَنَّ سَكْبَ ٱلدُّمُوعِ فِي ٱلْبَيْتِ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلْحُزْنِ. وَٱلْجُمُودَ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلسُّرُورِ فَحَصَلَتْ بَيْنَهُمَا مُطَابَقَةٌ بِهٰذَا ٱللَّفْظِ. وَجَعَلَ ٱلتَّعْقِيدَ ٱللَّفْظِيَّ فِيمَا يَحْدُثُ مِنَ ٱلثِّقَلِ مِنْ تَوَالِي ٱلْمُضَافَاتِ وَٱلضَّمَائِرِ وَٱلصِّفَاتِ وَٱلْأَفْعَالِ مِنْ غَيْرِ عَطْفٍ وَتَكْرَارِ ٱلْأَلْفَاظِ وَمَا جَرَى مَجْرَى

---

(١) اي ليس في الناس مثل الممدوح حيٌّ يقاربه الا ابن اخته وهو هشام المملك اي المعطى الملك

(٢) المعنى اني اطيب نفساً بالبعد والفراق واوطنها على مقاساة الحزن والتجرع غصصاً تفيض لاجلها الدموع من عيني لاجل ان يأتي بعد العسر يسر

ذٰلِكَ . (اَلْخَامِسُ) اَنْ يَسْلَمَ مِنَ اَلتَّكْرَارِ اَلْمُوجِبِ فِي اَلثِّقَلِ كَتَكْرَارِ اَللَّفْظَةِ ذَاتِهَا وَتَوَالِي اَلْاِضَافَاتِ وَاَلصِّفَاتِ وَلَا يُخِلُّ بِالْفَصَاحَةِ قَطْعًا تَكْرَارُ اَللَّفْظَةِ لِلتَّوْكِيدِ وَاِنَّمَا يُعَابُ قُبْحُ اَلتَّكْرَارِ بِلَا فَائِدَةٍ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ :

كُنْتُ كُنْتُ كَتَمْتُ اَلسِّرَّ كُنْتُ كَمَا
كُنَّا وَكُنْتَ وَلٰكِن ذاك لم يكن

فَجَاءَتِ اَلْحُرُوفُ قَلِقَةً مَكْدُودَةً غَيْرَ مُتَمَكِّنَةٍ فِي مَوَاضِعِهَا . (وَتَتَابُعُ اَلْاِضَافَاتِ) مِثْلُ قَوْلِ اَبِي فَائِدٍ :

حَمَامَةَ جَرْعَا حَوْمَةِ اَلْجَنْدَلِ اَسْجَعِي فَاَنْتِ بِمَرْاى مِنْ سعاد ومسمع (١)

فَفِيهِ اِضَافَةُ حَمَامَةٍ اِلَى جَرْعَا وَجَرْعَا اِلَى حَوْمَةٍ وَحَوْمَةٍ اِلَى اَلْجَنْدَل . وَلَيْسَ هٰذَا بِفَصِيحٍ مَأْنُوسٍ

(وَتَوَالِي اَلصِّفَاتِ) ذَكَرَهُ اَلطِّيبِيُّ ذالكَ مِمَّا يُحْدِثُ فِي اَلْكَلَامِ ثِقْلًا وَاَسْتَشْهَدَ عَلَى ذٰلِكَ بِقَوْلِ اَلْمُتَنَبِّي :

دَانٍ بَعِيدٌ مُحِبٌّ مُبْغِضٌ بَهِجٌ اَغَرُّ حُلْوٌ مُمِرٌّ لَيِّنٌ شَرِسُ

---

(١) الجرعا تخفيف الجرعاء ومؤنث الاجرع وهي ارض ذات رمل لا تنبت شيئاً. والحومة معظم الشيء. والجندل ارض ذات حجارة يقول : اسجعي يا حمامة ارض قفرة سبخة فان سعاد تراك وتسمعك

الفصل الثاني

في البلاغة

البحث الاوَّل

في الابانة عن حدّ البلاغة

(من كتاب الصاعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٩ من علم الادب)

اَلْبَلَاغَةُ كُلُّ مَا تُبَلِّغُ بِهِ ٱلْمَعْنَى قَلْبَ ٱلسَّامِعِ فَتُمَكِّنُهُ فِي نَفْسِهِ كَتَمَكُّنِهِ فِي نَفْسِكَ مَعَ صُورَةٍ مَقْبُولَةٍ وَمَعْرِضٍ حَسَنٍ . وَإِنَّمَا جَعَلْنَا حُسْنَ ٱلْمَعْرِضِ وَقَبُولَ ٱلصُّورَةِ شَرْطًا فِي ٱلْبَلَاغَةِ لِأَنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَانَتْ عِبَارَتُهُ رَثَّةً وَمَعْرِضُهُ خَلَقًا لَمْ يُسَمَّ بَلِيغًا وَإِنْ كَانَ مَفْهُومَ ٱلْمَعْنَى مَكْشُوفَ ٱلْمَغْزَى . أَلَا تَرَى إِلَى مَعْنَى ٱلْكَاتِبِ ٱلَّذِي كَتَبَ إِلَى بَعْضِ مُعَامِلِيهِ : (قَدْ تَأَخَّرَ ٱلْأَمْرُ فِيمَا وَعَدْتَ حَمْلَهُ ضَحْوَةَ ٱلنَّهَارِ وَٱلْقَوْمُ غَيْرُ مُقِيمِينَ لَيْسَ لَهُمْ صَبْرٌ . فَإِنْ رَأَيْتَ فِي إِزَاحَةِ ٱلْعِلَّةِ مَعَ ٱلْجَهْبَذِ فَعَلْتَ إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ) . فَمَعْنَاهُ مَفْهُومٌ وَمَغْزَاهُ مَعْلُومٌ وَلَيْسَ كَلَامُهُ بِبَلِيغٍ فَهٰذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مِنْ شَرْطِ ٱلْبَلَاغَةِ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَعْنَى مَفْهُومًا وَٱللَّفْظُ مَقْبُولًا عَلَى مَا قَدَّمْنَاهُ . وَمَنْ قَالَ إِنَّ ٱلْبَلَاغَةَ إِنَّمَا هِيَ إِفْهَامُ ٱلْمَعْنَى فَقَطْ فَقَدْ جَعَلَ ٱلْفَصَاحَةَ وَٱللُّكْنَةَ وَٱلْخَطَأَ وَٱلصَّوَابَ وَٱلْإِغْلَاقَ

وَٱلإِبَانَةَ سَوَاءٌ . وَأَيضًا فَلَوْ كَانَ ٱلْكَلَامُ ٱلْوَاضِحُ ٱلسَّهْلُ وَٱلقَرِيبُ ٱلسَّلِسُ ٱلْحُلْوُ بَلِيغًا وَمَا خَالَفَهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُسْتَبْهَمِ ٱلْمُسْتَغْلَقِ وَٱلْمُتَكَلَّفِ ٱلْمُتَعَقِّدِ أَيضًا بَلِيغًا لَكَانَ كُلُّ ذٰلِكَ مَحْمُودًا وَمَمْدُوحًا مَقْبُولًا لِأَنَّ ٱلبَلَاغَةَ ٱسْمٌ يُمْدَحُ بِهِ ٱلْكَلَامُ . فَلَمَّا رَأَيْنَا أَحَدَهُمَا مُسْتَحْسَنًا وَٱلآخَرَ مُسْتَهْجَنًا عَلِمْنَا أَنَّ ٱلَّذِي يُسْتَحْسَنُ هُوَ ٱلْبَلِيغُ وَٱلذِي يُسْتَهْجَنُ لَيسَ بِبَلِيغٍ . وَقَالَ ٱلعَتَّابِيُّ : كُلُّ مَنْ افهمكَ حَاجَتَهُ فَهُوَ بَلِيغٌ . وَإِنَّمَا عَنَى أَنَّ مَنْ أَفْهَمَكَ حَاجَتَهُ بِٱلأَلْفَاظِ ٱلْحَسَنَةِ وَٱلعِبَارَةِ ٱلنَّيِّرَةِ فَهُوَ بَلِيغٌ . وَلَوْ حَمَلْنَا هٰذَا ٱلْكَلَامَ عَلَى ظَاهِرِهِ للزم أَنْ يَكُونَ ٱلأَلْكَنُ بَلِيغًا لِأَنَّهُ يُفْهِمُنَا حَاجَتَهُ بَلْ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ كُلُّ ٱلنَّاسِ بُلَغَاءَ حَتَّى ٱلأَطْفَالُ لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ لَا يَعْدَمُ ان يَدُلَّ عَلَى غَرَضِهِ بِعُجْمَتِهِ وَلُكْنَتِهِ وَإِيمَائِهِ وَإِشَارَتِهِ بَلْ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ ٱلسِّنَّوْرُ بَلِيغًا لِأَنَّا نَسْتَدِلُّ بِضُغَائِهِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ إِرَادَتِهِ وَهٰذَا ظَاهِرُ ٱلإِحَالَةِ . وَنَحْنُ نَفْهَمُ رَطَانَةَ ٱلسُّوقِيِّ وَجَمْجَمَةَ ٱلأَعْجَمِيِّ لِلعَادَةِ ٱلَّتِي جَرَت لنا فِي سَمَاعِهَا لَا لِأَنَّ تِلْكَ بَلَاغَةٌ . أَلَا تَرَى أَنَّ ٱلأَعْرَابِيَّ إِنْ سَمِعَ ذٰلِكَ لَمْ يَفْهَمْهُ إِذْ لَا عَادَةَ لَهُ بِسَمَاعِهِ . وَأَرَادَ رَجُلٌ أَنْ يَسْأَلَ بَعْضَ ٱلأَعْرَابِ عَنْ أَهْلِهِ فَقَالَ : كَيْفَ أَهْلَكَ (بِٱلْكَسْرِ) . فَقَالَ لَهُ ٱلأَعْرَابِيُّ : صَلْبًا . إِذْ لَمْ يَشُكَّ أَنَّهُ إِنَّمَا يَسْأَلُهُ عَنِ ٱلسَّبَبِ ٱلَّذِي يَهْلِكُ بِهِ . وَسَمِعَ أَعْرَابِيٌّ قَصِيدَةَ أَبِي تَمَّامٍ فِي خَالِدِ بْنِ يَزِيدٍ :

طَلَلَ ٱلْجَمِيعِ لَقَدْ عَفَوْتَ حَمِيدَا

فَقَالَ : إِنَّ فِي هٰذِهِ ٱلقَصِيدَةِ أَشْيَاءَ أَفْهَمُهَا وَأَشْيَاءَ لَا أَفْهَمُهَا

فَإِمَّا اَنْ يَكُونَ قَائِلُهَا اَشْعَرَ مِنْ جَمِيعِ اَلنَّاسِ وَإِمَّا اَنْ يَكُونَ جَمِيعُ اَلنَّاسِ اَشْعَرَ مِنْهُ . وَنَحْنُ نَفْهَمُ مَعَانِي هٰذِهِ اَلْقَصِيدَةِ بِاَسْرِهَا اِعَادَتُنَا اِيْتَاعِ مِثْلِهَا لَا لِاَنَّا اَعْرَفُ بِالْكَلَامِ مِنَ اَلْاَعْرَابِ . وَمِمَّا يُؤَيِّدُ مَا قُلْنَا مِنْ اَنَّ اَلْبَلَاغَةَ اِنَّمَا هِيَ اِيضَاحُ اَلْمَعْنَى وَتَحْسِينُ اَللَّفْظِ قَوْلُ بَعْضِ اَلْحُكَمَاءِ : اَلْبَلَاغَةُ تَصْحِيحُ اَلْاَقْسَامِ وَاخْتِيَارُ اَلْكَلَامِ اِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ . وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ اَلْحَنَفِيَّةِ : اَلْبَلَاغَةُ قَوْلٌ يَضْطَرُّ اَلْعُقُولَ اِلَى فَهْمِهِ بِاَسْهَلِ اَلْعِبَارَةِ . فَقَوْلُهُ : (يَضْطَرُّ اَلْعُقُولَ اِلَى فَهْمِهِ) عِبَارَةٌ عَنْ اِيضَاحِ اَلْمَعْنَى . وَقَوْلُهُ : (بِاَسْهَلِ اَلْعِبَارَةِ) تَنْبِيهٌ عَلَى تَسْلِيسِ اَللَّفْظِ وَتَرْكِ تَنْقِيحِهِ

البحث الثاني

اقوال في تحديد البلاغة

(ملخّص عن زهر الاداب للحصري وكتاب الصناعتين للعسكري)

قَالَ اَعْرَابِيٌّ : اَلْبَلَاغَةُ اَلتَّقَرُّبُ مِنَ اَلْبَعِيدِ وَالتَّبَاعُدُ مِنَ اَلْكُلْفَةِ وَالدَّلَالَةُ بِقَلِيلٍ عَلَى كَثِيرٍ . قَالَ عَبْدُ اَلْحَمِيدِ بْنُ يَحْيَى : اَلْبَلَاغَةُ تَقْرِيرُ اَلْمَعْنَى فِي اَلْاَفْهَامِ مِنْ اَقْرَبِ وُجُوهِ اَلْكَلَامِ . قَالَ اَبْنُ اَلْمُعْتَزِّ : اَلْبَلَاغَةُ اَلْبُلُوغُ اِلَى اَلْمَعْنَى وَلَمْ يَطُلْ سَفَرُ اَلْكَلَامِ . قَالَ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ : اَلْبَيَانُ تَرْجُمَانُ اَلْعُقُولِ وَرَوْضُ اَلْقُلُوبِ . وَقَالَ اَيْضًا : اَلْعَقْلُ رَائِدُ اَلرُّوحِ وَالْعِلْمُ رَائِدُ اَلْعَقْلِ وَالْبَيَانُ تَرْجُمَانُ اَلْعِلْمِ . قَالَ اِبْرٰهِيمُ اَلْاِمَامُ : يَكْفِي مِنَ اَلْبَلَاغَةِ اَنْ لَا يُؤْتَى اَلسَّامِعُ مِنْ سُوءِ فَهْمِ اَلنَّاطِقِ وَلَا يُؤْتَى اَلنَّاطِقُ مِنْ سُوءِ فَهْمِ اَلسَّامِعِ . قَالَ اَلْعَتَّابِيُّ : اَلْبَلَاغَةُ مَدُّ

ٱلْكَلَامِ بِمَعَانِيهِ اذَا قَصُرَ وَحُسْنُ ٱلتَّأْلِيفِ اِذَا طَالَ . قَالَ اعْرَابِيٌّ : ٱلْبَلَاغَةُ اِيجَازٌ فِي غَيْرِ عَجْزٍ وَاطْنَابٌ فِي غَيْرِ خَطَلٍ . وَقَدْ قِيلَ لِلْيُونَانِيِّ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : تَصْحِيحُ ٱلْاقْسَامِ وَٱخْتِيَارُ ٱلْكَلَامِ . وقِيلَ لِلرُّومِيِّ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : حُسْنُ ٱلْاقْتِضَابِ عِنْدَ ٱلْبَدَاهَةِ وَٱلْغَزَارةُ يَوْمَ ٱلْاطَالَةِ . وَقِيلَ لِلْهِنْدِيِّ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : وُضُوحُ ٱلدَّلَالَةِ وَٱنْتِهَازُ ٱلْفُرْصَةِ وَحُسْنُ ٱلْاشَارَةِ . وَقِيلَ لِلْفَارِسِيِّ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : مَعْرِفَةُ ٱلْفَصْلِ مِنَ ٱلْوَصْلِ . وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ عِيسَى ٱلرُّمَّانِيُّ : ٱلْبَلَاغَةُ ايصالُ ٱلْمَعْنَى اِلَى ٱلْقَلْبِ فِي حُسْنِ صُورَةٍ مِنَ ٱللَّفْظِ . وَسُئِلَ بَعْضُهُمْ عَنِ ٱلْبَلَاغَةِ قَالَ : ابْلَغُ ٱلْكَلَامِ مَا حَسُنَ اِيجَازُهُ . وقَلَّ مَجَازُهُ . وَكَثُرَ اعْجَازُهُ . وَتَنَاسَبَتْ صُدُورُهُ وَاَعْجَازُهُ . وَقِيلَ لِجَعْفَرِ بْنِ خَالِدٍ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : ٱلتَّقَرُّبُ مِنَ ٱلْمَعْنَى ٱلْبَعِيدِ وَٱلدَّلَالَةُ بِٱلْقَلِيلِ عَلَى ٱلْكَثِيرِ . وَقِيلَ لِآخَرَ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : تَطْوِيلُ ٱلْقَصِيرِ وَتَقْصِيرُ ٱلطَّوِيلِ . وَقِيلَ لِاعْرَابِيٍّ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : حَذْفُ ٱلْفُضُولِ وَتَقْرِيبُ ٱلْبَعِيدِ وَحُسْنُ ٱلْاسْتِعَارَةِ . وَقِيلَ لِجَالِينُوس : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : اِيضَاحُ ٱلْمُعْضِلِ وَفَكُّ ٱلْمُشْكِلِ . وقِيلَ لِلْخَلِيلِ بْنِ احْمَدَ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . فَقَالَ : مَا قَرُبَ طَرَفَاهُ وَبَعُدَ مُنْتَهَاهُ . وقِيلَ لِخَالِدِ بْنِ صَفْوَانَ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : اِصَابَةُ ٱلْمَعْنَى وَ ٱلْقَصْدُ اِلَى ٱلْحُجَّةِ . وقِيلَ لِآخَرَ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : تَصْوِيرُ ٱلْحَقِّ فِي صُورَةِ ٱلْبَاطِلِ وتَصْوِيرُ ٱلْبَاطِلِ فِي صُورَةِ ٱلْحَقِّ (١) . وَقِيلَ لِابْرٰهِيمَ ٱلْامَامِ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قَالَ : ٱلْجَزَالَةُ وَٱلْاصَابَةُ

(١) لا يجوز ذلك الا على طريقة المغايرة في الامور نقادة مدح وذم

قَالَ إِسْحَاقُ بْنُ حَسَّان: لَمْ يُفَسِّرْ احدٌ ٱلْبَلَاغَةَ تَفْسِيرَ ٱبْنِ ٱلْمُقَفَّعِ اذْ قَالَ: ٱلْبَلَاغَةُ لِمَعَانٍ تَجْرِي فِي وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ: فَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلاشَارَة. وَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلْحَدِيثِ. وَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلِاسْتِمَاعِ وَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلِاحْتِجَاجِ. وَمِنْهَا مَا يَكُونُ شِعْرًا. وَمِنْهَا مَا يَكُونُ ٱبْتِدَاءً. وَمِنْهَا مَا يَكُونُ جَوَابًا. وَمِنْهَا مَا يَكُونُ سَجْعًا. وَمِنْهَا مَا يَكُونُ خُطَبًا. وَمِنْهَا رُبَّمَا كَانَتْ رَسَائِلَ. فَغَايَةُ (١) هٰذِهِ ٱلْأَبْوَابِ ٱلْوَحْيُ فِيهَا وَٱلْإِشَارَةُ إِلَى ٱلْمَعْنَى أَبْلَغُ وَٱلْإِيجَازُ هُوَ ٱلْبَلَاغَةُ. فَٱلسُّكُوتُ يُسَمَّى بَلَاغَةً مَجَازًا وَهُوَ فِي حَالَةٍ لَا يَنْجَعُ فِيهَا ٱلْقَوْلُ وَلَا يَنْفَعُ فِيهَا إِقَامَةُ ٱلْحُجَجِ إِمَّا عِنْدَ جَاهِلٍ لَا يَفْهَمُ ٱلْخِطَابَ او عِنْدَ وَضِيعٍ لَا يَرْهَبُ ٱلْجَوَابَ. او ظَالِمٍ سَلِيطٍ يَحْكُمُ بِٱلْهَوى وَلَا يَرْتَدِعُ بِكَلِمَةِ ٱلتَّقْوَى وَاذَا كَانَ ٱلْكَلَامُ يُعْرَى مِنَ ٱلْخَيْرِ اوْ يَجْلِبُ ٱلشَّرَّ فَٱلسُّكُوتُ اوْلَى كَمَا قَالَ ابُو ٱلْعَتَاهِيَةِ:

مَا كُلُّ نُطْقٍ لَهُ جَوَابٌ ‎ ‎ جَوَابُ مَا يُكْرَهُ ٱلسُّكُوتُ

وَرُبَّمَا كَانَ صَمْتُكَ فِي حَالٍ ارْفَقَ مِنْ كَلَامِكَ وَلَهُ وَجْهٌ آخَرُ وَهُوَ قَوْلُهُمْ: كُلُّ صَامِتٍ نَاطِقٌ مِنْ جِهَةِ ٱلدَّلَالَةِ. وَذٰلِكَ انَّ دلائلَ ٱلصَّنْعَةِ فِي جَمِيعِ ٱلْاشْيَاءِ وَاضِحَةٌ. وَٱلْمَوْعِظَةُ فِيهَا قَائِمَةٌ. وَقَدْ قَالَ ٱلرَّقَاشِيُّ: سَلِ ٱلْأَرْضَ مَنْ شَقَّ انْهَارَكِ وَغَرَسَ اشْجَارَكِ وَجَنَى ثِمَارَكِ. فَإِنْ لَمْ تُجِبْكَ حِوَارًا اجَابَتْكَ ٱعْتِبَارًا. وَقَوْلُ ٱبْنُ ٱلْمُقَفَّعِ: (رُبَّمَا كَانَتِ ٱلْبَلَاغَةُ بِٱلِاسْتِمَاعِ) فَلِأَنَّ ٱلْمُخَاطَبَ إِذَا لَمْ يُحْسِنِ ٱلِاسْتِمَاعَ لَمْ

(١) وفي نسخة: عامّة

يَقِفَ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمُؤَدِّي إِلَى ٱلْخِطَابِ . فَٱلِٱسْتِمَاعُ ٱلْحَسَنُ عَوْنٌ لِلْبَلِيغِ عَلَى إِفْهَامِ ٱلْمَعْنَى

وَقَدْ جَاءَ لِلْبَلَاغَةِ تَعْرِيفَاتٌ أُخَرُ مِنْهَا قَوْلُ بَعْضِ حُكَمَاءِ ٱلْهِنْدِ : جِمَاعُ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلْبَصَرُ بِٱلْحُجَّةِ وَٱلْمَعْرِفَةُ بِمَوَاقِعِ ٱلْفُرْصَةِ وَمِنَ ٱلْبَصَرِ بِٱلْحُجَّةِ أَنْ تَدَعَ ٱلْإِفْصَاحَ بِهَا إِلَى ٱلْكِنَايَةِ عَنْهَا إِذَا كَانَ طَرِيقُ ٱلْإِفْصَاحِ وَعْرًا وَكَانَتِ ٱلْكِنَايَةُ أَحْضَرَ نَفْعًا . قَالَ آخَرُ : أَبْلَغُ ٱلْكَلَامِ مَا يُؤْنِسُ مَسْمَعُهُ . وَيُؤْيِسُ مَصْنَعُهُ . وَٱلْبَلِيغُ مَنْ يَجْتَنِي مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ أَنْوَارَهَا . وَمِنَ ٱلْمَعَانِي ثِمَارَهَا . لَيْسَتِ ٱلْبَلَاغَةُ أَنْ يُطَالَ عِنَانُ ٱلْقَلَمِ أَوْ سِنَانُهُ . أَوْ يُبْسَطَ رِهَانُ ٱلْقَوْلِ وَمَيْدَانُهُ . بَلْ هِيَ أَنْ يَبْلُغَ أَمَدَ ٱلْمُرَادِ بِأَلْفَاظٍ أَعْيَانٍ وَمَعَانٍ أَفْرَادٍ مِنْ حَيْثُ لَا تَزِيدُ عَلَى ٱلْحَاجَةِ وَلَا إِخْلَالٌ يُفْضِي إِلَى ٱلْفَاقَةِ . وَصَفَ بَعْضُهُمُ ٱلْبَلَاغَةَ قَالَ : هِيَ مَيْدَانٌ لَا يُقْطَعُ إِلَّا بِسَوَابِقِ ٱلْأَذْهَانِ . وَلَا يُسْلَكُ إِلَّا بِبَصَائِرِ ٱلْبَيَانِ . يَبْعَثُ صَاحِبَهَا بِٱلْكَلَامِ . وَيَقُودُهُ بِأَلْيَنِ زِمَامٍ . حَتَّى كَأَنَّ ٱلْأَلْفَاظَ تَتَحَاسَدُ فِي ٱلتَّسَابُقِ إِلَى خَوَاطِرِهِ وَٱلْمَعَانِي تَتَغَايَرُ فِي ٱلِٱنْثِيَالِ عَلَى أَنَامِلِهِ كَقَوْلِ بَعْضِ ٱلشُّعَرَاءِ :

تَغَايَرَ ٱلشِّعْرُ فِيهِ إِذْ سَهِرْتُ لَهُ   حَتَّى ظَنَنْتُ قَوَافِيهِ سَتَقْتَتِلُ

وَقِيلَ فِي بَلِيغٍ : فُلَانٌ مَشْرِقِيُّ ٱلْمَشْرِقِ . وَحَايِرٌ فِي ٱلْمَنْطِقِ . ٱلْبَيَانُ أَصْغَرُ صِفَاتِهِ . وَٱلْبَلَاغَةُ عَفْوُ خَطَرَاتِهِ . كَأَنَّهُ أُوحِيَ بِٱلتَّوْفِيقِ إِلَى صَدْرِهِ . وَحَسُنَ ٱلصَّوَابُ بَيْنَ طَبْعِهِ وَفِكْرِهِ . يَحُزُّ مَفَاصِلَ ٱلْكَلَامِ . وَيَسْبِقُ فِيهَا إِلَى دَرَكِ ٱلْمَرَامِ . كَأَنَّمَا جُمِعَ ٱلْكَلَامُ حَوْلَهُ حَتَّى ٱنْتَقَى مِنْهُ وَٱنْتَخَبَ . وَتَنَاوَلَ مِنْهُ مَا طَابَ . وَتَرَكَ بَعْدَ ذَلِكَ ... رُوسَاهُ

وَاَجْسَادًا لَا نُفُوسًا . وَقِيلَ فِي آخَرَ : يَرْضَى بِعَفْوِ ٱلطَّبْعِ . وَيَقْنَعُ بِمَا خَفَّ عَلَى ٱلسَّمْعِ . وَيُوجِزُ فَلَا يُخِلُّ . وَيُطْنِبُ فَلَا يُمِلُّ . فَلِلّٰهِ فُلَانٌ اَخَذَ بِاَزِمَّةِ ٱلْقَوْلِ يَقُودُهَا كَيْفَ اَرَادَ وَيَجْذُبُهَا اَنَّى شَاءَ فَلَا تَعْصِيهِ بَيْنَ ٱلصَّعْبِ وَٱلذَّلُولِ . وَلَا تُسْلِمُهُ عِنْدَ ٱلْحُزُونِ وَٱلسُّهُولِ . كَلَامُهُ يَشْتَدُّ مَرَّةً حَتَّى تَقُولَ : اَلصَّخْرُ ٱلْاَمْلَسُ . وَيَلِينُ تَارَةً حَتَّى تَقُولَ : اَلْمَاءُ اَوْ اَسْلَسُ . يَقُولُ : فَيَصُولُ . وَيُجِيبُ فَيُصِيبُ . وَيَكْتُبُ فَيُطَبِّقُ ٱلْمَفْصِلَ . وَيَنْسُقُ ٱلدُّرَّ ٱلْمُفَصَّلَ . وَيَرِدُ مَشَارِعَ ٱلْكَلَامِ وَهِيَ صَافِيَةٌ لَمْ تُطْرَقْ . وَجَامَّةٌ لَمْ تُرْنَقْ . خَاطِرُهُ ٱلْبَرْقُ اَوْ اَسْرَعُ لَمْعًا . وَٱلسَّيْفُ اَوْ اَحَدُّ قَطْعًا . وَٱلْمَاءُ اَوْ اَسْلَسُ جَرْيًا . وَٱلْفَلَكُ اَوْ اَقْوَمُ هَدْيًا . يَسْهُلُ ٱلْكَلَامُ عَلَى لَفْظِهِ وَتَتَزَاحَمُ ٱلْمَعَانِي عَلَى طَبْعِهِ فَيَتَنَاوَلُ ٱلْمَرْمَى ٱلْبَعِيدَ بِقَرِيبِ سَعْيِهِ . وَيَسْتَنْبِطُ ٱلْمَشْرَعَ ٱلْعَمِيقَ بِيَسِيرِ جَرْيِهِ . لِسَانُهُ يَفَاقُ ٱلصُّخُورَ . وَيُفِيضُ ٱلْبُحُورَ . خَطِيبٌ لَا تَنَالُهُ حُبْسَةٌ وَلَا تَرْتَهِنُهُ لُكْنَةٌ وَلَا تَتَحَيَّفُ بَيَانَهُ عُجْمَةٌ وَلَا تَعْتَرِضُ لِسَانَهُ عُقْدَةٌ يُحْسِنُ ٱلسِّفَارَةَ . وَيَسْتَوْفِي ٱلْعِبَارَةَ . وَيُؤَدِّي ٱلْاَلْفَاظَ . وَيَسْتَغْرِقُ ٱلْاَغْرَاضَ . قَالَ حَتَّى قَالَ ٱلْكَلَامُ : لَوْ اَعْفَيْتَ . وَكَتَبَ حَتَّى قَالَتِ ٱلْاَقْلَامُ : قَدْ اَحْفَيْتَ

البحث الثالث

في أوصاف البلاغات على السنة اقوام من اهل البلاغات

(عن زهر الاداب للقيرواني)

قَالَ بَعْضٌ مِنْ وُلْدِ عَقَائِلِ هٰذَا ٱلْمَنْثُورِ . وَاِلْفِ فَوَاصِلِ هٰذِهِ

ٱلشُّذُورِ: تَجمعَ قَوْمٌ مِنْ اَهلِ ٱلصِّنَاعَاتِ فَوَصَفُوا بَلَاغَاتِهِمْ مِنْ طَرِيقِ صِنَاعَاتِهِمْ . (فَقَالَ ٱلجَوْهَرِيُّ) : اَحْسَنُ ٱلْـكَلَامِ نِظَاما مَا نَقَبَتْهُ يَدُ ٱلْفِكْرَةِ وَنَظَمَتْهُ ٱلفِطْنَةُ وَوُصِلَ جَوْهَرُ مَعَانِيهِ فِي سُمُوطِ ٱلفَاظِهِ فَٱحْتَمَلَتْهُ نُحُورُ ٱلرُّوَاةِ . (وَقَالَ ٱلعَطَّارُ) : اَطْيَبُ ٱلْـكَلَامِ مَا عُجِنَ عَنْبَرُ ٱلفَاظِهِ بِمِسْكِ مَعَانِيهِ فَفَاحَ نَسِيمُ نَشَقِهِ . وَسَطَعَتْ رَائِحَةُ عَبَقِهِ . فَتَعَلَّقَتْ بِهِ ٱلرُّوَاةُ. وَتَعَطَّرَتْ بِهِ ٱلسُّرَاةُ .(وَقَالَ ٱلصَّائِغُ) :خَيْرُ ٱلْـكَلَامِ مَا اَحْمَيْتَهُ بِكِيرِ ٱلفِكْرِ. وَسَبَكْتَهُ بِمَشَاعِلِ ٱلنَّظَرِ. وَخَلَّصْتَهُ مِنْ خَبَثِ ٱلْإِطْنَابِ فَبَرَزَ بُرُوزَ ٱلْإِبْرِيزِ. فِي مَعْنًى وَجِيزٍ. (وَقَالَ ٱلصَّيْرَفِيُّ) : خَيْرُ ٱلْـكَلَامِ مَا نَقَدَتْهُ يَدُ ٱلبَصِيرَةِ وَجَلَتْهُ عَيْنُ ٱلرَّوِيَّةِ وَوَزَنْتَهُ بِمِعْيَارِ ٱلفَصَاحَةِ فَلَا نَظَرَ يُزَيِّفُهُ وَلَا سَمَاعَ يُبَهْرِجُهُ . (وَقَالَ ٱلحَدَّادُ) : اَحْسَنُ ٱلْـكَلَامِ مَا نَصَبْتَ عَلَيْهِ مِنْفَخَةَ ٱلقَرِيحَةِ وَاَشْعَلْتَ عَلَيْهِ نَارَ ٱلبَصِيرَةِ ثُمَّ اَخْرَجْتَهُ مِنْ فَحْمِ ٱلْإِفْحَامِ . وَرَقَّقْتَـهُ بِفِطِّيسِ ٱلْإِفْهَامِ . (وَقَالَ ٱلنَّجَّارُ) :خَيْرُ ٱلْـكَلَامِ مَا اَحْكَمْتَ نَجْرَ مَعْنَاهُ بِقَدُومِ ٱلتَّقْدِيرِ. وَنَشَرْتَهُ بِمِنْشَارِ ٱلتَّدْبِيرِ . فَصَارَ بَابًا لِبَيْتِ ٱلبَيَانِ . وَعَارِضَةً لِسَقْفِ ٱللِّسَانِ . (وَقَالَ ٱلنَّجَّادُ) : اَحْسَنُ ٱلْـكَلَامِ مَا لَطُفَتْ رِفَافُ ٱلفَاظِهِ وَحَسُنَتْ مَطَارِحُ مَعَانِيهِ فَتَنَزَّهَتْ فِي زَرَابِيِّ مَحَاسِنِهِ عُيُونُ ٱلنَّاظِرِينَ . وَاَصَاخَتْ لِنَمَارِقِ بَهْجَتِهِ آذَانُ ٱلسَّامِعِينَ . (وَقَالَ ٱلمَاتِحُ) : اَبْيَنُ ٱلْـكَلَامِ مَا عَلَّقْتَ وَذَمَ ٱلفَاظِهِ بِبَكَرَةِ مَعَانِيهِ ثُمَّ اَرْسَلْتَهُ فِي قَلِيبِ ٱلفِطَنِ رِيَا فَٱمْتَتَحْتَ بِهِ سِقَاءَ يَكْشِفُ ٱلشُّبُهَاتِ . وَٱسْتَنْبَطْتَ بِهِ مَعْنًى يُرْوِي مِنْ ظَمَإِ ٱلْمُشْكِلَاتِ . (وَقَالَ ٱلخَيَّاطُ) : ٱلبَلَاغَةُ رِدَاءٌ قُجِّرُبَانُهُ ٱلبَيَانُ

وَجِبِنَهُ ٱلْمَعْرِفَةُ وَكُدَّاهُ ٱلْوَجَازَةُ وَدَخَارِيصُهُ ٱلْإِفْهَامُ وَدُرُوزُهُ ٱلْحَلَاوَةُ وَلَابِسُهُ جَسَدُ ٱللَّفْظِ وَرُوحُ ٱلْمَعْنَى . (وَقَالَ ٱلصَّائِغُ) : أَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا لَمْ تَنْضُ بَهْجَةُ إِيجَازِهِ . وَلَمْ تَكْشِفْ صِبْغَةُ إِعْجَازِهِ . قَدْ صَقَلَتْهُ يَدُ ٱلرَّوِيَّةِ مِنْ كُمُودِ ٱلْإِشْكَالِ فَرَاعَ كَوَاعِبَ ٱلْآدَابِ . وَأَلِفَ عَذَارَى ٱلْأَلْبَابِ . (وَقَالَ ٱلْحَائِكُ) : أَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا أَتَّصَلَتْ لُحْمَةُ أَلْفَاظِهِ بِسَدَى مَعَانِيهِ فَخَرَجَ مُفَوَّفًا مُنَيَّرًا وَمُوَشًّى مُحَبَّرًا . (وَقَالَ ٱلْبَزَّازُ) : أَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا صَدَقَ رَقْمُ أَلْفَاظِهِ وَحَسُنَ نَشْرُ مَعَانِيهِ فَلَمْ يَسْتَعْجِمْ عَنْكَ نَشْرٌ وَلَمْ يَسْتَبْهِمْ عَلَيْكَ طَيٌّ . (وَقَالَ ٱلرَّائِضُ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا لَمْ يَخْرُجْ عَنْ حَدِّ ٱلتَّخْلِيعِ إِلَى مَنْزِلَةِ ٱلتَّقْرِيبِ إِلَّا بَعْدَ ٱلرِّيَاضَةِ وَكَانَ كَٱلْمُهْرِ ٱلَّذِي أَطْمَعَ أَوَّلُ رِيَاضَتِهِ فِي تَمَامِ ثَقَافَتِهِ . (وَقَالَ ٱلْجَمَّالُ) : ٱلْبَلِيغُ مَنْ أَخَذَ بِخِطَامِ كَلَامِهِ فَأَنَاخَهُ فِي مَبْرَكِ ٱلْمَعْنَى ثُمَّ جَعَلَ ٱلِٱخْتِصَارَ لَهُ عِقَالًا . وَٱلْإِيجَازَ لَهُ مَجَالًا . فَلَمْ يَنِدَّ عَنِ ٱلْآذَانِ . وَلَمْ يَشُذَّ عَنِ ٱلْأَذْهَانِ . (وَقَالَ ٱلْخَمَّارُ) : أَبْلَغُ ٱلْكَلَامِ مَا طَبَخَتْهُ مَرَاجِلُ ٱلْعِلْمِ وَصَفَّاهُ رَاوُوقُ ٱلْفَهْمِ وَضَمَّتْهُ دِنَانُ ٱلْحِكْمَةِ فَتَمَشَّتْ فِي ٱلْمَفَاصِلِ عُذُوبَتُهُ وَفِي ٱلْأَفْكَارِ دِقَّتُهُ وَفِي ٱلْعُقُولِ حِدَّتُهُ . (وَقَالَ ٱلْفُقَّاعِيُّ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا رَوَّحَتْ أَلْفَاظُهُ غَبَاوَةَ ٱلشَّكِّ وَدَفَعَتْ دِقَّتُهُ فَظَاظَةَ ٱلْجَهْلِ فَطَابَ حَسَاءُ نَطْقِهِ وَعَذُبَ مَصُّ جُرَعِهِ . (وَقَالَ ٱلطَّبِيبُ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا إِذَا بَاشَرَ دَوَاءُ بَيَانِهِ سُقْمَ ٱلشُّبْهَةِ ٱسْتَطْلَقَتْ طَبِيعَةُ ٱلْغَبَاوَةِ فَشَفَى مِنْ سُوءِ ٱلتَّفَهُّمِ وَأَوْرَثَ صِحَّةَ ٱلتَّوَهُّمِ . (قَالَ ٱلْكَحَّالُ) : كَمَا أَنَّ ٱلرَّمَدَ قَذَى ٱلْأَبْصَارِ فَٱلشُّبْهَةُ قَذَى ٱلْبَصَائِرِ

فَاكْحَلْ عَيْنَ ٱللُّكْنَةِ بِمِيلِ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱجْلُ رَمَصَ ٱلْغَفْلَةِ بِمِرْوَدِ ٱلْيَقْظَةِ. (ثُمَّ قَالَ): اَجْمَعُوا كُلُّهُمْ عَلَى اَنَّ اَبْلَغَ ٱلْكَلَامِ مَا اِذَا اَشْرَقَتْ شَمْسُهُ ٱنْكَشَفَ لَبْسُهُ وَاِذَا صَدَقَتْ اَنْوَاؤُهُ اَخْضَرَّتْ اَحْمَاؤُهُ

الفصل الثالث

في المعاني

البحث الاوّل

في حقيقة المعاني

(عن كشّاف اصطلاحات الفنون بتصرّف)

(راجع صفحة ١٠ من علم الادب)

اَلْمَعْنَى لُغَةً ٱلْمَقْصُودُ وَفِي ٱلِاصْطِلَاحِ هُوَ ٱلصُّورَةُ ٱلذِّهْنِيَّةُ مِنْ حَيْثُ اِنَّهُ وُضِعَ بِاِزَائِهَا ٱللَّفْظُ اَيْ مِنْ حَيْثُ اِنَّهَا تُقْصَدُ مِنْهُ. وَذَلِكَ اِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْوَضْعِ فَاِنْ عُبِّرَ عَنْهَا بِلَفْظٍ مُفْرَدٍ يُسَمَّى مَعْنًى مُفْرَدًا. وَاِنْ عُبِّرَ عَنْهَا بِلَفْظٍ مُرَكَّبٍ سُمِّيَ مَعْنًى مُرَكَّبًا. فَٱلْاِفْرَادُ وَٱلتَّرْكِيبُ صِفَتَانِ لِلْاَلْفَاظِ حَقِيقَةً وَيُوصَفُ بِهِمَا ٱلْمَعَانِي تَبَعًا. وَعِلْمُ ٱلْمَعَانِي عِلْمٌ يُحْتَرَزُ بِهِ عَنِ ٱلْخَطَاءِ فِي تَأْدِيَةِ ٱلْمُرَادِ وَتُعْرَفُ اَحْوَالُ ٱللَّفْظِ ٱلْعَرَبِيِّ ٱلَّتِي بِهَا يُطَابِقُ ٱللَّفْظُ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ وَهُوَ مِنْ اُصُولِ ٱلْعُلُومِ ٱلْعَرَبِيَّةِ يَبْحَثُ عَنِ ٱلْمُرَكَّبَاتِ عَلَى ٱلْاِطْلَاقِ بِٱعْتِبَارِ اِفَادَتِهَا لِمَعَانٍ زَائِدَةٍ عَلَى اَصْلِ ٱلْمَعْنَى. قَالَ بَعْضُ اَهْلِ ٱلْمَعَانِي: ٱلْكَلَامُ ٱلَّذِي يُوصَفُ

بِالْبَلاغَةِ هُوَ الَّذِي يَدُلُّ بِلَفْظِهِ عَلَى مَعْنَاهُ اللُّغَوِيّ أَوِ الْعُرْفِيّ أَوِ الشَّرْعِيّ . ثُمَّ تَجِدُ لِذَلِكَ الْمَعْنَى دَلالَةً ثَانِيَةً عَلَى الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ الَّذِي يُرِيدُ الْمُتَكَلِّمُ إِثْبَاتَهُ أَوْ نَفْيَهُ فَهُنَاكَ أَلْفَاظٌ وَمَعَانٍ أُوَلٌ وَمَعَانٍ ثَوَانٍ . فَالْمَعَانِي الْأُوَلُ هِيَ مَدْلُولاتُ التَّرَاكِيبِ وَالْأَلْفَاظِ الَّتِي تُسَمَّى فِي عِلْمِ النَّحْوِ أَصْلَ الْمَعْنَى . وَالْمَعَانِي الثَّوَانِي الْأَغْرَاضُ الَّتِي يُسَاقُ لَهَا الْكَلامُ . وَلِذَا قِيلَ : مُقْتَضَى الْحَالِ هُوَ الْمَعْنَى الثَّانِي . كَرَدِّ الْإِنْكَارِ وَدَفْعِ الشَّكِّ مَثَلًا إِذَا قُلْنَا : إِنَّ زَيْدًا قَائِمٌ . فَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ هُوَ الْقِيَامُ الْمُؤَكَّدُ وَالْمَعْنَى الثَّانِي رَدُّ الْإِنْكَارِ وَدَفْعُ الشَّكِّ . وَإِذَا قُلْنَا : هُوَ أَسَدٌ فِي صُورَةِ الْإِنْسَانِ . فَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ هُوَ مَدْلُولُ هَذَا الْكَلامِ وَالْمَعْنَى الثَّانِي هُوَ أَنَّهُ شُجَاعٌ . فَالْمَعْنَى الثَّانِي هُوَ الَّذِي يُرَادُ إِيرَادُهُ فِي الطُّرُقِ الْمُخْتَلِفَةِ وَالْمَفْهُومُ مِنْ تِلْكَ الطُّرُقِ هُوَ الْمَعْنَى الْأَوَّلُ . وَتَسْمِيَتُهُ بِالْمَعْنَى الثَّانِي لِكَوْنِ اللَّفْظِ دَالًّا عَلَيْهِ بِوَاسِطَةِ الْمَعْنَى الْأَوَّلِ . فَدَلالَةُ الْمَعْنَى الْأَوَّلِ عَلَى الثَّانِي عَقْلِيَّةٌ قَطْعًا وَأَمَّا دَلالَةُ اللَّفْظِ عَلَى الْمَعْنَى الْأَوَّلِ فَقَدْ تَكُونُ وَضْعِيَّةً وَقَدْ تَكُونُ عَقْلِيَّةً . وَقَدْ تُسَمَّى الْمَعَانِي الْأُوَلُ بِالْخُصُوصِيَّاتِ وَالْكَيْفِيَّاتِ الزَّائِدَةِ عَلَى أَصْلِ الْمَعْنَى وَبِالصُّوَرِ وَالْخَوَاصِّ وَالْمَزَايَا مَجَازًا . ثُمَّ إِنَّهُمْ سَمَّوْا تَرْتِيبَ الْمَعَانِي الْأُوَلِ وَكَذَا الْمَعَانِيَ الْأُوَلَ أَلْفَاظًا . وَفَضِيلَةَ الْكَلامِ بِاعْتِبَارِ هَذَا التَّرْتِيبِ لِكَوْنِ الْمَعْنَى الْأَوَّلِ مَحَلَّ الْفَضِيلَةِ لِأَنَّ تَرْتِيبَ الْمَعَانِي الْأَصْلِيَّةِ فِي النَّفْسِ ثُمَّ تَرْتِيبَ الْأَلْفَاظِ فِي النُّطْقِ عَلَى حَذْوِهَا عَلَى وَجْهٍ يَنْتَقِلُ مِنْهَا الذِّهْنُ بِتَوَسُّلِهَا إِلَى الْخَوَاصِّ فِي الْإِفَادَةِ بِلَا إِخْلالٍ وَلَا تَعْقِيدٍ هُوَ

ٱلْبَلَاغَةُ. فَيَكُونُ تَرْتِيبُ ٱلْمَعَانِي ٱلْأُوَلِ عَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلْمَخْصُوصِ مَنْشَأَ ٱلْفَضِيلَةِ وَمَنَاطَ ٱلْبَرَاعَةِ بِلَا شَكٍّ . قَالَ ٱلشَّيْخُ : وَلَمَّا كَانَتِ ٱلْمَعَانِي تَتَبَيَّنُ بِٱلْأَلْفَاظِ وَلَمْ يَكُنْ لِتَرْتِيبِ ٱلْمَعَانِي سَبِيلٌ إِلَّا بِتَرْتِيبِ ٱلْأَلْفَاظِ فِي ٱلنُّطْقِ تَجَوَّزُوا فَعَبَّرُوا عَنْ تَرْتِيبِ ٱلْمَعَانِي بِتَرْتِيبِ ٱلْأَلْفَاظِ ثُمَّ بِٱلْأَلْفَاظِ بِحَذْفِ ٱلتَّرْتِيبِ . وَإِذَا وَصَفُوا ٱللَّفْظَ بِمَا يَدُلُّ عَلَى تَفْخِيمِهِ كَانَ يُقَالُ ٱلْبَلَاغَةُ رَاجِعَةٌ إِلَى ٱللَّفْظِ . أَوْ هُوَ مَحَلُّ ٱلْفَضِيلَةِ ٱلَّتِي بِهَا يَسْتَحِقُّ ٱلِٱتِّصَافَ بِٱلْفَصَاحَةِ وَنَحْوِهَا لَمْ يُرِيدُوا ٱللَّفْظَ ٱلْمَنْطُوقَ وَلٰكِنْ أَرَادُوا مَعْنَى ٱللَّفْظِ ٱلَّذِي دَلَّ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي

البحث الثاني

في صحّة المعاني

(عن ادب الدنيا والدين للماوردي)

(راجع صفحة ١١٠و١١١ من علم الادب)

أَمَّا صِحَّةُ ٱلْمَعَانِي فَتَكُونُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ : (أَحَدُهَا) إِيضَاحُ تَفْسِيرِهَا حَتَّى لَا تَكُونَ مُشْكِلَةً وَلَا مُجْمَلَةً . (وَٱلثَّانِي) ٱسْتِيفَاءُ تَقْسِيمِهَا حَتَّى لَا يَدْخُلَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا وَلَا يَخْرُجَ عَنْهَا مَا هُوَ فِيهَا . (وَٱلثَّالِثُ) صِحَّةُ مُقَابَلَاتِهَا . وَٱلْمُقَابَلَةُ تَكُونُ مِنْ وَجْهَيْنِ : (أَحَدُهُمَا) مُقَابَلَةُ ٱلْمَعْنَى بِمَا يُوَافِقُهُ وَحَقِيقَةُ هٰذِهِ ٱلْمُقَارَبَةِ لِأَنَّ ٱلْمَعَانِيَ تَصِيرُ مُتَشَاكِلَةً . وَٱلثَّانِي مُقَابَلَتُهُ بِمَا يُضَادُّهُ وَهُوَ حَقِيقَةُ ٱلْمُقَابَلَةِ . وَلَيْسَ لِلْمُقَابَلَةِ إِلَّا أَحَدُ هٰذَيْنِ ٱلْوَجْهَيْنِ : ٱلْمُوَافَقَةِ فِي ٱلِٱئْتِلَافِ وَٱلْمُضَادَّةِ مَعَ ٱلِٱخْتِلَافِ . فَأَمَّا فَصَاحَةُ

ٱلْأَلفاظِ فَتَكُونُ بِثَلَاثَةِ اَوْجهٍ :(اَحدُهَا) مُجَانَبَةُ ٱلْغَرِيبِ ٱلْوَحْشِيِّ حَتَّى لَا يَمُجَّهُ سَمعٌ وَلَا يَنفِرَ مِنهُ طَبعٌ .(وَٱلثَّانِي) تَنكُّبُ ٱللَّفظِ ٱلْمُبتَذَلِ وَٱلعدولُ عَنِ ٱلكَلَامِ ٱلْمُستَرذَلِ حَتَّى لَا يَستَسقِطَهُ خَاصِيٌّ وَلَا يَنبُو عَنهُ فَهمُ عَامِيٍّ كَمَا قَالَ ٱلْجَاحِظُ فِي كِتَابِ ٱلبَيَانِ : اَمَّا اَنَا فَلَمْ اَرَ قَوماً اَمثَلَ طَرِيقَةً فِي ٱلبَلَاغَةِ مِنَ ٱلكُتَّابِ وَذٰلِكَ اَنَّهُم قَدِ ٱلتَمَسُوا مِنَ ٱلْأَلفَاظِ مَا لَمْ يَكُنْ مُتَوَعِّرًا وَحشِيا وَلَا سَاقِطًا عَامِّيًّا.(وَٱلثَّالِثُ) اَنْ يَكُونَ بَيْنَ ٱلالفَاظِ وَمَعَانِيهَا مُنَاسَبَةٌ وَمُطَابَقَةٌ . اَمَّا ٱلْمُطَابَقَةُ فَهِيَ اَنْ تَكُونَ ٱلأَلفاظُ كَٱلقَوَالِبِ لِمَعَانِيهَا فَلَا تَزِيدُ عَلَيْهَا وَلَا تَنقُصُ عَنهَا . وَقَالَ بِشرُ بنُ ٱلْمُعتَمِرِ فِي وَصِيَّتِهِ فِي ٱلْبَلَاغَةِ : اِذَا لَمْ تَجِدِ ٱللَّفظَةَ وَاقِعَةً مَوقِعَهَا وَلَا صَائِرَةً اِلَى مُستَقَرِّهَا وَلَا حَالَّةً فِي مَرْكَزِهَا بَلْ وَجَدتَهَا قَلِقَةً فِي مَكَانِهَا نَافِرَةً عَنْ مَوضِعِهَا فَلَا تُكرِهْهَا عَلَى ٱلْقَرَارِ فِي غَيْرِ مَوضِعِهَا فَاِنَّكَ اِنْ لَمْ تَتَعَاطَ قَرضَ ٱلشِّعرِ ٱلْمَوزُونِ وَلَمْ تَتَكَلَّفِ ٱختِيَارَ ٱلْمَنثُورِ لَمْ يَعِبْكَ بِتَرْكِ ذٰلِكَ اَحدٌ وَاِذَا اَنتَ تَكَلَّفتَهُمَا وَلَمْ تَكُنْ حَاذِقًا فِيهِمَا عَابَكَ مَنْ اَنتَ اَقَلُّ عَيبًا مِنهُ وَاَزرَى عَلَيْكَ مَنْ اَنتَ فَوقَهُ. وَاَمَّا ٱلْمُنَاسَبَةُ فَهِيَ اَنْ يَكُونَ ٱلْمَعْنَى يَلِيقُ بِبَعضِ ٱلْأَلفَاظِ اِمَّا لِعُرفٍ مُستَعمَلٍ اَوْ لِٱتِّفَاقٍ مُستَحسَنٍ حَتَّى اِذَا ذُكِرَتْ تِلكَ ٱلمَعَانِي بِغَيْرِ تِلكَ ٱلْأَلفَاظِ كَانَتْ نَافِرَةً عَنهَا وَاِنْ كَانَتْ اَفصَحَ وَاَوضَحَ لِٱعتِيَادِ مَا سِوَاهَا . وَقَالَ بَعضُ ٱلبُلَغَاءِ : لَا يَكُونُ ٱلْبَلِيغُ بَلِيغًا حَتَّى يَكُونَ مَعْنَى كَلَامِهِ اَسبَقَ اِلَى فَهمِكَ مِنْ لَفظِهِ اِلَى سَمعِكَ . وَاَمَّا مُعَاطَاةُ ٱلْإِعرَابِ وَتَجَنُّبُ ٱللَّحنِ فَاِنَّمَا هُوَ مِنْ

صِفَاتِ ٱلصَّوَابِ . وَٱلْبَلَاغَةُ اَعْلَى مِنْهُ رُتْبَةً وَاَشْرَفُ مَنْزِلَةً وَلَيْسَ لِمَنْ لَحَنَ فِي كَلَامِهِ مَدْخَلٌ فِي ٱلْأُدَبَاءِ فَضْلًا عَنْ اَنْ يَكُونَ فِي عِدَادِ ٱلْبُلَغَاءِ

البحث الثالث

في انواع المعاني

(ملخّص عن زهر الاداب للقيرواني)

(راجع صفحة ١٢ من علم الادب)

قَالَ اَبُو عُثْمَانَ عَمْرُو بْنُ بَحْرٍ ٱلْجَاحِظُ : قَالَ بَعْضُ جَهَابِذَةِ ٱلْأَلْفَاظِ وَنُقَّادِ ٱلْمَعَانِي : ٱلْمَعَانِي ٱلْقَائِمَةُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٱلْمُتَصَوَّرَةُ فِي اَذْهَانِهِمْ ٱلْمُخْتَلِجَةُ فِي نُفُوسِهِمْ ٱلْمُتَّصِلَةُ بِخَوَاطِرِهِمْ وَٱلْحَادِثَةُ عَنْ فِكْرِهِمْ مَسْتُورَةٌ خَفِيَّةٌ وَبَعِيدَةٌ وَحْشِيَّةٌ وَمَحْجُوبَةٌ مَكْنُونَةٌ وَمَوْجُودَةٌ فِي مَعْنًى مَعْدُومَةٌ لَا يَعْرِفُ ٱلْإِنْسَانُ ضَمِيرَ صَاحِبِهِ وَلَا حَاجَةَ اَخِيهِ وَخَلِيطِهِ وَلَا مَعْنَى شَرِيكِهِ وَٱلْمُعَاوِنِ لَهُ عَلَى اَمْرِهِ وَعَلَى مَا لَا يَبْلُغُهُ مِنْ حَاجَاتِ نَفْسِهِ اِلَّا بِغَيْرِهِ . وَاِنَّمَا يُحْيِي تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ذِكْرُهُمْ لَهَا وَاِخْبَارُهُمْ عَنْهَا وَٱسْتِعْمَالُهُمْ اِيَّاهَا . وَهٰذِهِ ٱلْخِصَالُ هِيَ ٱلَّتِي تُقَرِّبُهَا مِنَ ٱلْفَهْمِ وَتُجَلُّوهَا لِلْعَقْلِ وَتَجْعَلُ ٱلْخَفِيَّ مِنْهَا ظَاهِرًا وَٱلْغَائِبَ شَاهِدًا وَٱلْبَعِيدَ قَرِيبًا . وَهِيَ ٱلَّتِي تُلَخِّصُ ٱلْمُلْتَبِسَ وَتَحُلُّ ٱلْمُنْعَقِدَ وَتَجْعَلُ ٱلْمُهْمَلَ مُقَيَّدًا وَٱلْمُقَيَّدَ مُطْلَقًا وَٱلْمَجْهُولَ مَعْرُوفًا وَٱلْوَحْشِيَّ مَأْلُوفًا . وَعَلَى قَدْرِ وُضُوحِ ٱلدَّلَالَةِ وَصَوَابِ ٱلْاِشَارَةِ وَحُسْنِ ٱلْاِخْتِصَارِ وَدِقَّةِ ٱلْمَدْخَلِ يَكُونُ ظُهُورُ ٱلْمَعْنَى . وَكَمَا

كَانَتِ ٱلدَّلَالَةُ أَوْضَحَ وَأَفْصَحَ وَكَانَتِ ٱلْإِشَارَةُ أَبْيَنَ وَأَنْوَرَ كَانَتْ أَنْفَعَ وَأَنْجَعَ فِي ٱلْبَيَانِ. ثُمَّ ٱعْلَمْ حَفِظَكَ ٱللّٰهُ أَنَّ حُكْمَ ٱلْمَعَانِي خِلَافُ حُكْمِ ٱلْأَلْفَاظِ لِأَنَّ ٱلْمَعَانِيَ مَبْسُوطَةٌ إِلَى غَايَةٍ وَمُمْتَدَّةٌ إِلَى غَيْرِ نِهَايَةٍ وَأَسْمَاءُ ٱلْمَعَانِي مَحْصُورَةٌ مَعْدُودَةٌ وَمُحَصَّلَةٌ مَحْدُودَةٌ. وَجَمِيعُ أَصْنَافِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَعَانِي مِنْ لَفْظٍ أَوْ غَيْرِ لَفْظٍ خَمْسَةُ أَشْيَاءَ لَا تَنْقُصُ وَلَا تَزِيدُ: أَوَّلُهَا ٱللَّفْظُ. ثُمَّ ٱلْإِشَارَةُ. ثُمَّ ٱلْعَقْدُ. ثُمَّ ٱلْخَطُّ. ثُمَّ ٱلْحَالُ ٱلَّتِي تُسَمَّى نِصْبَةً. وَٱلنِّصْبَةُ هِيَ ٱلْحَالُ ٱلدَّالَّةُ ٱلَّتِي تَقُومُ مَقَامَ تِلْكَ ٱلْأَصْنَافِ وَلَا تَقْصُرُ عَنْ تِلْكَ ٱلدَّلَالَاتِ. وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلدَّلَائِلِ ٱلْخَمْسَةِ صُورَةٌ بَائِنَةٌ مِنْ صُورَةِ صَاحِبَتِهَا وَحِلْيَةٌ مُخَالِفَةٌ لِحِلْيَةِ أُخْتِهَا. وَهِيَ ٱلَّتِي تَكْشِفُ لَكَ عَنْ أَعْيَانِ ٱلْمَعَانِي فِي ٱلْجُمْلَةِ وَعَنْ حَقَائِقِهَا فِي ٱلتَّفْسِيرِ وَعَنْ أَجْنَاسِهَا وَأَقْدَارِهَا وَعَنْ خَاصِّهَا وَعَامِّهَا وَعَنْ طَبَقَاتِهَا فِي ٱلسَّارِّ وَٱلضَّارِّ وَعَمَّا يَكُونُ مِنْهَا لَهْوًا بَهْرَجًا وَسَاقِطًا مُطَّرَحًا. وَفِي نَحْوِ قَوْلِ أَبِي عُثْمَانَ (إِنَّ ٱلْمَعَانِيَ غَيْرُ مَقْصُورَةٍ وَلَا مَحْصُورَةٍ) يَقُولُ أَبُو تَمَّامٍ ٱلطَّائِيُّ لِأَبِي دُلَفَ بْنِ عِيسَى ٱلْعِجْلِيِّ:

وَلَوْ كَانَ يَفْنَى ٱلشِّعْرُ أَفْنَتْهُ مَا قَرَتْ ... حِيَاضُكَ مِنْهُ فِي ٱلْعُصُورِ ٱلذَّوَاهِبِ
وَلٰكِنَّهُ فَيْضُ ٱلْعُقُولِ إِذَا ٱنْجَلَتْ ... سَحَائِبُ مِنْهُ أُعْقِبَتْ بِسَحَائِبِ

وَقَالَ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ بْنُ ٱلْمُعْتَزِّ: لَحْظَةُ ٱلْقَلْبِ أَسْرَعُ مِنْ لَحْظَةِ ٱلْعَيْنِ وَأَبْعَدُ مَجَالًا وَهِيَ ٱلْغَائِصَةُ فِي أَعْمَاقِ أَوْدِيَةِ ٱلْفِكْرِ وَٱلْمُتَأَمِّلَةُ لِوُجُوهِ ٱلْعَوَاقِبِ وَٱلْجَامِعَةُ بَيْنَ مَا غَابَ وَحَضَرَ وَٱلْمِيزَانُ ٱلشَّاهِدُ عَلَى مَا نَفَعَ وَضَرَّ. وَٱلْقَلْبُ كَٱلْمُمْلِي لِلْكَلَامِ عَلَى ٱللِّسَانِ إِذَا نَطَقَ وَٱلْيَدِ

إذا كتبت . والعاقل يكسو المعاني وشي الكلام في قلبه ثم يبديها بألفاظ كواس في أحسن زينة . والجاهل يستعجل بإظهار المعاني قبل العناية بتزيين معارضها واستكمال محاسنها . قيل لبشار ابن برد : بما فقت أهل عصرك وسبقت أهل عصرك في حسن معاني الشعر وتهذيب ألفاظه . فقال : لأني لم أقبل كل ما تورده علي قريحتي ويناجيني به طبعي ويبعثه فكري . ونظرت إلى مغارس الفطن ومعادن الحقائق ولطائف التشبيهات فسرت إليها بفهم جيد وغريزة قوية فأحكمت سبرها وانتقيت حرها وكشفت عن حقائقها واحترزت من متكلفها وما ملك قيادي قط الإعجاب بشيء مما آتي به

البحث الرابع

في الحكم على المعاني

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرّف)

فائدة هذا الفصل الإحاطة بأساليب المعاني على اختلافها وتباينها . وصاحب هذه الصناعة مفتقر إلى هذا الفصل والذي يليه بخلاف غيرهما من هذه الفصول المذكورة لا سيما مفسري الأشعار فإنهم به أعنى . واعلم أن الأصل في المعنى أن يحمل على ظاهر لفظه ومن يذهب إلى التأويل يفتقر إلى دليل كقول القائل : وثيابك فطهر . فالظاهر من لفظ (الثياب) هو ما يلبس ومن تأول ذهب إلى أن المراد هو القلب لا الملبوس . وهذا لا بد له من

دليل لأنه عدولٌ عن ظاهرِ اللفظ . وكذلك وردَ عن عيسى بن مريمَ عليهِ السلامُ انهُ قالَ : إذا اردتَ أن تصلّيَ فادخلْ بيتكَ وأغلقْ بابكَ . فالظاهرُ من هذا هوَ البيتُ والبابُ . ومن تأوّلَ ذهبَ إلى أنهُ ارادَ أنكَ تجمعُ عليكَ همَّ قلبكَ وتمنعُ أن يخطرَ بهِ سوى أمرِ الصلاة . فعبرَ عن القلبِ بالبيتِ وعن منعِ الخواطرِ التي تخطرُ لهُ بإغلاقِ البابِ . وهذا يحتاجُ إلى دليل لأنهُ عدولٌ عن ظاهرِ اللفظ . فالمعنى المحمولُ على ظاهرِهِ لا يقعُ في تفسيرِهِ خلافٌ والمعنى المعدولُ عنْ ظاهرِهِ إلى التأويل يقعُ فيهِ الخلافُ إذ بابُ التأويل غيرُ محصورٍ . والعلماءُ متفاوتونَ في هذا فإنهُ قد يأخذُ بعضُهم وجهاً ضعيفاً منَ التأويلِ فيكسوهُ بعبارتِهِ قوةً تميزُهُ على غيرِهِ منَ الوجوهِ القويةِ فإنَّ السيفَ بضاربهِ

إنَّ السيوفَ مع الذينَ قلوبُهمْ كقلوبهنَّ إذا التقى الجمعانِ
تلقى الحسامَ على جراءةِ حدّهِ مثلَ الجبانِ بكفِّ كلِّ جبانِ

وهذا الفصلُ الذي نحنُ بصددِ ذكرِهِ هاهُنا يرجعُ أكثرُهُ إلى التأويلِ لأنهُ أدقُّ ولا يخلو تأويلُ المعنى منْ ثلاثةِ أقسامٍ : إما أنْ يفهمَ منهُ شيءٌ واحدٌ لا يحتملُ غيرَهُ . وإما أنْ يحتملَ الشيءَ وغيرَهُ . وتلكَ الغيريّةُ إمّا أنْ تكونَ ضدّاً أو لا تكونَ ضدّاً وليسَ لنا قسمٌ رابعٌ . (فالأوّلُ) يقعُ عليهِ أكثرُ الأشعارِ ولا يجري في الدقّةِ واللطافةِ مجرى القسمينِ الآخرينِ . (وأمّا القسمُ الثاني) فإنهُ قليلُ الوقوعِ جدّاً وهوَ منَ التأويلاتِ المعنويّةِ . لأنَّ

دَلاَلَةَ ٱللَّفظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى وَضِدِّهِ اَغرَبُ مِنْ دَلاَلَتِهِ عَلَى ٱلْمَعنَى وَغيْرِهِ. فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ : اِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَٱصْنَعْ مَا شِئْتَ. وَهٰذَا يَشْتَمِلُ عَلَى مَعْنَيَيْنِ ضِدَّيْنِ : (اَحَدُهُمَا) اَنَّ ٱلْمُرَادَ بِهِ اِذَا لَمْ تَفْعَلْ فِعْلاً تَسْتَحِي مِنْهُ فَٱفْعَلْ مَا شِئْتَ . (وَٱلآخَرُ) اَنَّ ٱلْمُرَادَ بِهِ اِذَا لَمْ يَكُنْ لَكَ حَيَاءٌ يَزَعُكَ عَنْ فِعْلِ مَا يُسْتَحَى مِنْهُ فَٱفْعَلْ مَا شِئْتَ . وَهٰذَانِ مَعْنَيَانِ ضِدَّانِ اَحَدُهُمَا مَدْحٌ وَٱلآخَرُ ذَمٌّ . وَيَجْرِي عَلَى هٰذَا ٱلنَّهْجِ مِنَ ٱلشِّعْرِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ فِي قَصِيدَةٍ يَمْدَحُ بِهَا كَافُورا :

وَاَظْلَمُ اَهْلِ ٱلظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِدًا ... لِمَنْ بَاتَ فِي نَعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ

وَهٰذَا ٱلْبَيْتُ يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ مَعْنَيَانِ ضِدَّانِ : (اَحَدُهُمَا) اَنَّ ٱلْمُنْعَمَ عَلَيْهِ يَحْسِدُ ٱلْمُنْعِمَ . (وَٱلآخَرُ) اَنَّ ٱلْمُنْعِمَ يَحْسِدُ ٱلْمُنْعَمَ عَلَيْهِ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُهُ اَيْضًا مِنْ قَصِيدَةٍ يَمْدَحُهُ :

فَاِنْ نِلْتُ مَا اَمَّلْتُ مِنْكَ فَرُبَّمَا ... شَرِبْتُ بِمَاءٍ يُعْجِزُ ٱلطَّيْرَ وِرْدُهُ

فَاِنَّ هٰذَا ٱلْبَيْتَ يَحْتَمِلُ مَدْحًا وَذَمًّا وَاِذَا اُخِذَ بِمُفْرَدِهِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ اِلَى مَا قَبْلَهُ فَاِنَّهُ يَكُونُ بِٱلذَّمِّ اَولَى مِنْهُ بِٱلْمَدْحِ لِاَنَّهُ يَتَضَمَّنُ وَصْفَ نَوَالِهِ بِٱلْبُعْدِ وَٱلشُّذُوذِ. وَصَدْرُ ٱلْبَيْتِ مُفْتَتَحٌ (بِاِنْ) ٱلشَّرْطِيَّةِ وَقَدْ اُجِيبَ بِلَفْظَةِ (رُبَّ) ٱلَّتِي مَعْنَاهَا ٱلتَّقْلِيلُ اَيْ : لَسْتُ مِنْ نَوَالِكَ عَلَى يَقِينٍ فَاِنْ نِلْتُهُ فَرُبَّمَا وَصَلْتُ اِلَى مَوْرِدٍ لاَ يَصِلُ اِلَيْهِ ٱلطَّيْرُ لِبُعْدِهِ . وَاِذَا نُظِرَ اِلَى مَا قَبْلَ هٰذَا ٱلْبَيْتِ دَلَّ عَلَى ٱلْمَدْحِ خَاصَّةً لِٱرْتِبَاطِهِ بِٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي قَبْلَهُ . وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَقْصِدُ ٱلْمُتَنَبِّي هٰذَا ٱلْقِسْمَ فِي شِعْرِهِ كَقَوْلِهِ مِنْ قَصِيدَةٍ اَوَّلُهَا :

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانِ وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعدَائِكَ ٱلْقَمَرَانِ
وَلِلّٰهِ سِرٌّ فِي عُلَاكَ وَإِنَّمَا كَلَامُ ٱلعِدَى ضَرْبٌ مِنَ ٱلْهَذَيَانِ

ثُمَّ قَالَ :

فَمَا لَكَ تَعْنِي بِٱلأَسِنَّةِ وَٱلْقَنَا وَجَدُّكَ طَعَّانٌ بِغَيْرِ سِنَانِ

فَإِنَّ هٰذَا بِٱلذَّمِّ أَشْبَهُ مِنْهُ بِٱلْمَدْحِ لِأَنَّهُ يَقُولُ : لَمْ تَبْلُغْ مَا بَلَغْتَهُ بِسَعْيِكَ وَاهْتِمَامِكَ بَلْ بِجَدٍّ وَسَعَادَةٍ . وَهٰذَا لَا فَضْلَ فِيهِ لِأَنَّ ٱلسَّعَادَةَ تَنَالُ ٱلْخَامِلَ وَٱلْجَاهِدَ وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهَا . وَأَكْثَرُ مَا كَانَ ٱلْمُتَنَبِّي يَسْتَعْمِلُ هٰذَا ٱلقِسْمَ فِي قَصَائِدِهِ ٱلْكَافُورِيَّاتِ . . . وَهٰذَا ٱلقِسْمُ مِنَ ٱلْكَلَامِ يُسَمَّى ٱلْمُوَجَّهَ أَيْ لَهُ وَجْهَانِ وَهُوَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى بَرَاعَةِ ٱلشَّاعِرِ وَحُسْنِ تَأَتِّيهِ . (وَأَمَّا ٱلقِسْمُ ٱلثَّالِثُ) فَإِنَّهُ يَكُونُ أَكْثَرَ وُقُوعًا مِنَ ٱلقِسْمِ ٱلثَّانِي وَهُوَ وَاسِطَةٌ بَيْنَ طَرَفَيْنِ . لِأَنَّ ٱلقِسْمَ ٱلأَوَّلَ كَثِيرُ ٱلْوُقُوعِ . وَٱلقِسْمَ ٱلثَّانِي قَلِيلُ ٱلْوُقُوعِ . وَهٰذَا ٱلقِسْمُ ٱلثَّالِثُ وَسَطٌ بَيْنَهُمَا فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ : وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ . فَإِنَّ هٰذَا لَهُ وَجْهَانِ مِنَ ٱلتَّأْوِيلِ أَحَدُهُمَا ٱلْقَتْلُ ٱلْحَقِيقِيُّ ٱلَّذِي هُوَ مَعْرُوفٌ وَٱلْآخَرُ هُوَ ٱلْقَتْلُ ٱلْمَجَازِيُّ وَهُوَ ٱلإِكْبَابُ عَلَى ٱلْمَعَاصِي فَإِنَّ ٱلإِنْسَانَ إِذَا أَكَبَّ عَلَى ٱلْمَعَاصِي قَتَلَ نَفْسَهُ فِي ٱلآخِرَةِ . . . . وَمِمَّا يَجْرِي عَلَى هٰذَا ٱلنَّهْجِ مَا يُحْكَى عَنْ أَفلَاطُونَ أَنَّهُ قَالَ : تَرْكُ ٱلدَّوَاءِ دَوَاءٌ . فَذَهَبَ بَعْضُ ٱلْأَطِبَّاءِ إِلَى أَنَّهُ أَرَادَ : إِنْ لَطُفَ ٱلْمِزَاجُ وَٱنْتَهَى إِلَى غَايَةٍ لَا يَحْتَمِلُ ٱلدَّوَاءَ فَتَرْكُهُ حِينَئِذٍ وَٱلإِضْرَابُ عَنْهُ دَوَاءٌ . وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى أَنَّهُ أَرَادَ بِٱلتَّرْكِ ٱلْوَضْعَ أَيْ : وَضْعُ ٱلدَّوَاءِ عَلَى ٱلدَّاءِ دَوَاءٌ . يُشِيرُ بِذٰلِكَ

إلى حذقِ الطَّبيبِ في اوقاتِ عِلاجِهِ . ومِثلُهُ في الشِّعرِ قولُ الفرزدقِ :

إذا جعفرٌ مرَّتْ على هضبةِ الحمى فقد لَعَنَ الأحياءُ منها قبورَها

وهذا يدلُّ على معنيينِ : (احدُهما) ذمُّ الأحياءِ والآخرُ ذمُّ الأمواتِ. اما (ذمُّ الأحياءِ) فهو انهم خذلوا الأمواتَ يريدُ انهم تلاقوا قتالَهم وقومًا آخرينَ نفرَ الأحياءُ عنهم وأسلموهم او انهم استنجدوهم فلم ينجدوهم. واما (ذمُّ الأمواتِ) فهو ان لهم مخازيَ وفضائحَ توجبُ عارًا وشنارًا فهم يعدُّونَ بها الأحياءَ ويُلصقونها بهم . وعلى هذا وردَ قولُ ابي تمّامٍ :

بالشِّعرِ طولٌ إذا اصطكَّتْ قصائدُهُ

في معشرٍ وبهِ عن معشرٍ قِصَرُ

فهذا البيتُ يحتملُ تأويلَينِ . (احدُهما) انَّ الشِّعرَ يتسعُ مجالُهُ بمدحِكَ ويضيقُ بمدحِ غيرِكَ . يريدُ بذلكَ انَّ مآثرَهُ كثيرةٌ ومآثرَ غيرِهِ قليلةٌ . (والآخرُ) انَّ الشِّعرَ يكونُ ذا فخرٍ ونباهةٍ بمدحِكَ وذا خمولٍ بمدحِ غيرِكَ . فلفظةُ الطُّولِ : يُفهمُ منها ضدُّ القِصَرِ ويُفهمُ منها الفخرُ من قولنا : طالَ فلانٌ على فلانٍ اي فخرَ عليهِ . ومِمَّا ينتظمُ بهذا السِّلكِ قولُ ابي كبيرٍ الهذليِّ :

عَجِبْتُ لِسعيِ الدَّهرِ بيني وبينَهُ فلمَّا انقضى ما بيننا سكنَ الدَّهرُ

وهذا يحتملُ وجهَينِ من التأويلِ . (احدُهما) انَّهُ ارادَ بسعيِ الدَّهرِ سُرعةَ تقضِّي الأوقاتِ مدَّةَ الوِصالِ . فلمَّا انقضى الوصلُ عادَ الدَّهرُ الى حالتِهِ في السُّكونِ والبطءِ . (والآخرُ) انَّهُ ارادَ بسعيِ

ٱلدَّهرِ بِٱلنَّمَائِمِ وَٱلوِشَايَاتِ فَلَمَّا ٱنْقَضَى مَا كَانَ بَيْنَهُمَا مِنَ ٱلْوَصْلِ سَكَنُوا اَوْ تَرَكُوا ٱلسِّعَايَةَ . وَهٰذَا مِنْ بَابِ وَضْعِ ٱلْمُضَافِ إِلَيْهِ مَكَانَ ٱلْمُضَافِ كَقَوْلِهِ : وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ اَيْ اَهْلَ ٱلْقَرْيَةِ . وَمِنَ ٱلدَّقِيقِ ٱلْمَعْنَى فِي هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي فِي عَضُدِ ٱلدَّوْلَةِ مِنْ جُمْلَةِ قَصِيدَتِهِ ٱلَّتِي اَوَّلُهَا (اَوْهِ بَدِيلٌ مِنْ قَوْلَتِي وَاهَا) فَقَالَ :

لَوْ فَطِنَتْ خَيْلُهُ لِنَائِلِهِ   لَمْ يُرْضِهَا اَنْ تَرَاهُ يَرْضَاهَا

وَهٰذَا يُسْتَنْبَطُ مِنْهُ مَعْنَيَانِ . (اَحَدُهُمَا) اَنَّ خَيْلَهُ لَوْ عَلِمَتْ مِقْدَارَ عَطَايَاهُ ٱلنَّفِيسَةِ لَمَا رَضِيَتْ لَهُ بِاَنْ تَكُونَ مِنْ جُمْلَةِ عَطَايَاهُ لِاَنَّ عَطَايَاهُ اَنْفَسُ مِنْهَا . (ٱلْآخَرُ) اَنَّ خَيْلَهُ لَوْ عَلِمَتْ اَنَّهُ يَهَبُهَا مِنْ جُمْلَةِ عَطَايَاهُ لَمَا رَضِيَتْ ذٰلِكَ إِذْ تَكْرَهُ خُرُوجَهَا عَنْ مُلْكِهِ . وَهٰذَانِ ٱلْوَجْهَانِ اَنَا ذَكَرْتُهُمَا وَإِنَّمَا ٱلْمَذْكُورُ مِنْهُمَا اَحَدُهُمَا . وَهٰذَا ٱلَّذِي اَشَرْتُ إِلَيْهِ مِنَ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلْمَعَانِي وَتَأْوِيلَاتِهَا كَافٍ لِمَنْ عِنْدَهُ ذَوْقٌ وَلَهُ قُوَّةٌ عَلَى حَمْلِهَا عَلَى اَشْبَاهِهَا وَنَظَائِرِهَا

البحث الخامس

في التَّرجيح بين المعاني

(عن المثل السائر باختصار)

هٰذَا ٱلْفَصْلُ هُوَ مِيزَانُ ٱلْخَوَاطِرِ ٱلَّذِي يُوزَنُ بِهِ نَقْدُ دِرْهَمِهَا وَدِينَارِهَا بَلِ ٱلْمِحَكُّ ٱلَّذِي يُعْلَمُ مِنْهُ مِقْدَارُ عِيَارِهَا وَلَا يَزِنُ بِهِ إِلَّا ذُو فِكْرَةٍ مُنْتَقِدَةٍ وَٱلْمِحَكَّةُ مُنْتَقِدَةٍ . فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ حَمَلَ مِيزَانًا سُمِّيَ صَرَّافًا .

وَلَا كُلُّ مَنْ وَزَنَ بِهِ سُمِّيَ عَرَّافًا . وَالْفَرْقُ بَيْنَ هٰذَا التَّرْجِيحِ وَالتَّرْجِيحِ الْفِقْهِيِّ أَنَّ هُنَاكَ يُرَجَّحُ بَيْنَ دَلِيلَيِ الْخَصْمَيْنِ فِي حُكْمٍ شَرْعِيٍّ وَهٰهُنَا يُرَجَّحُ بَيْنَ جَانِبَيْ فَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ فِي أَلْفَاظٍ وَمَعَانٍ خِطَابِيَّةٍ . وَبَيَانُ ذٰلِكَ أَنَّ صَاحِبَ التَّرْجِيحِ الْفِقْهِيِّ يُرَجِّحُ بَيْنَ خَبَرِ التَّوَاتُرِ مَثَلًا وَبَيْنَ خَبَرِ الْآحَادِ أَوْ بَيْنَ الْمُسْنَدِ وَالْمُرْسَلِ أَوْ مَا جَرَى هٰذَا الْمَجْرَى . وَهٰذَا لَا يَعْرِضُ إِلَيْهِ صَاحِبُ عِلْمِ الْبَيَانِ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ وَلٰكِنِ الَّذِي هُوَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُرَجِّحَ بَيْنَ حَقِيقَةٍ وَمَجَازٍ أَوْ بَيْنَ حَقِيقَتَيْنِ أَوْ بَيْنَ مَجَازَيْنِ وَيَكُونَ نَاظِرًا فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ إِلَى الصِّنَاعَةِ الْخِطَابِيَّةِ . وَرُبَّمَا اتَّفَقَ هُوَ وَصَاحِبُ التَّرْجِيحِ الْفِقْهِيِّ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ كَالتَّرْجِيحِ بَيْنَ عَامٍّ وَخَاصٍّ أَوْ مَا شَابَهَ ذٰلِكَ . وَكُنَّا قَدْ قَدَّمْنَا الْقَوْلَ فِي الْحُكْمِ عَلَى الْمَعَانِي وَأَقْسَامِهَا . وَلْنُبَيِّنْ فِي هٰذَا الْفَصْلِ مَوَاضِعَ التَّرْجِيحِ بَيْنَ وُجُوهِ تَأْوِيلَاتِهَا فَنَقُولُ : (أَمَّا الْقِسْمُ الْأَوَّلُ) مِنَ الْمَعَانِي فَلَا تَعَلُّقَ لِلتَّرْجِيحِ بِهِ إِذْ مَا دَلَّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ لَفْظِهِ لَا يَحْتَمِلُ إِلَّا وجها واحدا فَلَيْسَ مِنْ هٰذَا الْبَابِ فِي شَيْءٍ . وَالتَّرْجِيحُ إِنَّمَا يَقَعُ بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ يَدُلُّ عَلَيْهِمَا لَفْظٌ وَاحِدٌ وَلَا يَخْلُو التَّرْجِيحُ بَيْنَهُمَا مِنْ ثَلَاثَةِ أقسام إما أَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ حَقِيقَةً فِي أَحَدِهِمَا مَجَازًا فِي الْآخَرِ . او حقيقة فيهما جميعا او مَجَازًا فِيهِمَا جَمِيعًا وَلَيْسَ لَنَا قِسْمٌ رَابِعٌ . وَالتَّرْجِيحُ بَيْنَ الحقيقتين أَوْ بَيْنَ الْمَجَازَيْنِ يَحْتَاجُ إِلَى نَظَرٍ . (وَأَمَّا التَّرْجِيحُ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ والمجاز) فَإِنَّهُ يُعْلَمُ بِبَدِيهَةِ النَّظَرِ لِمَكَانِ الْاِخْتِلَافِ بَيْنَهُمَا . والشيئان المختلفان يَظْهَرُ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا بِخِلَافِ مَا يَظْهَرُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ الْمُشْتَبِهَيْنِ . . . .

(وَامَّا مِثَالُ ٱلْمَعْنَيَيْنِ) إِذَا كَانَا حَقِيقَيَّيْنِ فَقَوْلُهُ : ٱلْتَمِسُوا ٱلرِّزْقَ فِي خَبَايَا ٱلْأَرْضِ وَٱلْخَبَايَا جَمْعُ خَبِيَّةٍ وَهُوَ كُلُّ مَا يُخْبَأُ كَائِنًا مَا كَانَ . وَهٰذَا يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ حَقِيقَيَّيْنِ : (أَحَدُهُمَا) ٱلْكُنُوزُ ٱلْمَخْبُوءَةُ فِي بُطُونِ ٱلْأَرْضِ . (وَٱلْآخَرُ) ٱلْحَرْثُ وَٱلْغِرَاسُ . وَجَانِبُ ٱلْحَرْثِ وَٱلْغِرَاسِ أَرْجَحُ لِأَنَّ مَوَاضِعَ ٱلْكُنُوزِ لَا نُعْلَمُ حَتَّى تُلْتَمَسَ وَهُوَ لَا يَأْمُرُ بِذٰلِكَ لِأَنَّهُ شَيْءٌ مَجْهُولٌ غَيْرُ مَعْلُومٍ فَبَقِيَ ٱلْمُرَادُ بِخَبَايَا ٱلْأَرْضِ مَا يُحْرَثُ وَيُغْرَسُ .

(وَامَّا مِثَالُ ٱلْمَجَازَيْنِ) فَقَوْلُ أَبِي تَمَّام :

قَدْ بَلَوْنَا أَبَا سَعِيدٍ حَدِيثًا وَبَلَوْنَا أَبَا سَعِيدٍ قَدِيمَا
وَوَرَدْنَاهُ سَاحِلًا وَقَلِيبًا وَرَعَيْنَاهُ بَارِضًا وَجَمِيمَا
فَعَلِمْنَا أَنْ لَيْسَ إِلَّا بِشِقِّ ٱلنَّـ ـفْسِ صَارَ ٱلْكَرِيمُ يُدْعَى كَرِيمَا

فَٱلسَّاحِلُ وَٱلْقَلِيبُ يُسْتَخْرَجُ مِنْهُمَا تَأْوِيلَانِ مَجَازِيَّانِ : (أَحَدُهُمَا) أَنَّهُ أَرَادَ بِهِمَا ٱلْكَثِيرَ وَٱلْقَلِيلَ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلسَّاحِلِ وَٱلْقَلِيبِ . (وَٱلْآخَرُ) أَنَّهُ أَرَادَ بِهِمَا ٱلسَّبَبَ وَغَيْرَ ٱلسَّبَبِ . فَإِنَّ ٱلسَّاحِلَ لَا يُحْتَاجُ فِي وِرْدِهِ إِلَى سَبَبٍ وَٱلْقَلِيبُ يُحْتَاجُ فِي وِرْدِهِ إِلَى سَبَبٍ . وَكِلَا هٰذَيْنِ ٱلْمَعْنَيَيْنِ مَجَازٌ . فَإِنَّ حَقِيقَةَ ٱلسَّاحِلِ وَٱلْقَلِيبِ غَيْرُهُمَا وَٱلْوَجْهُ هُوَ ٱلثَّانِي لِأَنَّهُ هُوَ أَدَلُّ عَلَى بَلَاغَةِ ٱلْقَائِلِ وَمَدْحِ ٱلْمَقُولِ فِيهِ . أَمَّا بَلَاغَةُ ٱلْقَائِلِ فَٱلسَّلَامَةُ مِنْ هُجْنَةِ ٱلتَّكْرِيرِ بِٱلْمُخَالَفَةِ بَيْنَ صَدْرِ ٱلْبَيْتِ وَعَجُزِهِ . فَإِنَّ عَجُزَهُ يَدُلُّ عَلَى ٱلْقَلِيلِ وَٱلْكَثِيرِ لِأَنَّ ٱلْبَارِضَ هُوَ أَوَّلُ ٱلنَّبْتِ حِينَ يَبْدُو فَإِذَا كَثُرَ وَتَكَاثَفَ سُمِّيَ جَمِيمًا . فَكَأَنَّهُ قَالَ : أَخَذْنَا مِنْهُ تَبَرُّعًا وَمَسْأَلَةً وَقَلِيلًا وَكَثِيرًا . وَأَمَّا مَدْحُ ٱلْمَقُولِ

فِيهِ فَلِتَعْدَادِ حَالَاتِهِ ٱلْأَرْبَعِ فِي تَبَرُّعِهِ وَسُؤَالِهِ وَإِكْثَارِهِ وَإِقْلَالِهِ وَمَا فِي مُعَانَاةِ هٰذِهِ ٱلْأَحْوَالِ مِنَ ٱلْمَشَاقِّ . فَهٰذَا إِمَّا يَتَعَلَّقُ بِٱلتَّرْجِيحِ ٱلْبَلَاغِيِّ بَيْنَ ٱلْحَقِيقَةِ وَٱلْحَقِيقَةِ وَبَيْنَ ٱلْمَجَازِ وَٱلْمَجَازِ وَبَيْنَ ٱلْحَقِيقَةِ وَٱلْمَجَازِ

البحث السادس

في الفصل والوصل

(عن صناعة الترسُّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ١٨ من علم الادب)

ٱلْفَصْلُ وَٱلْوَصْلُ هُوَ ٱلْعِلْمُ بِمَوَاضِعِ ٱلْعَطْفِ وَٱلِٱسْتِئْنَافِ وَٱلْهُدَى إِلَى كَيْفِيَّةِ إِيقَاعِ حُرُوفِ ٱلْعَطْفِ فِي مَوَاضِعِهَا. وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ أَرْكَانِ ٱلْبَلَاغَةِ حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ حَدَّ ٱلْبَلَاغَةَ بِأَنَّهَا مَعْرِفَةُ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ. وَقَالَ عَبْدُ ٱلْقَاهِرِ: إِنَّهُ لَا يَكْمُلُ لِإِحْرَازِ ٱلْفَضِيلَةِ فِيهِ أَحَدٌ إِلَّا كَمَلَ لِسَائِرِ مَعَانِي ٱلْبَلَاغَةِ . إِعْلَمْ أَنَّ فَائِدَةَ ٱلْعَطْفِ ٱلتَّشْرِيكُ بَيْنَ ٱلْمَعْطُوفِ وَٱلْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ . ثُمَّ مِنَ ٱلْحُرُوفِ ٱلْعَاطِفَةِ مَا لَا يُفِيدُ إِلَّا هٰذَا ٱلْقَدْرَ وَهُوَ ٱلْوَاوُ. وَمِنْهَا مَا يُفِيدُ فَائِدَةً زَائِدَةً كَٱلْفَاءِ وَثُمَّ وَأَوْ. وَغَرَضُنَا هَا هُنَا مُتَعَلِّقٌ بِمَا لَا يُفِيدُ إِلَّا ٱلِٱشْتِرَاكَ فَنَقُولُ : ٱلْعَطْفُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي ٱلْمُفْرَدَاتِ كَقَوْلِكَ : مَرَرْتُ بِرَجُلٍ خَلْقُهُ حَسَنٌ وَخُلُقُهُ قَبِيحٌ . فَقَدْ أَشْرَكْتَ بَيْنَهُمَا فِي ٱلْإِعْرَابِ وَٱلْمَعْنَى لِٱشْتِرَاكِهِمَا فِي كَوْنِ كُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُقَيِّدًا لِلْمَوْصُوفِ . وَلَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ مَعْنًى يَقَعُ ذٰلِكَ ٱلِٱشْتِرَاكُ فِيهِ وَحَتَّى يَكُونَا كَٱلنَّظِيرَيْنِ وَٱلشَّرِيكَيْنِ بِحَيْثُ إِذَا عَرَفَ

ٱلسَّامِعُ حَالَةَ ٱلْاَوَّلِ عَسَاهُ يَعْرِفُ حَالَةَ ٱلثَّانِي . يَدُلُّكَ عَلَى ذٰلِكَ اَنَّكَ اِذَا عَطَفْتَ عَلَى ٱلْاَوَّلِ شَيْئًا لَيْسَ مِنْهُ سَبَبٌ وَلَا هُوَ مِمَّا يُذْكَرُ بِذِكْرِهِ لَمْ يَسْتَقِمْ . فَلَوْ قُلْتَ : (خَرَجْتُ ٱلْيَوْمَ مِنْ دَارِي وَاَحْسَنَ ٱلَّذِي يَقُولُ بَيْتَ كَذَا) قُلْتَ مَا يُضْحِكُ مِنْهُ . وَاِنْ لَمْ يَكُنْ فِي قُوَّةِ ٱلْمُفْرَدِ فَهُوَ عَلَى قِسْمَيْنِ : (ٱلْاَوَّلُ) اَنْ يَكُونَ مَعْنَى اِحْدَى ٱلْجُمْلَتَيْنِ لِذَاتِهِ مُتَعَلِّقًا بِمَعْنَى ٱلْاُخْرَى كَمَا اِذَا كَانَتْ كَالتَّوْكِيدِ لَهَا اَوْ كَالصِّفَةِ فَلَا يَجُوزُ اِدْخَالُ ٱلْعَاطِفِ عَلَيْهِ لِاَنَّ ٱلتَّوْكِيدَ وَٱلصِّفَةَ مُتَعَلِّقَانِ بِٱلْمُؤَكَّدِ وَٱلْمَوْصُوفِ لِذَاتَيْهِمَا . وَٱلتَّعَلُّقُ ٱلذَّاتِيُّ يُغْنِي عَنْ لَفْظٍ يَدُلُّ عَلَى ٱلتَّعَلُّقِ . فَمِثَالُ ٱلتَّوْكِيدِ قَوْلُهُ : وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِٱللّٰهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ ٱللّٰهَ . وَلَمْ يَقُلْ : (وَيُخَادِعُونَ) لِاَنَّ ٱلْمُخَادَعَةَ لَيْسَتْ شَيْئًا غَيْرَ قَوْلِهِمْ : آمَنَّا مَعَ اَنَّهُمْ غَيْرُ مُؤْمِنِينَ . وَمِمَّا جَاءَ فِيهِ ٱلْاِثْبَاتُ (بِاِنْ وَاِلَّا) عَلَى هٰذَا ٱلْحَدِّ قَوْلُهُ : اِنْ هُوَ اِلَّا وَحْيٌ يُوحَى . فَٱلْاِثْبَاتُ فِي قَوْلِهِ تَأْكِيدٌ لِنَفْيِ مَا يُنْفَى . (اَلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) اَنْ يَكُونَ بَيْنَ ٱلْجُمْلَتَيْنِ تَعَلُّقٌ ذَاتِيٌّ فَاِنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا مُنَاسَبَةٌ فَيَجِبُ تَرْكُ ٱلْعَاطِفِ اَيْضًا لِاَنَّ ٱلْعَطْفَ لِلتَّشْرِيكِ وَلَا تَشْرِيكَ . وَمِنْ هَاهُنَا عَابُوا عَلَى اَبِي تَمَّام قَوْلَهُ :

لَا وَٱلَّذِي عَالِمٌ اَنَّ ٱلنَّوَى   مُرٌّ وَاَنَّ اَبَا ٱلْحُسَيْنِ كَرِيمُ

اِذْ لَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ مَرَارَةِ ٱلنَّوَى وَبَيْنَ كَرَمِ اَبِي ٱلْحُسَيْنِ . وَلِذٰلِكَ لَمْ يُحْسِنْ جَوَازَ ٱلْعَاطِفِ . وَاِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا مُنَاسَبَةٌ فَاِمَّا اَنْ يَكُونَ بِٱلَّذِي اُخْبِرَ بِهِمَا اَوْ بِٱلَّذِي اُخْبِرَ عَنْهُمَا اَوْ بِهِمَا كِلَيْهِمَا . وَهٰذَا ٱلْاَخِيرُ

هوَ ٱلْمُعْتَبَرُ فِي ٱلعطْفِ. ومَعْنَى ٱلْمُنَاسَبَةِ اَنْ يَكُونَا مُتَشَابِهَيْنِ كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ كَاتِبٌ وعَمْرٌو. اَوْ مُتَضَادَّيْنِ تَضَادًا عَلَى ٱلْخُصُوصِ كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ طَوِيلٌ وَعَمْرٌو قَصِيرٌ . وَكَقَوْلِكَ : ٱلعِلْمُ حَسَنٌ وَٱلْجَهْلُ قَبِيحٌ . فَلَوْ قُلْتَ : زَيْدٌ طَوِيلٌ وعَمْرٌو شَاعِرٌ ٱخْتَلَّ اِذْ لَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ طُولِ ٱلقَامَةِ وَٱلشِّعْرِ . وَاِنْ كَانَ ٱلْمُحَدَّثُ عَنْهُ فِي ٱلْجُمْلَتَيْنِ شَيْئًا وَاحِدًا كَقَوْلِكَ : فُلَانٌ يَقُولُ وَيَفْعَلُ وَيَضُرُّ وَيَنْفَعُ وَيَأْمُرُ وَيَنْهَى وَيُسِيءُ وَيُحْسِنُ . يَجِبُ اِدْخَالُ ٱلعَاطِفِ فَاِنَّ ٱلغَرَضَ جعلَهُ فَاعِلًا لِلْاَمْرَيْنِ. فَلَوْ قُلْتَ : يَقُولُ يَفْعَلُ بِلَا عَاطِفٍ لَتُوُهِّمَ اَنَّ ٱلثَّانِيَ رُجُوعٌ عَنِ ٱلْاَوَّلِ . وَاِذَا اَفَادَ ٱلعَاطِفُ ٱلِاجْتِمَاعَ ٱزْدَادَ ٱلِاشْتِرَاكُ كَقَوْلِكَ : ٱلْعَجَبُ مِنْ اَنَّكَ اَحْسَنْتَ وَاَسَأْتَ . وَٱلْعَجَبُ مِنْ اَنَّكَ تَنْهَى عَنْ شَيْءٍ تَأْتِي مِثْلَهُ . وكَقَوْلِهِ :

لَا تَطْمَعُوا اَنْ تُهِينُونَا وَنُكْرِمَكُمْ وَاَنْ نَكُفَّ ٱلْاَذَى عَنْكُمْ وَتُؤْذُونَا

فَاِنَّ ٱلْمَعْنَى جَعلَ ٱلفِعْلَيْنِ فِي حُكْمٍ وَاحِدٍ اَيْ لَا تَطْمَعُوا اَنْ تَرَوْا اِكْرَامَنَا اِيَّاكُمْ يُوجَدُ مَعَ اِهَانَتِكُمْ اِيَّانَا . وَٱعْلَمْ اَنَّهُ قَدْ يَجِبُ اِسْقَاطُ ٱلعَاطِفِ فِي بَعْضِ ٱلْمَوَاضِعِ لِاخْتِلَالِ ٱلْمَعْنَى عِنْدَ اِثْبَاتِهِ كَقَوْلِهِ : وَاِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْاَرْضِ قَالُوا : اِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ اَلَا اِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ. فَقَوْلُهُ : (اَلَا اِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ) كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ وَهُوَ اِخْبَارٌ مِنْهُ . فَلَوْ اَتَى بِٱلْوَاوِ لَكَانَ اِخْبَارًا عَنِ ٱلْيَهُودِ بِاَنَّهُمْ وَصَفُوا اَنْفُسَهُمْ بِاَنَّهُمْ مُفْسِدُونَ فَيَخْتَلُّ ٱلْمَعْنَى. قَالَ عَبدُ ٱلقَاهِرِ : وَاِذَا ٱسْتَقْرَيْتَ وَجَدْتَ هٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرْتُ لَكَ مِنْ تَنْزِيلِهِمِ ٱلْكَلَامَ اِذَا جَاءَ بِعَقِبِ مَا يَقْتَضِي سُؤَالًا تَنْزِلَتَهُ اِذَا صُرِّحَ بِذٰلِكَ ٱلسُّؤَالِ

كَثِيرًا. فَمِنْ لَطِيفِ ذٰلِكَ قَوْلُهُ :

زَعَمَ ٱلْعَوَاذِلُ أَنَّنِي فِي غَمْرَةٍ صَدَقُوا وَلٰكِنْ غَمْرَتِي لَا تَنْجَلِي

لَمَّا حَكَى عَنِ ٱلْعَوَاذِلِ قَوْلَهُمْ إِنَّهُ فِي غَمْرَةٍ وَكَانَ ذٰلِكَ مِمَّا يُحَرِّكُ ٱلسَّامِعَ عَلَى أَنْ يَسْأَلَهُ: فَمَا جَوَابُكَ عَنْ ذٰلِكَ. أَخْرَجَ ٱلْكَلَامَ مُخْرَجَهُ إِذَا كَانَ قَدْ قِيلَ فَقَالَ: أَقُولُ صَدَقُوا. أَنَا كَمَا قَالُوا وَلٰكِنْ لَا مَطْمَعَ لَهُمْ فِي فَلَاحِي. وَلَوْ قَالَ: وَصَدَقُوا لٰكِنْ لَمْ يَضَعْ نَفْسَهُ فِي أَنَّهُ مَسْئُولٌ. وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ كَثِيرَةٌ. وَإِذَا كَانَ كَذٰلِكَ فَلَا حَاجَةَ إِلَى ٱلْعَاطِفِ بِخِلَافِ قَوْلِهِ: يُخَادِعُونَ ٱللّٰهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ. وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللّٰهُ: فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْجُمْلَتَيْنِ خَبَرٌ

(وَمِمَّا يَجِبُ) ذِكْرُهُ هَا هُنَا ٱلْجُمْلَةُ إِذَا وَقَعَتْ حَالًا فَإِنَّهَا تَجِيءُ مَعَ ٱلْوَاوِ تَارَةً وَبِدُونِهَا أُخْرَى. فَنَقُولُ ٱلْجُمْلَةُ إِذَا وَقَعَتْ حَالًا فَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ خَبَرِيَّةً تَحْتَمِلُ ٱلصِّدْقَ وَٱلْكَذِبَ وَهُوَ عَلَى قِسْمَيْنِ: (ٱلْأَوَّلُ) وَلَهُ أَحْوَالٌ: (ٱلْأُولَى) أَنْ يُجْمَعَ لَهَا بَيْنَ ٱلْوَاوِ وَضَمِيرِ صَاحِبِ ٱلْحَالِ كَقَوْلِكَ: جَاءَ زَيْدٌ وَمَعَهُ غُلَامُهُ وَلَقِيتُ زَيْدًا وَفَرَسُهُ سَابِقُهُ. وَهٰذِهِ ٱلْوَاوُ تُسَمَّى وَاوَ ٱلْحَالِ. (ٱلثَّانِيَةُ) أَنْ تَجِيءَ بِٱلضَّمِيرِ مِنْ غَيْرِ وَاوٍ كَقَوْلِكَ: كَلَّمْتُهُ فُوهُ إِلَى فِيَّ. وَهُوَ فِي مَعْنَى مُشَافِهًا وَٱلرَّابِطُ ٱلضَّمِيرُ. (ٱلثَّالِثَةُ) أَنْ تَجِيءَ بِٱلْوَاوِ مِنْ غَيْرِ ضَمِيرٍ وَهُوَ كَثِيرٌ كَقَوْلِكَ: لَقِيتُكَ وَٱلْجَيْشُ قَادِمٌ. وَزُرْتَنَا وَٱلشِّتَاءُ خَارِجٌ. قَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ:

وَقَدْ أَغْتَدِي وَٱلطَّيْرُ فِي وُكُنَاتِهَا بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ ٱلْأَوَابِدِ هَيْكَلِ

وَيَجُوزُ أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَ حَالَيْنِ: مُفْرَدٍ وَجُمْلَةٍ. إِذَا أَجَزْنَا وُقُوعَ حَالَيْنِ

كَقَوْلِكَ : لَقِيتُكَ رَاكِبًا وَالْحَسَنُ قَادِمٌ . فَالْجُمْلَةُ حَالٌ من التاء أو مِنَ الْكَافِ وَالْعَامِلُ فِيهَا (لَقِيتُ) أَوْ مِنْ ضَمِيرِ (رَاكِبٍ) وَرَاكِبٌ هُوَ الْعَامِلُ فِيهَا . (الْقِسْمُ الثَّانِي) الْجُمْلَةُ الْفِعْلِيَّةُ . وَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مَاضِيًا أَوْ مُضَارِعًا . أَمَّا الْمَاضِي فَلَا بُدَّ مَعَهُ مِنَ الْإِتْيَانِ بِالْوَاوِ وَقَدْ أَوْ بِأَحَدِهِمَا كَقَوْلِكَ : تَكَلَّمْتُ وَقَدْ عَجِلْتْ . وَجَاءَ زَيْدٌ قَدْ ضَرَبَ عَمْرًا . وَجِئْتُ وَأَسْرَعْتُ فِي الْمَجِيءِ . وَلَمْ يُجِزِ الْبَصْرِيُّونَ خُلُوَّهُ عَنْهُمَا وَقَالُوا فِي قَوْلِ أَبِي صَخْرٍ الْهُذَلِيِّ :

وَإِنِّي لَتَعْرُونِي لِذِكْرَاكِ هِزَّةٌ كَمَا انْتَفَضَ الْعُصْفُورُ بَلَّلَهُ الْقَطْرُ

إِنَّ (قَدْ) مُقَدَّرَةٌ فِيهَا فَإِنَّ الشَّيْءَ إِذَا عُرِفَ مَوْضِعُهُ جَازَ حَذْفُهُ .

وَأَمَّا الْمُضَارِعُ فَإِنْ كَانَ مُوجَبًا فَلَا يُؤْتَى مَعَهُ بِالْوَاوِ تَقُولُ : جَاءَنِي زَيْدٌ يَضْحَكُ وَجَاءَ عَمْرٌو يُسْرِعُ وَجَلَسَ يُحَدِّثُنَا (بِالرَّفْعِ) أَيْ مُحَدِّثًا لَنَا بِتَجَرُّدِهِ عَمَّا يُغَيِّرُ مَعْنَاهُ أَشْبَهَ اسْمَ الْفَاعِلِ إِذَا وَقَعَ حَالًا . وَإِنْ كَانَ مَنْفِيًّا جَازَ حَذْفُ الْوَاوِ مُرَاعَاةً لِأَصْلِ الْفِعْلِ الَّذِي هُوَ الْإِيجَابُ وَجَازَ إِثْبَاتُهَا لِأَنَّ الْفِعْلَ لَيْسَ هُوَ الْحَالَ . فَإِنَّ مَعْنَى قَوْلِكَ : (جَلَسَ زَيْدٌ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ) جَلَسَ زَيْدٌ غَيْرَ مُتَكَلِّمٍ . فَجَرَى مَجْرَى الْجُمْلَةِ الْاسْمِيَّةِ . فَالْحَذْفُ كَقَوْلِكَ : جَاءَ زَيْدٌ مَا يَفُوهُ بِبِنْتِ شَفَةٍ . وَكَقَوْلِهِ : أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ . فَقَوْلُهُ : (لَا يَمَسُّنَا) فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ مِنْ ضَمِيرِ الْمَرْفُوعِ فِي أَحَلَّنَا . وَالْإِثْبَاتُ كَقَوْلِكَ : جَلَسَ زَيْدٌ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ . وَقَالَ . أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا . وَنَحْوِ ... مَعَا

ٱلْمَاضِي فَقَالُوا : جَاءَ زَيْدٌ مَا ضَرَبَ عَمْرًا . وَجَاءَ زَيْدٌ وَمَا ضَرَبَ عَمْرًا

البحث السابع

في تأكيد الكلام وقصره وتعزيزه بانَّ وانَّما

(عن صناعة الترسل ايضاً)

(راجع صفحة ١٩ من علم الادب)

امَّا (اِنَّ) فَلَهَا فَوَائِدُ : (ٱلْأُولَى) أَنَّهَا تَرْبِطُ ٱلْجُمْلَةَ ٱلثَّانِيَةَ بِٱلْأُولَى وَبِسَبَبِهَا يَحْصُلُ ٱلتَّأْلِيفُ بَيْنَهُمَا حَتَّى كَأَنَّ ٱلْكَلَامَيْنِ أُفْرِغَا إِفْرَاغًا وَاحِدًا وَلَوْ أَسْقَطْتَهَا كَانَ ٱلثَّانِي نَابِيًا عَنِ ٱلْأَوَّلِ كَقَوْلِهِ : يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . (ٱلثَّانِيَةُ) أَنَّكَ تَرَى لِضَمِيرِ ٱلشَّأْنِ وَٱلْقِصَّةِ فِي ٱلْجُمْلَةِ ٱلشَّرْطِيَّةِ مَعَ (إِنَّ) مِنَ ٱلْحُسْنِ وَٱللُّطْفِ مَا لَا تَرَاهُ إِذَا هِيَ لَمْ تَدْخُلْ عَلَيْهَا كَقَوْلِهِ : إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِي وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللّٰهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ . (ٱلثَّالِثَةُ) أَنَّهَا تُهَيِّئُ ٱلنَّكِرَةَ وَتُصْلِحُهَا لِأَنْ يُحَدَّثَ عَنْهَا وَإِنْ كَانَتِ ٱلنَّكِرَةُ مَوْصُوفَةً جَازَ حَذْفُهَا وَلٰكِنَّ دُخُولَهَا أَصْلَحُ كَقَوْلِ حَسَّانٍ :

إِنَّ دَهْرًا يَلُفُّ شَمْلِي بِجُمْلٍ　　لَزَمَانٌ يَهُمُّ بِٱلْإِحْسَانِ

(ٱلرَّابِعَةُ) أَنَّهَا تُغْنِي عَنِ ٱلْخَبَرِ كَمَا إِذَا قِيلَ لَكَ : ٱلنَّاسُ أَلْبُوا عَلَيْكُمْ فَهَلْ لَكُمْ أَحَدٌ . فَقُلْتَ : إِنَّ زَيْدًا أَوْ إِنَّ عَمْرًا . أَيْ لَنَا . قَالَ ٱلْأَعْشَى :

إِنَّ مَحَلًّا وَإِنَّ مُرْتَحَلًا　　وَإِنَّ فِي ٱلسَّفْرِ إِذْ مَضَوْا مَهَلَا

(اَلْخَامِسَةُ) قَالَ اَلْمُبَرِّدُ إِذَا قُلْتَ : إِنَّ عَبْدَ ٱللهِ قَائِمٌ . فَهُوَ جَوَابٌ عَنْ سُؤَالِ سَائِلٍ . فَإِذَا قُلْتَ : إِنَّ عَبْدَ ٱللهِ لَقَائِمٌ . فَهُوَ جَوَابٌ عَنْ إِنْكَارِ مُنْكِرٍ لِقِيَامِهِ سَوَاءٌ كَانَ ٱلْمُنْكِرُ هُوَ ٱلسَّائِلَ أَوِ ٱلْحَاضِرِينَ

(وَأَمَّا إِنَّمَا) فَتَارَةً تَجِيءُ لِلْحَصْرِ بِمَعْنَى أَنَّ هٰذَا ٱلْحُكْمَ لَا يُوجَدُ فِي غَيْرِ ٱلْمَذْكُورِ وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ (لَيْسَ إِلَّا) كَقَوْلِهِ : إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ . وَقَوْلِهِ : إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ . وَقَوْلِهِ : إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا . وَتَارَةً تَجِيءُ لِبَيَانِ أَنَّ هٰذَا ٱلْأَمْرَ ظَاهِرٌ عِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ سَوَاءٌ كَانَ كَذٰلِكَ أَوْ فِي زَعْمِ ٱلْمُتَكَلِّمِ . وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ ٱللهِ م تَجَلَّتْ مِنْ وَجْهِهِ ٱلظَّلْمَاءُ

مُدَّعِيًا أَنَّ ذٰلِكَ مِمَّا لَا يُنْكِرُهُ أَحَدٌ مِنَ ٱلنَّاسِ . (فَائِدَةٌ) إِذَا دَخَلَ (مَا وَإِلَّا) عَلَى ٱلْجُمْلَةِ ٱلْمُشْتَمِلَةِ عَلَى ٱلْمَنْصُوبِ كَانَ ٱلْمَقْصُودُ بِٱلذِّكْرِ مَا ٱتَّصَلَ (بِإِلَّا) مُتَأَخِّرًا عَنْهُ . فَإِذَا قُلْتَ : مَا ضَرَبَ عَمْرًا إِلَّا زَيْدٌ . فَٱلْمَقْصُودُ ٱلْمَرْفُوعُ . وَإِذَا قُلْتَ : مَا ضَرَبَ زَيْدٌ إِلَّا عَمْرًا . فَٱلْمَقْصُودُ ٱلْمَنْصُوبُ . وَإِذَا قُلْتَ : مَا ضَرَبَ زَيْدٌ إِلَّا عَمْرًا . فَٱلِاخْتِصَاصُ بِٱلضَّارِبِ . وَإِذَا قُلْتَ : مَا ضَرَبَ إِلَّا زَيْدًا عَمْرٌو . فَٱلِاخْتِصَاصُ بِٱلْمَضْرُوبِ . وَإِذَا قُلْتَ : لَمْ أَكْسُ إِلَّا زَيْدًا جُبَّةً . فَٱلْمَعْنَى تَخْصِيصُ كُسْوَةِ ٱلْجُبَّةِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِزَيْدٍ . وَكَذٰلِكَ ٱلْحُكْمُ حَيْثُ يَكُونُ يَدُلُّ أَحَدُ ٱلْمَفْعُولَيْنِ جَارًّا وَمَجْرُورًا كَقَوْلِ ٱلسَّيِّدِ ٱلْحِمْيَرِيِّ :

لَوْ خُيِّرَ ٱلْمِنْبَرُ فُرْسَانَهُ مَا ٱخْتَارَ إِلَّا مِنْكُمْ فَارِسًا

وَكَذٰلِكَ حُكْمُ ٱلْمُبْتَدَإِ وَٱلْخَبَرِ وَٱلْفِعْلِ وَٱلْفَاعِلِ كَقَوْلِكَ : مَا

زَيْدٌ إِلَّا قَائِمٌ وَمَا قَائِمٌ إِلَّا زَيْدٌ. وَأَمَّا (إِنَّمَا) فَٱلِٱخْتِصَاصُ فِيهَا يَقَعُ مَعَ ٱلْمُتَأَخِّرِ. فَإِذَا قُلْتَ: إِنَّمَا ضَرَبَ زَيْدًا عَمْرٌو. فَٱلِٱخْتِصَاصُ فِي ٱلضَّارِبِ. وَقَوْلُهُ: (إِنَّمَا يَخْشَى ٱللهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ) فَٱلْغَرَضُ بَيَانُ ٱلْمَرْفُوعِ وَهُوَ أَنَّ ٱلْخَاشِينَ هُمُ ٱلْعُلَمَاءُ. وَلَوْ قُدِّمَ ٱلْمَرْفُوعُ لَصَارَ ٱلْمَقْصُودُ بَيَانَ ٱلْمَخْشِيِّ مِنْهُ فَٱلْأَوَّلُ أَتَمُّ. وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ:

أَنَا ٱلذَّائِدُ ٱلْحَامِي ٱلذِّمَارَ وَإِنَّمَا ... يُدَافِعُ عَنْ أَحْسَابِكُمْ أَنَا أَوْ مِثْلِي

فَإِنَّ غَرَضَهُ أَنْ يَخُصَّ ٱلْمُدَافِعَ بِأَنَّهُ هُوَ لَا ٱلْمُدَافَعَ عَنْهُ. وَلَوْ قَالَ: إِنَّمَا أَنَا أُدَافِعُ عَنْ أَحْسَابِكُمْ. تَوَجَّهَ ٱلتَّخْصِيصُ إِلَى ٱلْمُدَافَعِ عَنْهُ. إِذَا أَدْخَلْتَ عَلَيْهِمَا (إِنَّمَا) فَإِنْ قَدَّمْتَ ٱلْخَبَرَ فَٱلِٱخْتِصَاصُ لِلْمُبْتَدَإِ. وَإِنْ لَمْ تُقَدِّمْهُ فَلِلْخَبَرِ. فَإِذَا قُلْتَ: إِنَّمَا هٰذَا لَكَ فَٱلِٱخْتِصَاصُ فِي (لَكَ) بِدَلِيلِ أَنَّكَ تَقُولُ بَعْدَهُ: لَا لِغَيْرِكَ. وَإِنْ قُلْتَ: إِنَّمَا لَكَ هٰذَا. فَٱلِٱخْتِصَاصُ فِي هٰذَا بِدَلِيلِ أَنَّكَ تَقُولُ بَعْدَهُ لَا ذَاكَ. ثُمَّ قَدْ يَجْتَمِعُ مَعَهُ حَرْفُ ٱلنَّفْيِ إِمَّا مُتَأَخِّرًا كَقَوْلِكَ: إِنَّمَا يَجِيءُ زَيْدٌ لَا عَمْرٌو. وَقَالَ لَبِيدٌ:

وَإِذَا جُوزِيتَ قَرْضًا فَٱجْزِهِ ... إِنَّمَا يَجْزِي ٱلْفَتَى لَيْسَ ٱلْجَمَلْ

وَإِمَّا مُقَدَّمًا عَلَيْهِ كَقَوْلِكَ: مَا جَاءَنِي زَيْدٌ وَإِنَّمَا جَاءَنِي عَمْرٌو. فَهٰهُنَا لَوْ لَمْ تَقُلْ: (إِنَّمَا). وَقُلْتَ: مَا جَاءَنِي زَيْدٌ وَجَاءَنِي عَمْرٌو. لَكَانَ ٱلْكَلَامُ مَعَ مَنْ ظَنَّ أَنَّهُمَا جَاءَا جَمِيعًا. وَإِذَا أَدْخَلْتَهَا كَانَ ٱلْكَلَامُ مَعَ مَنْ غَلِطَ فِي ٱلْجَائِي أَنَّهُ زَيْدٌ لَا عَمْرٌو. وَٱعْلَمْ أَنَّ أَقْوَى مَا يَكُونُ إِنَّمَا إِذَا كَانَ لَا يُرَادُ بِٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي بَعْدَهَا نَفْسُ مَعْنَاهَا

وَلٰـكِنَّ ٱلتَّعرِيضَ بِأَمْرٍ هُوَ مُقْتَضَاهُ . وَهٰذَا ٱلْغَرَضُ لَا يَحْصُلُ بِدُونِ (إِنَّمَا) لِأَنَّ مِنْ إِثْبَاتِهَا تَضْمِينَ ٱلْكَلَامِ مَعْنَى ٱلنَّفْيِ بَعْدَ ٱلْإِثْبَاتِ . فَإِذَا اسْقَطْتَ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا إِثْبَاتُ ٱلْحُكْمِ لِلْمَذْكُورِينَ فَلَا يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ غَيْرِهِمْ إِلَّا انْ يُذْكَرَ فِي مَعْرِضِ مَدْحِ ٱلْإِنْسَانِ بِٱلتَّيَقُّظِ وَٱلْكَرَمِ وَامْثَالِهِمَا كَمَا يُقَالُ : كَذٰلِكَ يَفْعَلُ ٱلْعَاقِلُ وَهٰكَذَا يَفْعَلُ ٱلْكَرِيمُ

البحث الثامن

في التقديم والتأخير

(عن صناعة الترسل ايضاً)

(راجع علم الادب صفحة ١٩)

إِذَا قُدِّمَ ٱلشَّيْءُ عَلَى غَيْرِهِ فَإِمَّا انْ يَكُونَ فِي نِيَّةِ ٱلتَّأْخِيرِ كَمَا إِذَا قُدِّمَ ٱلْخَبَرُ عَلَى ٱلْمُبْتَدَإِ . وَإِمَّا انْ يَكُونَ فِي نِيَّةِ ٱلتَّأْخِيرِ وَلٰـكِنْ انْ تَنْقُلَ ٱلشَّيْءَ مِنْ حُكْمٍ إِلَى آخَرَ . كَمَا إِذَا جِئْتَ إِلَى ٱسْمَيْنِ جَازَ انْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُبْتَدَأً فَجَعَلْتَ احَدَهُمَا مُبْتَدَأً كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ ٱلْمُنْطَلِقُ وَٱلْمُنْطَلِقُ زَيْدٌ . قَالَ ٱلْجُرْجَانِيُّ : كَأَنَّهُمْ يُقَدِّمُونَ ٱلَّذِي بَيَانُهُ اهَمُّ لَهُمْ وَهُمْ بِبَيَانِهِ اعْنَى وَإِنْ كَانَا جَمِيعًا يُهِمَّانِهِمْ وَيَعْنِيَانِهِمْ . وَمِثَالُهُ إِنَّ ٱلنَّاسَ إِذَا تَعَلَّقَ غَرَضُهُمْ بِقَتْلِ خَارِجِيٍّ مُفْسِدٍ وَلَا يَعْلَمُونَ مَنْ صَدَرَ ٱلْقَتْلُ مِنْهُ وَارَادَ مُرِيدٌ ٱلْإِخْبَارَ بِذٰلِكَ فَإِنَّهُ يُقَدِّمُ ذِكْرَ ٱلْخَارِجِيِّ فَيَقُولُ : قَتَلَ ٱلْخَارِجِيَّ زَيْدٌ . وَلَا يَقُولُ : قَتَلَ زَيْدٌ ٱلْخَارِجِيَّ . لِأَنَّهُ يَعْلَمُ

أنَّ قتلَ الخارجيّ هوَ الذي يعنيهِمْ. وإنْ كانَ قدْ وقعَ قتلٌ مِنْ رجلٍ يبعُدُ في اعتقادِ النَّاسِ وقوعُ القتلِ مِنْ مثلِهِ قدَّمَ المخبِرُ ذكرَ الفاعِلِ فيقولُ: قتلَ زيدٌ رجلًا. لاعتقادِ النَّاسِ في المذكورِ خلافَ ذلكَ (اه). ولنذكُرْ مِنهُ ثلاثةَ مواضِعَ يُعرفُ بها ما لمْ يُذكَرْ:

(الأوّلُ الاستفهامُ) فإذا أدخلتَهُ على الفعلِ وقلتَ: أضربتَ زيدًا. كانَ الشَّكُّ في وجودِ الفعلِ محقَّقًا والشَّكُّ في تعيينِ الفاعِلِ وهكذا حكمُ النَّكِرَةِ. فإذا قلتَ: أجاءكَ رجلٌ فإنَّ المقصودَ هلْ وُجِدَ المجيءُ مِنْ رجلٍ. فإذا قلتَ: أرجلٌ جاءكَ كانَ ذلكَ سؤالًا عنْ جنسِ مَنْ جاءَ بعدَ الحكمِ بوجودِ المجيءِ مِنْ إنسانٍ. وقِسْ عليهِ الخبرَ في قولِكَ: ضربتُ زيدًا وزيدًا ضربتُ. وجاءني رجلٌ تميميٌّ. ورجلٌ تميميٌّ جاءني. ثمَّ الاستفهامُ قدْ يجيءُ للإنكارِ: وهوَ إمّا للتقريرِ والتوبيخِ وعليهِ قولُهُ: أأنتَ فعلتَ هذا بآلهتِنا. وإمّا لإنكارِ أنّهُ الفاعِلُ معَ تحقيقِ الفعلِ كقولِكَ لِمَنِ انتحلَ شعرًا: أأنتَ قلتَ هذا. وإنْ كانَ الفعلُ مضارِعًا فإنْ أدخلتَ حرفَ الاستفهامِ عليهِ كانَ إمّا لإنكارِ وجودِهِ كقولِهِ: أنلزِمُكُموها وأنتمْ لها كارهونَ. أوْ لإنكارِ أنَّهُ يقدِرُ على الفعلِ كقولِ امرئِ القيسِ:

أيقتُلُني والمشرفيُّ مضاجِعي ومسنونةٌ زُرقٌ كأنيابِ أغوالِ

أوْ لإزالةِ طمعِ مَنْ طمِعَ في أمرٍ لا يكونُ فيجهِّلُهُ في طمعِهِ كقولِكَ: أيرضى عنكَ فلانٌ وأنتَ على ما يكرَهُ. أوْ لتعنيفِ مَنْ يضيعُ الحقَّ كقولِ الشّاعِرِ:

أَ أَتْرُكُ إِنْ قَلَّتْ دَرَاهِمُ خَالِدٍ زِيَارَتَــهُ إِنِّي إِذًا لَلَئِيمُ

أَوْ لِتَقْدِيمِ ٱلْفِعْلِ كَمَا تَقُولُ لِمَنْ يَرْكَبُ ٱلْخَطَرَ : أَتَرْكَبُ فِي هٰذَا ٱلْوَقْتِ . وَإِنْ أَدْخَلْتَهُ عَلَى ٱلِٱسْمِ فَهُوَ لِإِنْكَارِ صُدُورِ ٱلْفِعْـلِ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْفَاعِلِ إِمَّا لِلِٱسْتِحْقَارِ كَقَوْلِكَ : أَأَنْتَ تَمْنَعُنِي . أَوْ لِلتَّعْظِيمِ كَقَوْلِكَ : أَهُوَ يَسْأَلُ ٱلنَّاسَ . أَوْ لِلْمُبَالَغَةِ إِمَّا فِي كَرَمِهِ كَقَوْلِكَ : أَهُوَ يَمْنَعُ سَائِلَهُ . وَإِمَّا فِي خَسَاسَتِهِ كَقَوْلِكَ : أَهُوَ يَسْمَحُ بِمِثْلِ هٰذَا . وَقَدْ يَكُونُ لِبَيَانِ ٱسْتِحَالَةِ فِعْلٍ ظُنَّ مُمْكِنًا كَقَوْلِهِ : أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِي ٱلْعُمْيَ . وَكَذٰلِكَ إِذَا أَدْخَلْتَهُ عَلَى ٱلْمَفْعُولِ كَقَوْلِهِ : أَغَيْرَ ٱللّٰهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا وَ أَغَيْرَ ٱللّٰهِ تَدْعُونَ . وَأَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ . بَنَوْا كُفْرَهُمْ عَلَى أَنَّ ٱلْبَشَرَ لَيْسَ بِمَثَابَةٍ أَنْ يُتَّبَعَ وَيُطَاعَ

(فِي ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ فِي ٱلنَّفْيِ) إِذَا أَدْخَلْتَ ٱلنَّفْيَ عَلَى ٱلْفِعْلِ فَقُلْتَ : مَا ضَرَبْتُ زَيْدًا . فَقَدْ نَفَيْتَ عَنْ زَيْدٍ ضَرْبًا وَاقِعًا بِزَيْدٍ وَهٰذَا لَا يَقْتَضِي كَوْنَ زَيْدٍ مَضْرُوبًا . وَإِذَا أَدْخَلْتَهُ عَلَى ٱلِٱسْمِ فَقُلْتَ : مَا أَنَا ضَرَبْتُ زَيْدًا . ٱقْتَضَى مِنْ بَابِ دَلِيلِ ٱلْخِطَابِ كَوْنُ زَيْدٍ مَضْرُوبًا وَعَلَيْهِ قَوْلُ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَمَا أَنَا وَحْدِي قُلْتُ ذَا ٱلشِّعْرَ كُلَّهُ وَلٰـكِنْ لِشِعْرِي فِيكَ مِنْ نَفْسِهِ شِعْرُ

وَكَذٰلِكَ (حُكْمُ ٱلْجَارِّ وَٱلْمَجْرُورِ وَحُكْمُ ٱلْمَفْعُولِ) . فَإِذَا قُلْتَ : مَا أَمَرْتُكَ بِهٰذَا . لَمْ يَقْتَضِ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَمَرْتَهُ بِشَيْءٍ غَيْرِ هٰذَا . وَإِذَا قُلْتَ : مَا بِهٰذَا أَمَرْتُكَ . ٱقْتَضَاهُ . وَإِذَا قَدَّمْتَ صِفَـةَ ٱلْعُمُومِ عَلَى ٱلسَّلْبِ وَقُلْتَ : كُلُّ ذٰلِكَ لَمْ أَفْعَلْهُ بِرَفْعِ (كُلّ) كَانَ نَفْيًا عَامًّا

وَيُنَاقِضُهُ ٱلإِثْبَاتُ ٱلْخَاصُّ . فَلَوْ فَعَلْتَ بَعْضَهُ كُنْتَ كَاذِبًا . وَإِنْ قَدَّمْتَ ٱلسَّلْبَ وَقُلْتَ : لَمْ أَفْعَلْ كُلَّ ذٰلِكَ . كَانَ نَفْيًا لِلْعُمُومِ وَلَا يُنَافِي ٱلإِثْبَاتَ ٱلْخَاصَّ فَلَوْ فَعَلْتَ بَعْضَهُ لَمْ تَكُنْ كَاذِبًا . (ٱلثَّالِثُ فِي ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ فِي ٱلْخَبَرِ ٱلْمُثْبَتِ) مَا تَقَدَّمَ فِي ٱلِٱسْتِفْهَامِ وَٱلنَّفْيِ قَائِمٌ هَاهُنَا فَإِذَا قَدَّمْتَ ٱلِٱسْمَ وَقُلْتَ : زَيْدٌ فَعَلَ وَأَنَا فَعَلْتُ . فَٱلْقَصْدُ أَنَّ ٱلْفَاعِلَ إِمَّا لِتَخْصِيصِ ذٰلِكَ ٱلْفِعْلِ بِهِ كَقَوْلِكَ : أَنَا شَفَعْتُ فِي شَأْنِهِ مُدَّعِيًا ٱلِٱنْفِرَادَ بِذٰلِكَ . أَوْ لِتَأْكِيدِ إِثْبَاتِ ٱلْفِعْلِ لَهُ لَا لِلْحَصْرِ كَقَوْلِكَ : هُوَ يُعْطِي ٱلْجَزِيلَ . لِيَتَمَكَّنَ فِي نَفْسِ ٱلسَّامِعِ أَنَّ ذٰلِكَ دَأْبُهُ دُونَ نَفْيِهِ عَنْ غَيْرِهِ كَقَوْلِ دُرْنَا بِنْتِ عَشْعَشَةَ :

هُمَا يَلْبَسَانِ ٱلْمَجْدَ أَحْسَنَ لِبْسَةٍ شَحِيحَانِ مَا ٱسْطَاعَا عَلَيْهِ كِلَاهُمَا

وَٱلسَّبَبُ فِي هٰذَا ٱلتَّأْكِيدِ إِذَا قُلْتَ مَثَلًا : (زَيْدٌ) . فَقَدْ أَشْعَرْتَ بِأَنَّكَ تُرِيدُ ٱلْحَدِيثَ عَنْهُ فَيَحْصُلُ لِلسَّامِعِ تَشَوُّقٌ إِلَى مَعْرِفَتِهِ . فَإِذَا ذَكَرْتَهُ قَبِلَتْهُ ٱلنَّفْسُ قَبُولَ ٱلصَّدِيقِ صَدِيقَهُ فَيَكُونُ ذٰلِكَ أَبْلَغَ فِي ٱلتَّحْقِيقِ وَنَفْيِ ٱلشَّكِّ وَٱلشُّبْهَةِ . وَلِهٰذَا تَقُولُ لِمَنْ تَعِدُهُ : أَنَا أُعْطِيكَ . أَنَا أَكْفِيكَ . أَنَا أَقُومُ بِهٰذَا ٱلأَمْرِ . وَذٰلِكَ إِذَا كَانَ مِنْ شَأْنِ مَنْ سَبَقَ لَهُ وَعْدٌ أَنْ يَعْتَرِضَهُ ٱلشَّكُّ فِي وَفَائِهِ . وَلِذٰلِكَ يُقَالُ فِي ٱلْمَدْحِ : أَنْتَ تُعْطِي ٱلْجَزِيلَ . أَنْتَ تَجُودُ حِينَ لَا يَجُودُ أَحَدٌ . وَمِنْ هَاهُنَا تُعْرَفُ ٱلْفَخَامَةُ فِي ٱلْجُمَلِ ٱلَّتِي فِيهَا ضَمِيرُ ٱلشَّأْنِ وَٱلْقِصَّةِ كَقَوْلِهِ : فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلأَبْصَارُ وَلٰكِنْ تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ . وَكَقَوْلِهِ : إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَافِرُونَ . (وَإِنَّهَا) فِيهَا مَا لَيْسَ فِي قَوْلِكَ : فَإِنَّ

ٱلْأَبْصَارُ لَا تَعْمَى وَإِنَّ ٱلْكَافِرِينَ لَا يُفْلِحُونَ . وَهٰذَا ٱلْكَلَامُ فِي ٱلْخَبَرِ ٱلْمَنْفِيِّ . فَإِذَا قُلْتَ . أَنْتَ لَا تُحْسِنُ هٰذَا . كَانَ أَبْلَغَ مِنْ أَنْ تَقُولَ : لَا تُحْسِنُ هٰذَا . فَٱلْأَوَّلُ لِمَنْ هُوَ أَشَدُّ إِعْجَابًا بِنَفْسِهِ وَأَكْثَرُ دَعْوَى بِأَنَّهُ يُحْسِنُ . وَٱعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ تَقْدِيمُ ٱلْإِسْمِ كَٱللَّازِمِ وَهُوَ : (كَمِثْلِ) فِي نَحْوِ قَوْلِهِ :

يَا عَاذِلِي دَعْنِي مِنْ عَذْلِكَ مِثْلِي لَا يَقْبَلُ مِنْ مِثْلِكَ

وَقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

مِثْلُكَ يَثْنِي ٱلْحُزْنَ عَنْ صَوْبِهِ وَيَسْتَرِدُّ ٱلدَّمْعَ عَنْ غَرْبِهِ

وَكَقَوْلِ ٱلنَّاسِ : مِثْلُكَ يَرْعَى ٱلْحَقَّ وَٱلْحُرْمَةَ . وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ مِمَّا لَا يَقْصِدُ فِيهِ ٱلْإِنْسَانُ سِوَى ٱلَّذِي أُضِيفَ إِلَيْهِ وَجِيءَ بِهِ لِلْمُبَالَغَةِ . وَٱلْمَعْنَى إِنَّ مَنْ كَانَ مِثْلَهُ فِي ٱلْحَالِ وَٱلصِّفَةِ كَانَ مِنْ مُقْتَضَى ٱلْقِيَاسِ أَنْ يَفْعَلَ مَا ذُكِرَ فَكَيْفَ بِهِ . وَقَدْ عَبَّرَ ٱلْمُتَنَبِّي عَنْ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فَقَالَ :

وَلَمْ أَقُلْ مِثْلُكَ أَعْنِي بِهِ سِوَاكَ يَا فَرْدًا بِلَا مُشْبِهِ

وَكَذٰلِكَ حُكْمُ (غَيْرِ) إِذَا سَلَكَ فِيهِ هٰذَا ٱلْمَسْلَكَ كَقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

غَيْرِي بِأَكْثَرِ هٰذَا ٱلنَّاسِ يَنْخَدِعُ إِنْ قَاتَلُوا جَبُنُوا أَوْ حَدَّثُوا شَجُعُوا

أَيْ لَسْتُ مِمَّنْ يَنْخَدِعُ وَيَغْتَرُّ . وَلَوْ لَمْ يُقَدِّمْ (مِثْلًا وَغَيْرًا) فِي هٰذِهِ ٱلصُّوَرِ لَمْ يُرِدْ هٰذَا ٱلْمَعْنَى

(أَمَّا مَوَاضِعُ ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ) فَقَدْ يَحْسُنُ ٱلتَّقْدِيمُ فِي مَوَاضِعَ :

(ٱلْأَوَّلُ) أَنْ تَكُونَ ٱلْحَاجَةُ إِلَى ذِكْرِهِ أَشَدَّ كَقَوْلِكَ : قَطَعَ ٱللِّصَّ ٱلْأَمِيرُ . (ٱلثَّانِي) أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ أَلْيَقَ بِمَا قَبْلَهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ أَوْ

بِمَا بَعْدَهُ كَقَوْلِهِ : وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ . فَإِنَّهُ أَشْكَلَ بِمَا بَعْدَهُ .
وَهُوَ قَوْلُهُ : إِنَّ ٱللهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ . وَبِمَا قَبْلَهُ وَهُوَ : مُقَرَّنِينَ فِي
ٱلْأَصْفَادِ . (ٱلثَّالِثُ) أَنْ يَكُونَ أَعْرَفَ أَوْ أَشَدَّ تَعَلُّقًا بِمَا بَعْدَهُ
كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ قَامَ . وَقَامَ زَيْدٌ . وَزَيْدٌ ٱلطَّوِيلُ . (ٱلرَّابِعُ) أَنْ
يَكُونَ مِنَ ٱلْحُرُوفِ ٱلَّتِي لَهَا صَدْرُ ٱلْكَلَامِ كَحُرُوفِ ٱلِاسْتِفْهَامِ وَٱلنَّفْيِ
فَإِنَّ ٱلِاسْتِفْهَامَ طَلَبُ فَهْمِ ٱلشَّيْءِ وَهُوَ حَالَةٌ إِضَافِيَّةٌ فَلَا تَسْتَقِلُّ
بِٱلْمَفْهُومِيَّةِ فَيَشْتَدُّ ٱتِّصَالُهُ بِمَا بَعْدَهُ . (ٱلْخَامِسُ) تَقْدِيمُ ٱلْكُلِّيِّ
عَلَى جُزْئِيَّاتِهِ . فَإِنَّ ٱلشَّيْءَ كُلَّمَا كَانَ أَكْثَرَ عُمُومًا كَانَ أَعْرَفَ فَإِنَّ
ٱلْوُجُودَ لَمَّا كَانَ أَعَمَّ ٱلْأُمُورِ كَانَ أَعْرَفَهَا عِنْدَ ٱلْعَقْلِ . (ٱلسَّادِسُ)
تَقْدِيمُ ٱلدَّلِيلِ عَلَى ٱلْمَدْلُولِ

وَأَمَّا ٱلتَّأْخِيرُ فَيَحْسُنُ فِي مَوَاضِعَ : (ٱلْأَوَّلُ) تَمَامُ ٱلِاسْمِ كَٱلصِّلَةِ
وَٱلْمُضَافِ إِلَيْهِ . (ٱلثَّانِي) تَوَابِعُ ٱلْأَسْمَاءِ . (ٱلثَّالِثُ) ٱلْفَاعِلُ .
(ٱلرَّابِعُ) ٱلْمُضْمَرُ وَهُوَ إِنْ كَانَ مُتَأَخِّرًا لَفْظًا وَتَقْدِيرًا كَقَوْلِكَ :
ضَرَبَ زَيْدٌ غُلَامَهُ . أَوْ مُؤَخَّرًا فِي ٱللَّفْظِ مُقَدَّمًا فِي ٱلْمَعْنَى كَقَوْلِهِ : وَإِذَا
ٱبْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ . أَوْ بِٱلْعَكْسِ كَقَوْلِكَ : ضَرَبَ غُلَامَهُ زَيْدٌ . جَازَ .
وَإِنْ تَقَدَّمَ لَفْظًا وَمَعْنًى لَمْ يَجُزْ كَقَوْلِكَ : ضَرَبَ غُلَامُهُ زَيْدًا .
(ٱلْخَامِسُ) مَا يُفْضِي إِلَى ٱللَّبْسِ كَقَوْلِكَ : ضَرَبَ مُوسَى عِيسَى . وَأَكْرَمَ
هٰذَا هٰذَا . فَيَجِبُ فِيهِ تَقْدِيمُ ٱلْفَاعِلِ . (ٱلسَّادِسُ) ٱلْعَامِلُ ٱلَّذِي يَضْعُفُ
عَمَلُهُ كَٱلصِّفَةِ ٱلْمُشَبَّهَةِ وَٱلتَّمْيِيزِ وَمَا عَمِلَ فِيهِ حَرْفٌ أَوْ مَعْنًى كَقَوْلِكَ : هُوَ
حَسَنٌ وَجْهًا . وَكَرِيمٌ أَبًا . وَتَصَبَّبَ عَرَقًا . وَخَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ دِرْهَمًا وَإِنَّ

زَيدًا قَائِمٌ . وَفِي ٱلدَّارِ سَعْدٌ جَالِسٌ . وَلَا يَجُوزُ ٱلفَصْلُ بَيْنَ ٱلعَامِلِ وَٱلْمَعْمُولِ بِمَا لَيسَ مِنْهُ فَلَا تَقُولُ : كَانَتْ زَيدا ٱلْحُمَّى تَأْخُذُ . اِذا رَفَعتَ ٱلْحُمَّى بِكَانَتْ لِلفَصلِ بَينَ ٱلعَامِلِ وَمَا عَمِلَ فِيهِ . فَإِنْ اَضمَرْتَ ٱلْحُمَّى فِي كَانَتْ صَحَّتِ ٱلْمَسْئَلَةُ

البحث التاسع

في الحذف والاضمار

(عن صناعة الترسل ايضاً)

(راجع صفحة ٢٠ من علم الادب)

اِعلَمْ اَنَّ ٱلْأَفعَالَ ٱلْمُتَعَدِّيَةَ ٱلَّتِي يُترَكُ ذِكْرُ مَفعُولَاتِهَا عَلَى قِسمَينِ : (ٱلْأَوَّلُ) اَنْ لَا يَكُونَ لَهُ مَفعُولٌ مُعَيَّنٌ فَقَدْ يُترَكُ مَفعُولُهُ لَفظًا وَتَقدِيرًا وَيُجعَلُ حَالُهُ كَحَالِ غَيرِ ٱلْمُتَعَدِّي كَقَولِهِمْ : فُلَانٌ يَحُلُّ وَيَعقِدُ وَيَأْمُرُ وَيَنهَى وَيَضِرُّ وَيَنفَعُ . وَٱلْمَقصُودُ اِثبَاتُ ٱلْمَعنَى فِي نَفسِهِ الشَّيْءِ مِنْ غَيرِ تَعَرُّضٍ لِحَدِيثِ ٱلْمَفعُولِ فَكَأَنَّكَ قُلتَ : بِحَيثُ يَكُونُ مِنْهُ حَلٌّ وَعَقدٌ وَاَمرٌ وَنَهيٌ وَضَرٌّ وَنَفعٌ . وَبِٱلْجُملَةِ مَتَى كَانَ ٱلْغَرَضُ بَيَانَ حَالِ ٱلْفَاعِلِ فَقَطْ فَلَا تُعَدِّ ٱلْفِعلَ فَإِنْ تَعدِيَتَهُ تَنقُصُ ٱلغَرَضَ . اَلَا تَرَى اَنَّكَ اِذا قُلتَ : فُلَانٌ يُعطِي ٱلدَّنَانِيرَ كَانَ ٱلْمَقصُودُ بَيَانَ جِنسِ مَا تَنَاوَلَهُ ٱلْإِعطَا: لَا بَيَانُ حَالِ كَونِهِ مُعطِيًا . (ٱلثَّانِي) اَنْ يَكُونَ لَهُ مَفعُولٌ مَعلُومٌ اِلَّا اَنَّهُ يُحذَفُ مِنَ ٱللَّفظِ لِأَغرَاضٍ : (الاوَّلُ) اَنْ يَكُونَ ٱلْمُرَادُ بَيَانَ حَالِ ٱلْفَاعِلِ وَاَنَّ ذٰلِكَ ٱلْفِعلَ دَأْبُهُ لَا بَيَانُ

ٱلْمَفْعُولِ كَقَوْلِ طُفَيْلٍ :

جَزَى ٱللّٰهُ عَنَّا جَعْفَرًا حِينَ أَزْلَقَتْ ... بِنَا نَعْلُنَا فِي ٱلْوَاطِئِينَ فَزَلَّتِ

أَبَوْا أَنْ يَمَلُّونَا وَلَوْ أَنَّ أُمَّنَا ... تُلَاقِي ٱلَّذِي لَاقَوْهُ مِنَّا لَمَلَّتِ

هُمُ خَلَطُونَا بِٱلنُّفُوسِ وَأَلْجَأُوا ... إِلَى حُجُرَاتٍ أَدْفَأَتْ وَأَظَلَّتِ

وَٱلْأَصْلُ أَنْ يَقُولَ : لَمَلَّتْنَا وَأَلْجَأُونَا وَأَدْفَأَتْنَا وَأَظَلَّتْنَا فَحَذَفَ ٱلْمَفْعُولَ ٱلْمُعَيَّنَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعِ ٱلْأَرْبَعَةِ وَكَأَنَّهُ قَدْ أُبْهِمَ وَلَمْ يُقْصَدْ قَصْدَ شَيْءٍ يَقَعُ عَلَيْهِ كَمَا تَقُولُ : قَدْ مَلَّ فُلَانٌ . تُرِيدُ قَدْ دَخَلَ عَلَيْهِ ٱلْمَلَالُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَخُصَّ شَيْئًا بَلْ لَا تُرِيدُ عَلَى أَنْ تَجْعَلَ ٱلْمَلَالَ مِنْ صِفَتِهِ . فَكَذٰلِكَ ٱلشَّاعِرُ جَعَلَ هٰذِهِ ٱلْأَوْصَافَ مِنْ ذَاتِهِمْ وَلَوْ أَضَافَ إِلَى مَفْعُولٍ مُعَيَّنٍ لَبَطَلَ هٰذَا ٱلْغَرَضُ . (ٱلثَّانِي) أَنْ يَكُونَ ٱلْمَقْصُودُ ذِكْرَهُ إِلَّا أَنَّكَ لَا تَذْكُرُهُ إِيهَامًا لِأَنَّكَ لَا تَقْصِدُ ذِكْرَهُ كَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

شَجْوُ حُسَّادِهِ وَغَيْظُ عِدَاهُ ... أَنْ يَرَى مُبْصِرٌ وَيَسْمَعَ وَاعِ

ٱلْمَعْنَى أَنْ يَرَى مُبْصِرٌ مَحَاسِنَهُ وَأَنْ يَسْمَعَ وَاعٍ أَخْبَارَهُ . وَلٰكِنَّهُ تَغَافَلَ عَنْ ذٰلِكَ إِيذَانًا بِأَنَّ فَضَائِلَهُ يَكْفِي فِيهَا أَنْ يَقَعَ عَلَيْهَا بَصَرٌ وَيَعِيَهَا سَمْعٌ حَتَّى يُعْلَمَ أَنَّهُ ٱلْمُنْفَرِدُ بِٱلْفَضَائِلِ فَلَيْسَ لِحُسَّادِهِ وَعِدَاهُ أَشْجَى مِنْ عِلْمِهِمْ بِأَنَّ هَا هُنَا مُبْصِرًا وَسَامِعًا . (ٱلثَّالِثُ) أَنْ يُحْذَفَ لِكَوْنِهِ بَيِّنًا كَقَوْلِهِمْ : أَصْغَيْتُ إِلَيْكَ . أَيْ أُذُنِي . وَأَغْضَيْتُ عَلَيْكَ . أَيْ جَفْنِي

(فَصْلٌ فِي حَذْفِ ٱلْمُبْتَدَإِ وَٱلْخَبَرِ) قَدْ يَحْسُنُ حَذْفُ ٱلْمُبْتَدَإِ حَيْثُ يَكُونُ ٱلْغَرَضُ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ فِي ٱسْتِحْقَاقِ ٱلْوَصْفِ بِمَا جُعِلَ وَصْفًا لَهُ

إِلَى حَيْثُ يُعْلَمُ بِٱلضَّرُورَةِ أَنَّ ذٰلِكَ لَيْسَ إِلَّا لَهُ سَوَاءٌ كَانَ فِي نَفْسِهِ كَذٰلِكَ أَوْ بِحَسَبِ دَعْوَى ٱلشَّاعِرِ عَلَى طَرِيقِ ٱلْمُبَالَغَةِ فَذِكْرُهُ يُبْطِلُ هٰذَا ٱلْغَرَضَ. وَلِهٰذَا قَالَ عَبْدُ ٱلْقَاهِرِ : مَا مِنِ ٱسْمٍ يُحْذَفُ فِي ٱلْحَالَةِ يَنْبَغِي أَنْ يُحْذَفَ فِيهَا إِلَّا وَحَذْفُهُ أَحْسَنُ مِنْ ذِكْرِهِ فَمِنْ حَذْفِ ٱلْمُبْتَدَإِ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ :

لَا يُبْعِدِ ٱللهُ ٱلتَّلَبُّبَ م وَٱلْغَارَاتِ إِذْ قَالَ ٱلْخَمِيسُ نَعَمْ

أَيْ هٰذِهِ نَعَمْ . قَالَ عَبْدُ ٱلْقَاهِرِ : وَمِنَ ٱلْمَوَاضِعِ ٱلَّتِي يَطَّرِدُ فِيهَا حَذْفُ ٱلْمُبْتَدَإِ بِٱلْقَطْعِ وَٱلِٱسْتِئْنَافِ أَنَّهُمْ يَبْدَأُونَ بِذِكْرِ ٱلرَّجُلِ وَيُقَدِّمُونَ بَعْضَ أَمْرِهِ ثُمَّ يَدَعُونَ ٱلْكَلَامَ ٱلْأَوَّلَ فَيَسْتَأْنِفُونَ كَلَامًا آخَرَ إِذَا فَعَلُوا ذٰلِكَ أَتَوْا فِي أَكْثَرِ ٱلْأَمْرِ بِخَبَرٍ مِنْ غَيْرِ مُبْتَدَإٍ مِثَالُ ذٰلِكَ :

وَعَلِمْتُ أَنِّي يَوْمَ ذَا كَ مُنَازِلٌ كَعْبًا وَنَهْدَا

قَوْمٌ إِذَا لَبِسُوا ٱلْحَدِيدَ م تَنَمَّرُوا حَلَقًا وَقِدَّا

وَقَوْلُ ٱلْحُطَيْئَةِ :

هُمُ حَلُّوا مِنَ ٱلشَّرَفِ ٱلْمُعَلَّى وَمِنْ حَسَبِ ٱلْعَشِيرَةِ حَيْثُ شَاءُوا

أُسَاةُ مَكَارِمٍ وَأُسَاةُ كَلْمٍ دِمَاؤُهُمْ مِنَ ٱلْكَلَبِ ٱلشِّفَاءُ

وَأَمْثِلَتُهُ كَثِيرَةٌ . وَمِنْ حَذْفِ ٱلْخَبَرِ قَوْلُهُ : لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ أَيْ لَوْلَا أَنْتُمْ مُضِلُّونَا . وَقَوْلُ عُمَرَ : لَوْلَا عَلِيٌّ لَهَلَكَ عُمَرُ . أَيْ لَوْلَا عَلِيٌّ حَاضِرٌ أَوْ مُفْتٍ . وَمِمَّا يَحْتَمِلُ ٱلْأَمْرَيْنِ قَوْلُهُ : طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ . وَقَوْلُهُ : فَصَبْرٌ جَمِيلٌ

ٱلْإِضْمَارُ عَلَى شَرِيطَةِ ٱلتَّفْسِيرِ كَقَوْلِكَ : أَكْرَمَنِي وَأَكْرَمْتُ عَبْدَ ٱللهِ أَيْ

أَكْرَمَنِي عَبْدُ ٱللهِ وَأَكْرَمْتُ عَبْدَ ٱللهِ. وَمِمَّا يُشْبِهُ ذٰلِكَ مَفْعُولُ ٱلْمَشِيئَةِ إِذَا جَاءَتْ بَعْدَ (لَوْ). فَإِنْ كَانَ مَفْعُولُهَا عَظِيماً أَوْ غَرِيباً فَالْأَوْلَى ذِكْرُهُ كَقَوْلِهِ:

وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دَماً لَبَكَيْتُهُ عَلَيْهِ وَلٰكِنْ سَاحَةُ ٱلصَّبْرِ أَوْسَعُ

فَإِنَّ بُكَاءَ ٱلْإِنْسَانِ دَماً عَجِيبٌ. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ فَالْأَوْلَى حَذْفُهُ كَقَوْلِهِ: وَلَوْ شَاءَ ٱللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَى. وَٱلتَّقْدِيرُ: وَلَوْ شَاءَ ٱللهُ أَنْ يَجْمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَى لَجَمَعَهُمْ. وَٱعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ تُتْرَكُ ٱلْكِنَايَةُ إِلَى ٱلتَّصْرِيحِ لِمَا فِيهِ مِنْ زِيَادَةِ ٱلْفَخَامَةِ كَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ:

قَدْ طَلَبْنَا فَلَمْ نَجِدْ لَكَ فِي ٱلسُّؤْ دُدِ وَٱلْمَجْدِ وَٱلْمَكَارِمِ مِثْلَا

ٱلْمَعْنَى قَدْ طَلَبْنَا لَكَ مِثْلاً. ثُمَّ حُذِفَ لِأَنَّ هٰذَا ٱلْمَدْحَ إِنَّمَا يَتِمُّ بِنَفْيِ ٱلْمِثْلِ فَلَوْ قَالَ: قَدْ طَلَبْنَا لَكَ مِثْلاً فِي ٱلسُّؤْدُدِ وَٱلْمَجْدِ فَلَمْ نَجِدْ لَكَانَ قَدْ أَوْقَعَ نَفْيَ ٱلْوُجُودِ عَلَى ضَمِيرِ (ٱلْمِثْلِ) فَلَمْ يَكُنْ فِيهِ مِنَ ٱلْمُبَالَغَةِ مَا إِذَا أَوْقَعَهُ عَلَى صَرِيحِ ٱلْمِثْلِ. فَإِنَّ ٱلْكِنَايَةَ لَا تَبْلُغُ مَبْلَغَ ٱلصَّرِيحِ. وَعَلَى ذٰلِكَ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ:

لَا أَرَى ٱلْمَوْتَ يَسْبِقُ ٱلْمَوْتَ شَيْءٌ نَغَّصَ ٱلْمَوْتُ ذَا ٱلْغِنَى وَٱلْفَقِيرَا

البحث العاشر

في جوامع الكلم

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

إِنَّ ٱلْكَلِمَ جَمْعُ كَلِمَةٍ. وَٱلْجَوَامِعَ جَمْعُ جَامِعَةٍ. وَٱلْجَامِعَةُ ٱسْمُ فَاعِلَةٍ مِنْ جَمَعَتْ فَهِيَ جَامِعَةٌ. كَمَا يُقَالُ فِي ٱلْمُذَكَّرِ جَمَعَ فَهُوَ جَامِعٌ

وَٱلْمُرَادُ بِجَوَامِعِ ٱلْكَلِمِ ٱلْكَلِمُ ٱلْجَوَامِعُ لِلْمَعَانِي. وَهُوَ عِنْدِي يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : (اَلْقِسْمُ ٱلْأَوَّلُ) مِنْهُمَا هُوَ مَا ٱسْتَخْرَجْتُهُ وَنَبَّهْتُ عَلَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ فِيهِ قَوْلٌ سَابِقٌ وَهُوَ أَنَّ لَنَا أَلْفَاظًا تَتَضَمَّنُ مِنَ ٱلْمَعْنَى مَا لَا تَتَضَمَّنُهُ أَخَوَاتُهَا مِمَّا يَجُوزُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي مَكَانِهَا . فَمِنْ ذٰلِكَ مَا يَأْتِي عَلَى حُكْمِ ٱلْمَجَازِ . وَمِنْهُ مَا يَأْتِي عَلَى حُكْمِ ٱلْحَقِيقَةِ . وَقَدْ وَرَدَ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ فِي أَقْوَالِ ٱلشُّعَرَاءِ ٱلْمُفْلِقِينَ . وَلَقَدْ تَصَفَّحْتُ ٱلْأَشْعَارَ قَدِيمَهَا وَحَدِيثَهَا وَحَفِظْتُ مَا حَفِظْتُ مِنْهَا وَكُنْتُ إِذَا مَرَّتْ بِنَظَرِي فِي دِيوَانٍ مِنَ ٱلدَّوَاوِينِ وَيَلُوحُ لِي فِيهِ مِثْلُ هٰذِهِ ٱلْأَلْفَاظِ أَجِدُ لَهَا نَشْوَةً كَنَشْوَةِ ٱلْخَمْرِ وَطَرَبًا كَطَرَبِ ٱلْأَلْحَانِ . وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاظِمِينَ وَٱلنَّاثِرِينَ يَمُرُّ عَلَى ذٰلِكَ وَلَا يَتَفَطَّنُ لَهُ سِوَى أَنَّهُ يَسْتَحْسِنُهُ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ فِيمَا نَظَرْتُ أَنَا فِيهِ وَيَظُنُّهُ كَغَيْرِهِ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ . فَمِمَّا جَاءَ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

كَمْ صَارِمٍ عَضْبٍ أَنَافَ عَلَى قَفًا ... مِنْهُمْ لِأَعْبَاءِ ٱلْوَغَى حَمَّالِ

سَبَقَ ٱلْمَشِيبَ إِلَيْهِ حَتَّى ٱبْتَزَّهُ ... وَطَنَ ٱلنُّهَى مِنْ مَفْرِقٍ وَقَذَالِ

فَقَوْلُهُ : (وَطَنُ ٱلنُّهَى) مِنَ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلْجَامِعَةِ وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلرَّأْسِ وَلَا يُجَاءُ بِمِثْلِهَا فِي مَعْنَاهَا مِمَّا يَسُدُّ مَسَدَّهَا . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

قَلْبٌ يُطِلُّ عَلَى أَفْكَارِهِ وَيَدٌ ... تُمْضِي ٱلْأُمُورَ وَنَفْسٌ لَهْوُهَا ٱلتَّعَبُ

فَقَوْلُهُ : (قَلْبٌ يُطِلُّ عَلَى أَفْكَارِهِ) مِنَ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلْجَوَامِعِ . وَمُرَادُهُ بِذٰلِكَ أَنَّ قَلْبَهُ لَا تَمْلَأُهُ ٱلْأَفْكَارُ وَلَا تُحِيطُ بِهِ وَإِنَّمَا هُوَ عَالٍ

عليها يصف بذلك عدم احتفاله بالفوادح وقلة مبالاته بالخطوب التي تحدث افكارا تستغرق القلوب وهذه عبارة عجيبة لا يؤتى بمثلها مما يسد مسدها . (واما) ما يأتي على حكم الحقيقة فكقول ابن الرومي :

سقى الله اوطارا لنا ومآربا ... تقطع من اقرانها ما تقطعا

ليال تنسيني الليالي حسابها ... بلهنية اقضي بها الحول اجمعا

سوى عزة لا اعرف اليوم باسمه ... واعمل فيه اللهو مرأى ومسمعا

فقوله : (لا اعرف اليوم باسمه) من الكلمات الجامعة اي اني قد شغلت باللذات عن معرفة الليالي والايام ولو وصف اشتغاله باللذات مهما وصف لم يأت بمثل قوله : (لا اعرف اليوم باسمه) . (واما القسم الثاني) من جوامع الكلم فالمراد به الايجاز الذي يدل به بالالفاظ القليلة على المعاني الكثيرة اي تكون الالفاظ جامعة المعاني المقصودة على ايجازها واختصارها . وسيأتي في باب الايجاز منه ما فيه كفاية ومقنع . (فان قيل) : فما الفرق بين هذين القسمين اللذين ذكرتهما فانهما بالنظر سواء . (قلت في الجواب) : ان الايجاز هو ان يؤتى بالفاظ دالة على معنى من غير ان تزيد على ذلك المعنى ولا يشترط في تلك الالفاظ انها لا نظير لها فانها تكون قد اتصفت بوصف آخر خارج عن وصف الايجاز . وحينئذ يكون ايجازا او زيادة . واما هذا القسم الآخر فانه الفاظ افراد في حسنها لا نظير لها . فتارة تكون موجزة وتارة لا تكون

مُوجَزَةً . وَلَيسَ ٱلغَرَضُ مِنهَا ٱلإِيجَازَ وَإِنَّمَا ٱلغَرَضُ مَكَانُهَا مِنَ ٱلحُسْنِ ٱلَّذِي لَا نَظِيرَ لَهَا فِيهِ . أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ أَبِي تَمَّام : (وَطَنَ ٱلنُّهَى) فَإِنَّ ذٰلِكَ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلرَّأْسِ وَلَاشَكَّ أَنَّ ٱلرَّأْسَ أَوجَزُ لِأَنَّ ٱلرَّأْسَ لَفظَةٌ وَاحِدَةٌ . وَوَطَنَ ٱلنُّهَى لَفظَتَانِ . إِلَّا إِنَّ (وَطَنَ ٱلنُّهَى) أَحسَنُ فِي ٱلتَّعبِيرِ عَنِ ٱلرَّأْسِ . فَبَانَ بِهٰذَا أَنَّ أَحَدَ هٰذَينِ ٱلقِسمَينِ غَيرُ ٱلآخَرِ

البحث الحادي عشر

في الانسجام

(عن شرح بديعية العميان لابن جابر وبديعية الحموي)

(راجع صفحة ٢١ من علم الادب)

ٱلِانْسِجَامُ لُغَةً جَرَيَانُ ٱلمَاءِ وَعِندَ أَهلِ ٱلبَلَاغَةِ هُوَ أَنْ يَأْتِيَ ٱلنَّاظِمُ أَوِ ٱلنَّاثِرُ بِكَلَامٍ خَالٍ مِنَ ٱلتَّعقِيدِ ٱللَّفظِيِّ وَٱلمَعنَوِيِّ بَسِيطًا مَفهُومًا دَقِيقَ ٱلأَلفَاظِ جَلِيلَ ٱلمَعنَى لَا تَكَلُّفَ فِيهِ وَلَا تَعَسُّفَ يَتَحَدَّرُ كَتَحَدُّرِ ٱلمَاءِ ٱلمُنسَجِمِ فَيَكَادُ لِسُهُولَةِ تَرْكِيبِهِ وَعُذُوبَةِ أَلفَاظِهِ أَنْ يَسِيلَ رِقَّةً . وَلَا يَكُونُ ذٰلِكَ إِلَّا فِي مَنْ هُوَ مَطبُوعٌ عَلَى سَلَامَةِ ٱلذَّوقِ وَتَوَقُّدِ ٱلفِكرَةِ وَبَرَاعَةِ ٱلإِنشَاءِ وَحُسْنِ ٱلأَسَالِيبِ . فَإِنْ كَانَ مَصْنُوعًا فَلَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ فِيهِ غَالِبًا مَا يُظهِرُ صِنَاعَتَهُ مَعَ مُقَابَلَتِهِ بِغَيرِهِ مِنْ نَفْسِ صَانِعِهِ . وَإِنَّ فُحُولَ هٰذَا ٱلمَيدَانِ مَا أَثقَلُوا كَاهِلَ سُهُولَتِهِ بِنَوعٍ مِنْ أَنوَاعِ ٱلبَدِيعِ ٱللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ عَفوًا مِنْ غَيرِ قَصدٍ . وَعَلَى هٰذَا أَجمَعَ عُلَمَاءُ ٱلبَدِيعِ فِي حَدِّ هٰذَا ٱلنَّوعِ فَإِنَّهُم قَرَّرُوا : أَنْ يَكُونَ بَعِيدًا فِي ٱلتَّصَنُّعِ خَالِيًا مِنَ ٱلأَنوَاعِ ٱلبَدِيعِيَّةِ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ

فِي ضِمْنِ ٱلسُّهُولَةِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ. وَإِنْ كَانَ ٱلِٱنْسِجَامُ فِي ٱلنَّثْرِ تَكُونُ غَالِبُ فَقَرَاتِهِ مَوْزُونَةً مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ لِقُوَّةِ ٱنْسِجَامِهِ. وَإِنْ كَانَ فِي ٱلنَّظْمِ فَتَكَادُ ٱلْأَبْيَاتُ أَنْ تَسِيلَ رِقَّةً وَعُذُوبَةً. وَرُبَّمَا دَخَلَتْ فِي ٱلْمُطْرِبِ وَٱلْمُرْقِصِ

البحث الثاني عشر

في القول في النظم

(عن صناعة الترسل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٢٤ من علم الادب)

اَلنَّظْمُ عِبَارَةٌ عَنْ تَوَاخِي مَعَانِي ٱلنَّحْوِ فِيمَا بَيْنَ ٱلْكَلَامِ. وَذٰلِكَ أَنْ تَضَعَ كَلَامَكَ ٱلْوَضْعَ ٱلَّذِي يَقْتَضِيهِ عِلْمُ ٱلنَّحْوِ بِأَنْ تَنْظُرَ فِي كُلِّ بَابٍ إِلَى قَوَانِينِهِ وَٱلْفُرُوقِ ٱلَّتِي بَيْنَ مَعَانِي ٱخْتِلَافِ صِيَغِهِ وَتَضَعَ ٱلْحُرُوفَ مَوَاضِعَهَا وَتُرَاعِيَ شَرَائِطَ ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ وَمَوَاضِعَ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ وَمَوَاضِعَ حُرُوفِ ٱلْعَطْفِ عَلَى ٱخْتِلَافِ مَعَانِيهَا وَتَعْتَبِرَ ٱلْإِصَابَةَ فِي طَرِيقِ ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلتَّمْثِيلِ. وَقَدِ ٱطَّبَقَ ٱلْعُلَمَاءُ عَلَى تَعْظِيمِ شَأْنِ ٱلنَّظْمِ وَأَنْ لَا فَضْلَ مَعَ عَدَمِهِ وَلَوْ بَلَغَ ٱلْكَلَامُ فِي غَرَابَةِ مَعْنَاهُ إِلَى مَا بَلَغَ. وَإِنَّ سَبَبَ فَسَادِهِ تَرْكُ ٱلْعَمَلِ بِقَرَائِنِ ٱلنَّحْوِ وَٱسْتِعْمَالُ شَيْءٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ. ثُمَّ ٱلْجُمَلُ ٱلْكَثِيرَةُ إِذَا نُظِمَتْ نَظْمًا وَاحِدًا فَهِيَ عَلَى قِسْمَيْنِ: (ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يَتَعَلَّقَ ٱلْبَعْضُ بِٱلْبَعْضِ فَلَا يَحْتَاجُ وَاضِعُهُ إِلَى فِكْرٍ وَرَوِيَّةٍ فِي ٱسْتِخْرَاجِهِ بَلْ هُوَ كَمَنْ عَمَدَ إِلَى ٱللَّآلِئِ

يَنْظِمُهَا فِي سِلْكٍ . وَمِثَالُهُ قَوْلُ ٱلْجَاحِظِ : جَنَّبَكَ ٱللهُ ٱلشُّبْهَةَ وَعَصَمَكَ مِنَ ٱلْحَيْرَةِ وَجَعَلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلْمَعْرُوفِ نَسَبًا وَبَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلصِّدْقِ سَبَبًا . وَكَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ ٱلنُّعْمَانِ : يُفَاخِرُكَ ٱبْنُ اَبِي جَفْنَةٍ وَاِنَّ لَقَفَاكَ خَيْرٌ مِنْ وَجْهِهِ وَلَشِمَالُكَ خَيْرٌ مِنْ يَمِينِهِ وَلَأَخْمَصُكَ خَيْرٌ مِنْ رَأْسِهِ وَلَخَطَأُكَ خَيْرٌ مِنْ صَوَابِهِ وَلَخَدَمُكَ خَيْرٌ مِنْ قَوْمِهِ . وَهٰذَا ٱلنَّظْمُ لَا يَسْتَحِقُّ ٱلْفَضْلَ اِلَّا بِسَلَامَةِ مَعْنَاهُ وَسَلَامَةِ ٱلْفَاظِهِ اِذْ لَيْسَ فِيهِ مَعْنًى دَقِيقٌ لَا يُدْرِكُهُ اِلَّا ثَاقِبُ ٱلْفِكْرِ . وَرُبَّمَا ظَنَّ بِٱلْكَلَامِ اَنَّهُ مِنْ هٰذَا ٱلْجِنْسِ وَلَا يَكُونُ مِنْهُ . (اَلثَّانِي) اَنْ تَكُونَ ٱلْجُمَلُ ٱلْمَذْكُورَةُ يَتَعَلَّقُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَهُنَاكَ تَظْهَرُ قُوَّةُ ٱلطَّبْعِ وَجُودَةُ ٱلْقَرِيحَةِ وَاسْتِقَامَةُ ٱلذِّهْنِ . ثُمَّ لَيْسَ لِهٰذَا ٱلْبَابِ قَانُونٌ يُحْفَظُ فَاِنَّمَا يَجِيءُ عَلَى وُجُوهٍ شَتَّى :

(فَمِنْهَا ٱلْاِيجَازُ) وَهُوَ ٱلتَّعْبِيرُ عَنِ ٱلْغَرَضِ بِاَقَلِّ مَا يُمْكِنُ مِنَ ٱلْحُرُوفِ وَهُوَ عَلَى ضَرْبَيْنِ : (اَحَدُهُمَا) اِيجَازُ قِصَرٍ وَهُوَ تَقْلِيلُ ٱللَّفْظِ وَتَكْثِيرُ ٱلْمَعْنَى . (وَٱلثَّانِي) اِيجَازُ حَذْفٍ وَهُوَ ٱلِاسْتِغْنَاءُ بِٱلْمَذْكُورِ عَمَّا لَمْ يُذْكَرْ . (وَمِنْهَا ٱلتَّأْكِيدُ) وَهُوَ تَقْوِيَةُ ٱلْمَعْنَى وَتَقْرِيرُهُ اِمَّا بِاِظْهَارِ ٱلْبُرْهَانِ كَقَوْلِ قَابُوسَ :

يَاذَا ٱلَّذِي بِصُرُوفِ ٱلدَّهْرِ عَيَّرَنَا ... هَلْ عَانَدَ ٱلدَّهْرُ اِلَّا مَنْ لَهُ خَطَرُ
اَمَا تَرَى ٱلْبَحْرَ يَعْلُو فَوْقَهُ جِيَفٌ ... وَتَسْتَقِرُّ بِاَقْصَى قَعْرِهِ ٱلدُّرَرُ
وَفِي ٱلسَّمَاءِ نُجُومٌ غَيْرُ ذِي عَدَدٍ ... وَلَيْسَ يُكْسَفُ اِلَّا ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ

(اَوْ بِٱلْعَزِيمَةِ) كَقَوْلِهِ : فَوَرَبِّ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْاَرْضِ اِنَّهُ لَحَقٌّ .

(اَوْ بِٱلتَّكْرَارِ) كَقَوْلِهِمْ : ٱللهَ ٱللهَ وَٱلْاَسَدَ ٱلْاَسَدَ

الفصل الرابع

في البيان

البحث الاول

في تحديد البيان على وجه الاجمال

(من كتاب البيان والتبيين للجاحظ وغرر الخصائص للوطواط بتصرُّف)

(راجع صفحة ٢٧ و٢٨ من علم الادب)

اَلْبَيَانُ اسْمٌ لِكُلِّ شَيْءٍ كَشَفَ لَكَ عَلَى بَيَانِ الْمَعْنَى وَهَتَكَ لَكَ الْحُجُبَ دُونَ الضَّمِيرِ حَتَّى يُفْضِيَ السَّامِعُ اِلَى حَقِيقَتِهِ وَيَهْجُمَ عَلَى مَحْصُولِهِ كَائِنًا مَا كَانَ ذٰلِكَ الْبَيَانُ وَمِنْ ايّ جِنْسٍ كَانَ ذٰلِكَ الدَّلِيلُ. لِاَنَّ مَدَارَ الْاَمْرِ وَالْغَايَةَ الَّتِي يَجْرِي اِلَيْهَا الْقَائِلُ وَالسَّامِعُ اِنَّمَا هُوَ الْفَهْمُ وَالْاِفْهَامُ فَبِايِّ شَيْءٍ بَلَغْتَ الْاِفْهَامَ وَاوْضَحْتَ عَنِ الْمَعْنَى فَذٰلِكَ هُوَ الْبَيَانُ فِي ذٰلِكَ الْمَوْضِعِ. وَقِيلَ لِجَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى الْبَرْمَكِيّ: مَا الْبَيَانُ. قَالَ: اَنْ يَكُونَ الْاِسْمُ يُحِيطُ بِمَعْنَاكَ وَيَكْشِفُ عَنْ مَغْزَاكَ وَيُخْرِجُهُ مِنَ الشَّرِكَةِ وَلَا يُسْتَعَانُ عَلَيْهِ بِالْفِكْرَةِ وَيَكُونَ سَلِيمًا مِنَ التَّكَلُّفِ بَعِيدًا مِنَ الصَّنْعَةِ بَرِيئًا مِنَ التَّعْقِيدِ غَنِيًّا عَنِ التَّأْوِيلِ. وَقَالُوا: اَلْبَيَانُ بَصَرٌ وَالْعِيُّ عَمًى كَمَا اَنَّ الْعِلْمَ بَصَرٌ وَالْجَهْلَ عَمًى وَالْبَيَانُ مِنْ نَتَائِجِ الْعِلْمِ وَالْعِيُّ مِنْ نَتَائِجِ الْجَهْلِ. وَقَالُوا: حَيَاةُ الْمُرُوءَةِ الصِّدْقُ وَحَيَاةُ الرُّوحِ الْعَفَافُ وَحَيَاةُ الْحِلْمِ الْعِلْمُ وَحَيَاةُ الْعِلْمِ

ٱلْبَيَانُ . وَقَالَ ٱبْنُ ٱلتَّوْأَمِ : ٱلرُّوحُ عِمَادُ ٱلْبَدَنِ وَٱلْعِلْمُ عِمَادُ ٱلرُّوحِ وَٱلْبَيَانُ عِمَادُ ٱلْعِلْمِ . وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَثُرَ عَنْ قَدْرِ ٱلْحَاجَةِ وَزَادَ عَلَى حَدِّ ٱلْكِفَايَةِ وَكَانَ صَوَابًا لَا يَشُوبُهُ خَطَلٌ وَسَلِيمًا لَا يَتَنَقَّصُهُ زَلَلٌ فَهُوَ ٱلْبَيَانُ وَٱلسِّحْرُ ٱلْحَلَالُ . (وَفِي كُتُبِ ٱلْحُكَمَاءِ) : ٱلْبَيَانُ هُوَ أَنْ يُحْسِنَ ٱلْعِبَارَةَ عَنِ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي تَهْجِسُ فِي ٱلضَّمِيرِ فَيَحْتَاجُ إِلَى نَقْلِ صُوَرِهَا ٱلْمُتَخَيَّلَةِ أَوِ ٱلْمَعْقُولَةِ إِلَى ضَمِيرِ مَنْ يُخَاطِبُهُ . وَقَالَ آخَرُ : خَيْرُ ٱلْبَيَانِ مَا كَانَ مُصَرِّحًا عَنِ ٱلْمَعْنَى لِيُسْرِعَ إِلَى ٱلْفَهْمِ تَلَقِّيهِ وَمُوجَزًا لِيَخِفَّ عَلَى ٱللِّسَانِ تَعَاهُدُهُ . قَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ : ٱلْبَيَانُ تَرْجُمَانُ ٱلْقُلُوبِ وَصَيْقَلُ ٱلْعُقُولِ . وَقَالَ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ : ٱلْبَيَانُ تَرْجُمَانُ ٱللِّسَانِ وَرَوْضُ ٱلْقُلُوبِ

البحث الثاني

في تعريف علم البيان

(عن الكشّاف للتهانوي وكشف الظنون لحاجّ خلفا)

(راجع صفحة ٢٧ من علم الادب)

ٱلْبَيَانُ لُغَةً ٱلْكَشْفُ وَٱلتَّوْضِيحُ وَٱلظُّهُورُ وَهُوَ فِي ٱلِٱصْطِلَاحِ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلْمَنْطِقِ ٱلْفَصِيحِ ٱلْمُعْرِبِ عَمَّا فِي ٱلضَّمِيرِ . وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى ٱلْإِثْبَاتِ بِٱلدَّلِيلِ . وَقِيلَ : ٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْبَيَانِ وَٱلتِّبْيَانِ بِأَنَّ ٱلْبَيَانَ هُوَ إِظْهَارُ ٱلْمُرَادِ . وَٱلتِّبْيَانُ يَحْتَوِي عَلَى كَدِّ ٱلْخَاطِرِ وَإِعْمَالِ ٱلْقَلْبِ . وَقَرِيبٌ مِنْهُ مَا قِيلَ : ٱلتِّبْيَانُ بَيَانٌ مَعَ دَلِيلٍ وَبُرْهَانٍ .

وَٱلْبَيَانُ عِنْدَ ٱلْبُلَغَـاءِ : هُوَ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ اِيرَادُ ٱلْمَعْنَى ٱلْوَاحِدِ بِتَرَاكِيبَ مُخْتَلِفَةٍ فِي وُضُوحِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَقْصُودِ بِاَنْ يَكُونَ دَلَالَةُ بَعْضِهَا اَجْلَى مِنْ بَعْضٍ . وَمَوْضُوعُهُ ٱللَّفْظُ ٱلْبَلِيغُ مِنْ حَيْثُ وُضُوحِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ . وَغَرَضُهُ تَحْصِيلُ مَلَكَةِ ٱلْاِفَادَةِ بِٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ وَفَهْمِ مَدْلُولَاتِهَا . وَغَايَتُهُ ٱلْاِحْتِرَازُ عَنِ ٱلْخَطَاءِ فِي تَعْيِينِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ . وَمَبَادِئُهُ بَعْضُهَا عَقْلِيَّةٌ كَاَقْسَامِ ٱلدَّلَالَةِ وَٱلتَّشْبِيهَاتِ وَٱلْعِلَاقَاتِ . وَبَعْضُهَا وِجْدَانِيَّةٌ ذَوْقِيَّةٌ كَوُجُوهِ ٱلتَّشْبِيهَـاتِ وَاَقْسَامِ ٱلْاِسْتِعَارَاتِ وَكَيْفِيَّةِ حُسْنِهَا . وَاِنَّمَا اَخْتَارُوا فِي عِلْمِ ٱلْبَيَانِ وُضُوحَ ٱلدَّلَالَـةِ لِاَنَّ بَحْثَهُمْ لَمَّا اَقْتَصَرَ عَلَى ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ اَعْنِي ٱلتَّضَمُّنِيَّـةَ وَٱلْاِلْتِزَامِيَّةَ وَكَانَتْ تِلْكَ ٱلدَّلَالَةُ خَفِيَّـةً سِيَّمَا اِذَا كَانَ ٱللُّزُومُ بِحَسَبِ ٱلْعَادَاتِ وَٱلطَّبَائِعِ فَوَجَبَ ٱلتَّعْبِيرُ عَنْهَا بِلَفْظٍ اَوْضَحَ . مَثَلًا : اِذَا كَانَ ٱلْمَرْئِيُّ دَقِيقًا فِي ٱلْغَايَةِ تَحْتَاجُ ٱلْحَاسَّةُ فِي اِبْصَارِهَا اِلَى شُعَاعٍ قَوِيٍّ بِخِلَافِ ٱلْمَرْئِيِّ اِذَا كَانَ جَلِيًّا . وَكَذَا ٱلْحَالُ فِي ٱلرُّؤْيَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ اَعْنِي ٱلْفَهْمَ وَٱلْاِدْرَاكَ . وَٱلْحَاصِلُ اَنَّ ٱلْمُعْتَبَرَ فِي عِلْمِ ٱلْبَيَانِ دِقَّةُ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُعْتَبَرَةِ فِيهَا مِنَ ٱلْاِسْتِعَارَاتِ وَٱلْكِنَايَاتِ مَعَ وُضُوحِ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلدَّالَّةِ عَلَيْهَا



البحث الثالث

في الحقيقة والمجاز

(من المثل السائر لابن الاثير)

(راجع صفحة ٢٩ من علم الادب)

هٰذَا ٱلْفَصْلُ مُهِمٌّ كَبِيرٌ مِنْ مُهِمَّاتِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ لَا بَلْ هُوَ عِلْمُ ٱلْبَيَانِ بِأَجْمَعِهِ. فَإِنَّ فِي تَصْرِيفِ ٱلْعِبَارَاتِ عَلَى ٱلْأُسْلُوبِ ٱلْمَجَازِيِّ فَوَائِدَ كَثِيرَةً. وَٱلْكَلَامُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ عَلَى جُمْلَتِهَا دُونَ تَفْصِيلِهَا. فَأَمَّا ٱلْحَقِيقَةُ فَهِيَ ٱللَّفْظُ ٱلدَّالُّ عَلَى مَوْضُوعِهِ ٱلْأَصْلِيِّ. وَأَمَّا ٱلْمَجَازُ فَهُوَ مَا أُرِيدَ بِهِ غَيْرُ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَوْضُوعِ لَهُ مِنْ أَصْلِ ٱللُّغَةِ وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ جَازَ مِنْ هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ إِلَى هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ إِذَا تَخَطَّاهُ إِلَيْهِ. فَٱلْمَجَازُ إِذًا ٱسْمٌ لِلْمَكَانِ ٱلَّذِي يُجَازُ فِيهِ كَٱلْمَعَاجِ وَٱلْمَزَارِ وَأَشْبَاهِهِمَا. وَحَقِيقَتُهُ هِيَ ٱلِٱنْتِقَالُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ. فَجُعِلَ ذٰلِكَ لِنَقْلِ ٱلْأَلْفَاظِ مِنْ مَحَلٍّ إِلَى مَحَلٍّ كَقَوْلِنَا: زَيْدٌ أَسَدٌ. فَإِنَّ زَيْدًا إِنْسَانٌ وَٱلْأَسَدَ هُوَ هٰذَا ٱلْحَيَوَانُ ٱلْمَعْرُوفُ. وَقَدْ جُزْنَا مِنَ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ إِلَى ٱلْأَسَدِيَّةِ. أَيْ عَبَرْنَا مِنْ هٰذِهِ إِلَى هٰذِهِ لِوُصْلَةٍ بَيْنَهُمَا وَتِلْكَ ٱلْوُصْلَةُ هِيَ صِفَةُ ٱلشَّجَاعَةِ. وَقَدْ يَكُونُ ٱلْعُبُورُ لِغَيْرِ وُصْلَةٍ. وَذٰلِكَ هُوَ ٱلِٱتِّسَاعُ كَقَوْلِهِمْ فِي كِتَابِ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ: قَالَ ٱلْأَسَدُ. قَالَ ٱلثَّعْلَبُ. فَإِنَّ ٱلْقَوْلَ لَا وُصْلَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ هٰذَيْنِ بِحَالٍ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ. وَإِنَّمَا أُجْرِيَ عَلَيْهِمَا ٱتِّسَاعًا مَحْضًا لَا غَيْرُ . . . . وَقَدْ ذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ كُلَّهُ حَقِيقَةٌ لَا مَجَازَ فِيهِ. وَذَهَبَ آخَرُونَ: إِلَى أَنَّهُ كُلَّهُ مَجَازٌ لَا حَقِيقَةَ فِيهِ. وَكِلَا هٰذَيْنِ

ٱلْمَذْهَبَيْنِ فَاسِدٌ عِنْدِي . وَسَأُجِيبُ لِلْخَصْمِ عَمَّا ٱدَّعَاهُ فِيهِمَا فَأَقُولُ : مَحَلُّ ٱلنِّزَاعِ هُوَ إِنَّ ٱللُّغَةَ كُلَّهَا حَقِيقَةٌ أَوْ إِنَّهَا كُلَّهَا مَجَازٌ . وَلَا فَرْقَ عِنْدِي بَيْنَ قَوْلِكَ إِنَّهَا كُلَّهَا حَقِيقَةٌ أَوْ إِنَّهَا مَجَازٌ . فَإِنَّ كِلَا ٱلطَّرَفَيْنِ عِنْدِي سَوَاءٌ . لِأَنَّ مُنْكِرَهُمَا غَيْرُ مُسَلِّمٍ لَهُمَا . وَأَنَا بِصَدَدِ أَنْ أُبَيِّنَ أَنَّ فِي ٱللُّغَةِ حَقِيقَةً وَمَجَازًا . وَٱلْحَقِيقَةُ ٱللُّغَوِيَّةُ هِيَ حَقِيقَةُ ٱلْأَلْفَاظِ فِي دَلَالَتِهَا عَلَى ٱلْمَعَانِي وَلَيْسَتْ بِٱلْحَقِيقَةِ ٱلَّتِي هِيَ ذَاتُ ٱلشَّيْءِ أَيْ نَفْسُهُ وَعَيْنُهُ . فَٱلْحَقِيقَةُ ٱللَّفْظِيَّةُ إِذًا هِيَ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمَوْضُوعِ لَهُ فِي أَصْلِ ٱللُّغَةِ . وَٱلْمَجَازُ هُوَ نَقْلُ ٱلْمَعْنَى عَنِ ٱللَّفْظِ ٱلْمَوْضُوعِ لَهُ إِلَى لَفْظٍ آخَرَ غَيْرِهِ . وَتَقْرِيرُ ذَٰلِكَ بِأَنْ أَقُولَ : ٱلْمَخْلُوقَاتُ كُلُّهَا تَفْتَقِرُ إِلَى أَسْمَاءٍ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَيْهَا لِيُعْرَفَ كُلٌّ مِنْهَا بِٱسْمِهِ مِنْ أَجْلِ ٱلتَّفَاهُمِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ . وَهٰذَا يَقَعُ ضَرُورَةً لَا بُدَّ مِنْهَا . فَٱلِٱسْمُ ٱلْمَوْضُوعُ بِإِزَاءِ ٱلْمُسَمَّى هُوَ حَقِيقَةٌ لَهُ فَإِذَا نُقِلَ إِلَى غَيْرِهِ صَارَ مَجَازًا . وَمِثَالُ ذَٰلِكَ أَنَّا إِذَا قُلْنَا : شَمْسٌ . أَرَدْنَا بِهِ هٰذَا ٱلْكَوْكَبَ ٱلْعَظِيمَ ٱلْكَثِيرَ ٱلضَّوْءِ . وَهٰذَا ٱلِٱسْمُ لَهُ حَقِيقَةٌ لِأَنَّهُ وُضِعَ بِإِزَائِهِ . وَكَذَٰلِكَ إِذَا قُلْنَا : بَحْرٌ . أَرَدْنَا بِهِ هٰذَا ٱلْمَاءَ ٱلْعَظِيمَ ٱلْمُجْتَمِعَ ٱلَّذِي طَعْمُهُ مِلْحٌ . وَهٰذَا ٱلِٱسْمُ لَهُ حَقِيقَةٌ لِأَنَّهُ وُضِعَ بِإِزَائِهِ . فَإِذَا نَقَلْنَا ٱلشَّمْسَ إِلَى ٱلْوَجْهِ ٱلْمَلِيحِ ٱسْتِعَارَةً كَانَ لَهُ ذَٰلِكَ مَجَازًا لَا حَقِيقَةً . وَكَذَٰلِكَ إِذَا نَقَلْنَا ٱلْبَحْرَ إِلَى ٱلرَّجُلِ ٱلْجَوَادِ ٱسْتِعَارَةً كَانَ ذَٰلِكَ لَهُ مَجَازًا لَا حَقِيقَةً . (فَإِنْ قِيلَ) : إِنَّ ٱلْوَجْهَ ٱلْمَلِيحَ يُقَالُ لَهُ شَمْسٌ وَهُوَ حَقِيقَةٌ فِيهِ . وَكَذَٰلِكَ يُقَالُ لِلرَّجُلِ ٱلْجَوَادِ بَحْرٌ وَهُوَ حَقِيقَةٌ فِيهِ . (فَٱلْجَوَابُ) عَنْ ذَٰلِكَ مِنْ وَجْهَيْنِ : (أَحَدُهُمَا)

نَظَرِيٌّ وَٱلآخَرُ وَضعِيٌّ. (امَّا ٱلنَّظَرِيُّ) فَهُوَ انَّ ٱلأَلفَاظَ إِنَّمَا جُعِلَتْ ادِلَّةً عَلَى إِفهَامِ ٱلمَعَانِي وَلَوْ كَانَ مَا ذَهَبْتَ إِلَيهِ صَحِيحًا لَكَانَ ٱلبَحرُ يُطلَقُ عَلَى هٰذَا ٱلمَاءِ ٱلعَظِيمِ ٱلمِلحِ وَعَلَى ٱلرَّجُلِ ٱلجَوَادِ بِٱلاشتِرَاكِ. وَكَذٰلِكَ ٱلشَّمسُ ايضًا فَإِنَّهَا كَانَتْ تُطلَقُ عَلَى هٰذَا ٱلكَوكَبِ ٱلعَظِيمِ ٱلكَثِيرِ ٱلضَّوءِ وَعَلَى هٰذَا ٱلوَجهِ ٱلمَلِيحِ بِٱلاشتِرَاكِ. وَحِينَئِذٍ فَإِذَا وَرَدَ احَدُ هٰذَينِ ٱللَفظَينِ مُطلَقًا بِغَيرِ قَرِينَةٍ تُخَصِّصُهُ فَلَا يُفهَمُ ٱلمُرَادُ بِهِ مَا هُوَ مِنْ احدِ ٱلمَعنَيَينِ ٱلمُشتَرَكَينِ ٱلمُندَرِجَينِ تَحتَهُ وَنَحنُ نَرَى ٱلأَمرَ بِخِلَافِ ذٰلِكَ فَإِنَّا إِذَا قُلنَا: شَمسٌ اوْ بَحرٌ. وَاطلَقنَا ٱلقَولَ لَا يُفهَمُ مِنْ ذٰلِكَ وَجهٌ مَلِيحٌ وَلَا رَجُلٌ جَوَادٌ. وَإِنَّمَا يُفهَمُ مِنهُ ذٰلِكَ ٱلكَوكَبُ ٱلمَعلُومُ وَذٰلِكَ ٱلمَاءُ ٱلمَعلُومُ لَا غَيرُ فَبَطَلَ إِذًا مَا ذَهَبتَ إِلَيهِ بِمَا بَيَّنَّاهُ وَاوضَحنَاهُ. (فَإِنْ قُلتَ): إِنَّ ٱلعُرفَ يُخَالِفُ مَا ذَهَبتَ إِلَيهِ فَإِنَّ مِنَ ٱلأَلفَاظِ مَا إِذَا اُطلِقَ لَمْ يَذهَبِ ٱلفَهمُ مِنهُ إِلَّا إِلَى ٱلمَجَازِ دُونَ ٱلحَقِيقَةِ. (قُلتُ فِي ٱلجَوَابِ): هٰذَا شَيْءٌ ذَهَبَ إِلَيهِ بَعضُهُمْ وَلَيسَ ٱلأَمرُ كَمَا ذَهَبُوا إِلَيهِ. لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ إِطلَاقُ ٱللَفظِ فِيهِ بَينَ عَامَّةِ ٱلنَّاسِ فَهؤُلاءِ لَا يَفهَمُونَ إِلَّا ٱلمَعنَى ٱلمَجَازِيَّ. لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعلَمُوا اصلَ وَضعِ ٱلكَلِمَةِ. وَامَّا خَاصَّةُ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ يَعلَمُونَ اصلَ ٱلوَضعِ فَإِنَّهُمْ لَا يَفهَمُونَ عِندَ إِطلَاقِ ٱللَفظِ إِلَّا ٱلحَقِيقَةَ لَا غَيرُ . . . (وَامَّا ٱلوَجهُ ٱلوَضعِيُّ) فَهُوَ انَّ ٱلمَرجِعَ فِي هٰذَا وَمَا يَجرِي مَجرَاهُ إِلَى اصلِ ٱللُّغَةِ ٱلَّتِي هِيَ وَضعُ ٱلأَسمَاءِ عَلَى ٱلمُسَمَّيَاتِ وَلَمْ يُوجَدْ فِيهَا انَّ ٱلوَجهَ ٱلمَلِيحَ يُسَمَّى شَمسًا وَلَا انَّ ٱلرَّجُلَ ٱلجَوَادَ يُسَمَّى بَحرًا. وَإِنَّمَا اهلُ

ٱلْخِطَابَةِ وَٱلشِّعْرِ تَوَسَّعُوا فِي ٱلْأَسَالِيبِ ٱلْمَعْنَوِيَّةِ فَنَقَلُوا ٱلْحَقِيقَةَ إِلَى ٱلْمَجَازِ وَلَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ مِنْ وَاضِعِ ٱللُّغَةِ فِي أَصْلِ ٱلْوَضْعِ وَلِهٰذَا ٱخْتَصَّ كُلٌّ مِنْهُمْ بِشَيْءٍ ٱخْتَرَعَهُ فِي ٱلتَّوَسُّعَاتِ ٱلْمَجَازِيَّـةِ . هٰذَا ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ قَدِ ٱخْتَرَعَ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ . فَمِنْ ذٰلِكَ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ عَبَّرَ عَنِ ٱلْفَرَسِ بِقَوْلِهِ : (قَيْدُ ٱلْأَوَابِدِ) . وَلَمْ يُسْمَعْ ذٰلِكَ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِهِ . . . وَوَاضِعُ ٱللُّغَةِ مَا ذَكَرَ شَيْئًا مِنْ ذٰلِكَ فَعَلِمْنَا حِينَئِذٍ أَنَّ مِنَ ٱللُّغَـةِ حَقِيقَةً بِوَضْعِهِ وَمَجَازًا بِتَوَسُّعَاتِ أَهْلِ ٱلْخِطَابَةِ وَٱلشِّعْرِ . وَفِي زَمَانِنَا هٰذَا قَدْ يَخْتَرِعُونَ أَشْيَاءَ مِنَ ٱلْمَجَازِ عَلَى حُكْمِ ٱلِٱسْتِعَـارَةِ لَمْ تَكُنْ مِنْ قَبْلُ . وَلَوْ كَانَ هٰذَا مَوْقُوفًا مِنْ جِهَةِ وَاضِعِ ٱللُّغَـةِ لَمَا ٱخْتَرَعَهُ أَحَدٌ مِنْ بَعْدِهِ وَلَا زِيدَ فِيهِ وَلَا نُقِصَ مِنْهُ . وَأَمَّا ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْحَقِيقَةِ فَهُوَ أَنَّ ٱلْحَقِيقَةَ جَارِيَةٌ عَلَى ٱلْعُمُومِ فِي نَظَائِرِ . أَلَا تَرَى إِذَا قُلْنَا : فُلَانٌ عَالِمٌ . صَدَقَ عَلَى كُلِّ ذِي عِلْمٍ . بِخِلَافِ (وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ) . لِأَنَّهُ لَا يَصِحُّ إِلَّا فِي بَعْضِ ٱلْجَمَادَاتِ دُونَ بَعْضٍ إِذِ ٱلْمُرَادُ أَهْلُ ٱلْقَرْيَةِ لِأَنَّهُمْ مِمَّنْ يَصِحُّ ٱلسُّؤَالُ لَهُمْ . وَلَا يَجُـوزُ أَنْ يُقَالَ : وَٱسْأَلِ ٱلْحَجَرَ وَٱلتُّرَابَ . وَقَدْ يَحْسُنُ أَنْ يُقَالَ : وَٱسْأَلِ ٱلرَّبْعَ وَٱلطَّلَلَ . (وَٱعْلَمْ) أَنَّ كُلَّ مَجَازٍ فَلَهُ حَقِيقَةٌ لِأَنَّهُ لَمْ يَصِحَّ أَنْ يُطْلَقَ عَلَيْهِ ٱسْمُ ٱلْمَجَازِ إِلَّا عَنْ حَقِيقَةٍ مَوْضُوعَةٍ لَهُ إِذِ ٱلْمَجَازُ هُوَ ٱسْمٌ لِلْمَوْضُوعِ ٱلَّذِي يُنْتَقَلُ فِيهِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ فَجُعِلَ ذٰلِكَ لِنَقْلِ ٱلْأَلْفَاظِ مِنَ ٱلْحَقِيقَةِ إِلَى غَيْرِهَا . وَإِذَا كَانَ كُلُّ مَجَازٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ حَقِيقَةٍ نُقِلَ عَنْهَا إِلَى حَالَةِ ٱلْمَجَازِيَّةِ فَكَذٰلِكَ لَيْسَ مِنْ ضَرُورَةِ كُلِّ حَقِيقَةٍ أَنْ يَكُونَ لَهَا مَجَازٌ . فَإِنَّ

مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ مَا لَا مَجَازَ لَهُ كَأَسْمَاءِ ٱلْأَعْلَامِ لِأَنَّهَا وُضِعَتْ لِلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلذَّوَاتِ لَا لِلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلصِّفَاتِ

وَكَذٰلِكَ فَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْمَجَازَ أَوْلَى بِٱلِاسْتِعْمَالِ مِنَ ٱلْحَقِيقَةِ فِي بَابِ ٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْبَلَاغَةِ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ لَكَانَتِ ٱلْحَقِيقَةُ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْأَصْلُ أَوْلَى مِنْهُ حَيْثُ هُوَ فَرْعٌ عَلَيْهَا . وَلَيْسَ ٱلْأَمْرُ كَذٰلِكَ لِأَنَّهُ ثَبَتَ وَتَحَقَّقَ أَنَّ فَائِدَةَ ٱلْكَلَامِ ٱلْخِطَابِيِّ هُوَ إِثْبَاتُ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ فِي نَفْسِ ٱلسَّامِعِ بِٱلتَّخْيِيلِ وَٱلتَّصْوِيرِ حَتَّى يَكَادَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ عِيَانًا . أَلَا تَرَى أَنَّ حَقِيقَةَ قَوْلِنَا : زَيْدٌ أَسَدٌ . هِيَ قَوْلُنَا : زَيْدٌ شُجَاعٌ . لٰكِنْ فُرِقَ بَيْنَ ٱلْقَوْلَيْنِ فِي ٱلتَّصْوِيرِ وَٱلتَّخْيِيلِ وَإِثْبَاتِ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ فِي نَفْسِ ٱلسَّامِعِ . لِأَنَّ قَوْلَنَا : زَيْدٌ شُجَاعٌ . لَا يَتَخَيَّلُ مِنْهُ ٱلسَّامِعُ سِوَى أَنَّهُ رَجُلٌ جَرِيءٌ مِقْدَامٌ . فَإِذَا قُلْنَا : زَيْدٌ أَسَدٌ . يُخَيَّلُ عِنْدَ ذٰلِكَ صُورَةُ ٱلْأَسَدِ وَهَيْئَتُهُ وَمَا عِنْدَهُ مِنَ ٱلْبَطْشِ وَٱلْقُوَّةِ وَدَقِّ ٱلْفَرَائِسِ . وَقَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي ٱلْفَرَسِ : (قَيْدُ ٱلْأَوَابِدِ) هُوَ أَبْلَغُ مِنْ قَوْلِهِ لَوْ قَالَ : مَانِعُ ٱلْأَوَابِدِ عَنِ ٱلذَّهَابِ وَٱلْإِفْلَاتِ . وَٱلْقَيْدُ مِنْ أَعْلَى مَرَاتِبِ ٱلْمَنْعِ عَنِ ٱلتَّصَرُّفِ لِأَنَّكَ تُشَاهِدُ مَا فِي ٱلْقَيْدِ مِنَ ٱلْمَنْعِ فَلَا تَشُكُّ فِيهِ . وَكَقَوْلِهِمْ : هٰذَا مِيزَانُ ٱلْقِيَاسِ أَيْ تَعْدِيلُهُ . وَٱلْمَجَازُ أَبْلَغُ لِأَنَّ ٱلْمِيزَانَ يُصَوِّرُ لَكَ ٱلتَّعْدِيلَ حَتَّى تُعَايِنَهُ وَلِلْعِيَانِ فَضْلٌ عَلَى مَا سِوَاهُ . وَكَذٰلِكَ : ٱلْعَرُوضُ مِيزَانُ ٱلشِّعْرِ أَيْ حَقِيقَةُ تَقْوِيمِهِ . وَهٰذَا لَا نِزَاعَ فِيهِ . وَأَعْجَبُ مَا فِي ٱلْعِبَارَةِ ٱلْمَجَازِيَّةِ أَنَّهَا تَنْقُلُ ٱلسَّامِعَ عَنْ خُلُقِهِ ٱلطَّبِيعِيِّ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ حَتَّى إِنَّهَا يَسْمَحُ بِهَا ٱلْبَخِيلُ

وَيُشَجَّعُ بِهَا ٱلْجَبَانُ وَيُحْكَمُ بِهَا ٱلطَّائِشُ ٱلْمُتَسَرِّعُ وَيَجِدُ ٱلْمُخَاطَبُ بِهَا عِنْدَ سَمَاعِهَا نَشْوَةً كَنَشْوَةِ ٱلْخَمْرِ حَتَّى إِذَا قُطِعَ عِنْدَ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ أَفَاقَ وَنَدِمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ مِنْ بَذْلِ مَالٍ . أَوْ تَرْكِ عُقُوبَةٍ . أَوْ إِقْدَامٍ عَلَى أَمْرٍ مَهُولٍ وَهٰذَا هُوَ فَحْوَى ٱلسِّحْرِ ٱلْحَلَالِ ٱلْمُسْتَغْنِي مِنْ إِلْقَاءِ ٱلْعَصَا وَٱلْحِبَالِ . (وَٱعْلَمْ) أَنَّهُ إِذَا وَرَدَ عَلَيْكَ كَلَامٌ يَجُوزُ أَنْ يُحْمَلَ مَعْنَاهُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْحَقِيقَةِ وَعَلَى طَرِيقِ ٱلْمَجَازِ بِٱخْتِلَافِ لَفْظِهِ فَٱنْظُرْ فَإِنْ كَانَ لَا مَزِيَّةَ لِمَعْنَاهُ فِي حَمْلِهِ عَلَى طَرِيقِ ٱلْمَجَازِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ إِلَّا عَلَى طَرِيقِ ٱلْحَقِيقَةِ لِأَنَّهَا هِيَ ٱلْأَصْلُ وَٱلْمَجَازُ هُوَ ٱلْفَرْعُ وَلَا يُعْدَلُ عَنِ ٱلْأَصْلِ إِلَى ٱلْفَرْعِ إِلَّا لِفَائِدَةٍ

البحث الرابع

في الاستعارة

(عن صناعة الترسّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٢٩ من علم الادب)

هِيَ ٱدِّعَاءُ مَعْنَى ٱلْحَقِيقَةِ فِي ٱلشَّيْءِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي ٱلتَّشْبِيهِ مَعَ طَرْحِ ذِكْرِ ٱلْمُشَبَّهِ مِنَ ٱلْبَيْنِ لَفْظًا وَتَقْدِيرًا . وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ : هُوَ جَعْلُ ٱلشَّيْءِ لِلشَّيْءِ لِأَجْلِ ٱلْمُبَالَغَةِ فِي ٱلتَّشْبِيهِ . فَٱلْأَوَّلُ كَقَوْلِكَ : لَقِيتُ أَسَدًا تَعْنِي ٱلرَّجُلَ ٱلشُّجَاعَ . وَٱلثَّانِي كَقَوْلِ لَبِيدٍ :

إِذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ ٱلشَّمَالِ زِمَامُهَا

أَثْبَتَ ٱلْيَدَ لِلشَّمَالِ مُبَالَغَةً فِي تَشْبِيهِا بِٱلْقَادِرِ فِي ٱلتَّصَرُّفِ فِيهِ .
وَحَدَّ ٱلرُّمَّانِيُّ ٱلِٱسْتِعَارَةَ فَقَالَ : هِيَ تَعْلِيقُ ٱلْعِبَارَةِ عَلَى غَيْرِ مَا وُضِعَتْ لَهُ فِي أَصْلِ ٱللُّغَةِ عَلَى سَبِيلِ ٱلنَّقْلِ لِلْإِبَانَةِ . وَقَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ : هِيَ ٱسْتِعَارَةُ ٱلْكَلِمَةِ مِنْ شَيْءٍ قَدْ عُرِفَ بِهَا إِلَى شَيْءٍ لَمْ يُعْرَفْ بِهَا .
وَذَكَرَ ٱلْخَفَاجِيُّ كَلَامَ ٱلرُّمَّانِيِّ وَقَالَ : وَتَفْسِيرُ هٰذِهِ ٱلْجُمْلَةِ أَنَّ قَوْلَهُ مَثَلًا : (وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا) . ٱسْتِعَارَةٌ لِأَنَّ ٱلِٱشْتِعَالَ لِلنَّارِ وَلَمْ تُوضَعْ فِي أَصْلِ ٱللُّغَةِ لِلشَّيْبِ فَلَمَّا نُقِلَ إِلَيْهِ بَانَ ٱلْمَعْنَى لِمَا ٱكْتَسَبَهُ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ . لِأَنَّ ٱلشَّيْبَ لَمَّا كَانَ نَافِذًا فِي ٱلرَّأْسِ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى يُحِيلَهُ إِلَى غَيْرِ لَوْنِهِ ٱلْأَوَّلِ كَانَ بِمَنْزِلَةِ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي تَسْرِي فِي ٱلْخَشَبِ حَتَّى تُحِيلَهُ إِلَى غَيْرِ حَالَتِهِ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ . فَهٰذَا مِنْ نَقْلِ ٱلْعِبَارَةِ عَنِ ٱلْحَقِيقَةِ فِي ٱلْوَضْعِ لِلْبَيَانِ وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ أَوْضَحَ مِنَ ٱلْحَقِيقَةِ لِأَجْلِ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْعَارِضِ فِيهَا . لِأَنَّ ٱلْحَقِيقَةَ لَوْ قَامَتْ مَقَامَهَا لَكَانَتْ أَوْلَى بِهَا لِأَنَّهَا ٱلْأَصْلُ وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَى ٱلْمُتَأَمِّلِ أَنَّ قَوْلَهُ : (وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا) . أَبْلَغُ مِنْ : كَثُرَ شَيْبُ ٱلرَّأْسِ . وَهُوَ حَقِيقَةُ هٰذَا ٱلْمَعْنَى . وَقَوْلُهُ : (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ) . أَحْسَنُ وَأَبْلَغُ فِي مَا قُصِدَ لَهُ مِنْ قَوْلِهِ لَوْ قَالَ : يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ شِدَّةِ ٱلْأَمْرِ . وَإِنْ كَانَ ٱلْمَعْنَيَانِ وَاحِدًا . أَلَا تَرَى أَنَّكَ تَقُولُ لِمَنْ يَحْتَاجُ إِلَى ٱلْجِدِّ فِي أَمْرِهِ : شَمِّرْ عَنْ سَاقِكَ . فَيَكُونُ هٰذَا ٱلْقَوْلُ مِنْكَ أَكْثَرَ فِي نَفْسِهِ مِنْ قَوْلِكَ : جِدَّ فِي أَمْرِكَ . وَقَالَ دُرَيْدُ بْنُ ٱلصِّمَّةِ :

كَمِيشُ ٱلْإِزَارِ خَارِجٌ نِصْفُ سَاقِهِ صَبُورٌ عَلَى ٱلضَّرَّاءِ طَلَّاعُ أَنْجُدِ

وَقَالَ ٱلْهذليُّ :

وَكُنْتُ إِذَا جَارٌ دَعَا بِمَضُوفَةٍ ... أُشَمِّرُ حَتَّى يَنْصِفَ ٱلسَّاقَ مِئْزَرِي

وَلَا بُدَّ لِلِاسْتِعَارَةِ مِنْ حَقِيقَةٍ هِيَ اَصْلُهَا وَهِيَ : مُسْتَعَارٌ مِنْهُ . وَمُسْتَعَارٌ بِهِ . وَمُسْتَعَارٌ لَهُ . فَٱلنَّارُ فِي قَوْلِهِ : (اشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا) . مُسْتَعَارٌ مِنْهَا . وَٱلِاشْتِعَالُ مُسْتَعَارٌ . وَٱلشَّيْبُ مُسْتَعَارٌ لَهُ . وَاَمَّا قَوْلُنَا : (مَعَ طَرْحِ ذِكْرِ ٱلْمُشَبَّهِ) . فَاعْلَمْ اَنَّا إِذَا طَرَحْنَاهُ كَقَوْلِنَا : رَاَيْتُ اَسَدًا . وَاَرَدْنَا ٱلرَّجُلَ ٱلشُّجَاعَ فَهُوَ ٱسْتِعَارَةٌ بِٱلِاتِّفَاقِ وَإِنْ ذَكَرْنَا مَعَهُ ٱلْمُشَبَّهَ وَقُلْنَا : زَيْدٌ اَسَدٌ . فَٱلْمُخْتَارُ اَنَّهُ لَيْسَ بِٱسْتِعَارَةٍ إِذْ فِي ٱللَّفْظِ مَا يَدُلُّ عَلَى اَنَّهُ لَيْسَ بِاَسَدٍ فَلَمْ تَحْصُلِ ٱلْمُبَالَغَةُ . وَإِذَا قُلْتَ : زَيْدٌ ٱلْاَسَدُ . فَهُوَ اَبْعَدُ عَنِ ٱلِاسْتِعَارَةِ فَإِنَّ ٱلْاَوَّلَ خَرَجَ بِٱلتَّنْكِيرِ مِنْ اَنْ يَحْسُنَ فِيهِ كَافُ ٱلتَّشْبِيهِ . فَإِنَّ قَوْلَكَ : زَيْدٌ كَاَسَدٍ . كَلَامٌ نَازِلٌ بِخِلَافِ ٱلثَّانِي . قَالَ ضِيَاءُ ٱلدِّينِ بْنُ ٱلْاَثِيرِ : وَهٰذَا ٱلتَّشْبِيهُ ٱلْمُضْمَرُ ٱلْاَدَاةِ قَدْ خَلَطُوهُ بِٱلِاسْتِعَارَةِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَهُمَا وَذٰلِكَ خَطَأٌ مَحْضٌ . وَسَاُوَضِّحُ وَجْهَ ٱلْخَطَإِ فِيهِ وَاُحَقِّقُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلْفَرْقِ بَيْنَهُمَا فَاَقُولُ : إِنَّ ٱلتَّشْبِيهَ ٱلْمُظْهَرَ ٱلْاَدَاةِ فَلَا حَاجَةَ لِبَيَانِ ذِكْرِهِ لِاَنَّهُ لَا خِلَافَ فِيهِ وَلٰكِنْ نَذْكُرُ ٱلتَّشْبِيهَ ٱلْمُضْمَرَ ٱلْاَدَاةِ فَنَقُولُ : إِذَا ذُكِرَ ٱلْمَنْقُولُ وَٱلْمَنْقُولُ إِلَيْهِ عَلَى اَنَّهُ تَشْبِيهٌ ٱلْمُضْمَرُ ٱلْاَدَاةِ قِيلَ فِيهِ : زَيْدٌ اَسَدٌ . اَيْ كَٱلْاَسَدِ . فَاَدَاةُ ٱلتَّشْبِيهِ فِيهِ مُضْمَرَةٌ مُقَدَّرَةٌ . وَإِذَا اُظْهِرَتْ حَسُنَ ظُهُورُهَا وَلَمْ تَقْدَحْ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي اُظْهِرَتْ فِيهِ وَلَمْ تُزِلْ عَنْهُ فَصَاحَتَهُ وَبَلَاغَتَهُ وَهٰذَا بِخِلَافِ مَا إِذَا ذُكِرَ ٱلْمَنْقُولُ إِلَيْهِ دُونَ ٱلْمَنْقُولِ فَإِنَّهُ لَا يَحْسُنُ

فِيهِ ظُهُورُ اَدَاةِ ٱلتَّشْبِيهِ وَإِذَا اُظْهِرَتْ اَزَالَتْ عَنْ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ مَا كَانَ مُتَّصِفًا بِهِ مِنَ ٱلْحُسْنِ وَٱلْفَصَاحَةِ... فَٱلْفَرْقُ إِذًا بَيْنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُضْمَرِ ٱلْاَدَاةِ وَبَيْنَ ٱلِاسْتِعَارَةِ اَنَّ ٱلتَّشْبِيهَ ٱلْمُضْمَرَ ٱلْاَدَاةِ يَحْسُنُ إِظْهَارُ اَدَاةِ ٱلتَّشْبِيهِ فِيهِ وَٱلِاسْتِعَارَةُ لَا يَحْسُنُ ذٰلِكَ فِيهَا . وَٱلِاسْتِعَارَةُ اَخَصُّ مِنَ ٱلْمَجَازِ إِذْ قَصْدُ ٱلْمُبَالَغَةِ شَرْطٌ فِي ٱلِاسْتِعَارَةِ دُونَ ٱلْمَجَازِ . وَاَيْضًا فَكُلُّ اسْتِعَارَةٍ مِنَ ٱلْبَدِيعِ وَلَيْسَ كُلُّ مَجَازٍ مِنْهُ وَٱلْحَقُّ اَنَّ ٱلْمَعْنَى يُعَارُ اَوَّلًا ثُمَّ بِوَاسِطَتِهِ يُعَارُ ٱللَّفْظُ . وَلَا تَحْسُنُ ٱلِاسْتِعَارَةُ إِلَّا حَيْثُ كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ مُقَرَّرًا بَيْنَهُمَا ظَاهِرٌ اَوَّلًا فَلَا بُدَّ مِنَ ٱلتَّصْرِيحِ بِٱلتَّشْبِيهِ . فَلَوْ قُلْتَ : رَاَيْتُ نَخْلَةً اَوْ خَامَةً . وَاَنْتَ تُرِيدُ مُؤْمِنًا إِشَارَةً إِلَى قَوْلِهِ : مَثَلُ ٱلْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ ٱلنَّخْلَةِ اَوْ مَثَلِ ٱلْخَامَةِ . لَكُنْتَ كَٱلْمُلْغِزِ ٱلتَّارِكِ لِمَا يُفْهَمُ وَكُلَّمَا زَادَ ٱلتَّشْبِيهُ خَفَاءً زَادَتِ ٱلِاسْتِعَارَةُ حُسْنًا بِحَيْثُ يَكُونُ اَلْطَفَ مِنَ ٱلتَّصْرِيحِ بِٱلتَّشْبِيهِ. وَرُبَّمَا جُمِعَ بَيْنَ عِدَّةِ ٱسْتِعَارَاتٍ إِلْحَاقًا لِلشَّكْلِ بِٱلشَّكْلِ لِإِتْمَامِ ٱلتَّشْبِيهِ فَتَزِيدُ ٱلِاسْتِعَارَةُ بِهِ حُسْنًا كَقَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي صِفَةِ ٱللَّيْلِ :

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ   وَاَرْدَفَ اَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

وَٱعْلَمْ اَنَّهُ لَا بُدَّ اَيْضًا مِنْ مَعْنًى يَشْتَرِكُ بَيْنَ ٱلْمُسْتَعَارِ وَٱلْمُسْتَعَارِ مِنْهُ . فَٱلْمَعْنَى ٱلْمُشْتَرَكُ بَيْنَ قَيْدِ ٱلْاَوَابِدِ مَثَلًا وَمَانِعِ ٱلْاَوَابِدِ هُوَ ٱلْحَبْسُ وَعَدَمُ ٱلِافْلَاتِ . وَبَيْنَ مِيزَانِ ٱلْقِيَاسِ وَتَعْدِيلِ حُصُولِ ٱلِاسْتِقَامَةِ هُوَ ٱرْتِفَاعُ ٱلْحَيْفِ وَٱلْمَيْلِ إِلَى اَحَدِ ٱلْجَانِبَيْنِ . وَهٰكَذَا جَمِيعُ ٱلِاسْتِعَارَاتِ وَٱلْمَجَازَاتِ

البحث الخامس

فيما تدخلهُ الاستعارة وما لا تدخلهُ

(عن صناعة الترسل ايضاً)

اَلْأَعلَامُ لَا يَدخُلُهَا ٱلِاستِعَارَةُ لِمَا تَقَدَّمَ فِي ٱلمَجَازِ . وَأَمَّا ٱلفِعلُ فَٱلِاستِعَارَةُ تَقَعُ أَوَّلًا فِي ٱلمَصدَرِ ثُمَّ تَقَعُ بِوَاسِطَةِ ذٰلِكَ فِي ٱلفِعلِ . فَإِذَا قُلتَ : نَطَقَتِ ٱلحَالُ بِكَذَا . فَهٰذَا إِنَّمَا يَصِحُّ لِأَنَّكَ وَجَدتَ ٱلحَالَ مُشَابِهَةً لِلنُّطقِ فِي ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلشَّيْءِ فَلَا جَرَمَ ٱستَعَرتَ ٱلنُّطقَ لِتِلكَ ٱلحَالَةِ ثُمَّ نَقَلتَهُ إِلَى ٱلفِعلِ . وَٱلأَسمَاءُ ٱلمُشتَقَّةُ فِي ذٰلِكَ كَٱلفِعلِ . فَظَهَرَ أَنَّ ٱلِاستِعَارَةَ إِنَّمَا تَقَعُ وُقُوعًا أَوَّلِيًّا فِي أَسمَاءِ ٱلأَجنَاسِ . ثُمَّ ٱلفِعلُ إِذَا كَانَ مُستَعَارًا فَٱستِعَارَتُهُ إِمَّا مِن جِهَةِ فَاعِلِهِ كَقَولِهِ : نَطَقَتِ ٱلحَالُ بِكَذَا أَو لَعِبَت بِهِ ٱلهُمُومُ . وَكَقَولِ جَرِيرٍ :

يَخشَى ٱلرَّوَامِسَ رَبعُهَا فَتُجِدُّهُ   بَعدَ ٱلبِلَى وَتُمِيتُهُ ٱلأَمطَارُ

أَو مِن جِهَةِ مَفعُولِهِ كَقَولِ ٱبنِ ٱلمُعتَزِّ :

جُمِعَ ٱلحَقُّ لَنَا فِي إِمَامٍ   قَتَلَ ٱلجُودَ وَأَحيَا ٱلسَّمَاحَا

أَو مِن جِهَةِ ٱلفَاعِلِ وَٱلمَفعُولِ كَقَولِهِ : يَكَادُ ٱلبَرقُ يَخطَفُ أَبصَارَهُم . وَيَتَّصِلُ بِهٰذَا تَرشِيحُ ٱلِاستِعَارَةِ وَتَجرِيدُهَا . أَمَّا تَرشِيحُهَا فَهُوَ أَن تَنظُرَ فِيهَا إِلَى ٱلمُستَعَارِ وَتُرَاعِيَ جَانِبَهُ وَتُولِيَهُ مَا تَستَدعِيهِ وَتَضُمَّ إِلَيهِ مَا تَقتَضِيهِ كَقَولِ ٱلنَّابِغَةِ :

وَصَدرٍ أَرَاحَ ٱللَّيلُ عَازِبَ هَمِّهِ   تَضَاعَفَ فِيهِ ٱلحُزنُ مِن كُلِّ جَانِبِ

المُسْتَعَارُ فِيهِ وَهُوَ الإِزَاحَةُ مَنظُورٌ إِلَيهِ فِي لَفظِ العَازِبِ . وَأَمَّا تَجْرِيدُهَا فَهُوَ أَنْ يَكُونَ المُسْتَعَارُ لَهُ مَنْظُورًا إِلَيْهِ كَقَوْلِهِ : فَأَذَاقَهَا اللّٰهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالخَوْفِ . فَإِنَّ الإِذَاقَةَ وَقَعَتْ عِبَارَةً عَمَّا يُدْرَكُ مِنْ أَثَرِ الضَّرَرِ وَالأَلَمِ تَشْبِيهًا لَهُ بِمَا يُدْرَكُ مِنْ طَعْمِ المُرِّ. الشَّبَعُ وَاللِّبَاسُ عِبَارَةٌ عَمَّا يَغْشَى مِنْهُمَا وَيُلَابِسُ فَكَأَنَّهُ قَالَ : فَأَذَاقَهَا مَا غَشِيَهَا مِنْ أَلَمِ الجُوعِ وَالخَوْفِ . وَكَقَوْلِ زُهَيْرٍ :

لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السِّلَاحِ مُقَذَّفٍ   لَهُ لِبَدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلَّمِ

فَلَوْ نَظَرَ إِلَى المُسْتَعَارِ لَقَالَ : لَدَى أَسَدٍ دَامِي أَوْ دَامِي البَرَاثِنِ مَثَلًا. وَنَظَرَ زُهَيْرٌ فِي آخِرِ البَيْتِ إِلَى المُسْتَعَارِ . وَمِنْهُ قَوْلُ كُثَيِّرٍ :

غَمْرُ الرِّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكًا   غَلِقَتْ لِضَحْكَتِهِ رِقَابُ المَالِ

اِسْتَعَارَ الرِّدَاءَ لِلْمَعْرُوفِ لِأَنَّهُ يَصُونُ عِرْضَ صَاحِبِهِ صَوْنَ الرِّدَاءِ لِمَا يُلْقَى عَلَيْهِ . وَوَصَفَهُ بِالغَمْرِ الَّذِي هُوَ وَصْفُ المَعْرُوفِ وَالنَّوَالِ لَا وَصْفُ الرِّدَاءِ

وَيَقْرُبُ مِنْ ذٰلِكَ الِاسْتِعَارَةُ بِالكِنَايَةِ وَهُوَ أَنْ لَا يُصَرِّحَ بِذِكْرِ المُسْتَعَارِ بَلْ يَذْكُرُ بَعْضَ لَوَازِمِهِ تَنْبِيهًا بِهِ كَقَوْلِهِ : شُجَاعٌ يَفْتَرِسُ أَقْرَانَهُ وَعَالِمٌ يَغْتَرِفُ مِنْهُ النَّاسُ . وَكَقَوْلِ أَبِي ذُؤَيْبٍ :

وَإِذَا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا   أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ الشُّجَاعَ أَسَدٌ وَالعَالِمَ بَحْرٌ وَالمَنِيَّةَ سَبُعٌ . وَهٰذَا وَإِنْ كَانَ يُشْبِهُ الِاسْتِعَارَةَ المُجَرَّدَةَ إِلَّا أَنَّهُ أَغْرَبُ وَأَعْجَبُ. وَيَقْرُبُ مِنْهُ قَوْلُ زُهَيْرٍ :

وَمَنْ يَعْصِ أَطْرَافَ الزِّمَاجِ فَإِنَّهُ ... يُطِيعُ ٱلْعَوَالِي رُكِّبَتْ كُلَّ لَهْذَمِ

أَرَادَ أَنْ يَقُولَ: مَنْ لَمْ يَرْضَ بِأَحْكَامِ ٱلصُّلْحِ رَضِيَ بِأَحْكَامِ ٱلْحَرْبِ أَيْ أَشْرَعُوا ٱلْأَسِنَّةَ وَأَخَّرُوا ٱلزِّمَاجَ. وَقَدْ يُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلْمُمَاثَلَةَ أَيْضًا. وَقَدْ يُنَزِّلُونَ ٱلِٱسْتِعَارَةَ مَنْزِلَةَ ٱلْحَقِيقَةِ وَذٰلِكَ أَنَّهُمْ يَسْتَعِيرُونَ ٱلْوَصْفَ ٱلْمَحْسُوسَ لِلشَّيْءِ ٱلْمَعْقُولِ. وَيَجْعَلُونَ كَأَنَّ تِلْكَ ٱلصِّفَةَ ثَابِتَةٌ لِذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَأَنَّ ٱلِٱسْتِعَارَةَ لَمْ تُوجَدْ أَصْلًا. مِثَالُهُ ٱسْتِعَارَتُهُمُ ٱلْعُلُوَّ لِزِيَادَةِ ٱلرَّجُلِ عَلَى غَيْرِهِ فِي ٱلْفَضْلِ وَٱلْقَدْرِ وَٱلسُّلْطَانِ ثُمَّ وَضْعُهُمُ ٱلْكَلَامَ وَضْعَ مَنْ يَذْكُرُ عُلُوًّا مَكَانِيًّا. كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ:

وَيَصْعَدُ حَتَّى يَظُنَّ ٱلْحَسُودُ ... بِأَنَّ لَهُ حَاجَةً فِي ٱلسَّمَاءِ

وَكَقَوْلِهِ أَيْضًا:

مَكَارِمُ لَجَّتْ فِي عُلُوٍّ كَأَنَّمَا ... تُحَاوِلُ ثَأْرًا عِنْدَ بَعْضِ ٱلْكَوَاكِبِ

البحث السادس

في اقسام الاستعارة

(عن صناعة الترسل ايضاً)

(راجع صفحة ٣٢ من علم الادب)

هِيَ عَلَى نَوْعَيْنِ: (ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يُعْتَمَدَ نَفْسُ ٱلتَّشْبِيهِ وَهُوَ أَنْ يَشْتَرِكَ شَيْئَانِ فِي وَصْفٍ وَأَحَدُهُمَا أَنْقَصُ مِنَ ٱلْآخَرِ. فَيُعْطَى ٱلنَّاقِصُ

اَسْمَ اَلزَّائِدِ مُبالَغَةً فِي تَحْقِيقِ ذٰلِكَ اَلْوَصْفِ لَهُ كَقَوْلِكَ: رَاَيْتُ اَسَدًا. وَاَنتَ تَعْنِي رَجُلًا شُجاعًا. (وَالثَّانِي) تُعْتَمَدُ لَوَازِمُهُ عِنْدَمَا يَكُونُ جِهَةُ اَلِاشْتِرَاكِ وَصْفًا وَاِنَّمَا ثَبَتَ كَمَالُهُ فِي اَلْمُسْتَعَارِ فِي وَاسِطَةِ شَيْءٍ آخَرَ فَتُثْبِتُ ذٰلِكَ اَلشَّيْءَ لِلْمُسْتَعَارِ لَهُ مُبالَغَةً فِي اِثْبَاتِ اَلْمُشْتَرَكِ. كَقَوْلِ تَأَبَّطَ شَرًّا:

اِذَا هَزَّهُ فِي عَظْمِ قِرْنٍ تَهَلَّلَتْ ... نَوَاجِذُ اَفْوَاهِ اَلْمَنَايَا اَلضَّوَاحِكُ

لَمَّا شَبَّهَ اَلْمَنَايَا عِنْدَ هَزَّةِ اَلسَّيْفِ بِالسُّرُورِ وَكَمَالُ اَلْفَرَحِ وَالسُّرُورِ اِنَّمَا يَظْهَرُ بِالضَّحِكِ اَلَّذِي يَتَهَلَّلُ بِهِ اَلنَّوَاجِذُ اَثْبَتَهُ تَحْقِيقًا لِلْوَصْفِ اَلْمَقْصُودِ وَاِلَّا فَلَيْسَ لِلْمَنَايَا مَا يُنْقَلُ اِلَيْهِ اَسْمُ اَلنَّوَاجِذِ. وَهٰكَذَا اَلْكَلَامُ فِي قَوْلِ اَلْحَمَاسِيِّ:

سَقَاهُ اَلرَّدَى سَيْفٌ اِذَا سُلَّ اَوْمَضَتْ ... اِلَيْهِ ثَنَايَا اَلْمَوْتِ مِنْ كُلِّ مَرْقَبِ

وَمِنْ هٰذَا اَلْبَابِ قَوْلُهُمْ: فُلَانٌ مُرْخَى اَلْعِنَانِ وَمُلْقَى اَلزِّمَامِ. وَاَلْفَرْقُ بَيْنَ اَلْقِسْمَيْنِ اَنَّكَ اِنْ رَجَعْتَ فِي اَلْاَوَّلِ اِلَى اَلتَّشْبِيهِ اَلَّذِي هُوَ اَلْمَقْصَدُ مِنْ كُلِّ اَسْتِعَارَةٍ مُقَيَّدَةٍ وَجَدْتَهُ يَأْتِيكَ عَفْوًا كَقَوْلِكَ: رَاَيْتُ رَجُلًا كَالْاَسَدِ اَوْ مِثْلَهُ اَوْ شِبْهَهُ. وَاِنْ رُمْتَهُ فِي اَلثَّانِي لَا يُؤَاتِيكَ تِلْكَ اَلْمُؤَاتَاةَ اِذْ لَا وَجْهَ اَنْ تَقُولَ: شَيْءٌ مِثْلُ اَلْيَدِ لِلشِّمَالِ. وَاِنَّمَا تَهَيَّأَ لَكَ اَلتَّشْبِيهُ بَعْدَ اَنْ تَخْرِقَ اِلَيْهِ سِتْرًا اَوْ تَعْمَلَ تَأَمُّلًا وَفِكْرًا. وَفِي اِغْفَالِ هٰذَا اَلْاَصْلِ وُقُوعٌ فِي اَلتَّشْبِيهِ. وَذٰلِكَ اَنَّ مَنْ وَضَعَ فِي نَفْسِهِ اَنَّ كُلَّ اَسْمٍ يُسْتَعَارُ فَلَا بُدَّ اَنْ يَكُونَ هُنَاكَ شَيْءٌ يُمْكِنُ اَلْاِشَارَةُ اِلَيْهِ تَتَنَاوَلُهُ فِي حَالَةِ اَلْمَجَازِ كَمَا تَتَنَاوَلُ مُسَمَّاهُ فِي حَالَةِ

ٱلْحَقِيقَةِ. ثُمَّ نَظَرَ إِلَى قَوْلِهِ : وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي. وَقَوْلِهِ: تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا. ٱرْتَبَكَ فِي ٱلشَّكِّ وَحَامَ حَوْلَ ٱلظَّاهِرِ وَوَقَعَ فِي ٱلتَّشْبِيهِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلضَّلَالُ ٱلْبَعِيدُ. فَفِي مَعْرِفَةِ هٰذَا إِخْلَاصٌ مِنْ ذٰلِكَ ٱلتَّشْبِيهِ وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱسْتِعَارَةً تَخْيِيلِيَّةً وَهُوَ كَإِثْبَاتِ ٱلْجَنَاحِ لِلذُّلِّ فِي قَوْلِهِ : وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ . إِذَا عُرِفَ هٰذَا فَٱلنَّوْعُ ٱلْأَوَّلُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ : (ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يُسْتَعَارَ ٱلْمَحْسُوسُ لِلْمَحْسُوسِ . وَذٰلِكَ إِمَّا أَنْ يَشْتَرِكَا فِي ٱلذَّاتِ وَيَخْتَلِفَا فِي ٱلصِّفَاتِ كَٱسْتِعَارَةِ ٱلطَّيَرَانِ لِغَيْرِ ذِي جَنَاحٍ فِي ٱلسُّرْعَةِ. فَإِنَّ ٱلطَّيَرَانَ وَٱلْعَدْوَ يَشْتَرِكَانِ فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَهِيَ ٱلْحَرَكَةُ ٱلْمَكَانِيَّةُ إِلَّا أَنَّ ٱلطَّيَرَانَ أَسْرَعُ . أَوْ بِأَنْ يَخْتَلِفَا فِي ٱلذَّاتِ وَيَشْتَرِكَا فِي صِفَةٍ إِمَّا مَحْسُوسَةٍ كَقَوْلِهِمْ: رَأَيْتُ شَمْسًا. وَيُرِيدُونَ إِنْسَانًا يَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ . وَكَقَوْلِهِ : وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا . فَٱلْمُسْتَعَارُ مِنْهُ ٱلنَّارُ. وَٱلْمُسْتَعَارُ لَهُ ٱلشَّيْبُ. وَٱلْجَامِعُ ٱلِٱنْبِسَاطُ وَلٰكِنَّهُ فِي ٱلنَّارِ أَقْوَى . وَإِمَّا غَيْرِ مَحْسُوسَةٍ كَقَوْلِهِ : إِذَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ . ٱلْمُسْتَعَارُ لَهُ ٱلرِّيحُ وَٱلْمُسْتَعَارُ مِنْهُ ٱلْمَرْءُ وَٱلْجَامِعُ ٱلْمَنْعُ مِنْ ظُهُورِ ٱلنَّتِيجَةِ . (ٱلثَّانِي) أَنْ يُسْتَعَارَ شَيْءٌ مَعْقُولٌ لِشَيْءٍ مَعْقُولٍ لِٱشْتِرَاكِهِمَا فِي وَصْفٍ عَدَمِيٍّ أَوْ ثُبُوتِيٍّ وَأَحَدُهُمَا أَكْمَلُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْوَصْفِ فَيُنَزَّلُ ٱلنَّاقِصُ مَنْزِلَةَ ٱلْكَامِلِ كَٱسْتِعَارَةِ ٱسْمِ ٱلْعَدَمِ لِلْوُجُودِ إِذَا ٱشْتَرَكَا فِي عَدَمِ ٱلْفَائِدَةِ أَوِ ٱسْتِعَارَةِ ٱسْمِ ٱلْوُجُودِ لِلْعَدَمِ إِذَا بَقِيَتْ آثَارُهُ ٱلْمَطْلُوبَةُ مِنْهُ كَتَشْبِيهِ ٱلْجَهْلِ بِٱلْمَوْتِ لِٱشْتِرَاكِ ٱلْمَوْصُوفِ بِهِمَا فِي عَدَمِ ٱلْإِدْرَاكِ وَٱلْعَقْلِ . وَكَقَوْلِهِمْ : فُلَانٌ لَقِيَ ٱلْمَوْتَ إِذَا لَقِيَ

ٱلشَّدَائِدَ لِاشْتِرَاكِهِمَا فِي ٱلْمَكْرُوهِيَّةِ . وَقَوْلِهِ : وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى ٱلْغَضَبُ . وَٱلسُّكُوتُ وَٱلزَّوَالُ أَمْرَانِ مَعْقُولَانِ . (ٱلثَّالِثُ) أَنْ يُسْتَعَارَ ٱلْمَحْسُوسُ لِلْمَعْقُولِ كَٱسْتِعَارَةِ ٱلنُّورِ ٱلَّذِي هُوَ مَحْسُوسٌ وَٱسْتِعَارَةِ ٱلْقِسْطَاسِ لِلْعَدْلِ . وَكَقَوْلِهِ : بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ . فَٱلْقَذْفُ وَٱلدَّمْغُ مُسْتَعَارَانِ . وَقَوْلِهِ : فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ . وَقَوْلِهِ : أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . ٱلْوَادِي وَٱلْهَيَمَانُ مُسْتَعَارَانِ . (ٱلرَّابِعُ) أَنْ يُسْتَعَارَ ٱسْمُ ٱلْمَعْقُولِ لِلْمَحْسُوسِ عَلَى ٱلتَّأْوِيلِ ٱلْمَذْكُورِ فِي ٱلتَّشْبِيهِ كَقَوْلِهِ : إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ . فَٱلشَّهِيقُ وَٱلْغَيْظُ مُسْتَعَارَانِ . وَقَوْلِهِ : حَتَّى تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا

البحث السابع

في جيد الاستعارة ورديئها ومتوسطها

(عن كتاب الصناعتين وصناعة الترسل)

قَالَ مُحَمَّدٌ أَبُو عَبْدِ ٱللهِ بْنِ سِنَانٍ ٱلْخَفَاجِيُّ : وَقَدِ ٱخْتَارَ أَبُو ٱلْقَاسِمِ ٱبْنُ بِشْرٍ ٱلْآمِدِيُّ مِنْ جُمْلَةِ ٱلِاسْتِعَارَةِ قَوْلَ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ   وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

وَقَالَ : إِنَّ هٰذِهِ ٱلِاسْتِعَارَةَ فِي غَايَةِ ٱلْحُسْنِ . لِأَنَّهُ إِنَّمَا قَصَدَ وَصْفَ أَحْوَالِ ٱللَّيْلِ فَذَكَرَ ٱمْتِدَادَ وَسْطِهِ وَتَثَاقُلَ صَدْرِهِ لِلذَّهَابِ وَٱلِانْبِعَاثِ وَتَرَادُفَ أَعْجَازِهِ وَأَوَاخِرِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا . وَقَالَ ٱلْخَفَاجِيُّ :

وَهٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرَهُ أَبُو ٱلْقَاسِمِ لَا أَرْضَى بِهِ غَايَةَ ٱلرِّضَى وَلَوْ كُنْتُ أَسْكُنُ إِلَى تَقْلِيدِ أَحَدٍ مِنْ عُلَمَاءِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ لَقَلَّدْتُهُ لِحُسْنِ نَظَرِهِ وَصِحَّةِ فِكْرِهِ وَهُوَ عِنْدِي مِنَ ٱلْوَسَطِ لَيْسَ مِنْ جَيِّدِ ٱلِاسْتِعَارَةِ وَلَا مِنْ رَدِيئِهَا . وَإِنَّمَا قُلْتُ ذٰلِكَ لِأَنَّ أَبَا ٱلْقَاسِمِ قَدْ أَفْصَحَ بِأَنَّ ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ لَمَّا جَعَلَ لِلَّيْلِ وَسَطًا وَعَجُزًا ٱسْتَعَارَ لَهُ ٱسْمَ ٱلصُّلْبِ وَجَعَلَهُ مُتَمَطِّيًا مِنْ أَجْلِ ٱمْتِدَادِهِ وَجَعَلَ ٱلْكَلْكَلَ مِنْ أَجْلِ نُهُوضِهِ وَكُلُّ هٰذَا إِنَّمَا يَحْسُنُ بَعْضُهُ لِأَجْلِ بَعْضٍ . فَذِكْرُ ٱلصُّلْبِ إِنَّمَا حَسُنَ لِأَجْلِ ٱلْعَجُزِ . وَٱلتَّمَطِّي لِأَجْلِ ٱلصُّلْبِ . وَٱلْكَلْكَلُ لِمَجْمُوعِ ذٰلِكَ . وَهٰذِهِ ٱلِاسْتِعَارَةُ ٱلْمَبْنِيَّةُ عَلَى غَيْرِهَا فَلِذٰلِكَ لَمْ أَرَ أَنْ تُجْعَلَ مِنْ أَبْلَغِ ٱلِاسْتِعَارَاتِ وَكَانَتِ ٱسْتِعَارَةُ طُفَيْلٍ ٱلْغَنَوِيِّ فِي قَوْلِهِ :

وَجَعَلْتُ رَحْلِي فَوْقَ نَاجِيهِ ... يَقْتَاتُ شَحْمَ سَنَامِهَا ٱلرَّحْلُ

أَوْفَقَ وَأَوْضَحَ . لِأَنَّهَا غَنِيَّةٌ بِنَفْسِهَا غَيْرُ مُفْتَقِرَةٍ إِلَى مُقَدَّمَةٍ حِلْيَتِهَا .

(وَقَالَ) وَقَدْ كُنْتُ مَثَّلْتُ فِي بَعْضِ مَوَاضِعِ ٱلِاسْتِعَارَةِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَٱلْمَذْمُومَةِ بِبَيْتَيْنِ أَحَدُهُمَا قَوْلُ ٱبْنِ نُبَاتَةَ :

حَتَّى إِذَا بَهَرُوا ٱلْأَبَاطِحَ وَٱلثَّرَى ... نَظَرُوا إِلَيْكَ بِأَعْيُنِ ٱلنُّوَّارِ

فَنَظَرُ أَعْيُنِ ٱلنُّوَّارِ مِنْ أَشْبَهِ ٱلِاسْتِعَارَاتِ وَأَلْيَقِهَا . لِأَنَّ ٱلنُّوَّارَ يُشْبِهُ ٱلْعُيُونَ إِذَا كَانَ مُقَابِلًا لِمَنْ يَمُرُّ بِهِ كَأَنَّهُ مُنَاظِرٌ إِلَيْهِ . وَٱلْبَيْتُ ٱلثَّانِي بَيْتُ أَبِي تَمَّامٍ :

قَرَّتْ بِقُرَّانَ عَيْنُ ٱلدِّينِ وَٱنْشَتَرَتْ ... بِٱلْأَشْتَرَيْنِ عُيُونُ ٱلشِّرْكِ فَٱصْطُلِمَا

وَقُرَّةُ عَيْنِ ٱلدِّينِ وَٱنْشِتَارُ عُيُونِ ٱلشِّرْكِ مِنْ أَقْبَحِ ٱلِاسْتِعَارَاتِ

لِعَدَمِ الشَّبَهِ الَّذِي لأَجْلِهِ جُعِلَ لِلشِّرْكِ عُيُونًا. وَمَنْ تَأَمَّلَ هٰذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ لَا يَفْهَمُ مَعْنَى الاِسْتِعَارَةِ لِأَنَّ النُّوَّارَ وَالشِّرْكَ لَا عُيُونَ لَهُمَا عَلَى الْحَقِيقَةِ. وَقَدْ قَبُحَتْ اسْتِعَارَةُ الْعُيُونِ لِأَحَدِهِمَا وَحَسُنَتْ لِلْآخَرِ. وَالْعِلَّةُ فِيهِ أَنَّ النُّوَّارَ يُشْبِهُ الْعُيُونَ. وَالدِّينَ وَالشِّرْكُ لَيْسَ فِيهِمَا مَا يُشْبِهُهَا وَلَا يُقَارِبُهَا.

وَمِنْ أَحْسَنِ الاِسْتِعَارَاتِ كَقَوْلِ الشَّرِيفِ الرَّضِيِّ:

رَسَا النَّسِيمُ بِوَادِيكُمْ وَلَا بَرِحَتْ حَوَامِلُ الْمُزْنِ فِي أَجْدَاثِكُمْ تَضَعُ
وَلَا يَزَالُ جَنِينُ النَّبْتِ يُرْضِعُهُ عَلَى قُبُورِكُمُ الْعَرَّاصَةُ الْهَمَعُ

لِأَنَّ الْمُزْنَ تَحْمِلُ الْمَاءَ وَإِذَا حَمَلَتْ تَضَعُهُ فَاسْتِعَارَةُ الْحَمْلِ لَهَا وَالْوَضْعِ الْمَعْرُوفَيْنِ مِنْ أَقْرَبِ شَيْءٍ وَأَشْبَهِهِ. وَكَذٰلِكَ جَنِينُ النَّبْتِ لِأَنَّ الْجَنِينَ الْمَسْتُورَ مَأْخُوذٌ مِنَ الْجُنَّةِ. وَإِذَا كَانَ النَّبْتُ مَسْتُورًا وَالْغَيْثُ يَسْقِيهِ كَانَ ذٰلِكَ بِمَنْزِلَةِ الرَّضَاعِ

وَأَمْثَالُ الْمَحَاسِنِ فِي ذٰلِكَ وَالْمَسَاوِئِ كَثِيرَةٌ وَقَدْ أَخَذَ الْقَوْلُ فِي هٰذَا الْبَابِ حَقَّهُ. مَعَ أَنَّ أَقْوَالَ الْعُلَمَاءِ بِهٰذَا الْفَنِّ فِيهِ أَكْثَرُ مِنْ ذٰلِكَ



البحث الثامن

في ما جاء من الاستعارات في كلام العرب

(عن كتاب الصناعتين للعسكري وسر العربيَّة للثعالبي)

وَأَمَّا مَا جَاءَ فِي قَوْلِ ٱلْعَرَبِ مِنَ ٱلِاسْتِعَارَاتِ فَكَثِيرٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ : هٰذَا رَأْسُ ٱلْأَمْرِ وَوَجْهُهُ وَرَأْسُ ٱلْمَالِ . وَهٰذَا ٱلْأَمْرُ فِي جَنْبِ غَيْرِهِ يَسِيرٌ . وَيَقُولُونَ : هٰذَا جَنَاحُ ٱلْحَرْبِ وَقَلْبُهَا وَجَنَاحُ ٱلطَّرِيقِ . وَهٰؤُلَاءِ رُؤُوسُ ٱلْقَوْمِ وَجَمَاجِمُهُمْ وَعُيُونُهُمْ . وَفُلَانٌ ظَهْرُ فُلَانٍ وَلِسَانُ قَوْمِهِ وَنَابُهُمْ وَعَضُدُهُمْ . وَهٰذَا كَلَامٌ لَهُ ظَهْرٌ وَبَطْنٌ . وَفِي ٱلْعَرَبِ : ٱلْجَمَاجِمُ . وَٱلْقَبَائِلُ . وَٱلْأَفْخَاذُ . وَٱلْبُطُونُ . وَخَرَجَ عَلَيْنَا عُنُقٌ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَهُ عِنْدِي يَدٌ بَيْضَاءُ . وَهٰذِهِ عَيْنُ ٱلْمَاءِ . وَحَاجِبُ ٱلشَّمْسِ . وَلِسَانُ ٱلنَّارِ . وَهٰذَا أَنْفُ ٱلْجَبَلِ . وَبَطْنُ ٱلْوَادِي . وَكَبِدُ ٱلسَّمَاءِ . وَسَاقُ ٱلشَّجَرَةِ . وَيَقُولُونَ فِي ٱلتَّفَرُّقِ : ٱنْشَقَّتْ عَصَاهُمْ . وَشَالَتْ نَعَامَتُهُمْ . وَمَرُّوا بَيْنَ سَمْعِ ٱلْأَرْضِ وَبَصَرِهَا . وَكَقَوْلِهِمْ فِي ٱشْتِدَادِ ٱلْأَمْرِ : كَشَفَتِ ٱلْحَرْبُ عَنْ سَاقِهَا . أَبْدَى ٱلشَّرُّ نَاجِذَيْهِ . حَمِيَ ٱلْوَطِيسُ . دَارَتْ رَحَى ٱلْحَرْبِ . وَكَقَوْلِهِمْ فِي ذِكْرِ ٱلْآثَارِ ٱلْعُلْوِيَّةِ : أَفْتَرَّ ٱلصُّبْحُ عَنْ نَوَاجِذِهِ . ضَرَبَ بِعَمُودِهِ . سُلَّ سَيْفُ ٱلصُّبْحِ مِنْ غِمْدِ ٱلظَّلَامِ . نَعَرَ ٱلصُّبْحُ فِي قَفَا ٱللَّيْلِ . بَاحَ ٱلصَّبَاحُ بِسِرِّهِ . وَهَى نِطَاقُ ٱلْجَوْزَاءِ . ٱنْحَطَّ قِنْدِيلُ ٱلثُّرَيَّا . ذَرَّ قَرْنُ ٱلشَّمْسِ . ٱرْتَفَعَ ٱلنَّهَارُ . تَرَجَّلَتِ ٱلشَّمْسُ بِجَمَرَاتِ ٱلظَّهِيرَةِ . بَقَّلَ وَجْهُ ٱلنَّهَارِ . خَفَقَتْ رَايَاتُ ٱلظَّلَامِ .

نوّرت حدائق الجوّ . شاب رأس الليل . لبست الشمس جلبابها . قام خطيب الرعد . خفق قلب البرق . انحلّ عقد السماء . وهي عقد الانداء . انقطع شريان الغمام . تنفّس الربيع . تعطّر النسيم . تبرّجت الارض . قوي سلطان الحرّ . آنَ ان يجيش مرجله . ويثور قسطله . انحسر قناع الصيف . جاشت جيوش الخريف . حلّت الشمس الميزان . وعدل الزمان . دبّت عقارب البرد . اقدم الشتاء كلكله . شابت مفارق الجبال . يوم عبوس قمطرير . كشّر عن ناب الزمهرير . وكقولهم في محاسن الكلام : الادب غذاء الروح . الشباب باكورة الحياة . النار فاكهة الشتاء . العيال سوس المال . النبيذ كيمياء الفرح . الوحدة قبر الحيّ . الصبر مفتاح الفرج . الدَّين داء الكرام . النمّام جسر الشرّ . الإرجاف زند الفتنة . الشكر نسيم النعيم . الربيع شباب الزمان . الولد ريحانة الروح . الشمس قطيفة المساكين . الطيب لسان المروّة . ويسمّون النبات نوًا . قال : وجفّ انواء السحاب . اي جفّ البقل . ويقولون للمطر سماء . قال الشاعر :

إذا سقط السماء بارض قوم ... رعيناها وإن كانوا غضابا

ويقولون : ضحكت الارض إذا انبتت لانها تبدي عن حسن النبات كما يفترّ الضاحك عن الثغر . ويقال : ضحكت الظلمة . والنور يضاحك الشمس . قال الاعشى :

يضاحك الشمس منه كوكب شرق ... مؤزّر بعميم النبت مكتهل

وَيَقُولُونَ : ضَحِكَ ٱلسَّحَابُ بِٱلْبَرْقِ وَحَنَّ بِٱلرَّعْدِ وَبَكَى بِٱلْقَطْرِ. وَيَقُولُونَ: لَقِيتُ مِنْ فُلَانٍ عَرَقَ ٱلْقِرْبَةِ اَيْ شِدَّةً وَمَشَقَّةً. (وَاَصْلُ هٰذَا اَنَّ حَامِلَ ٱلْقِرْبَةِ يَتْعَبُ مِنْ ثِقْلِهَا حَتَّى يَعْرَقَ). وَيَقُولُونَ اَيْضًا : لَقِيتُ مِنْهُ عَرَقَ ٱلْجَبِينِ. وَٱلْعَرَبُ تَقُولُ: بِاَرْضِ فُلَانٍ شَجَرٌ قَدْ صَاحَ. وَذٰلِكَ اِذَا طَالَ فَتَبَيَّنَ لِلنَّاظِرِ بِطُولِهِ وَدَلَّ عَلَى نَفْسِهِ لِاَنَّ ٱلصَّائِحَ يَدُلُّ عَلَى نَفْسِهِ بِصَوْتِهِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلْعَجَّاجِ :

كَٱلْكَرْمِ اِذْ نَادَى مِنَ ٱلْكَافُورِ

وَمِمَّا جَاءَ اَيْضًا فِي هٰذَا ٱلْبَابِ فِي ٱلْقُرْآنِ وَكَلَامِ ٱلصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ مَا نَصُّهُ : ٱلْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِٱلْمَنْطِقِ. وَقَوْلُهُ : اُذْكُرُوا هَادِمَ ٱللَّذَّاتِ. وَقَوْلُهُ : اِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ. وَقَوْلُهُ : اَذَاقَهَا ٱللهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ. وَقَوْلُهُ: اَشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا. وَقَوْلُهُ: وَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ ٱلْعَذَابِ. وَقَوْلُهُ: لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى ٱلْغَضَبُ. وَقَالَ عَلِيٌّ : ٱلسَّفَرُ مِيزَانُ ٱلْقَوْمِ. وَقَالَ : وَاَمَا وَقَدِ ٱتَّسَعَ نِطَاقُ ٱلْاِسْلَامِ. وَلَهُ قَوْلُهُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: اَرْغِبْ رَاغِبَهُمْ وَٱحْلُلْ عُقْدَةَ ٱلْخَوْفِ عَنْهُمْ. وَقَوْلُهُ : ٱلْعِلْمُ قُفْلٌ مِفْتَاحُهُ ٱلْمَسْئَلَةُ. وَقَوْلُهُ : ٱلْحِلْمُ وَٱلْاَنَاةُ تَوْاَمَانِ يُنْتِجُهُمَا عُلُوُّ ٱلْهِمَّةِ. وَقَالَ فِي بَعْضِ خُطَبِهِ يَصِفُ ٱلدُّنْيَا : اِنَّ ٱمْرَءًا لَمْ يَكُنْ مِنْهَا فِي فَرْحَةٍ اِلَّا اَعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا تَرْحَةً وَلَمْ يَلْقَ مِنْ سَرَّائِهَا بَطْنًا اِلَّا مَنَحَتْهُ مِنْ ضَرَّائِهَا ظَهْرًا. وَلَمْ تُطِلَّهُ فِيهَا غَابَةُ رَخَاءٍ اِلَّا هَبَّتْ عَلَيْهِ مُزْنَةُ بَلَاءٍ. وَلَمْ يُمْسِ مِنْهَا فِي جَنَاحِ آمِنٍ اِلَّا اَصْبَحَ مِنْهَا عَلَى قَوَادِمِ خَوْفٍ. وَقَالَ اَبُو بَكْرٍ : اِنَّ ٱلْمَلِكَ اِذَا مَلَكَ زَهَّدَهُ ٱللهُ

فِي مَا لَهُ وَرَغْبَةُ فِيمَا فِي يَدِ غَيْرِهِ وَأَشْرَبَ قَلْبُهُ ٱلْاِشْفَاقَ . فَهُوَ يَحْسِدُ عَلَى ٱلْقَلِيلِ وَيَسْخَطُ عَلَى ٱلْكَثِيرِ جَزْلُ ٱلظَّاهِرِ حَزِينُ ٱلْبَاطِنِ . فَإِذَا وَجَبَتْ نَفْسُهُ وَنَقَرَ عُمْرُهُ وَضَحَى ظِلُّهُ حَاسَبَهُ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَأَشَدَّ حِسَابَهُ وَأَقَلَّ عَفْوَهُ . وَكَتَبَ خَالِدُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ إِلَى مَرَازِبَةِ فَارِسَ: ٱلْحَمْدُ لِلهِ ٱلَّذِي فَضَّ خِدْمَتَكُمْ وَفَرَّقَ كَلِمَتَكُمْ . وَقَالَ ٱلْحَجَّاجُ : دُلُّونِي عَلَى رَجُلٍ سَمِينِ ٱلْأَمَانَةِ أَعْجَفِ ٱلْخِيَانَةِ . وَقَالَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ وَهْبٍ : ٱلرَّأْيُ لِأَصْحَابِهِ لَا خَيْرَ فِي ٱلرَّأْيِ ٱلْفَطِيرِ وَٱلْكَلَامِ ٱلْقَضِيبِ . فَلَمَّا بَايَعُوهُ قَالَ : دَعُوا ٱلرَّأْيَ يَغِبُّ فَإِنَّ غُبُوبَهُ يَكْشِفُ لَكُمْ عَنْ مَحْلِهِ . وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ : إِنَّكَ لَحَسَنُ ٱلْكِدْنَةِ . قَالَ : عِنْوَانُ نِعْمَةِ ٱللهِ عِنْدِي . وَقَالَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ : ٱلْحِلْمُ دِعَامَةُ ٱلْعَقْلِ . وَقَالَ خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ لِرَجُلٍ : رَحِمَ ٱللهُ أَبَاكَ فَإِنَّهُ كَانَ يَقْرِي ٱلْعَيْنَ جَمَالًا وَٱلْأُذُنَ بَيَانًا . وَقِيلَ لِرُؤْبَةَ : كَيْفَ تَرَكْتَ مَا وَرَاءَكَ . قَالَ : ٱلتُّرَابُ يَابِسٌ وَٱلْمَالُ عَابِسٌ . وَقَالَ ٱلْمَنْصُورُ لِبَعْضِهِمْ : بَلَغَنِي أَنَّكَ بَخِيلٌ : قَالَ مَا أَجْمُدُ فِي حَقٍّ وَلَا أَذُوبُ فِي بَاطِلٍ . وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ ٱلْمَوْصِلِيُّ : قُلْتُ لِلْعَبَّاسِ ٱبْنِ ٱلْحُسَيْنِ : إِنِّي لَأُحِبُّكَ . قَالَ : رَائِدُ ذٰلِكَ عِنْدِي . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : ٱلِٱسْتِطَالَةُ لِسَانُ ٱلْجَهَالَةِ . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ : ٱلشُّكْرُ كُفُوُ ٱلنِّعْمَةِ . وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ : خَرَجْتُ فِي لَيْلَةٍ حِنْدِسٍ قَدْ أَلْقَتْ عَلَى ٱلْأَرْضِ أَكَارِعَهَا فَمَحَتْ صُورَةَ ٱلْأَبْدَانِ فَمَا كُنَّا نَتَعَارَفُ إِلَّا بِٱلْآذَانِ . وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ لِآخَرَ : يَسَارُ ٱلنَّفْسِ خَيْرٌ مِنْ يَسَارِ ٱلْمَالِ وَرُبَّ شَبْعَانَ مِنَ ٱلنِّعَمِ غَرْثَانُ مِنَ ٱلْكَرَمِ . وَقَالَ آخَرُ فِي حَرْبٍ : جَعَلُوا ٱلْحَرْبَ

أَرْشِيَةَ ٱلْمَوْتِ وَٱسْتَقَوْا بِهَا أَرْوَاحَ ٱلْعَدُوِّ . وَقَالَ آخَرُ : فُلَانٌ أَمْلَسُ لَيْسَ فِيهِ مُسْتَقَرٌّ بِخَيْرٍ وَلَا شَرٍّ . وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ وَقَدْ شَتَمَهُ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْمَأْمُونِ : رَأَيْتُهُ يَسْتَمْلِي مَا يَلْقَانِي بِهِ مِنْ عَيْنَيْكَ . وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ : أَيُّ طَعَامٍ أَطْيَبُ . قَالَ : ٱلْجُوعُ أَبْصَرُ . وَمَدَحَ أَعْرَابِيٌّ رَجُلًا قَالَ : كَانَ يَفْتَحُ مِنَ ٱلرَّأْيِ أَبْوَابًا مُنْسَدَّةً وَيَغْسِلُ مِنَ ٱلْعَارِ وُجُوهًا مُسْوَدَّةً . إِذَا عَرَضَتْ لَهُ زِينَةُ ٱلدُّنْيَا هَجَّنَتْهَا صُورَةُ ٱلْحَمْدِ عِنْدَهُ وَإِنَّ لِلْمَصَانِعِ لَغَارَةً عَلَى أَمْوَالِهِ كَغَارَةِ سُيُوفِهِ عَلَى أَعْدَائِهِ . وَمَدَحَ أَعْرَابِيٌّ قَوْمًا فَقَالَ : أُولَائِكَ غُرَرٌ تُضِيءُ فِي ظُلَمِ ٱلْأُمُورِ ٱلْمُشْكِلَةِ قَدْ صَغَتْ آذَانُ ٱلْمَجْدِ إِلَيْهِمْ . وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ يَمْدَحُ رَجُلًا : إِنَّهُ لَيُعْطِي عَطَاءَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ ٱللّٰهَ مَادَّتُهُ . وَمَدَحَ أَعْرَابِيٌّ رَجُلًا فَقَالَ : لِسَانُهُ أَحْلَى مِنَ ٱلشَّهْدِ وَقَلْبُهُ سِجْنُ ٱلْحِقْدِ . إِنْ أَسَأْتَ إِلَيْهِ أَحْسَنَ وَكَأَنَّهُ ٱلْمُسِيءُ . وَإِذَا أَجْرَمْتَ غَفَرَ وَكَأَنَّهُ ٱلْمُجْرِمُ . إِشْتَرَى بِٱلْمَعْرُوفِ عِرْضَهُ مِنَ ٱلْأَذَى فَهُوَ وَإِنْ كَانَتْ لَهُ ٱلدُّنْيَا بِأَسْرِهَا فَوَهَبَهَا رَأَى بَعْدَ ذٰلِكَ عَلَيْهِ حُقُوقًا لَا يَسْتَعْذِبُ ٱلْخَنَى وَلَا يَسْتَحْسِنُ غَيْرَ ٱلْوَفَاءِ . وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ لِرَجُلٍ : لَا تُدَنِّسْ شِعْرَكَ بِعِرْضِ فُلَانٍ فَإِنَّهُ سَمِينُ ٱلْمَالِ مَهْزُولُ ٱلْمَعْرُوفِ مِنَ ٱلْمَرْزُوقِينَ هِجَاءً قَصِيرُ عُمْرِ ٱلْغِنَى طَوِيلُ حَيَاةِ ٱلْفَقْرِ . وَسَأَلَ أَعْرَابِيٌّ فَقِيلَ لَهُ : عَلَيْكَ بِٱلصَّيَارِفِ . فَقَالَ : هُنَاكَ قَرَارَةُ ٱللُّؤْمِ . وَذَكَرَ أَعْرَابِيٌّ قَوْمًا فَقَالَ : أُولَائِكَ قَوْمٌ قَدْ سَلَخَتْ أَقْفَاءَهُمْ بِٱلْهِجَاءِ وَدَبَغَتْ جُلُودَهُمْ بِٱللُّؤْمِ . فَلِبَاسُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ٱلْمَلَامَةُ وَزَادُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ ٱلنَّدَامَةُ . وَذَمَّ أَعْرَابِيٌّ قَوْمًا فَقَالَ : هُمْ أَقَلُّ ذُنُوبًا إِلَى أَعْدَائِهِمْ

وَأَكْثَرُ تَجَرُّماً عَلَى أَصْدِقَائِهِمْ . يَصُومُونَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيُفْطِرُونَ عَلَى ٱلْفَحْشَاءِ . وَذَمَّ أَعْرَابِيٌّ رَجُلًا فَقَالَ : ذَاكَ رَجُلٌ تَغْدُو إِلَيْهِ مَوَاكِبُ ٱلضَّلَالَةِ وَتَرْجِعُ مِنْ عِنْدِهِ بِذُورُ ٱلْآثَامِ مُعْدِمٌ مِمَّا يُحِبُّ مُثْرٍ مِمَّا يُكْرَهُ . وَقَالَ آخَرُ : مَا رَأَيْتُ دَمْعَةً تَرَقْرَقُ فِي عَيْنٍ وَتَجْرِي عَلَى خَدٍّ أَحَرَّ مِنْ عَبْرَةٍ أَمْطَرَتْهَا عَيْنَاهُ وَأَعْشَبَ لَهَا قَلْبِي . وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ وَذَكَرَ زُهَّادًا : فَازَ قَوْمٌ أَدَّبَتْهُمُ ٱلْحِكْمَةُ وَأَحْكَمَتْهُمُ ٱلتَّجَارِبُ وَلَمْ تَغُرَّهُمُ ٱلسَّلَامَةُ ٱلْمُنْطَوِيَةُ عَلَى ٱلْهَلَكَةِ . وَرَحَلَ عَنْهُمُ ٱلتَّسْوِيفُ ٱلَّذِي قَطَعَ بِهِ ٱلنَّاسُ مَسَافَةَ آجَالِهِمْ وَأَحْسَنُوا ٱلْمَقَالَ وَشَفَعُوهُ بِٱلْفِعَالِ تَرَكُوا ٱلنَّعِيمَ لِيَتَنَعَّمُوا. لَهُمْ عَبَرَاتٌ مُتَدَافِعَةٌ لَا يَرَاهُمْ إِلَّا فِي وَجْهٍ عِنْدَ ٱللهِ وَجِيهٍ . وَوَصَفَ أَعْرَابِيٌّ وَالِيًا فَقَالَ : كَانَ إِذَا وَلِيَ لَمْ يُطَابِقْ بَيْنَ جُفُونِهِ وَأَرْسَلَ ٱلْعُيُونَ عَلَى عُيُونِهِ . فَهُوَ شَاهِدٌ مَعَهُمْ غَائِبٌ عَنْهُمْ فَٱلْمُحْسِنُ آمِنٌ وَٱلْمُسِيءُ خَائِفٌ . وَذَكَرَ أَعْرَابِيٌّ رَجُلًا فَقَالَ : كَانَ ٱلْفَهْمُ مِنْهُ ذَا أُذُنَيْنِ وَٱلْجَوَابُ مِنْهُ ذَا لِسَانَيْنِ . لَمْ أَرَ أَحَدًا كَانَ أَرْتَقَ لِخَلَلِ ٱلسَّرَّاءِ مِنْهُ كَانَ بَعِيدَ مَسَافَةِ ٱلرَّأْيِ يَرْمِي بِطَرْفِهِ حَيْثُ أَشَارَ ٱلْكَرَمُ . وَمَا زَالَ يَتَحَسَّى مَرَارَةَ ٱلْإِخْوَانِ وَيُسِيغُهُمُ ٱلْعَذْبَ . وَوَصَفَ أَعْرَابِيٌّ قَوْمَهُ فَقَالَ : إِذَا ٱصْطَفُّوا تَحْتَ ٱلْقَتَامِ سَفَرَتْ بَيْنَهُمُ ٱلسِّهَامُ بِوُفُوفِ ٱلْحِمَامِ . وَإِذَا تَصَافَحُوا بِٱلسُّيُوفِ فَغَرَتِ ٱلْمَنَايَا بِأَفْوَاهِهَا . فَكَمْ مِنْ يَوْمٍ عَارِمٍ قَدْ أَحْسَنُوا أَدَبَهُ وَحَرْبٍ عَبُوسٍ قَدْ ضَاحَكَتْهَا أَسِنَّتُهُمْ وَخَطْبٍ قَدْ ذَلَّلُوا مَنَاكِبَهُ . إِنَّمَا كَانُوا كَٱلْبَحْرِ ٱلَّذِي لَا يَنْكَشِفُ غِمَارُهُ وَلَا يُنْهَنَهُ تَيَّارُهُ . وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ : لِمَ لَا تَشْرَبُ ٱلنَّبِيذَ . فَقَالَ : لَا أَشْرَبُ مَا يَشْرَبُ عَقْلِي .

وَقَالَ آخَرُ : ٱلْخَطُّ مَرْكَبُ ٱلْبَيَانِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : ٱلْقَلَمُ لِسَانُ ٱلْبَيَانِ . وَسَمِعْتُ بَعْضَ ٱلْأَطِبَّاءِ يَقُولُ : ٱلْمَاءُ مَطِيَّةُ ٱلطَّعَامِ . وَقَالَ ٱلْحَسَنُ بْنُ وَهْبٍ لِكَاتِبِهِ : لَا تُكَدِّرْ مَاءَ مَعْرُوفِي بِٱلْمَنِّ فَإِنَّ ٱعْتِدَادَكَ بِٱلْمَعْرُوفِ يَعْقِلُ لِسَانَ ٱلشُّكْرِ . وَأَمْثَالُ هٰذَا كَثِيرٌ فِي مَنْثُورِ ٱلْكَلَامِ وَفِيمَا أَوْرَدْنَاهُ كِفَايَةٌ . وَأَمَّا ٱلْاِسْتِعَارَةُ فِي أَشْعَارِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ فَأَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى

البحث التاسع

في مراعاة النظير

(من شرح بديعية العميان لابن جابر الاندلسي باختصار)

(راجع صفحة ٣١ من علم الادب)

يُسَمَّى أَيْضًا هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلتَّنَاسُبَ وَٱلْاِئْتِلَافَ وَٱلتَّوْفِيقَ وَٱلْمُؤَاخَاةَ . وَهُوَ فِي ٱصْطِلَاحِ ٱلْبَدِيعِيِّينَ أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَ أَمْرٍ وَمَا يُنَاسِبُهُ لَا عَلَى جِهَةِ ٱلتَّضَادِّ . وَهُوَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ . (ٱلْأَوَّلُ) يُذْكَرُ فِيهِ ٱلشَّيْءُ مَعَ مَا يُنَاسِبُهُ فَقَطْ كَقَوْلِ ٱبْنِ ٱلْخَشَّابِ لِلْخَلِيفَةِ ٱلْمُسْتَضِيءِ :

وَرَدَ ٱلْوَرَى سَلْسَالَ جُودِكَ فَٱرْتَوَوْا ... وَوَقَفْتُ دُونَ ٱلْوِرْدِ وَقْفَةَ حَائِمِ
ظَمْآنَ أَطْلُبُ خِفَّةً مِنْ زَحْمَةٍ ... وَٱلْوِرْدُ لَا يَزْدَادُ غَيْرَ تَزَاحُمِ

فَٱنْظُرْ حُسْنَ هٰذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ كَيْفَ جَرَيَا كَٱلْمَاءِ فِي طَلَاوَتِهِ . وَوَقَعَا مِنَ ٱلْقُلُوبِ كَٱلشَّهْدِ فِي حَلَاوَتِهِ . مَعَ أَنَّ نَاظِمَهُمَا مَا خَرَجَ عَنْ وَصْفِ ٱلْمَاءِ كَلَامُهُ . وَلَا تَعَدَّى ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى نِظَامُهُ . فَأَوْدَعَهُمَا فِي عَشْرِ مَوَاضِعَ مُرَاعَاةَ ٱلنَّظِيرِ . فِيهَا مِنَ ٱلْحُسْنِ مَا لَيْسَ لَهُ مِنْ نَظِيرٍ . لٰكِنَّهُ مَا سَلِمَ

مليحٌ مِنْ عيبٍ. ولاخلا مِنْ مرفوعِ ريبٍ. فمعَ هذهِ المحاسنِ الظريفةِ ما سلِمَ البيتانِ مِنْ عيبِ القافيةِ. فقدْ غيّرَ الناظمُ كسرةَ الدخيلِ على الضمّةِ. وجاءَ في ذلكَ بما عابهُ كلُّ اديبٍ وذمّهُ. ومنهُ قولُ السلاميّ:

والنقعُ ثوبٌ بالنسورِ مطرّزٌ   والارضُ فرشٌ بالجيادِ مخمّلُ
وسطورُ خيلكَ انّما الفاتُها   سُمرٌ تُنقّطُ بالدماءِ وتُشكلُ

ناسبَ بينَ الثوبِ والتطريزِ والخملِ وبينَ السطورِ والالِفاتِ والنقطِ والشكلِ

(تنبيهٌ) ولو ذكرَ الشيءَ معَ ما لا يناسبهُ كانَ ذلكَ عندهم عيباً. كقولِ ابي نواسٍ:

وقدْ حلفتُ يميناً   مبرورةً لا تُكذَبْ
بربِّ زمزمَ والحوْ   ضِ والصفا والمحصّبْ

عابوا عليهِ ذكرَ الحوضِ معَ زمزمَ والصفا والمحصّبِ. وانّهُ غيرُ مناسبٍ ذكرُهُ معها. وانّما يناسبُ ذكرُ الحوضِ معَ الميزانِ والصراطِ وشبهِهما مما هوَ منوطٌ بيومِ القيامةِ

(تنبيهٌ ثانٍ) لو جاءَ الكاتبُ بمتناسبينِ فافردَ احدَهما وثنّى الآخرَ اوجمعهُ وما اشبهَ ذلكَ كانَ عيباً كقولِ الشاعرِ:

الا يا ابنَ الذينَ فنوا وماتوا   اما واللهِ ما ماتوا لتبقى
وما لكَ فاعلمنْ فيها بقاءٌ   اذا استكملتَ آجالاً ورزقا

فجمعَ (الآجلَ) وافردَ (الرزقَ) معَ انهما متناسبانِ. (الثاني) انْ يذكرَ شيءٌ او اشياءُ كلُّ واحدٍ معَ ما يناسبهُ في جملٍ مستويةٍ

ٱلْمِقْدَارِ . وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلتَّفْوِيفَ لِشَبَهِهِ بِٱلثَّوْبِ ٱلْمُفَوَّفِ وَهُوَ ٱلَّذِي فِيهِ خُطُوطٌ مُسْتَوِيَةٌ وَتَشْبِيهُ ٱلْجُمَلِ بِٱسْتِوَاءِ تِلْكَ ٱلْخُطُوطِ . وَتَكُونُ هٰذِهِ ٱلْجُمَلُ طِوَالًا كُلُّهَا أَوْ مُتَوَسِّطَةً . وَكُلُّهَا إِمَّا أَنْ يَكُونَ آخِرُهَا فِي بَعْضِ جُزْءِ ٱلتَّفْعِيلِ وَهِيَ ٱلْمُدْمَجَةُ . وَإِمَّا أَنْ يُوَافِقَ آخِرُهَا آخِرَ جُزْءِ ٱلتَّفْعِيلِ وَهِيَ ٱلْغَيْرُ ٱلْمُدْمَجَةِ وَهُوَ ٱلْأَحْسَنُ . فَمِنْ قَوْلِ ٱبْنِ عُنَيْنٍ :

دَعَتْ فِي أَعَالِي ٱلسُّغْدِ يَوْمًا حَمَامَةٌ عَلَى فَنَنٍ مِنْ كُلِّ رَيَّانَ نَاعِمِ
فَهَاجَتْ مَشُوقًا وَٱسْتَفَزَّتْ مُتَيَّمًا وَأَبْكَتْ غَرِيبًا وَٱسْتَخَفَّتْ أَخَا عِلْمِ

(ٱلسُّغْدُ مَوْضِعٌ بِسَمَرْقَنْدَ قَدِ ٱتُّخِذَ لِلنَّزَاهَةِ يُضْرَبُ بِهِ ٱلْمَثَلُ فِي ٱلْحُسْنِ) . وَكَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ فِي مَدْحٍ :

وَٱلدَّهْرُ يُقْبِلُ أَنْ تُقْبِلْ وَيُعْرِضُ إِنْ تُعْرِضْ وَغَيْرُ ٱلَّذِي قَدْ رُمْتَ لَمْ يَرُمِ
إِنْ قُلْتَ يَسْمَعْ وَإِنْ تَأْمُرْ يُطِعْ وَمَتَى فَعَلْتَ تُسْعَدْ وَإِنْ لَاحَظْتَ تُحْتَرَمِ

وَقَدْ بَلَغَ بِهَا ٱلْمُتَنَبِّي إِلَى أَرْبَعَ عَشْرَةَ جُمْلَةً لٰكِنْ بِغَيْرِ حَرْفِ عَطْفٍ فَثَقُلَتْ وَخَرَجَتْ عَنْ سِلْكِ ٱلْبَلَاغَةِ . وَهِيَ قَوْلُهُ :

أَقِلْ أَنِلْ أَقْطِعِ ٱحْمِلْ عَلِّ سَلِّ أَعِدْ زِدْ هَشَّ بَشَّ تَفَضَّلْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ

(ٱلثَّالِثُ) مِنْ مُرَاعَاةِ ٱلنَّظِيرِ أَنْ تَذْكُرَ شَيْئَيْنِ مُتَنَاسِبَيْنِ وَتَخْتِمَ ٱلْكَلَامَ بِشَيْئَيْنِ : أَحَدُهُمَا يُلَائِمُ وَاحِدًا مِمَّا تَقَدَّمَ . وَٱلْآخَرُ يُلَائِمُ ٱلْآخَرَ . وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ تَنَاسُبَ ٱلْأَطْرَافِ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ : لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَارَ . وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ . فَٱللَّطِيفُ يُنَاسِبُ مَا لَا يُدْرَكُ لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلْخَفَاءِ . وَٱلْخَبِيرُ يُنَاسِبُ مَنْ هُوَ مُدْرِكٌ لِلطَّائِفِ

ٱلأَشيَاء. (ٱلرَّابِعُ) أَنْ تَذْكُرَ ٱلشَّيْءَ ثُمَّ تَذْكُرَ مَعَهُ لَفظًا مُشْتَرَكًا بَيْنَ أَمرَيْنِ: أَحَدُهُما يُلَائِمُ ٱلأَوَّلَ وَٱلآخَرُ لَا يُلَائِمُهُ فَيَتَوَهَّمُ ٱلسَّامِعُ أَنَّهُ مُرَادِفُ ٱلمُلَائِمِ وَلَيسَ كَذٰلِكَ. وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ إِيهَامَ ٱلتَّظِيرِ. كَقَوْلِ ٱلقَائِلِ: ٱلشَّمسُ وَٱلقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَٱلنَّجمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ. فَيُتَوَهَّمُ مُرَاعَاةَ ٱلنَّظِيرِ وَلَيسَ كَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلمُرَادَ بِالنَّجْمِ ٱلنَّبَاتُ لَا ٱلكَوْكَبُ لِعَطفِ ٱلشَّجَرِ عَلَيهِ

البحث العاشر

في المجاز المرسل

(عن السكاكي والدسوقي والثعالبي باختصار)

(راجع صفحة ٣٣ من علم الادب)

إِنَّ عَلَاقَةَ ٱلمَجَازِ ٱلمُصَحِّحَةَ لَهُ إِمَّا أَنْ تَكُونَ مُشَابَهَةَ ٱلمَنقُولِ إِلَيهِ بِالمَنقُولِ عَنهُ فِي شَيْءٍ فَيُسَمَّى ٱلمَجَازُ ٱستِعَارَةً كَمَا مَرَّ. وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ عَلَاقَةُ ٱلمَجَازِ غَيْرَ ٱلمُشَابَهَةِ فَيُسَمَّى مُرسَلًا كَلَفظِ ٱليَدِ إِذَا ٱستُعمِلَ فِي ٱلنِّعمَةِ وَٱلقُدرَةِ كَمَا يُقَالُ: جَلَّتْ أَيَادِيهِ عِندِي. أَيْ كَثُرَتْ نِعمَتُهُ لَدَيَّ. وَٱتَّسَعَتِ ٱليَدُ فِي ٱلبَلَدِ. وَٱليَدُ فِي ٱللُّغَةِ ٱلعُضْوُ ٱلمَخصُوصُ وَٱلعَلَاقَةُ كَوْنُ ذٰلِكَ ٱلعُضوِ مَصدَرًا لِلنِّعمَةِ فَإِنَّهَا تَصِلُ إِلَى ٱلمُنعَمِ عَلَيهِ مِنَ ٱليَدِ فَتَكُونُ ٱلجَارِحَةُ ٱلمَخصُوصَةُ بِمَنزِلَةِ ٱلعِلَّةِ ٱلفَاعِلِيَّةِ لَهَا. وَأَيضًا بِٱليَدِ تَظهَرُ ٱلنِّعمَةُ فَتَكُونُ بِمَنزِلَةِ ٱلعِلَّةِ ٱلصُّورِيَّةِ لَهَا. وَإِذَا ٱستُعمِلَتْ لِلقُدرَةِ فَلِأَنَّ أَكثَرَ مَا يَظهَرُ سُلطَانُ ٱلقُدرَةِ فِي ٱليَدِ وَبِهَا تَكُونُ ٱلأَفعَالُ ٱلدَّالَّةُ عَلَى ٱلقُدرَةِ مِنَ ٱلبَطشِ وَٱلضَّربِ

وَٱلْقَطْعِ وَٱلْأَخْذِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ. وَأَنْوَاعُ ٱلْعَلَاقَةِ ٱلْمُعْتَبَرَةِ كَثِيرَةٌ مِنْهَا عَائِدَةٌ إِلَى (ٱلتَّضَمُّنِ) وَهِيَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ. (فَمِنَ ٱلنُّقْصَانِ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ جُزْئِهِ وَإِطْلَاقُ ٱلْخَاصِّ لِلْعَامِّ. وَهٰذَا مِنْ سُنَنِ ٱلْعَرَبِ فَإِنَّهُمْ يَقْتَصِرُونَ عَلَى بَعْضِ ٱلشَّيْءِ وَهُمْ يُرِيدُونَ كُلَّهُ فَيَقُولُونَ: قَعَدَ عَلَى ظَهْرِ رَاحِلَتِهِ. وَكَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

ٱلْوَاطِئِينَ عَلَى صُدُورِ نِعَالِهِمْ

وَكَقَوْلِ لَبِيدٍ:

أَوْ يَرْتَبِطْ بَعْضَ ٱلنُّفُوسِ حِمَامُهَا

وَفِي ٱلْقُرْآنِ: قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ. وَٱلْمُرَادُ يَغُضُّوا أَبْصَارَهُمْ كُلَّهَا. (وَكَذٰلِكَ) يَصِفُونَ ٱلْبَعْضَ بِصِفَةِ ٱلْكُلِّ كَقَوْلِهِ: نَاصِيَةٌ كَاذِبَةٌ خَاطِئَةٌ. فَٱلْخَطَأُ صِفَةُ ٱلْكُلِّ وَصَفَ بِهِ ٱلنَّاصِيَةَ. وَمِثْلُ ذٰلِكَ إِطْلَاقُهُمْ لَفْظَ (بَعْضٍ) مُرَادًا بِهِ ٱلْكُلُّ كَقَوْلِهِ: لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ ٱلَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ أَيْ كُلَّهُ. وَمِنْ سُنَنِ ٱلْعَرَبِ أَنْ تُقِيمَ ٱلْوَاحِدَ مَقَامَ ٱلْجَمْعِ فَيَقُولُونَ: قَرِرْنَا بِهِ عَيْنًا. أَيْ أَعْيُنًا. وَكَقَوْلِهِ: لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ. وَٱلتَّفْرِيقُ لَا يَكُونُ إِلَّا بَيْنَ ٱثْنَيْنِ. وَٱلتَّقْدِيرُ: لَا نُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ. وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ سُنَّةُ ٱلْعَرَبِ أَنْ يَقُولُوا لِلرَّجُلِ ٱلْعَظِيمِ وَٱلْمَلِكِ ٱلْكَبِيرِ: ٱنْظُرُوا فِي أَمْرِي. وَلِأَنَّ ٱلسَّادَةَ وَٱلْمُلُوكَ يَقُولُونَ: نَحْنُ فَعَلْنَا وَإِنَّا أَمَرْنَا. فَعَلَى قَضِيَّةِ هٰذَا ٱلِٱبْتِدَاءِ يُخَاطَبُونَ فِي ٱلْجَوَابِ. (وَمِنَ ٱلزِّيَادَةِ) وَهُوَ عَكْسُ مَا قَبْلَهُ إِطْلَاقُ ٱسْمِ ٱلْعَامِّ لِلْخَاصِّ وَمِنْهُ بَابُ ٱلتَّخْصِيصِ بِأَسْرِهِ وَإِطْلَاقُ ٱسْمِ ٱلْكُلِّ عَلَى ٱلْجُزْءِ نَحْوُ: يَجْعَلُونَ

اَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ ٱلصَّوَاعِقِ . يُرِيدُ ٱلْأَنَامِلَ وَهِيَ جُزْءٌ مِنَ ٱلْأَصَابِعِ . وَٱلْغَرَضُ مِنْهُ ٱلْمُبَالَغَةُ كَأَنَّهُ جَعَلَ جَمِيعَ ٱلْأَصَابِعِ فِي ٱلْأُذُنِ لِئَلَّا يَسْمَعَ شَيْئًا مِنَ ٱلصَّاعِقَةِ . (وَمِنْ سُنَنِهِمْ) أَيْضًا ٱلْإِتْيَانُ بِٱلْجَمْعِ وَيُرِيدُونَ بِهِ ٱلْوَاحِدَ كَقَوْلِهِ : مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ ٱللهِ . وَإِنَّمَا أَرَادَ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ . وَتَقُولُ ٱلْعَرَبُ : اُفْعَلَا ذٰلِكَ . وَٱلْمُخَاطَبُ وَاحِدٌ . وَكَقَوْلِهِ : أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ . وَهُوَ خِطَابٌ لِخَازِنِ ٱلنَّارِ وَحْدَهُ . وَكَمَا قَالَ ٱلْأَعْشَى :

وَصَلِّ عَلَى خَيْرِ ٱلْعَشِيَّاتِ وَٱلضُّحَى ... وَلَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَانَ وَٱللهَ فَٱعْبُدَا

وَيُقَالُ إِنَّهُ أَرَادَ : وَٱللهَ فَٱعْبُدَنْ . فَقَلَبَ ٱلنُّونَ ٱلْخَفِيفَةَ أَلِفًا . وَكَذٰلِكَ فِي قَوْلِهِ : أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ . (وَمِنْ أَنْوَاعِ) ٱلْعَلَاقَةِ ٱلْمُعْتَبَرَةِ فِي ٱلْمَجَازِ ٱلْمُرْسَلِ مَا يَعُودُ إِلَى (ٱلِٱسْتِلْزَامِ) وَهُوَ مَا ٱقْتَضَى مَعْنَاهُ مَعْنًى آخَرَ لِأَجْلِ عَلَاقَتِهِ . (فَمِنْ ذٰلِكَ) إِطْلَاقُ ٱسْمِ ٱلْمَلْزُومِ عَلَى ٱللَّازِمِ وَٱللَّازِمِ عَلَى ٱلْمَلْزُومِ نَحْوُ : هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ . أَيْ هَلْ يَفْعَلُ . أَطْلَقَ ٱلِٱسْتِطَاعَةَ عَلَى ٱلْفِعْلِ لِأَنَّهَا لَازِمَةٌ لَهُ . وَكَقَوْلِهِ : يُرْسِلُ ٱلسَّمَاءَ مِدْرَارًا . أَيِ ٱلْمَطَرَ . لِأَنَّهُ مِنْهَا يَنْزِلُ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ سَبَبِهِ . كَقَوْلِهِ : مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ . أَيِ ٱلْقَبُولَ وَٱلْعَمَلَ بِهِ لِأَنَّهُ يَتَسَبَّبُ عَنِ ٱلسَّمْعِ . وَكَقَوْلِهِ : رَعَيْنَا ٱلْغَيْثَ . أَيِ ٱلنَّبَاتَ ٱلَّذِي سَبَبُهُ ٱلْغَيْثُ . (وَعَكْسُهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ مُسَبَّبِهِ نَحْوُ : أَمْطَرَتِ ٱلسَّمَاءُ نَبَاتًا . أَيْ غَيْثًا يَكُونُ ٱلنَّبَاتُ مُسَبَّبًا عَنْهُ . وَكَقَوْلِهِ : يُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ رِزْقًا . أَيْ مَطَرًا وَهُوَ مِنْ تَوَابِعِهِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ مَا كَانَ

عَلَيْهِ نَحْوُ : آتُوا ٱلْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ . أَيِ ٱلَّـذِينَ كَانُوا يَتَامَى لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْتَوْنَ أَمْوَالَهُمْ حَتَّى يَبْلُغُوا وَلَا يُتْمَ بَعْدَ ٱلْبُلُوغِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ مَا يَؤُولُ إِلَيْهِ نَحْوُ : إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا أَيْ عِنَبًا . يُعْصَرُ فَيَؤُولُ إِلَى ٱلْخَمْرِ . وَكَقَوْلِهِ : وَلَا يَلِدُوا إِلَّا كَفَّارًا . أَيْ صَائِرًا إِلَى ٱلْـكُفْرِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ مَحَلِّهِ نَحْوُ: فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ أَيْ أَهْلَ نَادِيهِ . أَيْ مَجْلِسِهِ . وَكَقَوْلِهِ: ٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا . أَيْ أَهْلَهَا . (وَمِنْهُ عَكْسُهُ) أَيْ إِطْلَاقُ ٱسْمِ ٱلْحَالِّ عَلَى ٱلْمَحَلِّ . نَحْوُ : حَلُّوا فِي رَحْمَةِ ٱللهِ أَيْ فِي ٱلْجَنَّةِ لِأَنَّهَا مَحَـلُّ ٱلرَّحْمَةِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ آلَتِهِ نَحْوُ: وَٱجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ . أَيِ ٱجْعَلْ لِي ثَنَاءً حَسَنًا وَٱللِّسَانُ آلَةُ ٱلصِّدْقِ وَٱلثَّنَاءِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ ضِدِّهِ نَحْوُ: فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . أَيْ أَنْذِرْهُمْ وَهَدِّدْهُمْ . وَتَقُولُ ٱلْعَرَبُ لِلرَّجُلِ تَسْتَجْهِلُهُ : يَا عَاقِلُ . وَلِلْمَرْأَةِ تَسْتَقْبِحُهَا : يَا قَمَرُ . (وَكَذٰلِكَ) يَقْلِبُونَ ٱلْمَعْنَى نَحْوُ : عَرَضْتُ ٱلنَّاقَةَ عَلَى ٱلْحَوْضِ . يُرِيدُونَ ٱلْحَوْضَ عَلَى ٱلنَّاقَةِ . (وَمِنْهُ) وَصْفُ ٱلشَّيْءِ بِمَا يَقَعُ فِيهِ أَوْ يَكُونُ مِنْهُ نَحْوُ : يَوْمٌ عَاصِفٌ . أَيْ عَاصِفُ ٱلرِّيحِ . وَلَيْلٌ نَائِمٌ وَسَاهِرٌ وَصَائِمٌ أَيْ يُنَامُ فِيهِ وَيُسْهَرُ وَيُصَامُ . (وَمِنْهُ) إِضَافَةُ ٱلْفِعْلِ إِلَى مَا لَا يَصْلُحُ لَهُ تَشْبِيهًا . كَقَوْلِهِ: جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ . وَلَا إِرَادَةَ لِلْجِدَارِ . وَلٰـكِنَّهُ تَوَسَّعَ ٱلْعَرَبُ فِي ٱلْمَجَازِ فَعَبَّرُوا عَنِ ٱلْجَمَادِ بِفِعْلِ ٱلْإِنْسَانِ كَمَا قَالَ ٱلرَّاجِزُ :

إِمْتَلَأَ ٱلْحَوْضُ وَقَالَ قَطْنِي

اَيْ كَفَانِي وَلَيْسَ لِلْحَوْضِ قَوْلٌ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلرَّاعِي ٱلشَّاعِرِ ٱلنَّصْرَانِيّ :

فِي مَهْمَهٍ قُلِقَتْ بِهِ هَامَاتُهَا فَلْقَ ٱلْفُؤُوسِ إِذَا اَرَدْنَ نُصُولَا

وَٱلْعَرَبُ تُسَمِّي ٱلتَّهَيُّؤَ لِلْفِعْلِ وَٱلِاحْتِيَاجَ إِلَيْهِ إِرَادَةً. وَكَذٰلِكَ يَأْتُونَ بِلَفْظِ ٱلْمَاضِي وَهُوَ مُسْتَقْبَلٌ وَبِلَفْظِ ٱلْمُسْتَقْبَلِ وَهُوَ مَاضٍ كَقَوْلِهِ : لِمَ تَقْتُلُونَ اَنْبِيَاءَ ٱللّٰهِ اَيْ لِمَ قَتَلْتُمْ . وَكَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

فَاَدْرَكْتُ مَنْ قَدْ كَانَ قَبْلِي وَلَمْ اَدَعْ لِمَنْ كَانَ بَعْدِي فِي ٱلْقَصَائِدِ مَصْنَعَا

اَيْ لِمَنْ يَكُونُ بَعْدِي . وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ : وَكَانَ ٱللّٰهُ غَفُورًا . اَيْ كَانَ وَيَكُونُ وَهُوَ كَائِنٌ ٱلْآنَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ . وَكَذٰلِكَ يَأْتُونَ بِٱلْمَفْعُولِ بِلَفْظِ ٱلْفَاعِلِ فَيَقُولُونَ : سِرٌّ كَاتِمٌ اَيْ مَكْتُومٌ . وَمَكَانٌ عَامِرٌ اَيْ مَعْمُورٌ. وَمَاءٌ دَافِقٌ اَيْ مَدْفُوقٌ . وَعِيشَةٌ رَاضِيَةٌ اَيْ مَرْضِيَّةٌ . وَحَرَمٌ آمِنٌ اَيْ مَأْمُونٌ . وَقَالَ جَرِيرٌ :

إِنَّ ٱلْبَلِيَّةَ مَنْ تُمَلُّ كَلَامُهُ فَٱنْقَعْ فُؤَادَكَ مِنْ حَدِيثِ ٱلْوَامِقِ

اَيْ مِنْ حَدِيثِ ٱلْمَوْمُوقِ . وَيَعْكِسُونَ هٰذَا ٱلْعَمَلَ وَيَسْتَعْمِلُونَ ٱلْفَاعِلَ بِلَفْظِ ٱلْمَفْعُولِ كَقَوْلِهِ : كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا اَيْ آتِيًا. وَكَقَوْلِهِ : حِجَابٌ مَسْتُورٌ اَيْ سَاتِرٌ . وَيُقِيمُونَ ٱلِاسْمَ وَٱلْمَصْدَرَ مَقَامَ ٱلْفَاعِلِ وَٱلْمَفْعُولِ . فَتَقُولُ ٱلْعَرَبُ : رَجُلٌ عَدْلٌ اَيْ عَادِلٌ . وَرِضًى اَيْ مَرْضِيٌّ . وَبَنُو فُلَانٍ لَنَا سِلْمٌ اَيْ مُسَالِمُونَ . وَحَرْبٌ اَيْ مُحَارِبُونَ . (وَكَذٰلِكَ) يَحْمِلُونَ ٱللَّفْظَ عَلَى ٱلْمَعْنَى فِي تَذْكِيرِ ٱلْمُؤَنَّثِ وَتَأْنِيثِ ٱلْمُذَكَّرِ فَيَتْرُكُونَ حُكْمَ ظَاهِرِ ٱللَّفْظِ وَيَحْمِلُونَهُ عَلَى مَعْنَاهُ كَمَا يَقُولُونَ : ثَلَاثَةُ اَنْفُسٍ. وَٱلنَّفْسُ مُؤَنَّثَةٌ وَإِنَّمَا حَمَلُوهُ عَلَى مَعْنَى ٱلْإِنْسَانِ اَوْ مَعْنَى ٱلشَّخْصِ

قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

مَا عِنْدَنَا إِلَّا ثَلَاثَةُ أَنْفُسٍ ... مِثْلَ ٱلنُّجُومِ تَلَأْلَأَتْ فِي ٱلْحِنْدِسِ

وَكَمَا ذَكَّرَ بَعْضُهُمُ ٱلْكَفَّ وَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ فِي قَوْلِهِ :

أَرَى رَجُلًا مِنْهُمْ أَسِيفًا كَأَنَّمَا ... يَضُمُّ إِلَى كَشْحَيْهِ كَفًّا مُخَضَّبَا

فَحَمَلَ ٱلْكَلَامَ عَلَى ٱلْعُضْوِ وَهُوَ مُذَكَّرٌ . وَكَمَا قَالَ ٱلْآخَرُ :

يَا أَيُّهَا ٱلرَّاكِبُ ٱلْمُزْجِي مَطِيَّتَهُ ... سَائِلْ بَنِي أَسَدٍ مَا هٰذِهِ ٱلصَّوْتُ

أَيْ مَا هٰذِهِ ٱلْجَلَبَةُ . وَفِي ٱلْقُرْآنِ : وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا . وَلَمْ يَقُلْ : مَيْتَةً لِأَنَّهُ حَمَلَهُ عَلَى ٱلْمَكَانِ . وَقَالَ : ٱلسَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ . فَذَكَّرَ ٱلسَّمَاءَ وَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ لِأَنَّهُ حَمَلَ ٱلْكَلَامَ عَلَى ٱلسَّقْفِ . وَكُلُّ مَا عَلَاكَ وَأَظَلَّكَ فَهُوَ سَمَاءٌ

البحث الحادي عشر

في القول عن الكناية

(عن كتاب صناعة الترسل والمثل السائر)

(راجع صفحة ٢٨ من علم الادب)

اَللَّفْظَةُ إِذَا أُطْلِقَتْ وَكَانَ ٱلْغَرَضُ ٱلْأَصْلِيُّ غَيْرَ مَعْنَاهَا فَلَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهَا مَقْصُودًا أَيْضًا لِيَكُونَ دَالًّا عَلَى ذٰلِكَ ٱلْغَرَضِ ٱلْأَصْلِيِّ . وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ كَذٰلِكَ . فَٱلْأَوَّلُ هُوَ ٱلْكِنَايَةُ وَيُقَالُ لَهُ : ٱلْإِرْدَافُ . وَٱلثَّانِي ٱلْمَجَازُ . فَٱلْكِنَايَةُ عِنْدَ عُلَمَاءِ ٱلْبَيَانِ أَنْ يُرِيدَ ٱلْمُتَكَلِّمُ إِثْبَاتَ مَعْنًى مِنَ ٱلْمَعَانِي فَلَا يَذْكُرُهُ بِٱللَّفْظِ ٱلْمَوْضُوعِ لَهُ فِي ٱللُّغَةِ وَلٰكِنْ يَجِيءُ إِلَى مَعْنًى هُوَ تَالِيهِ وَرِدْفُهُ فِي ٱلْوُجُودِ

فَيُومِئُ بِهِ إِلَيْهِ وَيَجْعَلُهُ دَلِيلًا عَلَيْهِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْكِنَايَةَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ ٱلسِّتْرِ . يُقَالُ : كَنَيْتُ ٱلشَّيْءَ إِذَا سَتَرْتَهُ . وَأُجْرِيَ هٰذَا ٱلْحُكْمُ فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلَّتِي يُسْتَرُ فِيهَا ٱلْمَجَازُ بِٱلْحَقِيقَةِ فَتَكُونُ دَالَّةً عَلَى ٱلسَّاتِرِ وَعَلَى ٱلْمَسْتُورِ مَعًا . وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمَسْتُورَ فِيهَا هُوَ ٱلْمَجَازُ لِأَنَّ ٱلْحَقِيقَةَ تُفْهَمُ أَوَّلًا وَيَتَسَارَعُ ٱلْفَهْمُ إِلَيْهَا قَبْلَ ٱلْمَجَازِ . لِأَنَّ دَلَالَةَ ٱللَّفْظِ عَلَيْهَا دَلَالَةٌ وَضْعِيَّةٌ . وَأَمَّا ٱلْمَجَازُ فَإِنَّهُ يُفْهَمُ مِنْهُ بَعْدَ فَهْمِ ٱلْحَقِيقَةِ وَإِنَّمَا يُفْهَمُ بِٱلنَّظَرِ وَٱلْفِكْرَةِ وَبِهٰذَا يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ لِأَنَّهُ عُدُولٌ عَنْ ظَاهِرِ ٱللَّفْظِ . فَٱلْحَقِيقَةُ أَظْهَرُ وَٱلْمَجَازُ أَخْفَى وَهُوَ مَسْتُورٌ بِٱلْحَقِيقَةِ . وَقَدْ تَأَوَّلْتُ ٱلْكِنَايَةَ بِغَيْرِ هٰذَا وَهِيَ أَنَّهَا مَأْخُوذَةٌ مِنَ ٱلْكُنْيَةِ ٱلَّتِي يُقَالُ فِيهَا : أَبُو فُلَانٍ . فَإِنَّا إِذَا نَادَيْنَا رَجُلًا ٱسْمُهُ عَبْدُ ٱللهِ وَلَهُ وَلَدٌ ٱسْمُهُ مُحَمَّدٌ فَقُلْنَا : يَا أَبَا مُحَمَّدٍ . كَانَ ذٰلِكَ مِثْلَ قَوْلِنَا : يَا عَبْدَ ٱللهِ . فَإِنْ شِئْنَا نَادَيْنَاهُ بِهٰذَا وَإِنْ شِئْنَا نَادَيْنَاهُ بِهٰذَا وَكِلَاهُمَا وَاقِعٌ عَلَيْهِ . وَكَذٰلِكَ يَجْرِي ٱلْحُكْمُ فِي ٱلْكِنَايَةِ فَإِنَّا إِذَا شِئْنَا حَمَلْنَاهَا عَلَى جَانِبِ ٱلْمَجَازِ . وَإِنْ شِئْنَا حَمَلْنَاهَا عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ . إِلَّا إِنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ ٱلْوَصْفِ ٱلْجَامِعِ بَيْنَهُمَا لِئَلَّا يَلْحَقَ بِٱلْكِنَايَةِ مَا لَيْسَ مِنْهَا وَمِثَالُ ذٰلِكَ قَوْلُهُمْ : هُوَ طَوِيلُ ٱلنِّجَادِ وَكَثِيرُ رَمَادِ ٱلْقِدْرِ . يَعْنُونَ بِهِ أَنَّهُ طَوِيلُ ٱلْقَامَةِ كَثِيرُ ٱلْقِرَى فَلَمْ يَذْكُرِ ٱلْمُرَادَ بِلَفْظِهِ ٱلْخَاصِّ بِهِ وَلٰكِنْ تَوَصَّلُوا إِلَيْهِ بِذِكْرِ مَعْنًى آخَرَ هُوَ رِدْفُهُ فِي ٱلْوُجُودِ . أَلَا تَرَى أَنَّ ٱلْقَامَةَ إِذَا طَالَتْ طَالَ ٱلنِّجَادُ . وَإِذَا كَثُرَ ٱلْقِرَى كَثُرَ رَمَادُ ٱلْقِدْرِ .

وَكَقَوْلِ ٱلْحَضْرَمِيِّ :

قَدْ كَانَ يُعْجِبُ بَعْضَهُنَّ بَرَاعَتِي ... حَتَّى رَأَيْنَ تَنَحْنُحِي وَسُعَالِي

كَنَى عَنْ كِبَرِ السِّنِّ بِتَوَابِعِهِ وَهِيَ التَّنَحْنُحُ وَالسُّعَالُ. وَالْكِنَايَةُ تَكُونُ فِي الْمُثْبَتِ كَمَا ذَكَرْنَا وَقَدْ تَكُونُ فِي الْإِثْبَاتِ. وَهِيَ مَا إِذَا حَاوَلُوا إِثْبَاتَ مَعْنًى مِنَ الْمَعَانِي لِشَيْءٍ فَيَتْرُكُونَ التَّصْرِيحَ بِإِثْبَاتِهِ لَهُ وَيُثْبِتُونَهُ لِمَا لَهُ بِهِ تَعَلُّقٌ كَقَوْلِهِمْ: الْمَجْدُ بَيْنَ ثَوْبَيْهِ وَالْكَرَمُ بَيْنَ بُرْدَيْهِ. وَقَوْلِهِ:

إِنَّ الْمُرُوءَةَ وَالسَّمَاحَةَ وَالنَّدَى ... فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الْحَشْرَجِ

وَنَظِيرُهُ قَوْلُ يَزِيدَ بْنِ الْحَكَمِ يَمْدَحُ يَزِيدَ بْنَ الْمُهَلَّبِ وَهُوَ فِي حَبْسِ الْحَجَّاجِ:

أَصْبَحَ فِي قَيْدِكَ السَّمَاحَةُ وَالْمَجْدُ وَفَضْلُ الصَّلَاحِ وَالْحَسَبُ

وَقَالَ الْجُرْجَانِيُّ: مَكَانُ الْقَيْدِ هٰهُنَا هُوَ مَكَانُ الْقُبَّةِ فِي الْبَيْتِ الْمُتَقَدِّمِ. وَقَدْ يَجْتَمِعُ بِالْبَيْتِ الْوَاحِدِ كِنَايَتَانِ: الْغَرَضُ مِنْهُمَا وَاحِدٌ وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا أَصْلٌ بِنَفْسِهَا كَقَوْلِهِ:

وَمَا يَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فَإِنِّي ... جَبَانُ الْكَلْبِ مَهْزُولُ الْفَصِيلِ

وَاعْلَمْ أَنَّ الْكِنَايَةَ جُزْءٌ مِنَ الِاسْتِعَارَةِ وَلَا تَأْتِي إِلَّا عَلَى حُكْمِ الِاسْتِعَارَةِ خَاصَّةً لِأَنَّ الِاسْتِعَارَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِحَيْثُ يُطْوَى ذِكْرُ الْمُسْتَعَارِ لَهُ. وَكَذٰلِكَ الْكِنَايَةُ فَإِنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا بِحَيْثُ يُطْوَى ذِكْرُ الْمَكْنِيِّ عَنْهُ وَنِسْبَتُهَا إِلَى الِاسْتِعَارَةِ نِسْبَةُ خَاصٍّ إِلَى عَامٍّ. فَيُقَالُ: كُلُّ كِنَايَةٍ اسْتِعَارَةٌ. وَلَيْسَ كُلُّ اسْتِعَارَةٍ كِنَايَةً. وَيُفَرَّقُ بَيْنَهُمَا مِنْ وَجْهٍ آخَرَ وَهُوَ: أَنَّ الِاسْتِعَارَةَ لَفْظُهَا صَرِيحٌ. وَالصَّرِيحُ

هُوَ مَا دَلَّ عَلَيهِ ظَاهِرُ لَفظِهِ وَٱلكِنَايَةُ ضِدُّ ٱلصَّرِيحِ لِأَنَّهَا عُدُولٌ عَنْ ظَاهِرِ ٱللَّفظِ . وَهٰذِهِ ثَلَاثَةُ فُرُوقٍ اَحَدُهَا : ٱلخُصُوصُ وَٱلعُمُومُ . وَٱلآخَرُ ٱلصَّرِيحُ . وَٱلآخَرُ ٱلحَملُ عَلَى جَانِبِ ٱلحَقِيقَةِ وَٱلمَجَازِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ ٱلقَولُ فِي بَابِ ٱلاِستِعَارَةِ اَنَّهَا جُزْءٌ مِنَ ٱلمَجَازِ . وَعَلَى ذٰلِكَ فَتَكُونُ نِسبَةُ ٱلكِنَايَةِ إِلَى ٱلمَجَازِ نِسبَةَ جُزْءِ ٱلجُزْءِ وَخَاصِّ ٱلخَاصِّ وَقَدْ يَأْتِي فِي ٱلكَلَامِ مَا يَجُوزُ اَنْ يَكُونَ كِنَايَةً وَيَجُوزُ اَنْ يَكُونَ ٱستِعَارَةً . وَذٰلِكَ يَختَلِفُ بِٱختِلَافِ ٱلنَّظَرِ اِلَيهِ فِي مُفرَدِهِ وَٱلنَّظَرِ اِلَى مَا بَعدَهُ كَقَولِ نَصرِ بنِ سَيَّارٍ فِي اَبيَاتِهِ ٱلمَشهُورَةِ ٱلَّتِي يُحَرِّضُ بِهَا بَنِي اُمَيَّةَ عِندَ خُرُوجِ اَبِي مُسلِمٍ :

اَرَى خَلَلَ ٱلرَّمَادِ وَمِيضَ جَمْرٍ ‏ ‏ ‏ وَيُوشِكُ اَنْ يَكُونَ لَهُ ضِرَامُ

البحث الثاني عشر

في التعريض

(من المثل السائر لابن الاثير بتصرُّف)

(راجع صفحة ٣٧ من علم الادب)

قَدْ تَكَلَّمَ عُلَمَاءُ ٱلبَيَانِ فِي ٱلتَّعرِيضِ فَوَجَدتُّهُمْ قَدْ خَلَطُوا ٱلتَّعرِيضَ بِٱلكِنَايَةِ وَلَمْ يَفرِقُوا بَينَهُمَا وَلَا حَدُّوا كُلًّا مِنهُمَا بِحَدٍّ يَفصِلُهُ عَنْ صَاحِبِهِ . بَلْ اَورَدُوا لَهُمَا اَمثِلَةً مِنَ ٱلنَّظمِ وَٱلنَّثرِ وَاَدخَلُوا اَحَدَهُمَا فِي ٱلآخَرِ . فَذَكَرُوا لِلكِنَايَةِ اَمثِلَةً مِنَ ٱلتَّعرِيضِ وَلِلتَّعرِيضِ اَمثِلَةً مِنَ ٱلكِنَايَةِ . فَمِمَّنْ فَعَلَ ذٰلِكَ ٱلغَانِمِيُّ وَٱبنُ سِنَانٍ وَٱلخَفَاجِيُّ وَٱلعَسكَرِيُّ . وَسَاَذكُرُ مَا عِندِي فِي ٱلفَرقِ بَينَهُمَا وَاُمَيِّزُ اَحَدَهُمَا

عَنِ ٱلآخَرِ لِيُعْرَفَ كُلٌّ مِنْهُمَا عَلَى ٱنْفِرَادِهِ . وَذٰلِكَ انَّ ٱلْكِنَايَةَ إِذَا وَرَدَتْ تَجَاذَبَهَا جَانِبَا حَقِيقَةٍ وَمَجَازٍ . وَجَازَ حَمْلُهَا عَلَى ٱلْجَانِبَيْنِ مَعًا فَيَصِحُّ بِكُلٍّ مِنْهُمَا ٱلْمَعْنَى وَلَا يَخْتَلُّ . وَٱلدَّلِيلُ عَلَى ذٰلِكَ انَّ ٱلْكِنَايَةَ فِي اصْلِ ٱلْوَضْعِ انْ تَتَكَلَّمَ بِشَيْءٍ وَتُرِيدَ غَيْرَهُ . يُقَالُ : كَنَيْتُ بِكَذَا عَنْ كَذَا . فَهِيَ تَدُلُّ عَلَى مَا تَكَلَّمْتَ بِهِ وَعَلَى مَا ارَدْتَهُ مِنْ غَيْرِهِ .
وَامَّا ٱلتَّعْرِيضُ فَهُوَ ٱللَّفْظُ ٱلدَّالُّ عَلَى ٱلشَّيْءِ مِنْ طَرِيقِ ٱلْمَفْهُومِ لَا بِٱلْوَضْعِ ٱلْحَقِيقِيِّ وَلَا ٱلْمَجَازِيِّ . فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ لِمَنْ تَتَوَقَّعُ صِلَتَهُ وَمَعْرُوفَهُ بِغَيْرِ طَلَبٍ : إِنِّي لَمُحْتَاجٌ وَلَيْسَ فِي يَدِي شَيْءٌ وَانَا عُرْيَانٌ وَٱلْبَرْدُ قَدْ آذَانِي . فَإِنَّ هٰذَا وَاشْبَاهَهُ تَعْرِيضٌ بِٱلطَّلَبِ وَلَيْسَ هٰذَا ٱللَّفْظُ مَوْضُوعًا فِي مُقَابَلَةِ ٱلطَّلَبِ لَا حَقِيقَةً بَلْ مَجَازًا . إِنَّمَا دَلَّ عَلَيْهِ مِنْ طَرِيقِ ٱلْمَفْهُومِ بِخِلَافِ دَلَالَةِ ٱلْكِنَايَةِ فَإِنَّهَا لَفْظِيَّةٌ وَضْعِيَّةٌ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَجَازِ . وَإِنَّمَا سُمِّيَ ٱلتَّعْرِيضُ تَعْرِيضًا لِأَنَّ ٱلْمَعْنَى فِيهِ يُفْهَمُ مِنْ عَرْضِهِ اي مِنْ جَانِبِهِ . وَمِنْ لَطِيفِ ٱلتَّعْرِيضَاتِ ٱلأَدَبِيَّةِ مَا يُرْوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ ٱلْخَطَّابِ : انَّهُ كَانَ يَخْطِبُ يَوْمَ جُمُعَةٍ فَدَخَلَ عُثْمَانُ ٱبْنُ عَفَّانَ . فَقَالَ عُمَرُ : ايَّةُ سَاعَةٍ هٰذِهِ . يُرِيدُ ٱلتَّعْرِيضَ بِٱلْإِنْكَارِ عَلَيْهِ لِتَأَخُّرِهِ عَنِ ٱلْمَجِيءِ إِلَى ٱلصَّلَاةِ . وَهُوَ مِنَ ٱلتَّعْرِيضِ ٱلْمُعْرِبِ عَنِ ٱلأَدَبِ . وَمِنْ امْثِلَتِهِ ٱلشِّعْرِيَّةِ قَوْلُ ٱلْحَجَّاجِ يُعَرِّضُ بِمَنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ ٱلأُمَرَاءِ :

لَسْتُ بِرَاعِي إِبِلٍ وَلَا غَنَمْ ... وَلَا بِجَزَّارٍ عَلَى ظَهْرِ وَضَمْ

البحث الثالث عشر

في ما ورد من الكنايات عن العرب

(عن كتاب الكناية للثعالبي وكتاب الصناعتين للعسكري)

اِعلَمْ انَّ ٱلعَرَبَ يَلتَجِئُونَ إِلَى ٱلكِنَايَةِ إِذَا مَا ارَادُوا ٱلتَّعرِيضَ عَمَّا يُستَقبَحُ ذِكرُهُ فَيَكنُونَ عَنِ ٱلأَعوَرِ بِٱلمُمَتَّعِ. وَعَنِ ٱلَّذِي فِي عَينَيهِ نُكتَةُ بَيَاضٍ بِٱلمُكَوكَبِ. وَعَمَّنْ فِي وَجهِهِ اثَرُ ضَربَةٍ بِٱلمُشَطَّبِ. وَلِبَعضِهِمْ فِي أَبرَصَ:

لَخُو لَخْمٍ اَعَارَكَ مِنهُ ثَوبًا هَنِيئًا بِٱلقَمِيصِ ٱلمُستَجَدِّ

ارَادَ بِاخِي لَخمٍ جذِيمَةَ ٱلأَبرَصَ. وَلِصَاحِبٍ فِي ٱلجَرَبِ:

ابَا ٱلعَلَاءِ هِلَالُ ٱلهَزلِ وَٱلجِدِّ كَيفَ ٱلنُّجُومُ ٱلَّتِي يَطلُعنَ فِي ٱلجِلدِ

وَيُكَنَّى عَنِ ٱلحَولِ بِٱلتَّاخُّرِ. قَالَ ٱلدُّؤَلِيُّ:

بِيضُ ٱلمَطَابِخِ لَا تَشكُو إِمَاؤُهُمُ طَبخَ ٱلقُدُورِ وَلَا غَسلَ ٱلمَنَادِيلِ

قَالَ آخَرُ:

ثِيَابُ طَبَّاخٍ إِذَا ٱتَّسَخَتْ أَنقَى بَيَاضًا مِنَ ٱلقَرَاطِيسِ

وَقَالَ أَبُو بَكرٍ ٱلخُوَارَزمِيُّ:

فَتًى مُختَصِرُ ٱلمَأْكُو لِ وَٱلمَشرُوبِ وَٱلعِطرِ
نَقِيُّ ٱلكَأْسِ وَٱلقَصعَةِ م وَٱلمِندِيلِ وَٱلقِدرِ

وَيَكنُونَ عَنِ ٱلجَاهِلِ بِأَنَّهُ مِنَ ٱلمُستَرِيحِينَ. وَيُروَى انَّ خِلَافًا وَقَعَ بَينَ بَعضِ ٱلخُلَفَاءِ وَبَينَ نَدِيمٍ لَهُ فِي مَسأَلَةٍ. فَٱتَّفَقَا عَلَى رَأْيِ بَعضِ اَهلِ ٱلعِلمِ فَأُحضِرَ. فَوَجَدَ ٱلخَلِيفَةَ مُخطِئًا فَقَالَ: ٱلقَائِلُونَ

بقول امير المؤمنين اكثر (يريد الجهال) . واذا كان الرجل احمق قيل : نعته لا ينصرف . وكان قابوس بن وشمكير اذا وصف رجلا بالبله قال : هو من اهل الجنة . ويقولون : فلان خفيف على القلب يريدون مقلوبا وهو الثقيل . وكان الناصر العلوي الأطروش اذا خاطبه احد فلم يسمع قال له : ارفع صوتك فان بأذني بعض ما بروحك . ونظر البديع الهمذاني الى رجل طويل بارد فقال : قد اقبل ليل الشتاء . ودخل رجل على مريض يعوده وقد اقشعر . فقال : ما تجد فديتك . قال : اجدك (يعني البرد) . وان كان الرجل كذوبا قيل : الفاختة عنده ابو ذر (يضرب المثل بالفاختة في الكذب وبابي ذر في الصدق) . ويقولون ايضا : فلان يلطم عين ميزان . (وميزان رجل يضرب به المثل في الكذب) . واذا كان الرجل ملولا قيل : هو من بقية قوم موسى . واذا كان ملحدا قيل : قد عبر (يريدون جسر الايمان) . قيل لبعضهم : هل عبرت . قال : في ذلك الجانب ولدت . وان كان يسيء الادب في المواكلة قيل : تسافر يده على الخوان ويرعى ارض الجيران . فان كان خفيف اليد في الطر والسرقة . قالوا : هو احد يد القميص (ويد القميص الكم والسارق يقصره ليكون اقدر على ١٠ يريد من سرقة) . فاذا كان قمل الثوب قيل : فلان يعرض الصيد . قال الصاحب :

وحوشه ترتع في جنبه   وظفره يركب للصيد

وَإِذَا كَانَ ٱلرَّجُلُ يَتَشَاعَرُ وَلَيْسَ يُجِيدُ قَالُوا: هُوَ نَبِيٌّ فِي ٱلشِّعْرِ.
قَالَ بَعْضُهُمْ:

يَا نَبِيَّ ٱللهِ فِي ٱلشِّعْرِ م وَيَا مَنْ فِيهِ يُكْرَمْ
أَنتَ مِنْ أَشْعَرِ خَلْقِ ٱللهِ م مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ

وَيُقَالُ: فُلَانٌ رَابِعُ ٱلشُّعَرَاءِ. إِذَا كَانَ مُتَخَلِّفًا مُنْحَطَّ ٱلطَّبَقَةِ لِقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

ٱلشُّعَرَاءُ فَٱعْلَمَنَّ أَرْبَعَهْ … فَشَاعِرٌ يَجْرِي وَلَا يُجْرَى مَعَهْ
وَشَاعِرٌ يُنْشِدُ وَسْطَ ٱلْمَجْمَعَهْ … وَشَاعِرٌ مِنْ حَقِّهِ أَنْ تَسْمَعَهْ
وَشَاعِرٌ مِنْ حَقِّهِ أَنْ تَصْفَعَهْ

وَسُئِلَ حَائِكٌ عَنْ صِنَاعَتِهِ فَقَالَ: كُسْوَةُ ٱلْأَحْيَاءِ وَجَهَازُ ٱلْمَوْتَى.
وَيَكْنُونَ عَنِ ٱلْقَرَوِيِّ بِأَخْضَرِ ٱلْأَسْنَانِ مِنْ كَثْرَةِ أَكْلِ ٱلْبَقْلِ.
وَسُئِلَ حَجَّامٌ عَنْ صِنَاعَتِهِ. فَقَالَ: أَكْتُبُ بِٱلْحَدِيدِ وَأَخْتِمُ بِٱلزُّجَاجِ.
وَفِيهِ قِيلَ:

يَا ٱبْنَ ٱلَّذِي عَاشَ غَيْرَ مُضْطَهَدٍ … بِرَحْمَةِ ٱللهِ أَيَّمَا رَجُلِ
أَبُوكَ أَوْهَى ٱلنِّجَادُ عَاتِقَهُ … كَمْ مِنْ كَمِيٍّ أَدْمَى وَكَمْ بَطَلِ
لَهُ رِقَابُ ٱلْمُلُوكِ خَاضِعَةٌ … مِنْ بَيْنِ حَافٍ وَبَيْنِ مُنْتَعِلِ
يَأْخُذُ مِنْ مَالِهِ وَمِنْ دَمِهِ … لَمْ يُمْسِ مِنْ ثَائِرٍ عَلَى وَجَلِ (١)

وَيُقَالُ عَمَّنْ يُكْثِرُ ٱلْأَسْفَارَ: فُلَانٌ لَا يَضَعُ ٱلْعَصَا عَنْ عَاتِقِهِ.
وَجَاءَ فِي ٱلْقُرْآنِ: أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ. فَإِنَّهُ

(١) راجع الجزء الثالث من مجاني الادب صفحة ١٥١

كَنَى عَنِ ٱلْغِيبَةِ بِأَكْلِ ٱلْإِنْسَانِ لَحْمَ ٱلْإِنْسَانِ . وَهٰذَا شَدِيدُ ٱلْمُنَاسَبَةِ لِأَنَّ ٱلْغِيبَةَ إِنَّمَا هِيَ ذِكْرُ مَثَالِبِ ٱلنَّاسِ وَتَمْزِيقُ أَعْرَاضِهِمْ وَتَمْزِيقُ ٱلْعِرْضِ مُمَاثِلٌ لِأَكْلِ ٱلْإِنْسَانِ لَحْمَ مَنْ يَغْتَابُهُ . وَمِنْ أَمْثَالِ ٱلْعَرَبِ قَوْلُهُمْ : لَبِسَ لِفُلَانٍ جِلْدَ ٱلنَّمِرِ وَجِلْدَ ٱلْأَرْقَمِ . كِنَايَةً عَنِ ٱلْعَدَاوَةِ . وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُمْ : قَلَبَ لَهُ ظَهْرَ ٱلْمِجَنِّ كِنَايَةً عَنْ تَغْيِيرِ ٱلْمَوَدَّةِ . وَمِنْ ظَرِيفِ ٱلْكِنَايَاتِ مَا جَاءَ عَنِ ٱلْجَمَّازِ وَقَدْ قِيلَ لَهُ : أَيُّ ٱلْبُقُولِ أَحَبُّ إِلَيْكَ . فَقَالَ : بَقْلَةُ ٱلذِّئْبِ (يَعْنِي ٱللَّحْمَ) . وَرَأَى رَجُلٌ مَنْ أَضَافُوهُ يُطِيلُونَ ٱلْغِنَاءَ وَلَا يَأْتُونَ بِٱلْأَكْلِ فَقَالَ :

خَلِيلَيَّ دَاوَيْتُمَا ظَاهِرًا فَمَنْ ذَا يُدَاوِي جَوًى بَاطِنَا

فَعَلِمُوا أَنَّهُ جَائِعٌ . وَأُخْبِرَ عَنِ ٱلْجَاحِظِ أَنَّهُ أَكَلَ مَعَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱلزَّيَّاتِ فَالُوذَجَةً فَأَمَرَ ٱبْنُ ٱلزَّيَّاتِ أَنْ يُجْعَلَ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْجَاحِظِ مَا رَقَّ مِنَ ٱلْجَامِ . فَأَسْرَعَ فِي ٱلْأَكْلِ حَتَّى نَظَّفَ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ . فَقَالَ لَهُ مُحَمَّدٌ : يَا أَبَا عُثْمَانَ قَدْ تَقَشَّعَتْ سَمَاؤُكَ . فَقَالَ : أَصْلَحَكَ ٱللهُ لِأَنَّ غَيْمَهَا كَانَ رَقِيقًا . وَكَذٰلِكَ يُقِيمُونَ وَصْفَ ٱلشَّيْءِ مَقَامَ ٱسْمِهِ كَمَا قَالَ : حَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ . يَعْنِي ٱلسَّفِينَةَ فَوَضَعَ صِفَتَهَا مَوْضِعَ تَسْمِيَتِهَا . وَقَالَ : إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّافِنَاتُ ٱلْجِيَادُ . يَعْنِي ٱلْخَيْلَ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ :

سَأَلَتْ قُتَيْبَةُ عَنْ أَبِيهَا صَحْبَهُ فِي ٱلرَّوْحِ هَلْ رَكِبَ ٱلْأَغَرَّ ٱلْأَشْقَرَا

يَعْنِي هَلْ قُتِلَ . وَٱلْأَغَرُّ ٱلْأَشْقَرُ وَصْفُ ٱلدَّمِ فَأَقَامَهُ مَقَامَ ٱسْمِهِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْمُحَدَّثِينَ :

شِمْتُ بَرْقَ ٱلْوَزِيرِ فَٱنْهَلَّ حَتَّى ‌ ‌ ‌ ‌ لَمْ أَجِدْ مَهْرَبًا إِلَى ٱلْأَقْدَامِ
فَكَأَنِّي وَقَدْ تَقَاصَرَ بَاعِي ‌ ‌ ‌ ‌ خَابِطٌ فِي عُبَابِ أَخْضَرَ طَامِي

يَعْنِي ٱلْبَحْرَ. وَقَالَ ٱلْحَجَّاجُ لِٱبْنِ ٱلْقَبَعْثَرِيِّ: لَأَحْمِلَنَّكَ عَلَى ٱلْأَدْهَمِ. يَعْنِي ٱلْقَتْلَ. فَتَجَاهَلَ عَلَيْهِ وَقَالَ: مِثْلُ ٱلْأَمِيرِ يَحْمِلُ عَلَى ٱلْأَدْهَمِ وَٱلْأَشْهَبِ. يُرِيدُ ٱلْخَيْلَ. وَمِنْ ذٰلِكَ: أَنَّ ٱلْمَنْصُورَ كَانَ فِي بُسْتَانٍ لَهُ وَهُوَ فِي أَيَّامِ مُحَارَبَتِهِ إِبْرَاهِيمَ بْنَ عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ ٱلْحَسَنِ وَنَظَرَ إِلَى شَجَرَةِ خِلَافٍ فَقَالَ لِلرَّبِيعِ: مَا هٰذِهِ ٱلشَّجَرَةُ. فَقَالَ: طَاعَةٌ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ. فَتَفَاءَلَ ٱلْمَنْصُورُ بِهِ وَعَجِبَ مِنْ ذَكَائِهِ. وَمِثْلُ ذٰلِكَ: أَنَّ رَجُلًا مَرَّ فِي صَحْنِ دَارِ ٱلرَّشِيدِ وَمَعَهُ حُزْمَةُ خَيْزُرَانٍ. فَقَالَ ٱلرَّشِيدُ لِلْفَضْلِ بْنِ ٱلرَّبِيعِ: مَا ذَاكَ. فَقَالَ: عُرُوقُ ٱلرِّمَاحِ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ. وَكَرِهَ أَنْ يَقُولَ ٱلْخَيْزُرَانَ لِمُوَافَقَتِهِ ٱسْمَ وَالِدَةِ ٱلرَّشِيدِ. وَمِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ أَيْضًا فِي هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُهُمْ: فُلَانٌ نَقِيُّ ٱلثَّوْبِ. يُرِيدُونَ بِهِ أَنَّهُ لَا عَيْبَ فِيهِ وَلَيْسَ بِمَوْضُوعٍ نَقَاءُ ٱلثَّوْبِ ٱلْبَرَاءَةَ مِنَ ٱلْعَيْبِ وَإِنَّمَا ٱسْتُعْمِلَ فِيهِ تَمْثِيلًا. وَقَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ:

ثِيَابُ بَنِي عَوْفٍ طَهَارَى نَقِيَّةٌ ‌ ‌ ‌ ‌ وَأَوْجُهُهُمْ عِنْدَ ٱلْمَشَاهِدِ غُرَّاتُ

وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُمْ: فُلَانٌ طَاهِرُ ٱلثَّوْبِ. يُرِيدُونَ أَنَّهُ لَيْسَ بِخَائِنٍ وَلَا غَادِرٍ. وَفُلَانٌ دَنِسُ ٱلثَّوْبِ إِذَا كَانَ غَادِرًا فَاجِرًا. وَقَوْلُهُمْ: طَيِّبُ ٱلْحُجْزَةِ أَيْ عَفِيفٌ. قَالَ ٱلنَّابِغَةُ يَمْدَحُ بَنِي غَسَّانَ ٱلنَّصَارَى:

رِقَاقُ ٱلنِّعَالِ طَيِّبٌ حُجُزَاتُهُمْ ‌ ‌ ‌ ‌ يُحَيَّوْنَ بِٱلرَّيْحَانِ يَوْمَ ٱلسَّبَاسِبِ

وَقَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ: إِذَا قَالَتِ ٱلْعَرَبُ: ٱلثَّوْبَ وَٱلْإِزَارَ. فَإِنَّهُمْ

يريدون ٱلبدنَ. ويقولون: فلانٌ أوسعُ بني أميَّة ثوبًا. أي أكثرهم معروفًا. وفلانٌ غمرُ ٱلرِّداء إذا كان كثيرَ ٱلمعروف. قال كثيِّرٌ:

غمرُ ٱلرِّداء إذا تبسَّمَ ضاحكًا   غلِقَتْ لضحكتِهِ رقابُ ٱلمالِ

وكذلكَ قولهُم: فلانٌ رحبُ ٱلذِّراعِ. ومِنَ ٱلكناياتِ ٱللطيفةِ ما ذكرَها ٱلأُدباء في ٱلشَّيبِ وٱلكِبَرِ. فيقولون: عرضَتْ لفلانٍ فترةٌ. عرضَ لهُ ما يمحو ذنوبَهُ ويكفِّرُ سيِّئاتِهِ. أقمرَ ليلُهُ نوَّرَ غصنُ شبابِهِ. فضَّ ٱلزمانُ أبنوسَهُ. وجاءهُ ٱلنَّذيرُ. وقرعَ ناجذَ ٱلحِلْمِ. وٱرتاضَ بلجامِ ٱلدَّهرِ. أدركَ زمانَ ٱلحُنكةِ. رفضَ غِرَّةَ ٱلصِّبى ولبَّى داعيَ ٱلحجى. ومِنْ كناياتِهِمْ عنِ ٱلموتِ: ٱستأثرَ ٱللهُ بِهِ. أسعدَهُ ٱللهُ بجوارِهِ. نقلَهُ إلى دارِ رضوانِهِ ومحلِّ غفرانِهِ. ٱنتقلَ إلى جوارِ ربِّهِ وٱنقلبَ إلى محلِّ عفوِهِ. ٱختارَ لهُ ٱلنُّقلةَ مِنْ دارِ ٱلبوارِ إلى دارِ ٱلأبرارِ

البحث الرابع عشر

في المبالغة

(عن بديعية الحموي وكتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٣٩ من علم الادب)

ٱلمبالغةُ نوعٌ معدودٌ مِنْ محاسنِ فنِّ ٱلكتابةِ عِندَ ٱلجمهورِ وٱستدلُّوا على ذلكَ بقولِ مَنْ قالَ: أحسَنُ ٱلشِّعرِ أكذَبُهُ. وبقولِ ٱلنَّابغةِ ٱلذُّبيانيِّ: أشعرُ ٱلنَّاسِ مَنِ ٱستُجيدَ كذِبُهُ. ومِنْهُمْ مَنْ لَمْ يعُدَّ

ٱلْمُبَالَغَةَ مِنْ حَسَنَاتِ ٱلْكَلَامِ وَمَشَى فِي ذٰلِكَ عَلَى مَذْهَبِ حَسَّانِ ٱبْنِ ثَابِتٍ فَإِنَّهُ قَالَ :

وَإِنَّمَا ٱلشِّعْرُ عَقْلُ ٱلْمَرْءِ يَعْرِضُهُ عَلَى ٱلْأَنَامِ فَإِنْ كَيْسًا وَإِنْ حُمُقَا
وَإِنَّ أَشْعَرَ بَيْتٍ أَنْتَ قَائِلُهُ بَيْتٌ يُقَالُ إِذَا أَنْشَدْتَهُ صَدَقَا

وَعِنْدَ أَهْلِ هٰذَا ٱلْمَذْهَبِ أَنَّ ٱلْمُبَالَغَةَ لَمْ تُسْفِرْ عَنْ غَيْرِ ٱلتَّهْوِيلِ عَلَى ٱلسَّامِعِ وَلَمْ يَفِرَّ ٱلنَّاظِمُ إِلَى ٱلتَّخْيِيمِ عَلَيْهَا إِلَّا بِعَجْزِهِ وَقُصُورِ هِمَّتِهِ عَنِ ٱخْتِرَاعِ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُبْتَكَرَةِ . لِأَنَّهَا فِي صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ كَٱلْإِسْتِرَاحَةِ مِنَ ٱلشَّاعِرِ إِذَا أَعْيَاهُ إِيرَادُ ٱلْمَعَانِي ٱلْغَرِيبَةِ فَيَشْغَلُ ٱلْأَسْمَاعَ بِمَا هُوَ مُحَالٌ وَتَهْوِيلٌ . وَقَالُوا : رُبَّمَا إِنَّهَا أَحَالَتِ ٱلْمَعَانِيَ فَأَخْرَجَتْهَا عَنْ حَدِّ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُمْكِنِ إِلَى حَدِّ ٱلْإِمْتِنَاعِ . وَٱلْمُبَالَغَةُ تُعَابُ فِي بَابِهَا إِذَا خَرَجَتْ عَنْ حَدِّ ٱلْإِمْكَانِ إِلَى ٱلْإِسْتِحَالَةِ وَأَتَى ٱلْكَلَامُ عَلَى حَدِّهَا فِي مَوْضِعِهِ . وَٱلَّذِي أَقُولُهُ : إِنَّ ٱلْمُبَالَغَةَ مِنْ مَحَاسِنِ أَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ وَلَمْ يَسْتَطْرِدْ فِي حَلَبَاتِ سَبْقِهَا إِلَّا فُحُولُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ . وَلَوْ سَلَّمْنَا إِلَى مَنْ يَهْضِمُ جَانِبَهَا وَلَمْ يَعُدَّهَا مِنْ حَسَنَاتِ ٱلْكَلَامِ بَطَلَتْ بَلَاغَةُ ٱلْإِسْتِعَارَةِ وَٱنْحَطَّتْ رُتْبَةُ ٱلتَّشْبِيهِ . وَتَسْمِيَةُ ٱلْمُبَالَغَةِ مَنْسُوبَةٌ إِلَى قُدَامَةَ . وَمِنْهُمْ مَنْ سَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعَ ٱلتَّبْلِيغَ . وَسَمَّاهُ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ : ٱلْإِفْرَاطَ فِي ٱلصِّفَةِ . وَهٰذِهِ ٱلتَّسْمِيَةُ طَابَقَتِ ٱلْمُسَمَّى . وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ رَغِبُوا فِي تَسْمِيَةِ قُدَامَةَ لِخِفَّتِهَا . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ أَعْنِي ٱلْمُبَالَغَةَ شَرِكَهُ قَوْمٌ مَعَ ٱلْإِغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ لِعَدَمِ مَعْرِفَةِ ٱلْفَرْقِ وَهُوَ مِثْلُ ٱلصُّبْحِ ظَاهِرٌ . (وَٱلْمُبَالَغَةُ) فِي ٱلْإِصْطِلَاحِ هِيَ إِفْرَاطُ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْقَرِيبِ وُقُوعُهُ

عَادَةً . (وَٱلْاِغْرَاقُ) وَصْفُ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْبَعِيدِ وُقُوعُهُ عَادَةً . (وَٱلْغُلُوُّ) وَصْفُهُ بِمَا يَسْتَحِيلُ وُقُوعُهُ. وَيَأْتِي ٱلْكَلَامُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلثَّلَاثَةِ فِي مَوْضِعِهِ . وَقَدْ تَقَرَّرَ اَوَّلًا اَنَّ ٱلْمُبَالَغَةَ نَوْعُهَا مَبْنِيٌّ عَلَى وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْقَرِيبِ وُقُوعُهُ . وَحَدَّ قُدَامَةُ ٱلْمُبَالَغَةَ فَقَالَ : هِيَ اَنْ يَذْكُرَ ٱلْمُتَكَلِّمُ حَالًا مِنَ ٱلْاَحْوَالِ لَوْ وُقِفَ عِنْدَهَا لَاَجْزَاَتْ فَلَا يَقِفُ حَتَّى يَزِيدَ فِي مَعْنَى مَا ذَكَرَهُ مَا يَكُونُ اَبْلَغَ مِنْ مَعْنَى قَصْدِهِ كَقَوْلِ عُمَيْرِ بْنِ كَرِيمٍ ٱلتَّغْلِبِيِّ :

وَنُكْرِمُ جَارَنَا مَا دَامَ فِينَا وَنُتْبِعُهُ ٱلْكَرَامَةَ حَيْثُ مَالَا

وَقَالَ : إِنَّ هٰذَا ٱلْبَيْتَ مِنْ اَحْسَنِ ٱلْمُبَالَغَةِ عِنْدَ ٱلْحُذَّاقِ . فَاِنَّ ٱلشَّاعِرَ بَلَغَ فِيهِ اِلَى اَقْصَى مَا يُمْكِنُ مِنْ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ وَتَوَصَّلَ اِلَى اَكْثَرِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ فَتَعَطَّاهُ . وَلَخَّصَ بَعْضُهُمْ عِبَارَةَ ٱلْحَدِّ ٱلَّذِي حَدَّهُ قُدَامَةُ وَقَالَ : ٱلْمَعْنَى اِذَا زَادَ عَلَى ٱلتَّمَامِ سُمِّيَ مُبَالَغَةً . وَقَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ : ٱلْمُبَالَغَةُ بُلُوغُ ٱلشَّاعِرِ اَقْصَى مَا يُمْكِنُ فِي وَصْفِ ٱلشَّيْءِ . قُلْتُ عَلَى هٰذَا ٱلتَّقْرِيرِ : فَجُلُّ ٱلْقَصْدِ فِي ٱلْمُبَالَغَةِ ٱلْاِمْكَانُ وَٱلْخُرُوجُ مِنَ ٱلْمُسْتَحِيلِ . وَٱلْمَذْهَبُ ٱلصَّحِيحُ فِيهَا اَنَّهَا ضَرْبٌ مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ اِذَا بَعُدَتْ عَنِ ٱلْاِغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ . وَاِنْ كَانَ ٱلْاِغْرَاقُ وَٱلْغُلُوُّ ضَرْبَيْنِ مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ وَنَوْعَيْنِ مِنْ اَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ . فَقَدْ شَرَطَ عُلَمَاؤُهُ اَنَّ ٱلنَّوْعَ لَا يَتَجَاوَزُ حَدَّهُ بِحَيْثُ يَزُولُ ٱلْاِلْتِبَاسُ وَيُعْجِبُنِي مِنْ اَمْثِلَةِ ٱلْمُبَالَغَةِ فِي ٱلْمَدِيحِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ :

اَضَاءَتْ لَهُمْ اَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ دُجَى ٱللَّيْلِ حَتَّى نَظَّمَ ٱلْجَزْعَ ثَاقِبُهْ

فَٱلْمَعْنَى تَمَّ لِلنَّاظِمِ لَمَّا ٱنْتَهَى فِي بَيْتِهِ إِلَى قَوْلِهِ : دُجَى ٱللَّيْلِ وَلٰكِنْ زَادَ بِمَا هُوَ أَبْلَغُ وَأَبْدَعُ وَأَغْرَبُ فِي قَوْلِهِ : حَتَّى تَظَلَّمَ ٱلْجَزْعَ ثَاقِبُهُ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي فِي وَصْفِ جَوَادٍ :

وَأَصْرَعُ أَيَّ ٱلْوَحْشِ قَفَّيْتُهُ بِهِ ۝ وَأَنْزِلُ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ أَرْكَبُ

قَالَ ذَكِيُّ ٱلدِّينِ بْنُ أَبِي ٱلْإِصْبَعِ فِي كِتَابِهِ ٱلْمُسَمَّى بِتَحْرِيرِ ٱلتَّحْبِيرِ : أَبْلَغُ شِعْرٍ سَمِعْتُهُ فِي بَابِ ٱلْمُبَالَغَةِ قَوْلُ شَاعِرِ ٱلْحَمَاسَةِ إِذْ بَالَغَ فِي مَدْحِ مَمْدُوحِهِ بِقَوْلِهِ :

رَهَنْتُ يَدِي بِٱلْعَجْزِ عَنْ شُكْرِ بِرِّهِ ۝ وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشَّكُورِ مَزِيدُ
وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ ٱسْتَطَعْتُهُ ۝ وَلٰكِنَّ مَا لَا يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ

فَٱنْظُرْ مَا أَحْلَى ٱحْتِرَاسَهُ عَنْ ذٰلِكَ بِقَوْلِهِ : وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشَّكُورِ مَزِيدُ . وَٱنْظُرْ كَيْفَ أَظْهَرَ عُذْرَهُ فِي عَجْزِهِ مَعَ قُدْرَتِهِ بِأَنْ قَالَ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي : وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ ٱسْتَطَعْتُهُ . ثُمَّ أَخْرَجَ بَقِيَّةَ ٱلْبَيْتِ لِلْمُبَالَغَةِ مُخْرَجَ ٱلْمَثَلِ ٱلسَّائِرِ حَيْثُ قَالَ : وَلٰكِنَّ مَا لَا يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ . وَمِنْ هُنَا قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

لَا تُسْدِيَنَّ إِلَيَّ عَارِفَةً ۝ حَتَّى أَقُومَ بِشُكْرِ مَا سَلَفَا

وَمِنْ حَسَنِ ٱلْمُبَالَغَةِ قَوْلُ ٱلْحَكَمِ ٱلْحَضْرَمِيِّ :

وَأَقْبَحُ مِنْ قِرْدٍ وَأَبْخَلُ بِٱلْقِرَى ۝ مِنَ ٱلْكَلْبِ أَمْسَى وَهُوَ غَرْثَانُ أَعْجَفُ

فَٱلْكَلْبُ بَخِيلٌ عَلَى مَا ظَفِرَ بِهِ وَهُوَ أَشَدُّ بُخْلًا إِذَا كَانَ جَائِعًا أَعْجَفَ أَمَّا (ٱلْإِغْرَاقُ) فَهُوَ فَوْقَ ٱلْمُبَالَغَةِ وَلٰكِنَّهُ دُونَ ٱلْغُلُوِّ . وَهُوَ

فِي ٱلْإِصْطِلَاحِ إِفْرَاطُ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْبَعِيدِ وُقُوعُهُ عَادَةً وَقَلَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا . وَغَالِبُ ٱلنَّاسِ عِنْدَهُمُ ٱلْمُبَالَغَةُ وَٱلْإِغْرَاقُ وَٱلْغُلُوُّ نَوْعٌ وَاحِدٌ مَعَ أَنَّهَا تَخْتَلِفُ كَمَا سَبَقَ . وَكُلٌّ مِنَ ٱلْإِغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ لَا يُعَدُّ مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ إِلَّا إِذَا ٱقْتَرَنَ بِمَا يُقَرِّبُهُ إِلَى ٱلْقَبُولِ (كَقَدْ) لِلْإِحْتِمَالِ . (وَلَوْلَا) لِلْإِمْتِنَاعِ . (وَكَادَ) لِلْمُقَارَبَةِ . وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلتَّقْرِيبِ . وَمَا وَقَعَ شَيْءٌ مِنَ ٱلْإِغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلصَّحِيحِ إِلَّا مَقْرُونًا بِمَا يُخْرِجُهُ مِنْ بَابِ ٱلْإِسْتِحَالَةِ وَيُدْخِلُهُ فِي بَابِ ٱلْإِمْكَانِ مِثْلُ : (كَادَ وَلَوْ) وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا كَقَوْلِهِ : يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يُذْهِبُ ٱلْأَبْصَارَ . إِذْ لَا يَسْتَحِيلُ فِي ٱلْعَقْلِ أَنَّ ٱلْبَرْقَ يَخْطَفُ ٱلْأَبْصَارَ وَلٰكِنَّهُ يَمْتَنِعُ عَادَةً . وَمَا زَادَ عَلَى وَجْهِ ٱلْإِغْرَاقِ هُنَا جَمَالًا إِلَّا بِتَقْرِيبِهِ (بِكَادَ) . وَٱقْتِرَانُ هٰذِهِ ٱلْجُمْلَةِ بِهَا هُوَ ٱلَّذِي صَرَفَهُ إِلَى ٱلْحَقِيقَةِ فَقُلِبَتْ مِنَ ٱلْإِمْتِنَاعِ إِلَى ٱلْإِمْكَانِ . وَمِنْ شَوَاهِدِ تَقْرِيبِ نَوْعِ ٱلْإِغْرَاقِ (بِلَوْ) قَوْلُ زُهَيْرٍ :

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ ٱلشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ
قَوْمٌ بِأَوَّلِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا

فَٱقْتِرَانُ هٰذِهِ ٱلْجُمْلَةِ أَيْضًا بِٱمْتِنَاعِ قُعُودِ ٱلْقَوْمِ فَوْقَ ٱلشَّمْسِ ٱلْمُسْتَفَادِ (بِلَوْ) هُوَ ٱلَّذِي أَظْهَرَ بَهْجَةَ شَمْسِهَا فِي بَابِ ٱلْإِغْرَاقِ وَرُبَّمَا جَاءَ دُونَ ذٰلِكَ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ فِي رَجُلٍ طَوِيلِ ٱلْأَنْفِ :

لَكَ أَنْفٌ يَا ٱبْنَ حَرْبٍ   أَنِفَتْ مِنْهُ ٱلْأُنُوفُ
أَنْتَ فِي ٱلْبَيْتِ وَعِرْنِينُكَ م   فِي ٱلسُّوقِ يَطُوفُ

وَكَقَوْلِ ٱلطِّرِمَّاحِ يَهْجُو تَمِيمًا :

تَمِيمٌ بِطُرْقِ ٱللُّؤْمِ اَهْدَى مِنَ ٱلْقَطَا ... وَلَوْ سَلَكَتْ سُبُلَ ٱلْمَكَارِمِ ضَلَّتِ
وَلَوْ اَنَّ بُرْغُوثًا عَلَى ظَهْرِ قَمْلَةٍ ... يَكُرُّ عَلَى صَفَّيْ تَمِيمٍ لَوَلَّتِ
وَلَوْ اَنَّ أُمَّ ٱلْعَنْكَبُوتِ بَنَتْ لَهَا ... مَظَلَّتَهَا يَوْمَ ٱلنَّدَى لَٱسْتَظَلَّتِ
وَلَوْ جُمِعَتْ يَوْمًا تَمِيمٌ جُمُوعَهَا ... عَلَى ذُرْوَةٍ مِنْحَالَةٍ لَٱسْتَقَلَّتِ

اَمَّا (ٱلْغُلُوُّ) فَهُوَ فَوْقَ ٱلْمُبَالَغَةِ وَٱلْاِغْرَاقِ فَاِنَّهُ ٱلْاِفْرَاطُ فِي وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُسْتَحِيلِ وُقُوعُهُ عَقْلًا وَعَادَةً وَهُوَ يَنْقَسِمُ اِلَى قِسْمَيْنِ : مَقْبُولٍ وَغَيْرِ مَقْبُولٍ . فَٱلْمَقْبُول لَا بُدَّ اَنْ يُقَرِّبَهُ ٱلنَّاظِمُ اِلَى ٱلْقَبُولِ بِاَدَاةِ ٱلتَّقْرِيبِ ٱللَّهُمَّ اِلَّا اَنْ يَكُونَ ٱلْغُلُوُّ فِي مَدِيحِ نَبِيٍّ فَلَا غُلُوَّ . وَيَجِبُ عَلَى صَاحِبِ ٱلْغُلُوِّ اَنْ يَسْبِكَهُ فِي قَوَالِبِ ٱلتَّخَيُّلَاتِ ٱلْحَسَنَةِ ٱلَّتِي يَدْعُو ٱلْعَقْلُ اِلَى قَبُولِهَا فِي اَوَّلِ وَهْلَةٍ كَقَوْلِهِ : يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ . فَاِنَّ اِضَاءَةَ ٱلزَّيْتِ مِنْ غَيْرِ مَسِّ نَارٍ مُسْتَحِيلَةٌ عَقْلًا وَلٰكِنَّ لَفْظَةَ (يَكَادُ) قَرَّبَتْهُ فَصَارَ مَقْبُولًا . وَمِنْهُ قَوْلُ اَبِي ٱلْعَلَاءِ ٱلْمَعَرِّيِّ :

تَكَادُ قِسِيُّهُ مِنْ غَيْرِ رَامٍ ... تُمَكِّنُ فِي قُلُوبِهِمِ ٱلنِّبَالَا
تَكَادُ سُيُوفُهُ مِنْ غَيْرِ سَلٍّ ... تَجِدُّ اِلَى رِقَابِهِمِ ٱنْسِلَالَا

وَيُعْجِبُنِي هُنَا قَوْلُ ٱبْنِ حَمْدِيسَ ٱلصِّقِلِّيِّ فِي وَصْفِ فَرَسٍ :

وَيَكَادُ يَخْرُجُ سُرْعَةً مِنْ ظِلِّهِ ... لَوْ كَانَ يَرْغَبُ فِي فِرَاقِ رَفِيقِ

وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ فِي عَلِيِّ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ اَبِي طَالِبٍ :

يَكَادُ يُمْسِكُهُ عِرْفَانَ رَاحَتِهِ ... رُكْنُ ٱلْحَطِيمِ اِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ

وَمِنَ ٱلْغُلُوِّ ٱلْمَقْبُولِ بِغَيْرِ اَدَاةِ ٱلتَّقْرِيبِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي فِي مَمْدُوحِهِ :

عَقَدَتْ سَنَابِكُهَا عَلَيْهِ عِثْيَرًا   لَوْ تَبْتَغِي عَنَقًا عَلَيْهِ لَاَمْكَنَا *

وَٱنْعِقَادُ ٱلْغُبَارِ فِي ٱلْهَوَاءِ حَتَّى يُمْكِنَ ٱلْمَشْيُ عَلَيْهِ مُسْتَحِيلٌ عَقْلًا وَعَادَةً اِلَّا اِنَّهُ تَخَيُّلٌ مَقْبُولٌ

وَكَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ فِي ٱلْخَلِيفَةِ ٱلْمُتَوَكِّلِ :

وَلَوَ اَنَّ مُشْتَاقًا تَكَلَّفَ غَيْرَ مَا   فِي وُسْعِهِ لَسَعَى اِلَيْكَ ٱلْمِنْبَرُ

وَامَّا ٱلَّذِي هُوَ غَيْرُ مَقْبُولٍ فَكَقَوْلِ اَبِي نُوَاسٍ فِي ٱلْخَمْرَةِ :

فَلَمَّا شَرِبْنَاهَا وَدَبَّ دَبِيبُهَا   اِلَى مَوْضِعِ ٱلْاَسْرَارِ قُلْتُ لَهَا قِفِي

مَخَافَةَ اَنْ يَسْطُو عَلَيَّ شُعَاعُهَا   فَيَطَّلِعَ نَدْمَانِي عَلَى سِرِّيَ ٱلْخَفِي

قَالُوا : اِنَّ سَطْوَةَ شُعَاعِ ٱلْخَمْرِ بِحَيْثُ يَصِيرُ جِسْمُهُ شَفَّافًا يُظْهِرُ لِنَدِيمِهِ مَا فِي بَاطِنِهِ لَا يُمْكِنُ عَقْلًا وَلَا عَادَةً . قُلْتُ : وَمَرَاتِبُ ٱلْغُلُوِّ تَتَفَاوَتُ اِلَى اَنْ تَؤُولَ بِقَائِلِهَا اِلَى ٱلْكُفْرِ كَقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

تَتَقَاصَرُ ٱلْاَفْهَامُ عَنْ اِدْرَاكِهِ   مِثْلَ ٱلَّذِي ٱلْاَفْلَاكُ فِيهِ وَٱلدُّنَى

وَكَقَوْلِهِ :

كَاَنِّي دَحَوْتُ ٱلْاَرْضَ مِنْ خِبْرَتِي بِهَا   كَاَنِّي بَنَى ٱلْاِسْكَنْدَرُ ٱلسَّدَّ مِنْ عَزْمِي

فَهٰذَا ٱلْغُلُوُّ يُؤَدِّي اِلَى سَخَافَةِ ٱلْعَقْلِ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ قُبْحِ ٱلتَّرْكِيبِ وَلَوْلَا ٱلْاِطَالَةُ لَاَوْرَدْتُ كَثِيرًا مِنْ نَظْمِ ٱلَّذِينَ يَتَسَاهَلُونَ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ كَاَبِي

* معنى هذا البيت ان سنابك الخيل وهي اطراف الحوافر عقدت على هذا الممدوح عثيرًا وهو الغبار حتى لو اراد ان يمشي عليه عنقًا لامكن . والعنق هو المشي السريع

نُوَاسٍ وَٱبْنِ هَانِئٍ ٱلْاَنْدَلُسِيِّ وَٱلْمُتَنَبِّي وَاَبِي ٱلْعَلَاءِ ٱلْمَعَرِّيِّ وَغَيْرِهِ مِنَ ٱلْمُتَاخِرِينَ كَٱبْنِ ٱلنَّبِيهِ وَمَنْ جَرَى مَجْرَاهُ . وَفِي مَا قَدَّمْنَا كِفَايَةٌ

البحث الخامس عشر

في التكرير

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

(راجع صفحة ٤٢ من علم الادب)

اِعْلَمْ اَنَّ هٰذَا ٱلنَّوْعَ مِنْ مَقَاتِلِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ وَهُوَ دَقِيقُ ٱلْمَأْخَذِ وَحَدُّهُ هُوَ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مُرَدَّدًا . وَهُوَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : اَحَدُهُمَا يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى وَٱلْآخَرُ يُوجَدُ فِي ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ فَاَمَّا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى فَكَقَوْلِكَ لِمَنْ تَسْتَدْعِيهِ : اَسْرِعْ اَسْرِعْ . وَاَمَّا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ فَكَقَوْلِكَ : اَطِعْنِي وَلَا تَعْصِنِي . فَاِنَّ ٱلْاَمْرَ بِٱلطَّاعَةِ نَهْيٌ عَنِ ٱلْمَعْصِيَةِ . وَكُلٌّ مِنْ هٰذَيْنِ ٱلْقِسْمَيْنِ يَنْقَسِمُ اِلَى مُفِيدٍ وَغَيْرِ مُفِيدٍ . وَمَقْصُودِي مِنَ ٱلْمُفِيدِ اَنْ يَأْتِيَ لِمَعْنًى وَغَيْرِ ٱلْمُفِيدِ اَنْ يَأْتِيَ لِغَيْرِ مَعْنًى . وَٱعْلَمْ اَنَّ ٱلْمُفِيدَ مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ يَأْتِي فِي ٱلْكَلَامِ تَأْكِيدًا وَتَشْدِيدًا مِنْ اَمْرِهِ . وَاِنَّمَا يُفْعَلُ ذٰلِكَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْعِنَايَةِ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي كَرَّرْتَ فِيهِ كَلَامَكَ اِمَّا مُبَالَغَةً فِي مَدْحِهِ اَوْ فِي ذَمِّهِ اَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ . وَلَا يَأْتِي اِلَّا فِي اَحَدِ طَرَفَيِ ٱلشَّيْءِ ٱلْمَقْصُودِ بِٱلذِّكْرِ . وَٱلْوَسَطُ عَارٍ مِنْهُ لِاَنَّ اَحَدَ ٱلطَّرَفَيْنِ هُوَ ٱلْمَقْصُودُ بِٱلْمُبَالَغَةِ اِمَّا بِمَدْحٍ اَوْ ذَمٍّ اَوْ غَيْرِهِمَا وَٱلْوَسَطُ لَيْسَ مِنْ شَرْطِ ٱلْمُبَالَغَةِ . وَغَيْرُ ٱلْمُفِيدِ لَا يَأْتِي فِي ٱلْكَلَامِ اِلَّا عِيًّا وَخَطَلًا مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ اِلَيْهِ

(فَأَمَّا ٱلْأَوَّلُ وَهُوَ ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى) فَإِنَّهُ يَنْقَسِمُ إِلَى ضَرْبَيْنِ : مُفِيدٍ وَغَيْرِ مُفِيدٍ . (فَٱلْأَوَّلُ ٱلْمُفِيدُ) وَهُوَ فَرْعَانِ : (ٱلْأَوَّلُ) إِذَا كَانَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ وَٱلْمَقْصُودُ بِهِ غَرَضَانِ مُخْتَلِفَانِ . فَمِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى قَوْلُهُ : بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَانِ ٱلرَّحِيمِ ٱلْحَمْدُ للهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ٱلرَّحْمَانِ ٱلرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ . فَكَرَّرَ (ٱلرَّحْمَانَ ٱلرَّحِيمَ) مَرَّتَيْنِ . وَٱلْفَائِدَةُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْأَوَّلَ يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ ٱلدُّنْيَا كَٱلْخَلْقِ وَٱلْعِنَايَةِ . وَٱلثَّانِي يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ ٱلْآخِرَةِ إِشَارَةً لِرَحْمَتِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ . (ٱلْفَرْعُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلضَّرْبِ ٱلْأَوَّلِ) إِذَا كَانَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ وَٱلْمُرَادُ بِهِ غَرَضٌ وَاحِدٌ كَقَوْلِهِ : فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . وَٱلتَّكْرِيرُ دَلَالَةُ ٱلتَّعَجُّبِ مِنْ تَقْدِيرِهِ وَإِصَابَتِهِ ٱلْغَرَضَ . وَهٰذَا كَمَا يُقَالُ : قَتَلَهُ ٱللهُ مَا أَشْجَعَهُ أَوْ مَا أَشْجَعَهُ . وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ :

أَلَا يَا ٱسْلَمِي ثُمَّ ٱسْلَمِي ثُمَّتَ ٱسْلَمِي

وَهٰذَا مُبَالَغَةٌ فِي ٱلدُّعَاءِ لَهَا بِٱلسَّلَامَةِ . وَكُلُّ هٰذَا يُجَاءُ بِهِ لِتَقْرِيرِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ وَإِثْبَاتِهِ . وَٱعْلَمْ أَنَّ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ قِسْمًا يَكُونُ ٱلْمَعْنَى مُضَافًا إِلَى نَفْسِهِ مَعَ ٱخْتِلَافِ ٱللَّفْظِ . وَذٰلِكَ يَأْتِي فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَرَادِفَةِ . وَقَدْ وَرَدَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَٱسْتُعْمِلَ فِي فَصِيحِ ٱلْكَلَامِ فَمِنْهُ قَوْلُهُ : وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ . وَٱلرِّجْزُ هُوَ ٱلْعَذَابُ . وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

نَهُوضٌ بِثِقْلِ ٱلْعِبْءِ مُضْطَلِعٌ بِهِ   وَإِنْ عَظُمَتْ فِيهِ ٱلْخُطُوبُ وَجَلَّتِ

وَالثِقْلُ هُوَ الْعِبءُ وَالْعِبءُ هُوَ الثِقْلُ. ورُبَّمَا اشْكَلَ هٰذَا الْمَوْضُوعُ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ يَتَعَاطَى هٰذِهِ الصِّنَاعَةَ وَظَنُّوهُ مِمَّا لا فَائِدَةَ فِيهِ . وَلَيسَ كَذٰلِكَ بَلِ الْفَائِدَةُ فِيهِ هِيَ التَّأْكِيدُ لِلْمَعْنَى الْمَقْصُودِ وَالْمُبَالَغَةُ فِيهِ. امَّا الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : (عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ) اي عَذَابٌ مُضَاعَفٌ مِنْ عَذَابٍ . وَامَا بَيْتُ ابِي تَمَّامٍ فَإِنَّهُ تَضَمَّنَ الْمُبَالَغَةَ فِي وَصْفِ الْمَمْدُوحِ بِحَمْلِهِ لِلأَنْفَالِ . وَهٰذَا الْمَوْضِعُ لَمْ يُنَبِّهْ عَلَيْهِ احَدٌ سِوَايَ . وَلَرُبَّمَا أُدْخِلَ فِي التَّكْرِيرِ مِنْ هٰذَا النَّوْعِ مَا لَيْسَ مِنْهُ . فَمِنْهُ قَوْلُهُ : ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَاصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ . فَلَمَّا تَكَرَّرَ إِنَّ رَبَّكَ مَرَّتَيْنِ عُلِمَ انَّ ذٰلِكَ ادَلُّ عَلَى الْمَغْفِرَةِ . . . وَهٰذِهِ الأَقْوَالُ يُظَنُّ انَّهَا مِنْ بَابِ التَّكْرِيرِ وَلَيْسَتْ كَذٰلِكَ . وَقَدْ انْعَمْتُ نَظَرِي فِيهَا فَرَايْتُهَا خَارِجَةً عَنْ حُكْمِ التَّكْرِيرِ وَذَاكَ انَّهُ إِذَا طَالَ الْفَصْلُ مِنَ الْكَلَامِ وَكَانَ اوَّلُهُ يَفْتَقِرُ إِلَى تَمَامٍ وَلَا يُفْهَمُ إِلَّا بِهِ فَالأَوْلَى فِي بَابِ الْفَصَاحَةِ انْ يُعَادَ اللَّفْظُ الأَوَّلُ مَرَّةً ثَانِيَةً لِيَكُونَ مُقَارِنًا لِتَمَامِ الْفَصْلِ كَيْ لَا يَجِيءَ الْكَلَامُ مَنْثُورًا لا سِيَّمَا فِي (إِنَّ وَاخَوَاتِهَا) . فَإِذَا وَرَدَتْ (إِنَّ) وَكَانَ بَيْنَ اسْمِهَا وَخَبَرِهَا فُسْحَةٌ طَوِيلَةٌ مِنَ الْكَلَامِ فَإِعَادَةُ (إِنَّ) احْسَنُ فِي حُكْمِ الْبَلَاغَةِ وَالْفَصَاحَةِ كَمَا تَقَدَّمَ . وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ مِنْ شُعَرَاءِ الْحَمَاسَةِ :

اَبِجْنَا وَقَيْدًا وَاشْتِيَاقًا وَغُرْبَةً وَنَأْيَ حَبِيبٍ إِنَّ ذَا لَعَظِيمُ
وَإِنَّ امْرَءًا دَامَتْ مَوَاثِيقُ عَهْدِهِ عَلَى مِثْلِ مَا قَاسَيْتُهُ لَكَرِيمُ

فَإِنَّهُ لَمَّا طَالَ ٱلْكَلَامُ بَيْنَ ٱسْمِ (إِنَّ) وَخَبَرِهَا أُعِيدَتْ (إِنَّ) مَرَّةً ثَانِيَةً لِأَنَّ تَقْدِيرَ ٱلْكَلَامِ: وَإِنَّ ٱمْرَءًا دَامَتْ مَوَاثِيقُ عَهْدِهِ عَلَى مِثْلِ هٰذَا لَكَرِيمٌ. لٰكِنْ بَيْنَ ٱلِٱسْمِ وَٱلْخَبَرِ مَدًى طَوِيلٌ فَإِذَا لَمْ تُعَدْ (إِنَّ) مَرَّةً ثَانِيَةً لَمْ يَأْتِ عَلَى ٱلْكَلَامِ بَهْجَةٌ. وَهٰذَا لَا يَتَنَبَّهُ لِٱسْتِعْمَالِهِ إِلَّا ٱلْفُصَحَاءُ إِمَّا طَبْعًا وَإِمَّا عِلْمًا. وَكَذٰلِكَ يَجْرِي ٱلْأَمْرُ إِذَا كَانَ خَبَرُ (إِنَّ) عَامِلًا فِي مَعْمُولٍ يَطُولُ ذِكْرُهُ فَإِنَّ إِعَادَةَ ٱلْخَبَرِ ثَانِيَةً هُوَ ٱلْأَحْسَنُ. وَعَلَى هٰذَا جَاءَ قَوْلُهُ فِي سُورَةِ يُوسُفَ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ: يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ. فَلَمَّا قَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ ثُمَّ طَالَ ٱلْفَصْلُ كَانَ ٱلْأَحْسَنُ أَنْ يُعِيدَ لَفْظَ (ٱلرُّؤْيَةِ) فَيَقُولَ: رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ. وَمِنْ بَابِ (ٱلتَّكْرِيرِ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى) ٱلدَّالِّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ قَوْلُهُ: وَقَالَ ٱلَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ ٱتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ. يَا قَوْمِ إِنَّ هٰذِهِ ٱلدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ. فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَرَّرَ نِدَاءَ قَوْمِهِ هَا هُنَا لِزِيَادَةِ ٱلتَّنْبِيهِ لَهُمْ وَٱلْإِيقَاظِ عَنْ سِنَةِ ٱلْغَفْلَةِ وَلِأَنَّهُمْ قَوْمُهُ وَعَشِيرَتُهُ فَيَتَحَزَّنُ لَهُمْ وَيَتَلَطَّفُ بِهِمْ فَيَسْتَدْعِي بِذٰلِكَ أَنْ يَنْزِلُوا عَلَى نَصِيحَتِهِ. وَهٰذَا فِي ٱلتَّكْرِيرِ ٱلَّذِي هُوَ أَبْلَغُ مِنَ ٱلْإِيجَازِ وَأَشَدُّ مَوْقِعًا مِنَ ٱلِٱخْتِصَارِ. وَمِمَّا وَرَدَ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ شِعْرًا قَوْلُ بَعْضِ شُعَرَاءِ ٱلْحَمَاسَةِ:

إِلَى مَعْدِنِ ٱلْعِزِّ ٱلْمُؤَثَّلِ وَٱلنَّدَى ... هُنَاكَ هُنَاكَ ٱلْفَضْلُ وَٱلْخُلُقُ ٱلْجَزْلُ

فَقَوْلُهُ: هُنَاكَ هُنَاكَ مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ ٱلَّذِي هُوَ أَبْلَغُ مِنَ ٱلْإِيجَازِ

لِأَنَّهُ فِي مَعرِضِ مَدحٍ فَهوَ يُقَرِّرُ فِي نَفسِ ٱلسَّامِعِ مَا عِندَ ٱلمَمدُوحِ مِنْ هٰذِهِ ٱلأَوصَافِ ٱلمَذكُورَةِ مُشِيرًا إِلَيهَا كَأَنَّهُ قَالَ : أَدُلُّكُمْ عَلَى مَعدِنِ كَذَا وَكَذَا وَمَقَرِّهِ وَمَفَادِهِ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَولُ ٱلمُسَاوِرِ ٱبنِ هِندٍ :

جَزَى ٱللّٰهُ عَنِّي غَالِبًا مِنْ عَشِيرَةٍ ... إِذَا حَدَثَانُ ٱلدَّهرِ نَابَتْ نَوَائِبُهْ
فَكَمْ دَفَعُوا مِنْ كُربَةٍ قَدْ تَلَاحَمَتْ ... عَلَيَّ وَمَوجٍ قَدْ عَلَتْنِي غَوَارِبُهْ

فَصَدرُ ٱلبَيتِ ٱلثَّانِي وَعَجزُهُ يَدُلَّانِ عَلَى مَعنًى وَاحِدٍ لِأَنَّ تَلَاحُمَ ٱلكُرَبِ عَلَيهِ كَتَعَالِي ٱلمَوجِ مِنْ فَوقِهِ . وَإِنَّمَا نَوَّعَ ذٰلِكَ لِأَنَّهُ مَقَامُ مَدحٍ وَإِطرَاءٍ أَلَا تَرَى أَنَّهُ يَصِفُ إِحسَانَ هٰؤُلَاءِ ٱلقَومِ عِندَ حِدثَانِ دَهرِهِ فِي ٱلتَّكرِيرِ . وَفِي قُبَالَتِهِ لَوْ كَانَ ٱلقَائِلُ هَاجِيًا فَإِنَّ ٱلهِجَاءَ فِي هٰذَا كَالمَدحِ . (ٱلضَّربُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلتَّكرِيرِ فِي ٱللَّفظِ وَٱلمَعنَى) وَهُوَ غَيرُ ٱلمُفِيدِ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَولُ مَروَانَ ٱلأَصغَرِ :

سَقَى ٱللّٰهُ نَجدًا وَٱلسَّلَامُ عَلَى نَجدِ ... وَيَا حَبَّذَا نَجدٌ عَلَى ٱلقُربِ وَٱلبُعدِ
نَظَرتُ إِلَى نَجدٍ وَبَغدَادُ دُونَهَا ... لَعَلِّي أَرَى نَجدًا وَهَيهَاتَ مِنْ نَجدِ

وَهٰذَا مِنَ ٱلعِيِّ ٱلضَّعِيفِ فَإِنَّهُ كَرَّرَ ذِكرَ نَجدٍ فِي ٱلبَيتِ ٱلأَوَّلِ ثَلَاثًا . وَفِي ٱلبَيتِ ٱلثَّانِي ثَلَاثًا . وَمُرَادُهُ فِي ٱلأَوَّلِ ٱلثَّنَاءُ عَلَى نَجدٍ . وَفِي ٱلثَّانِي أَنَّهُ تَلَفَّتَ إِلَيهِ نَاظِرًا مِنْ بَغدَادَ وَذٰلِكَ مَرمًى بَعِيدٌ . ٱلمَعنَى لَا يَحتَاجُ إِلَى مِثلِ هٰذَا ٱلتَّكرِيرِ . أَمَّا ٱلبَيتُ ٱلأَوَّلُ فَيُحمَلُ عَلَى ٱلجَائِزِ مِنَ ٱلتَّكرِيرِ لِأَنَّهُ مَقَامُ تَشَوُّقٍ وَتَحَرُّقٍ وَمَوجِدَةٍ بِفِرَاقِ نَجدٍ . وَلَمَّا كَانَ كَذٰلِكَ أُجِيزَ فِيهِ ٱلتَّكرِيرُ عَلَى أَنَّهُ قَدْ كَانَ يُمكِنُهُ أَنْ

يُسَوِّغ هٰذَا ٱلْمَعْنَى ٱلْوَارِدَ فِي ٱلْبَيْتَيْنِ مَعًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَأْتِيَ بِهٰذَا ٱلتَّكْرِيرِ ٱلْمُتَتَابِعِ سِتَّ مَرَّاتٍ . وَعَلَى هٰذَا ٱلْأُسْلُوبِ وَرَدَ قَوْلُ أَبِي نُوَّاس :

أَقَمْنَا بِهَا يَوْمًا وَيَوْمًا وَثَالِثًا   وَيَوْمًا لَهُ يَوْمُ ٱلتَّرَحُّلِ خَامِسُ

وَمُرَادُهُ مِنْ ذٰلِكَ أَنَّهُمْ أَقَامُوا بِهَا أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ . وَيَاعَجَبًا لَهُ بِمِثْلِ هٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلسَّخِيفِ ٱلدَّالِّ عَلَى ٱلْعِيِّ ٱلْفَاحِشِ فِي ضِمْنِ أَبْيَاتٍ عَجِيبَةِ ٱلْحُسْنِ تَتَقَدَّمُ هٰذَا ٱلْبَيْتَ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ أَيْضًا قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَلَمْ أَرَ مِثْلَ جِيرَانِي وَمِثْلِي   لِمِثْلِي عِنْدَ مِثْلِهِمِ مُقَامُ

فَهٰذَا هُوَ ٱلتَّكْرِيرُ ٱلْفَاحِشُ ٱلَّذِي يُؤَثِّرُ فِي ٱلْكَلَامِ نَقْصًا . أَلَا تَرَى أَنَّهُ يَقُولُ : لَمْ أَرَ مِثْلَ جِيرَانِي فِي سُوءِ ٱلْجِوَارِ وَلَا مِثْلِي فِي مُصَابَرَتِهِمْ وَمُقَامِي عِنْدَهُمْ . إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَرَّرَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فِي ٱلْبَيْتِ مَرَّتَيْنِ . وَعَلَى نَحْوٍ مِنْ ذٰلِكَ جَاءَ قَوْلُهُ :

وَقَلْقَلْتُ بِٱلْهَمِّ ٱلَّذِي قَلْقَلَ ٱلْحَشَى   قَلَاقِلَ عِيسٍ كُلُّهُنَّ قَلَاقِلُ

(وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ) فَذٰلِكَ ضَرْبَانِ : مُفِيدٌ وَغَيْرُ مُفِيدٍ . (ٱلضَّرْبُ ٱلْأَوَّلُ) ٱلْمُفِيدُ وَهُوَ فَرْعَانِ : (ٱلْأَوَّلُ) إِذَا كَانَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ وَهُوَ مَوْضِعٌ مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ مُشْكِلٌ لِأَنَّهُ يَسْبِقُ إِلَى ٱلْوَهْمِ أَنَّهُ تَكْرِيرٌ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ وَهُوَ لَيْسَ كَذٰلِكَ . . . بَلْ يُقْصَدُ بِهِ ٱلتَّأْكِيدُ وَٱلتَّقْرِيرُ وَٱلتَّنَصُّلُ عَمَّا يُرْمَى بِهِ ٱلْمُتَكَلِّمُ . وَمِمَّا

ينتظم بهذا السلك ان يكون التكرير في المعنى يدل على معنيين احدهما خاص والآخر عام كقوله: ولتكن منكم أمة يدعون الى الله ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. فإن الامر بالمعروف داخل تحت الدعاء الى الخير. لأن الامر بالمعروف خاص والخير عام فكل امر بالمعروف خير وليس كل خير امرا بالمعروف. وذاك ان الخير انواع كثيرة من جملتها الامر بالمعروف. ففائدة التكرير ههنا انه ذكر الخاص بعد العام للتنبيه على فضله. وكقوله: حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى. وكقوله: فيهما فاكهة ونخل ورمان. وكقوله: إنا عرضنا الامانة على السماوات والارض والجبال فأبين ان يحملنها. فإن الجبال داخلة في جملة الارض. لكن لفظ الارض عام والجبال خاص. وفائدته ههنا تعظيم شأن الامانة المشار اليها وتفخيم امرها... وهو موضع يرد في الكلام البليغ ويظن ان لا فائدة فيه. (الفرع الثاني) إذا كان التكرير في المعنى يدل على معنى واحد لا غير. وقد سبق مثال ذلك في اول هذا الباب كقولك: اطعني ولا تعصني. فإن الامر بالطاعة نهي عن المعصية والفائدة في ذلك تثبيت الطاعة في نفس المخاطب. والكلام في هذا الموضع كالكلام في الموضع الذي قبله من تكرير اللفظ والمعنى إذا كان الغرض به شيئا واحدا. ولا نجد شيئا من ذلك يأتي في الكلام إلا لتأكيد الغرض المقصود به كقوله: إن من اولادكم عدوا لكم فاحذروهم وان تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم. فإنه إنما كرر

ٱلعفوَ وَٱلصَّفحَ وَٱلمَغفِرَةَ وَٱلجَمِيعُ بمَعنًى وَاحِدٍ لِلزِّيَادَةِ فِي تَحسِينِ عَفوِ ٱلوَالِدِ عَنْ وَلَدِهِ . وَهٰذَا وَأَمثَالُهُ يُنظَرُ فِي ٱلغَرَضِ ٱلمَقصُودِ بِهِ . وَهُوَ مَوضِعٌ يَكُونُ ٱلتَّكرِيرُ فِيهِ أَوجَزَ مِنْ لَمحَةِ ٱلإِيجَازِ وَأَولَى بِٱلاستِعمَالِ .
وَمِمَّا وَرَدَ مِنهُ شِعرًا قَولُ بَعضِهِم فِي أَبيَاتِ ٱلحَمَاسَةِ :

تَزَلْتُ عَلَى آلِ ٱلمُهَلَّبِ شَاتِيًا ... بَعِيدًا عَنِ ٱلأَوطَانِ فِي زَمَنِ ٱلمَحلِ
فَمَا زَالَ بِي إِكرَامُهُم وَٱفتِقَادُهُم ... وَإِحسَانُهُم حَتَّى حَسِبتُهُمُ أَهلِي

فَإِنَّ ٱلإِكرَامَ وَٱلافتِقَادَ دَاخِلَانِ تَحتَ ٱلإِحسَانِ وَإِنَّمَا كَرَّرَ ذٰلِكَ لِلتَّنوِيهِ بِذِكرِ ٱلصَّنِيعِ وَٱلإِيجَابِ لِحَقِّهِ . (ٱلضَّربُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلقِسمِ ٱلثَّانِي) فِي تَكرِيرِ ٱلمَعنَى دُونَ ٱللَّفظِ وَهُوَ غَيرُ ٱلمُفِيدِ فَمِنْ ذٰلِكَ قَولُ أَبِي تَمَّام :

قَسَمَ ٱلزَّمَانُ رُبُوعَهَا بَينَ ٱلصَّبَا ... وَقَبُولِهَا وَدَبُورِهَا أَثلَاثَا

فَإِنَّ رِيحَ ٱلصَّبَا هِيَ رِيحُ ٱلقَبُولِ يَشتَمِلُ عَلَى مَعنًى وَاحِدٍ لَا غَيرُ .
وَهٰذَا ٱلضَّربُ مِنَ ٱلتَّكرِيرِ قَدْ خَبَطَ فِيهِ عُلَمَاءُ ٱلبَيَانِ خَبطًا كَثِيرًا وَٱلأَكثَرُ مِنهُم أَجَازَهُ . فَقَالُوا : إِذَا كَانَتِ ٱلأَلفَاظُ مُتَغَايِرَةً وَٱلمَعنَى ٱلمُعَبَّرُ عَنهُ وَاحِدًا فَلَيسَ ٱستِعمَالُ ذٰلِكَ بِعَيبٍ . وَهٰذَا ٱلقَولُ فِيهِ نَظَرٌ وَٱلَّذِي عِندِي فِيهِ أَنَّ ٱلنَّاثِرَ يُعَابُ عَلَى ٱستِعمَالِهِ مُطلَقًا إِذَا أَتَى لِغَيرِ فَائِدَةٍ . وَأَمَّا ٱلنَّاظِمُ فَإِنَّهُ يُعَابُ عَلَيهِ فِي مَوضِعٍ دُونَ مَوضِعٍ . أَمَّا ٱلمَوضِعُ ٱلَّذِي يُعَابُ ٱستِعمَالُهُ فِيهِ فَهُوَ صُدُورُ ٱلأَبيَاتِ ٱلشِّعرِيَّةِ وَمَا وَالَاهَا . وَأَمَّا ٱلمَوضِعُ ٱلَّذِي لَا يُعَابُ ٱستِعمَالُهُ فِيهِ فَهُوَ ٱلأَعجَازُ مِنَ ٱلأَبيَاتِ لِمَكَانِ ٱلقَافِيَةِ . وَإِنَّمَا جَازَ ذٰلِكَ وَلَمْ يَكُنْ عَيبًا لِأَنَّهُ قَافِيَةٌ

وَٱلشاعِرُ مُضطَرٌّ إِلَيهَا وَٱلْمُضطَرُّ يَحِلُّ لَهُ مَا حُرِّمَ عَلَيهِ كَقَوْلِ ٱمرِئِ ٱلْقَيسِ فِي قَصِيدَتِهِ ٱللاَّمِيَّةِ ٱلَّتِي مَطلَعُهَا :

أَلا ٱنْعَمْ صَبَاحًا أَيُّهَا ٱلطَّلَلُ ٱلبَالِي

فَقَالَ :

وَهَلْ يَنْعَمَنْ إِلَّا سَعِيدٌ مُخَلَّدٌ　　قَلِيلُ ٱلْهُمُومِ لَا يَبِيتُ بِأَوجَالِ

وَإِذَا كَانَ قَلِيلَ ٱلْهُمُومِ فَإِنَّهُ لَا يَبِيتُ بِأَوجَالِ . وَهٰذَا تَكْرِيرٌ لِلمَعْنَى إِلَّا أَنَّهُ لَيسَ بِعَيبٍ لِأَنَّهُ قَافِيَةٌ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَولُ ٱلْحُطَيئَةِ :

قَالَتْ إِمَامَةُ لَا تَجْزَعْ فَقُلْتُ لَهَا　　إِنَّ ٱلْعَزَاءَ وَإِنَّ ٱلصَّبْرَ قَدْ غُلِبَا

هَلَّا ٱلْتَمَسْتِ لَنَا إِنْ كُنْتِ صَادِقَةً　　مَالًا نَعِيشُ بِهِ فِي ٱلنَّاسِ أَوْ نَشَبَا

فَٱلبَيْتُ ٱلأَوَّلُ مَعِيبٌ لِأَنَّهُ كَرَّرَ ٱلْعَزَاءَ وَٱلصَّبْرَ إِذْ مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ وَلَمْ يَرِدَا قَافِيَةً لِأَنَّ ٱلْقَافِيَةَ هِيَ ٱلبَاءُ . وَأَمَّا ٱلبَيْتُ ٱلثَّانِي فَلَيسَ بِعَيبٍ لِأَنَّ ٱلتَّكْرِيرَ جَاءَ فِي ٱلنَّشَبِ وَهُوَ قَافِيَةٌ

البحث السادس عشر

في حقيقة التشبيه وتحديده

(عن خزانة الادب للحموي وعن كتاب الصناعتين)

(راجع صفحة ٤٨ من علم الادب)

إِعْلَمْ أَنَّ أَصْحَابَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ أَطْلَقُوا أَعِنَّةَ ٱلْكَلَامِ فِي مَيَادِينِ حُدُودِ ٱلتَّشْبِيهِ وَتَقَادِيرِهَا وَهُوَ عِنْدَهُمْ ٱلدَّلَالَةُ عَلَى مُشَارَكَةِ أَمْرٍ لِأَمْرٍ فِي مَعْنًى . وَقَالَ ٱلرُّمَّانِيُّ : ٱلتَّشْبِيهُ هُوَ ٱلْعَقْدُ عَلَى أَحَدِ ٱلشَّيْئَيْنِ

يَسُدُّ اَحَدُهُمَا مَسَدَّ ٱلْآخَرِ فِي حَالٍ. وَهٰذَا هُوَ ٱلتَّشْبِيهُ ٱلعَامُّ ٱلَّذِي يَشْمُلُ تَحْتَهُ ٱلتَّشْبِيهُ ٱلْبَلِيغُ وَغَيْرُهُ. وَٱلتَّشْبِيهُ ٱلْبَلِيغُ هُوَ إِخْرَاجُ ٱلْأَغْمَضِ إِلَى ٱلْأَوْضَحِ مَعَ حُسْنِ ٱلتَّأْلِيفِ. وَمِنْهُم مَنْ قَالَ: ٱلتَّشْبِيهُ هُوَ ٱلدَّلَالَةُ عَلَى ٱشْتِرَاكِ شَيْئَيْنِ فِي وَصْفٍ هُوَ مِنْ اَوْصَافِ ٱلشَّيْءِ ٱلْوَاحِدِ. وَقَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ: ٱلتَّشْبِيهُ صِفَةُ ٱلشَّيْءِ بِمَا قَارَبَهُ وَشَاكَلَهُ مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ لِأَنَّهُ لَوْ نَاسَبَهُ مُنَاسَبَةً كُلِّيَّةً كَانَ إِيَّاهُ. أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِمْ: خَدٌّ كَٱلْوَرْدِ إِنَّمَا مُرَادُهُمْ اِحْمِرَارُ اَوْرَاقِهِ وَطَرَاوَتُهَا لَا مَا سِوَى ذٰلِكَ مِنْ صُفْرَةِ وَسَطِهِ وَخُضْرَةِ كَمَائِمِهِ (اه). وَقِيلَ: ٱلتَّشْبِيهُ إِلْحَاقُ اَدْنَى ٱلشَّيْئَيْنِ بِاَعْلَاهُمَا فِي صِفَةٍ اشْتَرَكَا فِي اَصْلِهَا وَٱخْتَلَفَا فِي كَيْفِيَّتِهَا قُوَّةً وَضُعْفًا. قُلْتُ: وَهٰذَا حَدٌّ مُفِيدٌ. وَاَوْرَدَ ٱبْنُ اَبِي ٱلْاِصْبَعِ فِي كِتَابِهِ تَحْرِيرِ ٱلتَّحْبِيرِ حَدًّا زَادَ فِي حُسْنِهِ عَلَى ٱلْحَدِّ وَهُوَ: اَنَّ ٱلتَّشْبِيهَ تَشْبِيهَانِ (ٱلْاَوَّلُ) مِنْهُمَا تَشْبِيهُ شَيْئَيْنِ مُتَّفِقَيْنِ بِاَنْفُسِهِمَا كَتَشْبِيهِ ٱلْجَوْهَرِ بِٱلْجَوْهَرِ مِثْلُ قَوْلِكَ: مَاءُ ٱلنِّيلِ كَمَاءِ ٱلْفُرَاتِ. وَتَشْبِيهِ ٱلْعَرَضِ بِٱلْعَرَضِ كَقَوْلِكَ: حُمْرَةُ ٱلْخَدِّ كَحُمْرَةِ ٱلْوَرْدِ. وَتَشْبِيهِ ٱلْجِسْمِ بِٱلْجِسْمِ كَقَوْلِكَ: ٱلزَّبَرْجَدُ مِثْلُ ٱلزُّمُرُّدِ. (وَٱلثَّانِي) تَشْبِيهُ شَيْئَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ بِٱلذَّاتِ يَجْمَعُهُمَا مَعْنًى وَاحِدٌ مُشْتَرَكٌ. كَقَوْلِكَ: حَاتِمٌ كَٱلْغَمَامِ وَعَنْتَرَةُ كَٱلضِّرْغَامِ. وَتَشْبِيهُ ٱلِاتِّفَاقِ وَهُوَ ٱلْاَوَّلُ تَشْبِيهٌ حَقِيقِيٌّ. وَتَشْبِيهُ ٱلِاخْتِلَافِ وَهُوَ ٱلثَّانِي تَشْبِيهٌ مَجَازِيٌّ وَٱلْمُرَادُ ٱلْمُبَالَغَةُ. وَٱلتَّشْبِيهُ رُكْنٌ مِنْ اَرْكَانِ ٱلْبَلَاغَةِ لِإِخْرَاجِهِ ٱلْخَفِيَّ إِلَى ٱلْجَلِيِّ وَإِدْنَائِهِ ٱلْبَعِيدَ مِنَ ٱلْقَرِيبِ. وَهُوَ حُكْمٌ إِضَافِيٌّ لَا يُوجَدُ إِلَّا بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ بِخِلَافِ ٱلِاسْتِعَارَةِ وَلَيْسَ ٱلْحُكْمُ

أَنَّهُ إِذَا صَحَّتِ ٱلِاسْتِعَارَةُ حَسُنَ ٱلتَّصْرِيحُ بِٱلتَّشْبِيهِ فَإِنَّ ٱلْمُشَابَهَةَ إِذَا قُرِنَتْ بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ بِٱلِاسْتِعَارَةِ قَبُحَ ٱلتَّصْرِيحُ بِٱلتَّشْبِيهِ . فَلَا تَقُولُ: كَأَنَّكَ أَوْقَعْتَنِي فِي ظُلْمَةٍ إِذَا أَوْقَعَكَ فِي شُبْهَةٍ . وَفَهِمْتُ ٱلْمَسْأَلَةَ فَكَأَنَّهُ ٱنْشَرَحَ صَدْرِي أَوْ كَأَنَّ نُورًا حَصَلَ فِي قَلْبِي. لِتَمَكُّنِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ حَتَّى كَأَنَّهَا صَارَتْ حَقِيقَةً

البحث السابع عشر

في اركان التشبيه ومحاسنه وفوائده

(من المثل السائر لابن الاثير بتصرُّف)

(راجع صفحة ٤٩ من علم الادب)

وَٱعْلَمْ أَنَّ لِلتَّشْبِيهِ أَدَوَاتٍ كَنَحْوِ وَكَأَنَّ وَشِبْهٍ وَمِثْلٍ . فَرُبَّمَا ظَهَرَتْ وَرُبَّمَا أُضْمِرَتْ . (وَمِنَ ٱلْمُظْهَرِ ٱلْأَدَاةُ) مَا قِيلَ فِي وَصْفِ حَالِ ٱلْمُنَافِقِينَ : مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ ٱللّٰهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ . وَكَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

خُلُقٌ مِنْهُمُ تَرَدَّدَ فِيهِمْ وَلِيَتْهُ عِصَابَةٌ عَنْ عِصَابَهْ
كَٱلْحُسَامِ ٱلْجُرَازِ يَبْقَى عَلَى ٱلدَّهْرِ م وَيُفْنِي فِي كُلِّ حِينٍ قِرَابَهْ

وَمِنَ ٱللَّطِيفِ ٱلْبَدِيعِ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلْأَحْنَفِ:

لَا جَزَى ٱللّٰهُ دَمْعَ عَيْنَيَّ خَيْرًا وَجَزَى ٱللّٰهُ كُلَّ خَيْرٍ لِسَانِي
نَمَّ دَمْعِي فَلَيْسَ يَكْتُمُ شَيْئًا وَوَجَدْتُ ٱللِّسَانَ ذَا كِتْمَانِ
كُنْتُ مِثْلَ ٱلْكِتَابِ أَخْفَاهُ طَيٌّ فَٱسْتَدَلُّوا عَلَيْهِ بِٱلْعُنْوَانِ

(وَمِنَ ٱلْمُضمَرِ ٱلأَدَاةِ) قَوْلُهُ : وَجَعَلْنَا ٱللَّيلَ لِبَاساً . فَشَبَّهَ ٱللَّيلَ بِٱللِّبَاسِ . وَذَاكَ أَنَّهُ يَسْتُرُ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ لِمَنْ أَرَادَ هَرَبًا مِنْ عَدُوٍّ أَوْ ثَبَاتًا لِعَدُوٍّ أَوْ إِخْفَاءً لِمَا لَا يُحِبُّ ٱلِاطِّلَاعَ عَلَيهِ مِنْ أَمْرِهِ وَقَدْ وَرَدَ فِي ٱلأَمْثَالِ مِثْلُهُ : ٱللَّيلُ جُنَّـةُ ٱلْهَارِبِ . وَمِمَّا وَرَدَ شِعْرًا قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَإِذَا ٱهْتَزَّ لِلنَّـدَى كَانَ بَحْرًا　　وَإِذَا ٱهْتَزَّ لِلوَغَى كَانَ نَصْـلَا

وَإِذَا ٱلأَرْضُ أَظْلَمَتْ كَانَ شَمْسًا　　وَإِذَا ٱلأَرْضُ أَمْحَلَتْ كَانَ وَبْلَا

وَكُلُّ ذٰلِكَ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُضْمَرِ ٱلأَدَاةِ . وَإِنَّ هٰذَا ٱلتَّشْبِيهَ أَبْلَغُ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُظْهَرِ ٱلأَدَاةِ وَأَوْجَزُ . أَمَّا كَوْنُهُ أَبْلَغَ فَلِجَعْلِ ٱلْمُشَبَّهِ مُشَبَّهًا بِهِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةِ أَدَاةٍ فَيَكُونُ هُوَ إِيَّاهُ . فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ : زَيْدٌ أَسَدٌ . كُنْتَ قَدْ جَعَلْتَهُ أَسَدًا مِنْ غَيْرِ إِظْهَارِ أَدَاةِ ٱلتَّشْبِيـهِ . وَأَمَّا كَوْنُهُ أَوْجَزَ فَلِحَذْفِ أَدَاةِ ٱلتَّشْبِيهِ مِنْهُ . وَعَلَى هٰذَا فَإِنَّ ٱلْقِسْمَيْنِ مِنَ ٱلْمُظْهَرِ وَٱلْمُضْمَرِ كِلَيْهِمَا فِي فَضِيلَةِ ٱلْبَيَانِ سَوَاءٌ فَإِنَّ ٱلْغَرَضَ ٱلْمَقْصُودَ مِنْ قَوْلِنَا : زَيْدٌ أَسَدٌ . أَنْ يَتَبَيَّنَ حَالُ زَيْدٍ فِي ٱتِّصَافِهِ بِشَهَامَةِ ٱلنَّفْسِ وَقُوَّةِ ٱلْبَطْشِ وَجَرَاءَةِ ٱلْإِقْدَامِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي مَجْرَاهُ . إِلَّا أَنَّا لَمْ نَجِدْ شَيْئًا نَدُلُّ بِهِ عَلَيهِ سِوَى أَنْ جَعَلْنَاهُ شَبِيهًا بِٱلأَسَدِ حَيْثُ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتُ مُخْتَصَّةً بِهِ . فَصَارَ مَا قَصَدْنَاهُ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ أَكْشَفَ وَأَبْيَنَ مِنْ أَنْ لَوْ قُلْنَا : زَيْدٌ شَهْمٌ شُجَاعٌ قَوِيُّ ٱلْبَطْشِ جَرِيءُ ٱلْجَنَانِ وَأَشْبَاهُ ذٰلِكَ . لِمَا قَدْ عُرِفَ وَعُهِدَ مِنِ ٱجْتِمَاعِ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ فِي ٱلْمُشَبَّهِ بِهِ أَعْنِي ٱلأَسَدَ . وَأَمَّا زَيْدٌ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُشَبَّهُ فَلَيْسَ مَعْرُوفًا بِهَا

وَإِنْ كَانَتْ مَوْجُودَةً فِيهِ. وَكِلَا هٰذَيْنِ ٱلْقِسْمَيْنِ أَيضًا يَخْتَصُّ بِفَضِيلَةِ ٱلْإِيجَازِ وَإِنْ كَانَ ٱلْمُضْمَرُ أَوْجَزَ مِنَ ٱلْمُظْهَرِ لِأَنَّ قَوْلَنَا: زَيْدٌ أَسَدٌ أَوْ كَالْأَسَدِ. يَسُدُّ مَسَدَّ قَوْلِنَا: زَيْدٌ مِنْ حَالِهِ كَيْتَ وَكَيْتَ. وَهُوَ مِنَ ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلشِّدَّةِ عَلَى كَذَا وَكَذَا مِمَّا يَطُولُ ذِكْرُهُ. فَٱلتَّشْبِيهُ إِذًا يَجْمَعُ صِفَاتٍ ثَلَاثَةً هِيَ: ٱلْمُبَالَغَةُ. وَٱلْبَيَانُ. وَٱلْإِيجَازُ كَمَا أَرَيْتُكَ. إِلَّا أَنَّهُ نَوْعٌ مِنْ بَيْنِ أَنْوَاعِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ مُسْتَوْعِرُ ٱلْمَذْهَبِ وَهُوَ مَقْتَلٌ مِنْ مَقَاتِلِ ٱلْبَلَاغَةِ. وَسَبَبُ ذٰلِكَ أَنَّ حَمْلَ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمَاثَلَةِ إِمَّا صُورَةً وَإِمَّا مَعْنًى يَعِزُّ صَوَابُهُ وَتَعْسُرُ ٱلْإِجَادَةُ فِيهِ. وَقَلَّمَا أَكْثَرَ مِنْهُ أَحَدٌ إِلَّا عَثَرَ كَمَا فَعَلَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ مِنْ أُدَبَاءِ ٱلْعِرَاقِ وَٱبْنُ وَكِيعٍ مِنْ أُدَبَاءِ مِصْرَ. فَإِنَّهُمَا أَكْثَرَا مِنْ ذٰلِكَ لَاسِيَّمَا فِي وَصْفِ ٱلرِّيَاضِ وَٱلْأَشْجَارِ وَٱلْأَزْهَارِ وَٱلثِّمَارِ. لَاجَرَمَ أَنَّهُمَا أَتَيَا بِٱلْغَثِّ ٱلْبَارِدِ ٱلَّذِي لَا يَثْبُتُ عَلَى مِحَكِّ ٱلصَّوَابِ فَعَلَيْكَ أَنْ تَتَوَقَّى مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ. وَأَمَّا فَائِدَةُ ٱلتَّشْبِيهِ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَهِيَ: أَنَّكَ إِذَا مَثَّلْتَ ٱلشَّيْءَ بِٱلشَّيْءِ فَإِنَّمَا تَقْصِدُ فِيهِ إِثْبَاتَ ٱلْخَالِ فِي ٱلنَّفْسِ بِصُورَةِ ٱلْمُشَبَّهِ بِهِ أَوْ بِمَعْنَاهُ وَذٰلِكَ أَوْكَدُ فِي طَرَفَيِ ٱلتَّرْغِيبِ فِيهِ أَوِ ٱلتَّنْفِيرِ عَنْهُ. أَلَا تَرَى أَنَّكَ إِذَا شَبَّهْتَ صُورَةً بِصُورَةٍ هِيَ أَحْسَنُ مِنْهَا كَانَ ذٰلِكَ مُثْبِتًا فِي ٱلنَّفْسِ خَيَالًا حَسَنًا يَدْعُو إِلَى ٱلتَّرْغِيبِ فِيهَا. وَكَذٰلِكَ إِذَا شَبَّهْتَهَا بِصُورَةِ شَيْءٍ أَقْبَحَ مِنْهَا كَانَ ذٰلِكَ مُثْبِتًا فِي ٱلنَّفْسِ خَيَالًا قَبِيحًا يَدْعُو إِلَى ٱلتَّنْفِيرِ عَنْهَا وَهٰذَا لَا نِزَاعَ فِيهِ. وَلْنَضْرِبْ لَهُ مِثَالًا يُوضِحُهُ فَنَقُولُ: قَدْ وَرَدَ عَنِ ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ فِي مَدْحِ ٱلْعَسَلِ وَذَمِّهِ بَيْتٌ مِنَ ٱلشِّعْرِ وَهُوَ:

تَقُولُ هٰذَا مُجَاجُ ٱلنَّحْلِ تَمْدَحُهُ ۞ وَإِنْ تَعِبْ قُلْتَ ذَا قَيْءُ ٱلزَّنَابِيرِ

أَلَا تَرَى كَيْفَ مَدْحَ وَذَمَّ ٱلشَّيْءَ ٱلْوَاحِدَ بِتَصْرِيفِ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمَجَازِيِّ ٱلْمُضْمَرِ ٱلْأَدَاةِ ٱلَّذِي خَيَّلَ بِهِ إِلَى ٱلسَّامِعِ خَيَالًا يُحَسِّنُ ٱلشَّيْءَ عِنْدَهُ تَارَةً وَيُقَبِّحُهُ أُخْرَى . وَلَوْلَا ٱلتَّوَصُّلُ بِطَرِيقِ ٱلتَّشْبِيهِ عَلَى هٰذَا ٱلْوَجْهِ لَمَا أَمْكَنَهُ ذٰلِكَ . وَهٰذَا ٱلْمِثَالُ كَافٍ فِيمَا أَرَدْنَاهُ . وَٱعْلَمْ أَنَّ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلتَّشْبِيهِ أَنْ يَجِيءَ مَصْدَرِيًّا كَقَوْلِنَا: أَقْدَمَ إِقْدَامَ ٱلْأَسَدِ وَفَاضَ فَيْضَ ٱلْبَحْرِ . وَهُوَ أَحْسَنُ مَا ٱسْتُعْمِلَ فِي بَابِ ٱلتَّشْبِيهِ . كَقَوْلِ أَبِي نُوَاسٍ فِي وَصْفِ ٱلْخَمْرِ :

وَإِذَا مَا مَزَجُوهَا ۞ وَثَبَتْ وَثْبَ ٱلْجَرَادْ

وَإِذَا مَا شَرِبُوهَا ۞ أَخَذَتْ أَخْذَ ٱلرُّقَادْ

وَقِيلَ : إِنَّ مِنْ شَرْطِ بَلَاغَةِ ٱلتَّشْبِيهِ أَنْ يُشَبَّهَ ٱلشَّيْءُ بِمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ وَأَعْظَمُ . وَٱلْقَوْلُ ٱلسَّدِيدُ فِي ذٰلِكَ هُوَ مَا أَذْكُرُهُ : وَهُوَ أَنَّ إِطْلَاقَ مَنْ أَطْلَقَ قَوْلَهُ فِي أَنَّ مِنْ شُرُوطِ بَلَاغَةِ ٱلتَّشْبِيهِ أَنْ يُشَبَّهَ ٱلْأَصْغَرُ بِٱلْأَكْبَرِ قَوْلٌ غَيْرُ حَاصِرٍ لِلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ . لِأَنَّ ٱلتَّشْبِيهَ يَأْتِي تَارَةً فِي مَعْرِضِ ٱلْمَدْحِ وَتَارَةً فِي مَعْرِضِ ٱلذَّمِّ . وَتَارَةً فِي غَيْرِ مَعْرِضِ مَدْحٍ وَلَا ذَمٍّ . وَإِنَّمَا يَأْتِي قَصْدًا لِلْإِبَانَةِ وَٱلْإِيضَاحِ . وَلَا يَكُونُ تَشْبِيهُ أَصْغَرَ بِأَكْبَرَ كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ مَنْ ذَهَبَ . بَلِ ٱلْقَوْلُ ٱلْجَامِعُ فِي ذٰلِكَ أَنْ يُقَالَ : إِنَّ ٱلتَّشْبِيهَ لَا يُعْمَدُ إِلَيْهِ إِلَّا لِضَرْبٍ مِنَ ٱلْمُبَالَغَةِ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مَدْحًا أَوْ ذَمًّا أَوْ بَيَانًا أَوْ إِيضَاحًا وَلَا يَخْرُجُ عَنْ هٰذِهِ ٱلْمَعَانِي ٱلثَّلَاثَةِ . وَإِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ

كَذٰلِكَ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ تَقْدِيرِ لَفْظَةِ اَفْعَلَ (يُرِيدُ اَفْعَلَ ٱلتَّفْضِيلِ). فَاِنْ لَمْ تُقَدَّرْ فِيهِ لَفْظَةُ (اَفْعَلَ) فَلَيْسَ بِتَشْبِيهٍ بَلِيغٍ . اَلَا تَرَى اَنَّا نَقُولُ فِي ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُضْمَرِ ٱلْاَدَاةِ : زَيْدٌ اَسَدٌ . فَقَدْ شَبَّهْنَا زَيْدًا بِٱلْاَسَدِ ٱلَّذِي هُوَ اَشْجَعُ مِنْهُ . فَاِنْ لَمْ يَكُنِ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ فِي هٰذَا ٱلْمَقَامِ اَشْجَعَ مِنْ زَيْدٍ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُشَبَّهُ وَاِلَّا كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ نَاقِصًا اِذْ لَا مُبَالَغَةَ فِيهِ . وَكَذٰلِكَ فِي ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُظْهَرِ ٱلْاَدَاةِ كَقَوْلِهِ : وَلَهُ ٱلْجَوَارِي ٱلْمُنْشَآتُ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْاَعْلَامِ . وَهٰذَا تَشْبِيهُ كَبِيرٍ بِمَا هُوَ اَكْبَرُ مِنْهُ . لِاَنَّ خَلْقَ ٱلسُّفُنِ ٱلْبَحْرِيَّةِ كَبِيرٌ وَخَلْقَ ٱلْجِبَالِ اَكْبَرُ مِنْهُ . وَمِثْلُهُ : اِذَا شُبِّهَ شَيْءٌ حَسَنٌ بِشَيْءٍ حَسَنٍ فَاِنَّهُ اِذَا لَمْ يُشَبَّهْ بِمَا هُوَ اَحْسَنُ مِنْهُ فَلَيْسَ هُوَ بِوَارِدٍ عَلَى طَرِيقِ ٱلْبَلَاغَةِ . وَهٰكَذَا : اِنْ شُبِّهَ قَبِيحٌ بِقَبِيحٍ فَيَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ اَقْبَحَ وَاِنْ قُصِدَ ٱلْبَيَانُ وَٱلْاِيضَاحُ فَيَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ اَبْيَنَ وَاَوْضَحَ . فَتَقْدِيرُ لَفْظَةِ (اَفْعَلَ) لَا بُدَّ مِنْهُ فِيمَا يُقْصَدُ بِهِ بَلَاغَةُ ٱلتَّشْبِيهِ وَاِلَّا كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ نَاقِصًا فَاعْلَمْ ذٰلِكَ وَقِسْ عَلَيْهِ

البحث الثامن العاشر

في اقسام التشبيه

(عن صناعة الترسُّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٤٩ من علم الادب)

(اَلتَّشْبِيهُ عَلَى اَرْبَعَةِ اَقْسَامٍ) : اَلْاَوَّلُ تَشْبِيهُ مَحْسُوسٍ بِمَحْسُوسٍ لِاشْتِرَاكِهِمَا اِمَّا فِي ٱلْمَحْسُوسَاتِ ٱلْاُولَى وَهِيَ مُدْرَكَاتُ ٱلسَّمْعِ

وَٱلْبَصَرِ وَٱلذَّوْقِ وَٱلشَّمِّ وَٱللَّمْسِ . كَتَشْبِيهِ ٱلْخَدِّ بِٱلْوَرْدِ . وَٱلْوَجْهِ بِٱلنَّهَارِ . وَٱلْفَوَاكِهِ ٱلْحُلْوَةِ بِٱلسُّكَّرِ وَٱلْعَسَلِ . وَرَائِحَةِ بَعْضِ ٱلرَّيَاحِينِ بِٱلْكَافُورِ وَٱلْمِسْكِ . وَٱللَّيِّنِ ٱلنَّاعِمِ بِٱلْخَزِّ . وَٱلْخَشِنِ بِٱلْمِسْحِ . أَوْ فِي ٱلْمَحْسُوسَاتِ ٱلثَّانِيَةِ وَهِيَ : ٱلْأَشْكَالُ ٱلْمُسْتَقِيمَةُ وَٱلْمُسْتَدِيرَةُ وَٱلْمَقَادِيرُ وَٱلْحَرَكَاتُ كَتَشْبِيهِ ٱلْمُسْتَوِي ٱلْمُنْتَصِبِ بِٱلرُّمْحِ . وَٱلْقَدِّ ٱللَّطِيفِ بِٱلْغُصْنِ . وَٱلشَّيْءِ ٱلْمُسْتَدِيرِ بِٱلْكُرَةِ وَٱلْحَلْقَةِ . وَعِظَمِ ٱلْجُثَّةِ بِٱلْجَبَلِ . وَٱلذَّاهِبِ عَلَى ٱلِٱسْتِقَامَةِ بِنُفُوذِ ٱلسَّهْمِ . أَوْ فِي ٱلْكَيْفِيَّاتِ ٱلْجُثْمَانِيَّةِ كَٱلصَّلَابَةِ وَٱلرَّخَاوَةِ . أَوْ فِي ٱلْكَيْفِيَّاتِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ كَٱلْغَرَائِزِ وَٱلْأَخْلَاقِ . أَوْ فِي حَالَةٍ إِضَافِيَّةٍ كَقَوْلِكَ : هٰذِهِ حُجَّةٌ كَٱلشَّمْسِ . وَٱلْجَامِعُ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُزِيلٌ لِلْحِجَابِ وَكَقَوْلِكَ : أَلْفَاظُهُ كَٱلْمَاءِ فِي ٱلسَّلَاسَةِ . وَكَٱلنَّسِيمِ فِي ٱلرِّقَّةِ . وَكَٱلْعَسَلِ فِي ٱلْحَلَاوَةِ . وَٱلْجَامِعُ سُرْعَةُ وُصُولِهِ إِلَى ٱلنَّفْسِ وَٱهْتِزَازُهَا بِهِ . وَرُبَّمَا كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ بِوَجْهٍ عَقْلِيٍّ كَقَوْلِ فَاطِمَةَ بِنْتِ ٱلْخُرْشُبِ ٱلْأَنْمَارِيَّةِ حِينَ وَصَفَتْ بَنِيهَا : هُمْ كَٱلْحَلْقَةِ ٱلْمُفْرَغَةِ لَا يُدْرَى أَيْنَ طَرَفَاهَا . فَإِنَّهُ لَا يَفْهَمُ ٱلْمَقْصُودَ إِلَّا مَنْ لَهُ ذِهْنٌ يَتَرَفَّعُ عَنْ طَبَقَةِ ٱلْعَامَّةِ بِخِلَافِ مَا سَبَقَ . وَمِنَ ٱلْفَرْقِ ٱلظَّاهِرِ بَيْنَهُمَا أَنَّ جَعْلَ ٱلْفَرْعِ أَصْلًا وَٱلْأَصْلِ فَرْعًا يَجِيءُ فِيمَا تَقَدَّمَ مَجِيئًا وَاسِعًا كَقَوْلِهِمْ فِي ٱلنُّجُومِ : كَأَنَّهُمْ مَصَابِيحُ . وَفِي ٱلْمَصَابِيحِ : كَأَنَّهَا نُجُومٌ . وَإِنْ حَاوَلْتَ ذٰلِكَ فِي ٱلثَّانِي لَمْ يَكَدْ يَنْقَادُ ٱنْقِيَادَ ٱلْأَوَّلِ . (ٱلثَّانِي) تَشْبِيهُ ٱلْمَعْقُولِ بِٱلْمَعْقُولِ كَتَشْبِيهِ ٱلْوُجُودِ ٱلْعَارِي عَنِ ٱلْفَوَائِدِ بِٱلْعَدَمِ وَتَشْبِيهِ ٱلْفَوَائِدِ ٱلَّتِي تَبْقَى بَعْدَ عَدَمِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْوُجُودِ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

رُبَّ حَيٍّ كَمَيِّتٍ لَيْسَ فِيهِ أَمَلٌ يُرْتَجَى لِنَفْعٍ وَضُرِّ
وَعِظَامٍ تَحْتَ التُّرَابِ وَفَوْقَ الْأَرْضِ مِنْهَا آثَارُ حَمْدٍ وَشُكْرِ

(الثَّالِثُ) تَشْبِيهُ الْمَعْقُولِ بِالْمَحْسُوسِ كَقَوْلِهِ: وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ. وَكَقَوْلِهِ: وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ. (الرَّابِعُ) تَشْبِيهُ الْمَحْسُوسِ بِالْمَعْقُولِ وَهُوَ غَيْرُ جَائِزٍ لِأَنَّ الْعُلُومَ مُسْتَفَادَةٌ مِنَ الْحَوَاسِّ وَمُنْتَهِيَةٌ إِلَيْهَا وَلِذٰلِكَ قِيلَ: مَنْ فَقَدَ حِسًّا فَقَدَ عِلْمًا. فَإِذَا كَانَ الْمَحْسُوسُ أَصْلًا لِلْمَعْقُولِ فَتَشْبِيهُهُ بِهِ يَكُونُ جَعْلًا لِلْفَرْعِ أَصْلًا وَالْأَصْلِ فَرْعًا. وَلِذٰلِكَ لَوْ حَاوَلَ مُحَاوِلٌ الْمُبَالَغَةَ فِي وَصْفِ الشَّمْسِ بِالظُّهُورِ وَالْمِسْكِ بِالثَّنَاءِ فَقَالَ: الشَّمْسُ كَالْحُجَّةِ فِي الظُّهُورِ. وَالْمِسْكُ كَالثَّنَاءِ فِي الطِّيبِ. كَانَ سَخِيفًا مِنَ الْقَوْلِ. فَأَمَّا مَا جَاءَ فِي الْأَشْعَارِ مِنْ تَشْبِيهِ الْمَحْسُوسِ بِالْمَعْقُولِ فَوَجْهُهُ أَنْ يُقَدَّرَ الْمَعْقُولُ مَحْسُوسًا وَيُجْعَلَ كَالْأَصْلِ الْمَحْسُوسِ عَلَى طَرِيقِ الْمُبَالَغَةِ فَيَصِحُّ التَّشْبِيهُ حِينَئِذٍ. وَذٰلِكَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

وَكَأَنَّ النُّجُومَ بَيْنَ دُجَاهَا سُنَنٌ لَاحَ بَيْنَهُنَّ ابْتِدَاعُ

فَإِنَّهُ لَمَّا شَاعَ وَصْفُ السُّنَّةِ بِالْبَيَاضِ وَالْإِشْرَاقِ عَلَى مَا قِيلَ: أَتَيْتُكُمْ بِالْحَنِيفِيَّةِ الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا. وَاشْتَهَرَتِ الْبِدْعَةُ وَكُلُّ مَا لَيْسَ بِحَقٍّ بِالظُّلْمَةِ تَخَيَّلَ الشَّاعِرُ أَنَّ السُّنَنَ كَأَنَّهَا مِنَ الْأَجْنَاسِ الَّتِي لَهَا إِشْرَاقٌ وَنُورٌ وَأَنَّ الْبِدَعَ نَوْعٌ مِنَ الْأَنْوَاعِ الَّتِي لَهَا اخْتِصَاصٌ بِالسَّوَادِ وَالظُّلْمَةِ. فَصَارَ ذٰلِكَ عِنْدَهُ كَتَشْبِيهِ مَحْسُوسٍ بِمَحْسُوسٍ فَجَازَ لَهُ التَّشْبِيهُ. وَبِالْجُمْلَةِ فَهٰذَا التَّشْبِيهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِتَخَيُّلِ مَا لَيْسَ بِمُتَلَوِّنٍ مُتَلَوِّنًا. ثُمَّ

يُتَخَيَّلُ اَصْلًا فَيُشَبَّهُ بِهِ. وَهٰذَا هُوَ ٱلتَّأْوِيلُ فِي قَوْلِ اَبِي طَالِبٍ ٱلرَّقِّيِّ :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَٱلظَّلَامُ كَاَنَّهُ يَوْمُ ٱلنَّوَى وَفُؤَادُ مَنْ لَمْ يَرْفُقِ

فَاِنَّهُ لَمَّا كَانَتِ ٱلْاَوْقَاتُ ٱلَّتِي تَحْدُثُ فِيهَا ٱلْمَكَارِهُ تُوصَفُ بِٱلسَّوَادِ (يُقَالُ: اَسْوَدَّتِ ٱلدُّنْيَا فِي عَيْنَيْهِ) جَعَلَ يَوْمَ ٱلنَّوَى كَاَنَّهُ اَشْهَرُ وَاَعْرَفُ بِٱلسَّوَادِ مِنَ ٱلظَّلَامِ فَعَرَّفَهُ بِهِ وَشَبَّهَهُ . ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهِ فُؤَادَ مَنْ لَا يَرْفُقُ تَظَرُّفًا. وَٱلْقَلْبُ ٱلْقَاسِي يُوصَفُ بِشِدَّةِ ٱلسَّوَادِ. فَصَارَ هٰذَا ٱلْقَلْبُ اَصْلًا عِنْدَهُ فِي ٱلسَّوَادِ فَقِسْ عَلَيْهِ . وَكَذٰلِكَ قَوْلُ ٱلصَّاحِبِ بْنِ عَبَّادٍ حِينَ اَهْدَى لِلْقَاضِي اَبِي ٱلْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْجُرْجَانِيِّ عِطْرًا :

يَا اَيُّهَا ٱلْقَاضِي ٱلَّذِي نَفْسِي لَهُ فِي قُرْبِ عَهْدِ لِقَائِهِ مُشْتَاقَهْ

اَهْدَيْتُ عِطْرًا مِثْلَ طِيبِ ثَنَائِهِ فَكَاَنَّمَا اُهْدِي لَهُ اَخْلَاقَهْ

وَٱلْعَادَةُ تَشْبِيهُ ٱلثَّنَاءِ بِٱلْعِطْرِ وَهُوَ عَكْسُ ٱلْاَمْرِ عَلَى جِهَةِ ٱلْمُبَالَغَةِ كَمَا بَيَّنَّا . وَقُلْتُ فِي تَشْبِيهِ حِصْنٍ :

كَاَنَّهُ وَكَاَنَّ ٱلْجَوَّ يَكْنِفُهُ وَهْمٌ تُمَثِّلُهُ فِي طَيِّهَا ٱلْفِكَرُ

لِاَنَّهُ لَمَّا ٱرْتَفَعَ ٱلْحِصْنُ فِي ٱلْجَوِّ حَتَّى صَارَ كَٱلْوَهْمِ فَيَكُونُ مِنْ تَشْبِيهِ ٱلْمَحْسُوسِ بِمَا تُخُيِّلَ اَنَّهُ مَحْسُوسٌ لِإِظْلَامِهِ فِي ٱلْعَيْنِ اَوْ فُرِضَ لَهُ ٱلْخَفَاءُ حَتَّى صَارَ يُشْبِهُ مَعْقُولًا بِمَعْقُولٍ. وَيَقْرُبُ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ تَشْبِيهُ ٱلْوُجُودِ بِٱلتَّخَيُّلِ ٱلَّذِي لَا وُجُودَ لَهُ فِي ٱلْاَعْيَانِ كَتَشْبِيهِ ٱلْجَمْرِ بَيْنَ ٱلرَّمَادِ بِبَحْرٍ مِنَ ٱلْمِسْكِ مَوْجُهُ ٱلذَّهَبُ. وَذٰلِكَ اِنَّمَا يَتِمُّ اِذَا فَرَضَ ٱلْمُتَخَيِّلُ اُمُورًا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مَوْجُودٌ فِي ٱلْاَعْيَانِ. فَحِينَئِذٍ يَكُونُ ٱلتَّشْبِيهُ حَسَنًا لَطِيفًا كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ فِي ٱلنَّرْجِسِ :

كَأَنَّ عُيُونَ ٱلنَّرْجِسِ ٱلْغَضِّ بَيْنَنَا مَدَاهِنُ دُرٍّ حَشْوُهُنَّ عَقِيقُ

وَكَقَوْلِ آخَرَ فِي تَشْبِيهِ ٱلشَّقَائِقِ :

وَكَأَنَّ مُحْمَرَّ ٱلشَّقِيـقِ م إِذَا تَصَوَّبَ أَوْ تَصَعَّدْ

أَعْلَامُ يَاقُوتٍ نُشِرْ نَ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبَرْجَدْ

وَيَقْرُبُ مِنْ هٰذَا ٱلْجِنْسِ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

أَيَقْتُلُنِي وَٱلْمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

فَإِنَّهُمْ لَمْ يُشَاهِدُوا أَنْيَابَ ٱلْأَغْوَالِ بَلِ ٱعْتَقَدُوا أَنَّهَا فِي غَايَةِ ٱلْحِدَّةِ فَحَسُنَ ٱلتَّشْبِيهُ . وَعَلَيْهِ جَاءَ قَوْلُهُ : طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ ٱلشَّيَاطِينِ . لِتَنَاهِي رُؤُوسِ ٱلشَّيَاطِـينِ فِي ٱلْكَرَاهَةِ وَلِٱعْتِقَادِهِمِ ٱلْغَايَةَ فِي قُبْحِ ٱلشَّيْطَانِ وَكَرَاهِيَتِهِ يُشَبِّهُونَ بِهِ ٱلْوَجْهَ ٱلْقَبِيحَ . وَلِٱعْتِقَادِهِمِ ٱلْغَايَةَ فِي خَيْرِ ٱلْمَلَكِ وَأَنَّهُ لَا شَرَّ فِيهِ يُشَبِّهُونَ بِهِ ٱلصُّوَرَ ٱلْحَسَنَـةَ كَمَا قَالَ : مَا هٰذَا بَشَرًا إِنْ هٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ . وَٱعْلَمْ أَنَّ مَا بِهِ ٱلْمُشَابَهَةُ قَدْ يَكُونُ مُقَيَّدًا بِٱلِٱنْتِسَابِ إِلَى ٱلشَّيْءِ وَذٰلِكَ إِمَّا إِلَى ٱلْمَفْعُولِ بِهِ وَهُوَ ٱلْجَارُّ وَٱلْمَجْرُورُ كَقَوْلِهِمْ لِمَنْ يَفْعَلُ مَا لَا يُفِيدُ : كَٱلرَّاقِمِ عَلَى ٱلْمَاءِ . وَإِمَّا إِلَى ٱلْحَالِ كَقَوْلِهِمْ : كَٱلْحَادِي وَلَيْسَ لَهُ بَعِيرٌ (ٱلْوَاوُ لِلْحَالِ) . وَإِمَّا إِلَى ٱلْمَفْعُولِ بِهِ وَٱلْجَارِّ وَٱلْمَجْرُورِ كَقَوْلِهِمْ : هُوَ كَمَنْ يَجْمَعُ ٱلسَّيْفَيْنِ فِي غِمْدٍ وَكَمُبْتَغِي ٱلصَّيْدَ فِي عِرِّيسَةِ ٱلْأَسَدِ . وَكَقَوْلِ لَبِيدٍ :

وَمَا ٱلنَّاسُ إِلَّا كَٱلدِّيَارِ وَأَهْلِهَا بِهَا يَوْمَ حَلُّوهَا وَغَدْوًا بَلَاقِعُ

فَإِنَّهُ لَمْ يُشَبِّهِ ٱلنَّاسَ بِٱلدِّيَارِ وَإِنَّمَا شَبَّهَ وُجُودَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَسُرْعَةَ زَوَالِهِمْ بِحُلُولِهِمِ ٱلدِّيَارَ وَوَشْكِ رَحِيلِهِمْ مِنْهَا . وَكُلَّمَا كَانَتِ ٱلْمُقَدَّمَاتُ

اكثر كانَ ٱلتَّشبيهُ اوغلَ في كونهِ عقليًّا كقولهِ : إنَّما مَثَلُ ٱلحياةِ الدُّنيا كَماء انزلناهُ منَ ٱلسَّماء فَٱختلطَ بهِ نَباتُ ٱلارضِ ممَّا يأكلُ ٱلنَّاسُ وَٱلانعامُ حتَّى اذا اخذتِ ٱلارضُ زُخرفها وٱزَّيَّنت وظنَّ اهلُها انَّهم قادرونَ عليها اتاها امرُنا ليلًا او نهارًا فجعلناها حصيدًا كأنْ لم تغنَ بٱلامسِ . فإنَّ ٱلتَّشبيهَ مُنتزَعٌ من مجموعِ هذهِ ٱلجُمَلِ من غيرِ ان يُمكِنَ فَصلُ بَعضِها من بعضٍ . فإنَّكَ لو حذفتَ منها جملةً واحدةً من ايِّ موضعٍ كانَ اخلَّ ذلكَ بٱلمقصودِ منَ ٱلتَّشبيهِ . ثمَّ ما بهِ ٱلمشابهةُ إنْ كانَ مُركَّبًا فإنَّهُ على قسمَينِ : (ٱلاوَّلُ) ما لا يُمكِنُ إفرادُ احدِ اجزائهِ بٱلذِّكرِ كقولهِ :

كأنَّ سُهَيلًا وَٱلنُّجومُ وراءهُ صُفوفُ صلاةٍ قامَ فيها إمامُها

فإنَّهُ لا يُمكِنُ إفرادُ اجزاء هذا ٱلتَّشبيهِ إذ لو قلتَ : كأنَّ سُهَيلًا إمامٌ وكأنَّ ٱلنُّجومَ صُفوفُ صلاةٍ . ذهبَتْ فائدةُ هذا ٱلتَّشبيهِ . (ٱلثَّاني) ما يُمكِنُ إفرادُهُ بٱلذِّكرِ ويكونُ إذا أُزيلَ منهُ ٱلتَّركيبُ صحيحَ ٱلتَّشبيهِ في طرَفَيهِ إلَّا انَّ ٱلمعنى مُتغيِّرٌ كقولِ ابي طالبٍ ٱلرَّقِّيِّ :

وكأنَّ اجرامَ ٱلنُّجومِ لوامعًا دُرَرٌ نُثِرنَ على بساطٍ ازرقِ

فلو قلتَ : كأنَّ ٱلنُّجومَ دُرَرٌ وكأنَّ ٱلسَّماء بساطٌ ازرقُ وجدتَ ٱلتَّشبيهَ مقبولًا . ولكنَّ ٱلمقصودَ منَ ٱلهيئةِ ٱلمشبَّهِ بها قد زالَ . وربَّما كانَ ٱلتَّشبيهُ في أُمورٍ كثيرةٍ ولا يتقيَّدُ بعضُها ببعضٍ . وإنَّما يكونُ بعضُها مضمومًا الى ٱلبعضِ وكلٌّ واحدٍ منها منفردٌ بنفسهِ

كَقَوْلِكَ: زَيْدٌ كَالأَسَدِ بَأْسًا وَٱلْبَحْرِ جُودًا وَٱلسَّيْفِ مَضَاءً وَٱلْبَدْرِ بَهَاءً. وَكَقَوْلِكَ: هُوَ يَصْفُو وَيَكْدُرُ وَيَحْلُو وَيَمُرُّ. وَلَهُ خَاصَّتَانِ (إِحْدَاهُمَا) أَنَّهُ لَا يَجِبُ فِيهِ ٱلتَّرْتِيبُ. (وَٱلثَّانِيَةُ) إِذَا أُسْقِطَ ٱلْبَعْضُ لَا يَتَغَيَّرُ حُكْمُ ٱلْبَاقِي. وَمِنْهُ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

كَأَنَّ قُلُوبَ ٱلطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا   لَدَى وَكْرِهَا ٱلْعُنَّابُ وَٱلْحَشَفُ ٱلْبَالِي

وَفِيهِ نَظَرٌ

البحث التاسع عشر

في التشابيه المستعملة عند العرب

(من كتاب الصناعتين للعسكري وعن البديعيات)

أَمَّا ٱلطَّرِيقَةُ ٱلْمَسْلُوكَةُ فِي ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلنَّهْجُ ٱلْقَاصِدُ فِي ٱلتَّمْثِيلِ عَنِ ٱلْقُدَمَاءِ وَٱلْمُحْدَثِينَ فَتَشْبِيهُ ٱلْجَوَادِ بِٱلْبَحْرِ وَٱلْمَطَرِ. وَٱلشُّجَاعِ بِٱلأَسَدِ. وَٱلْحَسَنِ بِٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ. وَٱلْفَهِمِ ٱلْمَاضِي بِٱلسَّيْفِ. وَٱلْعَالِي ٱلرُّتْبَةِ بِٱلنَّجْمِ. وَٱلْحَلِيمِ ٱلرَّزِينِ بِٱلْجَبَلِ. وَٱلْحَيِيِّ بِٱلْبِكْرِ. ثُمَّ يُشَبِّهُونَ ٱللَّئِيمَ بِٱلْكَلْبِ. وَٱلْجَبَانَ بِٱلصِّفْرِدِ. وَٱلطَّائِشَ بِٱلْفَرَاشِ. وَٱلذَّلِيلَ بِٱلنَّقَدِ وَٱلنَّعْلِ. وَٱلْمُتَّضِعَ بِٱلْوَتَدِ. وَٱلْقَاسِيَ بِٱلْحَدِيدِ وَٱلصَّخْرِ. وَٱلْبَلِيدَ بِٱلْجَمَادِ. وَشُهِرَ قَوْمٌ بِخِصَالٍ مَحْمُودَةٍ فَصَارُوا فِيهَا أَعْلَامًا فَجَرَوْا مَجْرَى مَا قَدَّمْنَاهُ كَٱلسَّمَوْءَلِ فِي ٱلْوَفَاءِ. وَحَاتِمٍ فِي ٱلسَّخَاءِ. وَٱلأَحْنَفِ فِي ٱلْحِلْمِ. وَسَحْبَانَ فِي ٱلْبَلَاغَةِ. وَقُسٍّ فِي ٱلْخَطَابَةِ. وَلُقْمَانَ فِي ٱلْحِكْمَةِ. وَشُهِرَ آخَرُونَ بِأَضْدَادِ هٰذِهِ ٱلْخِصَالِ فَشُبِّهَ بِهِمْ فِي حَالِ ٱلذَّمِّ كَبَاقِلٍ فِي ٱلْعِيِّ. وَهَبَنَّقَةَ فِي ٱلْحُمْقِ. وَٱلْكُسَعِيِّ فِي ٱلنَّدَامَةِ. وَمَادِرٍ فِي ٱلْبُخْلِ

وَٱلتَّشْبِيهُ يَزِيدُ ٱلْمَعْنَى وُضُوحًا وَيُكْسِبُهُ تَأْكِيدًا . وَقَدْ يَأْتِي تَارَةً لِبَيَانِ إِمْكَانِ وُجُودِ ٱلشَّيْءِ عِنْدَ ٱدِّعَاءِ مَا لَا يَكُونُ إِمْكَانُهُ بَيِّنًا . كَقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

فَإِنْ تَفُقِ ٱلْأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ ... فَإِنَّ ٱلْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ ٱلْغَزَالِ

وَيَكُونُ لِبَيَانِ مِقْدَارِ ٱلشَّيْءِ كَمَا إِذَا حَاوَلْتَ نَفْيَ ٱلْفَائِدَةِ مِنْ فِعْلِ ٱلْإِنْسَانِ قُلْتَ : هُوَ كَالْقَابِضِ عَلَى ٱلْمَاءِ . وَقَدْ أَطْبَقَ جَمِيعُ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ مِنَ ٱلْعَرَبِ وَٱلْعَجَمِ عَلَى فَوَائِدِ ٱلتَّشْبِيهِ . وَلَمْ يَسْتَغْنِ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْهُ . وَقَدْ جَاءَ عَنِ ٱلْقُدَمَاءِ وَأَهْلِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ مِنْ كُلِّ جِيلٍ مَا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى شَرَفِهِ وَفَضْلِهِ وَمَوْقِعِهِ مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ بِكُلِّ لِسَانٍ . فَمِنْ ذٰلِكَ مَا قَالَ صَاحِبُ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ : ٱلدُّنْيَا كَالْمَاءِ كُلَّمَا ٱزْدَدْتَ مِنْهُ شُرْبًا ٱزْدَدْتَ مِنْهُ عَطَشًا . وَقَالَ : صُحْبَةُ ٱلْأَشْرَارِ تُورِثُ ٱلشَّرَّ كَالرِّيحِ إِذَا مَرَّتْ عَلَى ٱلنَّتِنِ حَمَلَتْ نَتْنًا . وَإِذَا مَرَّتْ عَلَى ٱلطِّيبِ حَمَلَتْ طِيبًا . وَقَالَ : مَنْ أَنْعَمَ لِمَنْ لَا يَشْكُرُ كَانَ كَمَنْ نَثَرَ بَذْرَهُ فِي ٱلسِّبَاخِ . وَقَدْ نَظَمْتُ هٰذَا ٱلْمَعْنَى :

أَلَا إِنَّمَا ٱلنُّعْمَى تُجَازَى بِمِثْلِهَا ... إِذَا كَانَ مُسْدَاهَا إِلَى مَاجِدٍ حُرِّ

فَأَمَّا إِذَا كَانَتْ إِلَى غَيْرِ مَاجِدٍ ... فَقَدْ ذَهَبَتْ فِي غَيْرِ حَمْدٍ وَلَا شُكْرِ

إِذَا ٱلْمَرْءُ أَلْقَى فِي ٱلسِّبَاخِ بُذُورَهُ ... أَضَاعَ فَلَمْ يَرْجِعْ بِزَرْعٍ وَلَا بَذْرِ

وَقَالَ أَيْضًا : لَا يَخْفَى فَضْلُ ذِي ٱلْعِلْمِ وَإِنْ أَخْفَاهُ كَالْمِسْكِ يُخْبَأُ وَيُسْتَرُ ثُمَّ لَا يَمْنَعُ ذٰلِكَ رَائِحَتَهُ أَنْ تَفُوحَ . أَخَذَهُ ٱلصَّاحِبُ فَكَتَبَ : أَنْتَ أَدَامَ ٱللهُ عِزَّكَ . وَإِنْ طَوَيْتَ عَنَّا خَبَرَكَ . وَجَعَلْتَ وَطَنَكَ وَطَرَكَ .

فَأَنْبَاؤُكَ تَأْتِينَا كَمَا وَشَى بِالْمِسْكِ رَيَّاهُ . وَنَمَّ عَلَى الصَّبَاحِ مُحَيَّاهُ . وَقَالَ : الرَّجُلُ ذُو الْمُرُوءَةِ يُكْرَمُ عَلَى غَيْرِ مَالٍ . كَالْأَسَدِ يُهَابُ وَإِنْ كَانَ رَابِضًا . وَالرَّجُلُ الَّذِي لَا مُرُوءَةَ لَهُ يُهَانُ وَإِنْ كَانَ غَنِيًّا . كَالْكَلْبِ يَهُونُ عَلَى النَّاسِ وَإِنْ طُوِّقَ . وَقَالَ : لَا يَجِبُ لِلْمُذْنِبِ أَنْ يُفَحِّصَ عَنْ أَمْرِهِ لِقُبْحِ مَا يَنْكَشِفُ مِنْهُ كَالشَّيْءِ الْمُنْتِنِ كُلَّمَا أُثِيرَ ازْدَادَ نَتْنًا . وَقَالَ أَيْضًا : مَنْ يَصْنَعِ الْمَعْرُوفَ لِعَاجِلِ الْجَزَاءِ فَهُوَ كَمُلْقِي الْحَبِّ لِلطَّيْرِ لَا لِيَنْفَعَهَا بَلْ لِيَصِيدَهَا بِهِ . وَقَالَ أَيْضًا : الْمَالُ إِذَا اجْتَمَعَ وَلَمْ يُصْرَفْ فِي الْحُقُوقِ أَسْرَعَ إِلَيْهِ الْهَلَاكُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ كَالْمَاءِ إِذَا اجْتَمَعَ فِي مَوْضِعٍ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ طَرِيقٌ إِلَى النُّفُوذِ تَفَجَّرَ مِنْ جَوَانِبِهِ فَضَاعَ . وَقَالَ أَيْضًا : يَبْقَى الصَّالِحُ مِنَ الرِّجَالِ صَالِحًا حَتَّى يُصَاحِبَ فَاسِدًا فَإِذَا صَاحَبَهُ فَسَدَ مِثْلُ مِيَاهِ الْأَنْهَارِ تَكُونُ عَذْبَةً حَتَّى تُخَالِطَ مَاءَ الْبَحْرِ فَإِذَا خَالَطَتْهُ مَلُحَتْ . وَمِنَ التَّشَابِيهِ الْحَسَنَةِ قَوْلُ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ : الْأَدَبُ عِنْدَ الْأَحْمَقِ كَالْمَاءِ الْعَذْبِ فِي أُصُولِ الْحَنْظَلِ كُلَّمَا ازْدَادَ رِيًّا ازْدَادَ مَرَارَةً . وَمِنَ التَّشَابِيهِ الشِّعْرِيَّةِ الْبَدِيعَةِ قَوْلُ لَبِيدٍ :

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا كَالشِّهَابِ وَضَوْئِهِ ... يَحُورُ رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ
وَمَا الْمَالُ وَالْأَهْلُونَ إِلَّا وَدِيعَةٌ ... وَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ الْوَدَائِعُ

ثُمَّ قَالَ :

وَأَصْبَحْتُ مِثْلَ السَّيْفِ أَخْلَقَ جَفْنَهُ ... تَقَادُمُ عَهْدِ الْقَيْنِ وَالنَّصْلُ قَاطِعُ

وَكَقَوْلِ سَالِمِ بْنِ جَنَاحٍ الْعَبْسِيِّ :

أَلَا إِنَّمَا الْإِنْسَانُ غِمْدٌ لِقَلْبِهِ ... وَلَا خَيْرَ فِي غِمْدٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ نَصْلُ

وَقَالَ مُتَمِّمٌ :

وَبَعْضُ ٱلرِّجَالِ نَخْلَةٌ لَا جَنَى لَهَا ... وَلَا ظِلَّ إِلَّا أَنْ يُعَدَّ مِنَ ٱلنَّخْلِ

وَقَالَ ٱلْأَخْطَلُ ٱلنَّصْرَانِيُّ :

وَإِذَا ٱفْتَقَرْتَ إِلَى ٱلذَّخَائِرِ لَمْ تَجِدْ ... ذُخْرًا يَكُونُ كَصَالِحِ ٱلْأَعْمَالِ

وَكَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ فِي ٱلنُّعْمَانِ :

فَإِنَّكَ شَمْسٌ وَٱلْأَنَامُ كَوَاكِبٌ ... إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَمِنْ بَدِيعِ تَشَابِيهِ ٱلْمُحْدَثِينَ قَوْلُ مُسْلِمِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ :

وَإِنِّي وَإِسْمَاعِيلَ يَوْمَ وَدَاعِهِ ... فَكَٱلْغِمْدِ يَوْمَ ٱلرَّوْعِ فَارَقَهُ ٱلنَّصْلُ

وَكَقَوْلِ بَدِيعِ ٱلزَّمَانِ ٱلْهَمَذَانِيِّ :

قَدْ كَادَ يَحْكِيكَ صَوْبُ ٱلْغَيْثِ مُنْسَكِبًا
لَوْ كَانَ طَلْقَ ٱلْمُحَيَّا يُمْطِرُ ٱلذَّهَبَا
وَٱلدَّهْرُ لَوْ لَمْ يَخُنْ وَٱلشَّمْسُ لَوْ نَطَقَتْ
وَٱللَّيْثُ لَوْ لَمْ يَصِدْ وَٱلْبَحْرُ لَوْ عَذُبَا

وَلِلْمُتَنَبِّي فِي وَصْفِ ظَبْيٍ :

أَغْنَاهُ حُسْنُ ٱلْجِيدِ عَنْ لُبْسِ ٱلْحُلِي ... وَعَادَةُ ٱلْعُرْيِ عَنِ ٱلتَّفَضُّلِ
كَأَنَّهُ مُضَمَّخٌ بِصَنْدَلِ

وَكَقَوْلِهِ فِي سُرْعَةِ ٱلْأَوْبَةِ وَتَقَايُلِ ٱللُّبْثِ :

وَمَا أَنَا غَيْرُ سَهْمٍ فِي هَوَاءٍ ... يَعُودُ وَلَمْ يَجِدْ فِيهِ ٱمْتِسَاكَا

وَلَهُ قَوْلُهُ :

وَأَنْتَ حُسَامُ ٱلْمُلْكِ وَٱللّٰهُ ضَارِبٌ ... وَأَنْتَ لِوَاءُ ٱلدِّينِ وَٱللّٰهُ عَاقِدُ

وَلَهُ أَيضاً وَهُوَ مِنْ جِنْسِ ٱلْإِبْدَاعِ :

مَلِكٌ سِنَانُ قَنَاتِهِ وَبَنَانُهُ   يَتَبَارَيَانِ دَماً وَعُرْفاً سَاكِبَا
كَالْبَدْرِ مِنْ حَيْثُ ٱلْتَفَتَّ رَأَيْتَهُ   يُهْدِي إِلَى عَيْنَيْكَ نُوراً ثَاقِبَا
كَالشَّمْسِ فِي كَبِدِ ٱلسَّمَاءِ وَضَوْؤُهَا   يَغْشَى ٱلْبِلَادَ مَشَارِقاً وَمَغَارِبَا
كَالْبَحْرِ يَقْذِفُ لِلْقَرِيبِ جَوَاهِراً   جُوداً وَيَبْعَثُ لِلْبَعِيدِ سَحَائِبَا

وَكَثِيراً مَا يَتَلَطَّفُ ٱلشُّعَرَاءُ بِٱلتَّشْبِيهِ فَيُشَبِّهُونَ ٱلشَّيْءَ ٱلْوَاحِدَ بِشَيْئَيْنِ وَثَلَاثَةٍ . وَرُبَّمَا شَبَّهُوا شَيْئَيْنِ بِشَيْئَيْنِ وَثَلَاثَةً بِثَلَاثَةٍ وَأَرْبَعَةً بِأَرْبَعَةٍ . وَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي ٱلْفَرَسِ :

لَهُ أَيْطَلَا ظَبْيٍ وَسَاقَا نَعَامَةٍ   وَإِرْخَاءُ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيبُ تَتْفُلِ

وَكَقَوْلِ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ :

كَأَنَّ مُثَارَ ٱلنَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا   وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

وَلِٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ فِي تَشْبِيهِ حُبَابِ ٱلرَّاحِ :

يَجُولُ حُبَابُ ٱلرَّاحِ فِي جَنَبَاتِهَا   كَمَا جَالَ دَمْعٌ فَوْقَ خَدٍّ مُوَرَّدِ

وَلِآخَرَ قَدْ شَبَّهَ أَرْبَعَةَ أَشْيَاءَ بِأَرْبَعَةٍ :

لِلّٰهِ طِرْسٌ عَنْ سُطُورٍ جَادَهَا   م ٱلْفِكْرُ ٱلسَّلِيمُ بِصَوْبِ مِسْكٍ أَذْفَرِ
فَكَأَنَّمَا هُوَ رَوْضَةٌ أَوْ جَدْوَلٌ   أَوْ سِمْطُ دُرٍّ أَوْ قِلَادَةُ عَنْبَرِ

وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلتَّمْثِيلُ وَهُوَ ٱلَّذِي يَكُونُ تَشْبِيهاً وَاحِداً مُقَيَّداً بِقُيُودٍ وَيُظَنُّ أَنَّهَا تَشْبِيهَاتٌ مَجْمُوعَةٌ كَقَوْلِهِ :

كَمَا أَبْرَقَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمَامَةٌ   فَلَمَّا رَجَوْهَا أَقْشَعَتْ وَتَجَلَّتِ

فَإِنَّ مُجَرَّدَ قَوْلِهِ : أَبْرَقَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمَامَةٌ لَيْسَ تَشْبِيهاً مُسْتَقِلاً

بِذَاتِهِ. لِأَنَّ مَقْصُودَ ٱلشَّاعِرِ أَنْ يَصِفَ ٱبْتِدَاءَ مُطْمِعٍ أَدَّى إِلَى ٱنْتِهَاءِ مُؤْيِسٍ . وَذَلِكَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِجُمْلَةٍ فَإِنَّ تَأْدِيَةَ ٱلشَّيْءِ إِلَى غَيْرِهِ حُكْمٌ زَائِدٌ عَلَى ذَاتِهِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ضَرْبًا يُسَمَّى ٱلطَّرْدَ وَٱلْعَكْسَ. وَهُوَ أَنْ يُجْعَلَ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ مُشَبَّهًا وَٱلْمُشَبَّهُ مُشَبَّهًا بِهِ. وَبَعْضُهُمْ يُسَمِّيهِ: غَلَبَةَ ٱلْفُرُوعِ عَلَى ٱلْأُصُولِ. وَلَا تَجِدُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ إِلَّا وَٱلْغَرَضُ بِهِ ٱلْمُبَالَغَةُ. كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

وَبَدَا ٱلصَّبَاحُ كَأَنَّ غُرَّتَهُ ... وَجْهُ ٱلْخَلِيفَةِ حِينَ يُمْتَدَحُ

فَجَعَلَ ٱلْأَصْلَ فَرْعًا وَٱلْفَرْعَ أَصْلًا . وَهٰذَا أَبْلَغُ وَأَحْسَنُ وَأَمْدَحُ مِنْ تَشْبِيهِ ٱلْوَجْهِ بِٱلصَّبَاحِ . لِأَنَّ تَشْبِيهَ ٱلْوَجْهِ بِٱلصَّبَاحِ أَصْلٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ لَا يُنْكَرُ وَلَا يُسْتَنْكَرُ . وَإِنَّمَا ٱلَّذِي يُسْتَنْكَرُ تَشْبِيهُ ٱلصَّبَاحِ بِٱلْوَجْهِ

البحث العشرون

في معايب التشبيه

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

وَإِذْ ذَكَرْنَا أَقْسَامَ ٱلتَّشْبِيهِ وَبَيَّنَّا ٱلْمَحْمُودَ مِنْهَا ٱلَّذِي يَنْبَغِي ٱقْتِفَاءُ أَثَرِهِ وَٱتِّبَاعُ مَذْهَبِهِ فَلْنُتْبِعْهُ بِضِدِّهِ مِمَّا يَنْبَغِي ٱجْتِنَابُهُ وَٱلْإِضْرَابُ عَنْهُ. عَلَى أَنَّهُ قَدْ قَدَّمْنَا ٱلْقَوْلَ بِأَنَّ حَدَّ ٱلتَّشْبِيهِ هُوَ أَنْ يُثْبَتَ لِلْمُشَبَّهِ حُكْمٌ مِنْ أَحْكَامِ ٱلْمُشَبَّهِ بِهِ . فَإِذَا لَمْ يَكُنْ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ أَوْ كَانَ بَيْنَ ٱلْمُشَبَّهِ وَٱلْمُشَبَّهِ بِهِ بُعْدٌ فَذَلِكَ ٱلَّذِي يُطْرَحُ وَلَا يُسْتَعْمَلُ . وَٱلَّذِي يَرِدُ مِنْهُ مُضْمَرَ ٱلْأَدَاةِ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي ٱلتَّوَسُّعِ . كَقَوْلِ أَبِي نُوَاسٍ :

مَا لِرِجْلِ ٱلْمَالِ أَمْسَتْ تَشْتَكِي مِنْكَ ٱلْكَلَالَا

فَجَعَلَ لِلْمَالِ رِجْلًا وَذٰلِكَ تَشْبِيهٌ بَعِيدٌ. وَمِنْ أَقْبَحِ مَا سَمِعْتُهُ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

وَتَعَلَّمَ ٱلنَّاسُ ٱلسَّخَاءَ مُجَزَّأً وَذَهَبْتَ أَنْتَ بِرَأْسِهِ وَسَنَامِهِ

وَتَرَكْتَ لِلنَّاسِ ٱلْإِهَابَ وَمَا بَقِي مِنْ فَرْثِهِ وَعُرُوقِهِ وَعِظَامِهِ

وَٱلْقُبْحُ ٱلْفَاحِشُ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي وَكُلُّ هٰذَا ٱلتَّعَسُّفُ فِي ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْبَعِيدِ دَنْدَنَةٌ حَوْلَ مَعْنًى لَيْسَ بِطَائِلٍ . فَإِنَّ غَرَضَهُ أَنْ يَقُولَ : ذَهَبْتَ بِٱلْأَعْلَى وَتَرَكْتَ لِلنَّاسِ ٱلْأَدْنَى . أَوْ : ذَهَبْتَ بِٱلْجَيِّدِ وَتَرَكْتَ لِلنَّاسِ ٱلرَّدِيءَ . وَأَمَّا (ٱلتَّشْبِيهُ ٱلْمُظْهَرُ ٱلْأَدَاةِ) فَهٰذِهِ أَمْثَالٌ أَوْرَدْتُهَا لِتَسْتَدِلَّ بِهَا عَلَى أَشْبَاهِهِ فَإِنَّ لِذِكْرِ ٱلْمِثَالِ فَائِدَةً لَا تَكُونُ لِذِكْرِ ٱلْحَدِّ وَحْدَهُ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ :

عَلَا حَاجِبَيْكَ ٱلشَّيْبُ حَتَّى كَأَنَّهُ ظِبَاءٌ جَرَتْ مِنْهَا سَنِيحٌ وَبَارِحُ

وَكَذٰلِكَ قَوْلُ ٱلْآخَرِ يَصِفُ ٱلسِّهَامَ فَشَبَّهَهَا بِأَعْنَاقِ ٱلظِّبَاءِ . وَذٰلِكَ مِنْ أَبْعَدِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ :

كَسَاهَا رَطِيبُ ٱلرِّيشِ فَٱعْتَدَلَتْ لَهُ قِدَاحٌ كَأَعْنَاقِ ٱلظِّبَاءِ ٱلْفَوَارِقِ

وَعَلَى نَحْوٍ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

يَمْشُونَ فِي حَلَقِ ٱلْحَدِيدِ كَمَا مَشَتْ جُرْبُ ٱلْجِمَالِ بِهَا ٱلْكُحَيْلُ ٱلْمُشْعَلُ

فَشَبَّهَ ٱلرِّجَالَ فِي دُرُوعِ ٱلزَّرَدِ بِٱلْجِمَالِ ٱلْجُرْبِ . وَهٰذَا مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْبَعِيدِ ٱلسَّخِيفِ فَضْلًا عَنْ أَنْ لَا مُقَارَبَةَ بَيْنَهُمَا فِي ٱللَّوْنِ . وَمِنَ ٱلتَّشْبِيهَاتِ ٱلْبَارِدَةِ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَجَرَى عَلَى ٱلْوَرَقِ ٱلنَّجِيعُ ٱلْقَانِي   فَكَأَنَّهُ ٱلنَّارَنْجُ فِي ٱلْأَغْصَانِ

وَهٰذَا تَشْبِيهٌ يُنْكِرُهُ أَهْلُ ٱلتَّجْسِيمِ. وَقَدْ عَدُّوا مِنَ ٱلتَّشَابِيهِ ٱلَّتِي هِيَ غَيْرُ بَلِيغَةٍ قَوْلَ ٱلشَّاعِرِ فِي وَصْفِ ٱلرَّوْضِ:

كَأَنَّ شَقَائِقَ ٱلنُّعْمَانِ فِيهِ   ثِيَابٌ قَدْ رَوِينَ مِنَ ٱلدِّمَاءِ

فَهٰذَا وَإِنْ كَانَ تَشْبِيهًا مُصِيبًا فَإِنَّ فِيهِ بَشَاعَةَ كَثْرَةِ ٱلدِّمَاءِ ٱلَّتِي تَعَافُ ٱلْأَنْفُسُ ٱللَّطِيفَةُ رُؤْيَتَهَا. وَفِي أَقْوَالِ ٱلْعَرَبِ تَشَابِيهُ تَمُجُّهَا ٱلْأَذْوَاقُ ٱلصَّحِيحَةُ وَتَنْفِرُ مِنْهَا ٱلطِّبَاعُ ٱلسَّلِيمَةُ. فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ وَقَدْ عَابَهُ ٱلْأَصْمَعِيُّ بَيْنَ يَدَيِ ٱلرَّشِيدِ:

نَظَرَتْ إِلَيْكَ بِحَاجَةٍ لَمْ تَقْضِهَا   نَظَرَ ٱلْمَرِيضِ إِلَى وُجُوهِ ٱلْعُوَّدِ

قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ: قَدْ يُكْرَهُ تَشْبِيهُ ٱلْمَمْدُوحِ بِٱلْمَرِيضِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ أَبِي مِحْجَنٍ ٱلثَّقَفِيِّ فِي قَيْنَةٍ:

وَتُرَجِّعُ ٱلْعُودَ أَحْيَانًا وَتَخْفِضُهُ   كَمَا يَطِيرُ ذُبَابُ ٱلرَّوْضَةِ ٱلْغَرِدُ

فَإِنَّ ٱلْقَيْنَةَ لَمْ تَرْضَ أَنْ تُشَبِّهَ نَفْسَهَا بِٱلذُّبَابِ. وَلِذٰلِكَ رَغِبَ ٱلْمُوَلَّدُونَ عَنْ تَشَابِيهِ ٱلْعَرَبِ لِأَنَّهَا مَعَ عَقَادَةِ ٱلتَّرْكِيبِ لَمْ تَسْفِرْ عَنْ كَبِيرِ أَمْرٍ فَخَالَفُوهَا فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلشِّعْرِ إِلَى مَا هُوَ أَلْيَقُ بِٱلْوَقْتِ وَأَمَسُّ بِأَهْلِهِ



البحث الحادي والعشرون

في المذهب الكلامي

(من شرح بديعيّة العميان لابن جابر الاندلسي باختصار)

(راجع صفحة ٢٨ من علم الادب)

اَلْمَذْهَبُ ٱلْـكَلَامِيُّ عِنْدَ اَهْلِ ٱلْبَيَانِ هُوَ اِيرَادُ حُجَّةٍ لِلْمَطْلُوبِ عَلَى طَرِيقَةِ اَهْلِ ٱلْـكَلَامِ . وَهُوَ اَنْ يَكُونَ بَعْدَ تَسْلِيمِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ مُقَدَّمَةٌ مُسْتَلْزِمَةٌ لِلْمَطْلُوبِ . وَقِيلَ : هُوَ اَنْ يَأْتِيَ ٱلْبَلِيغُ فِي صِحَّةِ دَعْوَاهُ وَإِبْطَالِ دَعْوَى خَصْمِهِ بِحُجَّةٍ قَاطِعَـةٍ عَقْلِيَّةٍ تَصِحُّ نِسْبَتُهَا اِلَى عِلْمِ ٱلْـكَلَامِ . اِذْ عِلْمُ ٱلْـكَلَامِ عِبَارَةٌ عَنْ اِثْبَاتِ اُصُولِ ٱلدِّينِ بِٱلْبَرَاهِينِ ٱلْعَقْلِيَّةِ ٱلْقَاطِعَةِ . وَمِنْ اَوْضَحِ ٱلشَّوَاهِدِ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ قَوْلُ ٱلْقُرْآنِ : لَوْ كَانَ فِي ٱلْاَرْضِ وَٱلسَّمَاءِ آلِهَةٌ اِلَّا ٱللّٰهُ لَفَسَدَتَا . فَهٰذَا دَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ . وَتَمَامُ ٱلدَّلِيلِ اَنْ تَقُولَ لٰـكِنَّهُمَا لَمْ تَفْسُدَا فَلَيْسَ اِذًا فِيهِمَا آلِهَةٌ غَيْرُ ٱللّٰهِ . وَمِنْ اَمْثِـلَةِ هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ اَعْرَابِيٍّ لِرَجُلٍ : اِنِّي لَمْ اَرُدَّ وَجْهِي عَنِ ٱلطَّلَبِ اِلَيْكَ فَصُنْ نَفْسَكَ عَنْ رَدِّي وَضَعْنِي مِنْ كَرَمِكَ بِحَيْثُ وَضَعْتُ نَفْسِي مِنْ رَجَائِكَ . وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلنَّابِغَـةِ يَعْتَذِرُ اِلَى ٱلنُّعْمَانِ :

حَلَفْتُ فَلَمْ اَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً ... وَلَيْسَ وَرَاءَ ٱللّٰهِ لِلْمَـرْءِ مَذْهَبُ
لَئِنْ كُنْتَ قَدْ بُلِّغْتَ عَنِّي خِيَانَةً ... لَمُبْلِغُكَ ٱلْوَاشِي اَغَشُّ وَاَكْـذَبُ
وَلٰـكِنَّنِي كُنْتُ ٱمْرَءًا لِيَ جَانِبٌ ... مِنَ ٱلْاَرْضِ فِيهِ مُسْتَرَادٌ وَمَذْهَبُ

مُلُوكٌ وَإِخْوَانٌ إِذَا مَا مَدَحْتُهُمْ   أُحَكَّمُ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأُقَرَّبُ
كَفِعْلِكَ فِي قَوْمٍ أَرَاكَ اصْطَنَعْتَهُمْ   فَلَمْ تَرَهُمْ فِي مَدْحِهِمْ لَكَ أَذْنَبُوا

يَقُولُ لِهٰذَا ٱلْمَلِكِ : أَنْتَ أَحْسَنْتَ إِلَى قَوْمٍ فَمَدَحُوكَ . وَأَنَا أَحْسَنَ إِلَيَّ قَوْمٌ فَمَدَحْتُهُمْ . فَكَمَا أَنَّ مَدْحَ مَنْ أَحْسَنْتَ إِلَيْهِ لَكَ لَا يُعَدُّ ذَنْبًا فَكَذَا مَدْحِي لِمَنْ أَحْسَنَ إِلَيَّ لَا يُعَدُّ ذَنْبًا. قَالَ ٱبْنُ أَبِي ٱلْإِصْبَعِ : وَمِنْ شَوَاهِدِ هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

لِكُلِّ ٱمْرِئٍ نَفْسَانِ نَفْسٌ كَرِيمَةٌ   وَنَفْسٌ يُعَاصِيهَا ٱلْفَتَى وَيُطِيعُهَا
وَنَفْسُكَ مِنْ نَفْسَيْكَ تَشْفَعُ لِلنَّدَى   إِذَا قَلَّ مِنْ أَحْرَارِهِنَّ شَفِيعُهَا

يَقُولُ : لِكُلِّ إِنْسَانٍ نَفْسٌ مُطْمَئِنَّةٌ تَأْمُرُ بِٱلْخَيْرِ . وَنَفْسٌ أَمَّارَةٌ تَأْمُرُ بِٱلسُّوءِ . وَٱلْإِنْسَانُ يُعَاصِي ٱلْأَمَّارَةَ مَرَّةً وَيُطِيعُهَا أُخْرَى . وَأَنْتَ إِذَا أَمَرَتْكَ ٱلْأَمَّارَةُ بِتَرْكِ ٱلنَّدَى شَفَعَتِ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ إِلَيْهَا فِي ٱلنَّدَى فِي ٱلْحَالَةِ ٱلَّتِي يَقِلُّ فِيهَا ٱلشَّفِيعُ فِي ٱلنَّدَى مِنَ ٱلنُّفُوسِ . فَأَنْتَ أَكْرَمُ ٱلنَّاسِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ قِيَاسَ ٱلْمَذْهَبِ ٱلْكَلَامِيِّ إِمَّا حَمْلِيٌّ . وَإِمَّا شَرْطِيٌّ . فَالْأَقْيِسَةُ ٱلْحَمْلِيَّةُ قَدِ ٱسْتَنْبَطُوهَا عَلَى صُوَرٍ : مِنْهَا مَا يُرْوَى أَنَّ أَبَا دُلَفَ قَصَدَهُ شَاعِرٌ تَمِيمِيٌّ . فَقَالَ لَهُ : مِمَّنْ أَنْتَ . فَقَالَ مِنْ تَمِيمٍ . فَقَالَ أَبُو دُلَفَ :

تَمِيمٌ بِطُرُقِ ٱللُّؤْمِ أَهْدَى مِنَ ٱلْقَطَا   وَلَوْ سَلَكَتْ سُبُلَ ٱلْهِدَايَةِ ضَلَّتِ

فَقَالَ لَهُ ٱلتَّمِيمِيُّ : نَعَمْ بِتِلْكَ ٱلْهِدَايَةِ جِئْتُ إِلَيْكَ . فَأَفْحَمَهُ بِدَلِيلٍ حَمْلِيٍّ ٱلزَمَهُ فِيهِ أَنَّ ٱلْمَجِيءَ إِلَيْهِ ضَلَالٌ . وَلَعَمْرِي إِنَّ ٱلْقِيَاسَ ٱلشَّرْطِيَّ

اوضح دلالة في هذا الباب من غيره واعذب في الذوق واسهل في التركيب. فانه جملة واقعة بعد (لو) وجوابها. ومثل هذه الجملة على اصطلاحهم مقدمة شرطية متصلة يستدل بها على ما تقدم من الحكم كما جاء: لو تعلمون ما اعلم (يريد امور الآخرة) لضحكتم قليلا وبكيتم كثيرا. وتمام الدليل ان يقال: لكنكم ضحكتم كثيرا وبكيتم قليلا فلم تعلموا ما اعلم

ولقد زادوا على هذين القياسين القياس الفقهي وذلك ان يقاس فرع على اصل بجامع بينهما فيلزم للتساوي في الحكم. كما يحكى ان الوليد قال لبعضهم: انشد من قولك في الخمر. فانشده:

كميت اذا شجت وفي الكأس وردها
لها في عظام الشاربين دبيب
تريك القذى من دونها وهي دونه
لوجه اخيها في الاناء قطوب

فقال له الوليد: شربتها ورب الكعبة. فقال: لئن كان وصفي لها رابك لقد رابني معرفتك بها. (يقول): كما ان معرفتي بوصفها رابتك كذلك معرفتك بها رابتني



الفصل الخامس

في محاسن الانشاء ومعايبه

البحث الاوَّل

في تمييز الكلام جيّدهِ من رديئهِ ونادرهِ من باردهِ

(عن كتاب الصناعتين للعسكري باختصار)

(راجع صفحة ٥١ من علم الادب)

اَلْكَلَامُ أَيَّدَكَ ٱللهُ يَحْسُنُ بِسَلَاسَتِهِ وَسُهُولَتِهِ وَنَصَاعَتِهِ وَتَخَيُّرِ لَفْظِهِ وَإِصَابَةِ مَعْنَاهُ وَجُودَةِ مَقَاطِعِهِ وَلِينِ مَعَاطِفِهِ وَٱسْتِوَاءِ تَقَاسِيمِهِ وَتَعَادُلِ أَطْرَافِهِ وَتَشَبُّهِ أَعْجَازِهِ بِهَوَادِيهِ وَمُوَافَقَةِ مَآخِيرِهِ لِمَبَادِئِهِ مَعَ قِلَّةِ ضَرُورَاتِهِ بَلْ عَدَمِهَا أَصْلًا حَتَّى لَا يَكُونَ لَهَا فِي ٱلْأَلْفَاظِ أَثَرٌ . فَتَجِدُ ٱلْمَنْظُومَ مِثْلَ ٱلْمَنْثُورِ فِي سُهُولَةِ مَطْلَعِهِ وَجُودَةِ مَقْطَعِهِ وَحُسْنِ رَصْفِهِ وَتَأْلِيفِهِ وَكَمَالِ صَوْغِهِ وَتَرْكِيبِهِ . فَإِذَا كَانَ ٱلْكَلَامُ كَذٰلِكَ كَانَ بِٱلْقَبُولِ حَقِيقًا وَبِٱلتَّحَفُّظِ خَلِيقًا كَقَوْلِ ٱلْأَوَّلِ :

هُمُ ٱلْأُولَى وَهَبُوا لِلْمَجْدِ أَنْفُسَهُمْ   فَمَا يُبَالُونَ مَا نَالُوا إِذَا حُمِدُوا

وَقَوْلِ مَعْنِ بْنِ أَوْسٍ :

لَعَمْرُكَ مَا أَهْدَيْتُ كَفِّي لِرِيبَةٍ   وَلَا حَمَلَتْنِي نَحْوَ فَاحِشَةٍ رِجْلِي

وَلَا قَادَنِي سَمْعِي وَلَا بَصَرِي لَهَا   وَلَا دَلَّنِي رَأْيِي عَلَيْهَا وَلَا عَقْلِي

وَأَعْلَمُ أَنِّي لَمْ تُصِبْنِي مُصِيبَةٌ   مِنَ ٱلدَّهْرِ إِلَّا قَدْ أَصَابَتْ فَتًى قَبْلِي

وَلَسْتُ بِمَاشٍ مَا حَيِيتُ لِمُنْكَرٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ لَا يَمْشِي إِلَى مِثْلِهِ مِثْلِي
وَلَا مُؤْثِرٍ نَفْسِي عَلَى ذِي قَرَابَةٍ وَأُوثِرُ ضَيْفِي مَا أَقَامَ عَلَى أَهْلِي

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ :

وَلَسْتُ بِنَظَّارٍ إِلَى جَانِبِ ٱلْغِنَى إِذَا كَانَتِ ٱلْعَلْيَاءُ فِي جَانِبِ ٱلْفَقْرِ

وَقَالَ ٱلْآخَرُ :

ذَرِينِي أَسِيرُ فِي ٱلْبِلَادَ لَعَلَّنِي أُصِيبُ غِنًى فِيهِ لَدَى ٱلْحَقِّ مُجْمَلُ
فَإِنْ نَحْنُ لَمْ نَسْطِعْ دِفَاعًا لِحَادِثٍ تَجِيءُ بِهِ ٱلْأَيَّامُ فَٱلصَّبْرُ أَجْمَلُ
أَلَيْسَ كَثِيرًا أَنْ تُلِمَّ مُلِمَّةٌ وَلَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْحُقُوقِ مُعَوَّلُ

وَمِمَّا هُوَ فَصِيحٌ فِي لَفْظِهِ جَيِّدٌ فِي وَصْفِهِ قَوْلُ ٱلشَّنْفَرَى :

أُطِيلُ مِطَالَ ٱلْجُوعِ حَتَّى أُمِيتَهُ وَأَضْرِبُ عَنْهُ ٱلْقَلْبَ صَفْحًا فَيَذْهَلُ
وَلَوْلَا ٱجْتِنَابُ ٱلْعَارِ لَمْ يُلْفَ مَشْرَبٌ يُعَاشُ بِهِ إِلَّا لَدَيَّ وَمَأْكَلُ
وَلٰكِنَّ نَفْسًا مُرَّةً لَا تُقِيمُنِي عَلَى ٱلضَّيْمِ إِلَّا رَيْثَمَا أَتَحَوَّلُ

وَقَوْلُ آخَرَ :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَى ٱلْقَذَى ظَمِئْتَ وَأَيُّ ٱلنَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهُ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

وَمَا إِنْ قَتَلْنَاهُمْ بِأَكْثَرَ مِنْهُمُ وَلٰكِنْ بِأَوْفَى لِلطِّعَانِ وَأَكْرَمَا

وَقَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ :

وَلَسْتُ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لَا تَلُمُّهُ عَلَى شَعَثٍ أَيُّ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُهَذَّبُ

وَلَيْسَ لِهٰذَا ٱلْبَيْتِ نَظِيرٌ فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَظِيرُهُ قَوْلُ أَوْسِ بْنِ حَجَرٍ :

وَلَسْتُ بِجَائِعٍ ابَدًا طَعَامًا　　حِذَارَ غَدٍ لِكُلِّ غَدٍ طَعَامُ

وَهٰذَا وَإِنْ كَانَ نَظِيرَهُ فِي ٱلتَّأْلِيفِ فَإِنَّهُ دُونَهُ لِمَا تَكَرَّرَ فِيهِ مِنْ لَفْظِ غَدٍ . فَإِنْ كَانَ ٱلْكَلَامُ قَدْ جَمَعَ ٱلْعُذُوبَةَ وَٱلْجَزَالَةَ وَٱلسُّهُولَةَ وَٱلرَّصَانَةَ مَعَ ٱلسَّلَاسَةِ وَٱلنَّصَاعَةِ . وَٱشْتَمَلَ عَلَى ٱلرَّوْنَقِ وَٱلطَّلَاوَةِ . وَسَلِمَ مِنْ سَخَفِ ٱلتَّأْلِيفِ . وَبَعُدَ مِنْ سَمَاجَةِ ٱلتَّرْكِيبِ . وَرَدَ عَلَى ٱلْفَهْمِ ٱلثَّاقِبِ فَقَبِلَهُ وَلَمْ يَرُدَّهُ . وَعَلَى ٱلسَّمْعِ ٱلْمُصِيبِ ٱسْتَوْعَبَهُ وَلَمْ يَمُجَّهُ . وَٱلنَّفْسُ تَقْبَلُ ٱللَّطِيفَ وَتَنْبُو عَنِ ٱلْغَلِيظِ وَتَقْلَقُ مِنَ ٱلْجَاسِيِّ ٱلْبَشِعِ . وَجَمِيعُ جَوَارِحِ ٱلْبَدَنِ وَحَوَاسِّهِ يَسْكُنُ إِلَى مَا يُوَافِقُهُ وَيَنْفِرُ عَمَّا يُضَادُّهُ وَيُخَالِفُهُ . وَٱلْعَيْنُ تَأْلَفُ ٱلْحَسَنَ وَتَقْذَى بِٱلْقَبِيحِ . وَٱلْأَنْفُ يَرْتَاحُ لِلطَّيِّبِ وَيَنْفِرُ لِلْمُنْتِنِ . وَٱلْفَمُ يَلْتَذُّ بِٱلْحُلْوِ وَيَمُجُّ ٱلْمُرَّ . وَٱلسَّمْعُ يَتَشَوَّقُ لِلصَّوَابِ ٱلرَّائِعِ وَيَنْزَوِي عَنِ ٱلْجَهِيرِ ٱلْهَائِلِ . وَٱلْيَدُ تَنْعَمُ بِٱللَّيِّنِ وَتَتَأَذَّى بِٱلْخَشِنِ . وَٱلْفَهْمُ يَأْنَسُ مِنَ ٱلْكَلَامِ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَسْكُنُ إِلَى ٱلْمَأْلُوفِ وَيُصْغِي إِلَى ٱلصَّوَابِ وَيَهْرُبُ مِنَ ٱلْمُحَالِ وَيَنْقَبِضُ عَنِ ٱلْوَخِمِ وَيَتَأَخَّرُ عَنِ ٱلْجَافِي ٱلْغَلِيظِ . وَلَا يَقْبَلُ ٱلْكَلَامَ ٱلْمُضْطَرِبَ إِلَّا ٱلْفَهْمُ ٱلْمُضْطَرِبُ وَٱلرَّوِيَّةُ ٱلْفَاسِدَةُ . وَلَيْسَ ٱلشَّأْنُ فِي إِيرَادِ ٱلْمَعَانِي لِأَنَّ ٱلْمَعَانِيَ يَعْرِفُهَا ٱلْعَرَبِيُّ وَٱلْعَجَمِيُّ وَٱلْقَرَوِيُّ وَٱلْبَدَوِيُّ وَإِنَّمَا هُوَ فِي جُودَةِ ٱللَّفْظِ وَصَفَائِهِ وَحُسْنِهِ وَبَهَائِهِ وَنَزَاهَتِهِ وَنَقَائِهِ وَكَثْرَةِ طَلَاوَتِهِ وَمَائِهِ مَعَ صِحَّةِ ٱلسَّبْكِ وَٱلتَّرْكِيبِ وَٱلْخُلُوِّ مِنْ اوَدِ ٱلنَّظْمِ وَٱلتَّأْلِيفِ وَلَيْسَ يُطْلَبُ مِنَ ٱلْمَعْنَى إِلَّا انْ يَكُونَ صَوَابًا . وَلَا يُقْنَعُ مِنَ ٱللَّفْظِ بِذٰلِكَ حَتَّى يَكُونَ عَلَى مَا وَصَفْنَاهُ مِنْ نُعُوتِهِ ٱلَّتِي تَقَدَّمَتْ . الَا تَرَى

إِلَى قَوْلِ حَبِيبٍ :

مُسْتَسْلِمٌ لِلّٰهِ سَائِسُ أُمَّةٍ   بِذَوِي تَجَهْضُمِهَا لَهُ ٱسْتِسْلَامُ

فِيهِ صَوَابُ ٱللَّفْظِ وَلَيْسَ هُوَ بِحَسَنٍ وَلَا مَقْبُولٍ . وَمِنَ ٱلدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ مَدَارَ ٱلْبَلَاغَةِ عَلَى تَحْسِينِ ٱللَّفْظِ أَنَّ ٱلْخُطَبَ ٱلرَّائِعَةَ وَٱلْأَشْعَارَ ٱلرَّائِقَةَ مَا عُمِلَتْ لِإِفْهَامِ ٱلْمَعَانِي فَقَطْ لِأَنَّ ٱلرَّدِيءَ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ يَقُومُ مَقَامَ جَيِّدِهَا فِي ٱلْإِفْهَامِ وَإِنَّمَا يَدُلُّ حُسْنُ ٱلْكَلَامِ وَإِحْكَامُ صَنْعَتِهِ وَرَوْنَقُ أَلْفَاظِهِ وَجَوْدَةُ مَطَالِعِهِ وَحُسْنُ مَقَاطِعِهِ وَبَدِيعُ مَبَادِيهِ وَغَرِيبُ مَبَانِيهِ عَلَى فَضْلِ قَائِلِهِ وَفَهْمِ مُنْشِئِهِ . وَأَكْثَرُ هٰذِهِ ٱلْأَوْصَافِ تَرْجِعُ إِلَى ٱلْأَلْفَاظِ دُونَ ٱلْمَعَانِي . وَتَوَخِّي صَوَابِ ٱلْمَعْنَى أَحْسَنُ مِنْ تَوَخِّي هٰذِهِ ٱلْأُمُورِ فِي ٱلْأَلْفَاظِ . فَلِهٰذَا تَأَنَّقَ ٱلْكَاتِبُ فِي ٱلرِّسَالَةِ وَٱلْخَطِيبُ فِي ٱلْخُطْبَةِ وَٱلشَّاعِرُ فِي ٱلْقَصِيدَةِ وَهُمْ يُبَالِغُونَ فِي تَجْوِيدِهَا . وَيَغْلُونَ فِي تَرْتِيبِهَا لِيَدُلُّوا عَلَى بَرَاعَتِهِمْ وَحِذْقِهِمْ بِصِنَاعَتِهِمْ . وَلَوْ كَانَ ٱلْأَمْرُ فِي ٱلْمَعَانِي لَطَرَحُوا أَكْثَرَ ذٰلِكَ فَرَبِحُوا كَدًّا كَثِيرًا وَأَسْقَطُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ تَعَبًا طَوِيلًا . وَلِهٰذَا دَلِيلٌ آخَرُ : أَنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَانَ لَفْظُهُ حُلْوًا عَذْبًا وَسَلِسًا سَهْلًا وَمَعْنَاهُ وَسَطًا دَخَلَ فِي جُمْلَةِ ٱلْجَيِّدِ وَجَرَى مَعَ ٱلرَّائِعِ ٱلنَّادِرِ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كُلَّ حَاجَةٍ   وَمَسَّحَ بِٱلْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ

وَشُدَّتْ عَلَى حُدْبِ ٱلْمَهَارِي رِحَالُنَا   وَلَمْ يَنْظُرِ ٱلْغَادِي ٱلَّذِي هُوَ رَائِحُ

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ ٱلْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا   وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ ٱلْمَطِيِّ ٱلْأَبَاطِحُ

وَلَيْسَ تَحْتَ هٰذِهِ ٱلْأَلْفَاظِ كَبِيرُ مَعْنًى وَهِيَ رَائِقَةٌ مُعْجِبَةٌ . وَإِنَّمَا

هِيَ : وَلَمَّا قَضَيْنَا ٱلْحَجَّ وَمَسَّحْنَا ٱلْأَرْكَانَ وَشُدَّتْ رِحَالُنَا عَلَى مَهَازِيلِ ٱلْإِبِلِ وَلَمْ يَنْتَظِرْ بَعْضُنَا بَعْضًا جَعَلْنَا نَتَحَدَّثُ وَتَسِيرُ بِنَا ٱلْإِبِلُ فِي بُطُونِ ٱلْأَوْدِيَةِ . وَإِذَا كَانَ ٱلْمَعْنَى صَوَابًا وَٱللَّفْظُ بَارِدًا وَفَاتِرًا وَٱلْفَاتِرُ شَرٌّ مِنَ ٱلْبَارِدِ كَانَ مُسْتَهْجَنًا مَلْفُوظًا وَمَذْمُومًا مَرْدُودًا . وَٱلْبَارِدُ مِنَ ٱلشِّعْرِ كَقَوْلِ عَمْرِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ :

قَدْ عَلِمَتْ سَلْمَى وَجَارَاتُهَا   مَا قَطَّرَ ٱلْفَارِسَ إِلَّا أَنَا
شَكَكْتُ بِٱلرُّمْحِ سَرَابِيلَهُ   وَٱلْخَيْلُ تَعْدُو زِيَمًا حَوْلَنَا

وَقَوْلِ أَبِي ٱلْعَتَاهِيَةِ :

مَاتَ وَٱللهِ سَعِيدُ بْنُ وَهْبٍ   رَحِمَ ٱللهُ سَعِيدَ بْنَ وَهْبٍ
يَا أَبَا عُثْمَانَ أَبْكَيْتَ عَيْنِي   يَا أَبَا عُثْمَانَ أَوْجَعْتَ قَلْبِي

وَلَا خَيْرَ فِي ٱلْمَعَانِي إِذَا ٱسْتُكْرِهَتْ قَهْرًا وَفِي ٱلْأَلْفَاظِ إِذَا جُرَّتْ قَسْرًا . وَلَا خَيْرَ فِيمَا أُجِيدَ لَفْظُهُ إِذَا سَخُفَ مَعْنَاهُ . وَلَا فِي غَرَابَةِ ٱلْمَعْنَى إِلَّا إِذَا شَرُفَ لَفْظُهُ مَعَ وُضُوحِ ٱلْمَغْزَى وَظُهُورِ ٱلْمَقْصِدِ . وَقَدْ غَلَبَ ٱلْجَهْلُ عَلَى قَوْمٍ فَصَارُوا يَسْتَجِيدُونَ ٱلْكَلَامَ إِذَا لَمْ يَقِفُوا عَلَى مَعْنَاهُ بِكَدٍّ وَيَسْتَفْصِحُونَهُ إِذَا وَجَدُوا أَلْفَاظَهُ كَزَّةً غَلِيظَةً وَجَاسِيَةً غَرِيبَةً . وَيَسْتَحْقِرُونَ ٱلْكَلَامَ إِذَا رَأَوْهُ سَلِسًا عَذْبًا وَسَهْلًا حُلْوًا . وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱلسَّهْلَ أَمْنَعُ جَانِبًا وَأَعَزُّ مَطْلَبًا وَهُوَ أَحْسَنُ مَوْقِعًا وَأَعْذَبُ مُسْتَمَعًا وَلِهٰذَا قِيلَ : أَجْوَدُ ٱلْكَلَامِ ٱلسَّهْلُ ٱلْمُمْتَنِعُ . وَصَفَ ٱلْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ عَمْرَ ٱبْنَ مَسْعَدَةَ فَقَالَ : هُوَ أَبْلَغُ ٱلنَّاسِ . وَمِنْ بَلَاغَتِهِ أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَظُنُّ أَنْ يَكْتُبَ مِثْلَ كُتُبِهِ فَإِذَا رَامَهَا تَعَذَّرَ عَلَيْهِ . حَدَّثَنَا ٱلْحَسَنُ بْنُ

مُخَلَّدٍ قَالَ: أَنْشَدَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْعَبَّاسِ لِخَالِهِ الْعَبَّاسِ بْنِ الْأَحْنَف:

إِنْ قَالَ لَمْ يَفْعَلْ وَإِنْ سُئِلَ لَمْ م يَبْذُلْ وَإِنْ عُوتِبَ لَمْ يُعْتِبِ
صَبٌّ بِعِصْيَانِي وَلَوْ قَالَ لِي لَا تَشْرَبِ الْبَارِدَ لَمْ أَشْرَبِ

ثُمَّ قَالَ: هٰذَا الشِّعْرُ الْحَسَنُ الْمَعْنَى السَّهْلُ اللَّفْظِ الْعَذْبُ الْمُسْتَمَعِ الْقَلِيلُ النَّظِيرِ الْعَزِيزُ الشَّبِيهِ الْمُطْمِعُ الْمُمْتَنِعُ الْبَعِيدُ مَعَ قُرْبِهِ الصَّعْبُ فِي سُهُولَتِهِ. (قَالَ) فَجَعَلْنَا نَقُولُ: هٰذَا الْكَلَامُ أَحْسَنُ مِنْ شِعْرِهِ. وَمِنَ الْكَلَامِ الْمَطْبُوعِ السَّهْلِ مَا وَقَّعَ بِهِ عَلِيُّ بْنُ عِيسَى: قَدْ بَلَّغْتُكَ أَقْصَى طِلْبَتِكَ وَأَنَلْتُكَ غَايَةَ بُغْيَتِكَ وَأَنْتَ مَعَ ذٰلِكَ تَسْتَقِلُّ كَثِيرِي لَكَ وَتَسْتَقْبِحُ حَسَنِي فِيكَ. فَأَنْتَ كَمَا قَالَ رُؤْبَةُ:

كَالْحُوتِ لَا يَكْفِيهِ شَيْءٌ يَلْهَمُهْ يُصْبِحُ ظَمْآنَ وَفِي الْبَحْرِ فَمُهْ

وَمِنَ الْمَنْظُومِ الْمُطْمِعِ قَوْلُ الْبُحْتُرِيِّ:

أَيُّهَا الرَّاغِبُ الَّذِي طَلَبَ الْجُو دَ فَأَبْلَى كُومَ الْمَطَايَا وَأَنْضَى
رِدْ حِيَاضَ الْإِمَامِ تَلْقَ نَوَالًا يَسَعُ الرَّاغِبِينَ طُولًا وَعَرْضَا
هُوَ أَنْدَى مِنَ الْغَمَامِ وَأَوْحَى وَقَعَاتٍ مِنَ الْحُسَامِ وَأَمْضَى
يَتَوَخَّى الْإِحْسَانَ قَوْلًا وَفِعْلًا وَيُطِيعُ الْإِلٰهَ بَسْطًا وَقَبْضَا
فَضَّلَ اللّٰهُ جَعْفَرًا بِخِلَالٍ جَعَلَتْ حُبَّهُ عَلَى النَّاسِ فَرْضَا
وَأَرَى الْمَجْدَ بَيْنَ عَارِفَةٍ مِنْكَ م تُرَجَّى وَعَزْمَةٍ مِنْكَ تُمْضَى

وَقَوْلُهُ:

خَلَقَ اللّٰهُ جَعْفَرًا قَيِّمَ الدُّنْيَا م سَدَادًا وَقَيِّمَ الدِّينِ رُشْدَا
أَكْرَمُ النَّاسِ شِيمَةً وَأَتَمُّ م النَّاسِ حِلْمًا وَأَكْثَرُ النَّاسِ رِفْدَا

هُوَ بَحْرُ ٱلسَّمَاحِ وَٱلْجُودِ فَٱزْدَدْ مِنْهُ قُرْبًا تَزْدَدْ مِنَ ٱلْفَقْرِ بُعْدَا
يَا ثِمَالَ ٱلدُّنْيَا عَطَاءً وَبَذْلًا وَكَمَالَ ٱلدُّنْيَا سَنَاءً وَمَجْدَا
إِبْقَ عُمْرَ ٱلزَّمَانِ حَتَّى نُؤَدِّي شُكْرَ إِحْسَانِكَ ٱلَّذِي لَا يُؤَدَّى

وَأَمَّا ٱلْجَزْلُ ٱلْمُخْتَارُ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَهُوَ ٱلَّذِي تَعْرِفُهُ ٱلْعَامَّةُ إِذَا سَمِعَتْهُ وَلَا تَسْتَعْمِلُهُ فِي مُحَاوَرَاتِهَا. فَمِنَ ٱلْجَزْلِ ٱلْجَيِّدِ ٱلْمُخْتَارِ قَوْلُ مُسْلِمٍ:

وَرَدْنَا رِوَاقَ ٱلْفَضْلِ فَضْلِ بْنِ جَعْفَرٍ فَحَطَّ إِلَيْنَا ٱلْجَزْلَ نَائِلُهُ ٱلْجَزْلُ
بِكَفَّيْ أَبِي ٱلْعَبَّاسِ يُسْتَمْطَرُ ٱلْغِنَى وَيُسْتَنْزَلُ ٱلنُّعْمَى وَيُسْتَرْعَفُ ٱلنَّصْلُ
وَيُسْتَعْطَفُ ٱلْأَمْرُ ٱلْأَبِيُّ بِحَزْمِهِ إِذَا ٱلْأَمْرُ لَمْ يَعْطِفْهُ نَقْضٌ وَلَا فَتْلُ

وَمِمَّا هُوَ خَيْرٌ مِنْ هٰذَا قَوْلُ ٱلْمَرَّارِ ٱلْفَقْعَسِيِّ:

لَا تَسْأَلِي ٱلْقَوْمَ عَنْ مَالِي وَكَثْرَتِهِ قَدْ يُقْتِرُ ٱلْمَرْءُ يَوْمًا وَهْوَ مَحْمُودُ
أَمْضِي عَلَى سُنَّةٍ مِنْ وَالِدِي سَلَفَتْ وَفِي أَرُومَتِهِ مَا يُنْبِتُ ٱلْعُودُ

فَهٰذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَامَّةِ فَإِنَّهُمْ يَعْرِفُونَ ٱلْغَرَضَ وَيَقِفُونَ عَلَى أَكْثَرِ مَعَانِيهِ لِحُسْنِ تَرْتِيبِهِ وَجُودَةِ نَسْجِهِ

وَمِنَ ٱلنَّثْرِ قَوْلُ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ: أَعْطَانَا ٱلدَّهْرُ فَأَسْرَفَ. ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْنَا فَعَسَفَ. وَقَوْلُ سَعِيدِ بْنِ حُمَيْدٍ: وَأَنَا مَنْ لَا يُحَاجُّكَ عَنْ نَفْسِهِ. وَلَا يُغَالِطُكَ عَنْ جُرْمِهِ. وَلَا يَلْتَمِسُ رِضَاكَ إِلَّا مِنْ جِهَتِهِ. وَلَا يَسْتَدْعِي بِرَّكَ إِلَّا مِنْ طَرِيقَتِهِ. وَلَا يَسْتَعْطِفُكَ إِلَّا بِٱلْإِقْرَارِ بِٱلذَّنْبِ. وَلَا يَسْتَمِيلُكَ إِلَّا بِٱلِٱعْتِرَافِ. نَبَتْ بِي عَنْكَ غِرَّةُ ٱلْحَدَاثَةِ. وَرَدَّتْنِي إِلَيْكَ ٱلْحُنْكَةُ. وَبَاعَدَتْنِي مِنْكَ ٱلثِّقَةُ بِٱلْأَيَّامِ فَأَدْنَتْنِي إِلَيْكَ ٱلضَّرُورَةُ. فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَسْتَقْبِلَ ٱلصَّنِيعَةَ بِقَبُولِ ٱلْعُذْرِ

وَتُجَدِّدَ ٱلنِّعْمَةَ بِٱطِّرَاحِ ٱلْحِقْدِ فَإِنَّ قَدِيمَ ٱلْحُرْمَةِ وَحَدِيثَ ٱلتَّوْبَةِ يَمْحَقَانِ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ ٱلْإِسَاءَةِ . فَإِنَّ أَيَّامَ ٱلْقُدْرَةِ وَإِنْ طَالَتْ قَصِيرَةٌ وَٱلْمُتْعَةَ بِهَا وَإِنْ كَثُرَتْ قَلِيلَةٌ فَعَلْتَ . وَفِي هٰذَا ٱلْكَلَامِ وَمَا قَبْلَهُ قُوَّةٌ فِي سُهُولَةٍ . وَمِمَّا هُوَ أَجْزَلُ مِنْ هٰذَا قَوْلُ ٱلشَّعْبِيِّ لِلْحَجَّاجِ وَأَرَادَ قَتْلَهُ لِخُرُوجِهِ عَلَيْهِ مَعَ ٱبْنِ ٱلْأَشْعَثِ : أَجْدَبَ بِنَا ٱلْجَنَابُ وَأَحْزَنَ بِنَا ٱلْمَنْزِلُ وَٱسْتَحْلَسْنَا ٱلْحَذَرَ وَٱكْتَحَلْنَا ٱلسَّهَرَ . وَأَصَابَتْنَا فِتْنَةٌ وَلَمْ نَكُنْ فِيهَا بَرَرَةً أَتْقِيَاءَ وَلَا فَجَرَةً أَقْوِيَاءَ . فَعَفَا عَنْهُ . وَأَجْوَدُ ٱلْكَلَامِ مَا يَكُونُ جَزْلًا سَهْلًا لَا يَنْغَلِقُ مَعْنَاهُ وَلَا يُسْتَبْهَمُ مَغْزَاهُ . وَلَا يَكُونُ مَكْدُودًا مُسْتَكْرَهًا وَمُتَوَعِّرًا مُتَقَعِّرًا . وَيَكُونُ بَرِيئًا مِنَ ٱلْغَثَاثَةِ عَارِيًا مِنَ ٱلرَّثَاثَةِ . وَٱلْكَلَامُ إِذَا كَانَ لَفْظُهُ غَثًّا وَمَعْرِضُهُ رَثًّا كَانَ مَرْدُودًا وَلَوِ ٱحْتَوَى عَلَى أَجَلِّ مَعْنًى وَأَنْبَلِهِ وَأَرْفَعِهِ وَأَفْضَلِهِ كَقَوْلِهِ :

لَمَّا أَطَعْنَاكُمْ فِي سُخْطِ خَالِقِنَا ... لَا شَكَّ سُلَّ عَلَيْنَا سَيْفُ نِقْمَتِهِ

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ :

أَرَى رِجَالًا بِأَدْنَى ٱلدِّينِ قَدْ قَنِعُوا ... وَلَا أَرَاهُمْ رَضُوا فِي ٱلْعَيْشِ بِٱلدُّونِ
فَٱسْتَغْنِ بِٱلدِّينِ عَنْ دُنْيَا ٱلْمُلُوكِ كَمَا ... ٱسْتَغْنَى ٱلْمُلُوكُ بِدُنْيَاهُمْ عَنِ ٱلدِّينِ

وَلَا يَدْخُلُ هٰذَا فِي جُمْلَةِ ٱلْمُخْتَارِ وَمَعْنَاهُ كَمَا تَرَى نَبِيلٌ فَاضِلٌ جَلِيلٌ . وَأَمَّا ٱلْجَزْلُ ٱلرَّدِيءُ ٱلْفَجُّ ٱلَّذِي يَنْبَغِي تَرْكُ ٱسْتِعْمَالِهِ فَمِثْلُ قَوْلِ تَأَبَّطَ شَرًّا وَكَانَ خَرَجَ مَعَ صَاحِبَيْنِ لَهُ فَقُتِلَا فِي ٱلْغَزْوِ وَرَجَعَ هُوَ سَالِمًا :

إِذَا مَا تَرَكْتُ صَاحِبِي لِثَلَاثَةٍ ... أَوِ ٱثْنَيْنِ مِثْلَيْنَا فَلَا أُبْتُ آمِنَا
وَلَمَّا سَمِعْتُ ٱلْعَوْصَ تَدْعُو تَنَفَّرَتْ ... عَصَافِيرُ رَأْسِي مِنْ غُوَاةٍ فَرَاتِنَا

هِجَفٌّ رَأى قَصْرًا سِمَاكًا وَدَاجِنًا وَمُحْتَثُّ مَشْغُوفَ النَّجَاءِ كَأَنَّنِي
إِذَا اسْتَدْرَجَ الْفَيْفَا وَمَدَّ الْمَغَابِنَا مِنَ الْحُصِّ هُزْرُوفٌ كَأَنَّ عِفَاءَهُ
هِزَفٌّ يَبُدُّ النَّاجِيَاتِ الصَّوَافِنَا أَرَجُّ زَلُوجٌ هِزْرِفِيٌّ زَفَازِفٌ

فَهٰذَا مِنَ الْجَزْلِ الْبَغِيضِ الْجِلْفِ الْفَاسِدِ النَّسْجِ الْقَبِيحِ الرَّصْفِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُتَجَنَّبَ مِثْلُهُ وَتَمْيِيزُ الْأَلْفَاظِ شَدِيدٌ . وَلَوْلَا كَرَاهَةُ الْإِطَالَةِ وَتَخَوُّفُ الْإِمْلَالِ لَزِدتُّ مِنْ هٰذَا النَّوْعِ وَلٰكِنْ يَكْفِي مِنَ الْبَحْرِ جَرْعَةٌ . قَالُوا : وَجِيزُ الْكَلَامِ مَا قَلَّ وَجَلَّ وَدَلَّ وَلَمْ يُمَلَّ

البحث الثاني

في التنبيه على خطإ المعاني وصوابها

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

إِنَّ الْكَلَامَ أَلْفَاظٌ تَشْتَمِلُ عَلَى مَعَانٍ تَدُلُّ عَلَيْهَا وَتُعَبِّرُ عَنْهَا فَيَحْتَاجُ صَاحِبُ الْبَلَاغَةِ إِلَى إِصَابَةِ الْمَعْنَى كَحَاجَتِهِ إِلَى تَحْسِينِ اللَّفْظِ . لِأَنَّ الْمَدَارَ بَعْدَ اللَّفْظِ عَلَى إِصَابَةِ الْمَعْنَى . وَالْمَعَانِي تَحُلُّ مِنَ الْكَلَامِ مَحَلَّ الْأَبْدَانِ وَالْأَلْفَاظُ تَجْرِي مَعَهَا مَجْرَى الْكُسْوَةِ . وَمَرْتَبَةُ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى مَعْرُوفَةٌ وَمَنْ عَرَفَ تَرْتِيبَ الْمَعَانِي وَاسْتِعْمَالَ الْأَلْفَاظِ عَلَى وُجُوهِهَا بِلُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى لُغَةٍ أُخْرَى تَهَيَّأَ لَهُ فِيهَا مِنْ صَنْعَةِ الْكَلَامِ مِثْلُ مَا تَهَيَّأَ لَهُ مِنَ الْأُولَى . أَلَا تَرَى أَنَّ عَبْدَ الْحَمِيدِ الْكَاتِبَ اسْتَخْرَجَ أَمْثِلَةَ الْكِتَابَةِ الَّتِي رَسَمَهَا لِمَنْ بَعْدَهُ مِنَ اللِّسَانِ الْفَارِسِيِّ فَحَوَّلَهَا إِلَى اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ . فَلَا يَكْمُلُ لِصِنَاعَةِ الْكَلَامِ إِلَّا مَنْ يَكْمُلُ لِإِصَابَةِ الْمَعْنَى وَتَصْحِيحِ اللَّفْظِ وَالْمَعْرِفَةِ بِوُجُوهِ الْاسْتِعْمَالِ .

وَٱلْمَعَانِي عَلَى ضَرْبَيْنِ : ضَرْبٌ يَبْتَدِعُهُ صَاحِبُ ٱلصِّنَاعَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ إِمَامٌ يَقْتَدِي بِهِ فِيهِ أَوْ رُسُومٌ قَائِمَةٌ فِي أَمْثِلَةٍ مَاثِلَةٍ يَعْمَلُ عَلَيْهَا . وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ رُبَّمَا يَقَعُ عَلَيْهِ عِنْدَ ٱلْخُطُوبِ ٱلْحَادِثَةِ وَيَتَنَبَّهُ لَهُ عِنْدَ ٱلْأُمُورِ ٱلطَّارِئَةِ . وَٱلْآخَرُ مَا يَحْتَذِيهِ عَلَى مِثَالٍ تَقَدَّمَ وَرَسْمٍ فُرِضَ . وَيَنْبَغِي أَنْ تُطْلَبَ ٱلْإِصَابَةُ فِي جَمِيعِ ذٰلِكَ وَتُتَوَخَّى فِيهِ ٱلصُّورَةُ ٱلْمَقْبُولَةُ وَٱلْعِبَارَةُ ٱلْمُسْتَحْسَنَةُ وَلَا يَتَّكِلَ فِيمَا ٱبْتَكَرَهُ عَلَى فَضِيلَةِ ٱبْتِكَارِهِ إِيَّاهُ . وَلَا يَغُرَّهُ ٱبْتِدَاعُهُ لَهُ فَيُسَاهِلَ نَفْسَهُ فِي تَهْجِينِ صُورَتِهِ فَيَذْهَبَ حُسْنُهُ وَيَطْمِسَ نُورُهُ وَيَكُونُ فِيهِ أَقْرَبَ إِلَى ٱلذَّمِّ مِنْهُ إِلَى ٱلْحَمْدِ . وَٱلْمَعَانِي بَعْدَ ذٰلِكَ عَلَى وُجُوهٍ : مِنْهَا مَا هُوَ مُسْتَقِيمٌ حَسَنٌ نَحْوُ قَوْلِكَ : رَأَيْتُ زَيْدًا . وَمِنْهَا مَا هُوَ مُسْتَقِيمٌ قَبِيحٌ نَحْوُ قَوْلِكَ : قَدْ زَيْدًا رَأَيْتُ . وَإِنَّمَا قَبُحَ لِأَنَّكَ أَفْسَدتَّ ٱلنِّظَامَ بِٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ . وَمِنْهَا مَا هُوَ مُسْتَقِيمُ ٱلنَّظْمِ وَهُوَ كَذِبٌ مِثْلُ قَوْلِكَ : حَمَلْتُ ٱلْجَبَلَ وَشَرِبْتُ مَاءَ ٱلْبَحْرِ . وَمِنْهَا مَا هُوَ مُحَالٌ كَقَوْلِكَ : آتِيكَ أَمْسِ وَأَتَيْتُكَ غَدًا . وَكُلُّ ذٰلِكَ مُحَالٌ فَاسِدٌ . وَلَيْسَ كُلُّ فَاسِدٍ مُحَالًا . أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْلَكَ : قَامَ زَيْدٍ . فَاسِدٌ وَلَيْسَ بِمُحَالٍ . وَٱلْمُحَالُ مَا لَا يَجُوزُ كَوْنُهُ ٱلْبَتَّةَ كَقَوْلِكَ : ٱلدُّنْيَا فِي بَيْضَةٍ . وَأَمَّا قَوْلُكَ : حَمَلْتُ ٱلْجَبَلَ وَأَشْبَاهَهُ وَأَمْثَالَهُ فَكَذِبٌ . وَلَيْسَ بِمُحَالٍ إِنْ جَازَ أَنْ يَزِيدَ ٱللّٰهُ فِي قُدْرَتِكَ فَتَحْمِلَهُ . وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ٱلْكَلَامُ ٱلْوَاحِدُ كَذِبًا مُحَالًا وَهُوَ قَوْلُكَ : رَأَيْتُ قَاعِدًا قَائِمًا وَمَرَرْتُ بِيَقْظَانَ نَائِمٍ . فَتَصِلُ كَذِبًا بِمُحَالٍ فَصَارَ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْكَذِبُ هُوَ ٱلْمُحَالَ بِٱلْجَمْعِ بَيْنَهُمَا . وَإِنْ كَانَ لِكُلٍّ

مِنهُما مَعنًى عَلَى حِيالِهِ . وَذٰلِكَ لِأَنَّ بَعضَها عُقِدَ بِبَعضٍ حَتَّى صارا كَلاماً وَاحِداً. وَمِنها الغَلَطُ وَهُوَ أَن تَقولَ : ضَرَبَني زَيدٌ . وَأَنتَ تُريدُ : ضَرَبتُ زَيداً . فَغَلِطتَ . فَإِن تَعَمَّدتَ ذٰلِكَ كانَ كَذِباً . وَلِلخَطإِ صُوَرٌ مُختَلِفَةٌ نَبَّهتُ عَلَى أَشياءَ مِنها فِي هٰذا الفَصلِ وَبَيَّنتُ وُجوهَها وَشَرَحتُ أَبوابَها لِتَقِفَ عَلَيها فَتَجتَنِبَها كَما عَرَّفتُكَ بِمَواضِعِ الصَّوابِ لِتَعتَمِدَها. وَلِيَكونَ فِيما أَورَدتُ دَلالَةٌ عَلَى أَمثالِهِ مِمّا تَرَكتُ . وَمَن لا يَعرِفُ الخَطَأَ كانَ جَديراً بِالوُقوعِ فِيهِ . فَمِن ذٰلِكَ قَولُ امرِئِ القَيسِ :

أَلَم تَسأَلِ الرَّبعَ القَديمَ بِعَسعَسا ... كَأَنّي أُنادي أَو أُكَلِّمُ أَخرَسا

هٰذا مِنَ التَّشبيهِ الفاسِدِ لِأَنَّهُ لا يُقالُ : كَلَّمتُ حَجَراً فَلَم يُجِب فَكَأَنَّهُ كانَ حَجَراً . وَالَّذي جاءَ بِهِ امرُؤُ القَيسِ مَقلوبٌ . وَالجَيِّدُ قَولُ كُثَيِّرٍ فِي امرَأَةٍ :

فَقُلتُ لَها يا عَزَّ كُلُّ مُصيبَةٍ ... إِذا وُطِّنَت يَوماً لَها النَّفسُ ذَلَّتِ

كَأَنّي أُنادي صَخرَةً حينَ أَعرَضَت ... مِنَ الصُّمِّ لَو تَمشي بِها العُصمُ زَلَّتِ

فَشَبَّهَ المَرأَةَ عِندَ السُّكوتِ وَالتَّغافُلِ بِالصَّخرَةِ. وَمِثلُهُ قَولُ ابنِ أَحمَرَ :

لَم يَدرِ ما نَسجُ اليَرَندَجِ قَبلَها ... وَدِراسُ أَعوَصَ دارِسٍ مُتَجَدِّدِ

ظَنَّ أَنَّ اليَرَندَجَ يُنسَجُ . وَاليَرَندَجُ جِلدٌ أَسوَدُ يُعمَلُ مِنها الخِفافُ فارِسِيٌّ مُعَرَّبٌ وَأَصلُهُ : رَندَه . وَمِثلُهُ قَولُ أَوسِ بنِ حَجَرٍ :

وَمِن أَنابيبِ تُفّاحٍ وَرُمّانِ

ظَنَّ أَنَّ الرُّمّانَ وَالتُّفّاحَ أَنابيبُ . وَقيلَ : إِنَّ الأَنابيبَ الطَّرائِقُ الَّتي فِي الرُّمّانِ . وَإِذا حُمِلَ عَلَى هٰذا الوَجهِ صَحَّ المَعنَى . وَمِمّا أُخِذَ عَلَى

امرئ القيس قوله في الفرس :

فللسوط ألهوبٌ وللساق درّةٌ وللزجر منه وقع أخرج مهذب

فلو وصف أخس حمار وأضعفه ما زاد على ذلك . والجيد قوله :

على سابحٍ يعطيك قبل سؤاله أفانين جري غير كزٍّ ولا وان

وما سمعنا أجود ولا أبلغ من قوله : أفانين جري . وقول علقمة :

فأدركهن ثانيًا من عنانه يمرّ كمرّ الرائح المتحلب

فأدرك طريدته وهو ثانٍ من عنانه لم يضربه بسوط ولم يمره بساق ولم يزجره بصوت . ومما يعاب قول الأخطل :

وقد جعل الله الخلافة منهم لأبلج لا عاري الخوان ولا جدب

يقوله في عبد الملك . ومثل هذا لا يمدح به الملوك . وإنما تمدح الملوك بمثل قول الشاعر :

له همم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر

له راحة لو أن معشار جودها على البر كان البر أندى من البحر

ومن الخطإ قول جنادة :

من حبه أتمنى أن يلاقيني من نحو بلدته ناعٍ فينعاه

لكي يكون فراق لا لقاء له وتضمر النفس يأسًا ثم تسلاه

فإذا تمنى المحب لحبيبه الموت فما عسى أن يتمنى المبغض لبغيضه . وشتان ما بين هذا وبين من يقول :

ألا ليتنا عشنا جميعًا وكان بي من الداء ما لا يعرف الناس ما بيا

فهذا أقرب إلى الصواب ولو أن جنادة كان يتمنى وصله ولقاءه

لَكانَ قَدْ قَضَى وَطَرًا مِنَ ٱلْمُنَى وَلَمْ تَلْزَمْهُ ٱلْهُجْنَةُ. كَمَا قَالَ ٱلْعَبَّاسُ ٱبْنُ ٱلْأَحْنَفِ :

فَإِنْ تَبْخَلُوا عَنِّي بِبَذْلِ نَوَالِكُمْ   وَبِٱلْوَصْلِ مِنْكُمْ كَيْ أُصَبَّ وَأَحْزَنَا
فَإِنِّي بِلَذَّاتِ ٱلْمُنَى وَنَعِيمِهَا   أَعِيشُ إِلَى أَنْ يَجْمَعَ ٱللهُ بَيْنَنَا

وَمِنْ وَضْعِ ٱلشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ :

يَمْشِي بِهَا كُلُّ مَوْشِيٍّ أَكَارِعُهُ   مَشْيَ ٱلْهَرَابِذِ حَجُّوا بِيعَةَ ٱلزُّورِ

فَٱلْغَلَطُ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ : أَحَدُهَا أَنَّ ٱلْهَرَابِذَ ٱلْمَجُوسُ لَا ٱلنَّصَارَى. وَٱلثَّانِي أَنَّ ٱلْبِيعَةَ لِلنَّصَارَى لَا لِلْمَجُوسِ. وَٱلثَّالِثُ أَنَّ ٱلنَّصَارَى لَا يَعْبُدُونَ ٱلْأَصْنَامَ وَلَا ٱلْمَجُوسُ. وَمِنَ ٱلْمُحَالِ ٱلَّذِي لَا وَجْهَ لَهُ قَوْلُ ٱلْقَسِّ :

وَإِنِّي إِذَا مَا ٱلْمَوْتُ حَلَّ بِنَفْسِهَا   يُزَالُ بِنَفْسِي قَبْلَ ذَاكَ فَأُقْبَرُ

وَهٰذَا شَبِيهٌ بِقَوْلِ قَائِلٍ لَوْ قَالَ : إِذَا دَخَلَ زَيْدٌ ٱلدَّارَ دَخَلَ عَمْرٌو قَبْلَهُ وَهٰذَا عَيْنُ ٱلْمُحَالِ ٱلْمُمْتَنِعِ ٱلَّذِي لَا يَجُوزُ كَوْنُهُ. وَمِنْ عُيُوبِ ٱلْمَعْنَى مُخَالَفَةُ ٱلْعُرْفِ وَذِكْرُ مَا لَيْسَ فِي ٱلْعَادَةِ كَقَوْلِ ٱلْمَرَّارِ :

وَخَالٍ عَلَى خَدَّيْهِ يَبْدُو كَأَنَّهُ   سَنَا ٱلْبَدْرِ فِي دَعْجَاءَ بَادٍ دُجُونُهَا

وَٱلْمَعْرُوفُ أَنَّ ٱلْخِيلَانَ سُودٌ أَوْ سُمْرٌ وَٱلْخُدُودَ ٱلْحَسَنَةَ إِنَّمَا هِيَ ٱلْبِيضُ. فَأَتَى هٰذَا ٱلشَّاعِرُ بِقَلْبِ ٱلْمَعْنَى. وَمِنَ ٱلْمَعَانِي مَا يَكُونُ مُقَصِّرًا غَيْرَ بَالِغٍ مَبْلَغَ غَيْرِهِ فِي ٱلْإِحْسَانِ. وَمِنْ عُيُوبِ ٱلْمَدِيحِ عُدُولُ ٱلْمَادِحِ عَنِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّ بِٱلنَّفْسِ مِنَ ٱلْعَقْلِ وَٱلْعِفَّةِ وَٱلْعَدْلِ وَٱلشَّجَاعَةِ إِلَى مَا يَلِيقُ بِأَوْصَافِ ٱلْجِسْمِ مِنَ ٱلْحُسْنِ وَٱلْبَهَاءِ وَٱلزِّينَةِ. كَمَا قَالَ

ٱبْنُ قَيْسِ ٱلرُّقَيَّاتِ فِي عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ :

يَأْتَلِقُ ٱلتَّاجُ فَوْقَ مَفْرِقِهِ   عَلَى جَبِينٍ كَأَنَّهُ ٱلذَّهَبُ

فَغَضِبَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ وَقَالَ: قَدْ قُلْتَ فِي مُصْعَبٍ :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ ٱللهِ   تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ ٱلظَّلْمَاءُ

فَأَعْطَيْتَهُ ٱلْمَدْحَ بِكَشْفِ ٱلْغُمَمِ وَجَلَاءِ ٱلظُّلَمِ وَأَعْطَيْتَنِي مَا لَا فَخْرَ فِيهِ وَهُوَ ٱعْتِدَالُ ٱلتَّاجِ فَوْقَ جَبِينِي ٱلَّذِي هُوَ كَٱلذَّهَبِ فِي ٱلنَّضَارَةِ.

وَمِثْلُ ذٰلِكَ قَوْلُ أَيْمَنَ بْنِ خُزَيْمٍ فِي بِشْرِ بْنِ مَرْوَانَ :

يَا ٱبْنَ ٱلْمَكَارِمِ مِنْ قُرَيْشٍ كُلِّهَا   وَٱبْنَ ٱلْخَلَائِفِ وَٱبْنَ كُلِّ قَلَمَّسِ

مِنْ فَرْعِ آدَمَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ   حَتَّى ٱنْتَهَيْتَ إِلَى أَبِيكَ ٱلْعَنْبَسِ

مَرْوَانَ إِنَّ قَنَاتَهُ خَطِّيَّةٌ   غُرِسَتْ أُرُومَتُهَا أَعَزَّ ٱلْمَغْرِسِ

وَبَنَيْتَ عِنْدَ مَقَامِ رَبِّكَ قُبَّةً   خَضْرَاءَ كُلِّلَ تَاجُهَا بِٱلْفُسْفُسِ

فَسَمَاؤُهَا ذَهَبٌ وَأَسْفَلُ أَرْضِهَا   وَرِقٌ يُلَأْلَأُ فِي صَمِيمِ ٱلْجُنْدُسِ

فَمَا فِي هٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتِ شَيْءٌ يَتَعَلَّقُ بِٱلْمَدْحِ ٱلَّذِي يَخْتَصُّ بِٱلنَّفْسِ وَإِنَّمَا ذَكَرَ سُؤْدَدَ ٱلْآبَاءِ وَفِيهِ فَخْرٌ لِلْأَبْنَاءِ. وَلٰكِنْ لَيْسَ ٱلْعِصَامِيُّ كَٱلْعِظَامِيِّ. وَرُبَّمَا كَانَ سُؤْدَدُ ٱلْوَالِدِ وَفَضِيلَتُهُ نَقِيصَةً لِلْوَلَدِ إِذَا تَأَخَّرَ عَنْ رُتْبَةِ ٱلْوَالِدِ. وَيَكُونُ ذِكْرُ ٱلْوَالِدِ ٱلْفَاضِلِ تَقْرِيعًا لِلْوَلَدِ ٱلنَّاقِصِ.

وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ : لِمَ لَا تَكُونُ كَأَبِيكَ. فَقَالَ : لَيْتَ أَبِي لَمْ يَكُنْ ذَا فَضْلٍ فَإِنَّ فَضْلَهُ صَارَ نَقْصًا لِي. وَقَدْ قَالَ ٱلْأَوَّلُ :

إِنَّمَا ٱلْمَجْدُ مَا بَنَى وَالِدُ ٱلصِّدْ   قِ وَأَحْيَا فَعَالَهُ ٱلْمَوْلُودُ

وَقَالَ غَيْرُهُ فِي خِلَافِهِ :

لَئِنْ فَخَرْتَ بِآبَاءٍ ذَوِي شَرَفٍ   لَقَدْ صَدَقْتَ وَلٰكِنْ بِئْسَ مَا وَلَدُوا

وَقَالَ آخَرُ :

عَلَتْ مَقَابِحُ أَخْلَاقٍ خُصِصْتَ بِهَا   عَلَى مَحَاسِنَ أَبْقَاهَا أَبُوكَ لَكَا
لَئِنْ تَقَدَّمَ أَبْنَاءَ ٱلْكِرَامِ بِهِ   لَقَدْ تَقَدَّمَ آبَاءَ ٱللِّئَامِ بِكَا

ثُمَّ ذَكَرَ أَعْيُنَ بِنَاءَ قُبَّةٍ حَسَنَةٍ وَلَيْسَ بِنَاءُ ٱلْقِبَابِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى جُودٍ وَكَرَمٍ . بَلْ يَجُوزُ أَنْ يَبْنِيَ ٱللَّئِيمُ ٱلْبَخِيلُ ٱلْأَبْنِيَةَ ٱلنَّفِيسَةَ وَيَتَوَسَّعَ فِي ٱلنَّفَقَةِ عَلَى ٱلدُّورِ ٱلْحَسَنَةِ مَعَ مَنْعِ ٱلْحَقِّ وَرَدِّ ٱلسَّائِلِ وَلَيْسَ ٱلْيَسَارُ مِمَّا يُمْدَحُ بِهِ مَدْحًا حَقِيقِيًّا . أَلَا تَرَى كَيْفَ يَقُولُ أَشْجَعُ ٱلسُّلَمِيُّ :

يُرِيدُ ٱلْمُلُوكُ مَدَى جَعْفَرٍ   وَلَا يَصْنَعُونَ كَمَا يَصْنَعُ
وَلَيْسَ بِأَوْسَعِهِمْ فِي ٱلْغِنَى   وَلٰكِنَّ مَعْرُوفَهُ أَوْسَعُ

وَٱلْجَيِّدُ فِي ٱلْمَدِيحِ قَوْلُ زُهَيْرٍ :

هُنَالِكَ إِنْ يُسْتَخْوَلُوا ٱلْمَالَ يُخْوِلُوا   وَإِنْ يُسْأَلُوا يُعْطُوا وَإِنْ يَيْسِرُوا يُغْلُوا
وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهُمْ   وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا ٱلْقَوْلُ وَٱلْفِعْلُ

فَلَمَّا ٱسْتَتَمَّ وَصْفَهُمْ بِحُسْنِ ٱلْمَقَالِ وَتَصْدِيقِ ٱلْقَوْلِ بِٱلْفِعْلِ وَصَفَهُمْ بِحُسْنِ ٱلْوُجُوهِ ثُمَّ قَالَ :

عَلَى مُكْثِرِيهِمْ حَقُّ مَنْ يَعْتَرِيهِمِ   وَعِنْدَ ٱلْمُقِلِّينَ ٱلسَّمَاحَةُ وَٱلْبَذْلُ

فَلَمْ يُخْلِ مُكْثِرًا مِنْهُمْ وَلَا مُقِلًّا مِنْ بِرٍّ وَفَضْلٍ . ثُمَّ قَالَ :

وَإِنْ جِئْتَهُمْ أَلْفَيْتَ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ   مَجَالِسَ قَدْ يُشْفَى بِأَحْلَامِهَا ٱلْجَهْلُ

فَوَصَفَهُمْ بِٱلْحِلْمِ ثُمَّ قَالَ :

وَإِنْ قَامَ مِنْهُمْ قَائِمٌ قَالَ قَاعِدٌ   رَشَدْتَ فَلَا غُرْمٌ عَلَيْكَ وَلَا خَذْلُ

فوصفهم ايضا بالتضافر والتعاون فلما اتى بهذه الصفات النفيسة ذكر فضل آبائهم فقال :

وما يك من فضل اتوه فانما ... توارثه آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطي الا وشيجه ... وتغرس الا في منابتها النخل

وقول مروان بن ابي حفصة :

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم ... أسود لهم في غيل خفان اشبل
هم المانعون الجار حتى كأنما ... لجارهم فوق السماكين منزل
بهاليل في الاسلام سادوا ولم يكن ... كأولهم في الجاهلية اول
هم القوم ان قالوا اصابوا وان دعوا ... اجابوا وان اعطوا اطابوا واجزلوا
ولا يستطيع الفاعلون فعالهم ... وان احسنوا في النائبات واجملوا
ثلاث بامثال الجبال حباهم ... واحلامهم منها لدى الوزن اثقل

وكقول الآخر :

علم الغيث الندى حتى اذا ... ما حكاه علم البأس الاسد
فله الغيث مقر بالندى ... وله الليث مقر بالجلد

ومع ما ذكرناه فانه لا ينبغي ان يخلو المدح من مناقب آباء الممدوح وتقريظ من يعرف به وينسب اليه . وانشد مروان ابن ابي حفصة :

نقرت فلا شلت يد خالدية ... رتقت بها الفتق الذي بين هاشم

فقال له الفضل قل : برمكية . فقد يشركنا في خالد بشر كثير ولا يشركنا في برمك احد

وَٱلْهِجَاءُ أَيْضًا إِذَا لَمْ يَكُنْ بِسَلْبِ ٱلصِّفَاتِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّهَا ٱلنَّفْسُ وَإِثْبَاتِ ٱلصِّفَاتِ ٱلْمُسْتَهْجَنَةِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّهَا أَيْضًا لَمْ يَكُنْ مُخْتَارًا. وَٱلِاخْتِيَارُ أَنْ تَنْسُبَ ٱلْمَهْجُوَّ إِلَى ٱللُّؤْمِ وَٱلْبُخْلِ وَٱلشَّرَهِ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ. وَلَيْسَ بِٱلْمُخْتَارِ فِي ٱلْهِجَاءِ أَنْ يَنْسُبَهُ إِلَى قُبْحِ ٱلْوَجْهِ وَصِغَرِ ٱلْحَجْمِ وَضُؤُولَةِ ٱلْجِسْمِ وَيَدُلُّ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْقَائِلُ:

قَقُلْتُ لَهَا لَيْسَ ٱلشُّحُوبُ عَلَى ٱلْفَتَى ... بِعَارٍ وَلَا خَيْرُ ٱلرِّجَالِ سَمِينُهَا

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ:

تَنَالُ ٱلْخَيْرَ مِمَّنْ تَزْدَرِيهِ ... وَيُخْلِفُ ظَنَّكَ ٱلرَّجُلُ ٱلطَّرِيرُ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ:

رَأَوْهُ فَٱزْدَرَوْهُ وَهْوَ حِذْقٌ ... وَيَنْفَعُ أَهْلَهُ ٱلرَّجُلُ ٱلْقَبِيحُ

وَذَكَرَ ٱلسَّمَوْأَلُ أَنَّ قِلَّةَ ٱلْعَدَدِ لَيْسَ بِعَيْبٍ فَقَالَ:

تُعَيِّرُنَا أَنَّا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا ... فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ ٱلْكِرَامَ قَلِيلُ

وَمِنَ ٱلْهِجَاءِ ٱلْجَيِّدِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ:

ٱللُّؤْمُ أَكْرَمُ مِنْ وَبْرٍ وَوَالِدِهِ ... وَٱللُّؤْمُ أَكْرَمُ مِنْ وَبْرٍ وَمَا وَلَدَا

قَوْمٌ إِذَا مَا جَنَى جَانِيهِمِ أَمِنُوا ... مِنْ لُؤْمِ أَحْسَابِهِمْ أَنْ يُقْتَلُوا قَوَدَا

وَقَوْلُ أَعْشَى بَاهِلَةَ:

بَنُو تَيْمٍ قَرَارَةُ كُلِّ لُؤْمٍ ... كَذَاكَ لِكُلِّ سَائِلَةٍ قَرَارُ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ:

لَوْ كَانَ يَخْفَى عَلَى ٱلرَّحْمَانِ خَافِيَةٌ ... مِنْ خَلْقِهِ خَفِيَتْ عَنْهُ بَنُو أَسَدِ

وَمِنْ خَبِيثِ ٱلْهِجَاءِ قَوْلُ ٱلْآخَرِ:

إِنْ يَغْدِرُوا أَوْ يَجْبُنُوا أَوْ يَبْخَلُوا لَا يَحْفِلُوا

يَغْدُوا عَلَيْكَ مُرَجَّلِينَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

لَوِ ٱطَّلَعَ ٱلْغُرَابُ عَلَى تَمِيمٍ   وَمَا فِيهَا مِنَ ٱلسَّوْءَاتِ شَابَا

وَمِنْ خَطَإِ ٱللَّفْظِ قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

ذَكَرْتُ أَخِي فَعَاوَدَنِي   صُدَاعُ ٱلرَّأْسِ وَٱلْوَصَبُ

فَذِكْرُ ٱلرَّأْسِ مَعَ ٱلصُّدَاعِ فَضْلٌ لِأَنَّ ٱلصُّدَاعَ لَا يَكُونُ فِي ٱلرِّجْلِ وَلَا فِي غَيْرِهَا مِنَ ٱلْأَعْضَاءِ . وَفِيهِ وَجْهٌ آخَرُ مِنَ ٱلْعَيْبِ : وَهُوَ أَنَّ ٱلذَّاكِرَ لِمَا قَدْ فَاتَ مِنْ مَحْبُوبٍ يُوصَفُ بِأَلَمِ ٱلْقَلْبِ وَٱحْتِرَاقِهِ لَا بِٱلصُّدَاعِ . وَمِنْ عُيُوبِ ٱللَّفْظِ ٱرْتِكَابُ ٱلضَّرُورَاتِ فِيهِ كَمَا قَالَ ٱلْمُتَلَمِّسُ :

إِنْ تَسْلُكِي سُبُلَ ٱلْمَجَازِ مُنْجِدَةً   مَا عَاشَ عَمْرٌو وَمَا عَمِّرَتْ قَابُوسُ

أَرَادَ (وَمَا عُمِّرَ قَابُوسُ) . وَقَوْلُ ٱلْأَعْشَى حَكَاهُ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ وَعَابَهُ

مِنَ ٱلْقَاصِرَاتِ سُجُوفُ ٱلْحِجَالِ   فَلَمْ تَرَ شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيرَا

قَالَ : لَا تُوضَعُ ٱلشَّمْسُ مَعَ ٱلزَّمْهَرِيرِ (قَالَ :) وَكَانَ يَجِبُ أَنْ يَقُولَ : لَمْ تَرَ شَمْساً وَلَا قَمَراً وَلَمْ يُصِبْهَا حَرٌّ وَلَا قُرٌّ وَقَدْ أَخْطَأَ . وَكَقَوْلِ عَلْقَمَةَ :

يَحْمِلْنَ أُتْرُجَّةً نَضْحُ ٱلْعَبِيرِ بِهَا   كَأَنَّ تَطْيَابَهَا فِي ٱلْأَنْفِ مَشْمُومُ

وَٱلتَّطْيَابُ هَا هُنَا عَلَى غَايَةِ ٱلسَّمَاجَةِ وَٱلطِّيبُ أَيْضاً مَشْمُومٌ لَا مَحَالَةَ

فَقَوْلُهُ: (كَأَنَّهُ مَشْمُومٌ) هُجْنَةٌ وَقَوْلُهُ: (فِي ٱلْآنُفِ أَهْجَنُ). لِأَنَّ ٱلشَّمَّ لَا يَكُونُ بِٱلْعَيْنِ. وَمِنَ ٱلْمُتَنَاقِضِ قَوْلُ عُرْوَةَ بْنِ أُذَيْنَةَ:

نَزَلُوا ثَلَاثَ مِنًى بِمَنْزِلِ غِبْطَةٍ ... وَهُمُ عَلَى غَرَضٍ لَعَمْرُكَ مَا هُمُ
مُتَجَاوِرِينَ بِغَيْرِ دَارِ إِقَامَةٍ ... لَوْ قَدْ أَجَدَّ رَحِيلُهُمْ لَمْ يَنْدَمُوا

(فَقَالَ) لَبِثُوا فِي دَارِ غِبْطَةٍ ثُمَّ قَالَ: لَوْ رَحَلُوا لَمْ يَنْدَمُوا. وَمِمَّا جَاءَ فِي ذٰلِكَ مِنْ أَشْعَارِ ٱلْمُحْدَثِينَ قَوْلُ بَشَّارٍ:

وَإِذَا أَدْنَيْتَ مِنْهَا بَصَلًا ... غَلَبَ ٱلْمِسْكُ عَلَى رِيحِ ٱلْبَصَلْ

وَمِنَ ٱلْمَعَانِي ٱلْبَشِعَةِ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ:

بِأَحْمَدَ ٱلْمُرْتَجَى فِي كُلِّ نَائِبَةٍ ... قُمْ سَيِّدِي نَعْصِ جَبَّارَ ٱلسَّمَاوَاتِ

فَهٰذَا مَعَ كُفْرِهِ مَمْقُوتٌ. وَمِنَ ٱلْخَطَإِ قَوْلُ أَبِي ٱلْعَتَاهِيَةِ:

غَنِيتَ عَلَى ٱلْوَصْلِ ٱلْقَدِيمِ غَنِيتَا ... وَضَيَّعْتَ وُدًّا كَانَ لِي وَنَسِيتَا
وَمِنْ أَعْجَبِ ٱلْأَشْيَاءِ أَنْ مَاتَ مَأْلَفِي ... وَمَا كُنْتَ تَرْعَانِي لَهُ وَبَقِيتَا
تَجَاهَلْتَ عَمَّا كُنْتَ تُحْسِنُ وَصْفَهُ ... وَمُتَّ عَنِ ٱلْإِحْسَانِ حِينَ حَيِيتَا

وَلَيْسَ مِنَ ٱلْعَجَبِ أَنْ يَمُوتَ إِنْسَانٌ وَيَبْقَى بَعْدَهُ إِنْسَانٌ آخَرُ. بَلْ هٰذِهِ عَادَةُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْمَعْهُودُ مِنْ أَمْرِهَا وَلَوْ قَالَ: (مِنْ ظُلْمِ ٱلْأَيَّامِ) كَانَ ٱلْمَعْنَى مُسْتَوِيًا. وَسَمِعْتُ بَعْضَ ٱلْأُدَبَاءِ يَقُولُ: وَمِنَ ٱلْمَعَانِي ٱلْبَارِدَةِ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ فِي صِفَةِ ٱلْبَازِي:

فِي هَامَةٍ غَلْبَاءَ تَهْدِي مِنْسَرَا ... كَعَطْفَةِ ٱلْجِيمِ بِكَفٍّ أَعْسَرَا

ثُمَّ قَالَ:

يَقُولُ مَنْ فِيهَا بِعَقْلٍ فَكَّرَا ... لَوْ زَادَهَا عَيْنًا إِلَى فَاءٍ وَرَا

فَاتَّصَلَتْ بِالْجِيمِ صَارَ جَعْفَرَا

فَمَنْ يَجْهَلُ اَنَّ الْجِيمَ اِذَا اُضِيفَ اِلَيْهَا الْعَيْنُ وَالْفَاءُ وَالرَّاءُ يَصِيرُ (جَعْفَرَا) وَمَا يَدْخُلُ فِي صِفَةِ الْبَازِي مِنْ هٰذَا الْقَوْلِ شَيْءٌ. وَتَبِعَهُ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ :

هُنَّ الْحَمَامُ فَاِنْ كَسَرْتَ عِيَافَةً مِنْ حَائِهِنَّ فَاِنَّهُنَّ حِمَامُ

فَمَنْ ذَا الَّذِي جَهِلَ اَنَّ الْحَمَامَ اِذَا كُسِرَتْ حَاؤُهَا صَارَ حِمَامًا. وَاِنَّمَا اَرَادَ اَبُو نُوَاسٍ اَنَّهُ يُشْبِهُ الْجِيمَ لَا يُغَادِرُ مِنْ شَبَهِهَا شَيْئًا حَتَّى لَوْ زِدْتَ عَلَيْهَا هٰذِهِ الْاَحْرُفَ صَارَتْ جَعْفَرَا لِشِدَّةِ شَبَهِهَا بِهِ وَهُوَ عِنْدِي صَوَابٌ. اِلَّا اَنَّهُ لَوِ اكْتَفَى بِقَوْلِهِ: (كَعَطْفَةِ الْجِيمِ بِكَفِّ اَعْسَرَا) وَلَمْ يَزِدِ الزِّيَادَةَ الَّتِي بَعْدَهَا كَانَ اَجْوَدَ وَاَرْشَقَ وَاَدْخَلَ فِي مَذَاهِبِ الْفُصَحَاءِ وَاَشْبَهَ بِالشِّعْرِ الْقَدِيمِ. وَاَمَّا قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ : فَلَهُ مَعْنًى خِلَافُ مَا ذَكَرَهُ وَذٰلِكَ اَنَّهُ اَرَادَ اَنَّكَ اِذَا اَرَدْتَ الزَّجْرَ وَالْعِيَافَةَ اَدَّاكَ الْحَمَامُ اِلَى الْحِمَامِ كَمَا اَنَّ صَوْتَهَا الَّذِي تَظُنُّ اَنَّهُ بُكَاءٌ اِنَّمَا هُوَ طَرَبٌ وَيُؤَدِّيكَ اِلَى الْبُكَاءِ الْحَقِيقِيِّ وَهٰذَا مَعْنًى صَحِيحٌ. اِلَّا اَنَّ الْمَعْنَى اِذَا صَارَ بِهٰذِهِ الْمَنْزِلَةِ مِنَ الدِّقَّةِ كَانَ كَالْمُعَمَّى وَالتَّعْمِيَةُ حَيْثُ يُرَادُ الْبَيَانُ عِيٌّ. وَمِنْ عُيُوبِ الْمَعْنَى قَوْلُ اَبِي نُوَاسٍ فِي صِفَةِ الْاَسَدِ:

كَاَنَّمَا عَيْنُهُ اِذَا نَظَرَتْ بَارِزَةَ الْجَفْنِ عَيْنُ مَخْنُوقِ

فَوَصَفَ عَيْنَ الْاَسَدِ بِالْجُحُوظِ وَهِيَ تُوصَفُ بِالْغُؤُورِ كَقَوْلِ اَبِي زُبَيْدٍ:

وَعَيْنَانِ كَالْوَقْبَيْنِ فِي قَلْبِ صَخْرَةٍ تَرَى فِيهِمَا كَالْجَمْرَتَيْنِ تَسَعَّرَا

وَمِنَ الْغَلَطِ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ :

دَقِيقُ حَوَاشِي الْحِلْمِ لَوْ أَنَّ حِلْمَهُ بِكَفَّيْكَ مَا مَارَيْتَ فِي أَنَّهُ بُرْدُ

وَمَا وَصَفَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ وَلَا أَهْلِ الْإِسْلَامِ الْحِلْمَ بِالرِّقَّةِ وَإِنَّمَا يُوصَفُ بِالرُّجْحَانِ وَالرَّزَانَةِ كَمَا قَالَ أَبُو ذُؤَيْبٍ :

وَصَبْرٌ عَلَى حَدَثِ النَّائِبَاتِ وَحِلْمٌ رَزِينٌ وَعَقْلٌ ذَكِي

وَمِثْلُ هٰذَا كَثِيرٌ وَإِذَا ذَمُّوا الرَّجُلَ قَالُوا : خَفَّ حِلْمُهُ وَطَاشَ .

وَمِنَ الْخَطَإِ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

ظَعَنُوا فَكَانَ بُكَايَ حَوْلًا بَعْدَهُمْ ثُمَّ ارْعَوَيْتُ وَذَاكَ حِلْمُ لَبِيدِ

أَجْدِرْ بِجَمْرَةِ لَوْعَةٍ إِطْفَاؤُهَا بِالدَّمْعِ أَنْ تَزْدَادَ طُولَ وُقُودِ

هٰذَا خِلَافُ مَا يَعْرِفُهُ النَّاسُ لِأَنَّهُمْ قَدْ أَجْمَعُوا أَنَّ الْبُكَاءَ يُطْفِئُ الْغَلِيلَ وَيُبَرِّدُ حَرَارَةَ الْحُزْنِ وَيُزِيلُ شِدَّةَ الْوَجْدِ . وَقَدْ شَهِدَ أَبُو تَمَّامٍ بِصِحَّةِ مَا ذَكَرْنَاهُ وَخَالَفَ قَوْلَهُ الْأَوَّلَ فَقَالَ :

نَثَرَتْ فَرِيدَ مَدَامِعٍ لَمْ يُنْظَمِ وَالدَّمْعُ يَحْمِلُ بَعْضَ ثِقْلِ الْمُغْرَمِ

وَمِنَ الْخَطَإِ قَوْلُ الْبُحْتُرِيِّ :

بَدَتْ صُفْرَةٌ فِي لَوْنِهِ إِنَّ حَمْدَهُمْ مِنَ الدُّرِّ مَا اصْفَرَّتْ حَوَاشِيهِ فِي الْعِقْدِ

وَإِنَّمَا يُوصَفُ الدُّرُّ بِشِدَّةِ الْبَيَاضِ وَإِذَا أُرِيدَ الْمُبَالَغَةُ فِي وَصْفِهِ وُصِفَ بِالنُّصُوعِ . وَمِنْ أَعْيَبِ عُيُوبِهِ الصُّفْرَةُ . وَقَالُوا : كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ لِبَيَاضِهِ . وَإِذَا اصْفَرَّ احْتِيلَ فِي إِزَالَةِ صُفْرَتِهِ لِيَتَضَوَّأَ وَاسْتِعْمَالُ الْحَوَاشِي فِي الدُّرِّ أَيْضًا خَطَأٌ . وَلَوْ قَالَ : (نَوَاحِيه) لَكَانَ أَجْوَدَ . وَالْحَاشِيَةُ لِلْبُرْدِ وَالثَّوْبِ . فَأَمَّا حَاشِيَةُ الدُّرِّ فَغَيْرُ مَعْرُوفٍ . وَفِيهَا :

وَجَرَتْ عَلَى الْأَيْدِي مُجَسَّةُ جِسْمِهِ كَذٰلِكَ مَوْجُ الْبَحْرِ مُلْتَهِبُ الْوَقْدِ

وَهٰذَا غَلَطٌ لِأَنَّ ٱلْبَحْرَ غَيْرُ مُلْتَهِبِ ٱلْمَوْجِ وَلَا مُتَّقِدِ ٱلْمَاءِ . وَلَوْ كَانَ مُتَّقِدًا لَمَا أَمْكَنَ رُكُوبُهُ. وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يُعَظِّمَ أَمْرَ ٱلْمَمْدُوحِ فَجَاءَ بِمَا لَا يُعْرَفُ . وَفِيهَا :

وَلَسْتَ تَرَى شَوْكَ ٱلْقَتَادَةِ خَائِفًا   سَمُومَ رِيَاحِ ٱلْقَادِحَاتِ مِنَ ٱلزَّنْدِ

وَهٰذَا خَطَأٌ لِأَنَّهُ شَبَّهَ ٱلْعَلِيلَ بِشَوْكِ ٱلْقَتَادِ لَا يَخَافُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُقْدَحُ بِٱلزِّنَادِ . وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ ٱلنَّارَ تَفْلِقُ ٱلصَّخْرَ وَتُلِينُ ٱلْحَدِيدَ فَكَيْفَ يَسْلَمُ مِنْهَا ٱلْقَتَادُ . وَلَيْسَ لِذِكْرِ ٱلسَّمُومِ وَٱلرِّيَاحِ أَيْضًا فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ فَائِدَةٌ وَلَا مَوْقِعٌ . وَنُورِدُ هَا هُنَا جُمْلَةً تَتِمُّ بِهَا مَعَانِي هٰذَا ٱلْبَابِ : يَنْبَغِي أَنْ تَعْرِفَ أَنَّ أَجْوَدَ ٱلْوَصْفِ مَا يَسْتَوْعِبُ أَكْثَرَ مَعَانِي ٱلْمَوْصُوفِ حَتَّى كَأَنَّهُ يُصَوِّرُ ٱلْمَوْصُوفَ لَكَ فَتَرَاهُ نُصْبَ عَيْنِكَ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ يَزِيدَ بْنِ عَمْرٍو ٱلطَّائِيِّ :

أَلَا مَنْ رَأَى قَوْمِي كَأَنَّ رِجَالَهُمْ   نَخِيلٌ أَتَاهَا عَاضِدٌ فَأَمَالَهَا

فَهٰذَا ٱلتَّشْبِيهُ كَأَنَّهُ يُصَوِّرُ لَكَ ٱلْقَتْلَى مُصَرَّعِينَ . وَقَوْلِ ٱلْعَتَّابِيِّ فِي ٱلسَّحَابِ :

وَٱلْغَيْمُ كَٱلثَّوْبِ فِي ٱلْآفَاقِ مُنْتَشِرٌ   مِنْ فَوْقِهِ طَبَقٌ مِنْ تَحْتِهِ طَبَقُ
إِنْ مَعْمَعَ ٱلرَّعْدُ فِيهِ قُلْتَ مُنْخَرِقٌ   أَوْ لَأْلَأَ ٱلْبَرْقُ فِيهِ قُلْتَ مُحْتَرِقُ

وَلَمَّا كَانَتْ أَغْرَاضُ ٱلشُّعَرَاءِ كَثِيرَةً وَمَعَانِيهَا مُتَشَعِّبَةً جَمَّةً لَا يَبْلُغُهَا ٱلْإِحْصَاءُ. كَانَ مِنَ ٱلْوَجْهِ أَنْ نَذْكُرَ مَا هُوَ أَكْثَرُ ٱسْتِعْمَالًا وَأَطْوَلُ مُدَاوَمَةً وَهُوَ ٱلْمَدْحُ . وَٱلْهِجَاءُ . وَٱلْوَصْفُ . وَٱلْمَرَاثِي. وَٱلْفَخْرُ . وَقَدْ ذَكَرْتُ قَبْلَ هٰذَا ٱلْمَدِيحَ وَٱلْهِجَاءَ وَمَا يَنْبَغِي ٱسْتِعْمَالُهُ فِيهِمَا . ثُمَّ

ذَكَرْتُ الْآنَ الْوَصْفَ وَتَرَكْتُ الْمَرَاثِيَ وَالْفَخْرَ . لِأَنَّهُمَا دَاخِلَانِ فِي الْمَدِيحِ وَذٰلِكَ أَنَّ الْفَخْرَ مَدْحُكَ نَفْسَكَ بِالطَّهَارَةِ وَالْعَفَافِ وَالْحِلْمِ وَالْعِلْمِ وَالْحَسَبِ وَمَا يَجْرِي مَجْرَى ذٰلِكَ . وَالْمَرْثِيَةُ مَدْحُ الْمَيِّتِ وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ الْمَدِيحِ أَنْ تَقُولَ : كَانَ كَذَا وَكَذَا . وَتَقُولُ فِي الْمَدِيحِ : هُوَ كَذَا وَأَنْتَ كَذَا . فَيَنْبَغِي أَنْ يُتَوَخَّى فِي الْمَرْثِيَةِ مَا يُتَوَخَّى فِي الْمَدِيحِ . إِلَّا أَنَّكَ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَذْكُرَ الْمَيِّتَ بِالْجُودِ وَالشَّجَاعَةِ تَقُولُ : مَاتَ الْجُودُ وَهَلَكَتِ الشَّجَاعَةُ . وَلَا تَقُولُ : كَانَ فُلَانٌ جَوَادًا وَشُجَاعًا فَإِنَّ ذٰلِكَ بَارِدٌ غَيْرُ مُسْتَحْسَنٍ . وَكَذٰلِكَ مَا كَانَ الْمَيِّتُ يَرْكَبُهُ فِي حَيَاتِهِ . فَيَنْبَغِي أَنَّهُ لَا يُذْكَرَ أَنَّهُ يَبْكِي عَلَيْهِ مِثْلُ الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا وَإِنَّمَا يُذْكَرُ اغْتِبَاطُهُمَا بِمَوْتِهِ . وَقَدْ أَحْسَنَتِ الْخَنْسَاءُ حَيْثُ تَقُولُ :

فَقَدْ فَقَدَتْكَ طَلْقَةُ وَاسْتَرَاحَتْ ... فَلَيْتَ الْخَيْلَ فَارِسُهَا يَرَاهَا

بَلْ يُوصَفُ بِالْبُكَاءِ عَلَيْهِ مَنْ كَانَ يُحْسِنُ إِلَيْهِ فِي حَيَاتِهِ . كَمَا قَالَ الْغَنَوِيُّ :

لِيَبْكِكَ شَيْخٌ لَمْ يَجِدْ مَنْ يُعِينُهُ ... وَطَاوِي الْحَشَى نَائِي الْمَزَارِ غَرِيبُ

فَهٰذِهِ جُمْلَةٌ إِذَا تَدَبَّرَهَا صَانِعُ الْكَلَامِ اسْتَغْنَى بِهَا عَنْ غَيْرِهَا . وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ



البحث الثالث

في كيفية نظم الكلام وما ينبغي استعمالهُ في تأليفهِ

(عن كتاب الصناعتين باختصار)

إِذَا أَردتَ أَنْ تَصنعَ كَلاماً فَأَخطِرْ مَعانِيَهُ بِبالكَ وَتَنَوَّقْ لَهُ كَرائِمَ اللَفظِ وَاجْعلها عَلَى ذِكْرٍ مِنكَ لِيقْرُبَ عَلَيكَ تَناوُلُها وَلا يُتعِبَكَ تَطَلُّبُها. وَاعمَلْهُ ما دُمتَ فِي شَبابِ نَشاطِكَ فَإِذَا غَشِيَكَ الفُتورُ وَتَخَوَّنَكَ المَلالُ فَأَمسِكْ. فَإِنَّ الكَثِيرَ مَعَ المَلالِ قَلِيلٌ وَالنَفِيسَ مَعَ الضَجَرِ خَسِيسٌ وَالخَواطِرَ كَالْيَنابِيعِ يُسْقَى مِنها شَيْءٌ بَعدَ شَيْءٍ فَتَجِدُ حاجَتَكَ مِنَ الرِّيِّ وَتَنالُ أَرَبَكَ مِنَ المَنفَعَةِ. فَإِذَا أَكْثَرتَ عَلَيها نَضَبَ ماؤُها وَقَلَّ عَنكَ غَناؤُها. وَيَنبَغِي أَنْ تَجرِيَ مَعَ الكَلامِ مُعارَضَةً فَإِذَا مَرَرتَ بِلَفظٍ حَسَنٍ أَخَذتَ بِرَقَبَتِهِ أَوْ بِمَعْنًى بَدِيعٍ تَعَلَّقتَ بِذَيلِهِ. وَتَحَذَّرْ أَنْ يَسبِقَكَ فَإِنَّهُ إِنْ سَبَقَكَ تَعِبتَ فِي تَتَبُّعِهِ وَنَصِبتَ فِي طَلَبِهِ وَلَعَلَّكَ لا تَلحَقُهُ عَلَى طُولِ الطَلَبِ وَمُواصَلَةِ الدَأْبِ وَقَدْ قالَ الشاعِرُ :

إِذَا ضَيَّعتَ أَوَّلَ كُلِّ أَمرٍ   أَبَتْ أَعجازُهُ إِلَّا التِواءَ

وَقالُوا : يَنبَغِي لِصانِعِ الكَلامِ أَنْ لا يَتَقَدَّمَ الكَلامَ تَقَدُّماً وَلا يَتبَعَ ذُنابَاهُ تَتَبُّعاً وَلا يَحمِلَهُ عَلَى لِسانِهِ حَمْلاً فَإِنَّهُ إِنْ تَقَدَّمَ الكَلامَ لَمْ تَتْبَعْهُ خَفِيفَتُهُ وَهَزِيلُهُ وَالعَجِفُ وَالشارِدُ مِنهُ. وَإِنْ تَتَبَّعَهُ فاتَتهُ سَوابِقُهُ وَلَواحِقُهُ وَتَباعَدَتْ عَنهُ جِيادُهُ وَغُرَرُهُ. وَإِنْ حَمَلَهُ عَلَى لِسانِهِ ثَقُلَتْ عَلَيهِ أَوساقُهُ وَأَعباؤُهُ وَدَخَلَتْ مَساوِيهِ فِي مَحاسِنِهِ وَلٰكِنَّهُ يَجرِي مَعَهُ

فَلا تَنِدُّ عَنْهُ نادَّةٌ مُعْجِبَةٌ سَهماءُ إلَّا كَبَحَها ولا تَتَخَلَّفُ عَنْهُ مُثْقَلَةٌ هَزِيلَةٌ إلَّا أرْهَقَها فَطَوْرًا تُفَرِّقُهُ لِيَخْتارَ أحْسَنَهُ وَطَوْرًا تَجْمَعُهُ لِتُقَرِّبَ عَلَيْكَ خُطْوَةَ الفِكْرِ ويَتَناوَلَ اللَّفْظَ مِنْ تَحْتِ لِسانِهِ ولا يُسَلِّطُ المَلَلَ عَلى قَلْبِهِ. والإكْثارَ عَلى تَفَكُّرِهِ فَيأْخُذُ عَفْوَهُ ولا يَسْتَغْزِرُ دَرَّهُ ولا يُكْرِهُ آبِيًا ولا يَدْفَعُ آتِيًا. وَقالَ بِشْرُ بْنُ المُعْتَمِرِ: خُذْ مِنْ نَفْسِكَ ساعَةَ نَشاطِكَ وَفَراغِ بالِكَ وَإجابَتِها لَكَ. فَإنَّ تِلْكَ السَّاعَةَ أكْرَمُ جَوْهَرًا وأشْرَفُ حُسْنًا وأحْسَنُ فِي الأسْماعِ وَأحْلَى فِي الصُّدُورِ وأسْلَمُ مِنْ فاحِشِ الخَطإِ وأجْلَبُ لِكُلِّ عَيْنٍ وَغُرَّةٍ مِنْ لَفْظٍ كَرِيمٍ وَمَعْنًى بَدِيعٍ. وَاعْلَمْ أنَّ ذَلِكَ أجْدَى عَلَيْكَ مِمَّا يُعْطِيكَ يَوْمُكَ الأطْوَلُ بِالكَدِّ وَالمُطالَبَةِ وَالمُجاهَدَةِ وَالتَّكَلُّفِ وَالمُعاوَدَةِ. وَمَهْما أخْطَأَكَ لَمْ يُخْطِئْكَ أنْ يَكُونَ مَقْبُولًا قَصْدًا أوْ خَفِيفًا عَلَى اللِّسانِ سَهْلًا وَكَما خَرَجَ مِنْ يَنْبُوعِهِ وَنَجَمَ عَنْ مَعْدِنِهِ. وَإيَّاكَ وَالتَّوَعُّرَ فَإنَّ التَّوَعُّرَ يُسْلِمُكَ إلَى التَّعْقِيدِ وَالتَّعْقِيدُ هُوَ الَّذِي يَسْتَهْلِكُ مَعانِيَكَ وَيَشِينُ ألْفاظَكَ. وَمَنْ أرادَ مَعْنًى كَرِيمًا فَلْيَلْتَمِسْ لَفْظًا كَرِيمًا فَإنَّ حَقَّ المَعْنَى الشَّرِيفِ اللَّفْظُ الشَّرِيفُ وَمِنْ حَقِّهِما أنْ يَصُونَهُما عَمَّا يُدَنِّسُهُما وَيُفْسِدُهُما وَيُهَجِّنُهُما فَيَصِيرُ بِهِما إلَى حَدٍّ يَكُونُ فِيهِ أسْوَأَ حالًا مِنْكَ قَبْلَ أنْ تَلْتَمِسَ البَلاغَةَ وَتَرْتَهِنَ نَفْسَكَ فِي مَلابِسِها. فَكُنْ فِي ثَلاثِ مَنازِلَ. فَأوَّلُ الثَّلاثِ: أنْ يَكُونَ لَفْظُكَ شَرِيفًا عَذْبًا وَفَخْمًا سَهْلًا وَيَكُونَ مَعْناكَ ظاهِرًا مَكْشُوفًا وَقَرِيبًا مَعْرُوفًا. فَإنْ كانَتْ هَذِهِ لا تُوَاتِيكَ وَلا تَسْنَحُ لَكَ عِنْدَ أوَّلِ خاطِرٍ وَتَجِدُ اللَّفْظَةَ لَمْ تَقَعْ مَوْقِعَها

وَلَمْ تَصِلْ اِلَى مَرْكَزِهَا وَلَمْ تَتَّصِلْ بِسِلْكِهَا وَكَانَتْ قَلِقَةً فِي مَوْضِعِهَا نَافِرَةً عَنْ مَكَانِهَا فَلَا تُكْرِهْهَا عَلَى اغْتِصَابِ الْاَمَاكِنِ وَالنُّزُولِ فِي غَيْرِ اَوْطَانِهَا . فَاِنَّكَ اِنْ لَمْ تَتَعَاطَ قَرِيضَ الشِّعْرِ الْمَنْظُومِ وَلَمْ تَتَكَلَّفِ اخْتِيَارَ الْكَلَامِ الْمَنْثُورِ لَمْ يَعِبْكَ بِذٰلِكَ اَحَدٌ . وَاِنْ تَكَلَّفْتَهُ وَلَمْ تَكُنْ حَاذِقًا مَطْبُوعًا وَلَا مُحْكِمًا لِشَأْنِكَ بَصِيرًا عَابَكَ مَنْ اَنْتَ اَقَلُّ عَيْبًا مِنْهُ وَزَرَى عَلَيْكَ مَنْ هُوَ دُونَكَ . فَاِنِ ابْتُلِيتَ بِتَكَلُّفِ الْقَوْلِ وَتَعَاطِي الصِّنَاعَةِ وَلَمْ تَسْمَحْ لَكَ الطَّبِيعَةُ فِي اَوَّلِ وَهْلَةٍ وَتَعْصَى عَلَيْكَ بَعْدَ اِجَالَةِ الْفِكْرَةِ فَلَا تَعْجَلْ وَدَعْهُ سَحَابَةَ يَوْمِكَ وَلَا تَضْجَرْ وَاَمْهِلْهُ سَوَادَ لَيْلَتِكَ وَعَاوِدْهُ عِنْدَ نَشَاطِكَ فَاِنَّكَ لَا تَعْدَمُ الْاِجَابَةَ وَالْمُؤَاتَاةَ . وَاِنْ كَانَتْ هُنَاكَ طَبِيعَةٌ وَاُجْرِيَتْ مِنَ الصِّنَاعَةِ عَلَى عُرْفٍ فَهِيَ الْمَنْزِلَةُ الثَّانِيَةُ . فَاِنْ تَمَنَّعَ عَلَيْكَ بَعْدَ ذٰلِكَ مَعَ تَرْوِيحِ الْخَاطِرِ وَطُولِ الْاِمْهَالِ فَالْمَنْزِلَةُ الثَّالِثَةُ . اَيْ اَنْ تَتَحَوَّلَ مِنْ هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ اِلَى اَشْهَى الصِّنَاعَاتِ اِلَيْكَ وَاَخَفِّهَا عَلَيْكَ فَاِنَّكَ لَمْ تَشْتَهِهَا اِلَّا وَبَيْنَكُمَا نَسَبٌ . وَالشَّيْءُ لَا يَحِنُّ اِلَّا اِلَى مَا شَاكَلَهُ وَاِنْ كَانَتِ الْمُشَاكَلَةُ قَدْ تَكُونُ فِي طَبَقَاتٍ فَاِنَّ النُّفُوسَ لَا تَجُودُ بِمَكْنُونِهَا وَلَا تَسْمَحُ بِمَخْزُونِهَا مَعَ الرَّهْبَةِ كَمَا تَجُودُ مَعَ الرَّغْبَةِ وَالْمَحَبَّةِ . وَيَنْبَغِي اَنْ تَعْرِفَ اَقْدَارَ الْمَعَانِي فَتُوَازِنَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اَوْزَانِ الْمُسْتَمِعِينَ وَبَيْنَ اَقْدَارِ الْحَالَاتِ فَتَجْعَلَ لِكُلِّ طَبَقَةٍ كَلَامًا وَلِكُلِّ حَالٍ مَقَامًا حَتَّى تَقْسِمَ اَقْدَارَ الْمَعَانِي عَلَى اَقْدَارِ الْمَقَامَاتِ وَاَقْدَارَ الْمُسْتَمِعِينَ عَلَى اَقْدَارِ الْحَالَاتِ . وَاعْلَمْ اَنَّ الْمَنْفَعَةَ مَعَ مُوَافَقَةِ الْحَالِ وَمَا يَجِبُ لِكُلِّ مَقَامٍ

مِنَ ٱلْمَقَالِ . فَإِنْ كُنتَ مُتَكَلِّمًا أَوِ ٱحْتَجْتَ إِلَى عَمَلِ خُطْبَةٍ لِبَعْضِ مَنْ تَصْلُحُ لَهُ ٱلْخُطَبُ أَوْ قَصِيدَةً لِبَعْضِ مَا يُرَادُ لَهُ ٱلْقَصْدُ فَتَخَطَّ أَلْفَاظَ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ مِثْلَ ٱلْجِسْمِ وَٱلْعَرَضِ وَٱلْكَوْنِ وَٱلتَّأْلِيفِ وَٱلْجَوْهَرِ فَإِنَّ ذٰلِكَ هُجْنَةٌ ...

البحث الرابع

في خواص الكلام الحرّ

(عن ابن المعتز والرمّاني)

قِيلَ إِنَّ أَحْسَنَ ٱلْكَلَامِ مَا كَانَ تَرْجُمَانًا لِلْقُلُوبِ وَصَيْقَلًا لِلْعُقُولِ وَمُجَلِّي لِلشُّبْهَةِ وَمُوجِبًا لِلْحُجَّةِ . وَٱلْحَاكِمَ عِنْدَ ٱخْتِصَاصِ ٱلظُّنُونِ وَٱلْمُفَرِّقَ بَيْنَ ٱلشَّكِّ وَٱلْيَقِينِ . يَنْقَادُ بِهِ ٱلْمُسْتَصْعَبُ وَيَسْتَقِيمُ لَهُ ٱلْأَصْيَدُ . وَخَيْرُ ٱلْبَيَانِ مَا كَانَ مُصَرِّحًا عَنِ ٱلْمَعْنَى لِيُسْرِعَ إِلَى ٱلْفَهْمِ تَلَقِّيهِ . وَمُوجَزًا لِيَخِفَّ عَلَى ٱللَّفْظِ تَعَاطِيهِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُبْلِغُ ٱلَّذِي لَا يُمَلُّ وَٱلْجَدِيدُ ٱلَّذِي لَا يَخْلَقُ . وَٱلْحَقُّ ٱلسَّاطِعُ . وَٱلْمَاحِي لِظُلَمِ ٱلضَّلَالِ . وَلِسَانُ ٱلصِّدْقِ ٱلنَّافِي لِلْكَذِبِ . إِنْ أَوْجَزَ كَانَ كَافِيًا وَإِنْ أَكْثَرَ كَانَ مُذَكِّرًا . وَإِنْ أَوْمَأَ كَانَ مُقْنِعًا . وَإِنْ أَطَالَ كَانَ مُفْهِمًا . وَإِنْ أَمَرَ فَنَاصِحًا . وَإِنْ حَكَمَ فَعَادِلًا . وَإِنْ أَخْبَرَ فَصَادِقًا . وَإِنْ بَيَّنَ فَشَافِيًا . سَهْلٌ عَلَى ٱلْفَهْمِ . صَعْبٌ عَلَى ٱلْمُتَعَاطِي . قَرِيبُ ٱلْمَأْخَذِ بَعِيدُ ٱلْمَرَامِ . سِرَاجٌ تَسْتَضِيءُ بِهِ ٱلْقُلُوبُ حُلْوٌ إِذَا تَذَوَّقَتْهُ ٱلْعُقُولُ . وَقَدْ قِيلَ : أَبْلَغُ ٱلْكَلَامِ مَا حَطَّ ٱلتَّكَلُّفَ عَنْهُ وَبُنِيَ عَلَى ٱلتَّبْيِينِ وَكَانَتِ ٱلْفَائِدَةُ أَغْلَبَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْقَافِيَةِ بِأَنْ جَمَعَ مَعَ ذٰلِكَ سُهُولَةَ ٱلْمَخْرَجِ

مَعَ قُرْبِ ٱلْمُتَنَاوَلِ . وَعُذُوبَةَ ٱللَّفْظِ مَعَ رَشَاقَةِ ٱلْمَعْنَى . وَانْ يَكُ
حُسْنُ ٱلِٱبْتِدَاءِ كَحُسْنِ ٱلِٱنْتِهَاءِ . وَحُسْنُ ٱلْوَصْلِ كَحُسْنِ ٱلْقَطْعِ
ٱلْمَعْنَى وَٱلسَّمْعِ . وَكَانَتْ كُلُّ كَلِمَةٍ قَدْ وَقَعَتْ فِي حَقِّهَا وَالَى جَنْ
أُخْتِهَا حَتَّى لَا يُقَالَ : لَوْ كَانَ كَذَا فِي مَوْضِعِ كَذَا لَكَانَ اوْلَى .
لَا يَكُونَ فِيهِ لَفْظٌ مُخْتَلِفٌ وَلَا مَعْنًى مُسْتَكْرَهٌ . ثُمَّ أُلْبِسَ بَهَاءَ ٱلْحِـ
وَنُورَ ٱلْمَعْرِفَةِ وَشَرَفَ ٱلْمَعْنَى وَجَزَالَةَ ٱللَّفْظِ وَكَانَتْ حَلَاوَتُهُ فِي ٱلصَّ
وَجَلَالَتُهُ فِي ٱلنَّفْسِ تَفْتُقُ ٱلْفَهْمَ وَتَنْثُرُ دَقَائِقَ ٱلْحِكَمِ وَكَانَ ظَا
ٱلنَّفْعِ شَرِيفَ ٱلْقَصْدِ مُعْتَدِلَ ٱلْوَزْنِ جَمِيلَ ٱلْمَذْهَبِ كَرِيمَ ٱلْمَطْلَبِ
فَصِيحًا فِي مَعْنَاهُ بَيِّنًا فِي فَحْوَاهُ . . . وَجَاءَ ايْضًا فِي كُتُبِ ٱلْادَبِ
انَّ لَحْظَةَ ٱلْقَلْبِ اسْرَعُ خَطْرَةً مِنْ لَحْظَةِ ٱلْعَيْنِ وَابْعَدُ مَجَالًا وَ
ٱلْغَائِصَةُ فِي اعْمَاقِ اوْدِيَةِ ٱلْفِكْرِ وَٱلْمُتَأَمِّلَةُ لِوُجُوهِ ٱلْعَوَاقِبِ . وَٱلْجَا
بَيْنَ مَا غَابَ وَحَضَرَ . وَٱلْمِيزَانُ ٱلشَّاهِدُ عَلَى مَا نَفَعَ وَضَرَّ . وَٱلْقَلْ
كَٱلْمُمْلِي لِلْكَلَامِ عَلَى ٱللِّسَانِ اذَا نَطَقَ وَٱلْيَدِ اذَا كَتَبَتْ . وَٱلْعَا
يَكْسُو ٱلْمَعَانِي وَشْيَ ٱلْكَلَامِ فِي قَلْبِهِ ثُمَّ يُبْدِيهَا بِٱلْفَاظٍ كَيِّسَةٍ بِاحْـ
زِينَةٍ . وَٱلْجَاهِلُ يَسْتَعْجِلُ بِاظْهَارِ ٱلْمَعَانِي قَبْلَ ٱلْعِنَايَةِ بِتَزْيِينِ مَعَارِضِ
وَٱسْتِكْمَالِ مَحَاسِنِهَا . قِيلَ لِبَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ : بِمَ فُقْتَ اهْلَ عَصْرِ
فِي حُسْنِ مَعَانِي ٱلشِّعْرِ وَتَهْذِيبِ ٱلْفَاظِهِ . فَقَالَ : لِانِّي لَمْ اقْبَلْ
مَا تُورِدُهُ عَلَيَّ قَرِيحَتِي وَيُنَاجِينِي بِهِ طَبْعِي وَيَبْعَثُهُ فِكْرِي . وَنَظَرْ
الَى مَغَارِسِ ٱلْفِطَنِ وَمَعَادِنِ ٱلْحَقَائِقِ وَلَطَائِفِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ فَسِرْ
الَيْهَا بِفَهْمٍ جَيِّدٍ وَغَرِيزَةٍ قَوِيَّةٍ فَاحْكَمْتُ سَبْرَهَا وَٱنْتَقَيْتُ حُرَ

وَكَشَفْتُ عَنْ حَقَائِقِهَا وَٱحْتَرَزْتُ عَنْ مُتَكَلَّفِهَا . وَمَا مَلَكَ قَطُّ قِيَادِي ٱلْإِعْجَابُ بِشَيْءٍ مِمَّا آتِي بِهِ . قَالَ ٱلْجَاحِظُ : إِنَّ ٱلْمَعْنَى إِذَا كَانَ شَرِيفًا وَكَانَ ٱللَّفْظُ بَلِيغًا وَكَانَ صَحِيحَ ٱلطَّبْعِ بَعِيدًا مِنَ ٱلْاِسْتِكْرَاهِ مُنَزَّهًا عَنِ ٱلْاِخْتِلَالِ مَصُونًا عَنِ ٱلتَّكَلُّفِ صَنَعَ فِي ٱلْقَلْبِ صَنِيعَ ٱلْغَيْثِ فِي ٱلتُّرْبَةِ ٱلْكَرِيمَةِ . وَمَتَى فُصِّلَتِ ٱلْكَلِمَةُ عَلَى هٰذِهِ ٱلشَّرِيطَةِ وَنَفَذَتْ مِنْ قَائِلِهَا عَلَى هٰذِهِ ٱلصِّفَةِ كَسَاهَا ٱللّٰهُ مِنَ ٱلتَّوْفِيقِ وَمَنَحَهَا مِنَ ٱلتَّأْيِيدِ مَا لَا يَمْتَنِعُ مِنْ تَعْظِيمِهَا بِهِ صُدُورُ ٱلْجَبَابِرَةِ وَلَا يَذْهَلُ عَنْ فَهْمِهَا مَعَهُ عُقُولُ ٱلْجَهَلَةِ

البحث الخامس

في تهذيب الكلام وتنقيحه

(عن خزانة الادب للحموي وزهر الآداب للحصري)

وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ تَرْدَادِ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْكَلَامِ بَعْدَ عَمَلِهِ وَٱلشُّرُوعِ فِي تَهْذِيبِهِ وَتَنْقِيحِهِ نَظْمًا كَانَ أَوْ نَثْرًا وَتَغْيِيرِ مَا يَجِبُ تَغْيِيرُهُ وَحَذْفِ مَا يَنْبَغِي حَذْفُهُ وَإِصْلَاحِ مَا يَتَعَيَّنُ إِصْلَاحُهُ وَكَشْفِ مَا يُشْكِلُ عَنْ غَرِيبِهِ وَإِعْرَابِهِ . وَتَحْرِيرِ مَا يَدِقُّ مِنْ مَعَانِيهِ . وَٱطِّرَاحِ مَا يَتَجَافَى عَنْ مَضَاجِعِ ٱلرِّقَّةِ مِنْ غَلِيظِ أَلْفَاظِهِ لِتُشْرِقَ شُمُوسُ ٱلتَّهْذِيبِ فِي سَمَاءِ بَلَاغَتِهِ وَتَرْشُفَ ٱلْأَسْمَاعُ عَلَى ٱلطَّرَبِ رَقِيقَ سُلَافَتِهِ . فَإِنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَانَ مَوْصُوفًا بِٱلْمُهَذَّبِ مَنْعُوتًا بِٱلْمُنَقَّحِ عَلَتْ رُتْبَتُهُ . وَإِنْ كَانَتْ مَعَانِيهِ غَيْرَ مُبْتَكَرَةٍ . وَكُلُّ كَلَامٍ قِيلَ فِيهِ : لَوْ كَانَ مَوْضِعَ هٰذِهِ

ٱلْكَلِمَةِ غَيْرُهَا . وَلَوْ تَقَدَّمَ هٰذَا ٱلْمُتَأَخِّرُ وَتَأَخَّرَ هٰذَا ٱلْمُتَقَدِّمُ . أَوْ لَوْ تُمِّمَ هٰذَا ٱلنَّقْصُ بِكَذَا . أَوْ لَوْ تَكَمَّلَ هٰذَا ٱلْوَصْفُ بِكَذَا . أَوْ لَوْ حُذِفَتْ هٰذِهِ ٱللَّفْظَةُ . أَوْ لَوِ ٱتَّضَحَ هٰذَا ٱلْمَقْصَدُ وَسَهُلَ هٰذَا ٱلْمَطْلَبُ لَكَانَ ٱلْكَلَامُ أَحْسَنَ وَٱلْمَعْنَى أَبْيَنَ . كَانَ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامُ غَيْرَ مُنْتَظِمٍ فِي سِلْكِ نَوْعِ ٱلتَّهْذِيبِ وَٱلتَّأْدِيبِ . وَكَانَ زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلْمَى مَعْرُوفًا بِٱلتَّنْقِيحِ وَٱلتَّهْذِيبِ . وَلَهُ قَصَائِدُ تُعْرَفُ بِٱلْحَوْلِيَّاتِ . قِيلَ : إِنَّهُ كَانَ يَنْظِمُ ٱلْقَصِيدَةَ فِي أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَيُهَذِّبُهَا وَيُنَقِّحُهَا فِي أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَيَعْرِضُهَا عَلَى عُلَمَاءِ قَبِيلَتِهِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ . وَيُرْوَى : أَنَّهُ كَانَ يَعْمَلُ ٱلْقَصِيدَةَ فِي شَهْرٍ وَيُنَقِّحُهَا وَيُهَذِّبُهَا فِي أَحَدَ عَشَرَ شَهْرًا وَلَا جَرَمَ أَنَّهُ قَلَّمَا يَسْقُطُ مِنْهُ شَيْءٌ . وَلِهٰذَا كَانَ ٱلْإِمَامُ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ مَعَ جَلَالَتِهِ فِي ٱلْعِلْمِ وَتَقَدُّمِهِ فِي ٱلنَّقْدِ يُقَدِّمُهُ عَلَى سَائِرِ ٱلْفُحُولِ مِنْ طَبَقَتِهِ . وَمَا أَحْسَنَ مَا أَشَارَ أَبُو ٱلتَّمَّامِ إِلَى ٱلتَّهْذِيبِ بِقَوْلِهِ :

خُذْهَا ٱبْنَةَ ٱلْفِكْرِ ٱلْمُهَذَّبِ فِي ٱلدُّجَى ... وَٱللَّيْلُ أَسْوَدُ رُقْعَةِ ٱلْجِلْبَابِ

فَإِنَّهُ خَصَّ تَهْذِيبَ ٱلْفِكْرِ بِٱلدُّجَى لِكَوْنِ ٱللَّيْلِ تَهْدَأُ فِيهِ ٱلْأَصْوَاتُ وَتَسْكُنُ ٱلْحَرَكَاتُ فَيَكُونُ ٱلْفِكْرُ فِيهِ مُجْتَمِعًا وَمِرْآةُ ٱلتَّهْذِيبِ فِيهِ صَقِيلَةً لِخُلُوِّ ٱلْخَاطِرِ وَصَفَاءِ ٱلْقَرِيحَةِ . لَا سِيَّمَا وَسَطَ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّفْسُ قَدْ أَخَذَتْ حَظَّهَا مِنَ ٱلرَّاحَةِ بَعْدَ نَيْلِ قِسْطِهَا مِنَ ٱلنَّوْمِ وَخَفَّ عَلَيْهَا ثِقَلُ ٱلْغِذَاءِ وَصَحَّ ذِهْنُهَا وَصَارَ صَدْرُهَا مُنْشَرِحًا وَقَلْبُهَا بِٱلتَّأْلِيفِ مُنْبَسِطًا . وَمَا قَدَّمُوا وَسَطَ ٱللَّيْلِ فِي ٱلتَّأْلِيفِ عَلَى ٱلسَّحَرِ مَعَ مَا فِيهِ مِنِ ٱنْتِبَاهِ أَكْثَرِ ٱلْحَيَوَانِ ٱلنَّاطِقِ وَٱرْتِفَاعِ ٱلْأَصْوَاتِ وَجَرْشِ ٱلْحَرَكَاتِ وَتَقَشُّعِ

ٱلظَّمَاءِ بِطَلَائِعِ ٱلْأَنْوَاءِ . وَبِدُونِ ذٰلِكَ يَنْقَسِمُ ٱلْفِكْرُ وَيَشْتَغِلُ ٱلْقَلْبُ وَوَسَطُ ٱللَّيْلِ خَالٍ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ . وَلِهٰذَا خَصَّ أَبُو تَمَّامٍ تَهْذِيبَ ٱلْفِكْرِ بِٱلدُّجَى عَادِلًا عَنِ ٱلطَّرَفَيْنِ لِمَا فِيهِمَا مِنَ ٱلشَّوَاغِلِ ٱلْمَذْكُورَةِ. وَحَكَتِ ٱلثِّقَاتُ عَنْ أَبِي عِبَادَةَ ٱلْبُحْتُرِيِّ قَالَ: كُنْتُ فِي حَدَاثَتِي أَرُومُ ٱلشِّعْرَ وَكُنْتُ أَرْجِعُ فِيهِ إِلَى طَبْعٍ سَلِيمٍ وَلَمْ أَكُنْ وَقَفْتُ لَهُ عَلَى تَسْهِيلِ مَأْخَذٍ وَوُجُوهِ ٱقْتِضَابٍ حَتَّى قَصَدْتُ أَبَا تَمَّامٍ وَٱنْقَطَعْتُ إِلَيْهِ وَٱتَّكَلْتُ فِي تَعْرِيفِهِ عَلَيْهِ فَكَانَ أَوَّلُ مَا قَالَ لِي : يَا أَبَا عِبَادَةَ تَخَيَّرِ ٱلْأَوْقَاتَ وَأَنْتَ قَلِيلُ ٱلْهُمُومِ صِفْرٌ مِنَ ٱلْغُمُومِ . وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْعَادَةَ فِي ٱلْأَوْقَاتِ إِذَا قَصَدَ ٱلْإِنْسَانُ تَأْلِيفَ شَيْءٍ أَوْ حِفْظَهُ أَنْ يَخْتَارَ وَقْتَ ٱلسَّحَرِ . وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلنَّفْسَ تَكُونُ قَدْ أَخَذَتْ حَظَّهَا مِنَ ٱلرَّاحَةِ وَقِسْطَهَا مِنَ ٱلنَّوْمِ وَخَفَّ عَنْهَا ثِقَلُ ٱلْغِذَاءِ . وَصَفَا مِنْ أَكْثَرِ ٱلْأَبْخِرَةِ وَٱلْأَدْخِنَةِ جِسْمُ ٱلْهَوَاءِ . وَسَكَنَتِ ٱلْغَمَائِمُ . وَرَقَّتِ ٱلنَّسَائِمُ . وَتَغَنَّتِ ٱلْحَمَائِمُ. وَإِذَا شَرَعْتَ فِي ٱلتَّأْلِيفِ تَغَنَّ بِٱلشِّعْرِ فَإِنَّ ٱلْغِنَاءَ مِضْمَارُهُ ٱلَّذِي يَجْرِي فِيهِ . وَٱجْتَهِدْ فِي إِيضَاحِ مَعَانِيهِ . فَإِنْ أَرَدْتَ ذِكْرَ ٱلْأَحْبَابِ فَٱجْعَلِ ٱللَّفْظَ رَقِيقًا وَٱلْمَعْنَى رَشِيقًا وَأَكْثِرْ فِيهِ مِنْ بَيَانِ ٱلْكَآبَةِ . وَقَلَقِ ٱلْأَشْوَاقِ . وَلَوْعَةِ ٱلْفِرَاقِ وَٱلتَّعَلُّلِ بِٱسْتِنْشَاقِ ٱلنَّسَائِمِ . وَغِنَاءِ ٱلْحَمَائِمِ . وَٱلْبُرُوقِ ٱللَّامِعَةِ . وَٱلنُّجُومِ ٱلطَّالِعَةِ . وَٱلتَّبَرُّمِ مِنَ ٱلْعُذَّالِ . وَٱلْوُقُوفِ عَلَى ٱلْأَطْلَالِ . وَإِذَا أَخَذْتَ فِي مَدْحِ سَيِّدٍ فَأَشْهِرْ مَنَاقِبَهُ وَأَظْهِرْ مَنَاسِبَهُ وَأَرْهِبْ مِنْ عَزَائِمِهِ وَأَرْغِبْ فِي مَكَارِمِهِ . وَٱحْذَرِ ٱلْمَجْهُولَ مِنَ ٱلْمَعَانِي وَإِيَّاكَ أَنْ تَشِينَ شِعْرَكَ بِٱلْعِبَارَةِ وَٱلْأَلْفَاظِ

ٱلْوَحْشِيَّةِ وَتَاسِبْ بَيْنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِي فِي تَأْلِيفِ ٱلْكَلَامِ وَكُنْ كَأَنَّكَ خَيَّاطٌ تُقَدِّرُ ٱلثِّيَابَ عَلَى مَقَادِيرِ ٱلْأَجْسَامِ . وَإِذَا عَارَضَكَ ٱلضَّجَرُ فَأَرِحْ نَفْسَكَ وَلَا تَعْمَلْ إِلَّا وَأَنْتَ فَارِغُ ٱلْقَلْبِ وَلَا تَنْظِمْ إِلَّا بِشَهْوَةٍ فَإِنَّ ٱلشَّهْوَةَ نِعْمَ ٱلْمُعِينُ عَلَى حُسْنِ ٱلنَّظْمِ . وَجُمْلَةُ ٱلْحَالِ أَنْ تَعْتَبِرَ شِعْرَكَ بِمَا سَلَفَ مِنْ أَشْعَارِ ٱلْمَاضِينَ فَمَا ٱسْتَحْسَنَ ٱلْعُلَمَاءُ فَٱقْصِدْهُ وَمَا ٱسْتَقْبَحُوهُ فَٱجْتَنِبْهُ

وَأَوْرَدَ ٱلْعَلَّامَةُ زَكِيُّ ٱلدِّينِ بْنُ أَبِي ٱلْإِصْبَعِ فِي كِتَابِهِ ٱلْمُسَمَّى بِتَحْرِيرِ ٱلتَّحْبِيرِ وَصِيَّةً لِنَفْسِهِ أَوْرَدَهَا أَيْضًا عَلَى نَوْعِ ٱلتَّهْذِيبِ وَٱلتَّأْدِيبِ فَٱخْتَرْتُ مِنْهَا مَا هُوَ ٱللَّائِقُ بِٱلْحَالِ وَأَوَّلُهَا : يَنْبَغِي لَكَ أَيُّهَا ٱلرَّاغِبُ فِي ٱلْعَمَلِ ٱلسَّائِلُ عَنْ أَوْضَحِ ٱلسُّبُلِ أَنْ تُحَصِّلَ ٱلْمَعْنَى قَبْلَ ٱلشُّرُوعِ فِي ٱلنَّظْمِ وَٱلْقَوَافِيَ قَبْلَ ٱلْأَبْيَاتِ (قُلْتُ وَهٰذَا مَذْهَبُنَا) . ثُمَّ قَالَ أَيْضًا : وَلَا تُكْرِهِ ٱلْخَاطِرَ عَلَى وَزْنٍ مَخْصُوصٍ وَرَوِيٍّ مَقْصُود وَتَوَخَّ ٱلْكَلَامَ ٱلْجَزْلَ دُونَ ٱلرَّذْلِ وَٱلسَّهْلَ دُونَ ٱلصَّعْبِ وَٱلْعَذْبَ دُونَ ٱلْمُسْتَكْرَهِ وَٱلْمُسْتَحْسَنَ دُونَ ٱلْمُسْتَهْجَنِ . وَلَا تَعْمَلْ نَظْمًا وَلَا نَثْرًا عِنْدَ ٱلْمَلَلِ فَإِنَّ ٱلْكَثِيرَ مَعَهُ قَلِيلٌ وَٱلنَّفِيسَ مَعَهُ خَسِيسٌ . وَٱلْخَوَاطِرُ يَنَابِيعُ إِذَا رُفِقَ بِهَا جَمَّتْ وَإِذَا كَثُرَ ٱسْتِعْمَالُهَا نَزَحَتْ . وَٱكْتُبْ كُلَّ مَعْنًى يَسْنَحُ وَقَيِّدْ كُلَّ فَائِدَةٍ تَعْرِضُ فَإِنَّ نَتَائِجَ ٱلْأَفْكَارِ كَلَمْعَةِ ٱلْبَرْقِ وَلَمْحَةِ ٱلطَّرْفِ إِنْ لَمْ تُقَيِّدْهَا شَرَدَتْ وَنَدَّتْ وَإِنْ لَمْ تَسْتَعْطِفْ بِٱلتَّكْرَارِ عَلَيْهَا صَدَّتْ وَٱلتَّرَنُّمُ بِٱلشِّعْرِ مِمَّا يُعِينُ عَلَيْهِ . فَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

تَغَنَّ بِٱلشِّعْرِ إِمَّا كُنْتَ قَائِلَهُ ... إِنَّ ٱلْغِنَاءَ لِقَوْلِ ٱلشِّعْرِ مِضْمَارُ

البحث السادس

في شروط الكلام

(عن ادب الدنيا والدين للماوَردي)

اِعلَمْ اَنَّ لِلْكَلَامِ شُرُوطاً لَا يَسْلَمُ ٱلْمُتَكَلِّمُ مِنَ ٱلزَّلَلِ اِلَّا بِهَا وَلَا يَعرَى مِنَ ٱلنَّقْصِ اِلَّا بَعْدَ اَنْ يَسْتَوْفِيَهَا وَهِيَ اَرْبَعَةٌ : (فَٱلشَّرْطُ ٱلْاَوَّلُ) اَنْ يَكُونَ ٱلْكَلَامُ لِداعٍ يَدْعُو اِلَيْهِ اِمَّا فِي اَجْتِلَابِ نَفعٍ اَوْ فِي دَفعِ ضَرَرٍ.(وَٱلشَّرْطُ ٱلثَّانِي) اَنْ يَأْتِيَ بِهِ فِي مَوْضِعِهِ وَيَتَوَخَّى بِهِ اِصَابَةَ فُرْصَتِهِ .(وَٱلشَّرْطُ ٱلثَّالِثُ) اَن يَقْتَصِرَ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ حَاجَتِهِ . (وَٱلشَّرْطُ ٱلرَّابِعُ) اَنْ يَتَخَيَّرَ ٱللَّفظَ ٱلَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ.فَهٰذِهِ اَرْبَعَةُ شُرُوطٍ مَتَى اَخَلَّ ٱلْمُتَكَلِّمُ بِشَرْطٍ مِنهَا فَقَدْ اَوهَنَ فَضِيلَةَ بَاقِيهَا .وَسَنَذْكُرُ تَعْلِيلَ كُلِّ شَرْطٍ مِنهَا بِمَا يُنبِئُ عَنْ لُزُومِهِ.فَاَمَّا ٱلشَّرْطُ ٱلْاَوَّلُ وَهُوَ ٱلدَّاعِي اِلَى ٱلْكَلَامِ فَلِاَنَّ مَا لَا دَاعِيَ لَهُ هَذَيَانٌ وَمَا لَا سَبَبَ لَهُ هُجرٌ وَمَنْ سَامَحَ نَفْسَهُ فِي ٱلْكَلَامِ اِذَا عَنَّ وَلَمْ يُرَاعِ صِحَّةَ دَوَاعِيهِ وَاِصَابَةَ مَعَانِيهِ كَانَ قَوْلُهُ مَرْذُولًا وَرَأْيُهُ مَعْلُولًا. كَٱلَّذِي حَكَى ٱبْنُ عَائِشَةَ : اِنَّ شَابًّا كَانَ يُجَالِسُ ٱلْاَحْنَفَ وَيُطِيلُ ٱلصَّمْتَ فَاَعْجَبَ ذٰلِكَ ٱلْاَحْنَفَ فَخَلَتِ ٱلْحَلْقَةُ يَوْمًا فَقَالَ لَهُ ٱلْاَحْنَفُ : تَكَلَّمْ يَا ٱبْنَ اَخِي . فَقَالَ : يَا عَمُّ لَوْ اَنَّ رَجُلًا سَقَطَ مِنْ شَرَفِ هٰذَا ٱلْمَسْجِدِ هَلْ كَانَ يَضُرُّهُ شَيْءٌ . فَقَالَ : يَا ٱبْنَ اَخِي لَيْتَنَا تَرَكْنَاكَ مَسْتُورًا . ثُمَّ تَمَثَّلَ ٱلْاَحْنَفُ بِقَوْلِ ٱلْاَعْوَرِ ٱلشَّنِّيِّ :

كَاَيِنْ تَرَى مِنْ صَاحِبٍ لَكَ مُعْجِبٍ   زِيَادَتُهُ اَوْ نَقْصُهُ فِي ٱلتَّكَلُّمِ
لِسَانُ ٱلْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ   فَلَمْ يَبْقَ اِلَّا صُورَةُ ٱللَّحْمِ وَٱلدَّمِ

وَكَالَّذِي حُكِيَ عَنْ اَبِي ٱلْفَقِيهِ : اِنَّ رَجُلًا كَانَ يَجْلِسُ اِلَيْهِ فَيُطِيلُ ٱلصَّمْتَ فَقَالَ لَهُ اَبُو يُوسُفَ : اَلَا تَسْاَلُ . قَالَ : بَلَى مَتَى يُفْطِرُ ٱلصَّائِمُ . قَالَ : اِذَا غَرَبَتِ ٱلشَّمْسُ . قَالَ : فَاِنْ لَمْ تَغْرُبْ اِلَى نِصْفِ ٱللَّيْلِ . (قَالَ) فَتَبَسَّمَ اَبُو يُوسُفَ وَتَمَثَّلَ بِبَيْتَيِ ٱلْخَطَفِيِّ جَدِّ جَرِيرٍ :

عَجِبْتُ لِاِزْرَاءِ ٱلْعَيِيِّ بِنَفْسِهِ   وَصَمْتِ ٱلَّذِي قَدْ كَانَ بِٱلْعِلْمِ اَعْلَمَا
وَفِي ٱلصَّمْتِ سِتْرٌ لِلْغَبِيِّ وَاِنَّمَا   صَحِيفَةُ لُبِّ ٱلْمَرْءِ اَنْ يَتَكَلَّمَا

فَٱنْظُرْ اِلَى هٰؤُلَاءِ كَيْفَ اَبَانُوا بِٱلْكَلَامِ عَنْ جَهْلِهِمْ وَاَعْرَبُوا بِٱلسُّؤَالِ عَنْ نَقْصِهِمْ اِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ دَاعٍ اِلَيْهِ وَلَا رَوِيَّةٌ فِيمَا تَكَلَّمُوا بِهِ وَلَوْ صَدَرَ عَنْ رَوِيَّةٍ دَعَا اِلَيْهَا دَاعٍ لَسَلِمُوا مِنْ شَيْنِهِ وَبَرِئُوا مِنْ عَيْبِهِ . وَلِذٰلِكَ قِيلَ : لِسَانُ ٱلْعَاقِلِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ فَاِذَا اَرَادَ ٱلْكَلَامَ رَجَعَ اِلَى قَلْبِهِ فَاِنْ كَانَ لَهُ تَكَلَّمَ وَاِنْ كَانَ عَلَيْهِ اَمْسَكَ . وَقَلْبُ ٱلْجَاهِلِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ يَتَكَلَّمُ بِكُلِّ مَا عَرَضَ لَهُ . وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ : مَنْ لَمْ يَعُدَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ كَثُرَتْ خَطَايَاهُ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : عَقْلُ ٱلْمَرْءِ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : اِحْبِسْ لِسَانَكَ قَبْلَ اَنْ يُطِيلَ حَبْسَكَ اَوْ يُتْلِفَ نَفْسَكَ فَلَا شَيْءَ اَوْلَى بِطُولِ حَبْسٍ مِنْ لِسَانٍ يُقْصِرُ عَنِ ٱلصَّوَابِ وَيُسْرِعُ اِلَى ٱلْجَوَابِ . وَقَالَ اَبُو تَمَّامٍ ٱلطَّائِيُّ :

وَبِمَا كَانَتِ ٱلْحُكَمَاءُ قَالَتْ   لِسَانُ ٱلْمَرْءِ مِنْ تَبَعِ ٱلْفُؤَادِ

وَكَانَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ يَحْسِمُ ٱلرُّخْصَةَ فِي ٱلْكَلَامِ وَيَقُولُ: إِذَا جَالَسْتَ ٱلْجُهَّالَ فَأَنْصِتْ لَهُمْ وَإِذَا جَالَسْتَ ٱلْعُلَمَاءَ فَأَنْصِتْ لَهُمْ. فَإِنَّ فِي إِنْصَاتِكَ لِلْجُهَّالِ زِيَادَةً فِي ٱلْحِلْمِ وَفِي إِنْصَاتِكَ لِلْعُلَمَاءِ زِيَادَةً فِي ٱلْعِلْمِ. وَأَمَّا (ٱلشَّرْطُ ٱلثَّانِي) فَهُوَ أَنْ يَأْتِيَ بِٱلْكَلَامِ فِي مَوْضِعِهِ لِأَنَّ ٱلْكَلَامَ فِي غَيْرِ حِينِهِ لَا يَقَعُ مَوْقِعَ ٱلِانْتِفَاعِ بِهِ وَمَا لَا يَنْفَعُ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَقَدْ تَقَدَّمَ ٱلْقَوْلُ بِأَنَّهُ هَذَيَانٌ وَهُجْرٌ. فَإِنْ قُدِّمَ مَا يَقْتَضِي ٱلتَّأْخِيرَ كَانَ عَجَلَةً وَخُرْقًا. وَإِنْ أُخِّرَ مَا يَقْتَضِي ٱلتَّقْدِيمَ كَانَ تَوَانِيًا وَعَجْزًا لِأَنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ قَوْلًا وَفِي كُلِّ زَمَانٍ عَمَلًا. وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

يَضَعُ ٱلْحَدِيثَ عَلَى مَوَاضِعِهِ   وَكَلَامُهُ مِنْ بَعْدِهَا نَزْرُ

وَأَمَّا (ٱلشَّرْطُ ٱلثَّالِثُ) وَهُوَ أَنْ يَقْتَصِرَ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ حَاجَتِهِ. فَإِنَّ ٱلْكَلَامَ إِنْ لَمْ يَنْحَصِرْ بِٱلْحَاجَةِ وَلَمْ يُقَدَّرْ بِٱلْكِفَايَةِ لَمْ يَكُنْ لِحَدِّهِ غَايَةٌ وَلَا لِقَدْرِهِ نِهَايَةٌ وَمَا لَمْ يَكُنْ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَحْصُورًا كَانَ حَصَرًا وَإِنْ قَصُرَ وَهَذَرًا وَإِنْ كَثُرَ. وَرُوِيَ: أَنَّ أَعْرَابِيًّا تَكَلَّمَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ وَطَوَّلَ فَقَالَ لَهُ: كَمْ دُونَ لِسَانِكَ مِنْ حِجَابٍ. قَالَ: شَفَتَايَ وَلِسَانِي. قَالَ: فَإِنَّ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَكْرَهُ ٱلِانْبِعَاقَ فِي ٱلْكَلَامِ فَنَضَّرَ ٱللهُ وَجْهَ ٱمْرِئٍ أَوْجَزَ فِي كَلَامِهِ فَٱقْتَصَرَ عَلَى حَاجَتِهِ. وَحُكِيَ أَنَّ بَعْضَ ٱلْحُكَمَاءِ رَأَى رَجُلًا يُكْثِرُ ٱلْكَلَامَ وَيُقِلُّ ٱلسُّكُوتَ فَقَالَ: إِنَّ ٱللهَ تَعَالَى إِنَّمَا خَلَقَ لَكَ أُذُنَيْنِ وَلِسَانًا وَاحِدًا لِيَكُونَ مَا تَسْمَعُهُ ضِعْفَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ

كَثُرَتْ آثَامُهُ . وَقَالَ ٱبْنُ مَسْعُودٍ : أُنذِرُكُمْ فُضُولَ ٱلْمَنطِقِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : كَلَامُ ٱلْمَرْءِ بَيَانُ فَضْلِهِ وَتَرْجُمَانُ عَقْلِهِ فَٱقْصِرْهُ عَلَى ٱلْجَمِيلِ وَٱقْتَصِرْ مِنْهُ عَلَى ٱلْقَلِيلِ وَإِيَّاكَ مَا يُسْخِطُ سُلْطَانَكَ وَيُوحِشُ إِخْوَانَكَ . فَمَنْ أَسْخَطَ سُلْطَانَهُ تَعَرَّضَ لِلْمَنِيَّةِ . وَمَنْ أَوْحَشَ إِخْوَانَهُ تَبَرَّأَ مِنَ ٱلْحُرِّيَّةِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

وَزِنِ ٱلْكَلَامَ إِذَا نَطَقْتَ فَإِنَّمَا ... يُبْدِي عُيُوبَ ذَوِي ٱلْعُيُوبِ ٱلْمَنطِقُ

وَلِمُخَالَفَةِ قَدْرِ ٱلْحَاجَةِ مِنَ ٱلْكَلَامِ حَالَتَانِ : تَقْصِيرٌ يَكُونُ حَصَرًا وَتَكْثِيرٌ يَكُونُ هَذَرًا . وَكِلَاهُمَا شَيْنٌ وَشَيْنُ ٱلْهَذَرِ أَشْنَعُ وَرُبَّمَا كَانَ فِي ٱلْغَالِبِ أَخْوَفَ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : مَقْتَلُ ٱلرَّجُلِ بَيْنَ فَكَّيْهِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : ٱلْحَصَرُ خَيْرٌ مِنَ ٱلْهَذَرِ لِأَنَّ ٱلْحَصَرَ يُضْعِفُ ٱلْحُجَّةَ وَٱلْهَذَرَ يُتْلِفُ ٱلْمُهْجَةَ . وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

رَأَيْتُ ٱللِّسَانَ عَلَى أَهْلِهِ ... إِذَا سَاسَهُ ٱلْجَهْلُ لَيْثًا مُغِيرَا

وَقَالَ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ : يَا رُبَّ أَلْسِنَةٍ كَٱلسُّيُوفِ تَقْطَعُ أَعْنَاقَ أَصْحَابِهَا وَمَا يَنْقُصُ مِنْ هَيْئَاتِ ٱلرِّجَالِ يَزِيدُ فِي بَهَائِهَا وَأَلْبَابِهَا . وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَثُرَ عَنْ قَدْرِ ٱلْحَاجَةِ وَزَادَ عَلَى ٱلْكِفَايَةِ وَكَانَ صَوَابًا لَا يَشُوبُهُ خَطَلٌ وَسَلِيمًا لَا يَتَعَوَّدُهُ زَلَلٌ فَهُوَ ٱلْبَيَانُ وَٱلسِّحْرُ ٱلْحَلَالُ . وَقَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ وَقَدْ ذُمَّ ٱلْكَلَامُ فِي مَجْلِسِهِ : كَلَّا إِنَّ مَنْ تَكَلَّمَ فَأَحْسَنَ قَدَرَ عَلَى أَنْ يَسْكُتَ فَيُحْسِنَ وَلَيْسَ مَنْ سَكَتَ فَأَحْسَنَ قَدَرَ عَلَى أَنْ يَتَكَلَّمَ فَيُحْسِنَ . وَوَصَفَ بَعْضُهُمُ ٱلْكَاتِبَ فَقَالَ : مَنْ إِذَا أَخَذَ شِبْرًا كَفَاهُ وَإِذَا وَجَدَ طُومَارًا

أملاه . وأنشد بعضهم في خطباء إياد :

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحي الملاحظ خيفة الرقباء

وقال الهيثم بن صالح لابنه : يا بني إذا أقللت من الكلام أكثرت من الصواب . فقال : يا أبت فإن أنا أكثرت وأكثرت (يعني كلاما وصوابا) . فقال : يا بني ما رأيت موعوظا أحق بأن يكون واعظا منك . وأنشدت لأبي الفتح البستي :

تكلم وسدد ما استطعت فإنما كلامك حي والسكوت جماد
فإن لم تجد قولا سديدا تقوله فصمتك عن غير السداد سداد

وقيل لإياس بن معاوية : ما فيك عيب إلا كثرة الكلام . فقال : أفتسمعون صوابا أو خطأ . قالوا : لا بل صوابا . قال : فالزيادة من الخير خير . وقال أبو عثمان الجاحظ : للكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية وما فضل عن مقدار الاحتمال ودعا إلى الاستثقال والملال فذلك الفاضل هو الهذر . وصدق أبو عثمان لأن الإكثار منه وإن كان صوابا يمل السامع ويكل الخاطر وهو صادر عن إعجاب به لولاه قصرعنه . ومن أعجب بكلامه استرسل فيه والمسترسل في الكلام كثير الزلل دائم العثار . وقال بعض الحكماء : من أعجب بقوله أصيب بعقله وليس لكثرة الهذر رجاء يقابل خوفه ولا نفع يوازي ضره لأنه يخاف من نفسه الزلل ومن سامعيه الملل وليس في مقابلة هذين حاجة داعية ولا نفع مرجو . قال جعفر بن يحيى : إذا كان الإيجاز كافيا كان الإكثار عيا وإن

كَانَ ٱلْإِكْثَارُ وَاجِبًا كَانَ ٱلتَّقْصِيرُ عَجْزًا.وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ ٱلْحِكَمِ : إِذَا تَمَّ ٱلْعَقْلُ نَقَصَ ٱلْكَلَامُ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ : مَنْ أَطَالَ صَمْتَهُ ٱجْتَلَبَ مِنَ ٱلْهَيْبَةِ مَا يَنْفَعُهُ وَمِنَ ٱلْوَحْشَةِ مَا لَا يَضُرُّهُ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : عِيٌّ تَسْلَمُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنْ مَنْطِقٍ تَنْدَمُ عَلَيْهِ فَٱقْتَصِرْ مِنَ ٱلْكَلَامِ عَلَى مَا يُقِيمُ حُجَّتَكَ وَيُبْلِغُ حَاجَتَكَ وَإِيَّاكَ وَفُضُولَهُ فَإِنَّهُ يُزِلُّ ٱلْقَدَمَ وَيُورِثُ ٱلنَّدَمَ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْفُصَحَاءِ : فَمُ ٱلْعَاقِلِ مُلْجَمٌ إِذَا هَمَّ بِٱلْكَلَامِ أَحْجَمَ وَفَمُ ٱلْجَاهِلِ مُطْلَقٌ كُلَّمَا شَاءَ أَطْلَقَ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

إِنَّ ٱلْكَلَامَ يُعِدُّ ٱلْقَوْمُ جِلْوَتَهُ حَتَّى يَلِجَّ بِهِ عِيٌّ وَإِكْثَارُ

وَأَمَّا (ٱلشَّرْطُ ٱلرَّابِعُ) وَهُوَ ٱخْتِيَارُ ٱللَّفْظِ ٱلَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ فَلِأَنَّ ٱللِّسَانَ عُنْوَانُ ٱلْإِنْسَانِ يُتَرْجِمُ عَنْ مَجْهُولِهِ وَيُبَرْهِنُ عَنْ مَحْصُولِهِ فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ بِتَهْذِيبِ أَلْفَاظِهِ حَرِيًّا وَتَقْوِيمِ لِسَانِهِ مَلِيًّا . وَقَالَ خَالِدُ ٱبْنُ صَفْوَانَ : مَا ٱلْإِنْسَانُ لَوْلَا ٱللِّسَانُ هَلْ إِلَّا بَهِيمَةٌ مُهْمَلَةٌ أَوْ صُورَةٌ مُمَثَّلَةٌ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : ٱللِّسَانُ وَزِيرُ ٱلْإِنْسَانِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : يُسْتَدَلُّ عَلَى عَقْلِ ٱلرَّجُلِ بِقَوْلِهِ وَعَلَى أَصْلِهِ بِفِعْلِهِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

وَإِنَّ لِسَانَ ٱلْمَرْءِ مَا لَمْ تَكُنْ لَهُ حَصَاةٌ عَلَى عَوْرَاتِهِ لَدَلِيلُ

وَلَيْسَ يَصِحُّ ٱخْتِيَارُ ٱلْكَلَامِ إِلَّا لِمَنْ أَخَذَ نَفْسَهُ بِٱلْبَلَاغَةِ وَكَلَّفَهَا لُزُومَ ٱلْفَصَاحَةِ حَتَّى يَصِيرَ مُتَدَرِّبًا بِهَا مُعْتَادًا لَهَا فَلَا يَأْتِيَ بِكَلَامٍ مُسْتَكْرَهِ ٱللَّفْظِ وَلَا مُخْتَلِّ ٱلْمَعْنَى لِأَنَّ ٱلْبَلَاغَةَ لَيْسَتْ عَلَى مَعَانٍ

مُفْرَدَةٍ وَلَا لِأَلْفَاظِهَا غَايَةٌ . وَإِنَّمَا ٱلْبَلَاغَةُ أَنْ تَكُونَ بِٱلْمَعَانِي ٱلصَّحِيحَةِ مُسْتَوْدَعَةً فِي أَلْفَاظٍ فَصِيحَةٍ فَتَكُونُ فَصَاحَةُ ٱلْأَلْفَاظِ مَعَ صِحَّةِ ٱلْمَعَانِي هِيَ ٱلْبَلَاغَةَ

البحث السابع

في عيوب الكلام

(عن الجاحظ والعسكري)

(راجع صفحة ٢٨ من علم الادب)

قَالَ بَعْضُ ٱلْأَوَائِلِ : لَا تَكْمُلُ آلَةُ ٱلْبَلِيغِ إِلَّا إِذَا خَلَا كَلَامُهُ مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ وَسُوءِ ٱلصَّنْعَةِ وَكَانَ غَنِيًّا عَنِ ٱلتَّأَمُّلِ مُتَبَاعِدًا عَنِ ٱلْحَشْوِ . فَقَوْلُهُ : (يَكُونُ سَلِيمًا مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ) فَٱلتَّكَلُّفُ طَلَبُ ٱلشَّيْءِ بِصُعُوبَةٍ لِلْجَهْلِ بِطَرَائِقِ طَلَبِهِ بِٱلسُّهُولَةِ . فَٱلْكَلَامُ إِذَا جُمِعَ بِتَعَبٍ وَجُهْدٍ وَتُنُوِوِلَتْ أَلْفَاظُهُ مِنْ بُعْدٍ فَهُوَ مُتَكَلَّفٌ . وَقَالُوا : لَيْسَ ٱلْفِقْهُ بِٱلتَّفَقُّهِ وَلَا ٱلْفَصَاحَةُ بِٱلتَّفَصُّحِ لِأَنَّهُ لَا يَزِيدُ مُتَزَيِّدٌ فِي كَلَامِهِ إِلَّا لِنَقْصٍ يَجِدُهُ فِي نَفْسِهِ . وَمِمَّا ٱتَّفَقَتْ عَلَيْهِ ٱلْعَرَبُ وَٱلْعَجَمُ قَوْلُهُمْ : ٱلطَّبْعُ أَمْلَكُ . قَالَ ٱلْعَرْجِيُّ :

يَا أَيُّهَا ٱلْمُتَحَلِّي غَيْرَ شِيمَتِهِ ... وَمَنْ شَمَائِلُهُ ٱلتَّبْدِيلُ وَٱلْمَلَقُ
ٱرْجِعْ إِلَى خُلْقِكَ ٱلْمَعْرُوفِ دَيْدَنُهُ ... إِنَّ ٱلتَّخَلُّقَ يَأْتِي دُونَهُ ٱلْخُلُقُ

وَقَالَ آخَرُ :

وَمَنْ يَبْتَدِعْ مَا لَيْسَ مِنْ سُوسِ نَفْسِهِ ... يَدَعْهُ وَيَغْلِبْهُ عَلَى ٱلنَّفْسِ خِيمُهَا

وَقَالَ آخَرُ :

كُلُّ امْرِئٍ رَاجِعٌ يَوْمًا لِشِيمَتِهِ وَإِنْ تَخَلَّقَ أَخْلَاقًا إِلَى حِينِ

وَمِثَالُ التَّكَلُّفِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ فِي دُعَائِهِ : اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَإِلَهَنَا مَنْ أَرَادَ بِنَا سُوءًا فَأَحِطْ ذَلِكَ السُّوءَ بِهِ وَأَرْسِخْهُ فِيهِ كَرُسُوخِ السِّجِّيلِ فِي أَصْحَابِ الْفِيلِ. وَانْصُرْنَا عَلَى كُلِّ بَاغٍ وَحَسُودٍ كَمَا انْتَصَرْتَ لِنَاقَةِ ثَمُودٍ. ثُمَّ قَالَ : (بَرِيئًا مِنْ سُوءِ الصَّنْعَةِ) فَسُوءُ الصَّنْعَةِ يَتَصَرَّفُ عَلَى وُجُوهٍ مِنْهَا : سُوءُ التَّقْسِيمِ وَفَسَادُ التَّفْسِيرِ وَقُبْحُ الِاسْتِعَارَةِ وَالتَّطْبِيقِ وَفَسَادُ النَّسْجِ وَالسَّبْكِ . فَإِذَا أَخَلَّ الْكَاتِبُ بِذَلِكَ فَاتَتْهُ فَضِيلَتُهُ وَعَلِقَتْ بِهِ رَذِيلَةُ فَوْتِهِ فَعَفَّى عَلَى جَمِيعِ مَحَاسِنِهِ وَعَمَّى سَائِرَ فَضَائِلِهِ . لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَفْرُقْ بَيْنَ كَلَامٍ جَيِّدٍ وَآخَرَ رَدِيءٍ وَلَفْظٍ حَسَنٍ وَآخَرَ قَبِيحٍ وَشِعْرٍ نَادِرٍ وَآخَرَ بَارِدٍ بَانَ جَهْلُهُ وَظَهَرَ نَقْصُهُ. وَهُوَ أَيْضًا إِذَا أَرَادَ أَنْ يَصْنَعَ قَصِيدَةً أَوْ يُنْشِئَ رِسَالَةً وَقَدْ فَاتَهُ هَذَا الْعِلْمُ مَزَجَ الصَّفْوَ بِالْكَدَرِ وَخَلَطَ الْغُرَرَ بِالْعُرَرِ وَاسْتَعْمَلَ الْوَحْشِيَّ الْعَكِرَ فَجَعَلَ نَفْسَهُ مَهْزَأَةً لِلْجَاهِلِ وَعِبْرَةً لِلْعَاقِلِ . وَإِذَا أَرَادَ أَيْضًا تَصْنِيفَ كَلَامٍ مَنْثُورٍ أَوْ تَأْلِيفَ شِعْرٍ مَنْظُومٍ وَتَخَطَّى حُسْنَ الصَّنْعَةِ سَاءَ اخْتِيَارُهُ لَهُ وَقَبُحَتْ آثَارُهُ فِيهِ فَأَخَذَ الرَّدِيءَ الْمَرْذُولَ وَتَرَكَ الْجَيِّدَ الْمَقْبُولَ فَدَلَّ عَلَى قُصُورِ فَهْمِهِ وَتَأَخُّرِ مَعْرِفَتِهِ وَعِلْمِهِ . وَقَدْ قِيلَ : اخْتِيَارُ الرَّجُلِ قِطْعَةٌ مِنْ عِلْمِهِ . وَمَا أَكْثَرَ مَا وَقَعَ مِنْ عُلَمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ فِي هَذِهِ الرَّذِيلَةِ . وَقَوْلُهُ : (بَرِيئًا مِنَ التَّعْقِيدِ) فَالتَّعْقِيدُ وَالْإِغْلَاقُ سَوَاءٌ وَهُوَ اسْتِعْمَالُ الْوَحْشِيِّ وَشِدَّةُ تَعْلِيقِ الْكَلَامِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ حَتَّى يَسْتَبْهِمَ الْمَعْنَى .

قَالَ حَبِيبٌ ٱلطَّائِيُّ :

فَمَا لَكَ بِٱلْغَرِيبِ يَدٌ وَلٰكِنْ … تَعَاطِيكَ ٱلْغَرِيبَ مِنَ ٱلْغَرِيبِ
أَمَا لَوْ أَنَّ جَهْلَكَ عَادَ عِلْمًا … إِذًا لَرَسَخْتَ فِي عِلْمِ ٱلْغُيُوبِ

قَالَ آخَرُ يَمْدَحُ رَجُلًا بِٱسْتِسْهَالِ ٱللَّفْظِ :

قَوْلٌ كَأَنَّ فَرِنْدَهُ … سَحْرٌ عَلَى ذِهْنِ ٱللَّبِيبِ
لَمْ يَشْمَئِزَّ عَلَى ٱللِّسَا … نِ وَلَا يَشُذُّ عَلَى ٱلْقُلُوبِ
لَمْ يَغْلُ فِي شَنْعِ ٱللُّغَا … تِ وَلَا يُوَحِّشُ بِٱلْغَرِيبِ

وَقَوْلُهُ: (غَنِيًّا عَنِ ٱلتَّأَمُّلِ) أَيْ هُوَ مُسْتَغْنٍ لِوُضُوحِهِ عَنْ تَأَمُّلِ مَعَانِيهِ وَتَرْدِيدِ ٱلنَّظَرِ فِيهِ. قَالَ ٱلْجَاحِظُ: إِنَّ مَنْ أَعَارَهُ ٱللهُ مِنْ مَعُونَتِهِ نَصِيبًا وَأَفْرَغَ عَلَيْهِ مِنْ مَحَبَّتِهِ ذَنُوبًا حَبَّبَ إِلَيْهِ ٱلْمَعَانِي وَسَلَّسَ لَهُ نِظَامَ ٱللَّفْظِ وَكَانَ قَبْلُ قَدْ أَعْفَى ٱلْمُسْتَمِعَ مِنْ كَدِّ ٱلتَّلَطُّفِ وَأَرَاحَ قَارِىءَ ٱلْكِتَابِ مِنْ كَدِّ ٱلتَّفَهُّمِ . وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ ٱلْبَلَاغَةَ ٱلتَّقَرُّبُ مِنَ ٱلْمَعْنَى ٱلْبَعِيدِ وَٱلتَّبَاعُدُ مِنْ حَشْوِ ٱلْكَلَامِ وَقُرْبُ ٱلْمَأْخَذِ وَإِيجَازٌ فِي صَوَابٍ وَقَصْدٌ إِلَى ٱلْحُجَّةِ وَحُسْنُ ٱلِٱسْتِعَارَةِ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلْآخَرِ : ٱلْبَلَاغَةُ تَقْرِيبُ مَا بَعُدَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ بِأَيْسَرِ ٱلْخِطَابِ وَٱلتَّقَرُّبُ مِنَ ٱلْمَعْنَى ٱلْبَعِيدِ . وَهُوَ أَنْ يَعْمِدَ إِلَى ٱلْمَعْنَى ٱللَّطِيفِ فَيَكْشِفَهُ وَيَنْفِيَ ٱلشَّوَاغِلَ عَنْهُ فَيَفْهَمَهُ ٱلسَّامِعُ مِنْ غَيْرِ فِكْرٍ فِيهِ وَتَدَبُّرٍ لَهُ . وَقَوْلُهُ : (مُتَبَاعِدًا مِنَ ٱلْحَشْوِ) فَٱلْحَشْوُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَضْرُبٍ : ٱثْنَانِ مِنْهَا مَذْمُومَانِ وَوَاحِدٌ مَحْمُودٌ . فَأَحَدُ ٱلْمَذْمُومَيْنِ هُوَ : إِدْخَالُكَ فِي ٱلْكَلَامِ لَفْظًا لَوْ أَسْقَطْتَهُ لَكَانَ ٱلْكَلَامُ تَامًّا . مِثْلُ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

أَعِنِي فَتًى لَمْ تَذُرَّ ٱلشَّمْسُ طَالِعَةً يَوْمًا مِنَ ٱلدَّهْرِ إِلَّا ضَرَّ أَوْ نَفَعَا

قَوْلُهُ : (يَوْمًا مِنَ ٱلدَّهْرِ) حَشْوٌ لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ لِأَنَّ ٱلشَّمْسَ لَا تَطْلَعُ لَيْـلًا . وَٱلضَّرْبُ ٱلْآخَرُ ٱلْعِبَارَةُ عَنِ ٱلْمَعْنَى بِكَلَامٍ طَوِيلٍ لَا فَائِدَةَ فِي طُولِهِ وَيُمْكِنُ أَنْ يُعَبَّرَ بِأَقْصَرَ مِنْهُ كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ :

تَبَيَّنْتُ آيَاتٍ لَهَا فَعَرَفْتُهَـا لِسِتَّةِ أَعْوَامٍ وَذَا ٱلْعَامُ سَابِعُ

فَـكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ : لِسَبْعَةِ أَعْوَامٍ . وَيُتِمَّ ٱلْبَيْتَ بِكَلَامٍ آخَرَ يَكُونُ فِيهِ فَائِدَةٌ فَعَجَزَ عَنْ ذٰلِكَ فَحَشَا ٱلْبَيْتَ بِمَا لَا وَجْهَ لَهُ . وَأَمَّا ٱلضَّرْبُ ٱلْمَحْمُودُ فَـكَقَوْلِ كُثَيِّرٍ :

لَوَ أَنَّ ٱلْبَاخِلِينَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ رَأَوْكَ تَعَلَّمُـوا مِنْكَ ٱلْمِطَالَا

قَوْلُهُ : (وَأَنْتَ مِنْهُمْ) حَشْوٌ إِلَّا أَنَّهُ مَلِيحٌ وَيُسَمِّي أَهْلُ ٱلصَّنْعَةِ هٰذَا ٱلْجِنْسَ ٱعْتِرَاضَ كَلَامٍ فِي كَلَامٍ . وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

إِنَّ ٱلثَّمَانِـينَ وَبُلِّغْتَهَـا قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تَرْجُمَانْ

البحث الثامن

في الالتباس والاسباب المانعة من فهم المعاني

(عن الماوَردي باختصار)

إِنْ لَمْ يَفْهَمِ ٱلْعَاقِلُ مَعَانِيَ مَا سَمِعَ كَشَفَ عَنِ ٱلسَّبَبِ ٱلْمَانِعِ مِنْهَا لِيَعْلَمَ ٱلْعِلَّةَ فِي تَعَذُّرِ فَهْمِهَا فَإِنَّ بِمَعْرِفَةِ أَسْبَابِ ٱلْأَشْيَاءِ وَعِلَلِهَا يَصِلُ إِلَى تَلَافِي مَا شَذَّ وَصَلَاحِ مَا فَسَدَ وَلَيْسَ يَخْـلُو ٱلسَّبَبُ ٱلْمَانِعُ مِنْ ذٰلِـكَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِعِلَّةٍ فِي ٱلْـكَلَامِ

الْمُتَرْجِمِ عَنْهَا. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ لِعِلَّةٍ فِي الْمُسْتَوْدَعِ فِيهَا. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ لِعِلَّةٍ فِي السَّامِعِ الْمُسْتَخْرِجِ . فَإِنْ كَانَ السَّبَبُ الْمَانِعُ مِنْ فَهْمِهَا لِعِلَّةٍ فِي الْكَلَامِ الْمُتَرْجِمِ عَنْهَا لَمْ يَخْلُ ذٰلِكَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْوَالٍ: (أَحَدُهَا) أَنْ يَكُونَ لِتَقْصِيرِ اللَّفْظِ عَنِ الْمَعْنَى فَيَصِيرَ تَقْصِيرُ اللَّفْظِ عَنْ ذٰلِكَ الْمَعْنَى سَبَبًا مَانِعًا مِنْ فَهْمِ ذٰلِكَ الْمَعْنَى . وَهٰذَا يَكُونُ مِنْ أَحَدِ وَجْهَيْنِ: إِمَّا مِنْ حَصَرِ الْمُتَكَلِّمِ وَعِيِّهِ. وَإِمَّا مِنْ بَلَادَتِهِ وَقِلَّةِ فَهْمِهِ . (الْحَالُ الثَّانِي) أَنْ يَكُونَ لِزِيَادَةِ اللَّفْظِ عَلَى الْمَعْنَى فَتَصِيرَ الزِّيَادَةُ عِلَّةً مَانِعَةً مِنْ فَهْمِ الْمَقْصُودِ مِنْهُ وَهٰذَا قَدْ يَكُونُ مِنْ أَحَدِ وَجْهَيْنِ : إِمَّا مِنْ هَذَرِ الْمُتَكَلِّمِ وَإِكْثَارِهِ . وَإِمَّا لِسُوءِ ظَنِّهِ بِفَهْمِ سَامِعِهِ . (وَالْحَالُ الثَّالِثُ) أَنْ يَكُونَ لِمُوَاضَعَةٍ يَقْصِدُهَا الْمُتَكَلِّمُ بِكَلَامِهِ فَإِذَا لَمْ يَعْرِفْهَا السَّامِعُ لَمْ يَفْهَمْ مَعَانِيَهَا . وَأَمَّا تَقْصِيرُ اللَّفْظِ وَزِيَادَتُهُ فَمِنَ الْأَسْبَابِ الْخَاصَّةِ دُونَ الْعَامَّةِ لِأَنَّكَ لَسْتَ تَجِدُ ذٰلِكَ عَامًّا فِي كُلِّ الْكَلَامِ وَإِنَّمَا تَجِدُهُ فِي بَعْضِهِ فَإِذَا عَدَلْتَ عَنِ الْكَلَامِ الْمُقَصِّرِ إِلَى الْكَلَامِ الْمُسْتَوْفِي وَعَنِ الزَّائِدِ إِلَى الْكَافِي أَرَحْتَ نَفْسَكَ مِنْ تَكَلُّفِ مَا يَكُدُّ خَاطِرَكَ وَإِنْ أَقَمْتَ عَلَى اسْتِخْرَاجِهِ إِمَّا لِضَرُورَةٍ دَعَتْكَ إِلَيْهِ عِنْدَ إِعْوَازِ غَيْرِهِ أَوْ لِحَمِيَّةٍ دَاخَلَتْكَ عِنْدَ تَعَذُّرِ فَهْمِهِ فَانْظُرْ فِي سَبَبِ الزِّيَادَةِ وَالتَّقْصِيرِ . فَإِنْ كَانَ التَّقْصِيرُ لِحَصَرٍ وَالزِّيَادَةُ لِهَذَرٍ سَهُلَ عَلَيْكَ اسْتِخْرَاجُ الْمَعْنَى لِأَنَّ مَا لَهُ مِنَ الْكَلَامِ مَحْصُولٌ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُخْتَلُّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنَ الصَّحِيحِ وَفِي الْأَكْثَرِ عَلَى الْأَقَلِّ دَلِيلٌ . وَإِنْ كَانَتْ زِيَادَةُ اللَّفْظِ عَلَى الْمَعْنَى

دَلِيلًا بِسُوءِ ظَنِّ ٱلْمُتَكَلِّمِ بِفَهْمِ ٱلسَّامِعِ كَانَ ٱسْتِخْرَاجُهُ أَسْهَلَ . وَإِنْ كَانَ تَقْصِيرًا لِلَّفْظِ عَنِ ٱلْمَعْنَى لِسُوءِ فَهْمِ ٱلْمُتَكَلِّمِ فَهُوَ أَصْعَبُ ٱلْأُمُورِ حَالًا وَأَبْعَدُهَا ٱسْتِخْرَاجًا لِأَنَّ مَا لَمْ يَفْهَمْهُ مُكَلِّمُكَ فَأَنْتَ مِنْ فَهْمِهِ أَبْعَدُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ بِفَرْطِ ذَكَائِكَ وَجُودَةِ خَاطِرِكَ تَتَنَبَّهُ بِإِشَارَتِهِ عَلَى ٱسْتِنْبَاطِ مَا عَجَزَ عَنْهُ وَٱسْتِخْرَاجِ مَا قَصَّرَ فِيهِ فَتَكُونُ فَضِيلَةُ ٱلِٱسْتِيفَاءِ لَكَ وَحَقُّ ٱلتَّقَدُّمِ لَهُ . وَأَمَّا ٱلْمُوَاضَعَةُ فَضَرْبَانِ : عَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ . (أَمَّا ٱلْعَامَّةُ) فَهِيَ مُوَاضَعَةُ ٱلْعُلَمَاءِ فِيمَا جَعَلُوهُ أَلْقَابًا لِمَعَانٍ لَا يَسْتَغْنِي ٱلْمُتَعَلِّمُ عَنْهَا وَلَا يَقِفُ عَلَى مَعْنَى كَلَامِهِمْ إِلَّا بِهَا كَمَا جَعَلَ ٱلْمُتَكَلِّمُونَ ٱلْجَوَاهِرَ وَٱلْأَعْرَاضَ وَٱلْأَجْسَامَ أَلْقَابًا تَوَاضَعُوهَا لِمَعَانٍ ٱتَّفَقُوا عَلَيْهَا . وَلَسْتَ تَجِدُ مِنَ ٱلْعُلُومِ عِلْمًا يَخْلُو مِنْ هٰذَا . وَهٰذِهِ ٱلْمُوَاضَعَةُ ٱلْعَامَّةُ تُسَمَّى عُرْفًا . (وَأَمَّا ٱلْخَاصَّةُ) فَمُوَاضَعَةُ ٱلْوَاحِدِ يَقْصِدُ بِبَاطِنِ كَلَامِهِ غَيْرَ ظَاهِرِهِ . فَإِذَا كَانَتْ فِي ٱلْكَلَامِ كَانَتْ رَمْزًا . وَإِنْ كَانَتْ فِي ٱلشِّعْرِ كَانَتْ لُغْزًا . فَأَمَّا ٱلرَّمْزُ فَلَسْتَ تَجِدُهُ فِي عِلْمٍ مَعْنَوِيٍّ . وَلَا فِي كَلَامٍ لُغَوِيٍّ . وَإِنَّمَا يَخْتَصُّ غَالِبًا بِأَحَدِ شَيْئَيْنِ : إِمَّا بِمَذْهَبٍ شَنِيعٍ يُخْفِيهِ مُعْتَقِدُهُ وَيَجْعَلُ ٱلرَّمْزَ سَبَبًا لِتَطَلُّعِ ٱلنُّفُوسِ إِلَيْهِ وَٱحْتِمَالَ ٱلتَّأْوِيلِ فِيهِ سَبَبًا لِدَفْعِ ٱلتُّهْمَةِ عَنْهُ . وَإِمَّا لِمَا يَدَّعِي أَرْبَابُهُ أَنَّهُ عِلْمٌ مُعْوِزٌ . وَأَنَّ إِدْرَاكَهُ بَدِيعٌ مُعْجِزٌ كَالصَّنْعَةِ ٱلَّتِي وَضَعَهَا أَرْبَابُهَا ٱسْمًا لِعِلْمِ ٱلْكِيمِيَاءِ فَرَمَزُوا بِأَوْصَافِهِ وَأَخْفَوْا مَعَانِيَهُ لِيُوهِمُوا ٱلشُّحَّ بِهِ وَٱلْأَسَفَ عَلَيْهِ خَدِيعَةً لِلْعُقُولِ ٱلْوَاهِيَةِ وَٱلْآرَاءِ ٱلْفَاسِدَةِ . وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى ٱلإِنْسَانِ مَا مُنِعَا ... مُنِعَتْ شَيْئًا فَأَكْثَرَتْ ٱلْوُلُوعَ بِهِ

ثُمَّ لِيَكُونُوا بُرَاءَ مِنْ عُهْدَةِ مَا قَالُوهُ إِذَا جُرِّبَ وَلَوْ كَانَ مَا تَضَمَّنَ هٰذَيْنِ ٱلنَّوْعَيْنِ وَأَشْبَاهَهُمَا مِنَ ٱلرُّمُوزِ مَعْنًى صَحِيحًا وَعِلْمًا مُسْتَفَادًا لَخَرَجَ مِنَ ٱلرَّمْزِ ٱلْخَفِيِّ إِلَى ٱلْعِلْمِ ٱلْجَلِيِّ . فَإِنَّ أَغْرَاضَ ٱلنَّاسِ مَعَ ٱخْتِلَافِ أَهْوَائِهِمْ لَا تَتَّفِقُ عَلَى سَتْرِ سَلِيمٍ وَإِخْفَاءِ مُفِيدٍ . وَقَدْ قَالَ زُهَيْرٌ :

ٱلسِّتْرُ دُونَ ٱلْفَاحِشَاتِ وَلَا ... يَلْقَاكَ دُونَ ٱلْخَيْرِ مِنْ سِتْرِ

وَرُبَّمَا ٱسْتُعْمِلَ ٱلرَّمْزُ مِنَ ٱلْكَلَامِ فِيمَا يُرَادُ تَفْخِيمُهُ مِنَ ٱلْمَعَانِي وَتَعْظِيمُهُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ لِيَكُونَ أَحْلَى فِي ٱلْقَلْبِ مَوْقِعًا . وَأَجَلَّ فِي ٱلنُّفُوسِ مَوْضِعًا . فَيَصِيرَ بِٱلرَّمْزِ سَائِرًا وَفِي ٱلصُّحُفِ مُخَلَّدًا . كَالَّذِي حُكِيَ عَنْ فِيثَاغُورِسَ فِي وَصَايَاهُ ٱلْمَرْمُوزَةِ إِنَّهُ قَالَ : ٱحْفَظْ مِيزَانَكَ مِنَ ٱلنَّدَى وَأَوْزَانَكَ مِنَ ٱلصَّدَى . يُرِيدُ بِحِفْظِ ٱلْمِيزَانِ مِنَ ٱلنَّدَى حِفْظَ ٱللِّسَانِ مِنَ ٱلْخَنَا وَبِحِفْظِ ٱلْأَوْزَانِ مِنَ ٱلصَّدَى حِفْظَ ٱلْعَقْلِ مِنَ ٱلْهَوَى. فَصَارَ بِهٰذَا ٱلرَّمْزِ مُسْتَحْسَنًا وَمُدَوَّنًا وَلَوْ قَالَهُ بِٱللَّفْظِ ٱلصَّرِيحِ وَٱلْمَعْنَى ٱلصَّحِيحِ لَمَا سَارَ عَنْهُ وَلَا ٱسْتُحْسِنَ مِنْهُ . وَعِلَّةُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمَحْجُوبَ عَنِ ٱلْأَفْهَامِ كَالْمَحْجُوبِ عَنِ ٱلْأَبْصَارِ فِيمَا يَحْصُلُ لَهُ فِي ٱلنُّفُوسِ مِنَ ٱلتَّعْظِيمِ . وَفِي ٱلْقُلُوبِ مِنَ ٱلتَّفْخِيمِ . وَمَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَمْ يَحْتَجِبْ هَانَ وَٱسْتُرْذِلَ . وَهٰذَا إِنَّمَا يَصِحُّ ٱسْتِحْلَاؤُهُ فِيمَا قَلَّ وَهُوَ بِٱللَّفْظِ ٱلصَّرِيحِ مُسْتَقِلٌّ. فَأَمَّا ٱلْعُلُومُ ٱلْمُنْتَشِرَةُ ٱلَّتِي تَتَطَلَّعُ ٱلنُّفُوسُ إِلَيْهَا فَقَدِ ٱسْتَغْنَتْ بِقُوَّةِ ٱلْبَاعِثِ عَلَيْهَا. وَشِدَّةِ ٱلدَّاعِي إِلَيْهَا . عَنِ ٱلِٱسْتِدْعَاءِ إِلَيْهَا بِرَمْزٍ مُسْتَحْلًى وَلَفْظٍ مُسْتَغْرَبٍ. بَلْ ذٰلِكَ مُنَفِّرٌ لِمَا فِي ٱلتَّشَاغُلِ بِٱسْتِخْرَاجِ

رُمُوزِهَا مِنَ ٱلْإِبْطَاءِ عَنْ دَرْكِهَا فَهَـذَا حَالُ ٱلرَّمْزِ . وَامَّا ٱللُّغْزُ فَهُوَ تَحَرِّي اَهْلِ ٱلْفَرَاغِ وَشُغْلُ ذَوِي ٱلْبَطَالَةِ لِيَتَنَافَسُوا فِي تَبَايُنِ قَرَائِحِهِمْ وَيَتَفَاخَرُوا فِي سُرْعَةِ خَوَاطِرِهِمْ فَيَسْتَكِدُّوا خَوَاطِرَ قَدْ مُنِحُوا صِحَّتَهَا فِيمَا لَا يُجْدِي نَفْعًا وَلَا يُفِيدُ عِلْمًا كَاَهْلِ ٱلصِّرَاعِ ٱلَّذِينَ قَدْ صَرَفُوا مَا مُنِحُوهُ مِنْ صِحَّةِ اَجْسَامِهِمْ اِلَى صِرَاعٍ كَدُودٍ يَصْرَعُ عُقُولَهُمْ وَيَهُدُّ اَجْسَامَهُمْ وَلَا يُكْسِبُهُمْ حَمْدًا وَلَا يُجْدِي عَلَيْهِمْ نَفْعًا . اُنْظُرْ اِلَى قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

رَجُلٌ مَاتَ وَخَلَّفَ رَجُلًا ... اَبْنَ اُمِّ اَبْنِ اَبِي اُخْتِ اَبِيهِ
مَعَهُ اُمُّ بَنِي اَوْلَادِهِ ... وَاَبَا اُخْتِ بَنِي عَمِّ اَخِيهِ

اَخْبِرْنِي عَنْ هٰذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ وَقَدْ رَوَّعَكَ صُعُوبَةُ مَا تَضَمَّنَهُمَا مِنَ ٱلسُّؤَالِ اِذَا ٱسْتَكْدَيْتَ ٱلْفِكْرَ فِي ٱسْتِخْرَاجِهِ فَعَلِمْتَ اَنَّهُ اَرَادَ مَيْتًا خَلَّفَ اَبًا وَزَوْجَةً وَعَمًّا . مَا ٱلَّذِي اَفَادَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ وَنَفَى عَنْكَ مِنَ ٱلْجَهْلِ . اَلَسْتَ بَعْدَ عِلْمِهِ تَجْهَلُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا مِنْ قَبْلِهِ وَلَوْ اَنَّ ٱلسَّائِلَ قَلَبَ لَكَ ٱلسُّؤَالَ فَاَخَّرَ مَا قَدَّمَ وَقَدَّمَ مَا اَخَّرَ لَكُنْتَ فِي ٱلْجَهْلِ بِهِ قَبْلَ ٱسْتِخْرَاجِهِ كَمَا كُنْتَ فِي ٱلْجَهْلِ ٱلْاَوَّلِ وَقَدْ كَدَدْتَ نَفْسَكَ وَاَتْعَبْتَ خَاطِرَكَ . ثُمَّ لَا تَعْدَمْ اَنْ يَرِدَ عَلَيْكَ مِثْلُ هٰذَا مِمَّا تَجْهَلُهُ فَتَكُونُ فِيهِ كَمَا كُنْتَ قَبْلَهُ . فَاَصْرِفْ نَفْسَكَ تَوَلَّى ٱللّٰهُ رُشْدَكَ عَنْ عُلُومِ ٱلنَّوْكَى وَتَكَلُّفِ ٱلْبَطَّالِينَ . ثُمَّ ٱجْعَلْ مَا مَنَّ ٱللّٰهُ بِهِ عَلَيْكَ مِنْ صِحَّةِ ٱلْقَرِيحَةِ وَسُرْعَةِ ٱلْخَاطِرِ مَصْرُوفًا اِلَى عِلْمِ مَا يَكُونُ اِنْفَاقُ خَاطِرِكَ فِيهِ مَذْخُورًا وَكَدُّ فِكْرِكَ فِيهِ مَشْكُورًا. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : مَنْ اَمْضَى يَوْمَهُ بِغَيْرِ حَقٍّ قَضَاهُ . اَوْ فَرْضٍ اَدَّاهُ . اَوْ مَجْدٍ اَثَّلَهُ .

اَوْ حَمْدٍ حَصَّلَهُ . اَوْ خَيْرٍ اَسَّسَهُ اَوْ عِلْمٍ اقْتَبَسَهُ . فَقَدْ عَقَّ يَوْمَهُ وَظَلَمَ نَفْسَهُ . وَقَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ :

لَقَدْ هَاجَ الفَرَاغُ عَلَيْكَ شُغْلًا وَاَسْبَابُ البَلَاءِ مِنَ الفَرَاغِ

فَهٰذَا تَعْلِيلُ مَا فِي الكَلَامِ مِنَ الاَسْبَابِ المَانِعَةِ مِنْ فَهْمِ مَعَانِيهِ حَتَّى خَرَجَ بِنَا الِاسْتِيفَاءُ وَالكَشْفُ اِلَى الاِغْمَاضِ . (وَاَمَّا القِسْمُ الثَّانِي) وَهُوَ اَنْ يَكُونَ السَّبَبُ المَانِعُ مِنْ فَهْمِ السَّامِعِ لِعِلَّةٍ فِي المَعْنَى المُسْتَوْدَعِ فَلَا يَخْلُو حَالُ المَعْنَى مِنْ ثَلَاثَةِ اَقْسَامٍ : اِمَّا اَنْ يَكُونَ مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِهِ اَوْ يَكُونَ مُقَدِّمَةً لِغَيْرِهِ اَوْ يَكُونَ نَتِيجَةً مِنْ غَيْرِهِ . فَاَمَّا المُسْتَقِلُّ بِنَفْسِهِ فَضَرْبَانِ : جَلِيٌّ وَخَفِيٌّ . فَاَمَّا الجَلِيُّ فَهُوَ يَسْبِقُ اِلَى فَهْمِ مُتَصَوِّرِهِ مِنْ اَوَّلِ وَهْلَةٍ . وَلَيْسَ هُوَ مِنْ اَقْسَامِ مَا يُشْكِلُ عَلَى مَنْ تَصَوَّرَهُ . وَاَمَّا الخَفِيُّ فَيَحْتَاجُ فِي اِدْرَاكِهِ اِلَى زِيَادَةِ تَأَمُّلٍ وَفَضْلِ مُعَانَاةٍ لِيَنْجَلِيَ عَمَّا اَخْفَى وَيَنْكَشِفَ عَمَّا اَغْمَضَ . وَبِاسْتِعْمَالِ الفِكْرِ فِيهِ يَكُونُ الِارْتِيَاضُ بِهِ وَبِالِارْتِيَاضِ بِهِ يَسْهُلُ مِنْهُ مَا اسْتَصْعَبَ وَيَقْرُبُ مِنْهُ مَا بَعُدَ . فَاِنَّ لِلرِّيَاضَةِ جَرَاءَةً وَلِلدِّرَايَةِ تَأْثِيرًا . وَاَمَّا مَا كَانَ مُقَدِّمَةً لِغَيْرِهِ فَضَرْبَانِ : اَحَدُهُمَا اَنْ تَقُومَ المُقَدِّمَةُ بِنَفْسِهَا وَاِنْ تَعَدَّتْ اِلَى غَيْرِهَا فَتَكُونَ كَالمُسْتَقِلِّ بِنَفْسِهِ فِي تَصَوُّرِهِ وَفَهْمِهِ مُسْتَدْعِيًا لِنَتِيجَتِهِ . وَالثَّانِي اَنْ يَكُونَ مُفْتَقِرًا اِلَى نَتِيجَةٍ فَيَتَعَذَّرَ فَهْمُ المُقَدِّمَةِ اِلَّا بِمَا يَتْبَعُهَا مِنَ النَّتِيجَةِ لِاَنَّهَا تَكُونُ بَعْضًا . وَتَبْعِيضُ المَعْنَى اَشْكَلُ لَهُ وَبَعْضُهُ لَا يُغْنِي عَنْ كُلِّهِ . وَاَمَّا مَا كَانَ نَتِيجَةً لِغَيْرِهِ فَهُوَ لَا يُدْرَكُ اِلَّا بِاَوَّلِهِ وَلَا يُتَصَوَّرُ عَلَى حَقِيقَتِهِ

إلّا بمقدّمته والاشتغال به قبل المقدّمة عناء. واتعاب الفكر في استنباطه قبل قاعدته اذى. فهذا يوضح تعليل ما في المعاني من الاسباب المانعة من فهمها. (وامّا القسم الثالث) وهو ان يكون السبب المانع لعلّة في المستمع فذلك ضربان: احدهما من ذاته. والثاني من طارٍ عليه. (فامّا ما كان من ذاته) فيتنوع نوعين: احدهما ما كان مانعا من تصوّر المعنى. والثاني ما كان مانعًا من حفظه بعد تصوره وفهمه. فامّا ما كان مانعًا من تصوّر المعنى وفهمه فهو البلادة وقلّة الفطنة وهو الداء العياء. وقد قال بعض الحكماء: اذا فقد العالم الذهن قلّ على الاضداد احتجاجه. وكثر الى الكتب احتياجه. وليس لمن بلي به الّا الصبر والاقلال. لانّه على القليل اقدر. وبالصبر احرى ان ينال ويظفر. وامّا المانع من حفظه بعد تصوره وفهمه فهو النسيان الحادث عن غفلة التقصير واهمال التواني فينبغي لمن بلي به ان يستدرك تقصيره بكثرة الدرس ويوقظ غفلته بادامة النظر. فقد قيل: لا يدرك العلم من لا يطيل درسه ويكد نفسه. وكثرة الدرس كدود لا يصبر عليه الّا من يرى العلم مغنما والجهالة مغرما. فيحتمل تعب الدرس ليدرك راحة العلم وينفي عنه معرة الجهل. فانّ نيل العظيم بامر عظيم. وعلى قدر الرغبة تكون المطالب وبحسب الراحة يكون التعب. وقد قيل: طلب الراحة قلّة الاستراحة. وقال بعض الحكماء: اكمل الراحة ما كانت عن كدّ التعب واعزّ العلم ما كان عن ذلّ الطلب ..

وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : إِنَّ هٰذِهِ ٱلْآدَابَ نَوَافِرُ تَنِدُّ عَنْ اَهْلِ ٱلْاَذْهَانِ فَاجْعَلُوا ٱلْكُتُبَ عَنْهَا حُمَاةً . وَٱلْاَقْلَامَ لَهَا رُعَاةً . (وَاَمَّا ٱلطَّوَارِئُ) فَنَوْعَانِ : (اَحَدُهُمَا) شُبْهَةٌ تَعْتَرِضُ ٱلْمَعْنَى فَتَمْنَعُ عَنْ نَفْسِ تَصَوُّرِهِ وَتَدْفَعُ عَنْ اِدْرَاكِ حَقِيقَتِهِ . فَيَنْبَغِي اَنْ يُزِيلَ تِلْكَ ٱلشُّبْهَةَ عَنْ نَفْسِهِ بِٱلسُّؤَالِ اَوِ ٱلنَّظَرِ لِيَصِلَ اِلَى تَصَوُّرِ ٱلْمَعْنَى وَاِدْرَاكِ حَقِيقَتِهِ . وَلِذٰلِكَ قَالَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ : لَا تُخْلِ قَلْبَكَ مِنَ ٱلْمُذَاكَرَةِ فَتَعُودَ عَقِيمًا . وَلَا تُعْفِ طَبْعَكَ مِنَ ٱلْمُنَاظَرَةِ فَيَعُودَ سَقِيمًا . وَقَالَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ :

شِفَاءُ ٱلْعَمَى طُولُ ٱلسُّؤَالِ وَاِنَّمَا
دَوَامُ ٱلْعَمَى طُولُ ٱلسُّكُوتِ عَلَى ٱلْجَهْلِ
فَكُنْ سَائِلًا عَمَّا عَنَاكَ فَاِنَّمَا ذُعِيتَ اَخَا عَقْلٍ لِتَبْحَثَ بِٱلْعَقْلِ

(وَٱلثَّانِي) اَفْكَارٌ تُعَارِضُ ٱلْخَاطِرَ فَيَذْهَلُ عَنْ تَصَوُّرِ ٱلْمَعْنَى . وَهٰذَا سَبَبٌ قَلَّ مَا يَعْرَى مِنْهُ اَحَدٌ لَاسِيَّمَا فِيمَنِ ٱنْبَسَطَتْ آمَالُهُ وَٱتَّسَعَتْ اَمَانِيُّهُ . وَقَدْ يَقِلُّ فِيمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي غَيْرِ ٱلْعِلْمِ اَرَبٌ وَلَا فِيمَا سِوَاهُ هِمَّةٌ فَاِنْ طَرَاَتْ عَلَى ٱلْاِنْسَانِ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى مُكَابَرَةِ نَفْسِهِ عَلَى ٱلْفَهْمِ وَغَلَبَةِ قَلْبِهِ عَلَى ٱلتَّصَوُّرِ لِاَنَّ ٱلْقَلْبَ مَعَ ٱلْاِكْرَاهِ اَشَدُّ نُفُورًا وَاَبْعَدُ قَبُولًا . وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْاَثَرِ : بِاَنَّ ٱلْقَلْبَ اِذَا اُكْرِهَ عَمِيَ . وَلٰكِنْ يُعْمِلُ فِي دَفْعِ مَا طَرَاَ عَلَيْهِ مِنْ هَمٍّ مُذْهِلٍ اَوْ فِكْرٍ قَاطِعٍ لِيَسْتَجِيبَ لَهُ ٱلْقَلْبُ مُطِيعًا . وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

وَلَيْسَ بِمُغْنٍ فِي ٱلْمَوَدَّةِ شَافِعٌ اِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ ٱلضُّلُوعِ شَفِيعُ

وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : اِنَّ لِهٰذِهِ ٱلْقُلُوبِ تَنَافُرًا كَتَنَافُرِ ٱلْوَحْشِ

فَتَأَلَّفُوهَا بِالْاِقْتِصَادِ فِي التَّعْلِيمِ وَالتَّوَسُّطِ فِي التَّقْدِيمِ لِتَحْسُنَ طَاعَتُهَا وَيَدُومَ نَشَاطُهَا . فَهٰذَا تَعْلِيلُ مَا فِي الْمُسْتَمِعِ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمَانِعَةِ مِنْ فَهْمِ الْمَعَانِي

البحث التاسع

في المعاظلة

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

اِنَّ الْمُعَاظَلَةَ مَأْخُوذَةٌ مِنْ قَوْلِهِمْ : تَعَاظَلَتِ الْجَرَادَتَانِ اِذَا رَكِبَتْ اِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى . فَسُمِّيَ الْكَلَامُ الْمُتَرَاكِبُ فِي أَلْفَاظِهِ وَفِي مَعَانِيهِ الْمُعَاظَلَةَ مَأْخُوذًا مِنْ ذٰلِكَ وَهُوَ اسْمٌ لَائِقٌ بِمُسَمَّاهُ . وَوَصَفَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ زُهَيْرَ بْنَ اَبِي سُلْمَى فَقَالَ : كَانَ لَا يُعَاظِلُ بَيْنَ الْكَلَامِ . وَقَدِ اخْتَلَفَ عُلَمَاءُ الْبَيَانِ فِي حَقِيقَةِ الْمُعَاظَلَةِ فَقَالَ قُدَامَةُ ابْنُ جَعْفَرٍ الْكَاتِبُ : اَلتَّعَاظُلُ فِي الْكَلَامِ هُوَ اَنْ يَدْخُلَ بَعْضُ الْكَلَامِ فِيمَا لَيْسَ مِنْ جِنْسِهِ وَلَا اَعْرِفُ ذٰلِكَ اِلَّا فَاحِشَ الْاِسْتِعَارَةِ . كَقَوْلِ اَوْسِ بْنِ حَجَرٍ :

وَذَاتِ هِدْمٍ عَارٍ نَوَاشِرُهَا ... تُصْمِتُ بِالْمَاءِ تَوْلَبًا جَدِعَا

فَسَمَّى الظَّبْيَ تَوْلَبًا وَالتَّوْلَبُ وَلَدُ الْحِمَارِ . وَهٰذَا مَا ذَكَرَهُ قُدَامَةُ ابْنُ جَعْفَرٍ وَهُوَ خَطَأٌ اِذْ لَوْ كَانَ مَا ذَهَبَ اِلَيْهِ صَوَابًا لَكَانَتْ حَقِيقَةُ الْمُعَاظَلَةِ دُخُولَ الْكَلَامِ فِيمَا لَيْسَ مِنْ جِنْسِهِ . وَلَيْسَتْ حَقِيقَتُهَا هٰذِهِ بَلْ حَقِيقَتُهَا مَا تَقَدَّمَ وَهُوَ الْمُتَرَاكِبُ مِنْ قَوْلِهِمْ : تَعَاظَلَتِ الْجَرَادَتَانِ

إِذَا رَكِبَتْ إِحْدَاهُمَا ٱلْأُخْرَى . وَهٰذَا ٱلْمِثَالُ ٱلَّذِي مَثَّلَ بِهِ قُدَامَةُ لَا تَرَاكُبَ فِي أَلْفَاظِهِ وَلَا فِي مَعَانِيهِ . وَأَمَّا غَيْرُ قُدَامَةَ فَإِنَّهُ خَالَفَهُ فِيمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَقْسِمِ ٱلْمُعَاظَلَةَ إِلَى لَفْظِيَّةٍ وَمَعْنَوِيَّةٍ وَلٰكِنَّهُ ضَرَبَ لَهَا مَثَلًا . كَقَوْلِ ٱلْفَرَزْدَقِ :

وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ إِلَّا مُمَلَّكًا   أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ

وَهٰذَا مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلْمَعْنَوِيِّ لَا مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱللَّفْظِيِّ . أَلَا تَرَى إِلَى تَرَاكُبِ مَعَانِيهِ بِتَقْدِيمِ مَا كَانَ يَجِبُ تَأْخِيرُهُ وَتَأْخِيرِ مَا كَانَ يَجِبُ تَقْدِيمُهُ لِأَنَّ ٱلْأَصْلَ فِي مَعْنَاهُ : وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ حَيٌّ يُقَارِبُهُ إِلَّا مُمَلَّكًا أَبُو أُمِّهِ أَبُوهُ . وَإِذْ حَقَّقْتُ ٱلْقَوْلَ فِي بَيَانِ ٱلْمُعَاظَلَةِ وَٱلْكَشْفِ عَنْ حَقِيقَتِهَا فَأَقُولُ : إِنَّ ٱلْمُعَاظَلَةَ مُعَاظَلَتَانِ لَفْظِيَّةٌ وَمَعْنَوِيَّةٌ (فَٱلْمَعْنَوِيَّةُ) أَنْ يُقَدَّمَ مَا ٱلْأَوْلَى بِهِ ٱلتَّأْخِيرُ وَهُوَ مِنْ عُيُوبِ ٱلْكَلَامِ لِأَنَّ ٱلْمَعْنَى مُخْتَلٌّ بِذٰلِكَ وَمُضْطَرِبٌ وَذٰلِكَ كَتَقْدِيمِ ٱلصِّفَةِ أَوْ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا عَلَى ٱلْمَوْصُوفِ وَتَقْدِيمِ ٱلصِّلَةِ عَلَى ٱلْمَوْصُولِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ . كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ :

فَقَدْ وَٱلشَّكُّ بَيَّنَ لِي عَنَاءٌ   بِوَشْكِ فِرَاقِهِمْ صُرَدٌ يَصِيحُ

فَإِنَّهُ قَدَّمَ قَوْلَهُ (بِوَشْكِ فِرَاقِهِمْ) . وَهُوَ مَعْمُولُ يَصِيحُ وَيَصِيحُ صِفَةٌ لِصُرَدٍ عَلَى صُرَد وَذٰلِكَ قَبِيحٌ . أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ : هٰذَا مِنْ مَوْضِعِ كَذَا رَجُلٌ وَرَدَ ٱلْيَوْمَ . وَإِنَّمَا يَجُوزُ وُقُوعُ ٱلْمَعْمُولِ بِحَيْثُ يَجُوزُ وُقُوعُ ٱلْعَامِلِ فَكَمَا لَا يَجُوزُ تَقْدِيمُ ٱلصِّفَةِ عَلَى مَوْصُوفِهَا فَكَذٰلِكَ لَا يَجُوزُ تَقْدِيمُ مَا ٱتَّصَلَ بِهَا عَلَى مَوْصُوفِهَا . وَمِنْ هٰذَا ٱلنَّحْوِ

قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

فَأَصْبَحَتْ بَعْدَ خَطَّ بَهْجَتِهَا كَأَنَّ قَفْرًا رُسُومَهَا قَلَمَا

فَإِنَّهُ قَدَّمَ خَبَرَ كَأَنَّ عَلَيْهَا وَهُوَ قَوْلُهُ : خَطَّ . وَهٰذَا وَأَمْثَالُهُ مِمَّا لَا يَجُوزُ قِيَاسٌ عَلَيْهِ وَٱلْأَصْلُ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ (فَأَصْبَحَتْ بَعْدَ بَهْجَتِهَا قَفْرًا كَأَنَّ قَلَمًا خَطَّ رُسُومَهَا) إِلَّا أَنَّهُ عَلَى تِلْكَ ٱلْحَالَةِ ٱلْأُولَى فِي ٱلشِّعْرِ مُخْتَلٌّ مُضْطَرِبٌ . وَٱلْمُعَاظَلَةُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ تَتَفَاوَتُ دَرَجَاتُهَا فِي ٱلْقُبْحِ وَهٰذَا ٱلْبَيْتُ ٱلْمُشَارُ إِلَيْهِ مِنْ أَقْبَحِهَا لِأَنَّ مَعَانِيَهُ قَدْ تَدَاخَلَتْ وَرَكِبَ بَعْضُهَا بَعْضًا . وَمِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

إِلَى مَلِكٍ مَا أُمُّهُ مِنْ مُحَارِبٍ أَبُوهُ وَلَا كَانَتْ كُلَيْبٌ تُصَاهِرُهْ

(وَهُوَ يُرِيدُ إِلَى مَلِكٍ أَبُوهُ مَا أُمُّهُ مِنْ مُحَارِبٍ) . وَهٰذَا أَقْبَحُ مِنَ ٱلْأَوَّلِ وَأَكْثَرُ ٱخْتِلَالًا . . . وَقَدِ ٱسْتَعْمَلَ ٱلْفَرَزْدَقُ مِنَ ٱلتَّعَاظُلِ كَثِيرًا كَأَنَّهُ كَانَ يَقْصِدُ ذٰلِكَ وَيَتَعَمَّدُهُ . لِأَنَّ مِثْلَهُ لَا يَجِيءُ إِلَّا مُتَكَلَّفًا مَقْصُودًا وَإِلَّا فَإِذَا تَرَكَ مُؤَلِّفُ ٱلْكَلَامِ نَفْسَهُ تَجْرِي عَلَى سَجِيَّتِهَا وَطَبْعِهَا فِي ٱلِٱسْتِرْسَالِ لَمْ يَعْرِضْ لَهُ شَيْءٌ مِنْ هٰذَا ٱلتَّعْقِيدِ . أَلَا تَرَى أَنَّ ٱلْمَقْصُودَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَعْدُومٌ فِي هٰذَا ٱلضَّرْبِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهِ إِذِ ٱلْمَقْصُودُ مِنَ ٱلْكَلَامِ إِنَّمَا هُوَ ٱلْإِيضَاحُ وَٱلْإِبَانَةُ وَإِفْهَامُ ٱلْمَعْنَى . فَإِذَا ذَهَبَ هٰذَا ٱلْوَصْفُ ٱلْمَقْصُودُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ذَهَبَ ٱلْمُرَادُ بِهِ وَلَا فَرْقَ عِنْدَ ذٰلِكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ مِنَ ٱللُّغَاتِ كَٱلْفَارِسِيَّةِ وَٱلْهِنْدِيَّةِ وَغَيْرِهِمَا . وَٱعْلَمْ أَنَّ هٰذَا ٱلضَّرْبَ مِنَ ٱلْكَلَامِ هُوَ ضِدُّ ٱلْفَصَاحَةِ لِأَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ هِيَ ٱلظُّهُورُ وَٱلْبَيَانُ وَهٰذَا عَارٍ عَنْ هٰذَا ٱلْوَصْفِ . وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ

ٱللَّفظِيُّ مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ) فَإِنِّي تَأَمَّلْتُهُ بِالْاسْتِقْرَاءِ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ قَدِيمِهَا وَمُحْدَثِهَا وَمِنَ ٱلنَّظَرِ فِي حَقِيقَتِهَا نَفْسِهَا فَوَجَدتُّهَا تَنْقَسِمُ إِلَى خَمْسَةِ أَقْسَامٍ : (ٱلْأَوَّلُ) مِنْهَا يَخْتَصُّ بِأَدَوَاتِ ٱلْكَلَامِ . مِنْ وَإِلَى وَعَنْ وَعَلَى وَأَشْبَاهِهَا . فَإِنَّ مِنْهَا مَا يَسْهُلُ ٱلنُّطْقُ بِهِ إِذَا وَرَدَ مَعَ أَخَوَاتِهِ . وَمِنْهَا مَا لَا يَسْهُلُ بَلْ يَرِدُ ثَقِيلًا عَلَى ٱللِّسَانِ وَلِكُلٍّ مَوْضِعٌ يَخُصُّهُ مِنَ ٱلسَّبْكِ . فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

إِلَى خَالِدٍ رَاحَتْ بِنَا أَرْحَبِيَّةٌ ... مَرَافِقُهَا مِنْ عَنْ كَرَاكِرِهَا نُكْبُ

فَقَوْلُهُ : (مِنْ عَنْ كَرَاكِرِهَا) مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُتَعَاظِلِ ٱلَّذِي يَثْقُلُ ٱلنُّطْقُ بِهِ عَلَى أَنَّهُ قَدْ وَرَدَتْ هَاتَانِ ٱللَّفْظَتَانِ وَهُمَا : مِنْ وَعَنْ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فَلَمْ يَثْقُلِ ٱلنُّطْقُ بِهِمَا كَقَوْلِ ٱلْقَائِلِ : مِنْ عَنْ يَمِينِ ٱلطَّرِيقِ. وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّهُمَا وَرَدَتَا فِي بَيْتِ أَبِي تَمَّامٍ مُضَافَتَيْنِ إِلَى لَفْظَةِ ٱلْكَرَاكِرِ فَثَقُلَتْ مِنْهُمَا وَجَعَلَتْهُمَا مَكْرُوهَتَيْنِ كَمَا تَرَى وَإِلَّا فَقَدْ وَرَدَتَا فِي شِعْرِ قَطَرِيِّ بْنِ ٱلْفُجَاءَةِ فَكَانَتَا خَفِيفَتَيْنِ كَقَوْلِهِ :

وَلَقَدْ أَرَانِي لِلرِّمَاحِ دَرِيئَةً ... مِنْ عَنْ يَمِينِي مَرَّةً وَأَمَامِي

وَٱلْأَصْلُ فِي ذٰلِكَ رَاجِعٌ إِلَى ٱلسَّبْكِ فَإِذَا سُبِكَتْ هَاتَانِ ٱللَّفْظَتَانِ أَوْ مَا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا مَعَ أَلْفَاظٍ تَسْهُلُ مِنْهُمَا لَمْ يَكُنْ بِهِمَا مِنْ ثِقَلٍ كَمَا جَاءَتَا فِي بَيْتِ قَطَرِيٍّ . وَإِذَا سُبِكَتَا مَعَ أَلْفَاظٍ تَثْقُلُ مِنْهُمَا جَاءَتَا كَمَا جَاءَتَا فِي بَيْتِ أَبِي تَمَّامٍ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ أَيْضًا :

كَأَنَّهُ لِٱجْتِمَاعِ ٱلرُّوحِ فِيهِ لَهُ ... فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْ جِسْمِهِ رُوحُ

فَقَوْلُهُ (فِي) بَعْدَ قَوْلِهِ (فِيهِ لَهُ) مِمَّا لَا يَحْسُنُ وُرُودُهُ. وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَتُسْعِدُنِي فِي غَمْرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ سَبُوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ

فَقَوْلُهُ : (لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا) مِنَ ٱلثَّقِيلِ ٱلثَّقِيلِ ٱلثَّقِيلِ . . . .

(ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ ٱللَّفْظِيَّةِ) تَخْتَصُّ بِتَكْرِيرِ ٱلْحُرُوفِ وَلَيْسَ ذٰلِكَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِتَكْرِيرِ ٱلْأَلْفَاظِ وَلَا بِتَكْرِيرِ ٱلْمَعَانِي مِمَّا يَأْتِي ذِكْرُهُ فِي بَابِ ٱلتَّكْرِيرِ فِي ٱلْمَقَالَةِ ٱلثَّانِيَةِ. وَإِنَّمَا هُوَ تَكْرِيرُ حَرْفٍ وَاحِدٍ أَوْ حَرْفَيْنِ فِي كُلِّ لَفْظَةٍ مِنْ أَلْفَاظِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ أَوِ ٱلْمَنْظُومِ فَيَثْقُلُ حِينَئِذٍ ٱلنُّطْقُ بِهِ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ :

وَقَبْرُ حَرْبٍ فِي مَكَانٍ قَفْرُ وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

فَهٰذِهِ ٱلْقَافَاتُ وَٱلرَّاآتُ كَأَنَّهَا فِي تَتَابُعِهَا سِلْسِلَةٌ وَلَا خَفَاءَ بِمَا فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلثِّقَلِ . وَكَذَا وَرَدَ قَوْلُ ٱلْحَرِيرِيِّ فِي مَقَامَاتِهِ :

وَٱزْوَرَّ مَنْ كَانَ لَهُ زَائِرًا وَعَافَ عَافِي ٱلْعُرْفِ عِرْفَانَهُ

فَقَوْلُهُ : (وَعَافَ عَافِي ٱلْعُرْفِ عِرْفَانَهُ) مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهِ. وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُهُ أَيْضًا فِي رِسَالَتَيْهِ ٱللَّتَيْنِ صَاغَهُمَا عَلَى حَرْفَيِ ٱلسِّينِ وَٱلشِّينِ : فَإِنَّهُ أَتَى فِي إِحْدَاهُمَا بِٱلسِّينِ فِي كُلِّ لَفْظَةٍ مِنْ أَلْفَاظِهَا . وَأَتَى بِٱلْأُخْرَى بِٱلشِّينِ فِي كُلِّ لَفْظَةٍ مِنْ أَلْفَاظِهَا فَجَاءَتَا كَأَنَّهُمَا رُقَى ٱلْعَقَارِبِ أَوْ خُذْرُوفَةُ ٱلْعَزَائِمِ . وَمَا أَعْلَمُ كَيْفَ خَفِيَ مَا فِيهِمَا مِنَ ٱلْقُبْحِ عَلَى مِثْلِ ٱلْحَرِيرِيِّ مَعَ مَعْرِفَتِهِ بِٱلْجَيِّدِ وَٱلرَّدِيءِ مِنَ ٱلْكَلَامِ . . . وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْعَرَبَ ٱلَّذِينَ هُمُ ٱلْأَصْلُ فِي هٰذِهِ ٱللُّغَةِ قَدْ عَدَلُوا عَنْ

تَكْرِيرِ ٱلْحُرُوفِ فِي كَثِيرٍ مِنْ كَلَامِهِمْ . وَذَاكَ أَنَّهُ إِذَا تَكَرَّرَ ٱلْحَرْفُ عِنْدَهُمْ أَدْغَمُوهُ ٱسْتِحْسَانًا فَقَالُوا فِي : (جَعَلَ لَكَ) جَعَلَّكَ . وَفِي : (تَضْرِبُونَنِي) تَضْرِبُونِّي . وَكَذَلِكَ قَالُوا : ٱسْتَعَدَّ فُلَانٌ لِلْأَمْرِ إِذَا تَأَهَّبَ لَهُ وَٱلْأَصْلُ فِيهِ ٱسْتَعْدَدَ . وَٱسْتَتَبَّ ٱلْأَمْرُ إِذَا تَهَيَّأَ . وَٱلْأَصْلُ فِيهِ ٱسْتَتْبَبَ . وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ فِي كَلَامِهِمْ حَتَّى أَنَّهُمْ لِشِدَّةِ كَرَاهَتِهِمْ لِتَكْرِيرِ ٱلْحُرُوفِ أَبْدَلُوا أَحَدَ ٱلْحَرْفَيْنِ ٱلْمُكَرَّرَيْنِ حَرْفًا آخَرَ غَيْرَهُ فَقَالُوا : أَمْلَيْتُ ٱلْكِتَابَ . وَٱلْأَصْلُ فِيهِ أَمْلَلْتُ . فَأَبْدَلُوا ٱللَّامَ يَاءً طَلَبًا لِلْخِفَّةِ وَفِرَارًا مِنَ ٱلثِّقَلِ . وَإِذَا كَانَ قَدْ فَعَلُوا ذَلِكَ فِي ٱللَّفْظَةِ ٱلْوَاحِدَةِ فَمَا ظَنُّكَ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلَّتِي يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا

(ٱلْقِسْمُ ٱلثَّالِثُ مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ) أَنْ تَرِدَ أَلْفَاظٌ عَلَى صِيغَةِ ٱلْفِعْلِ يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَمِنْهَا مَا يَخْتَلِفُ بَيْنَ مَاضٍ وَمُسْتَقْبَلٍ . وَمِنْهَا مَا لَا يَخْتَلِفُ . فَٱلْأَوَّلُ كَقَوْلِ ٱلْقَاضِي ٱلْأَرَّجَانِيِّ فِي أَبْيَاتٍ يَصِفُ فِيهَا ٱلشَّمْعَةَ فَقَالَ :

بِٱلنَّارِ فَرَّقَتِ ٱلْحَوَادِثُ بَيْنَنَا ... وَبِهَا نَذَرْتُ أَعُودُ أَقْتُلُ رُوحِي

فَقَوْلُهُ : (نَذَرْتُ أَعُودُ) مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهَا . وَأَمَّا مَا يَرِدُ عَلَى نَهْجٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلصِّيغَةِ ٱلْفِعْلِيَّةِ . فَكَقَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

أَقِلْ أَنِلْ أَقْطِعِ ٱحْمِلْ عَلِّ سَلِّ أَعِدْ ... زِدْ هَشَّ بَشَّ تَفَضَّلْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ

فَهَذِهِ أَلْفَاظٌ جَاءَتْ عَلَى صِيغَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ صِيغَةُ ٱلْأَمْرِ كَأَنَّهُ قَالَ : (ٱفْعَلِ ٱفْعَلْ) هَكَذَا إِلَى آخِرِ ٱلْبَيْتِ . وَهَذَا تَكْرِيرٌ لِلصِّيغَةِ

وَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَكْرِيرًا لِلْحُرُوفِ إِلَّا أَنَّهُ أَخُوهُ وَلَا أَقُولُ: ٱبْنُ عَمِّهِ. وَهٰذِهِ أَلْفَاظٌ مُتَرَاكِبَةٌ مُتَدَاخِلَةٌ وَلَوْ عَطَفَهَا بِٱلْوَاوِ لَكَانَتْ أَقْرَبَ حَالًا. كَمَا قَالَ عَبْدُ ٱلسَّلَامِ بْنُ رَغْبَانَ:

فَسَدَ ٱلنَّاسُ فَٱطْلُبِ ٱلرِّزْقَ بِٱلسَّيْفِ م وَإِلَّا فَمُتْ شَدِيدَ ٱلْهُزَالِ
حِلٍّ وَأْمُرْ وَضُرَّ وَٱنْفَعْ وَلِنْ وَٱخْشُنْ م وَأَبْرِزْ ثُمَّ ٱنْتَدِبْ لِلْمَعَالِي

أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَمَّا عَطَفَ هٰهُنَا بِٱلْوَاوِ لَمْ تَتَرَاكَبِ ٱلْأَلْفَاظُ كَتَرَاكُبِهَا فِي بَيْتِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُ

(ٱلْقِسْمُ ٱلرَّابِعُ مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ) وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَضَمَّنُ مُضَافَاتٍ كَثِيرَةً كَقَوْلِهِمْ: سَرْجُ فَرَسِ غُلَامِ زَيْدٍ. وَإِنْ زِيدَ عَلَى ذٰلِكَ قِيلَ: لِبْدُ سَرْجِ فَرَسِ غُلَامِ زَيْد. وهٰذَا أَشَدُّ قُبْحًا وَأَثْقَلُ عَلَى ٱللِّسَانِ. وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُ ٱبْنِ بَابَكَ ٱلشَّاعِرِ فِي مُفْتَتَحِ قَصِيدَةٍ لَهُ:

حَمَامَةَ جَرْعَا حَوْمَةِ ٱلْجَنْدَلِ ٱسْجَعِي فَأَنْتِ بِمَرْأًى مِنْ سُعَادَ وَمَسْمَعِ

(ٱلْقِسْمُ ٱلْخَامِسُ مِنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ) أَنْ تَرِدَ صِفَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ عَلَى نَحْوٍ وَاحِدٍ. كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ مِنْ قَصِيدَةٍ يَصِفُ رُمْحًا:

وَمَرٍّ تَهْفُو ذُؤَابَتَاهُ عَلَى أَسْمَرِ مَتْنٍ يَوْمَ ٱلْوَغَى جَسَدِهْ
مَارِنُهُ لَدْنُهُ مُثَقَّفُهُ عِرَاضُهُ فِي ٱلْأَكُفِّ مُطَّرِدَهْ

وَهٰذَا كَٱلْأَوَّلِ فِي قُبْحِهِ وَثِقَلِهِ فَقَاتَلَهُ ٱللّٰهُ مَا أَمْتَنَ شِعْرَهُ وَمَا أَسْخَفَهُ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ . . . وَعَلَى هٰذَا وَرَدَ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي:

دَانٍ بَعِيدٍ مُحِبٍّ مُبْغِضٍ بَهِجٍ أَغَرَّ حُلْوٍ مُمِرٍّ لَيِّنٍ شَرِسِ

نَدِ ٱبِيّ غَرٍ وَافٍ أَخِي ثِقَةٍ   جَعْدٍ سَرِيٍّ نَهٍ نَدْبٍ رَضٍ نَدُسِ

وَهٰذَا كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ بِلَا شَكٍّ وَقَلِيلًا مَا يُوجَدُ فِي أَشْعَارِ ٱلشُّعَرَاءِ. وَلَمْ أَجِدْهُ كَثِيرًا إِلَّا فِي شِعْرِ ٱلْفَرَزْدَقِ وَتِلْكَ مُعَاظَلَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ وَهٰذِهِ مُعَاظَلَةٌ لَفْظِيَّةٌ وَهِيَ تُوجَدُ فِي شِعْرِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ كَثِيرًا

البحث العاشر

في المنافرة بين الالفاظ في السبك

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ لَمْ يُحَقِّقْ أَحَدٌ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْبَيَانِ ٱلْقَوْلَ فِيهِ. وَغَايَةُ مَا يُقَالُ: إِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ لَا تَكُونَ ٱلْأَلْفَاظُ نَافِرَةً عَنْ مَوَاضِعِهَا ثُمَّ يُكْتَفَى بِهٰذَا ٱلْقَوْلِ مِنْ غَيْرِ بَيَانٍ وَلَا تَفْصِيلٍ حَتَّى إِنَّهُ قَدْ خُلِطَ هٰذَا ٱلنَّوْعُ بِٱلْمُعَاظَلَةِ وَكُلٌّ مِنْهَا نَوْعٌ مُفْرَدٌ بِرَأْسِهِ لَهُ حَقِيقَةٌ تَخُصُّهُ. إِلَّا أَنَّهُمَا قَدِ ٱشْتَبَهَا عَلَى عُلَمَاءِ ٱلْبَيَانِ فَكَيْفَ عَلَى جَاهِلٍ لَا يَعْلَمُ. وَقَدْ بَيَّنْتُ هٰذَا ٱلنَّوْعَ وَفَصَّلْتُهُ فِي فَصْلِ ٱلْمُعَاظَلَةِ وَضَرَبْتُ لَهُ أَمْثِلَةً يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى أَخَوَاتِهَا وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهَا. وَجُمْلَةُ ٱلْأَمْرِ أَنَّ مَدَارَ سَبْكِ ٱلْأَلْفَاظِ عَلَى هٰذَا ٱلنَّوْعِ وَٱلَّذِي قَبْلَهُ دُونَ غَيْرِهِمَا مِنْ تِلْكَ ٱلْأَنْوَاعِ ٱلْمَذْكُورَةِ. لِأَنَّ هٰذَيْنِ ٱلنَّوْعَيْنِ أَصْلَا سَبْكِ ٱلْأَلْفَاظِ وَمَا عَدَاهُمَا فَرْعٌ عَلَيْهِمَا. وَإِذَا لَمْ يَكُنِ ٱلنَّاثِرُ أَوِ ٱلنَّاظِمُ عَارِفًا بِهِمَا فَإِنَّ مَقَاتِلَهُ كَثِيرَةٌ. وَحَقِيقَةُ هٰذَا ٱلنَّوْعِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُنَافَرَةُ أَنْ يُذْكَرَ لَفْظٌ أَوْ أَلْفَاظٌ يَكُونُ غَيْرُهَا مِمَّا هُوَ فِي مَعْنَاهَا أَوْلَى بِٱلذِّكْرِ. وَعَلَى هٰذَا

فَإِنَّ ٱلْفَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ أَنَّ ٱلْمُعَاظَلَةَ هِيَ ٱلتَّرَاكُبُ وَٱلتَّدَاخُلُ إِمَّا فِي ٱلْأَلْفَاظِ أَوْ فِي ٱلْمَعَانِي عَلَى مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ. وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ لَا تَرَاكُبَ فِيهِ وَإِنَّمَا هُوَ إِيرَادُ أَلْفَاظٍ غَيْرِ لَا ئِقَةٍ بِمَوْضِعِهَا ٱلَّذِي تَرِدُ فِيهِ. وَهُوَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ: أَحَدُهُمَا يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظَةِ ٱلْوَاحِدَةِ وَٱلْآخَرُ فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ. (فَأَمَّا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظَةِ ٱلْوَاحِدَةِ) فَإِنَّهُ إِذَا وَرَدَ فِي ٱلْكَلَامِ أَمْكَنَ تَبْدِيلُهُ بِغَيْرِهِ مِمَّا هُوَ فِي مَعْنَاهُ سَوَاءٌ كَانَ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامُ نَثْرًا أَوْ نَظْمًا. وَأَمَّا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ تَبْدِيلُهُ بِغَيْرِهِ فِي ٱلشِّعْرِ بَلْ يُمْكِنُ ذٰلِكَ فِي ٱلنَّثْرِ خَاصَّةً لِأَنَّهُ يَعْسُرُ فِي ٱلشِّعْرِ مِنْ أَجْلِ ٱلْوَزْنِ. فَمِمَّا جَاءَ مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلْأَوَّلِ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي:

فَلَا يُبْرَمُ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي هُوَ حَالِلٌ وَلَا يُحْلَلُ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي هُوَ يُبْرِمُ

فَلَفْظَةُ حَالِلٌ نَافِرَةٌ عَنْ مَوْضِعِهَا وَكَانَتْ لَهُ مَنْدُوحَةٌ عَنْهَا لِأَنَّهُ لَوِ ٱسْتَعْمَلَ عِوَضًا عَنْهَا لَفْظَةَ (نَاقِضٌ) لَجَاءَتِ ٱللَّفْظَةُ قَارَّةً فِي مَكَانِهَا غَيْرَ قَلِقَةٍ وَلَا نَافِرَةٍ. وَبَلَغَنِي عَنْ أَبِي ٱلْعَلَاءِ: أَنَّهُ كَانَ يَتَعَصَّبُ لِأَبِي ٱلطَّيِّبِ حَتَّى أَنَّهُ كَانَ يُسَمِّيهِ ٱلشَّاعِرَ وَيُسَمِّي غَيْرَهُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ بِٱسْمِهِ وَكَانَ يَقُولُ: لَيْسَ فِي شِعْرِهِ لَفْظَةٌ يُمْكِنُ أَنْ يَقُومَ عَنْهَا مَا هُوَ فِي مَعْنَاهَا فَيَجِيءَ حَسَنًا مِثْلَهَا. فَيَا لَيْتَ شِعْرِي أَمَا وَقَفَ عَلَى هٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهِ لٰكِنَّ ٱلْهَوَى كَمَا يُقَالُ أَعْمَى. وَكَانَ أَبُو ٱلْعَلَاءِ أَعْمَى ٱلْعَيْنِ خِلْقَةً وَأَعْمَاهَا عَصَبِيَّةً فَٱجْتَمَعَ لَهُ ٱلْعَمَى مِنْ جِهَتَيْنِ. وَهٰذِهِ ٱللَّفْظَةُ ٱلَّتِي هِيَ (حَالِلٌ) وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهَا قَبِيحَةُ ٱلْاسْتِعْمَالِ وَهِيَ فَكُّ

الادغام في الفعل الثلاثي ونقله الى اسم الفاعل . وعلى هذا فلا يحسن ان يقال : بلّ الثوب فهو بالّ . ولا : سلّ السيف فهو سالّ . وهذا لو عرض على من لاذوق له لادركه وفهمه فكيف من له ذوق صحيح كابي الطيب . لكن لابدّ لكلّ جواد من كبوة .

وانشد بعض الأدباء بيتا لدعبل وهو :

شفيعك فاشكر في الحوائج انه   يصونك عن مكروهها وهو يخلق

فقلت له : عجز هذا البيت حسن واما صدره فقبيح . لانّ سبكه قلق نافر . وتلك الفاء التي في قوله : شفيعك فاشكر كانها ركبة البعير وهي في زيادتها كزيادة الكرش . . . ومثل هذه الدقائق التي ترد في الكلام نظما كان او نثرا لا يتفطّن لها الا الراسخ في علم الفصاحة والبلاغة . ومن هذا القسم وصلة همزة القطع وهي محسوبة من جائزات الشعر التي لا تجوز في الكلام المنثور . وكذلك قطع همزة الوصل لكنّ وصل همزة القطع اقبح لانه اثقل على اللسان . فمما ورد من ذلك قول ابي الطيب المتنبي :

يوسطه المفاوز كلّ يوم   طلاب الطالبين لا انتظار

فقوله : (لا انتظار) كلام نافر من موضعه . ومن هذا القسم ان يفرق بين الموصوف والصفة بضمير من تقدّم ذكره . كقول البحتري :

حلفت له بالله يوم التفرق   وبالوجد من قلبي به المتعلق

تَقْدِيرُهُ (مِنْ قَلْبِي ٱلْمُتَعَلِّقِ بِهِ) فَلَمَّا فَصَلَ بَيْنَ ٱلْمَوْصُوفِ ٱلَّذِي هُوَ (قَلْبِي) وَٱلصِّفَةِ ٱلَّتِي هِيَ (ٱلْمُتَعَلِّق) بِٱلضَّمِيرِ ٱلَّذِي هُوَ (بِهِ) قَبُحَ ذٰلِكَ . وَلَوْ كَانَ قَالَ مِنْ قَلْبٍ بِهِ مُتَعَلِّقٍ لَزَالَ ذٰلِكَ ٱلْقُبْحُ وَذَهَبَتْ تِلْكَ ٱلْهُجْنَةُ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ أَيْضًا أَنْ تُرَادَ ٱلْأَلِفُ وَٱللَّامُ فِي ٱسْمِ ٱلْفَاعِلِ وَيُقَامَ ٱلضَّمِيرُ فِيهِ مُقَامَ ٱلْمَفْعُولِ . كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

فَلَوْ عَايَنْتَهُمْ وَٱلزَّائِرِيهِمْ   لَمَا مِزْتَ ٱلْبَعِيدَ مِنَ ٱلْحَمِيمِ

فَقَوْلُهُ : (ٱلزَّائِرِي) ٱسْمُ فَاعِلٍ . وَقَوْلُهُ : (وَٱلزَّائِرِيهِمْ) هُوَ ٱلضَّمِيرُ فِي مَوْضِعِ ٱلْمَفْعُولِ . تَقْدِيرُهُ :(ٱلزَّائِرِينَ أَرْضَهُمْ أَوْ دَارَهُمْ أَوِ ٱلزَّائِرِينَ إِيَّاهُمْ) فَٱسْتِعْمَالُ هٰذَا مَعَ ٱلْأَلِفِ وَٱللَّامِ قَبِيحٌ جِدًّا . وَإِذَا حَذَفْنَا زَالَ ذٰلِكَ ٱلْقُبْحُ . وَقَدِ ٱسْتَعْمَلَهَا ٱلشُّعَرَاءُ ٱلْمُتَقَدِّمُونَ كَثِيرًا

(وَمِمَّا جَاءَ مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلثَّانِي) ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ أَيْضًا :

لَا خَلْقَ أَكْرَمُ مِنْكَ إِلَّا عَارِفٌ   بِكَ رَاءَ نَفْسَكَ لَمْ يَقُلْ لَكَ هَاتِهَا

فَإِنَّ عَجُزَ هٰذَا ٱلْبَيْتِ نَافِرٌ عَنْ مَوَاضِعِهِ . وَأَمْثَالُ هٰذَا فِي ٱلْأَشْعَارِ كَثِيرٌ



الفصل السادس

في وجوه الكلام

(راجع صفحة ٦٦ من علم الادب)

البحث الاول

في وجوه البلاغة وطبقات الكلام

(من العقد الفريد لابن عبد ربه)

اَلْبَلَاغَةُ تَكُونُ عَلَى اَرْبَعَةِ اَوْجُهٍ : تَكُونُ بِاللَّفْظِ وَاَلْخَطِّ وَاَلْاِشَارَةِ وَاَلدَّلَالَةِ . وَكُلٌّ مِنْهَا لَهُ حَظٌّ مِنَ اَلْبَلَاغَةِ وَاَلْبَيَانِ وَمَوْضِعٌ لَا يَجُوزُ فِيهِ غَيْرُهُ . وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ : لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ وَلِكُلِّ كَلَامٍ جَوَابٌ . وَرُبَّ اِشَارَةٍ اَبْلَغُ مِنْ لَفْظٍ . فَاَمَّا اَلْخَطُّ وَاَلْاِشَارَةُ فَمَفْهُومَانِ عِنْدَ اَلْخَاصَّةِ وَاَكْثَرِ الْعَامَّةِ . وَاَمَّا اَلدَّلَالَةُ فَكُلُّ شَيْءٍ دَلَّكَ عَلَى شَيْءٍ فَقَدْ اَخْبَرَكَ بِهِ . . . . وَقَالَ اَبْرَوِيزُ لِكَاتِبِهِ : اَعْلَمْ اَنَّ دَعَائِمَ اَلْمَقَالَاتِ اَرْبَعٌ : اِنِ اَلْتُمِسَ لَهَا خَامِسٌ لَمْ يُوجَدْ فَاِنْ نَقَصَ مِنْهَا وَاحِدٌ لَمْ تَتِمَّ وَهِيَ : سُؤَالُكَ اَلشَّيْءَ وَاَمْرُكَ بِالشَّيْءِ وَاِخْبَارُكَ عَنِ اَلشَّيْءِ وَسُؤَالُكَ عَنِ اَلشَّيْءِ . فَاِذَا طَلَبْتَ فَاَسْجِحْ . وَاِذَا سَاَلْتَ فَاَوْضِحْ وَاِذَا اَمَرْتَ فَاَحْكُمْ . وَاِذَا اَخْبَرْتَ فَحَقِّقْ . وَاجْمَعِ اَلْكَثِيرَ مِمَّا تُرِيدُ فِي اَلْقَلِيلِ مِمَّا تَقُولُ (يُرِيدُ اَلْكَلَامَ اَلَّذِي تَقِلُّ حُرُوفُهُ وَتَكْثُرُ مَعَانِيهِ) . وَقَالَ رَبِيعَةُ : اَلرَّأْيُ اَنْ لَا اَسْمَعَ اَلْحَدِيثَ عُطْلًا فَاُشَنِّفَهُ وَاُقَرِّطَهُ فَيَحْسُنُ وَمَا زِدْتُ فِيهِ شَيْئًا وَلَا غَيَّرْتُ

لَهُ معنًى . وَقَالُوا : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا لَمْ يُحْتَجْ بَعْدَهُ إِلَى كَلَامٍ وَلِلْعَرَبِ مِنْ مُوجَزِ ٱللَّفْظِ وَلَطِيفِ ٱلْمَعْنَى فُصُولٌ عَجِيبَةٌ وَبَدَائِعُ غَرِيبَةٌ . قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ ٱلشَّيْبَانِيُّ : إِذَا ٱحْتَجْتَ إِلَى مُخَاطَبَةِ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْوُزَرَاءِ وَٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْكُتَّابِ وَٱلْخُطَبَاءِ وَٱلْأُدَبَاءِ وَٱلشُّعَرَاءِ وَأَوْسَاطِ ٱلنَّاسِ وَسُوقَتِهِمْ فَخَاطِبْ كُلًّا عَلَى قَدْرِ أُبَّهَتِهِ وَجَلَالَتِهِ وَعُلُوِّهِ وَٱرْتِفَاعِهِ وَفِطْنَتِهِ وَٱنْتِبَاهِهِ وَٱجْعَلْ طَبَقَاتِ ٱلْكَلَامِ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَقْسَامٍ : مِنْهَا ٱلطَّبَقَاتُ ٱلْعَلِيَّةُ أَرْبَعٌ وَٱلطَّبَقَاتُ ٱلْأُخَرُ وَهِيَ دُونَهَا أَرْبَعٌ لِكُلِّ طَبَقَةٍ مِنْهَا دَرَجَةٌ وَلِكُلٍّ قِسْمَةٌ . لَا يَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ ٱلْبَلِيغِ أَنْ يُقَصِّرَ بِأَهْلِهَا عَنْهَا وَيَقْلِبَ مَعْنَاهَا إِلَى غَيْرِهَا . (فَٱلْحَدُّ ٱلْأَوَّلُ) ٱلطَّبَقَاتُ ٱلْعُلْيَا وَغَايَتُهَا ٱلْقُصْوَى ٱلْخِلَافَةُ ٱلَّتِي أَجَلَّ ٱللهُ قَدْرَهَا وَأَعْلَى شَأْنَهَا عَنْ مُسَاوَاتِهَا بِأَحَدٍ مِنْ أَبْنَاءِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلتَّعْظِيمِ وَٱلتَّوْقِيرِ . (وَٱلطَّبَقَةُ ٱلثَّانِيَةُ) لِوُزَرَائِهَا وَكُتَّابِهَا ٱلَّذِينَ يُخَاطِبُونَ ٱلْخُلَفَاءَ بِعُقُولِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ وَيَرْتُقُونَ ٱلْفُتُوقَ بِآرَائِهِمْ . (وَٱلطَّبَقَةُ ٱلثَّالِثَةُ) أُمَرَاءُ ثُغُورِهِمْ وَقُوَّادُ جُنُودِهِمْ فَإِنَّهُ يَجِبُ مُخَاطَبَةُ كُلِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ عَلَى قَدْرِهِ وَمَوْضِعِهِ وَحَظِّهِ وَغَنَائِهِ وَجَزَائِهِ وَٱضْطِلَاعِهِ بِمَا حَمَلَ مِنْ أَعْبَاءِ أُمُورِهِمْ وَجَلَائِلِ أَعْمَالِهِمْ . (وَٱلرَّابِعَةُ) ٱلْقُضَاةُ فَإِنَّهُمْ وَإِنْ كَانَ لَهُمْ تَوَاضُعُ ٱلْعُلَمَاءِ وَحِلْيَةُ ٱلْفُضَلَاءِ فَمَعَهُمْ أُبَّهَةُ ٱلسَّلْطَنَةِ وَهَيْبَةُ ٱلْأُمَرَاءِ . وَأَمَّا ٱلطَّبَقَاتُ ٱلْأَرْبَعُ ٱلْأُخَرُ فَهُمُ ٱلْمُلُوكُ ٱلَّذِينَ أَوْجَبَتْ نِعَمُهُمْ تَعْظِيمَهُمْ فِي ٱلْكُتُبِ إِلَيْهِمْ وَأَفْضَالُهُمْ تَفَضُّلَهُمْ فِيهَا . (وَٱلثَّانِيَةُ) وُزَرَاؤُهُمْ وَكُتَّابُهُمْ وَأَتْبَاعُهُمُ ٱلَّذِينَ تُقْرَعُ أَبْوَابُهُمْ وَبِعِنَايَتِهِمْ تُسْتَبَاحُ أَمْوَالُهُمْ . (وَٱلثَّالِثَةُ) هُمُ ٱلْعُلَمَاءُ

يَجِبُ تَوْقِيرُهُمْ فِي ٱلْكُتُبِ بِشَرَفِ ٱلْعِلْمِ وَعُلُوِّ دَرَجَةِ أَهْـلِهِ . (وَٱلطَّبَقَةُ ٱلرَّابِعَةُ) لِأَهْلِ ٱلْقَدْرِ وَٱلْجَلَالَةِ وَٱلْحَلَاوَةِ وَٱلطَّلَاوَةِ وَٱلظَّرْفِ وَٱلْأَدَبِ فَإِنَّهُمْ يَضْطَرُّونَكَ بِحِدَّةِ أَذْهَانِهِمْ وَشِدَّةِ تَمْيِيزِهِمْ وَٱنْتِقَادِهِمْ وَأَدَبِهِمْ وَتَصَفُّحِهِمْ إِلَى ٱلْاِسْتِقْصَاءِ عَلَى نَفْسِكَ فِي مُكَاتَبَتِهِمْ وَٱسْتَغْنَيْنَا عَنِ ٱلتَّرْتِيبِ لِلسُّوقَةِ وَٱلْعَوَامِّ وَٱلتُّجَّارِ بِٱسْتِغْنَائِهِمْ بِمِهَانَتِهِمْ مِنْ هٰذِهِ ٱلْآلَاتِ وَٱشْتِغَالِهِمْ بِمِهَنَاتِهِمْ عَنْ هٰذِهِ ٱلْأَدَوَاتِ . وَلِكُلِّ طَبَقَـةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلطَّبَقَاتِ مَعَانٍ وَمَذَاهِبُ يَجِبُ عَلَيْـكَ أَنْ تَرْعَاهَا فِي مُرَاسَلَتِكَ إِيَّاهُمْ فِي كُتُبِكَ فَتَزِنَ كَلَامَكَ فِي مُخَاطَبَتِهِمْ بِمِيزَانِهِ وَتُعْطِيَهُ قِسْمَهُ وَتُوفِيَهُ نَصِيبَهُ . فَإِنَّكَ مَتَى أَهْمَلْتَ ذٰلِكَ وَأَضَعْتَهُ لَمْ آمَنْ عَلَيْكَ أَنْ تَعْدِلَ بِهِمْ عَنْ كَلَامِكَ فِي غَيْرِ مَسْلَكِهِ فَلَا تَعْتَدَّ بِٱلْمَعْنَى ٱلْجَزْلِ مَا لَمْ تُلْبِسْهُ لَفْظًا لَائِقًا بِمَنْ كَاتَبْتَهُ وَمَلْمَسًا بِمَنْ رَاسَلْتَهُ. فَإِنَّ إِلْبَاسَـكَ ٱلْمَعْنَى وَإِنْ صَحَّ وَصَرُفَ لَفْظًا مُخْتَلِفًا عَلَى قَدْرِ ٱلْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ لَمْ تَجْرِ بِهِ عَادَتُهُمْ تَهْجِينٌ لِلْمَعْنَى وَإِخْلَالٌ بِقَـدْرِهِ وَظُلْمٌ بِحَقِّ ٱلْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ وَنَقْصٌ بِمَا يَجِبُ لَهُ كَمَا أَنَّ فِي ٱتِّبَاعِ تَعَارُفِهِمْ وَمَا ٱنْتَشَرَتْ بِهِ عَادَاتُهُمْ وَجَرَتْ بِهِ أَلْسِنَتُهُمْ قَطْعًا لِعُذْرِهِمْ وَخُرُوجًا مِنْ حُقُوقِهِمْ وَبُلُوغًا إِلَى غَايَةِ مُرَادِهِمْ وَإِسْقَاطًا لِحُجَّةِ أَدَبِهِمْ. فَمِنَ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمَرْغُوبِ عَنْهَا وَٱلصُّـدُورِ ٱلْمُسْتَوْحَشِ مِنْهَا فِي كُتُبِ ٱلسَّادَاتِ وَٱلْمُلُوكِ وَٱلْأُمَرَاءِ عَلَى ٱتِّفَاقِ ٱلْمَعَانِي مِثْلُ : أَبْقَـاكَ ٱللّٰهُ طَوِيلًا وَعَمَّرَكَ مَلِيًّا . وَإِنْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنْ لَا فَرْقَ بَيْنَ قَوْلِهِمْ : أَطَالَ ٱللّٰهُ بَقَاءَكَ . وَبَيْنَ قَوْلِهِمْ : أَبْقَاكَ ٱللّٰهُ طَوِيلًا . وَلٰـكِنَّهُمْ جَعَلُوا هٰذَا

أرجح وزنًا وأنبه قدرًا في المخاطبة كما أنهم جعلوا : أكرمك الله وأبقاك . أحسن منزلًا في كتب الفضلاء والأدباء من جعلت فداك على اشتراك معناه واحتمال أن يكون فداه من الخير كما يحتمل أن يكون فداه من الشر . على أن كتّاب العسكر وعوامهم قد ولعوا بهذه اللفظة حتى استعملوها في جميع محاوراتهم وجعلوها هجّيراهم في مخاطبة الشريف والوضيع والكبير والصغير . ولذلك قال محمود الورّاق :

كلُّ من حلَّ سرَّ من را من النّا ... س ومن قد يداخل الأملاكا

لو رأى الكلب مائلًا بطريق ... قال للكلب يا جعلت فداكا

وكذلك لم يجيزوا أن يكتبوا بمثل أبقاك الله وأمتع بك إلّا في الابن والخادم المنقطع إليك . وأما في كتب الإخوان فغير جائز بل مذموم مرغوب عنه . . . ولكلّ مكتوب إليه قدر ووزن ينبغي للكاتب أن لا يجاوزه عنه ولا يقصر به دونه . وقد رأيتهم عابوا الأحوص حين خاطب الملوك خطاب العوامّ في قوله :

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم ... مذق الحديث يقول ما لا يفعل

وهذا معنى صحيح في المدح ولكنهم أجلّوا قدر الملوك أن يمدح بما تمدح به العوامّ لأنّ صدق الحديث وإنجاز الوعد وإن كان من المدح فهو واجب على العامّة . والملوك لا يمدحون بالفرائض الواجبة . إنّما يحسن مدحهم بالنوافل لأنّ المادح لو قال لبعض الملوك : إنّك لا تخون ما استودعت وإنّك لتصدق في وعدك وتفي

بِعَهْدِكَ . فَكَأَنَّهُ قَدْ أَثْنَى بِمَا يَجِبُ وَلَوْ قَصَدَ بِثَنَائِهِ إِلَى مَقْصَدِهِ كَانَ أَشْبَهَ بِالْمُلُوكِ . وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ أَمِيرٍ يَتَوَلَّى دُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ شَيْئًا فَهُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَمْ يُطْلِقُوا هٰذِهِ اللَّفْظَةَ إِلَّا فِي الْخُلَفَاءِ خَاصَّةً . وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الْكَيِّسَ هُوَ الْعَقْلُ . وَلٰكِنْ إِنْ وَصَفْتَ رَجُلًا فَقُلْتَ : إِنَّهُ لَعَاقِلٌ . كُنْتَ مَدَحْتَهُ عِنْدَ النَّاسِ . وَإِنْ قُلْتَ : إِنَّهُ لَكَيِّسٌ كُنْتَ قَدْ قَصَّرْتَ بِهِ عَنْ وَصْفِهِ وَصَغَّرْتَ مِنْ قَدْرِهِ . إِلَّا عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِاللُّغَةِ لِأَنَّ الْعَامَّةَ لَا تَلْتَفِتُ إِلَى مَعْنَى الْكَلِمَةِ وَلٰكِنْ إِلَى مَا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ مِنِ اسْتِعْمَالِهَا فِي الظَّاهِرِ إِذْ كَانَ اسْتِعْمَالُ الْعَامَّةِ لِهٰذِهِ الْكَلِمَةِ مَعَ الْحَدَاثَةِ وَالْغِرَّةِ وَخَسَاسَةِ الْقَدْرِ وَصِغَرِ السِّنِّ . . . فَامْتَثِلْ هٰذِهِ الْمَذَاهِبَ وَاجْرِ عَلَى هٰذِهِ الْقِوَامِ وَتَحَفَّظْ فِي صُدُورِ كُتُبِكَ وَفُصُولِهَا وَخَوَاتِمِهَا وَضَعْ كُلَّ مَعْنًى فِي مَوْضِعٍ يَلِيقُ بِهِ وَتَخَيَّرْ لِكُلِّ لَفْظَةٍ مَعْنًى يُشَاكِلُهَا وَلْيَكُنْ مَا تَخْتِمُ بِهِ فُصُولَكَ فِي مَوْضِعِ ذِكْرِ الْبَلْوَى بِمِثْلِ : (نَسْأَلُ اللهَ دَفْعَ الْمَحْذُورِ وَصَرْفَ الْمَكْرُوهِ) وَأَشْبَاهِ هٰذَا . وَفِي مَوْضِعِ ذِكْرِ الْمُصِيبَةِ : إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . وَفِي مَوْضِعِ ذِكْرِ النِّعْمَةِ : (الْحَمْدُ لِلّٰهِ خَالِصًا وَالشُّكْرُ لِلّٰهِ وَاجِبًا) . فَإِنَّ هٰذِهِ الْمَوَاضِعَ يَجِبُ عَلَى الْكَاتِبِ أَنْ يَتَفَقَّدَهَا وَيَحْتَفِظَ بِهَا . فَإِنَّ الْكَاتِبَ إِنَّمَا يَصِيرُ كَاتِبًا بِأَنْ يَضَعَ كُلَّ مَعْنًى فِي مَوْضِعِهِ فَيُعَلِّقَ كُلَّ لَفْظَةٍ عَلَى طَبَقِهَا مِنَ الْمَعْنَى . وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ فِي الرَّسَائِلِ اسْتِعْمَالُ الِاقْتِصَارِ وَالْحَذْفِ وَمُخَاطَبَةُ الْخَاصِّ بِالْعَامِّ وَالْعَامِّ بِالْخَاصِّ . وَكَذٰلِكَ يَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ

أَنْ يَجْتَنِبَ ٱللَّفْظَ ٱلْمُشْتَرَكَ وَٱلْمَعْنَى ٱلْمُلْتَبِسَ . . . وَكَذٰلِكَ لَا يَجُوزُ أَيْضًا فِي ٱلرَّسَائِلِ وَٱلْبَلَاغَاتِ ٱلْمَشْهُورَةِ مَا يَجُوزُ فِي ٱلْأَشْعَارِ ٱلْمَوْزُونَةِ لِأَنَّ ٱلشَّاعِرَ مُضْطَرٌّ وَٱلشِّعْرَ مَقْصُودٌ مُقَيَّدٌ بِٱلْوَزْنِ وَٱلْقَوَافِي. فَلِذٰلِكَ أَجَازُوا لَهُمْ صَرْفَ مَا لَا يَنْصَرِفُ مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ وَحَذْفَ مَا لَا يُحْذَفُ مِنْهَا وَٱغْتُفِرَ فِيهِ سُوءُ ٱلتَّظَلُّمِ وَأَجَازُوا فِيهِ ٱلتَّقْدِيمَ وَٱلتَّأْخِيرَ وَٱلْإِضْمَارَ فِي مَوْضِعِ ٱلْإِظْهَارِ وَذٰلِكَ كُلُّهُ غَيْرُ سَائِغٍ فِي ٱلرَّسَائِلِ وَلَا جَائِزٌ فِي ٱلْبَلَاغَاتِ . . . وَكَذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي فِي ٱلرَّسَائِلِ أَنْ يُصَغَّرَ ٱلْإِسْمُ فِي مَوْضِعِ ٱلتَّعْظِيمِ وَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ جَائِزًا مِثْلُ قَوْلِهِمْ : دُوَيْهِيَةٌ تَصْغِيرُ دَاهِيَةٍ . وَجُذَيْلٌ تَصْغِيرُ جِذْلٍ . وَعُذَيْقٌ تَصْغِيرُ عِذْقٍ . وَقَالَ لَبِيدٌ :

وَكُلُّ أُنَاسٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُمْ دُوَيْهِيَةٌ تَصْفَرُّ مِنْهَا ٱلْأَنَامِلُ

وَقَالَ ٱلْحُبَابُ بْنُ ٱلْمُنْذِرِ يَوْمَ سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ : أَنَا عُذَيْقُهَا ٱلْمُرَجَّبُ وَجُذَيْلُهَا ٱلْمُحَكَّكُ . وَقَالَ سَرْحَةُ أَبُو عُبَيْدَةَ : وَمِمَّا لَا يَجُوزُ فِي ٱلرَّسَائِلِ وَكَرِهُوهُ فِي ٱلْكَلَامِ أَيْضًا مِثْلُ قَوْلِهِمْ : كَلَّمْتُ إِيَّاكَ وَأَعْنِي إِيَّاكَ وَهُوَ جَائِزٌ فِي ٱلشِّعْرِ . قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

وَأَجْمِلْ وَأَحْسِنْ فِي أَسِيرِكَ إِنَّهُ ضَعِيفٌ وَلَمْ يَأْسِرْ كَإِيَّاكَ آسِرُ

فَتَخَيَّرْ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ أَرْجَحَهَا لَفْظًا وَأَجْزَلَهَا وَأَشْرَفَهَا جَوْهَرًا وَأَكْرَمَهَا حَسَبًا وَأَلْيَقَهَا فِي مَكَانِهَا وَأَشْكَلَهَا فِي مَوْضِعِهَا فَإِنْ حَاوَلْتَ صَنْعَةَ رِسَالَةٍ فَزِنِ ٱللَّفْظَةَ قَبْلَ أَنْ تُخْرِجَهَا بِمِيزَانِ ٱلتَّصْرِيفِ إِذَا عَرَضْتَ. وَعَايِرِ ٱلْكَلِمَةَ بِمِعْيَارٍ إِذَا سَنَحَتْ. فَإِنَّهُ رُبَّمَا مَرَّ بِكَ مَوْضِعٌ يَكُونُ مَخْرَجُ ٱلْكَلَامِ إِذَا كَتَبْتَ : أَنَا فَاعِلٌ. أَحْسَنَ مِنْ أَنْ

تَكتُبَ : انا افعلُ . وَموضِعٌ آخرُ يكونُ فِيهِ (استفعلتُ) احلى من (فعلتُ) فَأَدِرِ الكلامَ عَلَى اعكانِهِ وَقَلِّبْهُ عَلَى جميعِ وُجوهِهِ فَايُّ لفظةٍ رَأَيتَها فِي المكانِ الذي ندبتها اليهِ فَانزعها الى المكانِ الذي اوردتها عليهِ واوقعها فيهِ . وَلا تجعلِ اللفظةَ قلقةً في موضعها نافرةً عن مكانها فإنَّكَ متى فعلتَ هجَّنتَ الموضعَ الذي حاولتَ تحسينهُ وافسدتَ المكانَ الذي اردتَ اصلاحهُ فإنَّ وضعَ الالفاظِ في غيرِ اماكنِها وقصدكَ بها الى غيرِ مصابِها انما هو كترقيعِ الثوبِ الذي لم يشابههُ رقاعهُ ولم تتقاربْ اجزاؤهُ وخرجَ من حدِّ الجدةِ وتغيَّرَ حسنُهُ . كما قال الشاعرُ :

إنَّ الجديدَ اذا ما زِيدَ في خَلَقٍ … يَبِينُ للناسِ أنَّ الثوبَ مرقوعُ

كذلكَ كُلَّما احلولى الكلامُ وعذبَ وراقَ وسهلتْ مخارجُهُ كانَ اسهلَ وأرجى في الاسماعِ واشدَّ اتصالاً بالقلوبِ واخفَّ على الافواهِ لاسيَّما إنْ كانَ المعنى البديعُ مترجماً بلفظٍ مونقٍ شريفٍ ومعايراً بكلامٍ عذبٍ لم يسمْهُ التكليفُ بميسمِهِ ولم يفسدْهُ التعقيدُ باستهلاكه . . . وقد رأيتهم شبَّهوا المعنى الخفيَّ بالروحِ الخفيِّ . واللفظَ الظاهرَ بالجثمانِ الظاهرِ . وإذا لم ينهضْ بالمعنى الشريفِ الجزلِ لفظٌ شريفٌ جزلٌ لم تكنِ العبارةُ واضحةً ولا النظامُ متَّسقاً . وتضاؤلُ المعنى الحسنِ تحتَ اللفظِ القبيحِ كتضاؤلِ الحسناءِ في الاطمارِ الرثَّةِ . وإنما يدلُّ على المعنى اربعةُ اصنافٍ : لفظٌ واشارةٌ وعقدٌ وخطٌّ . وقد ذكرَ له ارسطاطاليسُ صنفاً خامساً في كتابِ

ٱلْمَنْطِقِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلنِّصْبَةَ . وَٱلنِّصْبَةُ ٱلْحَالُ ٱلدَّالَّةُ ٱلَّتِي تَقُومُ مَقَامَ تِلْكَ ٱلْأَصْنَافِ ٱلْأَرْبَعَةِ وَهِيَ ٱلنَّاطِقَةُ بِغَيْرِ لَفْظٍ وَمُشِيرَةٌ إِلَيْكَ بِغَيْرِ يَدٍ وَذٰلِكَ ظَاهِرٌ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَكُلِّ صَامِتٍ وَنَاطِقٍ. وَجَمِيعُ هٰذِهِ ٱلْأَصْنَافِ ٱلْخَمْسَةِ كَاشِفَةٌ عَنْ أَعْيَانِ ٱلْمَعَانِي وَسَافِرَةٌ عَنْ وُجُوهِهَا وَأَوْضَحُ هٰذِهِ ٱلدَّلَائِلِ وَأَفْصَحُ هٰذِهِ ٱلْأَصْنَافِ صِنْفَانِ : هُمَا ٱلْقَلَمُ وَٱللِّسَانُ وَكِلَاهُمَا تَرْجُمَانٌ . فَأَمَّا ٱللِّسَانُ فَهُوَ ٱلْآلَةُ ٱلَّتِي يَخْرُجُ ٱلْإِنْسَانُ بِهَا عَنْ حَدِّ ٱلِٱسْتِبْهَامِ إِلَى حَدِّ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ بِٱلْكَلَامِ . وَلِذٰلِكَ قَالَ صَاحِبُ ٱلْمَنْطِقِ : حَدُّ ٱلْإِنْسَانِ ٱلْحَيُّ ٱلنَّاطِقُ

البحث الثاني

في بيان المطبوع من الكلام والمصنوع (١)

(من مقدمة ابن خلدون باختصار)

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْكَلَامَ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْعِبَارَةُ وَٱلْخِطَابُ إِنَّمَا سِرُّهُ وَرُوحُهُ فِي إِفَادَةِ ٱلْمَعْنَى . وَأَمَّا إِذَا كَانَ مُهْمَلًا فَهُوَ كَٱلْمَوَاتِ ٱلَّذِي لَا عِبْرَةَ بِهِ وَكَمَالُ ٱلْإِفَادَةِ هُوَ ٱلْبَلَاغَةُ عَلَى مَا عَرَفْتَ مِنْ حَدِّهَا عِنْدَ أَهْلِ ٱلْبَيَانِ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: هِيَ مُطَابَقَةُ ٱلْكَلَامِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ . وَمَعْرِفَةُ ٱلشُّرُوطِ وَٱلْأَحْكَامِ ٱلَّتِي بِهَا تُطَابِقُ ٱلتَّرَاكِيبُ ٱللَّفْظِيَّةُ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ هُوَ فَنُّ ٱلْبَلَاغَةِ . وَتِلْكَ ٱلشُّرُوطُ وَٱلْأَحْكَامُ تُؤْخَذُ مِنْ عِلْمَيِ

(١) ان هذا الفصل لا يوجد في نسخة مقدمة ابن خلدون المطبوعة في مصر وبيروت بل في طبعة باريز

ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ فَعِلْمُ ٱلْمَعَانِي وَعِلْمُ ٱلْبَيَانِ هُمَا جُزْءَا ٱلْبَلَاغَةِ وَبِهِمَا كَمَالُ ٱلْإِفَادَةِ وَٱلْمُطَابَقَةُ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ. فَٱلْبَلَاغَةُ عَلَى هٰذَا هِيَ أَصْلُ ٱلْكَلَامِ ٱلْعَرَبِيِّ وَسَجِيَّتُهُ وَرُوحُهُ وَطَبِيعَتُهُ . ثُمَّ ٱعْلَمْ أَنَّهُمْ إِذَا قَالُوا ٱلْكَلَامَ ٱلْمَطْبُوعَ فَإِنَّهُمْ يَعْنُونَ بِهِ ٱلْكَلَامَ ٱلَّذِي كَمُلَتْ طَبِيعَتُهُ وَسَجِيَّتُهُ مِنْ إِفَادَةِ مَدْلُولِهِ ٱلْمَقْصُودِ مِنْهُ لِأَنَّهُ عِبَارَةٌ وَخِطَابٌ لَيْسَ ٱلْمَقْصُودُ مِنْهُ ٱلنُّطْقُ فَقَطْ . بَلِ ٱلْمُتَكَلِّمُ يَقْصِدُ بِهِ أَنْ يُفِيدَ سَامِعَهُ مَا فِي ضَمِيرِهِ إِفَادَةً تَامَّةً وَيَدُلُّ بِهِ عَلَيْهِ دَلَالَةً وَثِيقَةً. ثُمَّ يَتْبَعُ تَرَاكِيبَ ٱلْكَلَامِ فِي هٰذِهِ ٱلسَّجِيَّةِ ٱلَّتِي لَهُ بِٱلْأَصَالَةِ ضُرُوبٌ مِنَ ٱلتَّحْسِينِ وَٱلتَّزْيِينِ بَعْدَ كَمَالِ ٱلْإِفَادَةِ وَكَأَنَّهَا تُعْطِيهَا رَوْنَقَ ٱلْفَصَاحَةِ مِنْ تَنْمِيقِ ٱلْأَسْجَاعِ وَٱلْمُوَازَنَةِ بَيْنَ جُمَلِ ٱلْكَلَامِ وَتَقْسِيمِهِ بِٱلْأَقْسَامِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ ٱلْأَحْكَامِ وَٱلتَّوْرِيَةِ بِٱللَّفْظِ ٱلْمُشْتَرَكِ عَنِ ٱلْخَفِيِّ مِنْ مَعَانِيهِ وَٱلْمُطَابَقَةِ بَيْنَ ٱلْمُتَضَادَّاتِ لِيَقَعَ ٱلتَّجَانُسُ بَيْنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِي فَيَحْصُلَ لِلْكَلَامِ رَوْنَقٌ وَلَذَّةٌ فِي ٱلْأَسْمَاعِ وَحَلَاوَةٌ وَجَمَالٌ كُلُّهَا زَائِدَةٌ عَلَى ٱلْإِفَادَةِ . وَهٰذِهِ ٱلصَّنْعَةُ مَوْجُودَةٌ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْمُعْجِزِ فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِثْلُ : وَٱللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى . وَمِثْلُ : فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَٱتَّقَى وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَى إِلَى آخِرِ ٱلتَّقْسِيمِ . وَكَذَا : فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا إِلَى آخِرِهِ . وَكَذَا : وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا . وَأَمْثَالُهُ كَثِيرٌ . وَذٰلِكَ بَعْدَ كَمَالِ ٱلْإِفَادَةِ فِي أَصْلِ هٰذِهِ ٱلتَّرَاكِيبِ قَبْلَ وُقُوعِ هٰذَا ٱلْبَدِيعِ فِيهَا . وَكَذَا وَقَعَ فِي كَلَامِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ مِنْهُ لٰكِنْ عَفْوًا مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا تَعَمُّدٍ . وَيُقَالُ

إِنَّهُ وَقَعَ فِي شِعْرِ زُهَيْرٍ . وَأَمَّا ٱلْإِسْلَامِيُّونَ فَوَقَعَ لَهُمْ عَفْوًا وَقَصْدًا وَأَتَوْا مِنْهُ بِٱلْعَجَائِبِ . وَأَوَّلُ مَنْ أَحْكَمَ طَرِيقَتَهُ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ وَٱلْبُحْتُرِيُّ وَمُسْلِمُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ فَقَدْ كَانُوا مُولَعِينَ بِٱلصَّنْعَةِ وَيَأْتُونَ مِنْهَا بِٱلْعَجَبِ . وَقِيلَ إِنَّ أَوَّلَ مَنْ ذَهَبَ إِلَى مُعَانَاتِهَا بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ وَٱبْنُ هَرْمَةَ وَكَانَا آخِرَ مَنْ يُسْتَشْهَدُ بِشِعْرِهِ فِي ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ . ثُمَّ ٱتَّبَعَهُمَا كُلْثُومُ بْنُ عَمْرٍو وَٱلْعَتَّابِيُّ وَمَنْصُورُ ٱلنَّمَرِيُّ وَمُسْلِمُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ وَأَبُو نُوَاسٍ . وَجَاءَ عَلَى آثَارِهِمْ حَبِيبٌ وَٱلْبُحْتُرِيُّ . ثُمَّ ظَهَرَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ فَخَتَمَ عَلَى ٱلْبَدِيعِ وَٱلصِّنَاعَةِ أَجْمَعَ

فَتَأَمَّلْ قَوْلَهُمُ ٱلْمَطْبُوعَ ٱلْفَقِيدَ ٱلصَّنْعَةِ فِي إِحْكَامِ تَأْلِيفِهِ وَثِقَافَةِ تَرْكِيبِهِ فَلَوْ جَاءَتْ فِيهِ ٱلصَّنْعَةُ مِنْ بَعْدِ هٰذَا ٱلْأَصْلِ زَادَتْهُ حُسْنًا . وَأَمَّا ٱلْمَصْنُوعُ فَكَثِيرٌ مِنْ لَدُنْ بَشَّارٍ ثُمَّ حَبِيبٍ وَطَبَقَتِهِمَا ثُمَّ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ خَاتِمِ ٱلصَّنْعَةِ ٱلَّذِينَ جَرَى ٱلْمُتَأَخِّرُونَ بَعْدَهُمْ فِي مَيْدَانِهِمْ وَنَسَجُوا عَلَى مِنْوَالِهِمْ . وَقَدْ تَعَدَّدَتْ أَصْنَافُ هٰذِهِ ٱلصَّنْعَةِ عِنْدَ أَهْلِهَا وَٱخْتَلَفَتِ ٱصْطِلَاحَاتُهُمْ فِي أَلْقَابِهَا . وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَجْعَلُهَا مُنْدَرِجَةً فِي ٱلْبَلَاغَةِ عَلَى أَنَّهَا غَيْرُ دَاخِلَةٍ فِي ٱلْإِفَادَةِ وَإِنَّمَا هِيَ تُعْطِي ٱلتَّحْسِينَ وَٱلرَّوْنَقَ . وَأَمَّا ٱلْمُتَقَدِّمُونَ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَدِيعِ فَهِيَ عِنْدَهُمْ خَارِجَةٌ عَنِ ٱلْبَلَاغَةِ وَلِذٰلِكَ يَذْكُرُونَهَا فِي ٱلْفُنُونِ ٱلْأَدَبِيَّةِ ٱلَّتِي لَا مَوْضُوعَ لَهَا . وَهِيَ رَأْيُ ٱبْنِ رَشِيقٍ فِي كِتَابِ ٱلْعُمْدَةِ لَهُ وَأُدَبَاءِ ٱلْأَنْدَلُسِ . وَذَكَرُوا فِي ٱسْتِعْمَالِ هٰذِهِ ٱلصَّنْعَةِ شُرُوطًا مِنْهَا أَنْ تَقَعَ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ وَلَا ٱكْتِرَاثٍ فِيمَا يُقْصَدُ مِنْهَا . وَأَمَّا ٱلْعَفْوُ فَلَا كَلَامَ فِيهِ

لِأَنَّهَا إِذَا بَرِئَتْ مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ سَلِمَ ٱلْكَلَامُ مِنْ عَيْبِ ٱلِٱسْتِهْجَانِ لِأَنَّ تَكَلُّفَهَا وَمُعَانَاتَهَا يَصِيرُ إِلَى ٱلْغَفْلَةِ عَنِ ٱلتَّرَاكِيبِ ٱلْأَصْلِيَّةِ لِلْكَلَامِ فَتُخِلُّ بِٱلْإِفَادَةِ مِنْ أَصْلِهَا وَتَذْهَبُ بِٱلْبَلَاغَةِ رَأْساً وَلَا يَبْقَى فِي ٱلْكَلَامِ إِلَّا تِلْكَ ٱلتَّحْسِينَاتُ. وَهٰذَا هُوَ ٱلْغَالِبُ ٱلْيَوْمَ عَلَى أَهْلِ ٱلْعَصْرِ وَأَصْحَابِ ٱلْأَذْوَاقِ فِي ٱلْبَلَاغَةِ يَسْخَرُونَ مِنْ كَلَفِهِمْ بِهٰذِهِ ٱلْفُنُونِ وَيَعُدُّونَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْقُصُورِ عَنْ سِوَاهُ. ثُمَّ مِنْ شُرُوطِ ٱسْتِعْمَالِهَا عِنْدَهُمْ ٱلْإِقْلَالُ مِنْهَا وَأَنْ تَكُونَ فِي بَيْتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ مِنَ ٱلْقَصِيدِ فَتَكْفِي فِي زِينَةِ ٱلشِّعْرِ وَرَوْنَقِهِ وَٱلْإِكْثَارُ مِنْهَا عَيْبٌ. قَالَهُ ٱبْنُ رَشِيقٍ وَغَيْرُهُ. وَكَانَ شَيْخُنَا أَبُو ٱلْقَسَمِ ٱلشَّرِيفُ ٱلسَّبْتِيُّ مُنْفِقُ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ بِٱلْأَنْدَلُسِ لِوَقْتِهِ يَقُولُ: هٰذِهِ ٱلْفُنُونُ ٱلْبَدِيعَةُ إِذَا وَقَعَتْ لِلشَّاعِرِ أَوْ لِلْكَاتِبِ فَيَقْبُحُ أَنْ يُسْتَكْثَرَ مِنْهَا لِأَنَّهَا مِنْ مُحَسِّنَاتِ ٱلْكَلَامِ وَمُزَيِّنَاتِهِ فَهِيَ بِمَثَابَةِ ٱلْخِيلَانِ فِي ٱلْوَجْهِ يَحْسُنُ بِٱلْوَاحِدِ وَٱلِٱثْنَيْنِ مِنْهَا وَيَقْبُحُ بِتَعْدَادِهَا وَعَلَى نِسْبَةِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْظُومِ هُوَ ٱلْكَلَامُ ٱلْمَنْثُورُ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلْإِسْلَامِ كَانَ أَوَّلًا مُرْسَلًا مُعْتَبَرَ ٱلْمُوَازَنَةِ بَيْنَ جُمَلِهِ وَتَرَاكِيبِهِ. مُشَاهِدَةً مُوَازَنَتُهُ بِفَوَاصِلِهِ مِنْ غَيْرِ ٱلْتِزَامِ سَجْعٍ وَلَا ٱكْتِرَاثٍ بِصَنْعَةٍ. حَتَّى نَبَغَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ هِلَالٍ ٱلصَّابِئُ كَاتِبُ بَنِي بُوَيْهٍ فَتَعَاطَى ٱلصَّنْعَةَ وَٱلتَّقْفِيَةَ وَأَتَى مِنْ ذٰلِكَ بِٱلْعَجَبِ وَعَابَ ٱلنَّاسُ عَلَيْهِ كَلَفَهُ بِذٰلِكَ فِي ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ. وَإِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَيْهِ مَا كَانَ فِي مُلُوكِهِ مِنَ ٱلْعُجْمَةِ وَٱلْبُعْدِ عَنْ صَوْلَةِ ٱلْخِلَافَةِ ٱلْمُنْفِقَةِ لِسُوقِ ٱلْبَلَاغَةِ. ثُمَّ ٱنْتَشَرَتِ ٱلصِّنَاعَةُ فِي مَنْثُورِ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ وَنُسِيَ عَهْدُ ٱلتَّرْسِيلِ وَتَشَابَهَتِ ٱلسُّلْطَانِيَّاتُ

وَٱلْاخْوَانِيَّاتُ وَٱلْعَرَبِيَّاتُ بِٱلسُّوقِيَّاتِ وَٱخْتَلَطَ ٱلْمَرْعِيُّ بِٱلْهَمَلِ . وَهٰذَا كُلُّهُ يَدُلُّكَ عَلَى اَنَّ ٱلْكَلَامَ ٱلْمَصْنُوعَ بِٱلْمُعَانَاةِ وَٱلتَّكْلِيفِ قَاصِرٌ عَنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَطْبُوعِ لِقِلَّةِ ٱلِاكْتِرَاثِ فِيهِ بِاَصْلِ ٱلْبَلَاغَةِ. وَٱلْحَاكِمُ فِي ذٰلِكَ ٱلذَّوْقُ

البحث الثالث

في السجع وانواعهِ

(عن صناعة الترسّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٧٢ من علم الادب)

كَلِمَاتُ ٱلْاَسْجَاعِ مَوْضُوعَةٌ عَلَى اَنْ تَكُونَ سَاكِنَةَ ٱلْاَعْجَازِ مَوْقُوفًا عَلَيْهَا لِاَنَّ ٱلْغَرَضَ اَنْ يُجَانَسَ بَيْنَ ٱلْقَرَائِنِ وَيُزَاوَجَ بَيْنَهَا وَلَا يَتِمُّ ذٰلِكَ اِلَّا بِٱلْوَقْفِ . اَلَا تَرَى اَنَّ قَوْلَهُمْ: مَا اَبْعَدَ مَا فَاتْ . وَمَا اَقْرَبَ مَا هُوَ آتْ. لَوْ اُعْطِيَ اَوَاخِرُ ٱلْقَرَائِنِ مَا يَقْتَضِيهِ حُكْمُ ٱلْاعْرَابِ لَٱخْتَلَفَ اَوَاخِرُ ٱلْقَرَائِنِ وَفَاتَ ٱلسَّاجِعَ غَرَضُهُ. وَاِذَا رَاَيْنَاهُمْ يُخْرِجُونَ ٱلْكَلِمَةَ عَنْ اَوْضَاعِهَا لِلِازْدِوَاجِ فَيَقُولُونَ آتِيكَ بِٱلْغَدَوَاءِ اَوْ بِٱلْعَشَاءِ. وَهَنَانِي ٱلطَّعَامُ وَمَرَانِي . وَٱنْصَرِفْنَ مَأْزُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ يُرِيدُونَ : ٱلْغَدَوَاتِ وَٱمْرَانِي وَمَوْزُورَاتٍ . مَعَ اَنَّ فِيهِ ٱرْتِكَابًا لِمُخَالَفَةِ ٱللُّغَةِ . وَكَذٰلِكَ : اَعْطِ ٱلْقَوْسَ بَارِيهَا . وَفِيهِ تَرْكُ ٱلْاعْرَابِ مِنْ اَثْنَاءِ ٱلْكَلِمَةِ فَمَا ٱلظَّنُّ بِاَوَاخِرِ ٱلْكَلِمِ ٱلْمُشَبَّهَةِ بِٱلْقَوَافِي . وَٱلْاَوْلَى اَنْ يُقَالَ فِي اَوَاخِرِ ٱلْاَبْيَاتِ ٱلْفَوَاصِلِ اِذَا عُرِفَ هٰذَا

فالاسجاعُ اربعةُ انواعٍ : ٱلتَّرصِيعُ وٱلمتوازي وٱلمطرَّفُ وٱلمتاوزنُ .
امَّا (ٱلتَّرصِيعُ) فهوَ انْ تكونَ ٱلالفاظُ مُستويةَ ٱلاوزانِ مُتَّفقةَ ٱلاعجازِ كقولهِ : إنَّ إلينا إيابَهُمْ . ثمَّ إنَّ علينا حِسابَهُمْ . وقولهِ : إنَّ ٱلابرارَ لَفي نعيمٍ . وإنَّ ٱلفجّارَ لَفي جحيمٍ . وقولهِ : ٱللَّهُمَّ اقبلْ توبتي وٱغسلْ حوبتي . وقولهمْ : فلانٌ يفتخرُ بٱلهِممِ ٱلعاليةِ . لا بِٱلرِّممِ ٱلباليةِ . وقولهمْ : حتَّى عادَ تعريضُكَ وتقريضُكَ تصحيحًا . ومنَ ٱلنظمِ قولُ ٱلخنساء :

حامي ٱلحقيقةِ محمودُ ٱلخليقةِ مَهديّ ٱلطريقةِ نفّاعٍ وضرّارِ
جوّابِ قاصيةٍ جزّازِ ناصيةٍ عقّادِ الويةٍ لِلخيلِ جرّارِ

وكقولِ ابي فراسٍ :

وافعالُنا للرّاغبينَ كريمةٌ وامْوالُنا لِلطّالبينَ نهابُ

وقولِ ٱلابيوردِيّ :

يَروحُ إليهمْ عازبُ ٱلحمدِ وافيًا ويغدو عليهمْ طالبُ ٱلرِّفدِ عافيًا

وقدْ يجيءُ معَ ٱلتجنيسِ كقولهمْ : إذا قلَّتِ ٱلانصارُ كلَّتِ ٱلابصارُ . وما وراءَ ٱلخلقِ ٱلدميمِ إلّا ٱلخُلُقُ ٱلذَّميمُ . ومنَ ٱلنظمِ قولُ ٱلمطرزيّ :

فدرُّ جلالهِ ابدًا ثمينٌ ودرُّ نوالهِ ابدًا غزيرُ

(وٱلمتوازي) وهوَ انْ يُراعى في ٱلكلمتينِ ٱلاخيرتينِ منَ ٱلقرينتينِ ٱلوزنُ معَ ٱتفاقِ ٱلحرفِ ٱلآخرِ منهما كقولهِ : فيها سُرُرٌ مَرفوعةٌ . واكوابٌ موضوعةٌ . وقولهِ : ٱللَّهمَّ اعطِ مُنفقًا خلفًا .

وَأَعطِ تُمسِكًا تلفًا. وَقَولِ ٱلحَرِيرِيِّ : ٱلجَانِي حُكمُ دَهرٍ قَاسِطٍ . إِلَى أَن أَنتَجَعَ أَرضَ وَاسِطٍ . وَقَولِهِ : وَأَودَى ٱلنَّاطِقُ وَٱلصَّامِتُ . وَرَثَى لَنَا ٱلحَاسِدُ وَٱلشَّامِتُ . (وَٱلمُطَرَّفُ) وَهُوَ أَن يُرَاعَى ٱلحَرفُ ٱلأَخِيرُ فِي كِلتَا قَرِينَتَيهِ مِن غَيرِ مُرَاعَاةِ ٱلوَزنِ . كَقَولِهِ : مَا لَكُم لَا تَرجُونَ لِلّٰهِ وَقَارًا. وَقَد خَلَقَكُم أَطوَارًا . وَقَولِهِم : خِيَامُهُ مَحَطُّ ٱلرِّحَالِ. وَمُخَيَّمُ ٱلآمَالِ . (وَٱلمُتَوَازِنُ) وَهُوَ أَن يُرَاعَى فِي ٱلكَلِمَتَينِ ٱلأَخِيرَتَينِ مِنَ ٱلقَرِينَتَينِ ٱلوَزنُ مَعَ ٱختِلَافِ ٱلحَرفِ ٱلآخِرِ مِنهُمَا . كَقَولِهِ : وَنَمَارِقُ مَصفُوفَةٌ . وَزَرَابِيُّ مَبثُوثَةٌ . وَقَولِهِم : اِصبِرْ عَلَى حَرِّ ٱلقِتَالِ . وَمَضَضِ ٱلنِّزَالِ . وَشِدَّةِ ٱلمَصَاعِ وَمُدَاوَمَةِ ٱلمِرَاسِ . فَإِن رَاعَى ٱلوَزنَ فِي جَمِيعِ كَلِمَاتِ ٱلقَرَائِنِ أَو أَكثَرِهَا وَقَابَلَ ٱلكَلِمَةَ مِنهَا بِمَا تُعَادِلُهَا وَزنًا كَانَ أَحسَنَ . كَقَولِهِ : وَآتَينَاهُمَا ٱلكِتَابَ ٱلمُستَبِينَ . وَهَدَينَاهُمَا ٱلصِّرَاطَ ٱلمُستَقِيمَ . وَقَولِ ٱلحَرِيرِيِّ : أَسوَدَّ يَومِي ٱلأَبيَضُ وَٱبيَضَّ يَومِي ٱلأَسوَدُ . وَيُسَمَّى هٰذَا فِي ٱلشِّعرِ ٱلمُوَازَنَةَ . كَقَولِ ٱلبُحتُرِيِّ :

فَقِفْ مُسعِدًا فِيهِنَّ إِن كُنتَ غَادِرًا
وَسِرْ مُبعِدًا عَنهُنَّ إِن كُنتَ عَاذِلَا

وَمِمَّا هُوَ شَرطُ ٱلحُسنِ فِي هٰذَا ٱلمُحَافَظَةُ عَلَى تَنَاسُبِهِ وَهُوَ ٱسمٌ جَامِعٌ لِلمُلَاءَمَةِ وَٱلتَّنَاسُبِ . فَٱلمُلَاءَمَةُ تَألِيفُ ٱلأَلفَاظِ ٱلمُوَافِقَةِ بَعضُهَا لِبَعضٍ فِي ضَربِ ٱلِاعتِدَالِ . كَقَولِ لَبِيدٍ :

وَمَا ٱلمَرءُ إِلَّا كَٱلشِّهَابِ وَضَوئِهِ   يَعُودُ رَمَادًا بَعدَ إِذ هُوَ سَاطِعُ

وَمَا ٱلْمَالُ وَٱلْأَهْلُونَ إِلَّا وَدِيعَةٌ   وَلَا بُـدَّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ ٱلْوَدَائِعُ

وَبَعْضُهُمْ يَعُدُّ ٱلتَّلْفِيقَ مِنْ بَابِ ٱلْمُلَاءَمَـةِ وَهُوَ أَنْ يَضُمَّ إِلَى ذِكْرِ ٱلشَّيْءِ مَا يَلِيقُ بِهِ وَيَجْرِي مَجْرَاهُ وَأَنْ يَجْمَعَ ٱلْأُمُورَ ٱلْمُتَنَاسِبَةَ وَيُقَالُ لَهُ مُرَاعَاةُ ٱلنَّظِيرِ أَيْضًا. وَٱلتَّنَاسُبُ هُوَ تَرْتِيبُ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُتَآخِيَةِ ٱلَّتِي تَتَلَاءَمُ وَلَا تَتَنَافَرُ. كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ:

وَٱلرِّفْقُ يُمْنٌ وَٱلْأَنَاةُ سَعَادَةٌ   فَتَأَنَّ فِي رِفْقٍ تَنَالَ نَجَاحَا

وَٱلْيَأْسُ مِمَّا فَاتَ يُعْقِبُ رَاحَةً   وَلَرُبَّ مَطْعَمَةٍ تَعُودُ ذُبَاحَا

وَيُسَمَّى ٱلتَّشَابُهَ أَيْضًا . وَقِيلَ ٱلتَّشَابُهُ أَنْ تَكُونَ ٱلْأَلْفَاظُ غَيْرَ مُتَبَايِنَةٍ بَلْ مُتَقَارِبَةً فِي ٱلْجَزَالَةِ وَٱلرِّقَّةِ وَٱلْمَتَانَةِ وَٱلسَّلَاسَةِ وَتَكُونُ ٱلْمَعَانِي مُنَاسِبَةً لِأَلْفَاظِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُكْسَى ٱللَّفْظُ ٱلشَّرِيفُ ٱلْمَعْنَى ٱلسَّخِيفَ أَوْ عَلَى ٱلضِّدِّ بَلْ يُصَاغَانِ مَعًا صِيَاغَةً تَنَاسُبٍ وَتَلَاؤُمٍ حَتَّى لَا يَكُونَ ٱلْكَلَامُ كَمَا قِيلَ :

وَبَعْضُ قَرِيضِ ٱلْمَرْءِ أَوْلَادُ عِلَّةٍ   يَكُدُّ لِسَانَ ٱلنَّاطِقِ ٱلْمُتَحَفِّظِ

البحث الرابع

في اقسام السجع وضروبه

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

(راجع صفحة ٧٣ من علم الادب)

اِعْلَمْ أَنَّ ٱلسَّجْعَ قَدْ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : ٱلْأَوَّلُ أَنْ يَكُونَ ٱلْفَصْلَانِ مُتَسَاوِيَيْنِ لَا يَزِيدُ أَحَدُهُمَا عَلَى ٱلْآخَرِ كَقَوْلِهِ :

وَٱلْعَادِيَاتِ ضَبْحًا . فَٱلْمُورِيَاتِ قَدْحًا . فَٱلْمُغِيرَاتِ صُبْحًا . فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا . فَوَسَطْنَا بِهِ جَمْعًا . أَلَا تَرَى كَيْفَ جَاءَتْ هٰذِهِ ٱلْفُصُولُ مُتَسَاوِيَةَ ٱلْأَجْزَاءِ حَتَّى كَأَنَّهَا أُفْرِغَتْ فِي قَالَبٍ وَاحِدٍ . وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ كَثِيرَةٌ وَهُوَ أَشْرَفُ ٱلسَّجْعِ مَنْزِلَةً لِلِٱعْتِدَالِ ٱلَّذِي فِيهِ

ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي أَنْ يَكُونَ ٱلْفَصْلُ ٱلثَّانِي أَطْوَلَ مِنَ ٱلْأَوَّلِ لَا طُولًا يَخْرُجُ بِهِ عَنِ ٱلِٱعْتِدَالِ خُرُوجًا كَثِيرًا فَإِنَّهُ يَقْبُحُ عِنْدَ ذٰلِكَ وَيُسْتَكْرَهُ وَيُعَدُّ عَيْبًا . فَمِمَّا جَاءَ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ : بَلْ كَذَّبُوا بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا . إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا . وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا . أَلَا تَرَى أَنَّ ٱلْفَصْلَ ٱلْأَوَّلَ ثَمَانِي لَفَظَاتٍ وَٱلْفَصْلَ ٱلثَّانِيَ وَٱلثَّالِثَ تِسْعٌ تِسْعٌ . وَيُسْتَثْنَى مِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ مَا كَانَ مِنَ ٱلسَّجْعِ عَلَى ثَلَاثِ فِقَرٍ فَإِنَّ ٱلْفِقْرَتَيْنِ ٱلْأُولَيَيْنِ تُحْسَبَانِ فِي عِدَّةٍ وَاحِدَةٍ . ثُمَّ تَأْتِي ٱلثَّالِثَةُ فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ طَوِيلَةً طُولًا يَزِيدُ عَلَيْهَا فَإِذَا كَانَتِ ٱلْأُولَى وَٱلثَّانِيَةُ أَرْبَعَ لَفَظَاتٍ تَكُونُ ٱلثَّالِثَةُ عَشَرَ لَفَظَاتٍ أَوْ إِحْدَى عَشْرَةَ . إِلَّا أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَجْعَلَ ذٰلِكَ قِيَاسًا مُطَّرِدًا فِي ٱلسَّجَعَاتِ ٱلثَّلَاثِ أَيْنَ وَقَعَتْ مِنَ ٱلْكَلَامِ بَلْ تَعْلَمُ أَنَّ ٱلْجَوَازَ يَعُمُّ ٱلْجَانِبَيْنِ مِنَ ٱلتَّسَاوِي فِي ٱلسَّجَعَاتِ ٱلثَّلَاثِ وَمِنْ زِيَادَةِ ٱلسَّجْعَةِ ٱلثَّالِثَةِ . أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَدْ وَرَدَ ثَلَاثُ سَجَعَاتٍ مُتَسَاوِيَاتٍ كَقَوْلِهِ : وَأَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ . مَا أَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ . فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ . وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ . وَظِلٍّ مَمْدُودٍ . فَهٰذِهِ ٱلسَّجَعَاتُ كُلُّهَا مِنْ لَفْظَتَيْنِ لَفْظَتَيْنِ وَلَوْ جُعِلَتِ

ٱلثَّالِثَةُ مِنْهَا خَمْسَ لَفَظَاتٍ أَوْ سِتًّا لَمَا كَانَ ذٰلِكَ مَعِيبًا

ٱلْقِسْمُ ٱلثَّالِثُ أَنْ يَكُونَ ٱلْفَصْلُ ٱلْآخَرُ أَقْصَرَ مِنَ ٱلْأَوَّلِ وَهُوَ عِنْدِي عَيْبٌ فَاحِشٌ . وَسَبَبُ ذٰلِكَ : أَنَّ ٱلسَّجْعَ يَكُونُ قَدِ ٱسْتَوْفَى أَمَدَهُ مِنَ ٱلْفَصْلِ ٱلْأَوَّلِ بِحُكْمِ طُولِهِ . ثُمَّ يَجِيءُ ٱلْفَصْلُ ٱلثَّانِي قَصِيرًا عَنِ ٱلْأَوَّلِ فَيَكُونُ كَالشَّيْءِ ٱلْمَبْتُورِ فَيَبْقَى ٱلْإِنْسَانُ عِنْدَ سَمَاعِهِ كَمَنْ يُرِيدُ ٱلِٱنْتِهَاءَ إِلَى غَايَةٍ فَيَعْثُرُ دُونَهَا

وَإِذَا ٱنْتَهَيْنَا إِلَى هٰهُنَا وَبَيَّنَّا أَقْسَامَ ٱلسَّجْعِ وَلُبَّهُ وَقُشُورَهُ فَسَنَقُولُ فِيهِ قَوْلًا كُلِّيًّا وَهُوَ أَنَّ ٱلسَّجْعَ عَلَى ٱخْتِلَافِ أَقْسَامِهِ ضَرْبَانِ : أَحَدُهُمَا يُسَمَّى ٱلسَّجْعَ ٱلْقَصِيرَ وَهُوَ أَنْ تَكُونَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ ٱلسَّجْعَتَيْنِ مُؤَلَّفَةً مِنْ أَلْفَاظٍ قَلِيلَةٍ وَكُلَّمَا قَلَّتِ ٱلْأَلْفَاظُ كَانَ أَحْسَنَ لِقُرْبِ ٱلْفَوَاصِلِ ٱلْمَسْجُوعَةِ مِنْ مَسْمَعِ ٱلسَّامِعِ . وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ أَوْعَرُ ٱلسَّجْعِ مَذْهَبًا وَأَبْعَدُهُ مُتَنَاوَلًا وَلَا يَكَادُ ٱسْتِعْمَالُهُ يَقَعُ إِلَّا نَادِرًا . وَٱلضَّرْبُ ٱلْآخَرُ يُسَمَّى ٱلسَّجْعَ ٱلطَّوِيلَ وَهُوَ ضِدُّ ٱلْأَوَّلِ لِأَنَّهُ أَسْهَلُ مُتَنَاوَلًا . وَإِنَّمَا كَانَ ٱلْقَصِيرُ مِنَ ٱلسَّجْعِ أَوْعَرَ مَسْلَكًا مِنَ ٱلطَّوِيلِ لِأَنَّ ٱلْمَعْنَى إِذَا صِيغَ بِأَلْفَاظٍ قَصِيرَةٍ عَزَّ مُوَاتَاةُ ٱلسَّجْعِ فِيهِ لِقِصَرِ تِلْكَ ٱلْأَلْفَاظِ وَضِيقِ ٱلْمَجَالِ فِي ٱسْتِجْلَابِهِ . وَأَمَّا ٱلطَّوِيلُ فَإِنَّ ٱلْأَلْفَاظَ تَطُولُ فِيهِ وَيُسْتَجْلَبُ لَهُ ٱلسَّجْعُ مِنْ حَيْثُ لَيْسَ كَمَا يُقَالُ وَكَانَ ذٰلِكَ سَهْلًا . وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذَيْنِ ٱلضَّرْبَيْنِ تَتَفَاوَتُ دَرَجَاتُهُ فِي عِدَّةِ ٱلْأَلْفَاظِ . أَمَّا ٱلسَّجْعُ ٱلْقَصِيرُ فَأَحْسَنُهُ مَا كَانَ مُؤَلَّفًا مِنْ لَفْظَتَيْنِ لَفْظَتَيْنِ كَقَوْلِهِ : وَٱلْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا . فَٱلْعَاصِفَاتِ عَصْفًا . وَقَوْلِهِ : يَا أَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ . قُمْ

فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ . وَمِنْهُ مَا يَكُونُ مُؤَلَّفًا مِنْ ثَلَاثَةِ أَلْفَاظٍ وَأَرْبَعَةٍ وَخَمْسَةٍ وَكَذٰلِكَ ٱلْعَشَرَةُ . وَمَا زَادَ عَلَى ذٰلِكَ فَهُوَ مِنَ ٱلسَّجْعِ ٱلطَّوِيلِ . فَمَا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ : وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا : سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ . وَكَذَّبُوا وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ . وَأَمَّا ٱلسَّجْعُ ٱلطَّوِيلُ فَإِنَّ دَرَجَاتِهِ تَتَفَاوَتُ فِي ٱلطُّولِ أَيْضًا فَمِنْهُ مَا يَقْرُبُ مِنَ ٱلسَّجْعِ ٱلْقَصِيرِ . وَهُوَ أَنْ يَكُونَ تَأْلِيفُهُ مِنْ إِحْدَى عَشْرَةَ إِلَى ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَفْظَةً . وَأَكْثَرُهُ خَمْسَ عَشْرَةَ لَفْظَةً كَقَوْلِهِ : وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ . وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ . فَٱلْأُولَى إِحْدَى عَشْرَةَ لَفْظَةً . وَٱلثَّانِيَةُ ثَلَاثَ عَشْرَةَ لَفْظَةً . وَمِنَ ٱلسَّجْعِ ٱلطَّوِيلِ مَا يَكُونُ تَأْلِيفُهُ مِنَ ٱلْعِشْرِينَ لَفْظَةً فَمَا حَوْلَهَا كَقَوْلِهِ : إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللّٰهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلٰكِنَّ ٱللّٰهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ . وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللّٰهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللّٰهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ . وَمِنَ ٱلسَّجْعِ ٱلطَّوِيلِ أَيْضًا مَا يَزِيدُ عَلَى هٰذِهِ ٱلْعِدَّةِ ٱلْمَذْكُورَةِ وَهُوَ غَيْرُ مَضْبُوطٍ



البحث الخامس

في الايجاز

(عن المثل السائر وكتاب الصناعتين وغيرهما)

(راجع صفحة ٧٥ من علم الادب)

ٱلْايجَازُ حَذْفُ زِيَادَاتِ ٱلْأَلْفَاظِ وَهٰذَا نَوْعٌ مِنَ ٱلْكَلَامِ شَرِيفٌ لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ إِلَّا فُرْسَانُ ٱلْبَلَاغَةِ مَنْ سَبَقَ إِلَى غَايَتِهَا وَمَا صَلَّى. وَضَرَبَ فِي أَعْلَى دَرَجَاتِهَا بِٱلْقِدْحِ ٱلْمُعَلَّى. وَذٰلِكَ لِعُلُوِّ مَكَانِهِ. وَتَعَذُّرِ إِمْكَانِهِ وَٱلنَّظَرُ فِيهِ إِنَّمَا هُوَ إِلَى ٱلْمَعَانِي لَا إِلَى ٱلْأَلْفَاظِ. وَلَسْتُ أَعْنِي بِذٰلِكَ أَنْ تُهْمِلَ ٱلْأَلْفَاظَ بِحَيْثُ تَعْرَى عَنْ أَوْصَافِهَا ٱلْحَسَنَةِ بَلْ أَعْنِي أَنَّ مَدَارَ ٱلنَّظَرِ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ إِنَّمَا يَخْتَصُّ بِٱلْمَعَانِي. فَرُبَّ لَفْظٍ قَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى كَثِيرٍ. وَرُبَّ لَفْظٍ كَثِيرٍ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى قَلِيلٍ. وَمِثَالُ هٰذَا كَٱلْجَوْهَرَةِ ٱلْوَاحِدَةِ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلدَّرَاهِمِ. فَمَنْ يَنْظُرُ إِلَى طُولِ ٱلْأَلْفَاظِ يُؤْثِرُ ٱلدَّرَاهِمَ لِكَثْرَتِهَا. وَمَنْ يَنْظُرُ إِلَى شَرَفِ ٱلْمَعَانِي يُؤْثِرُ ٱلْجَوْهَرَةَ ٱلْوَاحِدَةَ لِنَفَاسَتِهَا. قَالَ أَصْحَابُ ٱلْايجَازِ: ٱلْايجَازُ قُصُورُ ٱلْبَلَاغَةِ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ وَمَا تَجَاوَزَ مِقْدَارَ ٱلْحَاجَةِ فَهُوَ فَضْلٌ دَاخِلٌ فِي بَابِ ٱلْهَذَرِ وَٱلْخَطَلِ وَهُمَا مِنْ أَعْظَمِ أَدْوَاءِ ٱلْكَلَامِ وَفِيهِمَا دَلَالَةٌ عَلَى بَلَادَةِ صَاحِبِ ٱلصِّنَاعَةِ. وَفِي تَفْضِيلِ ٱلْايجَازِ يَقُولُ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى لِكُتَّابِهِ: إِنْ قَدَرْتُمْ أَنْ تَجْعَلُوا كُتُبَكُمْ تَوْقِيعَاتٍ فَٱفْعَلُوا. وَقَالَ

بَعْضُهُمْ : ٱلزِّيَادَةُ فِي ٱلْحَدِّ نُقْصَانٌ . وَقَالَ مُحَمَّدٌ ٱلْامِينُ : عَلَيْكُمْ بِٱلْايجَازِ فَإِنَّ لَهُ إِفْهَامًا وَلِلْإِطَالَةِ ٱسْتِبْهَامًا . وَقَالَ شَبِيبُ بْنُ شَيْبَةَ : ٱلْقَلِيلُ ٱلْكَافِي خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ غَيْرِ شَافٍ . وَقَالَ آخَرُ : إِذَا طَالَ ٱلْكَلَامُ عَرَضَتْ لَهُ أَسْبَابُ ٱلتَّكَلُّفِ وَلَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ يَأْتِي بِهِ ٱلتَّكَلُّفُ . وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . فَقَالَ : ٱلْايجَازُ . قِيلَ : وَمَا ٱلْايجَازُ . قَالَ : حَذْفُ ٱلْفُضُولِ وَتَقْرِيبُ ٱلْبَعِيدِ . وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ : لِمَ لَا تُطِيلُ ٱلشِّعْرَ . فَقَالَ : حَسْبُكَ مِنَ ٱلْقِلَادَةِ مَا أَحَاطَ بِٱلْعُنُقِ . وَقِيلَ ذٰلِكَ لِآخَرَ . فَقَالَ : لَسْتُ أَبِيعُهُ مُذَارَعَةً . وَقِيلَ لِلْفَرَزْدَقِ : مَا صَيَّرَكَ إِلَى ٱلْقِصَارِ بَعْدَ ٱلطِّوَالِ . قَالَ : لِأَنِّي رَأَيْتُهَا فِي ٱلصُّدُورِ أَوْقَعَ وَفِي ٱلْمَحَافِلِ أَجْوَلَ . وَقَالَتْ بِنْتُ ٱلْحُطَيْئَةِ لِأَبِيهَا : مَا بَالُ قِصَارِكَ أَكْثَرُ مِنْ طِوَالِكَ . قَالَ : لِأَنَّهَا بِٱلْآذَانِ أَوْلَجُ وَبِٱلْأَفْوَاهِ أَعْلَقُ . وَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ لِٱبْنِ ٱلزِّبَعْرَى : قَصَّرْتَ فِي شِعْرِكَ . قَالَ : حَسْبُكَ مِنَ ٱلشِّعْرِ غُرَّةٌ لَائِحَةٌ وَسِمَةٌ وَاضِحَةٌ . وَقِيلَ لِلنَّابِغَةِ ٱلذُّبْيَانِيِّ : أَلَا تُطِيلُ ٱلْقَصَائِدَ كَمَا أَطَالَ صَاحِبُكَ ٱبْنُ حُجْرٍ . قَالَ : مَنِ ٱنْتَحَلَ ٱنْتَقَرَ . وَقِيلَ لِبَعْضِ ٱلْمُحَدِّثِينَ : مَالَكَ لَا تَزِيدُ عَلَى أَرْبَعَةٍ وَٱثْنَيْنِ . قَالَ : هِيَ بِٱلْقُلُوبِ أَوْقَعُ وَإِلَى ٱلْحِفْظِ أَسْرَعُ وَبِٱلْأَلْسُنِ أَعْلَقُ وَلِلْمَعَانِي أَجْمَعُ وَصَاحِبُهَا أَبْلَغُ وَأَوْجَزُ . وَقِيلَ لِٱبْنِ حَازِمٍ : أَلَا تُطِيلُ ٱلْقَصَائِدَ . فَقَالَ :

أَبَى لِي أَنْ أُطِيلَ ٱلشِّعْرَ قَصْدِي ... إِلَى ٱلْمَعْنَى وَعِلْمِي بِٱلصَّوَابِ
وَإِيجَازِي بِمُخْتَصَرٍ قَرِيبٍ ... حَذَفْتُ بِهِ ٱلْفُضُولَ مِنَ ٱلْجَوَابِ

فَأَبْعَثُهُنَّ أَرْبَعَةً وَسِتًّا مُثَقَّفَةً بِأَلْفَاظٍ عِذَابِ
وَهُنَّ إِذَا وَسَمْتُ بِهِنَّ قَوْماً كَأَطْوَاقِ ٱلْحَمَائِمِ فِي ٱلرِّقَابِ

وَقَالَ عَلِيٌّ : مَا رَأَيْتُ بَلِيغاً قَطُّ إِلَّا وَلَهُ فِي ٱلْقَوْلِ إِيجَازٌ وَفِي ٱلْمَعَانِي إِطَالَةٌ . وَقِيلَ لِإِيَاسِ بْنِ مُعَاوِيَةَ : مَا فِيكَ عَيْبٌ غَيْرَ أَنَّكَ كَثِيرُ ٱلْكَلَامِ . قَالَ : أَفَتَسْمَعُونَ صَوَاباً أَمْ خَطَأً . قَالُوا بَلْ صَوَاباً . قَالَ : فَٱلزِّيَادَةُ مِنَ ٱلْخَيْرِ خَيْرٌ . وَلَيْسَ كَمَا قَالَ لِأَنَّ لِلْكَلَامِ غَايَةً وَلِنَشَاطِ ٱلسَّامِعِينَ نِهَايَةً . وَمَا فَضَلَ عَنْ مِقْدَارِ ٱلْاحْتِمَالِ وَدَعَا إِلَى ٱلْاسْتِثْقَالِ وَصَارَ سَبَباً لِلْمَلَالِ فَذٰلِكَ ٱلْهَذَرُ وَٱلْإِسْهَابُ وَٱلْخَطَلُ وَهُوَ مَعِيبٌ عِنْدَ كُلِّ لَبِيبٍ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ : ٱلْبَلَاغَةُ بِٱلْإِيجَازِ أَنْجَعُ مِنَ ٱلْبَيَانِ بِٱلْإِطْنَابِ . وَقَالُوا : ٱلْمِكْثَارُ كَحَاطِبِ ٱللَّيْلِ . وَمَثَلُ ٱلْإِيجَازِ ٱلْحَسَنِ كَقَوْلِهِ : وَخُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَاهِلِينَ . فَجَمَعَ جَمِيعَ مَكَارِمِ ٱلْأَخْلَاقِ بِأَسْرِهَا . لِأَنَّ فِي ٱلْعَفْوِ صِلَةَ ٱلْقَاطِعِينَ وَٱلصَّفْحَ عَنِ ٱلظَّالِمِينَ وَإِعْطَاءَ ٱلْمَانِعِينَ . وَفِي ٱلْأَمْرِ بِٱلْعُرْفِ تَقْوَى ٱللّٰهِ وَصِلَةَ ٱلرَّحِمِ وَصَوْنَ ٱللِّسَانِ عَنِ ٱلْكَذِبِ وَغَضَّ ٱلطَّرْفِ عَنِ ٱلْحُرُمَاتِ وَٱلتَّبَرُّؤَ مِنْ كُلِّ قَبِيحٍ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَأْمُرَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَهُوَ يُلَابِسُ شَيْئاً مِنَ ٱلْمُنْكَرِ . وَفِي ٱلْإِعْرَاضِ عَنِ ٱلْجَاهِلِينَ ٱلصَّبْرُ وَٱلْحِلْمُ وَتَنْزِيهُ ٱلنَّفْسِ عَنْ مُقَابَلَةِ ٱلسَّفِيهِ بِمَا يُوتِغُ ٱلدِّينَ وَيُسْقِطُ ٱلْقُدْرَةَ . وَقَوْلُهُ : حُبُّكَ ٱلشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ . وَقَوْلُهُ إِنَّ مِنَ ٱلْبَيَانِ لَسِحْراً . وَقَوْلُهُ : نِيَّةُ ٱلْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ . وَقَوْلُهُ : تَرْكُ ٱلشَّرِّ صَدَقَةٌ . فَمَعَانِي هٰذَا ٱلْكَلَامِ أَكْثَرُ مِنْ أَلْفَاظِهِ . وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ صِحَّةَ ذٰلِكَ

مُحَلِّهَا وَأَتَيْتَهَا بِنَاءً آخَرَ فَإِنَّكَ تَجِدُهَا تَجِيءُ فِي أَضْعَافِ هٰذِهِ ٱلْأَلْفَاظِ .
وَقَوْلُهُ : إِذَا أَعطَاكَ ٱللهُ خَيْرًا فَلْيَبِنْ عَلَيْكَ وَٱبْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ وَٱرْتَضِخْ مِنَ ٱلْفَضْلِ وَلَا تُلَمْ عَلَى ٱلْكَفَافِ وَلَا تَعْجِزْ عَنْ نَفْسِكَ . فَقَوْلُهُ : (فَلْيَبِنْ عَلَيْكَ) أَيْ فَلْيَظْهَرْ أَثَرُهُ عَلَيْكَ بِٱلصَّدَقَةِ وَٱلْمَعْرُوفِ وَدَلَّ عَلَى ذٰلِكَ بِقَوْلِهِ : (وَٱبْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ وَٱرْتَضِخْ مِنَ ٱلْفَضْلِ) أَيْ ٱكْسِرْ مِنْ مَالِكَ وَأَعْطِهِ) وَٱسْمُ ٱلشَّيْءِ ٱلرَّضِيخَةُ (وَلَا تَعْجِزْ عَنْ نَفْسِكَ) أَيْ لَا تَجْمَعْ لِغَيْرِكَ وَتَبْخَلُ عَنْ نَفْسِكَ فَلَا تُقَدِّمْ خَيْرًا .
وَقَوْلُ أَعْرَابِيٍّ : أُولٰئِكَ قَوْمٌ جَعَلُوا أَمْوَالَهُمْ مَنَادِيلَ لِأَعْرَاضِهِمْ فَٱلْخَيْرُ بِهِمْ زَائِدٌ وَٱلْمَعْرُوفُ لَهُمْ شَاهِدٌ . أَيْ يَقُونَ أَعْرَاضَهُمْ بِأَمْوَالِهِمْ .
وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ يَسُوقُ مَالًا كَثِيرًا : لِمَنْ هٰذَا ٱلْمَالُ . فَقَالَ : لِلّٰهِ فِي يَدِي . وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ لِرَجُلٍ يَمْدَحُهُ : إِنَّهُ لَيُعْطِي عَطَاءَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ ٱللهَ مَادَّتُهُ . وَقَوْلُ آخَرَ : أَمَا بَعْدُ فَعِظِ ٱلنَّاسَ بِفِعْلِكَ وَلَا تَعِظْهُمْ بِقَوْلِكَ وَٱسْتَحْيِ مِنَ ٱللهِ بِقَدْرِ قُرْبِهِ مِنْكَ. وَخَفْهُ بِقَدْرِ قُدْرَتِهِ عَلَيْكَ.
وَقَالَ آخَرُ : إِنْ شَكَكْتَ فِيَّ فَٱسْأَلْ قَلْبَكَ عَنِّي

وَٱعْلَمْ أَنَّ جَمَاعَةً مِنْ مُدَّعِي عِلْمِ ٱلْبَيَانِ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : فَمِنْهُ مَا يَحْسُنُ فِيهِ ٱلْإِيجَازُ كَٱلْأَشْعَارِ وَٱلْمُكَاتَبَاتِ . وَمِنْهُ مَا يَحْسُنُ فِيهِ ٱلتَّطْوِيلُ كَٱلْخُطَبِ وَٱلتَّقْلِيدَاتِ وَكُتُبِ ٱلْفُتُوحِ ٱلَّتِي تُقْرَأُ فِي مَلَإٍ مِنْ عَوَامِّ ٱلنَّاسِ . فَإِنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا طَالَ فِي مِثْلِ ذٰلِكَ أَثَّرَ عِنْدَهُمْ وَأَفْهَمَهُمْ وَلَوِ ٱقْتُصِرَ فِيهِ عَلَى ٱلْإِيجَازِ وَٱلْإِشَارَةِ لَمْ يَقَعْ لِأَكْثَرِهِمْ حَتَّى يُقَالَ فِي ذِكْرِ ٱلْحَرْبِ: ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَتَطَاعَنَ

ٱلفَرِيقَانِ وَٱشْتَدَّ ٱلقِتَالُ وَحَمِيَ ٱلنِّصَالُ وَمَا جَرَى هٰذَا ٱلمَجْرَى. وَٱلمَذْهَبُ عِنْدِي فِي ذٰلِكَ مَا أَذْكُرُهُ: وَهُوَ أَنَّ فَهْمَ ٱلعَامَّةِ لَيْسَ شَرْطًا مُعْتَبَرًا فِي ٱخْتِيَارِ ٱلكَلَامِ. لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ شَرْطًا لَوَجَبَ عَلَى قِيَاسِهِ أَنْ يَسْتَعْمِلَ فِي ٱلكَلَامِ ٱلأَلْفَاظَ ٱلعَامِّيَّةَ ٱلمُبْتَذَلَةَ عِنْدَهُمْ لِيَكُونَ ذٰلِكَ أَقْرَبَ إِلَى فَهْمِهِمْ. لِأَنَّ ٱلعِلَّةَ فِي ٱخْتِيَارِ تَطْوِيلِ ٱلكَلَامِ إِذَا كَانَتْ فَهْمُ ٱلعَامَّةِ إِيَّاهُ فَكَذٰلِكَ تُجْعَلُ تِلْكَ ٱلعِلَّةُ بِعَيْنِهَا فِي ٱخْتِيَارِ ٱلمُبْتَذَلِ مِنَ ٱلكَلَامِ فَإِنَّهُ لَا خِلَافَ فِي أَنَّ ٱلعَامَّةَ إِلَى فَهْمِهِ أَقْرَبُ مِنْ فَهْمِ مَا يَقِلُّ ٱبْتِذَالُهُمْ إِيَّاهُ. وَهٰذَا شَيْءٌ مَدْفُوعٌ وَأَمَّا ٱلَّذِي يَجِبُ تَوَخِّيهِ وَٱعْتِمَادُهُ فَهُوَ أَنْ يُسْلَكَ ٱلمَذْهَبُ ٱلقَوِيمُ فِي تَرْكِيبِ ٱلأَلْفَاظِ عَلَى ٱلمَعَانِي بِحَيْثُ لَا تَزِيدُ هٰذِهِ عَلَى هٰذِهِ مَعَ ٱلإِيضَاحِ وَٱلإِبَانَةِ وَلَيْسَ عَلَى مُسْتَعْمِلِ ذٰلِكَ أَنْ يَفْهَمَ ٱلعَامَّةُ كَلَامَهُ فَإِنَّ نُورَ ٱلشَّمْسِ إِذَا لَمْ يَرَهُ ٱلأَعْمَى لَا يَكُونُ ذٰلِكَ نَقْصًا فِي ٱسْتِنَارَتِهِ وَإِنَّمَا ٱلنَّقْصُ فِي بَصَرِ ٱلأَعْمَى حَيْثُ لَمْ يَسْتَطِعِ ٱلنَّظَرَ إِلَيْهِ:

عَلَيَّ نَحْتُ ٱلقَوَافِي مِنْ مَعَادِنِهَا وَمَا عَلَيَّ بِأَنْ لَا تَفْهَمَ ٱلبَقَرُ

وَحَيْثُ ٱنْتَهَى بِنَا ٱلقَوْلُ إِلَى هٰذَا ٱلمَوْضِعِ فَلْنَرْجِعْ إِلَى مَا هُوَ غَرَضُنَا وَمُهِمُّنَا مِنَ ٱلكَلَامِ عَلَى ٱلإِيجَازِ وَحَدِّهِ وَأَقْسَامِهِ وَنُوضِحُ ذٰلِكَ إِيضَاحًا جَلِيًّا وَٱللهُ ٱلمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ فَنَقُولُ: حَدُّ ٱلإِيجَازِ هُوَ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلمَعْنَى مِنْ غَيْرِ أَنْ يَزِيدَ عَلَيْهِ. وَٱلتَّطْوِيلُ هُوَ ضِدُّ ذٰلِكَ وَهُوَ أَنْ يَدُلَّ عَلَى ٱلمَعْنَى بِلَفْظٍ يَكْفِيكَ بَعْضُهُ فِي ٱلدَّلَالَةِ عَلَيْهِ. كَقَوْلِ ٱلمُجَيْرِ ٱلسَّلُولِيِّ مِنْ أَبْيَاتِ ٱلحَمَاسَةِ:

طُلُوعُ ٱلثَّنَايَا بِٱلْمَطَايَا وَسَابِقٌ إِلَى غَايَةٍ مَنْ يَبْتَدِرْهَا يُقَدَّمِ

فَصَدْرُ هٰذَا ٱلْبَيْتِ فِيهِ تَطْوِيلٌ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ وَعَجُزُهُ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُتَوَاصِفَةِ . وَمَوْضِعُ ٱلتَّطْوِيلِ مِنْ صَدْرِهِ أَنَّهُ قَالَ : (طُلُوعُ ٱلثَّنَايَا بِٱلْمَطَايَا) فَإِنَّ لَفْظَةَ ٱلْمَطَايَا فَضْلَةٌ لَا حَاجَةَ إِلَيْهَا . وَبَيَانُ ذٰلِكَ أَنَّهُ لَا يَخْلُو ٱلْأَمْرُ فِيهَا مِنْ وَجْهَيْنِ : إِمَّا أَنْ يُرِيدَ أَنَّهُ سَابِقُ ٱلْهِمَّةِ إِلَى مَعَالِي ٱلْأُمُورِ كَمَا قَالَ ٱلْحَجَّاجُ عَلَى ٱلْمِنْبَرِ عِنْدَ وُصُولِهِ ٱلْعِرَاقَ : أَنَا ٱبْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ ٱلثَّنَايَا . أَيْ أَنَا ٱلرَّجُلُ ٱلْمَشْهُورُ ٱلسَّابِقُ إِلَى مَعَالِي ٱلْأُمُورِ . فَإِنْ أَرَادَ ٱلْمُجِيبُ بِقَوْلِهِ : (طُلُوعُ ٱلثَّنَايَا) مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ فَذِكْرُ ٱلْمَطَايَا يُفْسِدُ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى لِأَنَّ مَعَالِيَ ٱلْأُمُورِ لَا يُرْقَى إِلَيْهَا بِٱلْمَطَايَا . وَإِنْ أَرَادَ ٱلْوَجْهَ ٱلْآخَرَ وَهُوَ أَنَّهُ كَثِيرُ ٱلْأَسْفَارِ فَٱخْتِصَاصُهُ ٱلثَّنَايَا بِٱلذِّكْرِ دُونَ ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْمَفَاوِزِ وَغَيْرِهَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ . وَعَلَى كِلَا ٱلْوَجْهَيْنِ فَإِنَّ ذِكْرَ ٱلْمَطَايَا لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ وَهُوَ تَطْوِيلٌ بَارِدٌ غَثٌّ . فَقِسْ عَلَى هٰذَا ٱلْمِثَالِ مَا يَجْرِي مَجْرَاهُ مِنَ ٱلتَّطْوِيلَاتِ ٱلَّتِي إِذَا أُسْقِطَتْ مِنَ ٱلْكَلَامِ بَقِيَ عَلَى حَالِهِ لَمْ يَتَغَيَّرْ شَيْءٌ . وَكَذٰلِكَ يَجْرِي ٱلْأَمْرُ فِي أَلْفَاظٍ يُوصَلُ بِهَا ٱلْكَلَامُ فَتَارَةً تَجِيءُ لِفَائِدَةٍ وَذٰلِكَ قَلِيلٌ وَتَارَةً تَجِيءُ لِغَيْرِ فَائِدَةٍ وَذٰلِكَ كَثِيرٌ . وَأَكْثَرُ مَا تَرِدُ فِي ٱلْأَشْعَارِ لِيُوزَنَ بِهَا ٱلْأَبْيَاتُ ٱلشِّعْرِيَّةُ وَذٰلِكَ نَحْوُ قَوْلِهِمْ : لَعَمْرِي وَلَعَمْرُكَ وَنَحْوُ : أَصْبَحَ وَأَمْسَى وَظَلَّ وَأَضْحَى وَبَاتَ وَأَشْبَاهِ ذٰلِكَ . وَنَحْوُ : يَاصَاحِبِي وَيَاخَلِيلِي وَمَا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى . فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

أقرُّوا لَعمْرِي بِحُكْمِ ٱلسُّيُوفِ وَكَانَتْ أَحَقَّ بِفَصْلِ ٱلْقَضَاءِ

فَإِنْ قَوْلَهُ : (لَعَمْرِي) زِيَادَةٌ لَاحَاجَةَ لِلْمَعْنَى إِلَيْهَا وَهِيَ حَشْوٌ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ لَا فَائِدَةَ فِيهِ إِلَّا إِصْلَاحُ ٱلْوَزْنِ لَا غَيْرُ . أَلَا تَرَى أَنَّهَا مِنْ بَابِ ٱلْقَسَمِ وَإِنَّمَا يَرِدُ ٱلْقَسَمُ فِي مَوْضِعٍ يُؤَكَّدُ بِهِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادُ إِمَّا لِأَنَّهُ يُشَكُّ فِيهِ أَوْ مِمَّا يَعِزُّ وُجُودُهُ أَوْ مَا جَرَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى . وَهٰذَا ٱلْبَيْتُ ٱلشِّعْرِيُّ لَا يَفْتَقِرُ مَعْنَاهُ إِلَى تَوْكِيدٍ قَسَمِيٍّ إِذْ لَا شَكَّ أَنَّ ٱلسُّيُوفَ حَاكِمَةٌ وَأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يُقِرُّ لِحُكْمِهَا وَيُذْعِنُ لِطَاعَتِهَا . وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ أَيْضًا :

إِذَا أَنَا لَمْ أَلُمْ عَثَرَاتِ دَهْرٍ بُلِيتُ بِهِ ٱلْغَدَاةَ فَمَنْ أَلُومُ

فَقَوْلُهُ : (ٱلْغَدَاةَ) زِيَادَةٌ لَا حَاجَةَ لِلْمَعْنَى إِلَيْهَا لِأَنَّهُ يَتِمُّ بِدُونِهَا لِأَنَّ عَثَرَاتِ ٱلدَّهْرِ لَمْ تَنَلْهُ ٱلْغَدَاةَ وَلَا ٱلْعَشِيَّ وَإِنَّمَا نَالَتْهُ وَنَيْلُهَا إِيَّاهُ لَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ فِي زَمَنٍ مِنَ ٱلْأَزْمِنَةِ كَائِنًا مَا كَانَ وَلَا حَاجَةَ إِلَى تَعْيِينِهِ بِٱلذِّكْرِ . وَعَلَى هٰذَا وَرَدَ قَوْلُ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

مَا أَحْسَنَ ٱلْأَيَّامَ إِلَّا أَنَّهَا يَا صَاحِبَيَّ إِذَا مَضَتْ لَمْ تَرْجِعِ

فَقَوْلُهُ : (يَا صَاحِبَيَّ) زِيَادَةٌ لَاحَاجَةَ بِٱلْمَعْنَى إِلَيْهَا إِلَّا أَنَّهَا وَرَدَتْ لِتَصْحِيحِ ٱلْوَزْنِ لَا غَيْرَ . وَهٰذِهِ ٱلْأَلْفَاظُ ٱلَّتِي تَرِدُ فِي ٱلْأَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ لِتَصْحِيحِ ٱلْوَزْنِ لَا عَيْبَ فِيهَا . لِأَنَّا لَوْ عِبْنَاهَا عَلَى ٱلشُّعَرَاءِ لَتَحَجَّرْنَا عَلَيْهِمْ وَضَيَّقْنَا ٱلْوَزْنَ وَيُضْطَرُّ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ إِلَى مِثْلِ ذٰلِكَ لٰكِنْ إِذَا وَرَدَتْ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ فَإِنَّهَا إِنْ وَرَدَتْ حَشْوًا وَلَمْ تَرِدْ لِفَائِدَةٍ كَانَتْ عَيْبًا . وَقَدْ تَرِدُ فِي ٱلْأَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَيَكُونُ

وُرُودُهَا لِفَائِدَةٍ . ∴ فَاعْلَمْ أَيُّهَا النَّاظِرُ فِي كِتَابِي هَـذَا أَنَّ التَّطْوِيلَ هُوَ زِيَادَاتُ الأَلْفَاظِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَعَانِي وَمَهْمَا أَمْكَنَكَ حَذْفُ شَيْءٍ مِنَ اللَّفْظِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنًى مِنَ الْمَعَانِي فَإِنَّ ذَلِكَ اللَّفْظَ هُوَ التَّطْوِيلُ بِعَيْنِهِ . وَأَمَّا الإِيجَازُ فَقَدْ عَرَّفْتُكَ أَنَّهُ دَلَالَةُ اللَّفْظِ عَلَى الْمَعْنَى مِنْ غَيْرِ أَنْ يَزِيدَ عَلَيْهِ . وَهُوَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : (أَحَدُهُمَا) الإِيجَازُ بِالْحَذْفِ وَهُوَ مَا يُحْذَفُ مِنْهُ الْمُفْرَدُ وَالْجُمْلَةُ لِدَلَالَةِ فَحْوَى الْكَلَامِ عَلَى الْمَحْذُوفِ وَلَا يَكُونُ إِلَّا فِيمَا زَادَ مَعْنَاهُ عَلَى لَفْظِهِ . (وَالْقِسْمُ الآخَرُ) مَا لَا يُحْذَفُ مِنْهُ شَيْءٌ وَهُوَ ضَرْبَانِ : (أَحَدُهُمَا) مَا سَاوَى لَفْظُهُ مَعْنَاهُ وَيُسَمَّى التَّقْـدِيرَ . (وَالآخَرُ) مَا زَادَ مَعْنَاهُ عَلَى لَفْظِهِ وَيُسَمَّى الْقَصْرَ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْقِسْمَ الأَوَّلَ الَّذِي هُوَ الإِيجَازُ بِالْحَذْفِ يُتَنَبَّهُ لَهُ مِنْ غَيْرِ كَبِيرِ كُلْفَةٍ فِي اسْتِخْرَاجِهِ لِمَكَانِ الْمَحْذُوفِ مِنْهُ . وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي فَإِنَّ التَّنَبُّهَ لَهُ عَسِرٌ لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى فَضْلِ تَأَمُّلٍ وَطُولِ فِكْرَةٍ لِخَفَاءِ مَا يُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ وَلَا يَسْتَنْبِطُ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ رَسَتْ قَدَمُهُ فِي مُمَارَسَةِ عِلْمِ الْبَيَانِ وَصَارَ لَهُ خَلِيقَةً وَمَلَكَةً . وَلَمْ أَجِدْ أَحَدًا عَلَّمَ هَذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ بِعَلَامَةٍ وَلَا قَيَّدَهُمَا بِقَيْدٍ . . . فَنَقُولُ أَمَّا الإِيجَازُ بِالْحَذْفِ فَإِنَّهُ عَجِيبُ الأَمْرِ شَبِيـهٌ بِالسِّحْرِ وَذَاكَ أَنَّكَ تَرَى فِيهِ تَرْكَ الذِّكْرِ أَفْصَحَ مِنَ الذِّكْرِ وَالصَّمْتَ عَنِ الإِفَادَةِ أَزْيَدَ لِلإِفَادَةِ وَتَجِدُكَ أَنْطَقَ مَا تَكُونُ إِذَا لَمْ تَنْطِقْ وَأَتَمَّ مَا تَكُونُ مُبَيِّنًا إِذَا لَمْ تُبَيِّنْ وَهَذِهِ جُمْلَةٌ تُنْكِرُهَا حَتَّى تُخْبَرَ وَتَدْفَعُهَا حَتَّى تَنْظُرَ . وَالأَصْلُ فِي الْمَحْذُوفَاتِ جَمِيعِهَا عَلَى اخْتِلَافِ ضُرُوبِهَا

أَنْ يَكُونَ فِي ٱلْكَلَامِ مَا يَدُلُّ عَلَى ٱلْمَحْذُوفِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ دَلِيلٌ عَلَى ٱلْمَحْذُوفِ فَإِنَّهُ لَغْوٌ مِنَ ٱلْحَدِيثِ لَا يَجُوزُ بِوَجْهٍ وَلَا سَبَبٍ . وَمِنْ شَرْطِ ٱلْمَحْذُوفِ فِي حُكْمِ ٱلْبَلَاغَةِ أَنَّهُ مَتَى أُظْهِرَ صَارَ ٱلْكَلَامُ إِلَى شَيْءٍ غَثٍّ لَا يُنَاسِبُ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَوَّلًا مِنَ ٱلطَّلَاوَةِ وَٱلْحُسْنِ وَقَدْ يَظْهَرُ ٱلْمَحْذُوفُ بِٱلْإِعْرَابِ كَقَوْلِنَا: أَهْلًا وَسَهْلًا. فَإِنَّ نَصْبَ ٱلْأَهْلِ وَٱلسَّهْلِ يَدُلُّ عَلَى نَاصِبٍ مَحْذُوفٍ وَلَيْسَ لِهٰذَا مِنَ ٱلْحُسْنِ مَا لِلَّذِي لَا يَظْهَرُ بِٱلْإِعْرَابِ وَإِنَّمَا يَظْهَرُ بِٱلنَّظَرِ إِلَى تَمَامِ ٱلْمَعْنَى كَقَوْلِنَا : فُلَانٌ يَحُلُّ وَيَعْقِدُ فَإِنَّ ذٰلِكَ لَا يَظْهَرُ ٱلْمَحْذُوفُ بِهِ بِٱلْإِعْرَابِ وَإِنَّمَا يَظْهَرُ بِٱلنَّظَرِ إِلَى تَمَامِ ٱلْمَعْنَى أَيْ إِنَّهُ يَحُلُّ ٱلْأُمُورَ وَيَعْقِدُهَا . وَٱلَّذِي يَظْهَرُ فِي ٱلْإِعْرَابِ يَقَعُ فِي ٱلْمُفْرَدَاتِ مِنَ ٱلْمَحْذُوفَاتِ كَثِيرًا وَٱلَّذِي لَا يَظْهَرُ بِٱلْإِعْرَابِ يَقَعُ فِي ٱلْجُمَلِ مِنَ ٱلْمَحْذُوفَاتِ كَثِيرٌ

البحث السادس

في المساواة

(عن كتاب الصناعتين باختصار)

(راجع صفحة ٧٥ من علم الادب)

ٱلْمُسَاوَاةُ هِيَ أَنْ تَكُونَ ٱلْمَعَانِي بِقَدْرِ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْأَلْفَاظُ بِقَدْرِ ٱلْمَعَانِي لَا يَزِيدُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ وَهُوَ ٱلْمَذْهَبُ ٱلْمُتَوَسِّطُ بَيْنَ ٱلْإِيجَازِ وَٱلْإِطْنَابِ وَإِلَيْهِ أَشَارَ ٱلْقَائِلُ بِقَوْلِهِ : كَأَنَّ أَلْفَاظَهُ قَوَالِبُ لِمَعَانِيهِ

اي لا يزيد بعضها على بعض . فمما جاء من ذلك قوله : لا تزال امتي بخير ما لم ترَ الامانة مغنماً والزكاة مغرماً . وقوله : إياك والمشاورة فانها تميت الغرة وتحيي العزة . ومن الفاظ هذه الفصول ما كانت معانيه اكثر من الفاظه وانما يكره تميزها كراهة الاطالة . ومن نثر الكتّاب قول بعضهم : سألت عن خبري وانا في عافية لا عيب فيها الّا فقدك ونعمة لا مزيد فيها الّا بك . وقوله : علّمتني نبوتك سلوتك واسلمني يأسي منك الى الصبر عنك . وقوله : فحفظ الله النعمة عليك وفيك وتولى إصلاحك والاصلاح اليك واجزل من الخير حظك والحظ منك ومنّ عليك وعلينا بك . وقال آخر يئست من صلاحك لي واخاف فسادي بك وقد اطنب في ذم الحمار من شبهك به . ومن المنظوم قول طرفة :

ستبدي لك الايام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالاخبار من لم تزوّدِ

وقول الآخر :

تهدا الامور باهل الرأي ما صلحت فان تابت فبالاشرار تنقاد

وقول الآخر :

اما الذي يحصيهم فمكثّر اما الذي يطريهم فمقلّل

وقول الآخر :

اهابك إجلالا وما بك قدرة علي ولكن ملء عين حبيبها
وما هجرتك النفس انك عندها قليل ولكن قلّ منك نصيبها

البحث السابع

في الاطناب

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٧٦ من علم الادب)

قَالَ اَصْحَابُ ٱلْاِطْنَابِ: ٱلْمَنطِقُ اِنَّمَا هُوَ بَيَانٌ وَٱلْبَيَانُ لَا يَكُونُ اِلَّا بِٱلْاِشْبَاعِ وَٱلشِّفَاءِ لَا يَقَعُ اِلَّا بِٱلْاِقْنَاعِ. وَاَفْضَلُ ٱلْكَلَامِ اَبْيَنُهُ وَاَبْيَنُهُ اَشَدُّهُ اِحَاطَةً بِٱلْمَعَانِي وَلَا يُحَاطُ بِٱلْمَعَانِي اِحَاطَةً تَامَّةً اِلَّا بِٱلْاِسْتِقْصَاءِ. وَٱلْاِيجَازُ لِلْخَوَاصِّ وَٱلْاِطْنَابُ مُشْتَرِكٌ فِيهِ ٱلْخَاصَّةُ وَٱلْعَامَّةُ وَٱلْغَبِيُّ وَٱلْفَطِنُ وَٱلرَّيِّضُ وَٱلْمُرْتَاضُ وَلِمَعْنًى مَا اُطِيلَتِ ٱلْكُتُبُ ٱلسُّلْطَانِيَّةُ فِي اِفْهَامِ ٱلرَّعَايَا. وَٱلْقَوْلُ ٱلْقَصْدُ اَنَّ ٱلْاِيجَازَ وَٱلْاِطْنَابَ يُحْتَاجُ اِلَيْهِمَا فِي جَمِيعِ ٱلْكَلَامِ وَكُلِّ نَوْعٍ مِنْهُ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَوْضِعٌ فَٱلْحَاجَةُ اِلَى ٱلْاِيجَازِ فِي مَوْضِعِهِ كَٱلْحَاجَةِ اِلَى ٱلْاِطْنَابِ فِي مَكَانِهِ. فَمَنْ اَزَالَ ٱلتَّدْبِيرَ فِي ذٰلِكَ عَنْ وَجْهِهِ فَٱسْتَعْمَلَ ٱلْاِطْنَابَ فِي مَوْضِعِ ٱلْاِيجَازِ وَٱسْتَعْمَلَ ٱلْاِيجَازَ فِي مَوْضِعِ ٱلْاِطْنَابِ اَخْطَأَ. كَمَا رُوِيَ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى اَنَّهُ قَالَ مَعَ عُجْبِهِ بِٱلْاِيجَازِ: مَتَى كَانَ ٱلْاِيجَازُ اَبْلَغَ كَانَ ٱلْاِكْثَارُ عِيًّا وَمَتَى كَانَتِ ٱلْكِتَابَةُ فِي مَوْضِعِ ٱلْاِكْثَارِ كَانَ ٱلْاِيجَازُ تَقْصِيرًا. وَاَمَرَ خَالِدُ بْنُ يَحْيَى ٱثْنَيْنِ اَنْ يَكْتُبَا كِتَابًا وَاحِدًا فِي مَعْنًى وَاحِدٍ فَاَطَالَ اَحَدُهُمَا وَٱخْتَصَرَ ٱلْآخَرُ. فَقَالَ لِلْمُخْتَصِرِ وَقَدْ نَظَرَ فِي كِتَابِهِ: مَا اَرَى مَوْضِعَ مَزِيدٍ. وَقَالَ لِلْمُطِيلِ: مَا

اَرَى مَوْضِعَ نُقْصَانٍ . وَقَالَ غَيْرُهُ : اَلْبَلَاغَةُ اَلْاِيجَازُ فِي غَيْرِ عَجْزٍ وَٱلْاِطْنَابُ فِي غَيْرِ خَطَلٍ . وَلَا شَكَّ فِي اَنَّ اَلْكُتُبَ اَلصَّادِرَةَ عَنِ اَلسَّلَاطِينِ فِي اَلْاُمُورِ اَلْجَسِيمَةِ وَٱلْفُتُوحِ اَلْجَلِيلَةِ وَتَفْخِيمِ اَلنِّعَمِ اَلْحَادِثَةِ اَوِ اَلتَّرْغِيبِ فِي اَلطَّاعَةِ وَٱلنَّهْيِ عَنِ اَلْمَعْصِيَةِ . سَبِيلُهَا اَنْ تَكُونَ مُشْبَعَةً مُسْتَقْصَاةً تَمْلَأُ اَلصُّدُورَ وَتَأْخُذُ بِمَجَامِعِ اَلْقُلُوبِ . فَٱلْاِطْنَابُ بَلَاغَةٌ وَٱلتَّطْوِيلُ عِيٌّ . لِاَنَّ اَلتَّطْوِيلَ بِمَنْزِلَةِ سُلُوكِ مَا يَبْعُدُ جَهْلًا بِمَا يَقْرُبُ . وَٱلْاِطْنَابُ بِمَنْزِلَةِ سُلُوكِ طَرِيقٍ بَعِيدٍ نَزِهٍ يَحْتَوِي عَلَى زِيَادَةِ فَائِدَةٍ . وَقَالَ اَلْخَلِيلُ : يُخْتَصَرُ اَلْكِتَابُ لِيُحْفَظَ وَيُبْسَطُ لِيُفْهَمَ . وَقِيلَ لِاَبِي عَمْرِو اَبْنِ اَلْعَلَاءِ هَلْ كَانَتِ اَلْعَرَبُ تُطِيلُ . قَالَ : نَعَمْ كَانَتْ تُطِيلُ لِيُسْمَعَ مِنْهَا وَتُوجِزُ لِيُحْفَظَ عَنْهَا . وَٱلْاِطْنَابُ اِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ بُدٌّ اِيجَازٌ وَهُوَ فِي اَلْمَوَاعِظِ خَاصَّةً مَحْمُودٌ كَمَا اَنَّ اَلْاِيجَازَ فِي اَلْاِفْهَامِ مَحْمُودٌ مَمْدُوحٌ . وَٱلْمَوْعِظَةُ كَقَوْلِهِ : اَفَاَمِنَ اَهْلُ اَلْقُرَى اَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ . اَوْ اَمِنَ اَهْلُ اَلْقُرَى اَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ اَفَاَمِنُوا مَكْرَ اَللّٰهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اَللّٰهِ اِلَّا اَلْقَوْمُ اَلْخَاسِرُونَ . فَتَكْرِيرُ مَا كُرِّرَ مِنَ اَلْاَلْفَاظِ هَا هُنَا فِي غَايَةِ حُسْنِ اَلْمَوْقِعِ . وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ : مَتَى يُحْتَاجُ اِلَى اَلْاِكْثَارِ . قَالَ : اِذَا عَظُمَ اَلْخَطْبُ وَاَنْشَدَ :

صَمُوتٌ اِذَا مَا اَلدَّهْرُ زَيَّنَ اَهْلَهُ ‏ ‏ ‏ ‏ وَفَتَّاقُ اَبْكَارِ اَلْكَلَامِ اَلْمُحَبَّرِ

وَقَالَ آخَرُ :

يَرْمُونَ بِٱلْخُطَبِ اَلطِّوَالِ وَتَارَةً ‏ ‏ ‏ ‏ وَحْيِ اَلْمَلَاحِظِ خَشْيَةَ اَلرُّقَبَاءِ

وَقَالَ بَعْضُهُمْ :

إِذَا مَا ٱنْتَدَى خَاطِبًا لَمْ يَقُلْ ... لَهُ أَطِلِ ٱلْقَوْلَ أَوْ قَصِّرِ
طَبِيبٌ بِدَاءِ فُنُونِ ٱلْكَلَا ... مِ لَمْ يَعْيَ يَوْمًا وَلَمْ يَهْذِرِ
فَإِنْ هُوَ أَطْنَبَ فِي خُطْبَةٍ ... قَضَى لِلْمُطِيلِ عَلَى ٱلْمُقْصِرِ
وَإِنْ هُوَ أَوْجَزَ فِي خُطْبَةٍ ... قَضَى لِلْمُقِلِّ عَلَى ٱلْمُكْثِرِ

وَوَجَدَ ٱلنَّاسَ إِذَا خَطَبُوا فِي ٱلصُّلْحِ بَيْنَ ٱلْعَشَائِرِ أَطَالُوا . وَإِذَا أَنْشَدُوا ٱلشِّعْرَ بَيْنَ ٱلسِّمَاطَيْنِ فِي مَدِيحِ ٱلْمُلُوكِ أَطْنَبُوا . وَٱلْإِطَالَةُ وَٱلْإِطْنَابُ فِي هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعِ إِيجَازٌ . وَقِيلَ لِقَيْسِ بْنِ خَارِجَةَ : مَا عِنْدَكَ فِي حَمَالَاتِ دَاحِسٍ . قَالَ : عِنْدِي قِرَى كُلِّ نَازِلٍ وَرِضَى كُلِّ سَاخِطٍ وَخُطْبَةٌ مِنْ لَدُنْ مَطْلَعِ ٱلشَّمْسِ إِلَى أَنْ تَغْرُبَ آمُرُ فِيهَا بِٱلتَّوَاصُلِ وَأَنْهَى عَنِ ٱلتَّقَاطُعِ . فَقِيلَ لِأَبِي يَعْقُوبَ ٱلْخُرَيْمِيِّ : هَلَّا ٱكْتَفَى بِقَوْلِهِ : آمُرُ فِيهَا بِٱلتَّوَاصُلِ فَقَالَ : وَأَنْهَى عَنِ ٱلتَّقَاطُعِ) . قَالَ : أَوَ مَا عَلِمْتَ أَنَّ ٱلْكِنَايَةَ وَٱلتَّعْرِيضَ لَا تَعْمَلُ عَمَلَ ٱلْإِطْنَابِ وَٱلتَّكْشِيفِ .وَقَدْ رَأَيْنَا فِي ٱلْقُرْآنِ أَنَّهُ : إِذَا خَاطَبَ ٱلْعَرَبَ وَٱلْأَعْرَابَ أَخْرَجَ ٱلْكَلَامَ مُخْرَجَ ٱلْإِشَارَةِ .وَإِذَا خَاطَبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْ حَكَى عَنْهُمْ جَعَلَ ٱلْكَلَامَ مَبْسُوطًا . وَقَلَّ مَا تَجِدُ قِصَّةً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي ٱلْقُرْآنِ إِلَّا مُطَوَّلَةً مَشْرُوحَةً وَمُكَرَّرَةً فِي مَوَاضِعَ مُعَادَةً لِبُعْدِ فَهْمِهِمْ وَتَأَخُّرِ مَعْرِفَتِهِمْ . وَكَلَامُ ٱلْفُصَحَاءِ إِنَّمَا هُوَ شَوْبُ ٱلْإِيجَازِ بِٱلْإِطْنَابِ . وَٱلْفَصِيحُ ٱلْعَالِي مَا دُونَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْقَصْدِ ٱلْمُتَوَسِّطِ لِيُسْتَدَلَّ بِٱلْقَصْدِ عَلَى ٱلْعَالِي وَلِيَخْرُجَ ٱلسَّامِعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ فَيَزْدَادَ

نَشَاطُهُ وَتَتَوَفَّرَ رَغْبَتُهُ فَيَتَصَرَّفُوا فِي وُجُوهِ ٱلْكَلَامِ إِيجَازِهِ وَإِطْنَابِهِ حَتَّى ٱسْتَعْمَلُوا ٱلتَّكْرَارَ لِتَوَكُّدِ ٱلْقَوْلِ لِلسَّامِعِ . وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَفِي فَصِيحِ ٱلشِّعْرِ مِنْهُ شَيْءٌ كَثِيرٌ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ: كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . وَقَدْ جَاءَ مِثْلُ ذٰلِكَ عَنْ أَهْلِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ . قَالَ مُهَلْهِلٌ :

عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلًا مِنْ كُلَيْبٍ

فَكَرَّرَهَا فِي أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ بَيْتًا . وَهٰكَذَا قَوْلُ ٱلْحَرْثِ ٱبْنِ عَبَّادٍ :

قَرِّبَا مَرْبَطَ ٱلنَّعَامَةِ مِنِّي

كَرَّرَهَا فِي أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ هٰذَا لَمَّا كَانَتِ ٱلْحَاجَةُ إِلَى تَكْرِيرِهَا مَاسَّةً وَٱلضَّرُورَةُ إِلَيْهِ دَاعِيَةً لِعِظَمِ ٱلْخَطْبِ وَشِدَّةِ مَوْقِعِ ٱلْفَجِيعَةِ فَهٰذَا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ ٱلْإِطْنَابَ فِي مَوْضِعِهِ عِنْدَهُمْ مُسْتَحْسَنٌ . كَمَا أَنَّ ٱلْإِيجَازَ فِي مَكَانِهِ مُسْتَحَبٌّ وَلَا بُدَّ لِلْكَاتِبِ فِي أَكْثَرِ أَنْوَاعِ مُكَاتَبَاتِهِ مِنْ شُعْبَةٍ مِنَ ٱلْإِطْنَابِ يَسْتَعْمِلُهَا إِذَا أَرَادَ ٱلْمُزَاوَجَةَ بَيْنَ ٱلْفَصْلَيْنِ وَلَا يُعَاقِبَ ذٰلِكَ مِنْهُ.وَذٰلِكَ مِثْلُ أَنْ يَكْتُبَ عَظُمَتْ نِعَمُنَا عَلَيْهِ وَتَظَاهَرَ إِحْسَانُنَا لَدَيْهِ فَيَكُونُ ٱلْفَصْلُ ٱلْأَخِيرُ دَاخِلًا فِي مَعْنَاهُ فِي ٱلْفَصْلِ ٱلْأَوَّلِ وَهُوَ مُسْتَحْسَنٌ لَا يَعِيبُهُ أَحَدٌ . وَلَمَّا أُحِيطَ بِمَرْوَانَ قَالَ خَادِمُهُ بَاسِلٌ : مَنْ أَغْفَلَ ٱلْقَلِيلَ حَتَّى يَكْثُرَ وَٱلصَّغِيرَ حَتَّى يَكْبُرَ وَٱلْخَفِيَّ حَتَّى يَظْهَرَ أَصَابَهُ مِثْلُ هٰذَا . وَهٰذَا كَلَامٌ فِي غَايَةِ ٱلْحُسْنِ وَإِنْ كَانَ مَعْنَى ٱلْفَصْلَيْنِ ٱلْأَخِيرَيْنِ دَاخِلًا فِي ٱلْفَصْلِ ٱلْأَوَّلِ .

وَهٰكَذَا قَوْلُ أَبِي تَمَّام حَبِيبِ بْنِ أَوْس :

رُبَّ خَفْضٍ تَحْتَ ٱلسُّرَى وَغَنَاءٍ   مِنْ عَنَاءٍ وَنَضْرَةٍ مِنْ شُحُوبِ

وَٱلْغَنَاءُ دَاخِلٌ فِي ٱلْخَفْضِ وَٱلْعَنَاءُ دَاخِلٌ فِي ٱلسُّرَى . وَهٰذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُعْظَمَ ٱلْمَدَارِ فِي ٱلْبَلَاغَةِ عَلَى تَحْسِينِ ٱللَّفْظِ لِأَنَّ ٱلْمَعَانِيَ إِذَا دَخَلَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ هٰذَا ٱلضَّرْبَ مِنَ ٱلدُّخُولِ وَكَانَتِ ٱلْأَلْفَاظُ مُخْتَارَةً حَسُنَ ٱلْكَلَامُ . وَإِذَا كَانَتِ ٱلْمَعَانِي مُرَتَّبَةً حَسَنَةً وَٱلْمَعَارِضُ سَيِّئَةً كَانَ ٱلْكَلَامُ مَرْدُودًا فَٱعْتَمِدْ عَلَى مَا مَثَّلْتُهُ لَكَ وَقِسْ عَلَيْهِ

البحث الثامن

في مواقع الاطناب

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْكَلَامِ أَنْعَمْتُ نَظَرِي فِيهِ وَفِي ٱلتَّكْرِيرِ وَفِي ٱلتَّطْوِيلِ فَمَلَكَتْنِي حَيْرَةُ ٱلشَّبَهِ بَيْنَهُمَا طَوِيلًا . ثُمَّ وَجَدْتُهُ إِنَّهُ ضَرْبٌ مُفْرَدٌ بِرَأْسِهِ لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ . لِأَنَّ مِنَ ٱلتَّأْكِيدِ مَا يَتَعَلَّقُ بِٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ كَمَا مَرَّ وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْإِطْنَابُ لَيْسَ كَذٰلِكَ . وَرَأَيْتُ عُلَمَاءَ ٱلْبَيَانِ قَدِ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَلْحَقَهُ بِٱلتَّطْوِيلِ ٱلَّذِي هُوَ ضِدُّ ٱلْإِيجَازِ وَهُوَ عِنْدَهُ قِسْمٌ غَيْرُهُ فَأَخْطَأَ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي كَأَبِي هِلَالٍ ٱلْعَسْكَرِيِّ وَٱلْغَانِمِيِّ حَتَّى أَنَّهُ قَالَ : إِنَّ كُتُبَ ٱلْفُتُوحِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهَا مِمَّا يُقْرَأُ عَلَى عَوَامِّ ٱلنَّاسِ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ مُطَوَّلَةً مُطْنَبًا فِيهَا . وَهٰذَا ٱلْقَوْلُ فَاسِدٌ لِأَنَّهُ إِنْ عَنَى

بِذلِكَ انَّهَا تَكُونُ ذَاتَ مَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٍ قَدِ ٱسْتُقْصِيَ فِيهَا شَرْحُ تِلْكَ ٱلْحَادِثَةِ مِنْ فَتْحٍ اَوْ غَيْرِهِ فَذٰلِكَ مُسَلَّمٌ . وَإِنْ عَنَى بِذٰلِكَ انَّهَا تَكُونُ مُكَرَّرَةَ ٱلْمَعَانِي مُطَوَّلَةَ ٱلْأَلْفَاظِ قَصْدًا لِإِفْهَامِ ٱلْعَامَّةِ فَهٰذَا غَيْرُ مُسَلَّمٍ . وَهُوَ مِمَّا لَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ مَنْ عِنْدَهُ اَدْنَى مَعْرِفَةٍ بِعِلْمِ ٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْبَلَاغَةِ . وَعَلَى هٰذَا فَيَنْبَغِي اَنْ تَكُونَ ٱلْكُتُبُ جَمِيعُهَا مِمَّا يُقْرَأُ عَلَى عَوَامِّ ٱلنَّاسِ وَخَوَاصِّهِمْ ذَاتَ أَلْفَاظٍ سَهْلَةٍ مَفْهُومَةٍ . وَكَذٰلِكَ ٱلْأَشْعَارُ وَٱلْخُطَبُ وَمَنْ ذَهَبَ إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ فَإِنَّهُ بِنَجْوَةٍ عَنْ هٰذَا ٱلْفَنِّ . وَعَلَى هٰذَا فَإِنَّ ٱلْإِطْنَابَ لَا يَخْتَصُّ بِهِ عَوَامُّ ٱلنَّاسِ وَإِنَّمَا هُوَ لِلْخَوَاصِّ كَمَا هُوَ لِلْعَوَامِّ . وَسَأُبَيِّنُ حَقِيقَتَهُ وَأُحَقِّقُ ٱلْقَوْلَ فِيهِ بِحَيْثُ تَزُولُ ٱلشُّبْهَةُ ٱلَّتِي خَبَطَ أَرْبَابُ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ مِنْ اَجْلِهَا وَقَالُوا اَقْوَالًا لَا تُعْرِبُ عَنْ فَائِدَةٍ . وَٱلَّذِي عِنْدِي فِيهِ : اَنَّهُ إِذَا رَجَعْنَا إِلَى ٱلْأَسْمَاءِ وَٱشْتِقَاقِهَا وَجَدْنَا هٰذَا ٱلِٱسْمَ مُنَاسِبًا لِمُسَمَّاهُ وَهُوَ فِي اَصْلِ ٱللُّغَةِ مَأْخُوذٌ (مِنْ اَطْنَبَ فِي ٱلشَّيْءِ) إِذَا بَالَغَ فِيهِ . وَيُقَالُ : اَطْنَبَتِ ٱلرِّيحُ إِذَا ٱشْتَدَّتْ فِي هُبُوبِهَا . وَاَطْنَبَ فِي ٱلسَّيْرِ إِذَا ٱشْتَدَّ فِيهِ . وَعَلَى هٰذَا فَإِنْ حَمَلْنَاهُ عَلَى مُقْتَضَى مُسَمَّاهُ كَانَ مَعْنَاهُ ٱلْمُبَالَغَةَ فِي إِيرَادِ ٱلْمَعَانِي . وَهٰذَا لَا يَخْتَصُّ بِنَوْعٍ وَاحِدٍ مِنْ اَنْوَاعِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ وَإِنَّمَا يُوجَدُ فِيهَا جَمِيعًا إِذْ مَا مِنْ نَوْعٍ مِنْهَا إِلَّا وَيُمْكِنُ ٱلْمُبَالَغَةُ فِيهِ . وَإِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ كَذٰلِكَ فَيَنْبَغِي اَنْ يُفْرَدَ هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنْ بَيْنِهَا وَلَا يَتَحَقَّقُ إِفْرَادُهُ إِلَّا بِذِكْرِ حَدِّهِ ٱلدَّالِّ عَلَى حَقِيقَتِهِ . وَٱلَّذِي يُحَدُّ بِهِ اَنْ يُقَالَ : هُوَ زِيَادَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى لِفَائِدَةٍ فَهٰذَا حَدُّهُ ٱلَّذِي يُمَيِّزُهُ

عَنِ ٱلتَّطْوِيلِ إِذِ ٱلتَّطْوِيلُ هُوَ زِيَادَةُ ٱللَّفْظِ عَنِ ٱلْمَعْنَى لِغَيْرِ فَائِدَةٍ . وَأَمَّا ٱلتَّكْرِيرُ فَإِنَّهُ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مُرَدَّدًا كَقَوْلِكَ لِمَنْ تَسْتَدْعِيهِ : أَسْرِعْ أَسْرِعْ. فَإِنَّ ٱلْمَعْنَى مُرَدَّدٌ وَٱللَّفْظَ وَاحِدٌ. وَٱلتَّكْرِيرُ جُزْءٌ مِنَ ٱلْإِطْنَابِ وَهُوَ أَخَصُّ مِنْهُ فَيُقَالُ حِينَئِذٍ : إِنَّ كُلَّ تَكْرِيرٍ يَأْتِي لِفَائِدَةٍ فَهُوَ إِطْنَابٌ وَلَيْسَ كُلُّ إِطْنَابٍ تَكْرِيرًا يَأْتِي لِفَائِدَةٍ . وَأَمَّا ٱلَّذِي يَأْتِي مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ لِغَيْرِ فَائِدَةٍ فَهُوَ جُزْءٌ مِنَ ٱلتَّطْوِيلِ وَهُوَ أَخَصُّ مِنْهُ . فَيُقَالُ حِينَئِذٍ : إِنَّ كُلَّ تَكْرِيرٍ يَأْتِي لِغَيْرِ فَائِدَةٍ تَطْوِيلٌ وَلَيْسَ كُلُّ تَطْوِيلٍ تَكْرِيرًا يَأْتِي لِغَيْرِ فَائِدَةٍ . وَكُنْتُ قَدَّمْتُ ٱلْقَوْلَ فِي بَابِ ٱلْإِيجَازِ بِأَنَّ ٱلْإِيجَازَ هُوَ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ عَلَيْهِ . وَإِذَا تَقَرَّرَتْ هٰذِهِ ٱلْحُدُودُ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْمُشَارُ إِلَيْهَا فَإِنَّ مِثَالَ ٱلْإِيجَازِ وَٱلْإِطْنَابِ وَٱلتَّطْوِيلِ مِثَالُ مَقْصِدٍ يُسْلَكُ إِلَيْهِ فِي ثَلَاثَةِ طُرُقٍ : فَٱلْإِيجَازُ هُوَ أَقْرَبُ ٱلطُّرُقِ ٱلثَّلَاثَةِ إِلَيْهِ وَٱلْإِطْنَابُ وَٱلتَّطْوِيلُ هُمَا ٱلطَّرِيقَانِ ٱلْمُتَسَاوِيَانِ فِي ٱلْبُعْدِ إِلَيْهِ . إِلَّا أَنَّ طَرِيقَ ٱلْإِطْنَابِ تَشْتَمِلُ عَلَى مَنْزَهٍ مِنَ ٱلْمَنَازِهِ لَا يُوجَدُ فِي طَرِيقِ ٱلتَّطْوِيلِ وَٱلْإِطْنَابُ يُوجَدُ تَارَةً فِي ٱلْجُمْلَةِ ٱلْوَاحِدَةِ مِنَ ٱلْكَلَامِ وَيُوجَدُ تَارَةً فِي ٱلْجُمَلِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ وَٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْجُمَلِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ أَبْلَغُ لِٱتِّسَاعِ ٱلْمَجَالِ . وَعَلَى هٰذَا فَإِنَّهُ بِجُمْلَتِهِ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : (ٱلْقِسْمُ ٱلْأَوَّلُ) ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْجُمْلَةِ ٱلْوَاحِدَةِ مِنَ ٱلْكَلَامِ وَهُوَ يَرِدُ حَقِيقَةً وَمَجَازًا. أَمَا (ٱلْحَقِيقَةُ) فَمِثْلُ قَوْلِهِمْ : رَأَيْتُهُ بِعَيْنِي وَقَبَضْتُهُ بِيَدِي وَوَطِئْتُهُ بِقَدَمِي وَذُقْتُهُ بِفَمِي . وَكُلُّ هٰذَا يَظُنُّ ٱلظَّانُّ أَنَّهُ زِيَادَةٌ لَا حَاجَةَ

إليها ويقول : إنّ الرؤية لا تكون إلا بالعين والقبض لا يكون إلا باليد والوطء لا يكون إلا بالقدم والذوق لا يكون إلا بالفم . وليس الأمر كذلك بل هذا يقال في كل شيء يعظم مناله ويعز الوصول إليه فيؤكد الأمر فيه على هذا الوجه دلالة على نيله والحصول عليه . وأما ما جاء منه (على سبيل المجاز) فقوله : فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور . ففائدة ذكر الصدور ههنا أنه قد تعورف وعلم أن العمى على الحقيقة مكانه البصر وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها . واستعماله في القلب تشبيه ومثل فلما أريد إثبات ما هو خلاف المتعارف من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ونفيه عن الأبصار احتاج هذا الأمر إلى زيادة تصوير وتعريف ليتقرر أن مكان العمى إنما هو القلوب لا الأبصار . وهذا موضع من علم البيان كثيرة محاسنه وافرة لطائفه والمجاز فيه أحسن من الحقيقة لمكان زيادة التصوير في إثبات وصف الحقيقي للمجازي ونفيه عن الحقيقي . (وأما القسم الثاني) المختص بالجمل فإنه يستعمل على ضروب أربعة : (الأول) منها أن يذكر الشيء فيؤتى فيه بمعان متداخلة . إلا أن كل معنى يختص بخصيصة ليست للآخر . وذلك كقول أبي تمام :

قطعت إليّ الزابيين هباته والتاث مأمور السحاب المسبل
من منة مشهورة وصنيعة بكر وإحسان أغر محجل

فقوله : (منة مشهورة وصنيعة بكر وإحسان أغر محجل)

تَدَاخَلَتْ مَعَانِيهِ إِذِ ٱلْمِنَّةُ وَٱلصَّنِيعَةُ وَٱلْاِحْسَانُ مُتَقَارِبٌ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِتَكْرِيرٍ لِأَنَّهُ لَوِ ٱقْتَصَرَ عَلَى قَوْلِهِ : مِنَّةٍ وَصَنِيعَةٍ وَاِحْسَانٍ لَجَازَ اَنْ يَكُونَ تَكْرِيرًا . وَلٰكِنَّهُ وَصَفَ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثِ بِصِفَةٍ اَخْرَجَتْهَا عَنْ حُكْمِ ٱلتَّكْرِيرِ فَقَالَ : (وَمِنَّةٍ مَشْهُورَةٍ) فَوَصَفَهَا بِالِاشْتِهَارِ لِعِظَمِ شَأْنِهَا . (وَصَنِيعَةٍ بِكْرٍ) فَوَصَفَهَا بِٱلْبَكَارَةِ اَيْ اَنَّهَا لَمْ يُؤْتَ بِمِثْلِهَا مِنْ قَبْلُ . (وَاِحْسَانٍ اَغَرَّ مُحَجَّلٍ) فَوَصَفَهُ بِٱلْغُرَّةِ وَٱلتَّحْجِيلِ اَيْ هُوَ ذُو مَحَاسِنَ مُتَعَدِّدَةٍ . فَلَمَّا وَصَفَ هٰذِهِ ٱلْمَعَانِيَ ٱلْمُتَدَاخِلَةَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ بِاَوْصَافٍ مُتَبَايِنَةٍ صَارَ ذٰلِكَ اِطْنَابًا وَلَمْ يَكُنْ تَكْرِيرًا . وَلَمْ اَجِدْ فِي ضُرُوبِ ٱلْاِطْنَابِ اَحْسَنَ مِنْ هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ وَلَا اَلْطَفَ . وَقَدِ ٱسْتَعْمَلَهُ اَبُو تَمَّامٍ فِي شِعْرِهِ كَثِيرًا بِخِلَافِ غَيْرِهِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ كَقَوْلِهِ :

ذَكِيٌّ سَجَايَاهُ تُضِيفُ ضُيُوفُهُ   وَيُرْجَى مُرَجِّيهِ وَيُسْاَلُ سَائِلُهْ

فَاِنَّ غَرَضَهُ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ اِنَّمَا هُوَ ذِكْرُ ٱلْمَمْدُوحِ بِٱلْكَرَمِ وَكَثْرَةِ ٱلْعَطَاءِ اِلَّا اَنَّهُ وَصَفَهُ بِصِفَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ فَجَعَلَ ضُيُوفَهُ تُضِيفُ وَرَاجِيَهُ يُرَجَّى وَسَائِلَهُ يُسْاَلُ . وَلَيْسَ هٰذَا تَكْرِيرًا لِأَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ ضُيُوفِهِ تُضِيفُ اَنْ تَكُونَ رَاجِيهِ مَرْجُوًّا وَلَا اَنْ يَكُونَ سَائِلُهُ مَسْئُولًا لِأَنَّ ضَيْفَهُ يَسْتَصْحِبُ ضَيْفًا طَمَعًا فِي كَرَمِ مُضِيفِهِ وَسَائِلَهُ يُسْئَلُ اَنْ يُعْطِيَ ٱلسَّائِلَ عَطَاءً كَثِيرًا يَصِيرُ بِهِ مُعْطِيًا . وَرَاجِيهِ يُرَجَّى اَيْ اَنَّهُ اِذَا تَعَلَّقَ بِهِ رَجَاءُ رَاجٍ فَقَدْ اَيْقَنَ بِٱلْفَلَاحِ وَٱلنَّجَاحِ فَهُوَ حَقِيقٌ بِاَنْ يُرَجَّى لِمَكَانِ رَجَائِهِ اِيَّاهُ . وَهٰذَا اَبْلَغُ ٱلْاَوْصَافِ ٱلثَّلَاثَةِ . (اَلضَّرْبُ

ٱلثَّانِي) يُسَمَّى ٱلنَّفْيَ وَٱلْإِثْبَاتَ وَهُوَ اَنْ يُذْكَرَ ٱلشَّيْءُ عَلَى سَبِيلِ ٱلنَّفْيِ ثُمَّ يُذْكَرَ عَلَى سَبِيلِ ٱلْإِثْبَاتِ اَوْ بِٱلْعَكْسِ . وَلَا بُدَّ اَنْ يَكُونَ فِي اَحَدِهِمَا زِيَادَةٌ لَيْسَتْ فِي ٱلْآخَرِ وَإِلَّا كَانَ تَكْرِيرًا . وَٱلْغَرَضُ بِهِ تَأْكِيدُ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ . فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ : لَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ اَنْ يُجَاهِدُوا بِاَمْوَالِهِمْ وَاَنْفُسِهِمْ وَٱللهُ عَلِيمٌ بِٱلْمُتَّقِينَ . اِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ . وَٱعْلَمْ اَنَّ لِهٰذَا ٱلضَّرْبِ مِنَ ٱلْإِطْنَابِ فَائِدَةً كَبِيرَةً وَهُوَ اَوْكَدُ وُجُوهِهِ اَلَا تَرَى اَنَّهُ قَالَ : لَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ اَنْ يُجَاهِدُوا بِاَمْوَالِهِمْ وَاَنْفُسِهِمْ . ثُمَّ قَالَ : اِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ . وَٱلْمَعْنَى فِي ذٰلِكَ سَوَاءٌ اِلَّا اَنَّهُ زَادَ فِي ٱلثَّانِيَةِ قَوْلَهُ : وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ . وَلَوْلَا هٰذِهِ ٱلزِّيَادَةُ لَكَانَ حُكْمُ هٰذَيْنِ ٱلْقَوْلَيْنِ حُكْمَ ٱلتَّكْرِيرِ . وَهٰذَا ٱلْمَوْضِعُ يَنْبَغِي اَنْ يُتَأَمَّلَ وَيُنْعَمَ ٱلنَّظَرُ فِيهِ . (اَلضَّرْبُ ٱلثَّالِثُ) هُوَ اَنْ يُذْكَرَ ٱلْمَعْنَى ٱلْوَاحِدُ تَامًّا لَا يَحْتَاجُ اِلَى زِيَادَةٍ ثُمَّ يُضْرَبَ لَهُ مِثَالٌ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ . كَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

تَرَدَّدَ فِي خُلْقَيْ سُؤْدَدٍ ... سَمَاحًا مُرَجًّى وَبَأْسًا مَهِيبَا
فَكَالسَّيْفِ اِنْ جِئْتَهُ صَارِخًا ... وَكَالْبَحْرِ اِنْ جِئْتَهُ مُسْتَثِيبَا

فَٱلْبَيْتُ ٱلثَّانِي يَدُلُّ عَلَى ٱلْاَوَّلِ لِاَنَّ ٱلْبَحْرَ وَٱلسَّيْفَ لِلْبَأْسِ ٱلْمَهِيبِ اِلَّا اَنَّ فِي ٱلثَّانِي زِيَادَةَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلَّتِي تُفِيدُ تَخْيِيلًا وَتَصْوِيرًا .

(اَلضَّرْبُ ٱلرَّابِعُ) اَنْ يَسْتَوْفِيَ مَعَانِيَ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ مِنْ كِتَابٍ اَوْ خُطْبَةٍ اَوْ قَصِيدَةٍ . وَهٰذَا اَصْعَبُ ٱلضُّرُوبِ ٱلْاَرْبَعَةِ طَرِيقًا اَوْ اَضْيَقُهَا بَابًا لِاَنَّهُ يَتَفَرَّعُ اِلَى اَسَالِيبَ كَثِيرَةٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي وَاَرْبَابُ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ يَتَفَاوَتُونَ فِيهِ وَلَيْسَ ٱلْخَاطِرُ ٱلَّذِي يَقْذِفُ بِٱلدُّرَرِ فِي مِثْلِهِ اِلَّا مَعْدُومَ ٱلْوُجُودِ وَمِثَالُهُ وَمِثَالُ ٱلْاِيجَازِ مِثَالُ مُجْمَلٍ وَمُفَصَّلٍ . وَقَدْ تَقَدَّمَ ٱلْقَوْلُ بِاَنَّ ٱلْاِيجَازَ وَٱلْاِطْنَابَ وَٱلتَّطْوِيلَ بِمَنْزِلَةِ مَقْصَدٍ يُسْلَكُ اِلَيْهِ بِثَلَاثَةِ طُرُقٍ : وَقَدْ اَوْرَدْتُ هٰهُنَا مِثَالًا لِهٰذِهِ ٱلْاَسَالِيبِ ٱلثَّلَاثَةِ وَجَعَلْتُهَا عَلَى هَيْئَةِ ٱلْمَقْصَدِ ٱلَّذِي تُسْلَكُ اِلَيْهِ ٱلطُّرُقُ ٱلثَّلَاثَةُ ... فَاَقُولُ : قَدْ وَرَدَ فِي بَابِ ٱلْاِيجَازِ كِتَابٌ كَتَبَهُ طَاهِرُ بْنُ ٱلْحُسَيْنِ اِلَى ٱلْمَأْمُونِ يُخْبِرُهُ بِهَزِيمَةِ عِيسَى بْنِ مَاهَانَ وَقَتْلِهِ اِيَّاهُ وَهُوَ : كِتَابِي اِلَى اَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَرَأْسُ عِيسَى بْنِ مَاهَانَ بَيْنَ يَدَيَّ وَخَاتَمُهُ فِي يَدِي وَعَسْكَرُهُ مُصَرَّفٌ تَحْتَ اَمْرِي وَٱلسَّلَامُ . وَهٰذَا كِتَابٌ جَامِعٌ لِلْمَعْنَى شَدِيدُ ٱلْاِخْتِصَارِ . وَاِذَا كُتِبَ مَا هُوَ مَعْنَاهُ عَلَى وَجْهِ ٱلْاِطْنَابِ قِيلَ فِيهِ مَا اَذْكُرُهُ وَهُوَ مَا اَنْشَأْتُهُ مِثَالًا فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ لِيُعْلَمَ بِهِ ٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْاِيجَازِ وَٱلْاِطْنَابِ وَهُوَ : اَصْدَرَ كِتَابَهُ هٰذَا وَقَدْ نُصِرَ بِٱلْفِئَةِ ٱلْقَلِيلَةِ عَلَى ٱلْفِئَةِ ٱلْكَثِيرَةِ وَٱنْقَلَبَ بِٱلْيَدِ ٱلْمَلْأَى وَٱلْعَيْنِ ٱلْقَرِيرَةِ وَكَانَ ٱنْتِصَارُهُ بِجَدِّ اَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَا بِجِدِّ نَصْلِهِ وَٱلْجَدُّ اَغْنَى مِنَ ٱلْجَيْشِ . وَاِنْ كَثُرَتْ اَمْدَادُ خَيْلِهِ وَرَجْلِهِ وَجِيءَ بِرَأْسِ عِيسَى بْنِ مَاهَانَ وَهُوَ عَلَى جَسَدِ غَيْرِ جَسَدِهِ وَلَيْسَ لَهُ قَدَمٌ فَيُقَالَ اِنَّهُ يَسْعَى بِقَدَمِهِ . وَلَا يَدٌ فَيُقَالَ اِنَّهُ يَبْطُشُ بِيَدِهِ . وَلَقَدْ طَالَ وَطُولُهُ

مُوْذِنٌ بِقِصَرِ شَأْنِهِ وَحَسَدَتِ الضِّبَاعُ الطَّائِرَ عَلَى مَكَانِهَا مِنْهُ وَهُوَ غَيْرُ مَحْسُودٍ عَلَى مَكَانِهِ. وَاحْضِرَ خَاتَمُهُ وَهُوَ الْخَاتَمُ الَّذِي كَانَ الْأَمْرُ يَجْرِي عَلَى نَقْشِ اسْطُرِهِ. وَكَانَ يَرْجُو انْ يُصَدِّرَ كِتَابَ الْفَتْحِ بِخَتْمِهِ فَحَالَ وُرُودُ الْمَنِيَّةِ دُونَ مَصْدَرِهِ . وَكَذٰلِكَ الْبَغْيُ مَرْتَعُهُ وَبِيلٌ . وَمَصْرَعُهُ جَلِيلٌ وَسَيْفُهُ وَانْ مَضَى فَإِنَّهُ عِنْدَ الضَّرْبِ كَلِيلٌ . وَالْعَسَاكِرُ الَّتِي كَانَتْ عَلَى امِيرِ الْمُؤْمِنِينَ حَرْبًا صَارَتْ لَهُ سِلْمًا وَاعْطَتْهُ الْبَيْعَةَ عِلْمًا بِفَضْلِهِ وَلَيْسَ مَنْ تَابَعَ تَقْلِيدًا كَمَنْ هُوَ تَابِعٌ عِلْمًا. وَهُمُ الْآنَ مُصَرَّفُونَ تَحْتَ الْأَوَامِرِ مُمْتَحَنُونَ بِكَشْفِ السَّرَائِرِ مُطِيعُونَ بِاللِّوَاءِ الَّذِي خَصَّهُ اللّٰهُ بِاسْتِفْتَاحِ الْمَقَالِدِ وَاسْتِيطَاءِ الْمَنَابِرِ وَعَلَى اللّٰهِ اتْمَامُ النِّعَمِ الَّتِي افْتَتَحَهَا وَاجَابَةُ امِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الَى مُقْتَرَحَاتِهِ الَّتِي اقْتَرَحَهَا وَالسَّلَامُ. وَهٰذَا الْكِتَابُ يَشْتَمِلُ عَلَى مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ طَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ مِنَ الْمَعْنَى الَّا انَّهُ فَصَّلَ ذٰلِكَ الْإِجْمَالَ. وَلَوْ كَتَبْتَ عَلَى وَجْهِ التَّطْوِيلِ الَّذِي لَا فَائِدَةَ فِيهِ لَقِيلَ : اصْدَرَ كِتَابَهُ فِي يَوْمِ كَذَا مِنْ شَهْرِ كَذَا وَالْتَقَى عَسْكَرُ امِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَسْكَرُ عَدُوِّ الْبَاغِي. وَتَطَاعَنَ الْفَرِيقَانِ وَتَزَاحَفَ الْجَمْعَانِ. وَحَمِيَ الْقِتَالُ وَاشْتَدَّ النِّزَالُ. وَتَرَادَفَتِ الْكَتَائِبُ وَتَلَاحَقَتِ الْمَقَانِبُ. وَقُتِلَ عِيسَى بْنُ مَاهَانَ وَاحْتُزَّ رَأْسُهُ وَنُزِعَ الْخَاتَمُ مِنْ يَدِهِ وَخُلِعَ وَتُرِكَ جَسَدُهُ طَعَامًا لِلطُّيُورِ وَالسِّبَاعِ وَالذِّئَابِ وَالضِّبَاعِ. وَانْجَلَتِ الْوَقْعَةُ عَنْ غَلَبِ الْخَلِيفَةِ وَنَصْرِهِ وَخِذْلَانِ عَدُوِّهِ وَقَهْرِهِ وَالسَّلَامُ. فَهٰذَا الْكِتَابُ يَشْتَمِلُ عَلَى تَطْوِيلٍ لَا فَائِدَةَ فِيهِ لِأَنَّهُ كَرَّرَ فِيهِ مَعَانِيَ يَتِمُّ الْغَرَضُ بِدُونِهَا. فَانْظُرْ الَى هٰذِهِ الْكُتُبِ الثَّلَاثَةِ وَتَأَمَّلْهَا وَقِسْ عَلَيْهَا مَا يَأْتِي مِنْهَا

الفصل السابع

في البديع

البحث الاول

في حقيقة علم البديع

(عن ابن جابر الاندلسي والحاج خلفا)

(راجع صفحة ٦٦ من علم الادب)

اَلْبدِيعُ مَأْخُوذٌ مِنْ بدَعَ ٱلشَّيْءَ يبدَعُهُ بدْعًا إِذَا انْشَاهُ وَبدَاهُ. ويُقَالُ ٱبْتَدَعَ ٱلشَّيْءَ إِذَا ٱخْتَرَعَهُ مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ . وَٱلْبَدِيعُ يُطْلَقُ بِإِزَاءِ مَعَانٍ يُقَالُ هٰذَا بَدِيعٌ اَيْ مُحْدَثٌ عَجِيبٌ فَيَكُونُ فِي صِيغَةِ ٱلْمَفْعُولِ وَيَكُونُ اَيضًا مِنْ صِيغَةِ ٱلْفَاعِلِ. وَمِنْهُ ٱلْبَدِيعُ فِي اَسْمَاءِ ٱللّٰهِ تَعَالَى لِإِبْدَاعِهِ اَشْيَاءَ وَاحْدَاثِهِ إِيَّاهَا مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ. وَٱلْبَدِيعُ اَيضًا ٱلْجَدِيدُ يُقَالُ : سِقَاءٌ بَدِيعٌ وَحَبْلٌ بَدِيعٌ اَيْ جَدِيدَانِ . وَيُقَالُ : اَبْدَعَ ٱلشَّاعِرُ إِذَا صَنَعَ ٱلْبَدِيعَ فِي شِعْرِهِ . وَامَّا ٱلْبَدِيعُ اصْطِلَاحًا فَهُوَ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ وُجُوهُ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُطَابِقِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ ٱلْمَعْلُومَةِ كَيْفِيَّةُ طُرُقِهِ فِي ٱلدَّلَالَةِ وُضُوحًا وَخَفَاءً . فَقَوْلُهُ : (عِلْمٌ) جِنْسٌ دَخَلَ تَحْتَهُ كُلُّ عِلْمٍ . وَقَوْلُهُ : (يُعْرَفُ بِهِ وُجُوهُ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ) فَصْلٌ اَخْرَجَ بِهِ ٱلْعُلُومَ كُلَّهَا مَا عَدَا عِلْمَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ وَمَا تَرَكَّبَ مِنْهَا لِاَنَّ غَيْرَهُمَا مِنَ ٱلْعُلُومِ لَا يُعْرَفُ بِهِ وُجُوهُ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ . وَقَوْلُهُ :

(ٱلْمُطَابِقِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ) فَصلٌ اَخرَجَ بِهِ ٱلعِلْمَ بِوُجُوهِ تَحسِينِ ٱلـكَلَامِ ٱلَّذِي لَمْ يُطَابِقْ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ فَانَّ هٰذَا لَا يُسَمَّى بَدِيعًا ٠ وَقَوْلُهُ : (ٱلمَعْلُومَةِ كَيْفِيَّةُ طُرُقِهِ اِلَى آخِرِهِ) فَصلٌ اَخرَجَ بِهِ ٱلعِلْمَ بِوُجُوهِ تَحسِينِ ٱلـكَلَامِ ٱلَّذِي يُطَابِقُ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ وَلَمْ يَذْكُرْ كَيفِيَّاتِ طُرُقِ دَلَالَتِهِ فَاِنَّ هٰذَا لَا يُسَمَّى بَدِيعًا . فَتَحَصَّلَ مِنْ هٰذَا ٱلْحَدِّ اَنَّ ٱلعِلْمَ بِوُجُوهِ تَحسِينِ ٱلـكَلَامِ لَا يُسَمَّى بَدِيعًا اِلَّا بِشَرْطَيْنِ : اَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ ٱلـكَلَامُ مُطَابِقًا لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ . وَاَنْ تَكُونَ كَيفِيَّاتُ طُرُقِ دَلَالَتِهِ مَعْلُومَةَ ٱلْوُضُوحِ وَٱلْخَفَاءِ ٠ فَٱلشَّرْطُ ٱلْاَوَلُ هُوَ عِلْمُ ٱلْمَعَانِي٠ وَٱلشَّرْطُ ٱلثَّانِي هُوَ عِلْمُ ٱلْبَيَانِ فَاِنْ عُدِمَ ٱلشَّرْطَانِ اَوْ اَحَدُهُمَا مِنَ ٱلـكَلَامِ لَمْ يَكُنِ ٱلعِلْمُ بِوُجُوهِ تَحسِينِ ذٰلِكَ ٱلـكَلَامِ بَدِيعًا ٠ اَمَّا (مَرْتَبَةُ) هٰذَا ٱلعِلْمِ فَبَعْدَ مَرْتَبَةِ عِلْمَيِ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ حَتَّى اِنَّ بَعضَهُمْ لَمْ يَجْعَلْهُ عِلْمًا عَلَى حِدَةٍ فَتَأَمَّلْ . وَظَهَرَ مِنْ هٰذَا مَوْضُوعُهُ وَغَرَضُهُ وَغَايَتُهُ ٠ وَاَمَّا مَنفَعَتُهُ فَاِظْهَارُ رَوْنَقِ ٱلـكَلَامِ حَتَّى يَلِجَ ٱلْاُذُنَ بِغَيرِ اَذًى وَيَتَعَلَّقَ بِٱلْقَلْبِ مِنْ غَيرِ كَدٍّ وَاِنَّمَا دَوَّنُوا هٰذَا ٱلعِلْمَ لِاَنَّ ٱلْاَصْلَ وَاِنْ كَانَ ٱلْحُسْنَ ٱلذَّاتِيَّ وَكَانَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانُ مِمَّا يَكْفِي فِي تَحصِيلِهِ لٰكِنَّهُمُ اعْتَنَوْا بِشَأْنِ ٱلْحُسْنِ ٱلعَرَضِيِّ اَيضًا لِاَنَّ ٱلْحُسْنَ اِذَا عَرِيَ مِنَ ٱلْمُزَيِّنَاتِ رُبَّمَا يَذْهَلُ بَعْضُ ٱلْقَاصِرِينَ عَنْ تَتَبُّعِ مَحَاسِنِهِ فَيَفُوتُ ٱلتَّمَتُّعُ بِهِ

البحث الثاني

في ان البديع احد علوم الادب الستة

(عن بديعية العميان)

وَذٰلِكَ أَنَّكَ إِذَا نَظَرْتَ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْعَرَبِيِّ إِمَّا أَنْ تَبْحَثَ عَنِ ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي وُضِعَ لَهُ ٱللَّفْظُ وَهُوَ عِلْمُ ٱللُّغَةِ . وَإِمَّا أَنْ تَبْحَثَ عَنْ ذَاتِ ٱللَّفْظِ بِحَسَبِ مَا يَعْتَرِيهِ مِنَ ٱلْحَذْفِ وَٱلْقَلْبِ وَٱلْبَدَلِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ وَهُوَ عِلْمُ ٱلتَّصْرِيفِ . وَإِمَّا أَنْ تَبْحَثَ عَنِ ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي يُفْهَمُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُرَكَّبِ بِحَسَبِ ٱخْتِلَافِ أَوَاخِرِ ٱلْكَلِمِ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْعَرَبِيَّةِ . وَإِمَّا أَنْ تَبْحَثَ عَنْ مُطَابَقَةِ ٱلْكَلَامِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ بِحَسَبِ ٱلْوَضْعِ ٱللُّغَوِيِّ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْمَعَانِي . وَإِمَّا أَنْ تَبْحَثَ عَنْ طُرُقِ دَلَالَةِ ٱلْكَلَامِ إِيضَاحًا وَخَفَاءً بِحَسَبِ ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْبَيَانِ . وَإِمَّا أَنْ تَبْحَثَ عَنْ وُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْبَدِيعِ . فَٱلْعُلُومُ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْأُوَلُ لَا يُسْتَشْهَدُ عَلَيْهَا إِلَّا بِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ نَظْمًا وَنَثْرًا . لِأَنَّ ٱلْمُعْتَبَرَ فِيهَا أَلْفَاظُهُ . وَٱلْعُلُومُ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْآخِرَةُ يُسْتَشْهَدُ عَلَيْهَا بِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْمُوَلَّدِينَ لِأَنَّهَا رَاجِعَةٌ إِلَى ٱلْمَعَانِي وَلَا فَرْقَ فِيهَا فِي ذٰلِكَ بَيْنَ ٱلْعَرَبِ وَٱلْمُوَلَّدِينَ إِذْ هُوَ أَمْرٌ رَاجِعٌ إِلَى ٱلْعَقْلِ وَلِذٰلِكَ قُبِلَ مِنْ أَهْلِ هٰذَا ٱلْفَنِّ ٱلِٱسْتِشْهَادُ بِكَلَامِ ٱلْبُحْتُرِيِّ وَأَبِي تَمَّامٍ وَأَبِي ٱلطَّيِّبِ وَأَبِي ٱلْعَلَاءِ وَهَلُمَّ جَرًّا . (وَهُنَا تَنْبِيهٌ) وَهُوَ أَنَّ أَنْوَاعَ ٱلْبَدِيعِ فِي ٱلْكَلَامِ كَٱلْمِلْحِ فِي ٱلطَّعَامِ وَٱلْخَالِ

فِي ٱلْوَجَنَاتِ وَٱلشِّيَةِ فِي ٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَاتِ . وَإِذَا كَثُرَ ٱلْمِلْحُ فِي ٱلطَّعَامِ وَٱلْخِيلَانُ فِي ٱلْخَدِّ وَٱلشِّيَةُ فِي ٱلْخَيْلِ قَبُحَ ذٰلِكَ وَخَرَجَ عَنْ بَابِ ٱلِٱسْتِحْسَانِ فَكَذٰلِكَ ٱلْبَدِيعُ إِذَا كَثُرَ وَتُكُلِّفَ تَمُجُّهُ ٱلطِّبَاعُ وَإِنَّمَا يُسْتَحْسَنُ إِذَا وَقَعَ فِي ٱلْكَلَامِ سَهْلًا عَلَى ٱلطِّبَاعِ مُسْتَعْذَبًا فِي ٱلْأَسْمَاعِ عَارِيًا مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ ٱلَّذِي يَذْهَبُ بِٱلْحُسْنِ وَاقِعًا مَوْقِعَ ٱلزَّهْرِ مِنَ ٱلْغُصْنِ فَإِذَا فَرَطَ فِي ٱلزِّيَادَةِ خَاطَبَتْهُ ٱلطِّبَاعُ :

لَوِ ٱخْتَصَرْتُمْ مِنَ ٱلْإِحْسَانِ زُرْتُكُمُ ‌ ‌ ‌ وَٱلْعَذْبُ يُهْجَرُ لِلْإِفْرَاطِ فِي ٱلْخَصَرِ

البحث الثالث

في نسبة علم البديع الى علمَي المعاني والبيان

(من شرح بديعيَّة العميان ايضاً)

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ مَا قَرَّرْنَاهُ مِنْ أَنَّ عِلْمَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ دَاخِلَانِ فِي حَدِّ ٱلْبَدِيعِ عَلِمْتَ أَنَّ نِسْبَتَهُ إِلَيْهِمَا نِسْبَةُ ٱلْمُرَكَّبِ إِلَى مُفْرَدَاتِهِ إِذْ لَا يَدْخُلُ فِي ٱلْحَدِّ إِلَّا مَا هُوَ مِنْ مُفْرَدَاتِ ٱلْمَحْدُودِ ٱلَّتِي تَرَكَّبَ مِنْهَا . فَكَمَا أَنَّ ٱلْمُرَكَّبَ لَا يَسْتَقِيمُ وُجُودُهُ إِلَّا بِوُجُودِ مُفْرَدَاتِهِ كَذٰلِكَ ٱلْبَدِيعُ لَا يَسْتَقِيمُ إِلَّا بِوُجُودِ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ فَإِذَا عُدِمَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانُ مِنَ ٱلْكَلَامِ عُدِمَ ٱلْبَدِيعُ مِنْهُ لِأَنَّ ٱلْمُرَكَّبَ يُعْدَمُ بِعَدَمِ مُفْرَدَاتِهِ فَلَوْ وُجِدَ كَلَامٌ خَالٍ مِنْ سَابِقَةِ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ ٱلَّذِي هُوَ عِلْمُ ٱلْمَعَانِي أَوْ مِنَ ٱلْعِلْمِ بِكَيْفِيَّةِ طُرُقِ ٱلدَّلَالَةِ فِي ٱلظُّهُورِ وَٱلْخَفَاءِ ٱلَّذِي هُوَ عِلْمُ ٱلْبَيَانِ لَمْ يَكُنِ ٱلْعِلْمُ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ بَدِيعًا . وَٱعْلَمْ أَنَّ أَعَمَّ هٰذِهِ ٱلْفُنُونِ ٱلثَّلَاثَةِ عِلْمُ

ٱلْمَعَانِي وَاخَصُّهَا عِلْمُ ٱلْبَدِيعِ لِأَنَّهُ مُتَرَكِّبٌ مِنَ ٱلْفَنَّيْنِ ٱلْآخَرَيْنِ وَزِيَادَةٍ وَٱلْقَاعِدَةُ انَّ ٱلْأَخَصَّ يَتَرَكَّبُ مِنَ ٱلْأَعَمِّ وَزِيَادَةٍ . وَعِلْمُ ٱلْبَيَانِ مُتَوَسِّطٌ بَيْنَهُمَا فَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى ٱلْمَعَانِي مُنْدَرِجٌ تَحْتَ ٱلْبَدِيعِ وَكُلُّ بَدِيعٍ مُسْتَلْزِمٌ لِلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ لِأَنَّهُمَا جُزْءَاهُ . وَكُلُّ بَيَانٍ مُسْتَلْزِمٌ لِلْمَعَانِي لِأَنَّهُ جُزْؤُهُ وَلَيْسَتِ ٱلْمَعَانِي مُسْتَلْزِمَةً لِلْبَيَانِ وَلَا لِلْبَدِيعِ إِذْ يُوجَدُ بِدُونِهِمَا وَذٰلِكَ مِنْ كَلَامٍ طَابَقَ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ وَلَمْ تُعْلَمْ كَيْفِيَّةُ طُرُقِ دَلَالَتِهِ وَلَا وُجُوهُ تَحْسِينِهِ . وَلَا ٱلْبَيَانُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْبَدِيعِ إِذْ يُوجَدُ بِدُونِهِ فِي كَلَامٍ طَابَقَ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ وَعُلِمَتْ كَيْفِيَّةُ طُرُقِ دَلَالَتِهِ وَوُجُوهُ تَحْسِينِهِ . وَإِذَا عَلِمْتَ مَا قَرَّرْنَاهُ فَٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانُ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْبَدِيعِ كَٱلْحَيَوَانِ وَٱلنُّطْقِ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْإِنْسَانِ فَلَا يُوجَدُ ٱلْبَدِيعُ بِدُونِهِمَا كَمَا لَا يُوجَدُ ٱلْإِنْسَانُ بِدُونِ ٱلْحَيَاةِ . وَٱلنُّطْقُ وَٱلْمَعَانِي بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْبَيَانِ كَٱلْحَيَوَانِ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلنُّطْقِ فَتُوجَدُ ٱلْمَعَانِي بِلَا بَيَانٍ كَمَا يُوجَدُ ٱلْحَيَوَانُ بِلَا نُطْقٍ . وَلَا يُوجَدُ ٱلْبَيَانُ بِلَا مَعَانٍ كَمَا لَا يُوجَدُ ٱلنُّطْقُ بِدُونِ ٱلْحَيَوَانِ . وَهٰذَا بَسْطُ مَا يُوجَدُ فِي بَيَانِ هٰذِهِ ٱلْفُنُونِ ٱلثَّلَاثَةِ وَٱللّٰهُ اعْلَمُ . وَٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ انَّ ٱلْمَعَانِي رَاجِعَةٌ إِلَى مُطَابَقَةِ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ فِي ٱلدَّلَالَةِ ٱلْوَضْعِيَّةِ وَٱلْبَيَانَ رَاجِعٌ إِلَى مُقْتَضَى ٱلْحَالِ فِي ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ . فَكَمَا انَّ ٱلْبَدِيعَ لَا بُدَّ لَهُ فِي ٱلْمَعَانِي مِنْ مُطَابَقَةِ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ بِٱعْتِبَارِ ٱلدَّلَالَةِ ٱلْوَضْعِيَّةِ . كَذٰلِكَ فِي ٱلْبَيَانِ لَا بُدَّ لَهُ ايْضًا مِنْ مُطَابَقَةِ ٱلْحَالِ بِٱعْتِبَارِ ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ فَلَوْ قَالَ فِي ٱلْمَعَانِي : (زَيْدٌ قَائِمٌ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (إِنَّ زَيْدًا قَائِمٌ) . اَوْ

قَالَ : (إِنَّ زَيْدًا قَائِمٌ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (زَيْدٌ قَائِمٌ) كَانَ خَطَأً . كَذٰلِكَ ٱلْبَيَانُ لَوْ قَالَ : (زَيْدٌ جَوَادٌ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (زَيْدٌ كَثِيرُ ٱلرَّمَادِ) أَوْ قَالَ : (زَيْدٌ كَثِيرُ ٱلرَّمَادِ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (زَيْدٌ جَوَادٌ) كَانَ خَطَأً

البحث الرابع

في اقسام البديع

(عن شرح بديعية العميان)

اِعْلَمْ أَنَّ ٱلْبَدِيعِيِّينَ نَصُّوا عَلَى أَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ أَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِبَابَيْنِ : بَابِ ٱلْبَلَاغَةِ وَبَابِ ٱلْفَصَاحَةِ . فَمَا كَانَ مِنْهُمَا مُتَعَلِّقًا بِٱلْمَعْنَى أَوْ بِٱلْمَعْنَى وَٱللَّفْظِ مَعًا فَهُوَ مِنْ بَابِ ٱلْبَلَاغَةِ . وَمَا كَانَ مِنْهُمَا مُتَعَلِّقًا بِٱللَّفْظِ فَقَطْ فَهُوَ مِنْ بَابِ ٱلْفَصَاحَةِ . فَهِيَ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ : قِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱلْمَعْنَى فَقَط كَٱلتَّوْرِيَةِ وَتَجَاهُلِ ٱلْعَارِفِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمَا مِمَّا لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِٱللَّفْظِ . وَقِسْمٌ بِٱللَّفْظِ فَقَطْ كَٱلتَّجْنِيسِ وَرَدِّ ٱلْعَجُزِ عَلَى ٱلصَّدْرِ وَنَحْوِهِمَا مِمَّا لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِٱلْمَعْنَى . وَقِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى كَٱلْمُطَابَقَةِ وَٱلْمُقَابَلَةِ وَمَا أَشْبَهَهُمَا مِمَّا لِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنَ ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى فِيهِ حَظٌّ . وَأَسْقَطَ صَاحِبُ ٱلْإِيضَاحِ هٰذَا ٱلْقِسْمَ وَجَعَلَ ٱلْبَدِيعَ قِسْمَيْنِ : قِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱللَّفْظِ وَقِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱلْمَعْنَى وَهُوَ ٱلْأَبْيَنُ



البحث الخامس

في تاريخ علم البديع وفي اصحاب البديعيّات

(عن كشف الظنون باختصار وتصرُّف)

اِعلَمْ انَّ قُدَمَاءَ ٱلْمُصَنِّفِينَ كَانُوا يَذْكُرُونَ هٰذَا ٱلْفَنَّ فِي آخِرِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ . اِلَّا انَّ ٱلْمُتَاخِرِينَ زَادُوا عَلَيْهِ شَيْئًا كَثِيرًا وَنَظَمُوا فِيهِ قَصَائِدَ وَأَلَّفُوا كُتُبًا.وَمِنَ ٱلْكُتُبِ ٱلْمُخْتَصَّةِ بِعِلْمِ ٱلْبَدِيعِ كِتَابٌ لِاَبِي ٱلْعَبَّاسِ عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ ٱلْمُعْتَزِّ ٱلْعَبَّاسِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٢٩٦ ﻫ (٩٠٩ م) وَهُوَ اوَّلُ مَنْ صَنَّفَ فِيهِ . وَكَانَ جُمْلَةُ مَا جَمَعَ مِنْهَا سَبْعَةَ عَشَرَ نَوْعًا أَلَّفَهُ سَنَةَ ٢٧٤ ﻫ (٨٨٧ م) .وَعَاصَرَهُ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلْكَاتِبُ فَجَمَعَ مِنْهَا عِشْرِينَ نَوْعًا تَوَارَدَ مَعَهُ عَلَى سَبْعَةٍ مِنْهَا فَتَكَامَلَ لَهُمَا ثَلَاثُونَ نَوْعًا وَيُعْرَفُ كِتَابُهُ بِنَقْدِ ٱلشِّعْرِ . امَّا ٱلسَّكَّاكِيُّ فَلَمْ يَذْكُرْ مِنْ انْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ سِوَى تِسْعَةٍ وَعِشْرِينَ نَوْعًا.ثُمَّ اقْتَدَى ٱلنَّاسُ بِقُدَامَةَ وَٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ فَكَانَ غَايَةُ مَا جَمَعَ مِنْهَا ابُو هِلَالٍ ٱلْعَسْكَرِيُّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٣٩٥ ﻫ (١٠٠٥ م) سَبْعَةً وَثَلَاثِينَ نَوْعًا وَيُعْرَفُ كِتَابُهُ بِكِتَابِ ٱلصِّنَاعَتَيْنِ.ثُمَّ جَمَعَ فِيهَا ٱبْنُ ٱلرَّشِيقِ ٱلْقَيْرَوَانِيُّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٤٥٦ ﻫ (١٠٦٣ م) فِي ٱلْعُمْدَةِ مِثْلَهَا وَاضَافَ اِلَيْهَا خَمْسَةً وَسِتِّينَ بَابًا فِي احْوَالِ ٱلشِّعْرِ وَاغْرَاضِهِ . وَتَلَاهُمَا شَرَفُ ٱلدِّينِ ٱلتِّيفَاشِيُّ فَبَلَغَ بِهَا ٱلسَّبْعِينَ.ثُمَّ تَصَدَّى لَهَا ٱلشَّيْخُ زَكِيُّ ٱلدِّينِ بْنُ ابِي ٱلْاِصْبَعِ فَاوْصَلَهَا اِلَى ٱلتِّسْعِينَ وَاضَافَ اِلَيْهَا مِنْ مُسْتَخْرَجَاتِهِ ثَلَاثِينَ سُلِّمَ لَهُ مِنْهَا عِشْرُونَ . وَاجْرَى تِلْكَ ٱلْاَنْوَاعَ فِي ٱلْآيَاتِ ٱلْقُرْآنِيَّةِ

وسماهُ ٱلتَّحرير وهو اصحّ كتابٍ صُنّفَ فيهِ لِأَنَّهُ لم يتّكِل على ٱلنَّقلِ دونَ ٱلنَّقدِ . وذكر انَّهُ وقفَ على اربعينَ كتابًا في هذا ٱلعِلم وٱلبديعيَّات ٱلمشتهرة هي بديعيَّة ٱلشَّيخ ٱلأديب صفيّ ٱلدِّين ٱلحِلّيّ سمَّاها كافِيَة ٱلبديعيَّة وشرحها شرحًا حسنًا . حذا حذوه ٱلشَّيخ عبد ٱلرَّحمان ٱلحُميديّ . وبديعيَّة ابي جعفر احمد ٱلرُّعينيّ ٱلمتوفّى سنة ٧٧٩هـ(١٣٧٧ م)وهذه ٱلبديعيَّة تُعرف ببديعيَّة ٱلعُميان.وبديعيَّة ٱلشَّيخ شمس ٱلدِّين ابي عبدالله محمَّد بن جابر ٱلأندلسيّ ٱلمتوفّى سنة ٧٨٠ هـ (١٣٧٨ م)وبديعيَّة ٱلشَّيخ عزّ ٱلدِّين ٱلموصليّ ووجيه ٱلدِّين ٱليمنيّ ٱلمتوفّى في حدود سنة ٨٠٠ هـ (١٣٩٨ م) وبديعيَّة ٱلشَّيخ تقيّ ٱلدِّين بن حجَّة ٱلحمويّ ٱلمتوفّى سنة ٨٣٧ هـ(١٤٣٣ م) وسمَّاها ٱلتَّقديم تشتمل على مئةٍ وستَّةٍ وثلاثين نوعًا ثُمَّ شرحها شرحًا مُفيدًا وهو مجموع ادبٍ قلَّ ان يوجد في غيره.وبديعيَّة ٱلشَّيخ جلال ٱلدِّين ٱلسُّيوطيّ ٱلمتوفّى سنة ٩١١ هـ (١٥٠٠ م) وتُسمَّى نظم ٱلبديع ثمَّ شرحها . وبديعيَّة ٱلفاضلة عائشة ٱلباعونيَّة نظمتها على مثال قصيدة ٱلحمويّ مع عدم تسمية ٱلنَّوع . وأتى بعدها ٱلشَّيخ عبد ٱلغنيّ ٱلنَّابلسيّ ونظم قصيدتين ٱلتزم بإحداهما تسمية ٱلنَّوع

بديعيَّة الخوري الفاضل ارسانيوس الفاخوري

مدح بها السيد المسيح ورسلهُ الاطهار

وهي مشتملة على مائة وثمانين نوعًا مع التزام تسمية النوع

براعة المطلع

بَرَاعَةُ ٱلْمَدْحِ فِي نَجْمٍ ضِيَاهُ سَمِي   تَهْدِي بِمَطْلَعِهَا مَنْ عَنْ سَنَاهُ عَمِي

الجناس المطلق والمركب

تَطْلِيقُ هَمِّي بِتَرْكِيبِ ٱلْمَدِيحِ لَهُ   رُحْ بِي إِلَيْهِ بِهِ رُحْبِي كَذَا هَمِّي

الجناس المذيل

سَنَاهُ فِي ٱلْكَوْنِ بَاهٍ بَاهِرٌ عَجَبٌ   وَذَيَّلَ ٱلْكَوْنَ نُورًا مَاحِقَ ٱلظُّلَمِ

الجناس اللاحق

دَرْبُ ٱلْهُدَى مَنْ بِهِ قَدْ سَارَ ٱلْحَقَهُ   كَمْ حَائِرٍ بَائِرٍ بِٱلرُّشْدِ مِنْهُ رُمِي

الجناس التام والمطرف

أَتَمَّ بَدْرَ ٱلسَّمَا مِصْبَاحُهُ وَسَمَا   فَإِنْ هَوِيتُ بِهِ ٱلتَّطْرِيفَ لَمْ أُلَمِ

الجناس المصحف والمحرف

أَرَاحَ تَصْحِيفُهُ ذِهْنَنَا أَزَاحَ لَهُ   تَحْرِيفَ قَوْلٍ غَدَا فِي ٱلْحُكْمِ وَٱلْحِكَمِ

الافتنان

فَاقَ ٱفْتِنَانِي وَمَدْحِي فِي مَحَاسِنِهِ   يَا تَعْسَ عُمْرٍ مَضَى بِٱلْمَدْحِ لَمْ يَقُمِ

المطابقة

فَلَمْ أُطَابِقْ عَلَى بُعْدِ ٱلْأَحِبَّةِ بَلْ   إِنِّي أُطَابِقُ فِي قُرْبِي لِخِدْمِهِمِ

سلامة الاختراع

سَلَامَتِي فِي ٱخْتِرَاعِي نَظْمَ قَافِيَةٍ   أَرْجُو بِهَا ٱلنَّظْمَ فِي أَجْزَاءِ سِلْكِهِمِ

الاستعارة

إني استعرت جياد الدمع في سفري   جريا وراء متاب في سبيلهم

الجناس المعنوي

وعدت باسم ابن رعد ثم باسم أبي   إسحق يا معنوي في الهوى بهم

الاستطراد

مستطردا في هواهم خيل منعطفي   كأدمعي قد جرت شوقا لقربهم

الاستخدام

سقى الإله الحيا خيلا رعته قدا   تخدمتها قصد إدراك لوصلهم

التخيير

بربعهم قد تخيرت العناء ولا   م البقاء في سعة في غير ربعهم

التذييل

أذه تذييل عذل طال منك كفى   يا عاذلي العذل مذموم من الأمم

الايداع

وعند إيداعه سمعي ملامته   مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

الجناس اللفظي وحاس القلب

قد ضل رأيا بطعن ظل يلفظه   فالقلب ما حال من لاح عن الذمم

الاكتفاء

لم يكتف العاذل النمام من حيل   فكم لذاك خبا للعاشقين كمي

التفويف

ارحم ودع واتئد واشفق ولن وارح   فرق ووش وجد وانظم ومق وهم

الملفق

أبى نوالي بالتلفيق منه كما   أبان والي وجد عن ولائهم

الارقط

قَدْ خَابَ مَنْ مِنْهُ يَرْجُو خُطَّةَ وَجَدًى وَشَانَ رَقْطٌ بِهِ قَدْ بَانَ مِنْ اَضَمِ

الالتفات

فَمَا ٱلْتَفَتُّ اِلَى نُكْرٍ بِتَوْشِيَةٍ عَرِّجْ رِكَابَكَ عَنْ تِيهٍ اِلَى ٱللَّقَمِ

الجناس المقلوب المستوي

حَرِّفْ اَخَا كُرَبٍ بِرَّكَ اَخَا فَرِحٍ فَيَسْتَوِي ٱلْقَلْبُ بِٱلْافْرَاحِ لَا ٱلْغُمَمِ

المواربة

يَا لَائِمِي خَلِّ قَوْلًا فِي مُوَارَبَةٍ فَمَا قُلْتُ اَنْتَ يَا ذَا ٱلْعَذْلِ فَٱسْتَقِمِ

الالتزام

اِنِّي لَمُلْتَزِمٌ خُلْدًا بِحُبِّهِمِ حَتَّى ٱلْمَنَايَا بِهَا عَيْشٌ لِصَبِّهِمِ

رد العجز على الصدر

بِهِمْ اَرُدُّ عَلَى صَدْرِ ٱلْمُخَاصِمِ عَجْ زَهُ وَاُخْزِي ٱلْعِدَى يَوْمَ ٱلْوَغَى بِهِمِ

المقابلة

اِنْ رُحْتُ مُنْزَعِجًا خَوْفًا بِمَسْئَلَةٍ فَقَابِلُوا بِٱلشِّفَا وَٱلْاَمْنِ وَٱلنِّعَمِ

المراجعة

قَالَ ٱسْلُهُمْ قُلْتُ حَاشَا لِي فَرَاجَعَنِي فَقَالَ دَعْهُمْ فَقُلْتُ ٱلسَّمْعُ فِي صَمَمِ

الهزل الذي يراد به الجد

بِٱلْجِدِّ هَازَلَنِي وَٱلدَّمْعُ مُنْسَجِمٌ فَقَالَ اَرْوِ ٱلظَّمَا مِنْ مَنْهَلٍ شَبِمِ

القول بالموجب

قَوْلِي لَهُ مُوجَبٌ اِذْ قَالَ اَنْتَ لَهُمْ سَالٍ فَقُلْتُ لِحِسِّي مِنْ سَعِيرِهِمِ

المتراكم

قَدْ قَدَّ قَدَّ فُؤَادِي عَضْبُ غِيلَتِهِ مِنْهَا تَرَاكَمَتِ ٱلْاَحْزَانُ مِنْ اَلَمِي

الاستدراك

فَقَالَ مَكْرًا بِسُقْمٍ أَنْتَ بَلْ شُغُلٍ   فَقُلْتُ مُسْتَدْرِكًا لٰكِنْ بِعِشْقِهِمِ

المناقضة

إِنِّي أُنَاقِضُ عَهْدِي لِلْحَبِيبِ إِذَا   مَا شِبْتُ أَوْ عُدْتُ طِفْلًا بَعْدَ مَا هَرِمِ

حسن الاتباع

حُسْنُ ٱتِّبَاعِ لَهُمْ قَلْبِي ٱصْطَفَاهُ هَوًى   فَٱلْقَلْبُ عِنْدِي لِغَيْرِ ٱلْعِشْقِ لَمْ يَقُمِ

تشابه الاطراف

تَشْبِيهُ أَطْرَافِ أَقْوَالِي سَمَا بِهِمِ   بِهِمْ مَدِيحِي غَدَا فِي أَبْلَغِ ٱلْحِكَمِ

السهولة

سُهُولَةُ ٱلنَّظْمِ تَحْلُو فِي مَدِيحِهِمِ   لَا فِي مَدِيحِ ٱلظِّبَا وَٱلْغِيدِ لِلْحَشَمِ

الجناس الخالي او المعجم

نَبَذْتُ تَفْنِينَ تَشْبِيبٍ بِذِي شَغَفٍ   يَفْتَنُّ فِي غُنْجِ جَفْنٍ جُنَّ بِٱلْعَجَمِ

التهكم

بِهِمْ رَأَى عِزَّهُ تِيهًا فَذَلَّ بِهِمْ   تَهَكُّمًا قُلْتُ يَا بُشْرَاكَ بِٱلنَّدَمِ

الهجاء في معرض المدح

بِمَعْرِضِ ٱلْمَدْحِ قَدْ يَهْجُوكَ قَائِلُهُ   مَا مِثْلُكُمْ بِٱحْتِمَالِ ٱلضُّرِّ وَٱلرَّغَمِ

الابهام

كَمْ زَادَ إِبْهَامَ نُصْحِي ذَا ٱلْعَذُولِ وَكَمْ   يَا لَيْتَ إِبْهَامَهُ فِي حَيِّزِ ٱلْعَدَمِ

النزاهة

نَزَّهْتُ سَمْعِي بِحَقٍّ عَنْ نَصَائِحِهِ   إِذْ لَمْ أَرَ ٱلْحَقَّ فِي قَوْلٍ وَلَا كَلِمِ

المغايرة

أُغَايِرُ ٱلنَّاسَ فِي حُبِّي لِذِي عَذَلٍ   مُسْتَنْطِقًا فَمُهُ حُبًّا لِذِكْرِهِمِ

الجناس الموصل

تَفْسِي لَهُمْ عَشِقَتْ حُبًّا بِهِمْ شُغِفَتْ فَحُبُّهُمْ صِلَةٌ تُنْفَى بِهَا غُمَمِي

الاستثناء

اَهْوَى ٱلْخُطُوبَ بِلَا ٱسْتِثْنَا لِحُبِّهِمِ اِلَّا مَلَامَ عَذُولِي لِي لِأَجْلِهِمِ

الجناس المهمل

كَلَا ٱلْإِلٰهُ ٱمْرَءًا رَامَ ٱلْوِدَادَ لَهُ وَٱهْمَلَ ٱلْوُدَّ لِلْاَسْوَاءِ وَٱلْحُرَمِ

الجناس الاخيف

اَحَلَّهُ خَيْفَ سَعْدٍ فِي لِوَا نُجُبٍ كَسَا شَبِيبَةَ عُمْرٍ جُبَّةَ ٱلسَّلَمِ

الالغاز

مِنْ مَرْمَرِ ٱلرُّشْدِ خُذْ شَطْرًا بِشَطْرِ م عَيْنِ ٱللّٰهِ مُنْحِمًا لِلُّغْزِ تَفْتَهِمِ

الجناس المقطع

وَاِنْ اَرَدتَّ دَوَاءً زُرْ ذُرَاهُ وَرُدْ وَاِنْ اَرَدتَّ رِوًى دَعْ وِرْدَ ذِي زَامِ

المحاجاة

وَٱسْتَشْفِهِ فِي ٱلتَّحَاجِي مُمْعِنًا نَظَرًا بِقَوْلِهِ فَٱلْاِسَا مِلْكِي وِمِنْهُ رُمِ

الكلام الجامع

جَمْعُ ٱلْكَلَامِ اِذَا لَمْ يَشْتَمِلْ حِكَمًا لَمْ يُلْفِ مَنْ ذَاقَ فِيهِ لَذَّةَ ٱلدَّسَمِ

الاقتباس

مِنْ مَجْمَعِ ٱلشَّوْكِ هَلْ مَنْ يَجْتَنِي عِنَبًا لَمْ تُقْتَبَسْ لَذَّةٌ مِنْ عَاطِلِ ٱلْكَلِمِ

التوجيه

وَجِّهْ اِلَى ٱلرَّبِّ نَعْتًا اَنْتَ تَابِعُهُ يَرْفَعْكَ مِنْ خَفْضِ رُتْبَاتٍ اِلَى ٱلْعِظَمِ

عكس الاشارة

بِحَقِّ بِرٍّ فَقُمْ لَا فِي اِشَارَتِهِ فَاِنَّ عَكْسَ ٱسْمِهِ مَعْنَاهُ كَٱلْعَلَمِ

المطمع

قد طابَ للنَّفسِ في الأسواءِ مطمَعُها بل طالَ فيها ولَمْ تعدِلْ إلى النَّدمِ

الرجوع

مالي رجوعٌ إلى حالي لأُصلِحَها بلى إذا معْ هُدى ربّي سعى قدمي

عتاب النفس

يا نفسِ عِي وارعَوِي واصغي إلى عتبي حتّامَ أنتِ بجهلٍ غيرِ منصرِمِ

التسليم

هَبي لزَعمِكِ قد سلّمتُ مرتضِيًا فما يكونُ جوابي يومَ مُحتكمي

القسم

فلا أُنِلتُ المنى إن مِتُّ متّبِعًا هواكِ في غيرِ ما أهوى وذا قسمي

حسن التخلص

فرغبتي والهوى حسنُ التخلُّصِ من إثمي بمدحِ وسيطِ النّاسِ كلِّهمِ

الاطراد

يسوعُ بكرُ الإلهِ ابنُ البتولِ سلا لهُ الملوكِ وربٌّ في اطّرادِهمِ

حصر الجزئي والحاقه بالكلي

فردٌ بهِ تُحصرُ الأنصارُ أجمعُهُمْ فالجزءُ يُلحقُ بالكلّيِّ للعِظَمِ

العكس

نفسُ الجمالِ جمالُ النفسِ فيهِ بدا يا عكسَ مَن عن سنا هذا الجمالِ عَمِي

المماثلة

فالآبُ ماثلهُ والروحُ وافقهُ والكُنهُ شاركهُ بالعظمِ والقِدَمِ

التفسير

كُنهٌ ثلاثيُّ أقنومٍ يفسِّرهُ آبٌ وابنٌ وروحٌ في وحيدِهمِ

المذهب الكلامي

فَمَذْهَبِي فِي كَلَامِي مِنْهُ مُنْقِذُنَا لَوْ لَمْ يَصِرْ بَشَرًا لَمْ نَنْجُ مِنْ ضَرَمِ

المناسبة

لَاهُوتُهُ كَامِلٌ وَٱلطُّهْرُ نَاسَبَهُ نَاسُوتُهُ فَاضِلٌ فِي ٱلْخَلْقِ وَٱلشِّيَمِ

ارسال المثل

فَٱلْحُسْنُ فِي ٱلْخَلْقِ أَرْبَى فِيهِ عَنْ مَثَلٍ وَٱلْفَضْلُ أَشْهَرُ مِنْ نَارٍ عَلَى عَلَمِ

الترديد

فَهْوَ ٱلْبَدِيعُ لَنَا هٰذَا ٱلْبَدِيعُ سَنًى بِهِ ٱلْبَدِيعُ حَلَا تَرْدِيدُهُ بِفَمِي

التكرار

تَكْرَارُ مَدْحِي بِمَا بِٱلْوَاهِبِ ٱلنِّعَمِ م ٱبْنِ ٱلْوَاهِبِ ٱلنِّعَمِ ٱبْنِ ٱلْوَاهِبِ ٱلنِّعَمِ

الترتيب

لَهُ ٱلْمَلَائِكُ وَٱلْإِنْسَانُ أَجْمَعُهُ وَمَا سِوَاهُمْ فِي ٱلتَّرْتِيبِ كَٱلْخَدَمِ

التشريع

لَمَّا ٱنْحَنَى وَبِتَشْرِيعِ ٱلْفِدَاءِ بَدَا نِلْنَا ٱلْمُنَى فَنَجَوْنَا مِنْ رَدَى ٱلْعَرِمِ

التكميل

أَوْفَى أَبَاهُ تَمَامًا دَيْنَ آدَمِهِ حَمْدًا لَهُ فَاقَ تَكْمِيلًا بِذَا ٱلْكَرَمِ

الجناس المرفوّ

هَيَّا مَدَارَ نَعِيمٍ قَدْ رَفَاهُ بِهِ وَطَمَّ دَارَ جَحِيمٍ حَالِكِ ٱلظُّلَمِ

الجناس المشتق

هَدَى إِلَى ٱلْمَنْهَجِ ٱلْهَادِي بُغَاةَ هُدًى وَمِنْ هُدَاهُ ٱلْخَلَاصُ ٱشْتُقَّ لِلْأُمَمِ

النقل

تَمَّتْ نُقُولُ نُبُوَّاتٍ بِهِ وَمَضَتْ بِهِ ٱلْخَلِيلُ نَجَا مِنْ وَابِلِ ٱلضَّرَمِ

تشبيه شيئين بشيئين

شَيْئانِ قَدْ أَشْبَهَا شَيْئَيْنِ فِيهِ لَنَا   تَعَطُّفٌ وَنَدًى كَالْبَحْرِ وَالدِّيَمِ

التشطير

تَشْطِيرُ نِعْمَتِهِ ما بَيْنَ أُمَّتِهِ   كَالنَّجْمِ فِي عِظَمٍ قَدْ كَانَ فِي الْقِسَمِ

الطيّ والنشر

فَالطَّيُّ وَالنَّشْرُ وَالتَّبْدِيلُ مَعْ كَرَمٍ   لِلْعُسْرِ وَالْيُسْرِ وَالأَحْوَالِ وَالشِّيَمِ

الايغال

فِي السَّعْيِ أَوْغَلَ فِي تَمْهِيدِهِ سُبُلًا   إِلَى الْخَلَاصِ بِحُبٍّ غَيْرِ مُنْكَتِمِ

الاشارة

وَمِنْ إِشَارَاتِهِ بِالْوَعْظِ كَمْ نَجَمَتْ   لَهُمْ فُنُونٌ بِهَا زَادُوا بِبِرِّهِمِ

الايجاز

وَقَوْلُهُ مُوجَزٌ فِي صُنْعِ مُعْجِزَةٍ   إِنْ قَالَ أَشْفَى وَأَحْيَا بَالِيَ الرِّمَمِ

التوشيع

تَوْشِيعُ مَذْهَبِهِ فِي فَضْلِ سُنَّتِهِ   مُثَبِّتُ الأَمْجَدَيْنِ الْعَهْدِ وَالذِّمَمِ

التورية

وَكَمْ عُقُودٍ لَهُمْ حَلَّتْ فَوَائِدُهُ   بِحُسْنِ تَوْرِيَةٍ حَلَّتْ لِسَانَ فَمِي

النوادر

كَمْ مِنْ نَوَادِرِ بَذْلٍ مَارَسَتْ يَدُهُ   حَتَّى جَرَى دَمُهَا لِلْبَذْلِ كَالدِّيَمِ

البسط

تَعَوَّدَ الْجُودَ مَعْ بَسْطِ لِرَاحَتِهِ   لِلْعُودِ جَادَ بِهَا مَدًّا بِلَا سَقَمِ

الجمع مع التقسيم

جَمْعٌ تَقَسَّمَ يَوْمَ الصَّلْبِ فِي فِرَقٍ   مِنْ قَاتِلٍ وَمُهِينٍ ثُمَّ مُنْتَقِمِ

الجمع

فَٱلجَلْدُ وَٱلهَزْؤُ وَٱلتَّشْتِيمُ مَعْ عَذَلٍ ‎ ‎ اِهَانَـةٌ نَالَهَا مِنْ بَغْيِ جَمْعِهِمِ

جناس البعض

بَعْضٌ حَمَاقَتُهُمْ زَادَتْ حَمَاسَتَهُمْ ‎ ‎ جَوْرًا وَبَعْضٌ كَكَلْبٍ كَالِبٍ نَهِمِ

المتوَّش

وَشَوَّشُوا ٱلفَزَعَ مِنْ خَدْشٍ بِهَامَتِهِ ‎ ‎ وَٱلقَدْغُ فِي ٱلجِسْمِ وَٱلكَفَّيْنِ وَٱلقَدَمِ

التشبيه

وَٱلجِسْمُ اِنْ جِئْتُ تَشْبِيهًا لِحَالَتِهِ ‎ ‎ قُلْ كَٱلخِلَالِ نُحُولًا مِنْ نَكَالِهِمِ

تجاهل العارف

تَجَاهَلَ ٱلنَّاسُ فِي عِرْفَانِ صُورَتِهِ ‎ ‎ قَالُوا اَسُقْمٌ بِهِ اَمْ بِٱلنَّكَالِ رُمِي

المساواة

بِٱلمَوْتِ سَاوَى ٱلمَلَا اَمَّا قِيَامَتُهُ ‎ ‎ فَاَوْضَحَتْ قُدْرَةَ ٱللَّاهُوتِ كَٱلعَلَمِ

التوهيم

تَوْهِيمُ قَلْبٍ جَلَتْ بُشْرَى قِيَامَتِهِ ‎ ‎ جَلَتْ بِنَصْرٍ وَعَزَّتْ سَاعَةَ ٱلغُمَمِ

الجناس الكامل

وَبَعْدَمَا قَدْ قَضَى فِعْلَ ٱلجَمِيلِ اِلَى ‎ ‎ م ٱلعُلَا ارْتَقَى ذَا ٱلجَمِيلُ ٱلكَامِلُ ٱلشِّيَمِ

الانسجام

وَمِنْ لَدُنْهُ ٱلمُعَزِّي حَلَّ مُنْسَجِمًا ‎ ‎ عَلَى تَلَامِيذِهِ كَٱلْسُنٍ مِنْ ضَرَمِ

التسهيم

تَسَهَّمُوا ٱلاَرْضَ بِٱلبُشْرَى فَقَالَ لَهُمْ ‎ ‎ وَتَلْمِذُوا عَمِّدُوا كُلًّا مِنَ ٱلاُمَمِ

التمكين

جَالُوا بِتَمْكِينِ عَزْمٍ فِي بِشَارَتِهِمْ ‎ ‎ وَلَمْ يُبَالُوا بِتَعْذِيبٍ وَسَفْكِ دَمِ

الجناس المركب المجموع

جَادُوا بِأَنْفُسِهِمْ حُبًّا كَمَالِهِمِ   وَجَمْعُ تَرْكِيبِ فَضْلٍ فِي كَمَالِهِمِ

الإرداف

وَارْدَفُوا الْعَزْمَ بَأْسًا اسْكَنُوهُ مَحَلَّ م الْحُبِّ فِي السَّيْرِ لِلْبُشْرَى بِرَبِّهِمِ

الاتساع

بِيضُ الْمَفَارِقِ بَلْ طُهْرُ النُّفُوسِ هُمُ   وَبِاتِّسَاعِ الْحِجَى فَازُوا بِقَصْدِهِمِ

الاستتباع

يَسْتَتْبِعُونَ بِمَحْضِ النُّصْحِ فِعْلَ هُدًى   وَيَحْفَظُونَ تُقَاهُمْ حِفْظَ دِينِهِمِ

المردَّد

وَمِنْ مُرَدَّدِ إِنْذَارٍ حَكَوْهُ فَذُو م الْهَوَى هَوَى كَذَاكَ الْعَابِدُ الصَّنَمِ

الترصيع

هُمْ رَصَّعُوا أَدَبًا مِنْ دُرِّ لَفْظِهِمِ   كَمْ أَبْدَعُوا خُطَبًا فِي سِرِّ وَعْظِهِمِ

ايتلاف اللفظ مع الوزن

تَآلَفَ اللَّفْظُ مَعْ وَزْنٍ بِمَدْحِهِمِ   لِرَبِّهِمْ ضِمْنَ نَظْمٍ فِيهِ مُنْسَجِمِ

ايتلاف اللفظ مع المعنى

اللَّفْظُ فِي الْمَدْحِ مَعْ مَعْنَاهُ مُؤْتَلِفٌ   فَلِلْمَعَانِي تَرَى الْأَلْفَاظَ كَالْخَدَمِ

الفرائد

وَكَمْ مِنْ فَرَائِدِ دُرٍّ فِيهِ قَدْ نَظَمُوا   عِقْدَ النَّشِيدِ فَاعْجَبْ بِانْتِظَامِهِمِ

ايتلاف المعنى مع الوزن

تُؤَلِّفُ الْوَزْنَ وَالْمَعْنَى نَشَائِدُهُمْ   صَحِيحَةً عَذْبَةً فِي اللَّحْنِ وَالنَّغَمِ

التسميط

تَسْمِيطُهُمْ دُرَرًا أَضْحَى بِهِ غُرَرًا   أَمْسَى لَنَا قَمَرًا فِي لَيْلَةِ الْغُمَمِ

ايتلاف اللفظ مع اللفظ

وَٱللَّفظُ لِلحَمدِ فِي ٱلأَفوَاهِ مُؤتَلِفٌ مَعْ لَفظِ مَدحٍ بَدَا مِنْ أَلسُنِ ٱلدِّيَمِ

الابداع

إِبدَاعُ نَظمِهِمِ دَمعِي جَلَا وَحَلَا إِيدَاعُ نَثرِهِمِ سَمعِي كَمُنتَظِمِ

التفريع

يَا نَسمَةٌ حَمَلَتْ مِسكًا لَطَائِفُهَا يَومًا بِأَطيَبَ مِنْ تَفرِيعِ فَضلِهِمِ

المدح في معرض الذم

فِي مَعرِضِ ٱلذَّمِّ مَدحًا قَدْ خَصَصتُ بِهِمْ لَا عَيبَ فِيهِمْ سِوَى ٱلإِيفَاءِ بِٱلذِّمَمِ

الجناس المرفل

وَبِٱلأَيَادِي أَيَادِيهِمْ سَمَتْ كَرَمًا فَرَاحَ يَرفُلُ بِٱلإِثرَاءِ ذُو ٱلعَدَمِ

الكناية

تَزَاحُمٌ لِعُفَاةٍ يُسرِعُونَ إِلَى فَرَاتِهِمْ ذَا يُكَنِّي عَنْ سَخَائِهِمِ

التوزيع

عَلَى ٱلعُفَاةِ جَمِيعًا وَزَّعُوا نِعَمًا فَعَادَ أَعوَزُهُمْ بِٱلعِزِّ وَٱلعِظَمِ

الاشتراك

سَادُوا بِصَدرٍ غَدَا بِٱلعِزِّ مُشتَرَكًا صَدرِ ٱلجُلُوسِ عَلَى كُرسِي قَضَائِهِمِ

الموازنة

مُوَازِنٍ وَاتِنٍ مُستَرِكِنٍ حَسَنٍ مُستَعلِنٍ قَاتِنٍ مُستَمكِنٍ فَخِمِ

المؤتلف والمختلف

فَجَمعُ مُؤتَلِفٍ فِيهِمْ وَمُختَلِفٍ حُكمًا وَفَضلًا فَسِمعَانٌ بِذَاكَ سَمِي

الايضاح

مَا بَينَهُمْ صَخرَةٌ لِلحَقِّ مُوضِحَةٌ بَنَى ٱلمَسِيحُ عَلَيهَا بَيتَ جَمعِهِمِ

الطاعة والعصيان

فَمَنْ يُطِعْ حُكْمَهُ يُرْحَمْ لَدَى شَجَبٍ وَمَنْ عَصَى أَمْرَهُ يُحْرَمْ مِنَ ٱلنِّعَمِ

حسن النسق

نَثْرِي يُنَاسِقُهُمْ شِعْرِي يُطَابِقُهُمْ نَغْرِي يُوَافِقُهُمْ فِي مَدْحِ رَبِّهِمِ

التجزئة

أَرْبَيْتُ فِي هَمِّي جَزَّأْتُ فِي كَابِي رَوَّيْتُ فِي قَلْبِي أَرْوَيْتُ كُلَّ ظَمِي

المتوازن

تَوَازَنَتْ حِكَمِي حَمْدًا لِمُنْعِمِي مُلَازِمًا مَدْحَهُ نَظْمًا بِمُنْسَجِمِ

التسجيع

سَجْعِي وَمُنْتَظَمِي مَدْحًا حَلَا بِفَمِي حَاكَيْتُ فِي رَغْمِي ٱلشُّحْرُورَ بِٱلنَّغَمِ

الاتفاق

يَسُوعُ وَٱسْمُهُ فِي تَخْلِيصِنَا ٱتَّفَقَا فَهْوَ ٱلْمُخَلِّصُ لِلْإِنْسَانِ مِنْ نِقَمِ

الاعتراض

فَلَا ٱعْتِرَاضَ عَلَيْنَا فِي عِبَادَتِهِ وَهْوَ ٱلْإِلٰهُ وَمَنْ يَعْبُدْهُ يَعْتَصِمِ

العنوان

بِهِ ٱلسَّفِينَةُ نَجَّتْ نُوحَ وَهْيَ غَدَتْ عُنْوَانَ بِيعَتِهِ تُوقِي مِنَ ٱلْعَرِمِ

الترشيح

فَحَلَّ مَرْكَبَ تِيهٍ حِينَ رَكَّبَهَا فَكَمْ تَرَشَّحَ مِنْهَا ٱلرُّشْدُ فِي ٱلظُّلَمِ

التلميح

تَلْمِيحُ تَعْلِيمِهَا ذَاكَ ٱلسِّرَاجُ بِهِ يُهْدَى وَفِي ٱلسُّرْجِ إِرْشَادٌ إِلَى ٱللَّقَمِ

التتميم

تَتْمِيمُ سِرِّ ٱلْفِدَا وَٱلْحُبِّ سَلَّمَهَا يَا سَعْدَهَا وَٱضْمَحَلَّ ٱلْبُؤْسُ بِٱلنِّعَمِ

التصريع

تَصْرِيعُ أَبْوَابِهَا يُوقِي مِنَ الْخَصِمِ فَالْمَرْءُ دَاخِلَهَا كَالْمَرْءِ فِي الْأُطُمِ

التجريد

يَنَالُ صَوْبَ الْحَيَا مِنْ بَسْطِ رَاحَتِهَا مَنْ قَدْ تَجَرَّدَ عَنْ كُفْرٍ بِرَبِّهِمِ

المعمّى

حَوَى أَرِيجَ بِهَارٍ قَلْبُهُ وَسَمَا مِنْ شَمِّهِ يَهْتَدِي مَنْ عَنْ غِنَاهُ عَمِي

التعريض

تَطْوِيلُ تَعْرِيضِ هَاجِيهَا يُعَظِّمُهَا وَالْبُغْضُ لِلْحَقِّ مَكْرُوهٌ كَذِي إِضَمِ

التنكيت

دَعِ الْمُنَكِّتَ إِذْ فِي ذِي الْكَنِيسَةِ وَحْدَهَا نَجَاةٌ مِنَ الطُّوفَانِ وَالضَّرَمِ

التوشيح

فَالرَّبُّ وَشَّحَهَا مِنْ عِصْمَةٍ حُلَلًا أَوْقَتْ خُطَى حُكْمِهَا مِنْ زَلَّةِ الْقَدَمِ

تنسيق الصفات

فَاسْجُدْ لَهُ عِنْدَ تَنْسِيقِ الصِّفَاتِ وَقُلْ رَبٌّ إِلٰهٌ قَدِيرٌ كَامِلُ الشِّيَمِ

التعطف

فَاخْتَارَ ذَاكَ الصَّفَا رَأْسًا وَقَالَ لِذَا الْمُخْتَارِ كُنْ رَاعِيًا وَاعْطِفْ عَلَى الْغَنَمِ

العقد

مَهْمَا تَحُلَّ بِأَرْضٍ يَنْحَلِلْ بِسَمَا وَمَا رَبَطْتَ يَعْقِدِ الرَّبْطِ مِنْكَ زَمِي

التعليل

لَوْ لَمْ يَجِئْنَا بِتَعْلِيلٍ تَجَسُّدُهُ مِنْ مَرْيَمٍ مَا شُفِينَا مِنْ ضَنَى السَّقَمِ

المجاز

هِيَ الْمَجَازُ لِإِدْرَاكِ الشِّفَاءِ هِيَ م الْعَرْشُ الرَّفِيعُ وَبُرْجُ الْبَارِئِ النَّسَمِ

المبالغة

بِهَا خَلَاصُ جَمِيعِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ أَرَدتَّ بَالِغْ وَقُلْ بَلْ سَائِرِ ٱلْأُمَمِ

التوليد

لِكُلِّ هَوْلٍ طَرَا تُرْجَى شَفَاعَتُهَا نَالَ ٱلعِبَادُ بِهَا تَوْلِيدَ أَمْنِهِمِ

الاغراق

لَوْ تَابَ إِبْلِيسُ يَبْغِي مَاءَ نِعْمَتِهَا لَأَغْرَقَتْهُ بِتَيَّارٍ مِنَ ٱلنِّعَمِ

الغلوّ

فَقَطْرَةٌ مِنْ نَدَاهَا لَا غُلُوَّ بِهَا تَكَادُ تُحْيِي رَمِيمًا صَارَ كَٱلْعَدَمِ

التضمين

وَخَلْقُهَا فَاقَ فِي حُسْنٍ تَضَمَّنَهُ وَإِنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ ٱللهِ كُلِّهِمِ

المدح المفرّغ

يَسْمُو ٱلْمَدِيحُ بِتَفْرِيغٍ لِطَلْعَتِهَا سُمُوَّ خُلْقٍ حَوَتْ بِٱلْحِلْمِ مُلْتَثِمِ

التعديد

تَعْدِيدُ أَفْضَالِهَا يُبْدِي لِسَامِعِهِ طُهْرًا وَبِرًّا وَحِلْمًا مَعْ عُلَى ٱلشِّيَمِ

التهذيب والتأديب

تَهْذِيبُ تَأْدِيبِهَا قَدْ زَادَنَا عَجَبًا بِصَبْرِهَا حِينَ تَعْذِيبِ ٱبْنِهَا ٱلْعَلَمِ

التفصيل

فِي شَرْحِ آلَامِهِ ٱلتَّفْصِيلُ مُتَّسِعٌ يَكِلُّ عَنْ شَرْحِهَا ذُو ٱلْفَهْمِ وَٱلْحِكَمِ

ايتلاف المعنى مع المعنى

وَصْلٌ وَفَصْلٌ لَهُ لِلْمَعْنَيَيْنِ غَدَا تَآلُفٌ نَحْوَ صِدِّيقٍ وَمُجْتَرِمِ

التوكيد

لَهُ ٱلْقَضَاءُ بِتَوْكِيدٍ يَدِينُ بِهِ أَمَا تَعِي أَنَّهُ ٱلدَّيَّانُ لِلْأُمَمِ

صناعة التنويع

تَنْوِيعُ سَطْوَتِهِ يَوْماً يُحَاكِمُهُمْ كَٱللَّيْثِ كَٱلسَّيْفِ كَٱلْجَبَّارِ كَٱلضَّرِمِ

المشاكلة

يَجْزِي إِسَاءَةَ شَانِيهِ بِسَيِّئَتِهِ يُشَاكِلُ ٱلْخَيْرَ خَيْرًا حُفَّ بِٱلْكَرَمِ

مجنح القلب

مُدْنٍ لِصَفْحٍ جَنَاحَ ٱلْقَلْبِ عَاطِفُهُ إِذَا رَأَى تَوْبَةً وَٱلدَّمْعُ فِي نَدَمِ

الجمع مع التفريق

فِي وَجْهِهِ ٱلنُّورُ لِلْأَصْحَابِ يَشْمَلُهُمْ وَلِلْعِدَا ٱلنَّارُ فِي تَفْرِيقِ جَمْعِهِمِ

مراعاة النظير

وَجْهُ ٱلسَّمَاءِ بِهِ كَٱلْبَرْقِ مُلْتَمِعٌ رَاعَى ٱلنَّظِيرَ بِوَجْهٍ لِلظِّبَاءِ سَمِي

التفريق

قَالُوا هُوَ ٱلْمَلِكُ وَٱلتَّفْرِيقُ يَظْهَرُ لِي فَذَاكَ فَانٍ وَهٰذَا غَيْرُ مُنْعَدِمِ

السلب والايجاب

لَا يُوجِبُ ٱلسَّلْبَ فِي إِعْزَازِ عُصْبَتِهِ وَيُوجِبُ ٱلذُّلَّ لِلْأَشْرَارِ فِي ٱلنِّقَمِ

المتقارب

أَرْجُو ٱلتَّقَارُبَ مِنْ أَعْدَادِ زُمْرَتِهِ لَا مِنْ عَدِيدِ ٱلْعِدَا فِي ٱلْحَشْرِ وَٱلزَّحَمِ

حسن البيان

حُسْنُ ٱلْبَيَانِ بِنُورٍ مِنْهُ أَرْشَدَنِي إِلَى ٱلتَّقَرُّبِ مِنْ أُولٰئِكَ ٱلْخَدَمِ

المراوجة

إِذَا تَرَاوَجَ هَمِّي وَٱلْتَجَأْتُ لَهُ بِٱلْمَدْحِ فُزْتُ وَوَقَانِي مِنَ ٱلْغُمَمِ

الاستعانة

مَا سَامَنِي ٱلدَّهْرُ ضَيْماً وَٱسْتَعَنْتُ بِهِ إِلَّا وَنِلْتُ جِوَارًا مِنْهُ لَمْ يُضَمِ

التقسيم

فَالْكَوْنُ قَدْ عَمَّهُ تَقْسِيمُ أَنْعُمِهِ جِنْسًا وَنَوْعًا وَفَرْدًا وَهْوَ فِي شَمَمِ

التمثيل

تُرْبِي عَلَى السَّيْلِ فِي التَّمْثِيلِ نِعْمَتُهُ شَتَّانَ مَا بَيْنَ طَلٍّ وَالْحَيَا الْعَرِمِ

نفي الشيء بايجابه

لَا يَنْتَفِي الْجُودُ مِنْ إِيجَابِهِ أَبَدًا وَلَا يَشِينُ بِمَنٍّ رَوْنَقَ النِّعَمِ

مختوم الطرفين

مِنْ فَضْلِهِ ارْتَجِي تَحْتِيمَهُ طَرَفِي قَضِيَّتِي فِي الْقَضَا بِالْمَجْدِ وَالْعِظَمِ

التضمين المزدوج

تَضْمِينُ حَمْدِي لَهُ لِلْفَضْلِ مُزْدَوِجًا عَقْلًا وَنَقْلًا جَنَانِي جَاءَهُ وَفَمِي

الموارده

تَوَارَدَ الْفِكْرُ فِي مَدْحِ الْأَئِمَّةِ لِمَنْ غَدَا لِخَلَاصِي خَيْرَ مُلْتَزِمِ

التطريز

تَطْرِيزُ حَمْدِي بِمَدْحِي فِيهِ مُلْتَحِمٌ يَا حُسْنَ مُلْتَحِمٍ يَا حُسْنَ مُلْتَحِمِ

الاحتراس

إِلَيْكَ جِئْتُ أَيَا مَوْلَايَ مُنْسَحِقًا قَلْبًا وَمُحْتَرِسًا خُذْنِي مِنَ الْخَدَمِ

المصغر

نُفَيْسَتِي مِنْ زُلَيْلَاتٍ جَنَتْ صَغُرَتْ وَلَّى عُزَيْمِي مُهَيْزِيًا وَلَمْ يَقُمِ

التدبيج

فَأَزْرَقَ أَبْيَضُ وَجْهِي حِينَ دَبَّجَهُ سَوَادُ إِثْمِي بِصِبْغٍ فِيهِ مُنْتَسِمِ

المضارع

وَبِاضْطِرَابِ جَنَانٍ وَاضْطِرَامِ حَشًا ضَارَعْتُ ذَا زَلَّةٍ فِي يَوْمِ مُحْتَكَمِ

التصريف

فَالْقَلْبُ حَرَّقَهُ التَّصْرِيفُ فِي عِلَلٍ وَالْجَفْنُ قَرَّحَهُ التَّدْمِيعُ فِي نَدَمِ

براعة الطلب

بَرَاعَتِي فِي مَدِيحِي مُنْتَهَى طَلَبِي فَاسْأَلْ سَخَاكَ فَلَمْ أَحْتَجْ إِلَى الْكَلِمِ

الادماج

أَدْمَجْتُ فِي مَدْحِهِ شَكْوَايَ مِنْ زَلَلِي وَعَسْجَدُ الْخَدِّ مِنْ ذَا الدَّمْعِ كَالْعَنَمِ

الحذف

أَرُومُ مِنْهُ انْتِصَارًا حَاذِفًا هَلَعًا وَعَاضِدًا وَقْتَ هَوْلِ الْحَشْرِ وَالنِّقَمِ

التاريخ

بِهِ الْآثِيمُ جَنَى بِرًّا فَقُلْتُ بِهِ مُذْ أَرَّخُوهُ لَنَا بِالْبِرِّ مُغْتَنِمِي *

حسن الختام

بِهِ غَدَا فِي عَلَاءٍ حُسْنُ مُبْتَدَإِي هَنِّي بِهِ يَا إِلٰهِي حُسْنَ مُخْتَتَمِي

ختام الختام

وَأَخْتِمُ خِتَامِي بِأَنْ أَحْظَى بِمَطْلَعِكَ م أَلْبَاهِي بِجِذْرِ السَّنَى يَامُرْشِدَ الْأُمَمِ



* قولهُ : (لنا بالبر مغتنمي) تاريخ بحساب الجُمَّل للسنة التي فيها ظمت هذه البديعيَّة وهي سنة ١٨٥٨

البحث السادس

في المطابقة

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرّف)

(راجع صفحة ٩٤ من علم الادب)

هٰذَا ٱلنَّوْعُ هُوَ فِي ٱلْمَعَانِي ضِدُّ ٱلتَّجْنِيسِ فِي ٱلْأَلْفَاظِ لِأَنَّ ٱلتَّجْنِيسَ هُوَ اَنْ يَتَّحِدَ ٱللَّفْظُ مَعَ ٱخْتِلَافِ ٱلْمَعْنَى وَهٰذَا هُوَ اَنْ يَكُونَ ٱلْمَعْنَيَانِ ضِدَّيْنِ . وَقَدْ اَجْمَعَ اَرْبَابُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ عَلَى اَنَّ ٱلْمُطَابَقَةَ فِي ٱلْكَلَامِ هِيَ ٱلْجَمْعُ بَيْنَ ٱلشَّيْءِ وَضِدِّهِ كَٱلسَّوَادِ وَٱلْبَيَاضِ وَٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ . وَخَالَفَهُمْ فِي ذٰلِكَ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلْكَاتِبُ فَقَالَ ٱلْمُطَابَقَةُ اِيرَادُ لَفْظَيْنِ مُتَسَاوِيَيْنِ فِي ٱلْبِنَاءِ وَٱلصِّيغَةِ مُخْتَلِفَيْنِ فِي ٱلْمَعْنَى . وَهٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرَهُ هُوَ ٱلتَّجْنِيسُ بِعَيْنِهِ . غَيْرَ اَنَّ ٱلْاَسْمَاءَ لَا مُشَاحَّةَ فِيهَا اِلَّا اِذَا كَانَتْ مُشْتَقَّةً . وَلْنَنْظُرْ نَحْنُ فِي ذٰلِكَ وَهُوَ اَنْ نَكْشِفَ عَنْ اَصْلِ ٱلْمُطَابَقَةِ فِي وَضْعِ ٱللُّغَةِ وَقَدْ وَجَدْنَا ٱلطِّبَاقَ فِي ٱللُّغَةِ مِنْ طَابَقَ ٱلْبَعِيرُ فِي سَيْرِهِ اِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ مَوْضِعَ يَدِهِ وَهٰذَا يُؤَكِّدُ مَا ذَكَرَهُ قُدَامَةُ لِاَنَّ ٱلْيَدَ غَيْرُ ٱلرِّجْلِ لَا ضِدُّهَا وَٱلْمَوْضِعُ ٱلَّذِي يَقَعَانِ فِيهِ وَاحِدٌ وَكَذٰلِكَ ٱلْمَعْنَيَانِ يَكُونَانِ مُخْتَلِفَيْنِ وَٱللَّفْظُ ٱلَّذِي يَجْمَعُهُمَا وَاحِدٌ . فَقُدَامَةُ سَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مُطَابَقَةً حَيْثُ كَانَ ٱلِاسْمُ مُشْتَقًّا مِمَّا سُمِّيَ بِهِ وَذٰلِكَ مُنَاسِبٌ وَوَاقِعٌ فِي مَوْقِعِهِ اِلَّا اَنَّهُ جَعَلَ لِلتَّجْنِيسِ اسْمًا آخَرَ وَهُوَ ٱلْمُطَابَقَةُ وَلَا بَأْسَ بِهِ اِلَّا اِنْ كَانَ مِثْلَهُ بِٱلضِّدَّيْنِ كَٱلسَّوَادِ وَٱلْبَيَاضِ فَاِنَّهُ يَكُونُ قَدْ خَالَفَ ٱلْاَصْلَ ٱلَّذِي

أَصْلَهُ بِالْمِثَالِ الَّذِي مَثَّلَهُ . وَأَمَّا غَيْرُهُ مِنْ أَرْبَابِ هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ فَإِنَّهُمْ سَمَّوْا هٰذَا الضَّرْبَ مِنَ الْكَلَامِ مُطَابِقًا لِغَيْرِ اشْتِقَاقٍ وَلَا مُنَاسَبَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُسَمَّاهُ . هٰذَا الظَّاهِرُ لَنَا مِنْ هٰذَا الْقَوْلِ إِلَّا أَنْ يَكُونُوا عَلِمُوا لِذٰلِكَ مُنَاسَبَةً لَطِيفَةً لَمْ نَعْلَمْهَا نَحْنُ . وَلْنَرْجِعْ إِلَى ذِكْرِ هٰذَا الْقِسْمِ مِنَ التَّأْلِيفِ وَإِيضَاحِ حَقِيقَتِهِ فَنَقُولُ : الْأَلْيَقُ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى أَنْ يُسَمَّى هٰذَا النَّوْعُ الْمُقَابَلَةَ لِأَنَّهُ لَا يَخْلُو الْحَالُ فِيهِ مِنْ وَجْهَيْنِ : إِمَّا أَنْ يُقَابَلَ الشَّيْءُ بِضِدِّهِ أَوْ يُقَابَلَ بِمَا لَيْسَ بِضِدِّهِ . وَلَيْسَ لَنَا وَجْهٌ ثَالِثٌ . (فَأَمَّا الْأَوَّلُ) وَهُوَ مُقَابَلَةُ الشَّيْءِ بِضِدِّهِ كَالسَّوَادِ وَالْبَيَاضِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمَا فَإِنَّهُ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : أَحَدُهُمَا مُقَابَلَةٌ فِي اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى وَالْآخَرُ مُقَابَلَةٌ فِي الْمَعْنَى دُونَ اللَّفْظِ . أَمَّا الْمُقَابَلَةُ فِي اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى فَكَقَوْلِهِ : فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا . فَقَابَلَ بَيْنَ الضَّحِكِ وَالْبُكَاءِ وَالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ . وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ : لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ . وَهٰذَا مِنْ أَحْسَنِ مَا يَجِيءُ فِي هٰذَا الْبَابِ . وَقَالَ أَيْضًا : خَيْرُ الْمَالِ عَيْنٌ سَاهِرَةٌ لِعَيْنٍ نَائِمَةٍ . وَمِنَ الْحَسَنِ الْمَطْبُوعِ الَّذِي لَيْسَ بِمُتَكَلَّفٍ قَوْلُ عَلِيٍّ لِعُثْمَانَ : إِنَّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيٌّ وَالْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيٌّ وَأَنْتَ رَجُلٌ إِنْ صُدِقْتَ سَخِطْتَ وَإِنْ كُذِبْتَ رَضِيتَ . فَقَابَلَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَالثَّقِيلَ الْمَرِيَّ بِالْخَفِيفِ الْوَبِيِّ وَالصِّدْقَ بِالْكَذِبِ وَالسُّخْطَ بِالرِّضَا وَهٰذِهِ خَمْسُ مُقَابَلَاتٍ فِي هٰذِهِ الْكَلِمَاتِ الْقِصَارِ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُهُ لَمَّا قَالَ الْخَوَارِجُ : (لَا حُكْمَ إِلَّا لِلّٰهِ تَعَالَى) : هٰذِهِ كَلِمَةُ حَقٍّ أُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ .

وَقَالَ ٱلْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَقَدْ أَحْضَرَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ لِيَقْتُلَهُ فَقَالَ لَهُ : مَا ٱسْمُكَ . قَالَ : سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ . قَالَ بَلْ أَنْتَ شَقِيُّ بْنُ كُسَيْرٍ . وَقَدْ كَانَ ٱلْحَجَّاجُ مِنَ ٱلْفُصَحَاءِ ٱلْمَعْدُودِينَ وَفِي كَلَامِهِ هٰذَا مُطَابَقَةٌ حَسَنَةٌ فَإِنَّهُ نَقَلَ ٱلِٱسْمَيْنِ إِلَى ضِدِّهِمَا فَقَالَ : فِي (سَعِيدٍ) شَقِيٌّ . وَفِي (جُبَيْرٍ) كُسَيْرٌ . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْكَلَامِ لَمْ تَخْتَصَّ بِهِ ٱللُّغَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ ٱللُّغَاتِ . وَمِمَّا وَجَدْتُهُ فِي لُغَةِ ٱلْفُرْسِ أَنَّهُ لَمَّا مَاتَ قُبَاذُ أَحَدُ مُلُوكِهِمْ قَالَ وَزِيرٌ : حَرَّكَنَا بِسُكُونِهِ . وَأَوَّلُ كِتَابِ ٱلْفُصُولِ لِبُقْرَاطَ فِي ٱلطِّبِّ قَوْلُهُ : ٱلْعُمْرُ قَصِيرٌ وَٱلصِّنَاعَةُ طَوِيلَةٌ . (وَأَمَّا ٱلْمُقَابَلَةُ فِي ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ فِي ٱلْأَضْدَادِ) فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُ ٱلْمُقَنَّعِ ٱلْكِنْدِيِّ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلْحَمَاسَةِ :

لَهُمْ جُلُّ مَالِي إِنْ تَتَابَعَ لِي غِنًى ... وَإِنْ قَلَّ مَالِي لَمْ أُكَلِّفْهُمْ رِفْدَا

فَقَوْلُهُ : (تَتَابَعَ لِي غِنًى) . بِمَعْنَى قَوْلِهِ : كَثُرَ مَالِي فَهُوَ إِذًا مُقَابَلَةٌ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى لَا مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ لِأَنَّ حَقِيقَةَ ٱلْأَضْدَادِ ٱللَّفْظِيَّةِ إِنَّمَا هِيَ فِي ٱلْمُفْرَدَاتِ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ نَحْوُ : قَامَ وَقَعَدَ . وَحَلَّ وَعَقَدَ . وَقَلَّ وَكَثُرَ . فَإِنَّ ٱلْقِيَامَ ضِدُّ ٱلْقُعُودِ . وَٱلْحَلَّ ضِدُّ ٱلْعَقْدِ . وَٱلْقَلِيلَ ضِدُّ ٱلْكَثِيرِ . فَإِذَا تُرِكَ ٱلْمُفْرَدُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَتُوُصِّلَ إِلَى مُقَابَلَتِهِ بِلَفْظٍ مُرَكَّبٍ كَانَ ذٰلِكَ مُقَابَلَةً مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى لَا مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ كَقَوْلِ هٰذَا ٱلشَّاعِرِ : (تَتَابَعَ لِي غِنًى) . فِي مَعْنَى (كَثُرَ مَالِي) وَهٰذِهِ مُقَابَلَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ لَا لَفْظِيَّةٌ فَٱعْرِفْ ذٰلِكَ . (وَأَمَّا مُقَابَلَةُ ٱلشَّيْءِ بِمَا لَيْسَ بِضِدِّهِ . فَهِيَ ضَرْبَانِ : (أَحَدُهُمَا) أَنْ لَا يَكُونَ مِثْلًا . (وَٱلْآخَرُ) أَنْ

يَكُونَ مِثْلًا . فَٱلضَّرْبُ ٱلْأَوَّلُ يَتَفَرَّعُ إِلَى فَرْعَيْنِ : (ٱلْأَوَّلُ) مَا كَانَ بَيْنَ ٱلْمُقَابَلِ بِهِ وَٱلْمُقَابَلِ نَوْعُ مُنَاسَبَةٍ وَتَقَارُبٍ . كَقَوْلِ قُرَيْطِ ٱبْنِ أُنَيْفٍ :

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ ٱلظُّلْمِ مَغْفِرَةً وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ ٱلسُّوءِ إِحْسَانَا

فَقَابَلَ ٱلظُّلْمَ بِٱلْمَغْفِرَةِ وَلَيْسَ هُوَ ضِدًّا لَهَا . إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا كَانَتِ ٱلْمَغْفِرَةُ قَرِيبَةً مِنَ ٱلْعَدْلِ حَسُنَتِ ٱلْمُقَابَلَةُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ ٱلظُّلْمِ . (ٱلْفَرْعُ ٱلثَّانِي) مَا كَانَ بَيْنَ ٱلْمُقَابَلِ وَٱلْمُقَابَلِ بِهِ بُعْدٌ وَذَاكَ مِمَّا لَا يَحْسُنُ ٱسْتِعْمَالُهُ . كَقَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

لِمَنْ يَطْلُبُ ٱلدُّنْيَا إِذَا لَمْ يُرِدْ بِهَا سُرُورَ مُحِبٍّ أَوْ مَسَاءَةَ مُجْرِمِ

فَإِنَّ ٱلْمُقَابَلَةَ ٱلصَّحِيحَةَ بَيْنَ ٱلْمُحِبِّ وَٱلْمُبْغِضِ لَا بَيْنَ ٱلْمُحِبِّ وَٱلْمُجْرِمِ

وَمِمَّا يَتَّصِلُ بِهٰذَا ٱلضَّرْبِ ضَرْبٌ مِنَ ٱلْكَلَامِ يُسَمَّى ٱلْمُؤَاخَاةَ بَيْنَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْمُؤَاخَاةَ بَيْنَ ٱلْمَبَانِي وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ نَعْقِدَ لَهُ بَابًا مُفْرَدًا لٰكِنْ إِذْ رَأَيْنَاهُ يَنْظُرُ إِلَى ٱلتَّقَابُلِ مِنْ وَجْهٍ وَصَلْنَاهُ بِهِ . أَمَّا ٱلْمُؤَاخَاةُ بَيْنَ ٱلْمَعَانِي فَهُوَ أَنْ يُذْكَرَ ٱلْمَعْنَى مَعَ أَخِيهِ لَا مَعَ ٱلْأَجْنَبِيِّ . مِثَالُهُ أَنْ تَذْكُرَ وَصْفًا مِنَ ٱلْأَوْصَافِ وَتَقْرِنَهُ بِمَا يَقْرُبُ مِنْهُ وَيَلْتَئِمُ بِهِ فَإِنْ ذَكَرْتَهُ مَعَ مَا يَبْعُدُ مِنْهُ كَانَ ذٰلِكَ قَدْحًا فِي ٱلصِّنَاعَةِ وَإِنْ كَانَ جَائِزًا . وَقَدْ رَأَيْتُ أَبَا نُوَاسٍ يَقَعُ فِي هٰذَا ٱلْغَلَطِ كَثِيرًا كَقَوْلِهِ فِي وَصْفِ ٱلدِّيكِ :

لَهُ ٱعْتِدَالٌ وَٱنْتِصَابُ قَدّ وَجِلْدُهُ يُشْبِهُ وَشْيَ ٱلْبُرْدِ

كَأَنَّمَا ٱلْهُدَّابُ فِي ٱلْفِرِنْدِ مُحْدَوْدِبُ ٱلظَّهْرِ كَرِيمُ ٱلْجَدِّ

فَإِنَّهُ ذَكَرَ ٱلظَّهْرَ وَقَرَنَهُ بِذِكْرِ ٱلْجَدِّ وَهٰذَا لَا يُنَاسِبُ هٰذَا لِأَنَّ ٱلظَّهْرَ فِي جُمْلَةِ ٱلْخَلْقِ وَٱلْجَدَّ فِي ٱلنَّسَبِ. وَأَمَّا (ٱلْمُؤَاخَاةُ بَيْنَ ٱلْمَبَانِي) فَإِنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِمَبَانِي ٱلْأَلْفَاظِ. فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ مُسْلِمِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ:

فَٱذْهَبْ كَمَا ذَهَبَتْ غَوَادِي مُزْنَةٍ ... يُثْنِي عَلَيْهَا ٱلسَّهْلُ وَٱلْأَوْعَارُ

وَٱلْأَحْسَنُ أَنْ يُقَالُ ٱلسَّهْلُ وَٱلْوَعْرُ أَوِ ٱلسُّهُولُ وَٱلْأَوْعَارُ. لِيَكُونَ ٱلْبِنَاءُ ٱللَّفْظِيُّ وَاحِدًا أَيْ أَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظَانِ وَارِدَيْنِ عَلَى صِيغَةِ ٱلْجَمْعِ أَوِ ٱلْإِفْرَادِ. وَإِذَا أَنْصَفْنَا هٰذَا ٱلْمَوْضِعَ وَجَدْنَا ٱلنَّاثِرَ مُطَالَبًا بِهِ دُونَ ٱلنَّاظِمِ لِمَكَانِ إِمْكَانِهِ مِنَ ٱلتَّصَرُّفِ. (ٱلضَّرْبُ ٱلثَّانِي) هُوَ فِي مُقَابَلَةِ ٱلشَّيْءِ بِمِثْلِهِ وَهُوَ يَتَفَرَّعُ إِلَى فَرْعَيْنِ: (أَحَدُهُمَا) مُقَابَلَةُ ٱلْمُفْرَدِ بِٱلْمُفْرَدِ. (وَٱلْآخَرُ) مُقَابَلَةُ ٱلْجُمْلَةِ بِٱلْجُمْلَةِ. (ٱلْفَرْعُ ٱلْأَوَّلُ) كَقَوْلِهِ: نَسُوا ٱللهَ فَنَسِيَهُمْ. وَقَدْ رُوعِيَ هٰذَا ٱلْمَوْضِعُ فِي ٱلْقُرْآنِ كَثِيرًا فَإِذَا وَرَدَ فِي صَدْرِ آيَةٍ مَا يَحْتَاجُ إِلَى جَوَابٍ كَانَ جَوَابُهُ مُمَاثِلًا كَقَوْلِهِ: مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ. وَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ غَيْرَ جَوَابٍ فَإِنَّهُ لَا يَلْتَزِمُ فِيهِ هٰذِهِ ٱلْمُرَاعَاةَ ٱللَّفْظِيَّةَ. (ٱلْفَرْعُ ٱلثَّانِي فِي مُقَابَلَةِ ٱلْجُمْلَةِ بِٱلْجُمْلَةِ) اِعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا كَانَتِ ٱلْجُمْلَةُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مُسْتَقْبِلَةً قُوبِلَتْ بِمُسْتَقْبِلَةٍ. وَإِنْ كَانَتْ مَاضِيَةً قُوبِلَتْ بِمَاضِيَةٍ وَرُبَّمَا قُوبِلَتِ ٱلْمَاضِيَةُ بِمُسْتَقْبِلَةٍ وَٱلْمُسْتَقْبِلَةُ بِٱلْمَاضِيَةِ إِذَا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا بِمَعْنَى ٱلْأُخْرَى فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ: قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي. فَإِنَّ هٰذَا تَقَابُلٌ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى وَلَوْ كَانَ ٱلتَّقَابُلُ مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ لَقَالَ: وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَإِنَّمَا أَهْتَدِي لَهَا

البحث السابع

في حقيقة التجنيس

(عن كتاب جنان الجناس للصفدي وعن الشريشي وابن الاثير)

(راجع صفحة ١١٨ من علم الادب)

اِعلَمْ اَنَّ ٱلتَّجنيسَ غُرَّةٌ شادِخَةٌ فِي وَجهِ ٱلكَلَامِ وَقَدْ تَصَرَّفَ ٱلعُلَمَاءُ مِنْ اَرْبَابِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِيهِ فَغَرَّبُوا وَشَرَّقُوا لَاسِيَّمَا ٱلمُحَدَّثِينَ مِنْهُمْ. وَصَنَّفَ ٱلنَّاسُ فِيهِ كُتُبًا كَثِيرَةً وَجَعَلُوهُ اَبوَابًا مُتَعَدِّدَةً وَٱختَلَفُوا فِي ذٰلِكَ وَاَدخَلُوا بَعْضَ تِلكَ ٱلأَبوَابِ فِي بَعضٍ . وَاِنَّمَا سُمِّيَ هٰذَا ٱلنَّوعُ مِنَ ٱلكَلَامِ مُجَانِسًا لِاَنَّ حُرُوفَ اَلفَاظِهِ يَكُونُ تَركِيبُهَا مِنْ جِنسٍ وَاحِدٍ . اَمَّا حَقِيقَتُهُ فَاَعلَمْ اَنَّ اَرْبَابَ ٱلبَلَاغَةِ عَرَّفُوهُ بِحُدُودٍ ٱختَلَفَتْ اَقوَالُهُمْ فِيهَا . فَقَالَ ٱلرُّمَّانِيُّ : هُوَ بَيَانُ ٱلمَعَانِي بِاَنوَاعٍ مِنَ ٱلكَلَامِ يَجمَعُهَا اَصلٌ وَاحِدٌ مِنَ ٱللُّغَةِ . وَقَالَ قُدَامَةُ : هُوَ ٱشتِرَاكُ ٱلمَعَانِي فِي اَلفَاظٍ مُتَجَانِسَةٍ عَلَى جِهَةِ ٱلاَشتِقَاقِ . وَقَالَ ٱبنُ ٱلمُعتَزِّ : هُوَ اَنْ تَجِيءَ بِكَلِمَةٍ تُجَانِسُ اُختَهَا . وَقَالَ ٱبنُ ٱلاَثِيرِ ٱلجَزَرِيُّ : ٱلجِنَاسُ هُوَ اَنْ يَكُونَ ٱللَّفظُ وَاحِدًا وَٱلمَعنَى مُختَلِفًا . وَقَالَ بَدرُ ٱلدِّينِ ٱبنُ ٱلنَّحوِيَّةِ فِي ضَوءِ ٱلمِصبَاحِ : هُوَ اَنْ يُؤْتَى بِمُتَمَاثِلَينِ فِي ٱلحُرُوفِ اَوْ بَعضِهَا مُتَغَايِرَينِ فِي اَصلِ ٱلمَعنَى فِي غَيرِ رَدِّ ٱلعَجزِ عَلَى ٱلصَّدرِ . فَهٰذَا جُملَةُ مَا حَضَرَنِي مِنْ حُدُودِ ٱلقَومِ عِندَ تَعلِيقِ هٰذَا ٱلفَصلِ . (قُلتُ) اَمَا حَدُّ ٱلرُّمَّانِيِّ فَاِنَّهُ اَسلَمُ مِمَّا بَعدَهُ لٰكِنَّهُ غَيرُ جَامِعٍ

لِاَنَّهُ يَخْرُجُ عَنْهُ جِنَاسُ اَلتَّصْحِيفِ وَاَلتَّصْرِيفِ وَاَلْمُرَكَّبِ وجِنَاسُ اَلْمَعْنَى وَاَلْجِنَاسُ اَلْمُطَمِّعُ . وَامَّا حَدُّ قُدَامَةَ فَإِنَّهُ عَرَّفَ اَلشَّيْءَ بِنَفْسِهِ وهٰذَا غَيْرُ جَائِزٍ لِاَنَّ قَوْلَهُ : (فِي اَلْفَاظٍ مُتَجَانِسَةٍ) يُفْضِي اِلَى اَلدَّوْرِ لِاَنَّنَا بِهٰذَا لَا نَعْرِفُ اَلْمُتَجَانِسَ اِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ اَلْجِنَاسِ وَلَا نَعْرِفُ اَلْجِنَاسَ اِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ اَلْمُتَجَانِسِ فَادَّى ذٰلِكَ اِلَى اَلدَّوْرِ وَهُوَ مُحَالٌ . وَيُمْكِنُ اَلْجَوَابُ عَنْهُ بِاَنْ يُقَالَ : اِنَّهُ مَا ارَادَ اَلْمُتَجَانِسَ فِي اَلِاصْطِلَاحِ بَلِ اَلْمُتَجَانِسَ فِي اَللُّغَةِ اَيْ فِي اَلْاَلْفَاظِ اَلْمُتَشَابِهَةِ . وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَهُوَ حَدٌّ مُضْطَرِبٌ اِذْ فِيهِ لَفْظٌ مُوهِمٌ وَاَلْحُدُودُ يُجْتَنَبُ فِيهَا مِثْلُ ذٰلِكَ . وَقَوْلُهُ : (عَلَى جِهَةِ اَلِاشْتِقَاقِ) يَخْرُجُ عَنْهُ جَمِيعُ اَنْوَاعِ اَلْجِنَاسِ اِلَّا اَلْجِنَاسَ اَلْمُشْتَقَّ . وَامَّا حَدُّ اَبْنِ اَلْمُعْتَزِّ فَهُوَ اَيْضًا تَعْرِيفٌ دَوْرِيٌّ وَذٰلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ فِي صِنَاعَةِ اَلْحُدُودِ وَاَلرُّسُومِ . وَامَّا حَدُّ اَبْنِ اَلْاَثِيرِ فَهُوَ اَيْضًا غَيْرُ جَامِعٍ لِاَنَّهُ يَخْرُجُ عَنْهُ مِثْلُ اَلْجِنَاسِ اَلْمُزْدَوِجِ وَاَلْجِنَاسِ اَلْمُطَمِّعِ وَاَلْجِنَاسِ اَلخطِّيِّ وَاَلْجِنَاسِ اَلْمَعْنَوِيِّ عَلَى مَا سَيَظْهَرُ لَكَ عِنْدَ كَشْفِ كُلِّ مَاهِيَّةٍ مِنْ اَنْوَاعِهِ . وَامَّا حَدُّ بَدْرِ اَلدِّينِ اَبْنِ اَلنَّحْوِيَّةِ فَاِنَّ قَوْلَهُ : (مُتَمَاثِلَيْنِ) جِنْسٌ يَشْمَلُ اَلْمُمَاثِلَ مُطْلَقًا سَوَاءٌ كَانَ لَفْظًا اَوْ مَعْنًى . وَقَوْلُهُ : (فِي اَلْحُرُوفِ) فَصْلٌ يُخْرِجُ بِهِ اَلْمُمَاثِلَ مَعْنًى . وَقَوْلُهُ : (اَوْ بَعْضِهَا) مُدْخِلٌ لِلْجِنَاسِ اَلْمُطَمِّعِ وَاَلْمُخَالِفِ وَاَلِاشْتِقَاقِ . وَقَوْلُهُ : (مُتَغَايِرَيْنِ فِي اَصْلِ اَلْمَعْنَى) لَا فَائِدَةَ فِيهِ لِاَنَّ هٰذَا مَعْلُومٌ فِي قَوْلِهِ : (مُتَمَاثِلَيْنِ فِي اَلْحُرُوفِ) اَيْ دُونَ مَعْنَاهُمَا لٰكِنْ فِيهِ زِيَادَةُ بَيَانٍ . وَقَوْلُهُ : (فِي غَيْرِ رَدِّ اَلْعَجْزِ

عَلَى ٱلصَّدْرِ) هٰذَا لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ وَلَا فَائِدَةَ فِي هٰذَا ٱلِٱحْتِرَازِ كَمَا يَظْهَرُ فِي ٱلتَّمْثِيلِ وَلَوْ زَادَ قَوْلَهُ : مُتَمَاثِلَيْنِ فِي ٱلْحُرُوفِ أَوْ بَعْضِهَا أَوْ صُورَتِهَا لَكَانَ أَجْوَدَ لِيَدْخُلَ فِيهِ ٱلْجِنَاسُ ٱلْخَطِّيُّ . وَٱلَّذِي أَخْتَارُهُ أَنَا فِي رَسْمِ ٱلْجِنَاسِ أَنْ أَقُولَ : هُوَ ٱلْإِتْيَانُ بِمُتَمَاثِلَيْنِ فِي ٱلْحُرُوفِ أَوْ بَعْضِهَا أَوْ فِي ٱلصُّورَةِ أَوْ زِيَادَةٍ فِي أَحَدِهِمَا أَوْ بِمُخَالِفَيْنِ فِي ٱلتَّرْتِيبِ نَظْمًا أَوِ ٱلْحَرَكَاتِ أَوْ بِمُمَاثِلٍ يُرَادِفُ مَعْنَاهُ مُمَاثِلًا آخَرَ . وَلَعَلَّ هٰذَا ٱلرَّسْمَ أَقْرَبُ إِلَى ٱلسَّلَامَةِ مِمَّا ذُكِرَ . فَقَوْلِي (مُتَمَاثِلَيْنِ) جِنْسٌ يَشْمَلُ ٱلْمُمَاثِلَ لَفْظًا وَمَعْنًى . وَقَوْلِي : (فِي ٱلْحُرُوفِ) فَصْلٌ أَخْرَجَ ٱلْمُمَاثِلَ مَعْنًى كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ زَيْدٌ . وَأَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلتَّامَّ كَقَوْلِكَ يَحْيَى يَحْيَا . وَٱلْجِنَاسَ ٱلْمُرَكَّبَ كَقَوْلِكَ : نِعْمَتُهُ ذَاهِبَةٌ . إِنْ لَمْ يَكُنْ ذَا هِبَةٍ . وَقَوْلِي : (أَوْ بَعْضِهَا) أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُطَمَّعَ كَقَوْلِكَ : ٱلْأَمْوَاهُ وَٱلْأَمْوَالُ . وَٱلْجِنَاسَ ٱلْمُقَارِبَ كَقَوْلِكَ : ٱلْهُمُومُ عَلَى قَدْرِ ٱلْهِمَمِ . وَقَوْلِي : (أَوْ فِي ٱلصُّورَةِ) أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْخَطِّيَّ كَقَوْلِكَ : لَا تُضِعْ يَوْمَكَ فِي نَوْمِكَ . وَقَوْلِي : (أَوْ زِيَادَةٍ) فِي أَحَدِهِمَا أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُخَالِفَ كَقَوْلِكَ : ٱلْمَاءُ مِنَ ٱلْأَحْجَارِ جَارٍ . وَقَوْلِي : أَوْ بِمُخَالِفَيْنِ فِي ٱلتَّرْتِيبِ أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُخَالِفَ كَقَوْلِكَ : بِيضُ ٱلصَّحَائِفِ وَٱلصَّفَائِحِ . وَقَوْلِي (أَوِ ٱلْحَرَكَاتِ) أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُغَايِرَ كَقَوْلِكَ : أَغْتَنِمْ هُبَاتِ ٱلْهِبَاتِ . وَقَوْلِي : (أَوْ بِمُمَاثِلٍ يُرَادِفُ مَعْنَاهُ مُمَاثِلًا آخَرَ نَظْمًا) أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمَعْنَوِيَّ كَقَوْلِكَ : أَمْرٌ عَظِيمٌ تَظْهَرُ ٱللُّوثَةُ فِيهِ بِٱلْأَسَدِ . إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَقُولَ :

(بِٱللَّيثِ) ثُمَّ عدلتَ إِلَى مَا يُرَادِفُهُ وَهُوَ ٱلأَسَدُ . وَقَوْلِي : (نَظْمًا) إِعلَامٌ بِأَنَّ هٰذَا ٱلنَّوعَ مِنَ ٱلجِنَاسِ إِنَّمَا يَجِيءُ فِي ٱلنَّظْمِ دُونَ ٱلنَّثْرِ . وَتَظْهَرُ عِلَّةُ هٰذَا فِي مَكَانِهِ . فَتَدَبَّرْ هٰذَا ٱلرَّسمَ تَجِدْهُ مَا أَخَلَّ بِنَوعٍ مِنْ أَنوَاعِ ٱلجِنَاسِ . وَقَدْ قَالَ عُلَمَاءُ ٱلبَدِيعِ : إِنَّ ٱلجِنَاسَ يَحْسُنُ إِذَا قَلَّ وَأَتَى فِي ٱلكَلَامِ عفوًا مِنْ غَيرِ كَدٍّ وَلَا ٱستِكرَاهٍ وَلَا بُعدٍ وَلَا مَيلٍ إِلَى جَانِبٍ . وَلَمْ يَختَجْ إِلَيهِ بِكَثرَةِ ٱستِعمَالِهِ إِلَّا مَنْ قَصُرَتْ هِمَّتُهُ عَنِ ٱختِرَاعِ ٱلمَعَانِي ٱلَّتِي هِيَ كَٱلنُّجُومِ ٱلزَّاهِرَةِ فِي أُفُقِ ٱلأَلفَاظِ . وَإِذَا خَلَتْ بُيُوتُ ٱلأَلفَاظِ مِنْ سُكَّانِ ٱلمَعَانِي تَنَزَّلَتْ مَنْزِلَةَ ٱلأَطلَالِ ٱلبَالِيَةِ

البحث الثامن

في ذكر انواع التجنيس

إِعلَمْ أَنَّ أَنوَاعَ ٱلجِنَاسِ كَثِيرَةٌ ٱقتَصَرْنَا عَلَى ذِكْرِ أَخَصِّهَا وَأَوَّلُهَا ٱلجِنَاسُ (ٱلمُرَكَّبُ) وَهُوَ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ ٱلرُّكْنَيْنِ كَلِمَةً مُفْرَدَةً وَٱلأُخرَى مُرَكَّبَةً مِنْ كَلِمَتَيْنِ وَهُوَ عَلَى ضَرْبَيْنِ : فَٱلأَوَّلُ مَا تَشَابَهَ لَفظًا وَخَطًّا كَقَولِ ٱلشَّاعِرِ :

عَضَّنَا ٱلدَّهرُ بِنَابِهْ ‌ ‌ ‌ لَيتَ مَا حَلَّ بِنَا بِهْ

وَٱلثَّانِي مَا هُوَ مُتَشَابِهٌ لَفظًا لَا خَطًّا وَيُسَمَّى ٱلمَفرُوقَ كَقَولِ ٱلشَّاعِرِ :

لَا تَعرِضَنَّ عَلَى ٱلرُّوَاةِ قَصِيدَةً ‌ ‌ ‌ مَا لَمْ تَكُنْ بَالَغتَ فِي تَهذِيبِهَا

وَإِذَا عَرَضْتَ ٱلشِّعْرَ غَيْرَ مُهَذَّبٍ عَدُّوهُ مِنْكَ وَسَاوِسًا تَهْذِي بِهَا

وَلِلْجِنَاسِ ٱلْمُرَكَّبِ نَوْعٌ يُسَمَّى (ٱلْمَرْفُوّ) وَهُوَ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ ٱلرُّكْنَيْنِ جُزْءًا مُسْتَقِلًّا وَٱلْآخَرُ مُجَزَّأً مِنْ كَلِمَةٍ أُخْرَى كَقَوْلِ ٱلْحَرِيرِيِّ:

وَٱلْمَكْرَ مَهْمَا ٱسْطَعْتَ لَا تَأْتِهِ لِتَقْتَنِيَ ٱلسُّؤْدَدَ وَٱلْمَكْرُمَهْ

وَقَوْلِهِ:

وَلَا تَلْهُ عَنْ تَذْكَارِ ذَنْبِكَ وَٱبْكِهِ بِدَمْعٍ يُحَاكِي ٱلْمُزْنَ حَالَ مَصَابِهِ

وَمَثِّلْ لِعَيْنَيْكَ ٱلْحِمَامَ وَوَقْعَهُ وَرَوْعَةَ مَلْقَاهُ وَمَطْعَمَ صَابِهِ

وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ لَا يَخْلُو مِنْ تَعَسُّفٍ وَتَعْقِيدٍ فِي ٱلتَّرْكِيبِ. وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (ٱلْمُلَفَّقُ) وَحَدُّهُ أَنْ يَكُونَ كُلٌّ مِنَ ٱلرُّكْنَيْنِ مُرَكَّبًا مِنْ كَلِمَتَيْنِ وَهٰذَا هُوَ ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمُرَكَّبِ وَقَلَّ مَنْ أَفْرَدَهُ عَنْهُ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

وَكَمْ لِجِبَاهِ ٱلرَّاغِبِينَ إِلَيْهِ مِنْ مَجَالِ سُجُودٍ فِي مَجَالِسِ جُودِ

وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (ٱلْمُذَيَّلُ وَٱللَّاحِقُ). فَٱلْمُذَيَّلُ هُوَ مَا زَادَ أَحَدُ رُكْنَيْهِ عَلَى ٱلْآخَرِ حَرْفًا فِي آخِرِهِ فَصَارَ لَهُ كَٱلذَّيْلِ كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ:

يَمُدُّونَ فِي أَيْدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ تَصُولُ بِأَسْيَافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبِ

وَقَالَ آخَرُ:

عَذِيرِيَ مِنْ دَهْرٍ مُوَادٍ مُوَارِبٍ لَهُ حَسَنَاتٌ كُلُّهُنَّ ذُنُوبُ

وَقَدْ تَأْتِي ٱلزِّيَادَةُ فِي آخِرِ ٱلذَّيْلِ بِحَرْفَيْنِ كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ فِي رِثَاءٍ:

فَيَا لَكَ مِنْ حَزْمٍ وَعَزْمٍ طَوَاهُمَا جَدِيدُ ٱلرَّدَى تَحْتَ ٱلصَّفَا وَٱلصَّفَائِحِ

وَأَرَقُّ مَا سَمِعْتُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ :

إِنَّ ٱلْبُكَاءَ هُوَ ٱلشِّفَا ءُ مِنَ ٱلْجَوَى بَيْنَ ٱلْجَوَانِحْ

وَأَمَّا (ٱللَّاحِقُ) فَهُوَ مَا أُبْدِلَ فِي أَحَدِ رُكْنَيْهِ حَرْفٌ مِنْ غَيْرِ مَخْرَجِهِ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ فِي جَوَابِ رِسَالَةٍ : وَصَلَ كِتَابُكَ فَتَنَاوَلْتُهُ بِٱلْيَمِينِ وَوَضَعْتُهُ مَكَانَ ٱلْعِقْدِ ٱلثَّمِينِ . وَكَقَوْلِ ٱلْآخَرِ : أَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا ٱلسَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ . وَٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْجِنَاسِ ٱللَّاحِقِ وَٱلْجِنَاسِ ٱلْمُضَارِعِ أَنَّ حُرُوفَ ٱللَّاحِقِ لَيْسَتْ مِنْ مَخْرَجٍ وَاحِدٍ كَٱلنُّونِ وَٱلْقَافِ فِي : (تَقْهَرْ وَتَنْهَرْ) . وَأَمَّا حُرُوفُ ٱلْمُضَارِعِ فَإِنَّهَا مُتَشَابِهَةٌ فِي ٱلْمَخْرَجِ كَمَا وَرَدَ فِي ٱلْحَدِيثِ : إِنَّ ٱلْخَيْلَ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا ٱلْخَيْرُ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ بَعْضِهِمْ : ٱلْبَرَايَا أَهْدَافُ ٱلْبَلَايَا . فَإِنَّ ٱلرَّاءَ وَٱللَّامَ مِنْ مَخْرَجٍ وَاحِدٍ

وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلتَّجْنِيسِ (ٱلتَّامُّ) . وَهُوَ مَا تَمَاثَلَ رُكْنَاهُ وَٱتَّفَقَا لَفْظًا وَٱخْتَلَفَا مَعْنًى مِنْ غَيْرِ تَفَاوُتٍ فِي تَصْحِيحِ تَرْكِيبِهِمَا وَٱخْتِلَافِ حَرَكَتِهِمَا سَوَاءٌ كَانَا مِنِ ٱسْمَيْنِ أَوْ مِنْ فِعْلَيْنِ أَوْ مِنِ ٱسْمٍ وَفِعْلٍ فَإِنَّهُمْ قَالُوا : إِذَا ٱنْتَظَمَ رُكْنَاهُ مِنْ نَوْعٍ وَاحِدٍ كَٱسْمَيْنِ أَوْ فِعْلَيْنِ سُمِّيَ مُمَاثِلًا وَإِنِ ٱنْتَظَمَا مِنْ نَوْعَيْنِ كَٱسْمٍ وَفِعْلٍ سُمِّيَ مُسْتَوْفًى . وَجُلُّ ٱلْقَصْدِ تَمَاثُلُ ٱلرُّكْنَيْنِ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْخَطِّ وَٱلْحَرَكَةِ وَٱخْتِلَافُهُمَا فِي ٱلْمَعْنَى . فَمِنْهُ قَوْلُ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ : صَوْلَةُ ٱلْبَاطِلِ سَاعَةٌ وَصَوْلَةُ ٱلْحَقِّ إِلَى ٱلسَّاعَةِ . وَمِنَ ٱلشِّعْرِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ فِي رِثَاءِ صَغِيرٍ ٱسْمُهُ يَحْيَى :

وَسَمَّيْتُهُ يَحْيَى لِيَحْيَا وَلَمْ يَكُنْ   إِلَى رَدِّ أَمْرِ ٱللهِ فِيهِ سَبِيلُ

وَكَقَوْلِ أَبِي نُوَاسٍ :

عَبَّاسُ عَبَّاسٌ إِذَا ٱحْتَدَمَ ٱلْوَغَى   وَٱلْفَضْلُ فَضْلٌ وَٱلرَّبِيعُ رَبِيعُ

وَمِنْهُ ٱلْجِنَاسُ (ٱلْمُطَرَّفُ) وَهُوَ مَا زَادَ أَحَدُ رُكْنَيْهِ عَلَى ٱلْآخَرِ حَرْفًا فِي طَرَفِهِ ٱلْأَوَّلِ . وَهٰذَا هُوَ ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمُذَيَّلِ . فَإِنَّ ٱلزِّيَادَةَ فِي ٱلْمُذَيَّلِ تَكُونُ فِي آخِرِهِ . وَأَمَّا ٱلْمُطَرَّفُ فَتَكُونُ زِيَادَتُهُ فِي أَوَّلِهِ لِتَصِيرَ لَهُ كَٱلطَّرَفِ وَيُسَمَّى أَيْضًا ٱلنَّاقِصَ وَٱلْمُرْدَفَ وَٱلْمُزْدَوِجَ وَٱلْمُكَرَّرَ وَٱلْمَرْدُودَ وَٱلْمُجَنَّبَ وَفِي تَسْمِيَتِهِ ٱخْتِلَافٌ . وَٱلزِّيَادَةُ تَكُونُ تَارَةً فِي أَوَّلِ ٱلرُّكْنِ ٱلثَّانِي وَتَارَةً فِي أَوَّلِ ٱلرُّكْنِ ٱلْأَوَّلِ كَقَوْلِهِمْ : لَمَّا مَلَأَ ٱلصَّاعَ أَنْصَاعَ . وَكَقَوْلِ ٱلْآخَرِ :

وَكَمْ سَبَقَتْ مِنْهُ إِلَيَّ عَوَارِفُ   ثَنَائِي عَلَى تِلْكَ ٱلْعَوَارِفِ وَارِفُ

وَكَمْ غُرَرٍ مِنْ بِرِّهِ وَلَطَائِفٍ   لِشُكْرِي عَلَى تِلْكَ ٱللَّطَائِفِ طَائِفُ

وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (ٱللَّفْظِيُّ) وَهُوَ أَنْ يَتَمَاثَلَ رُكْنَانِ وَيَتَجَانَسَا خَطًّا إِلَّا أَنَّ أَحَدَهُمَا يُخَالِفُ ٱلْآخَرَ بِإِبْدَالِ حَرْفٍ مِنْهُ فِيهِ مُنَاسَبَةٌ لَفْظِيَّةٌ كَمَا ٱلَّذِي يُكْتَبُ بِٱلضَّادِ وَٱلظَّاءِ كَقَوْلِهِ : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ . وَكَقَوْلِ ٱبْنِ ٱلْعَفِيفِ :

أَحْسَنُ خَلْقِ ٱللهِ وَجْهًا وَفَمًا   إِنْ لَمْ يَكُنْ أَحَقَّ بِٱلْمَدْحِ فَمَنْ

وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (ٱلْجِنَاسُ ٱلْمَقْلُوبُ) وَسَمَّاهُ قَوْمٌ ٱلْمَعْكُوسَ وَذٰلِكَ ضَرْبَانِ : أَحَدُهُمَا عَكْسُ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلثَّانِي عَكْسُ ٱلْحُرُوفِ . فَٱلْأَوَّلُ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ : عَادَاتُ ٱلسَّادَاتِ ، سَادَاتُ ٱلْعَادَاتِ وَكَقَوْلِ ٱلْآخَرِ :

إِنَّ ٱللَّيَالِي لِلْأَنَامِ مَنَاهِلٌ ... تُطْوَى وَتُنْشَرُ بَيْنَهَا ٱلْأَعْمَارُ
فَقِصَارُهُنَّ مَعَ ٱلْهُمُومِ طَوِيلَةٌ ... وَطِوَالُهُنَّ مَعَ ٱلسُّرُورِ قِصَارُ

وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ مِنَ ٱلتَّجْنِيسِ لَهُ حَلَاوَةٌ وَعَلَيْهِ رَوْنَقٌ وَقَدْ سَمَّاهُ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلْكَاتِبُ: (ٱلتَّبْدِيلَ) . وَذٰلِكَ ٱسْمٌ مُنَاسِبٌ لِمُسَمَّاهُ لِأَنَّ مُؤَلِّفَ ٱلْكَلَامِ يَأْتِي بِمَا كَانَ مُقَدَّمًا فِي جُزْءِ كَلَامِهِ ٱلْأَوَّلِ مُؤَخَّرًا فِي ٱلثَّانِي وَبِمَا كَانَ مُؤَخَّرًا فِي ٱلْأَوَّلِ مُقَدَّمًا فِي ٱلثَّانِي . وَأَمَّا ٱلضَّرْبُ ٱلثَّانِي مِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ وَهُوَ عَكْسُ ٱلْحُرُوفِ فَكَقَوْلِ بَعْضِهِمْ :

أَهْدَيْتُ شَيْئًا يَقِلُّ لَوْلَا ... أُحْدُوثَةُ ٱلْفَالِ وَٱلتَّبَرُّكْ
كُرْسِي تَفَاءَلْتُ فِيهِ لَمَّا ... رَأَيْتُ مَقْلُوبَهُ يَسُرُّكْ

وَرُبَّمَا كَانَ ٱلْبَيْتُ كُلُّهُ مَعْكُوسًا يُقْرَأُ طَرْدًا وَعَكْسًا وَٱلْبَيْتُ ٱلثَّانِي مِنْهُ مَعْكُوسٌ كَقَوْلِ ٱلْأَرَّجَانِيِّ :

أُحِبُّ ٱلْمَرْءَ ظَاهِرُهُ جَمِيلٌ ... لِصَاحِبِهِ وَبَاطِنُهُ سَلِيمُ
مَوَدَّتُهُ تَدُومُ لِكُلِّ هَوْلٍ ... وَهَلْ كُلٌّ مَوَدَّتُهُ تَدُومُ

وَمِنْ أَنْوَاعِهِ (ٱلْجِنَاسُ ٱلْمُقَارِبُ) وَمِنْهُمْ مَنْ يُسَمِّيهِ جِنَاسَ ٱلِاشْتِقَاقِ وَجِنَاسَ ٱلِاقْتِضَابِ وَهُوَ يَنْقَسِمُ إِلَى أَنْوَاعٍ وَمِنْهَا أَنْ يَكُونَ ٱلرُّكْنَانِ ٱسْمَيْنِ كَقَوْلِ ٱلصَّاحِبِ: إِنَّ ٱلْهُمُومَ بِقَدْرِ ٱلْهِمَمِ . وَكَقَوْلِ ٱلْقَائِلِ: رَوْحٌ وَرَيْحَانٌ . وَمِنْهَا أَنْ يَكُونَ أَحَدُ ٱلرُّكْنَيْنِ ٱسْمًا وَٱلْآخَرُ فِعْلًا نَحْوُ : وَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَى ٱللهِ . وَمِنْهَا أَنْ يَكُونَ ٱلرُّكْنَانِ فِعْلَيْنِ . كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

إِنْ تَرَ ٱلدُّنْيَا أَغَارَتْ وَنُجُومَ ٱلسَّعْدِ غَارَتْ
فَصُرُوفُ ٱلدَّهْرِ شَتَّى كُلَّمَا جَارَتْ لَجَارَتْ

وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (ٱلْمَعْنَوِيُّ) وَهُوَ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ رُكْنَيِ ٱلْجِنَاسِ دَالًّا عَلَى مَعْنَى ٱلْآخَرِ فِي غَيْرِ أَلْفَاظِهِ وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱسْتَدْرَكَهُ فُضَلَاءُ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ وَٱسْتَخْرَجُوهُ وَبَعْضُهُمْ لَا يَعُدُّهُ جِنَاسًا لِأَنَّهُ قَلَّمَا يُوجَدُ فِي ٱلْكَلَامِ لِتَوَعُّرِ مَسْلَكِهِ. وَسَبَبُ وُرُودِ هٰذَا ٱلنَّوْعِ فِي ٱلْكَلَامِ أَنَّ ٱلشَّاعِرَ يَقْصِدُ ٱلْمُجَانَسَةَ فِي كَلَامِهِ بَيْنَ لَفْظَتَيْنِ فَلَا يُوَافِقُهُ ٱلْوَزْنُ عَلَى إِثْبَاتِ أَحَدِ رُكْنَيِ ٱلْجِنَاسِ فَيَعْدِلُ إِلَى مَا يُوَافِقُهُ مَعْنًى وَيُخَالِفُهُ لَفْظًا وَعَلَى هٰذَا لَا وُرُودَ لِهٰذَا ٱلنَّوْعِ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ إِذْ لَا وَزْنَ يَضْطَرُّهُ إِلَى ٱلْإِتْيَانِ بِذٰلِكَ. وَمِنْ أَمْثِلَةِ أَرْبَابِ ٱلْبَدِيعِ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ يَمْدَحُ ٱلْمُهَلَّبَ بْنَ أَبِي صُفْرَةَ وَيَذْكُرُ فِعْلَهُ بِقَطَرِيِّ بْنِ ٱلْفُجَاءَةِ وَكَانَ قَطَرِيٌّ يُكَنَّى أَبَا نَعَامَةَ:

حَدَا بِأَبِي أُمِّ ٱلرِّئَالِ فَأَجْفَلَتْ نَعَامَتُهُ مِنْ عَارِضٍ مُتَلَهِّبِ

أَرَادَ أَنْ يَقُولَ: حَدَا بِأَبِي نَعَامَةَ فَأَجْفَلَتْ نَعَامَتُهُ أَيْ رُوحُهُ فَلَمْ يُسَاعِدْهُ ٱلْوَزْنُ فَقَالَ: بِأَبِي أُمِّ ٱلرِّئَالِ لِأَنَّ ٱلرِّئَالَ فِرَاخُ ٱلنَّعَامَةِ. وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلشُّعَرَاءَ عِنْدَ نَظْمِ هٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتِ مَا نَحَوْا هٰذِهِ ٱلْمَقَاصِدَ ٱلْبَعِيدَةَ. وَلَا يَخْفَى مَا فِي هٰذَا مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ وَٱلتَّعَسُّفِ

الفصل الثامن

في فنون الانشاء

البحث الاوّل

في المثل وشرفهِ

(عن الميداني)

(راجع صفحة ١٢٦ من علم الادب)

قَالَ ٱلْمُبَرِّدُ: ٱلْمَثَلُ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلْمِثَالِ وَهُوَ قَوْلٌ سَائِرٌ يُشَبَّهُ بِهِ حَالُ ٱلثَّانِي بِٱلْأَوَّلِ وَٱلْأَصْلُ فِيهِ ٱلتَّشْبِيهُ. فَقَوْلُهُمْ: مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذَا ٱنْتَصَبَ مَعْنَاهُ: أَشْبَهَ ٱلصُّورَةَ ٱلْمُنْتَصِبَةَ. وَفُلَانٌ أَمْثَلُ مِنْ فُلَانٍ أَيْ أَشْبَهُ بِمَا لَهُ ٱلْفَضْلُ. وَٱلْمِثَالُ ٱلْقِصَاصُ لِتَشْبِيهِ حَالِ ٱلْمُقْتَصِّ مِنْهُ بِحَالِ ٱلْأَوَّلِ فَحَقِيقَةُ ٱلْمَثَلِ مَا جُعِلَ كَٱلْعَلَمِ لِلتَّشْبِيهِ بِحَالِ ٱلْأَوَّلِ. كَقَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ:

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلًا ... وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا ٱلْأَبَاطِيلُ

فَمَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ عَلَمٌ لِكُلِّ مَا لَا يَصِحُّ مِنَ ٱلْمَوَاعِيدِ. وَقَالَ ٱبْنُ ٱلسِّكِّيتِ: ٱلْمَثَلُ لَفْظٌ يُخَالِفُ لَفْظَ ٱلْمَضْرُوبِ لَهُ وَيُوَافِقُ مَعْنَاهُ مَعْنَى ذٰلِكَ ٱللَّفْظِ. شَبَّهُوهُ بِٱلْمِثَالِ ٱلَّذِي يُعْمَلُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ. وَقَالَ غَيْرُهُمَا: سُمِّيَتِ ٱلْحِكَمُ ٱلْقَائِمُ صِدْقُهَا فِي ٱلْعُقُولِ أَمْثَالًا لِٱنْتِصَابِ صُوَرِهَا

فِي ٱلعُقُولِ مُشْتَقَّةٌ مِنَ ٱلْمُثُولِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلِانْتِصَابُ . وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ ٱلنَّظَّامُ : يَجْتَمِعُ فِي ٱلْمَثَلِ أَرْبَعَةٌ لَا تَجْتَمِعُ فِي غَيْرِهِ مِنَ ٱلْكَلَامِ إِيجَازُ ٱللَّفْظِ وَإِصَابَةُ ٱلْمَعْنَى وَحُسْنُ ٱلتَّشْبِيهِ وَجُودَةُ ٱلْكِنَايَةِ فَهُوَ نِهَايَةُ ٱلْبَلَاغَةِ . قَالَ ٱبْنُ ٱلْمُقَفَّعِ : إِذَا جُعِلَ ٱلْكَلَامُ مَثَلًا كَانَ أَوْضَحَ لِلْمَنْطِقِ وَآنَقَ لِلسَّمْعِ وَأَوْسَعَ لِشُعُوبِ ٱلْحَدِيثِ . قَالَ آخَرُ : إِنَّ ٱلْأَمْثَالَ هِيَ وَشْيُ ٱلْكَلَامِ وَجَوْهَرُ ٱللَّفْظِ وَحُلَى ٱلْمَعْنَى ٱلَّتِي تَخَيَّرَتْهَا ٱلْعَرَبُ وَقَدَّمَتْهَا ٱلْعَجَمُ وَنَطَقَ بِهَا كُلُّ زَمَانٍ وَدَارَتْ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ . فَهِيَ أَبْقَى مِنَ ٱلشِّعْرِ وَأَشْرَفُ مِنَ ٱلْخَطَابَةِ . لَمْ يَسِرْ شَيْءٌ مَسِيرَهَا وَلَا عَمَّ عُمُومَهَا حَتَّى قِيلَ : أَسْيَرُ مِنْ مَثَلٍ . قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

مَا أَنْتَ إِلَّا مَثَلٌ سَائِرٌ   يَعْرِفُهُ ٱلْجَاهِلُ وَٱلْخَابِرُ

هٰذَا وَإِنَّ ٱلْأَمْثَالَ تَتَحَلَّى بِفَرَائِدِهَا صُدُورُ ٱلْمَحَافِلِ وَٱلْمَحَاضِرِ . وَتَتَجَلَّى بِفَوَائِدِهَا قُلُوبُ ٱلْبَادِي وَٱلْحَاضِرِ . وَتُقَيَّدُ أَوَابِدُهَا فِي بُطُونِ ٱلدَّفَاتِرِ وَٱلصَّحَائِفِ . وَتَطِيرُ نَوَاهِضُهَا فِي رُؤُوسِ ٱلشَّوَاهِقِ وَظُهُورِ ٱلتَّنَائِفِ . يَحْتَاجُ ٱلْخَطِيبُ وَٱلشَّاعِرُ إِلَى إِدْمَاجِهَا وَإِدْرَاجِهَا لِٱشْتِمَالِهَا عَلَى أَسَالِيبِ ٱلْحُسْنِ وَٱلْجَمَالِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْحَاجَةَ إِلَى ٱلْأَمْثَالِ شَدِيدَةٌ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْعَرَبَ لَمْ تَضَعِ ٱلْأَمْثَالَ إِلَّا لِأَسْبَابٍ أَوْجَبَتْهَا وَحَوَادِثَ ٱقْتَضَتْهَا . فَصَارَ ٱلْمَثَلُ ٱلْمَضْرُوبُ لِأَمْرٍ مِنَ ٱلْأُمُورِ عِنْدَهُمْ كَٱلْعَلَامَةِ ٱلَّتِي يُعْرَفُ بِهَا ٱلشَّيْءُ وَلَيْسَ فِي كَلَامِهِمْ أَوْجَزُ مِنْهَا وَلَا أَشَدُّ ٱخْتِصَارًا . وَسَبَبُ ذٰلِكَ مَا أَذْكُرُهُ لَكَ لِتَكُونَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ عَلَى يَقِينٍ فَأَقُولُ : قَدْ جَاءَ عَنِ

ٱلْعَرَبِ مِنْ جُمْلَةِ أَمْثَالِهِمْ (إِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ) . وَهُوَ مَثَلٌ يُضْرَبُ لِلْأَمْرِ ٱلظَّاهِرِ ٱلْمَشْهُورِ وَٱلْأَصْلُ فِيهِ كَمَا قَالَ ٱلْمُفَضَّلُ بْنُ مُحَمَّدٍ : أَنَّهُ بَلَغَنَا أَنَّ بَنِي ثَعْلَبَةَ بْنِ سَعْدِ بْنِ ضَبَّةَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ تَرَاهَنُوا عَلَى ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ لَيْلَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِنَ ٱلشَّهْرِ . فَقَالَتْ طَائِفَةٌ : تَطْلُعُ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ يُرَى . وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : يَغِيبُ ٱلْقَمَرُ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ ٱلشَّمْسُ فَتَرَاضَوْا بِرَجُلٍ جَعَلُوهُ حَكَمًا . فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ : إِنَّ قَوْمِي يَبْغُونَ عَلَيَّ . فَقَالَ ٱلْحَكَمُ : إِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ . فَذَهَبَتْ مَثَلًا . وَمِنَ ٱلْمَعْلُومِ أَنَّ قَوْلَ ٱلْقَائِلِ : (إِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ) . إِذَا أُخِذَ عَلَى حَقِيقَتِهِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى ٱلْقَرَائِنِ ٱلْمَنُوطَةِ بِهِ وَٱلْأَسْبَابِ ٱلَّتِي قِيلَ مِنْ أَجْلِهَا لَا يُعْطِي مِنَ ٱلْمَعْنَى مَا قَدْ أَعْطَاهُ ٱلْمَثَلُ . وَذَلِكَ ٱلْمَثَلُ لَهُ مُقَدَّمَاتٌ وَأَسْبَابٌ قَدْ عُرِفَتْ وَصَارَتْ مَشْهُورَةً بَيْنَ ٱلنَّاسِ مَعْلُومَةً عِنْدَهُمْ . وَحَيْثُ كَانَ ٱلْأَمْرُ كَذَلِكَ جَازَ إِيرَادُ هٰذِهِ ٱللَّفَظَاتِ فِي ٱلتَّعْبِيرِ عَنِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ وَلَوْلَا تِلْكَ ٱلْمُقَدَّمَاتُ ٱلْمَعْلُومَةُ وَٱلْأَسْبَابُ ٱلْمَعْرُوفَةُ لَمَا فُهِمَ مِنْ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ : (إِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ) مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ بَلْ مَا كَانَ يُفْهَمُ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ مَعْنًى مُفِيدٌ . لِأَنَّ ٱلْبَغْيَ هُوَ ٱلظُّلْمُ وَٱلْقَمَرُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَظْلِمَ أَحَدًا فَكَانَ يَصِيرُ مَعْنَى ٱلْمَثَلِ : إِنْ كَانَ يَظْلِمُكَ قَوْمُكَ لَا يَظْلِمُكَ ٱلْقَمَرُ . وَهٰذَا كَلَامٌ مُخْتَلُّ ٱلْمَعْنَى لَيْسَ بِمُسْتَقِيمٍ . فَلَمَّا كَانَتِ ٱلْأَمْثَالُ كَٱلرُّمُوزِ وَٱلْإِشَارَاتِ ٱلَّتِي يُلَوَّحُ بِهَا عَلَى ٱلْمَعَانِي

تَلَوِيحًا صَارَتْ مِنْ اَوجَزِ ٱلْكَلَامِ وَاَكْثَرِهِ اخْتِصَارًا . وَمِنْ اَجْلِ ذٰلِكَ قِيلَ فِي حَدِّ ٱلْمَثَلِ : إِنَّهُ ٱلْقَوْلُ ٱلْوَجِيزُ ٱلْمُرْسَلُ لِيُعْمَلَ عَلَيْهِ وَحَيْثُ هِيَ بِهٰذِهِ ٱلْمَثَابَةِ فَلَا يَنْبَغِي ٱلْإِخْلَالُ بِمَعْرِفَتِهَا

البحث الثاني

في آداب المثل وشروطه

(عن الماوردي ومقدمة كليلة ودمنة)

(راجع صفحة ١٣٣ من علم الادب)

وَمِنْ آدَابِ ٱلْحَكِيمِ اَنْ يَجْتَنِبَ اَمْثَالَ ٱلْعَامَّةِ ٱلْغَوْغَاءِ وَيَتَخَصَّصَ بِاَمْثَالِ ٱلْعُلَمَاءِ ٱلْأُدَبَاءِ فَإِنَّ لِكُلِّ صِنْفٍ مِنَ ٱلنَّاسِ اَمْثَالًا تُشَاكِلُهُمْ فَلَا تَجِدُ لِسَاقِطٍ إِلَّا مَثَلًا سَاقِطًا وَتَشْبِيهًا مُسْتَقْبَحًا . . . .

وَلِذٰلِكَ عِلَّتَانِ : إِحْدَاهُمَا اَنَّ ٱلْأَمْثَالَ مِنْ هَوَاجِسِ ٱلْهِمَمِ وَخَطَرَاتِ ٱلنُّفُوسِ وَلَمْ يَكُنْ لِذِي ٱلْهِمَّةِ ٱلسَّاقِطَةِ إِلَّا مَثَلٌ مَرْذُولٌ وَتَشْبِيهٌ مَعْلُولٌ. وَٱلثَّانِيَةُ اَنَّ ٱلْأَمْثَالَ مُسْتَخْرَجَةٌ مِنْ اَحْوَالِ ٱلْمُتَمَثِّلِينَ بِهَا فَبِحَسَبِ مَا هُمْ عَلَيْهِ تَكُونُ اَمْثَالُهُمْ . فَلِهَاتَيْنِ ٱلْعِلَّتَيْنِ وَقَعَ ٱلْفَرْقُ بَيْنَ اَمْثَالِ ٱلْخَاصَّةِ وَاَمْثَالِ ٱلْعَامَّةِ وَرُبَّمَا اَلِفَ ٱلْمُتَخَصِّصُ مَثَلًا عَامِيًّا اَوْ تَشْبِيهًا رَكِيكًا لِكَثْرَةِ مَا يَطْرُقُ سَمْعَهُ مِنْ مُخَالَطَةِ ٱلْأَرَاذِلِ فَيَسْتَرْسِلُ فِي ضَرْبِهِ مَثَلًا فَيَصِيرُ بِهِ مَثَلًا كَٱلَّذِي حُكِيَ عَنِ ٱلْأَصْمَعِيِّ : إِنَّ ٱلرَّشِيدَ سَأَلَهُ يَوْمًا عَنْ اَنْسَابِ بَعْضِ ٱلْعَرَبِ . فَقَالَ : عَلَى ٱلْخَبِيرِ

سَقَطَتْ يا اميرَ المُؤمنينَ . فقالَ لَهُ الفضلُ بنُ الرَّبيعِ : اسقطَ اللهُ جَنْبَيكَ المُخاطِبُ اميرَ المُؤمنينَ بِمِثلِ هذا الخطابِ . فكانَ الفضلُ ابنُ الرَّبيعِ مَعَ قِلَّةِ عِلمِهِ اعلَمَ بِمَا يُستَعمَلُ مِنَ الكَلامِ في مُحاوَرَةِ الخُلَفاءِ مِنَ الأصمعيِّ الَّذي هُوَ واحِدُ عَصرِهِ وقَريعُ دَهرِهِ. ولِلأمثالِ مِنَ الكلامِ مَوقِعٌ في الأسماعِ وتأثيرٌ في القُلوبِ لا يَكادُ الكلامُ المُرسَلُ يَبلُغُ مَبلَغَها ولا يُؤَثِّرُ تأثيرَها لِأنَّ المَعانيَ بِها لائِحَةٌ والشَّواهِدَ بِها واضِحَةٌ والنُّفوسَ بِها وامِقَةٌ والقُلوبَ بِها واثِقَةٌ والعُقولَ لَها مُوافِقَةٌ . ولَها اربَعَةُ شُروطٍ : احدُها صِحَّةُ التَّشبيهِ . والثاني ان يَكونَ العِلمُ بِها سابِقًا والكُلُّ عَلَيها مُوافِقًا . والثالثُ ان يُسرِعَ وُصولُها لِلفَهمِ ويَعجَلَ تَصوُّرُها في الوَهمِ مِن غَيرِ ارتِياءٍ في استِخراجِها ولا كَدٍّ في استِنباطِها . والرابعُ ان تُناسِبَ حالَ السامِعِ لِتَكونَ ابلَغَ تأثيرًا واحسَنَ مَوقِعًا . فإذا اجتَمَعَتْ في الأمثالِ المَضروبَةِ هذهِ الشُّروطُ الأربعَةُ كانتْ زِينَةً لِلكَلامِ وجَلاءً لِلمَعاني وتَدبُّرًا لِلأفهامِ

قالَ صاحِبُ كَليلَةَ ودِمنَةَ : يَجِبُ عَلَى قارِئِ الأمثالِ ان يُديمَ النَّظَرَ فيها مِن غَيرِ ضَجَرٍ ويَلتَمِسَ جَواهِرَ مَعانيها ولا يَظُنَّ انَّ نَتيجَتَها إنَّما هيَ الإخبارُ عَن حيلَةِ بَهيمَتَينِ او مُحاوَرَةِ سَبُعٍ لِثَورٍ فيَنصَرِفَ بِذلِكَ عَنِ الغَرَضِ المَقصودِ ويَكونَ مَثَلُهُ مَثَلَ الصَّيّادِ الَّذي كانَ في بَعضِ الخُلجانِ يَصيدُ فيهِ السَّمَكَ في زَورَقٍ . فرأى ذاتَ يَومٍ في عَميقِ الماءِ صَدَفَةً تَتَلألأُ حُسنًا فتَوَهَّمَها جَوهَرًا لَهُ قيمَةٌ . وكانَ قَدْ ألقَى

شَبَكَتَهُ فِي ٱلْبَحْرِ فَٱشْتَمَلَتْ عَلَى سَمَكَةٍ كَانَتْ قُوتَ يَوْمِهِ . فَخَلَّاهَا وَقَذَفَ نَفْسَهُ فِي ٱلْمَاءِ لِيَأْخُذَ ٱلصَّدَفَةَ . فَلَمَّا أَخْرَجَهَا وَجَدَهَا فَارِغَةً لَا شَيْءَ فِيهَا مِمَّا ظَنَّ فَنَدِمَ عَلَى تَرْكِ مَا فِي يَدِهِ لِلطَّمَعِ وَتَأَسَّفَ عَلَى مَا فَاتَهُ . فَلَمَّا كَانَ ٱلْيَوْمُ ٱلثَّانِي تَنَحَّى عَنْ ذٰلِكَ ٱلْمَكَانِ وَأَلْقَى شَبَكَتَهُ فَأَصَابَ حُوتًا صَغِيرًا وَرَأَى أَيْضًا صَدَفَةً سَنِيَّةً فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا وَسَاءَ ظَنُّهُ بِهَا فَتَرَكَهَا . وَٱجْتَازَ بِهَا بَعْضُ ٱلصَّيَّادِينَ فَأَخَذَهَا فَوَجَدَ فِيهَا دُرَّةً تُسَاوِي أَمْوَالًا . . . وَكَذٰلِكَ ٱلْجُهَّالُ عَلَى إِغْفَالِ أَمْرِ ٱلتَّفَكُّرِ فِي ٱلْأَمْثَالِ وَٱلْاغْتِرَارِ بِهَا وَتَرْكِ ٱلْوُقُوفِ عَلَى ٱلْمُرَادِ مَعَانِيهَا وَٱلْأَخْذِ بِظَاهِرِهَا دُونَ ٱلْأَخْذِ بِبَاطِنِهَا . وَمَنْ صَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَى ٱلنَّظَرِ فِي أَبْوَابِ ٱلْهَزْلِ مِنْهَا فَهُوَ كَرَجُلٍ أَصَابَ أَرْضًا طَيِّبَةً حُرَّةً وَحَبًّا صَحِيحًا فَزَرَعَهَا وَسَقَاهَا حَتَّى إِذَا قَرُبَ خَيْرُهَا تَشَاغَلَ عَنْهَا بِجَمْعِ مَا فِيهَا مِنَ ٱلزَّهْرِ وَقَطْعِ ٱلشَّوْكِ فَأَهْلَكَ بِتَشَاغُلِهِ مَا كَانَ أَحْسَنَ فَائِدَةً وَأَجْمَلَ عَائِدَةً . وَيَنْبَغِي لِلنَّاظِرِ فِي ٱلْأَمْثَالِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهَا تَنْقَسِمُ إِلَى أَرْبَعَةِ أَغْرَاضٍ : أَحَدُهَا مَا قُصِدَ فِيهِ إِلَى وَضْعِهَا عَلَى أَلْسِنَةِ ٱلْبَهَائِمِ غَيْرِ ٱلنَّاطِقَةِ مِنْ مُسَارَعَةِ أَهْلِ ٱلْهَزْلِ مِنَ ٱلشُّبَّانِ إِلَى قِرَاءَتِهَا فَتُسْتَمَالُ بِهِ قُلُوبُهُمْ لِأَنَّ هٰذَا هُوَ ٱلْغَرَضُ بِٱلنَّوَادِرِ مِنْ حِيَلِ ٱلْحَيَوَانَاتِ . وَٱلثَّانِي إِظْهَارُ خَيَالَاتِ ٱلْحَيَوَانَاتِ بِصُنُوفِ ٱلْأَصْبَاغِ وَٱلْأَلْوَانِ لِيَكُونَ أُنْسًا لِقُلُوبِ ٱلْمُلُوكِ وَيَكُونَ حِرْصُهُمْ عَلَيْهَا أَشَدَّ لِلنُّزْهَةِ فِي تِلْكَ ٱلصُّوَرِ . وَٱلثَّالِثُ أَنْ يَكُونَ عَلَى هٰذِهِ ٱلصِّفَةِ فَيَتَّخِذَهَا ٱلْمُلُوكُ وَٱلسُّوقَةُ فَيَكْثُرَ بِذٰلِكَ ٱنْتِسَاخُهَا وَلَا يَبْطُلَ فَيَخْلَقَ عَلَى مُرُورِ ٱلْأَيَّامِ . وَلِيَنْتَفِعَ

بِذٰلِكَ ٱلْمُصَوِّرُ وَٱلنَّاسِخُ أَبَدًا . وَٱلْغَرَضُ ٱلرَّابِعُ وَهُوَ ٱلْأَقْصَى مَخْصُوصٌ بِٱلْفَيْلَسُوفِ خَاصَّةً لِتَكُونَ ٱلْأَمْثَالُ رِيَاضَةً لِعَقْلِهِمْ إِذْ فِيهَا يَجِدُونَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ سِيَاسَةِ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَخَاصَّتِهِ وَجَمِيعِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ وَأُولَاهُ وَيَحُضُّهُ عَلَى حُسْنِ طَاعَتِهِ لِلْمُلُوكِ وَيُجَنِّبُهُ مَا تَكُونُ مُجَانَبَتُهُ خَيْرًا لَهُ *

البحث الثالث

في آداب المحادثة والرواية

(عن مروج الذهب للمسعودي)

(راجع صفحة ١٦٩ من علم الادب)

قَدْ قَالَتِ ٱلْحُكَمَاءُ : لَا تُحْسِنُ ٱلْمُحَادَثَةَ إِلَّا بِحُسْنِ ٱلْفَهْمِ . وَقَالُوا : تَعَلَّمْ حُسْنَ ٱلِاسْتِمَاعِ كَمَا تَتَعَلَّمُ حُسْنَ ٱلْكَلَامِ . وَحُسْنُ ٱلِاسْتِمَاعِ هُوَ أَشْهَى إِلَى ٱلْمُحَدِّثِ حَتَّى يَنْقَضِيَ حَدِيثُهُ . وَمِنْ أَدَب

---

* وقال بعضهم في وصف كليلة ودمنة :

اذا افتخر الرجال بفضل علم ... ومدّت فيهِ السنة طويلهْ
فعاخر ما استطعت بما حوته ... بطون كتاب دمنةَ مع كليلهْ
كتاب يغرق العلماء فيهِ ... وألباب الورى منهُ كليلهْ
وكم فيهِ عجائب كامنات ... على دنيا وآخرةٍ دليلهْ
وكم حكم على افواه طير ... وآداب وامثال مقولهْ
يراها الجاهل المأفون هزلًا ... وحسكها لعالمها فضيلهْ

الحديث وموجباته ان لا يقتضب اقتضابا ولا يهجم عليه وان يتوصل الى اجرائه بما يشاكله . وان ينتسب له ما يحسن ان يجري في غرضه حتى يكون بعض المفاوضة متعلقا ببعض على حسب ما قالوا في المثل : ان الحديث ذو شجون يريدون بذلك تشعبه وتفرعه عن اصل واحد الى وجوه من المعاني كثيرة اذ كان العيش كله في الجليس الممتع . وقال رجل : اني ما امل الحديث . فقال السامع : انما يمل العتيق لا الحديث . وقد اكثرت الشعراء من الاغراق في هذا المعنى ومن ذلك قول علي بن العباس الرومي :

وسئمت كل مآربي ... فكان اطيبها غثيث
الا الحديث فانه ... مثل اسمه ابدا حديث

واحسن ما قيل في هذا المعنى قول ابراهيم بن العباس :

وضجرت الا من لقاء محدث ... حسن الحديث يزيدني تعليما

وقد ذكر بعض المحدثين من اهل الادب ان من الادب عدم اطالة الحديث من النديم وان احلى لحديثه واحسن لموقعه ان يجتنب منه الاحاديث الطوال ذات المعاني المغلقة والالفاظ الحشوية التي افتن باقتصاصها سمار المجالس وتتعلق بها النفوس وتحتسى على اواخرها الكؤوس . فان ذلك بمجالس القصاص اشبه منه بمجالس الخواص . وقد ذكر هذا المعنى فاجاد فيه عبد الله بن المعتز ووصف ذلك من اوصاف الشراب على المعاقرة فقال :

بَيْنَ اَقْدَاحِهِمْ حَدِيثٌ قَصِيرٌ هُوَ سِحْرٌ وَمَا سِوَاهُ حَرَامُ

وَهٰذِهِ طَرِيقَةُ مَنْ ذَهَبَ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى اِلَى ٱسْتِمَاعِ ٱلْمُلَحِ

البحث الرابع

في حقيقة التاريخ وموضوعه

(عن كشف الظنون للحاج خلفا ومروج الذهب للمسعودي)

(راجع صفحة ١٩٤ من علم الادب)

اَلتَّأْرِيخُ فِي ٱللُّغَةِ تَعْرِيفُ ٱلْوَقْتِ مُطْلَقًا . وَيُقَالُ : اَرَّخْتُ ٱلْكِتَابَ تَأْرِيخًا وَوَرَّخْتُهُ تَوْرِيخًا كَمَا فِي ٱلصِّحَاحِ وَهُوَ مُعَرَّبٌ. وَعُرْفًا هُوَ تَعْيِينُ وَقْتٍ لِيُنْسَبَ اِلَيْهِ زَمَانٌ يَأْتِي عَلَيْهِ اَوْ مُطْلَقًا يَعْنِي سَوَاءٌ كَانَ مَاضِيًا اَوْ مُسْتَقْبَلًا . وَقِيلَ : تَعْرِيفُ ٱلْوَقْتِ بِإِسْنَادِهِ اِلَى اَوَّلِ حُدُوثِ اَمْرٍ شَائِعٍ مِنْ ظُهُورِ مِلَّةٍ اَوْ دَوْلَةٍ اَوْ اَمْرٍ هَائِلٍ مِنَ ٱلْآثَارِ ٱلْعُلْوِيَّةِ وَٱلْحَوَادِثِ ٱلسُّفْلِيَّةِ مِمَّا يَنْدُرُ وُقُوعُهُ جُعِلَ ذٰلِكَ مَبْدَأً لِمَعْرِفَةِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اَوْقَاتِ ٱلْحَوَادِثِ وَٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي يَجِبُ ضَبْطُ اَوْقَاتِهَا فِي مُسْتَأْنَفِ ٱلسِّنِينَ . وَقِيلَ : عَدَدُ ٱلْأَيَّامِ وَٱللَّيَالِي بِٱلنَّظَرِ اِلَى مَا مَضَى مِنَ ٱلسَّنَةِ وَٱلشُّهُورِ اِلَى مَا بَقِيَ . وَعِلْمُ ٱلتَّأْرِيخِ هُوَ مَعْرِفَةُ اَحْوَالِ ٱلطَّوَائِفِ وَبُلْدَانِهِمْ وَرُسُومِهِمْ وَصَنَائِعِ اَشْخَاصِهِمْ وَاَنْسَابِهِمْ وَوَفَيَاتِهِمْ اِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ . وَمَوْضُوعُهُ اَحْوَالُ ٱلْأَشْخَاصِ ٱلْمَاضِيَةِ مِنَ ٱلْأَنْبِيَاءِ وَٱلْأَوْلِيَاءِ وَٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْحُكَمَاءِ وَٱلشُّعَرَاءِ وَٱلْمُلُوكِ وَغَيْرِهِمْ . وَٱلْغَرَضُ مِنْهُ ٱلْوُقُوفُ عَلَى ٱلْأَحْوَالِ ٱلْمَاضِيَةِ . وَفَائِدَتُهُ ٱلْعِبْرَةُ بِتِلْكَ ٱلْأَحْوَالِ

الماضية والتنصح بها وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ليحترز عن أمثال ما نقل من المضار ويستجلب نظائرها من المنافع . وهذا العلم كما قيل عمر آخر للناظرين وانتفاع (للمطالع) في مصره بمنافع تحصل للمسافرين

ولولا تقييد العلماء خواطرهم على الدهر لبطل أول العلم وضاع آخره إذ كان كل علم من الأخبار يستنبط والفقه منها يستثار والفصاحة منها تستفاد وأصحاب القياس منها يبنون . وأهل المقالات بها يحتجون ومعرفة الناس منها تؤخذ وأمثال الحكماء فيها توجد ومكارم الأخلاق ومعاليها منها تقتبس . وآداب سياسة الملك والحرب منها تلتمس وكل غريبة منها تعرف وكل أعجوبة منها تستطرف . وهو علم يستمتع بسماعه العالم والجاهل ويستعذب موقعه الأحمق والعاقل ويأنس بمكانه وينزع إليه الخاصي والعامي ويميل إلى روايته العربي والعجمي . وبعد فإنه يوصل به كل كلام ويتزين به في كل مقام ويحتمل به في كل مشهد ويحتاج إليه في كل محفل . ففضيلة علم الأخبار بينة على كل علم وشرف منزلته صحيحة في كل فهم ولا يصبر على علمه ويتيقن ما فيه وإيراده وإصداره إلا إنسان قد تجرد للعلم وفهم معناه وذاق ثمرته واستشعر من عزه ونال من سروره

البحث الخامس

في شرف التاريخ

(عن ابن خلدون)

(راجع صفحة ١٩٤ من علم الادب)

امَّا بَعْدُ فَإِنَّ فَنَّ ٱلتَّأْرِيخِ مِنَ ٱلْفُنُونِ ٱلَّتِي تَتَـداوَلُهَا ٱلأُمَمُ
وَٱلاجْيَالُ وَتُشَدُّ إِلَيهَا ٱلرَّكَائِبُ وَٱلرِّحَالُ وَتَسْمُو إِلَى مَعْرِفَتِهَا ٱلسُّوقَةُ
وَٱلاغْفَالُ . وَتَتَنَافَسُ فِيهَا ٱلْمُلُوكُ وَٱلاقْيَالُ . وَتَتَسَاوَى فِي فَهْمِهِ
ٱلْعُلَمَاءُ وَٱلْجُهَّالُ . إِذْ هُوَ فِي ظَاهِرِهِ لَا يَزِيدُ عَلَى اخْبَارٍ عَنِ ٱلأَيَّامِ
وَٱلدُّوَلِ . وَٱلسَّوَابِقِ مِنَ ٱلْقُرُونِ ٱلأُوَلِ . تَنْمُو فِيهَا ٱلاقْوَالُ وَتُضْرَبُ
فِيهَا ٱلامْثَالُ . وَتُطْرَفُ بِهَا ٱلانْدِيَةُ إِذَا غَصَّهَا ٱلاحْتِفَالُ . وَتُؤَدِّي لَنَا
شَأْنَ ٱلْخَلِيقَةِ كَيْفَ تَقَلَّبَتْ بِهَا ٱلاحْوَالُ . وَٱتَّسَعَ لِلدُّوَلِ فِيهَا ٱلنِّطَاقُ
وَٱلْمَجَالُ. وَعَمَرُوا ٱلارْضَ حَتَّى نَادَى بِهِمِ ٱلِارْتِحَالُ. وَحَانَ مِنْهُمُ ٱلزَّوَالُ .
وَفِي بَاطِنِهِ نَظَرٌ وَتَحْقِيقٌ . وَتَعْلِيلٌ لِلْكَائِنَاتِ وَمَبَادِئِهَا دَقِيقٌ . وَعِلْمٌ
بِكَيْفِيَّاتِ ٱلْوَقَائِعِ وَاسْبَابِهَا عَمِيقٌ . فَهُوَ لِذٰلِكَ اصِيلٌ فِي ٱلْحِكْمَةِ
عَرِيقٌ . وَجَدِيرٌ بِأَنْ يُعَدَّ فِي عُلُومِهَا وَخَلِيقٌ . وَإِنَّ فُحُولَ ٱلْمُؤَرِّخِينَ
فِي ٱلاسْلَامِ قَدِ ٱسْتَوْعَبُوا اخْبَارَ ٱلأَيَّامِ وَجَمَعُوهَا وَسَطَّرُوهَا فِي صَفَحَاتِ
ٱلدَّفَاتِرِ وَاوْدَعُوهَا . وَخَلَطَهَا ٱلْمُتَطَفِّلُونَ بِدَسَائِسَ مِنَ ٱلْبَاطِلِ وَهِمُوا
فِيهَا وَٱبْتَدَعُوهَا . وَزَخَارِفَ مِنَ ٱلرِّوَايَاتِ ٱلْمُضْعَفَةِ لَفَّقُوهَا وَوَضَعُوهَا .
وَٱقْتَفَى تِلْكَ ٱلآثَارَ ٱلْكَثِيرُ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ وَٱتَّبَعُوهَا . وَادَّوْهَا إِلَيْنَا

كَمَا سَمِعُوهَا . وَلَمْ يُلَاحِظُوا أَسْبَابَ ٱلْوَقَائِعِ وَٱلْأَحْوَالِ وَلَمْ يُرَاعُوهَا . وَلَا رَفَضُوا تُرَّهَاتِ ٱلْأَحَادِيثِ وَلَا دَفَعُوهَا . فَٱلتَّحْقِيقُ قَلِيلٌ . وَطَرْفُ ٱلتَّنْقِيحِ فِي ٱلْغَالِبِ كَلِيلٌ . وَٱلْغَلَطُ وَٱلْوَهْمُ نَسِيبٌ لِلْأَخْبَارِ وَخَلِيلٌ . وَٱلتَّقْلِيدُ عَرِيقٌ فِي ٱلْآدَمِيِّينَ وَسَلِيلٌ . وَٱلتَّطَفُّلُ عَلَى ٱلْفُنُونِ عَرِيضٌ طَوِيلٌ . وَمَرْعَى ٱلْجَهْلِ بَيْنَ ٱلْأَنَامِ وَخِيمٌ وَبِيلٌ . وَٱلْحَقُّ لَا يُقَاوَمُ سُلْطَانُهُ . وَٱلْبَاطِلُ يُقْذَفُ بِشِهَابِ ٱلنَّظَرِ شَيْطَانُهُ . وَٱلنَّاقِلُ إِنَّمَا هُوَ يُمْلِي وَيَنْقُلُ . وَٱلْبَصِيرَةُ تَنْقُدُ ٱلصَّحِيحَ إِذَا تَمْقُلُ . وَٱلْعِلْمُ يَجْلُو لَهَا صَفَحَاتِ ٱلصَّوَابِ وَيَصْقُلُ . هٰذَا وَقَدْ دَوَّنَ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْأَخْبَارِ وَأَكْثَرُوا . وَجَمَعُوا تَوَارِيخَ ٱلْأُمَمِ وَٱلدُّوَلِ فِي ٱلْعَالَمِ وَسَطَّرُوا . وَٱلَّذِينَ ذَهَبُوا بِفَضْلِ ٱلشُّهْرَةِ وَٱلْأَمَانَةِ ٱلْمُعْتَبَرَةِ . وَٱسْتَفْرَغُوا دَوَاوِينَ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي صُحُفِهِمْ ٱلْمُتَأَخِّرَةِ . هُمْ قَلِيلُونَ لَا يَكَادُونَ يُجَاوِزُونَ عَدَدَ ٱلْأَنَامِلِ . وَلَا حَرَكَاتِ ٱلْعَوَامِلِ . مِثْلُ ٱبْنِ إِسْحٰقَ وَٱلطَّبَرِيِّ وَٱبْنِ ٱلْكَلْبِيِّ وَمُحَمَّدِ بْنِ عُمَرَ ٱلْوَاقِدِيِّ وَسَيْفِ ٱبْنِ عُمَرَ ٱلْأَسَدِيِّ وَٱلْمَسْعُودِيِّ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْمَشَاهِيرِ ٱلْمُتَمَيِّزِينَ عَنِ ٱلْجَمَاهِيرِ . وَإِنْ كَانَ فِي كُتُبِ ٱلْمَسْعُودِيِّ وَٱلْوَاقِدِيِّ مِنَ ٱلْمَطْعَنِ وَٱلْمَغْمَزِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ ٱلْأَثْبَاتِ . وَمَشْهُورٌ بَيْنَ ٱلْحَفَظَةِ ٱلثِّقَاتِ . إِلَّا أَنَّ ٱلْكَافَّةَ ٱخْتَصَّتْهُمْ بِقَبُولِ أَخْبَارِهِمْ . وَٱقْتِفَاءِ سُنَنِهِمْ فِي ٱلتَّصْنِيفِ وَٱتِّبَاعِ آثَارِهِمْ . وَٱلنَّاقِدُ ٱلْبَصِيرُ قِسْطَاسُ نَفْسِهِ فِي تَزْيِيفِهِمْ فِيمَا يَنْقُلُونَ أَوِ ٱعْتِبَارِهِمْ . فَلِلْعُمْرَانِ طَبَائِعُ فِي أَحْوَالِهِ تَرْجِعُ إِلَيْهَا ٱلْأَخْبَارُ . وَتُحْمَلُ عَلَيْهَا ٱلرِّوَايَاتُ وَٱلْآثَارُ . ثُمَّ إِنَّ أَكْثَرَ ٱلتَّوَارِيخِ لِهٰؤُلَاءِ عَامَّةُ ٱلْمَنَاهِجِ وَٱلْمَسَالِكِ . لِعُمُومِ ٱلدَّوْلَتَيْنِ صَدْرَ ٱلْإِسْلَامِ فِي

ٱلآفَاقِ وَٱلْمَمَالِكِ وَتَنَاوُلِهَا ٱلْبَعِيدَ مِنَ ٱلْغَايَاتِ فِي ٱلْمَآخِذِ وَٱلْمَتَارِكِ وَمِنْ هٰؤُلَاءِ مَنِ ٱسْتَوْعَبَ مَا قَبْلَ ٱلْمِلَّةِ مِنَ ٱلدُّوَلِ وَٱلْأُمَمِ. وَٱلْأَمْرِ ٱلْعَمَمِ. كَٱلْمَسْعُودِيِّ وَمَنْ نَحَا مَنْحَاهُ. وَجَاءَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ عَدَلَ عَنِ ٱلْإِطْلَاقِ إِلَى ٱلتَّقْيِيدِ. وَوَقَفَ فِي ٱلْعُمُومِ وَٱلْإِحَاطَةِ عَنِ ٱلشَّأْوِ ٱلْبَعِيدِ فَقَيَّدَ شَوَارِدَ عَصْرِهِ. وَٱسْتَوْعَبَ أَخْبَارَ أُفُقِهِ وَقُطْرِهِ. وَٱقْتَصَرَ عَلَى أَحَادِيثِ دَوْلَتِهِ وَمِصْرِهِ. كَمَا فَعَلَ أَبُو حَيَّانَ مُؤَرِّخُ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلدَّوْلَةِ ٱلْأَمَوِيَّةِ بِهَا. وَٱبْنُ ٱلرَّقِيقِ مُؤَرِّخُ أَفْرِيقِيَّةَ وَٱلدَّوْلَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ بِٱلْقَيْرَوَانِ. ثُمَّ لَمْ يَأْتِ مِنْ بَعْدِ هٰؤُلَاءِ إِلَّا مُقَلِّدٌ. وَبَلِيدُ ٱلطَّبْعِ وَٱلْعَقْلِ أَوْ مُتَبَلِّدٌ. يَنْسِجُ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْمِنْوَالِ. وَيَحْتَذِي مِنْهُ بِٱلْمِثَالِ. وَيَذْهَلُ عَمَّا أَحَالَتْهُ ٱلْأَيَّامُ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ. وَٱسْتَبْدَلَتْ بِهِ مِنْ عَوَائِدِ ٱلْأُمَمِ وَٱلْأَجْيَالِ. فَيَجْلُبُونَ ٱلْأَخْبَارَ عَنِ ٱلدُّوَلِ. وَحِكَايَاتِ ٱلْوَقَائِعِ فِي ٱلْعُصُورِ ٱلْأُوَلِ. صُوَرًا قَدْ تَجَرَّدَتْ عَنْ مَوَادِّهَا. وَصِفَاحًا ٱنْتُضِيَتْ مِنْ أَغْمَادِهَا وَمَعَارِفَ تُسْتَنْكَرُ لِلْجَهْلِ بِطَارِفِهَا وَتِلَادِهَا. إِنَّمَا هِيَ حَوَادِثُ لَمْ تُعْلَمْ أُصُولُهَا. وَأَنْوَاعٌ لَمْ تُعْتَبَرْ أَجْنَاسُهَا وَلَا تَحَقَّقَتْ فُصُولُهَا. يُكَرِّرُونَ فِي مَوْضُوعَاتِهَا ٱلْأَخْبَارَ ٱلْمُتَدَاوَلَةَ بِأَعْيَانِهَا. ٱتِّبَاعًا لِمَنْ عُنِيَ مِنَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ بِشَأْنِهَا. وَيُغْفِلُونَ أَمْرَ ٱلْأَجْيَالِ ٱلنَّاشِئَةِ فِي دِيوَانِهَا. بِمَا أَعْوَزَ عَلَيْهِمْ مِنْ تَرْجَمَانِهَا فَتَسْتَعْجِمُ صُحُفُهُمْ عَنْ بَيَانِهَا. ثُمَّ إِذَا تَعَرَّضُوا لِذِكْرِ ٱلدَّوْلَةِ نَسَقُوا أَخْبَارَهَا نَسَقًا. مُحَافِظِينَ عَلَى نَقْلِهَا وَهْمًا أَوْ صِدْقًا. لَا يَتَعَرَّضُونَ لِبِدَايَتِهَا. وَلَا يَذْكُرُونَ ٱلسَّبَبَ ٱلَّذِي رَفَعَ مِنْ رَايَتِهَا وَأَظْهَرَ مِنْ آيَتِهَا. وَلَا عِلَّةَ ٱلْوُقُوفِ عِنْدَ غَايَتِهَا. فَيَبْقَى ٱلنَّاظِرُ

مُتَطَلِّعًا بَعْدُ إِلَى ٱفْتِقَادِ أَحْوَالِ مَبَادِيءِ ٱلدُّوَلِ وَمَرَاتِبِهَا . مُفَتِّشًا عَنْ أَسْبَابِ تَزَاحُمِهَا أَوْ تَعَاقُبِهَا . بَاحِثًا عَنِ ٱلْمُقْنِعِ فِي تَبَايُنِهَا أَوْ فِي تَنَاسُبِهَا . ثُمَّ جَاءَ آخَرُونَ بِإِفْرَاطِ ٱلِٱخْتِصَارِ . وَذَهَبُوا إِلَى ٱلِٱكْتِفَاءِ بِأَسْمَاءِ ٱلْمُلُوكِ وَٱلِٱقْتِصَارِ . مَقْطُوعَةً عَنِ ٱلْأَنْسَابِ وَٱلْأَخْبَارِ . مَوْضُوعَةً عَلَيْهَا أَعْدَادُ أَيَّامِهِمْ بِحُرُوفِ ٱلْغُبَارِ . كَمَا فَعَلَهُ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي مِيزَانِ ٱلْعَمَلِ وَمَنِ ٱقْتَفَى هٰذَا ٱلْأَثَرَ مِنَ ٱلْهَمَلِ . وَلَيْسَ يُعْتَبَرُ لِهٰؤُلَاءِ مَقَالٌ . وَلَا يُعَدُّ لَهُمْ ثُبُوتٌ وَلَا ٱنْتِقَالٌ . لِمَا أَذْهَبُوا مِنَ ٱلْفَوَائِدِ . وَأَخَلُّوا بِٱلْمَذَاهِبِ ٱلْمَعْرُوفَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَٱلْعَوَائِدِ

وَقَدْ زَلَّتْ أَقْدَامُ كَثِيرٍ مِنَ ٱلْأَثْبَاتِ وَٱلْمُؤَرِّخِينَ ٱلْحُفَّاظِ فِي مِثْلِ هٰذِهِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱلْآرَاءِ . وَعَلِقَتْ بِأَفْكَارِهِمْ وَنَقَلَهَا عَنْهُمُ ٱلْكَافَّةُ مِنْ ضَعَفَةِ ٱلنَّظَرِ وَٱلْغَفْلَةِ عَنِ ٱلْقِيَاسِ وَتَلَقَّوْهَا هُمْ أَيْضًا كَذٰلِكَ مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ وَلَا رَوِيَّةٍ وَٱنْدَرَجَتْ فِي مَحْفُوظَاتِهِمْ حَتَّى صَارَ فَنُّ ٱلتَّارِيخِ وَاهِيًا مُخْتَلِطًا . وَنَاظِرُهُ مُرْتَبِكًا وَعُدَّ مِنْ مَنَاحِي ٱلْعَامَّةِ . فَإِذًا يَحْتَاجُ صَاحِبُ هٰذَا ٱلْفَنِّ إِلَى ٱلْعِلْمِ بِقَوَاعِدِ ٱلسِّيَاسَةِ وَطَبَائِعِ ٱلْمَوْجُودَاتِ وَٱخْتِلَافِ ٱلْأُمَمِ وَٱلْبِقَاعِ وَٱلْأَعْصَارِ فِي ٱلسِّيَرِ وَٱلْأَخْلَاقِ وَٱلْعَوَائِدِ وَٱلنِّحَلِ وَٱلْمَذَاهِبِ وَسَائِرِ ٱلْأَحْوَالِ وَٱلْإِحَاطَةِ بِٱلْحَاضِرِ مِنْ ذٰلِكَ . وَمُمَاثَلَةِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْغَائِبِ مِنَ ٱلْوِفَاقِ أَوْ بَوْنِ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ ٱلْخِلَافِ وَتَعْلِيلِ ٱلْمُتَّفِقِ مِنْهَا وَٱلْمُخْتَلِفِ . وَٱلْقِيَامِ عَلَى أُصُولِ ٱلدُّوَلِ وَٱلْمِلَلِ وَمَبَادِيءِ ظُهُورِهَا وَأَسْبَابِ حُدُوثِهَا وَدَوَاعِي كَوْنِهَا . وَأَحْوَالِ ٱلْقَائِمِينَ بِهَا وَأَخْبَارِهِمْ حَتَّى يَكُونَ مُسْتَوْعِبًا لِأَسْبَابِ كُلِّ

حَادِثٍ وَاقِفًا عَلَى أُصُولِ كُلِّ خَبَرٍ وَحِينَئِذٍ يَعْرِضُ ٱلْخَبَرَ ٱلْمَنْقُولَ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ وَٱلْأُصُولِ . فَإِنْ وَافَقَهَا وَجَرَى عَلَى مُقْتَضَاهَا كَانَ صَحِيحًا وَإِلَّا زَيَّفَهُ وَٱسْتَغْنَى عَنْهُ . وَمَا ٱسْتَكْبَرَ ٱلْقُدَمَاءُ عِلْمَ ٱلتَّارِيخِ إِلَّا لِذٰلِكَ حَتَّى ٱنْتَحَلَهُ ٱلطَّبَرِيُّ وَٱلْبُخَارِيُّ وَٱبْنُ إِسْحَاقَ مِنْ قَبْلِهِمَا وَأَمْثَالُهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْأُمَّةِ . وَقَدْ ذَهَلَ ٱلْكَثِيرُ عَنْ هٰذَا ٱلسِّرِّ فِيهِ حَتَّى صَارَ ٱنْتِحَالُهُ مَجْهَلَةً وَٱسْتَخَفَّ ٱلْعَوَامُّ وَمَنْ لَا رُسُوخَ لَهُ فِي ٱلْمَعَارِفِ مُطَالَعَتَهُ وَحَمْلَهُ وَٱلْخَوْضَ فِيهِ وَٱلتَّطَفُّلَ عَلَيْهِ فَٱخْتَلَطَ ٱلْمَرْعِيُّ بِٱلْهَمَلِ وَٱللُّبَابُ بِٱلْقِشْرِ وَٱلصَّادِقُ بِٱلْكَاذِبِ وَإِنَّ لِلّٰهِ عَاقِبَةَ ٱلْأُمُورِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ فَنَّ ٱلتَّارِيخِ فَنٌّ عَزِيزُ ٱلْمَذْهَبِ جَمُّ ٱلْفَائِدَةِ شَرِيفُ ٱلْغَايَةِ إِذْ هُوَ يُوقِفُنَا عَلَى أَحْوَالِ ٱلْمَاضِينَ مِنَ ٱلْأُمَمِ فِي أَخْلَاقِهِمْ وَٱلْأَنْبِيَاءِ فِي سِيَرِهِمْ وَٱلْمُلُوكِ فِي دُوَلِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ حَتَّى تَتِمَّ فَائِدَةُ ٱلْإِقْتِدَاءِ فِي ذٰلِكَ لِمَنْ يَرُومُهُ فِي أَحْوَالِ ٱلدِّينِ وَٱلدُّنْيَا فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى مَآخِذَ مُتَعَدِّدَةٍ وَمَعَارِفَ مُتَنَوِّعَةٍ وَحُسْنِ نَظَرٍ وَتَثَبُّتٍ يُفْضِيَانِ بِصَاحِبِهِمَا إِلَى ٱلْحَقِّ وَيُنَكِّبَانِ بِهِ عَنِ ٱلْمَزَلَّاتِ وَٱلْمَغَالِطِ . لِأَنَّ ٱلْأَخْبَارَ إِذَا ٱعْتُمِدَ فِيهَا مُجَرَّدُ ٱلنَّقْلِ وَلَمْ تُحَكَّمْ أُصُولُ ٱلْعَادَةِ وَقَوَاعِدُ ٱلسِّيَاسَةِ وَطَبِيعَةُ ٱلْعُمْرَانِ وَٱلْأَحْوَالُ فِي ٱلْإِجْتِمَاعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ وَلَا قِيسَ ٱلْغَائِبُ مِنْهَا بِٱلشَّاهِدِ وَٱلْحَاضِرُ بِٱلذَّاهِبِ فَرُبَّمَا لَمْ يُؤْمَنْ فِيهَا مِنَ ٱلْعُثُورِ وَمَزَلَّةِ ٱلْقَدَمِ وَٱلْحَيْدِ عَنْ جَادَّةِ ٱلصِّدْقِ . وَكَثِيرًا مَا وَقَعَ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَٱلْمُفَسِّرِينَ وَأَئِمَّةِ ٱلنَّقْلِ ٱلْمَغَالِطُ فِي حِكَايَاتِ ٱلْوَقَائِعِ لِٱعْتِمَادِهِمْ فِيهَا عَلَى مُجَرَّدِ ٱلنَّقْلِ غَثًّا أَوْ سَمِينًا . لَمْ يَعْرِضُوهَا عَلَى أُصُولِهَا

وَقَاسُوهَا بِأَشْبَاهِهَا وَلَا سَبَرُوهَا بِمِعْيَارِ ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْوُقُوفِ عَلَى طَبَائِعِ ٱلْكَائِنَاتِ وَتَحْكِيمِ ٱلنَّظَرِ وَٱلْبَصِيرَةِ فِي ٱلْأَخْبَارِ فَضَلُّوا عَنِ ٱلْحَقِّ وَتَاهُوا فِي بَيْدَاءِ ٱلْوَهْمِ وَٱلْغَلَطِ سِيَّمَا فِي إِحْصَاءِ ٱلْأَعْدَادِ وَٱلْأَمْوَالِ وَٱلْعَسَاكِرِ إِذَا عَرَضَتْ فِي ٱلْحِكَايَاتِ إِذْ هِيَ مَظِنَّةُ ٱلْكَذِبِ وَمَطِيَّةُ ٱلْهَذَرِ وَلَا بُدَّ مِنْ رَدِّهَا إِلَى ٱلْأُصُولِ وَعَرْضِهَا عَلَى ٱلْقَوَاعِدِ

البحث السادس

في شروط التاريخ

(عن الفخري)

(راجع صفحة ١٩٧ من علم الادب)

وَإِنْ بَاشَرْتَ بِكِتَابَةِ تَارِيخٍ عَامٍّ فَتَكَلَّمْ عَلَى دَوْلَةٍ دَوْلَةٍ بِمَجْمُوعِ مَا حَصَّلَ ذِهْنُكَ مِنَ ٱلْهَيْئَةِ ٱلِٱجْتِمَاعِيَّةِ ٱلَّتِي أَفَادَتْكَهَا مُطَالَعَةُ ٱلسِّيَرِ وَٱلتَّوَارِيخِ وَٱذْكُرْ كَيْفَ كَانَ ٱبْتِدَاؤُهَا وَٱنْتِهَاؤُهَا وَطَرَفًا مُمْتِعًا مِنْ مَحَاسِنِ مُلُوكِهَا وَأَخْبَارِ سَلَاطِينِهَا . ثُمَّ إِذَا ذَكَرْتَ دَوْلَةً فَدَوْلَةً تَكَلَّمْتَ عَلَى كُلِّيَّاتِ أُمُورِهَا ثُمَّ ذَكَرْتَ وَاحِدًا وَاحِدًا مِنْ مُلُوكِهَا وَمَا جَرَى فِي أَيَّامِهِ مِنَ ٱلْوَقَائِعِ ٱلْمَشْهُورَةِ وَٱلْحَوَادِثِ ٱلْمَأْثُورَةِ فَإِذَا ٱنْقَضَتْ أَيَّامُ ذٰلِكَ ٱلْمَلِكِ ذَكَرْتَ وُزَرَاءَهُ وَاحِدًا وَاحِدًا وَطَرَائِقَ مَا جَرَى لَهُمْ . فَإِذَا ٱنْقَضَتْ أَيَّامُ ٱلْمَلِكِ وَوُزَرَائِهِ ٱبْتَدَأْتَ بِٱلْمَلِكِ ٱلَّذِي بَعْدَهُ وَبِمَا جَرَى فِي أَيَّامِهِ وَبِسِيَرِ وُزَرَائِهِ كَذٰلِكَ إِلَى آخِرِ تِلْكَ ٱلدَّوْلَةِ وَٱلْتَزِمْ فِيهِ أَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنْ لَا تَمِيلَ فِيهِ إِلَّا مَعَ ٱلْحَقِّ

وَلَا تَنطِقَ فِيهِ اِلَّا بِالعدلِ . وَاَنْ تَعزِلَ سُلطَانَ ٱلْهَوَى وَتَخرُجَ مِنْ حُكْمِ ٱلْمَنْشَإِ وَٱلْمَرْبَى وَتَفرِضَ نَفْسَكَ غَرِيبًا عَنْهُمْ وَاَجْنَبِيًّا بَيْنَهُمْ . وَثَانِيهِمَا اَنْ تُعَبِّرَ عَنِ ٱلْمَعَانِي بِعِبَارَاتٍ وَاضِحَةٍ تَقْرُبُ مِنَ ٱلْاَفْهَامِ لِيَنْتَفِعَ بِهِ كُلُّ اَحَدٍ عَادِلًا عَنِ ٱلْعِبَارَاتِ ٱلْمُسْتَصْعَبَةِ ٱلَّتِي يُقْصَدُ فِيهَا اِظْهَارُ ٱلْفَصَاحَةِ وَاِثْبَاتُ ٱلْبَلَاغَةِ فَطَالَمَا رَاَيْتُ مُصَنِّفِي ٱلْكُتُبِ قَدْ اَعْرَتْهُمْ مَحَبَّةُ اِظْهَارِ ٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْبَلَاغَةِ فَخَفِيَتْ اَغْرَاضُهُمْ وَاَعْتَاصَتْ مَعَانِيهِمْ فَقَلَّتِ ٱلْفَائِدَةُ بِمُصَنَّفَاتِهِمْ. هٰذَا وَاَنَّ كُتُبَ ٱلتَّوَارِيخِ اِنْ نُظِرَ بِعَيْنِ ٱلْاِنْصَافِ اِلَيْهَا رُئِيَتْ اَنْفَعَ مِنَ ٱلْحَمَاسَةِ ٱلَّتِي لَهِجَ ٱلنَّاسُ بِهَا وَاَخَذُوا اَوْلَادَهُمْ بِحِفْظِهَا فَاِنَّ ٱلْحَمَاسَةَ لَا يُسْتَفَادُ مِنْهَا اَكْثَرُ مِنَ ٱلتَّرْغِيبِ فِي ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلضِّيَافَةِ وَشَيْءٍ يَسِيرٍ مِنَ ٱلْاَخْلَاقِ فِي ٱلْبَابِ ٱلْمُسَمَّى بَابَ ٱلْاَدَبِ وَٱلتَّاَنُّسِ بِٱلْمَذَاهِبِ ٱلشِّعْرِيَّةِ . وَٱلتَّارِيخُ يُسْتَفَادُ مِنْهُ هٰذِهِ ٱلْخِصَالُ ٱلْمَذْكُورَةُ . وَيُسْتَفَادُ مِنْهُ قَوَاعِدُ ٱلسِّيَاسَةِ وَاَدَوَاتُ ٱلرِّئَاسَةِ . فَهٰذَا فِيهِ مَا فِي ٱلْحَمَاسَةِ وَلَيْسَ فِي ٱلْحَمَاسَةِ مَا فِيهِ وَاِنَّهُ يُفِيدُ ٱلْعَقْلَ قُوَّةً وَٱلذِّهْنَ حِدَّةً وَٱلْبَصِيرَةَ نُورًا وَهُوَ لِلْخَاطِرِ ٱلذَّكِيِّ بِمَنْزِلَةِ ٱلْمِسَنِّ لِلْفُولَاذِ ٱلْجَيِّدِ وَهُوَ اَيْضًا اَنْفَعُ مِنَ ٱلْمَقَامَاتِ ٱلَّتِي ٱلنَّاسُ فِيهَا مُعْتَقِدُونَ وَفِي تَحَفُّظِهَا رَاغِبُونَ اِذِ ٱلْمَقَامَاتُ لَا يُسْتَفَادُ مِنْهَا سِوَى ٱلتَّمَرُّنِ عَلَى ٱلْاِنْشَاءِ وَٱلْوُقُوفِ عَلَى مَذَاهِبِ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ . نَعَمْ وَفِيهَا حِكَمٌ وَحِيَلٌ وَتَجَارِبُ اِلَّا اَنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُصَغِّرُ ٱلْهِمَّةَ اِذْ هُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى ٱلسُّؤَالِ وَٱلْاِسْتِجْدَاءِ وَٱلتَّحَيُّلِ ٱلْقَبِيحِ عَلَى تَحْصِيلِ ٱلنَّزْرِ ٱلطَّفِيفِ فَاِنْ نَفَعَتْ مِنْ جَانِبٍ ضَرَّتْ مِنْ جَانِبٍ وَبَعْضُ ٱلنَّاسِ تَنَبَّهُوا عَلَى هٰذَا مِنَ ٱلْمَقَامَاتِ ٱلْحَرِيرِيَّةِ وَٱلْبَدِيعِيَّةِ فَعَدَلَ

نَاسٌ إِلَى نَهْجِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ : فَإِنَّهُ ٱلْكِتَابُ ٱلَّذِي يُتَعَلَّمُ مِنْهُ ٱلْحِكَمُ وَٱلْمَوَاعِظُ وَٱلْخُطَبُ وَٱلشَّجَاعَةُ وَٱلزُّهْدُ وَعُلُوُّ ٱلْهِمَّةِ وَأَدْنَى فَوَائِدِهِ ٱلْفَصَاحَةُ وَٱلْبَلَاغَةُ . وَكَذٰلِكَ كُتُبُ ٱلتَّوَارِيخِ فَإِنَّ ٱلْإِنْسَانَ رُبَّمَا أَضْجَرَتْهُ ٱلْمَهَامُّ وَٱلْأَشْغَالُ فَإِذَا رَوَّحَ فِكْرَهُ بِٱلنَّظَرِ فِيهَا دَفَعَ بِهَا ٱلْمَلَالَ وَتَذَكَّرَ بِهَا مَا أَنْسَتْهُ ٱلْأَشْغَالُ . .

البحث السابع

في الاصول العشرة التي يعتمدها الكاتب في المكاتبات

(من كتاب صبح الاعشى لابي العباس احمد القلقشندي)

(راجع صفحة ٢٠٧ من علم الادب)

(ٱلْأَصْلُ ٱلْأَوَّلُ حُسْنُ ٱلِٱفْتِتَاحِ) ٱلْمَطْلُوبُ فِي سَائِرِ أَنْوَاعِ ٱلْكَلَامِ مِنْ نَثْرٍ وَنَظْمٍ مِمَّا يُوجِبُ ٱلتَّحْسِينَ لِيَكُونَ دَاعِيَةً لِٱسْتِمَاعِ مَا بَعْدَهُ . وَيَرْجِعُ حُسْنُ ٱلِٱفْتِتَاحِ فِي ٱلْمُكَاتَبَةِ إِلَى مَعْنَيَيْنِ: (ٱلْمَعْنَى ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يَكُونَ ٱلْحُسْنُ فِيهِ رَاجِعًا إِلَى ٱلْمُبْتَدَإِ بِهِ إِمَّا بِٱلِٱفْتِتَاحِ بِٱلْحَمْدِ لِلّٰهِ كَمَا فِي بَعْضِ ٱلْمُكَاتَبَاتِ لِأَنَّ ٱلنُّفُوسَ تَتَشَوَّقُ إِلَى ٱلثَّنَاءِ عَلَى ٱللّٰهِ تَعَالَى . أَوْ بِٱلسَّلَامِ ٱلَّذِي جَعَلَهُ ٱلشَّارِعُ مُفْتَتَحَ ٱلْخِطَابِ أَوْ نَحْوِ ذٰلِكَ . فَإِنَّ أَمْرَ ٱلْمُكَاتَبَاتِ مَبْنِيٌّ عَلَى ٱلتَّلَطُّفِ وَٱسْتِجْلَابِ ٱلْخَوَاطِرِ وَتَأْلِيفِ ٱلْقُلُوبِ إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ ٱصْطِلَاحُ كُلِّ زَمَنٍ فِي ٱلِٱبْتِدَاءَاتِ . (ٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي) أَنْ يَكُونَ ٱلْحُسْنُ فِيهِ رَاجِعًا إِلَى مَا يُوجِبُ ٱلتَّحْسِينَ مِنْ سُهُولَةِ ٱللَّفْظِ

وَصِحَّةِ ٱلسَّبْكِ وَوُضُوحِ ٱلْمَعْنَى وَتَجَنُّبِ ٱلْحَشْوِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ . . . . (ٱلْأَصْلُ ٱلثَّانِي) بَرَاعَةُ ٱلِٱسْتِهْلَالِ ٱلْمَطْلُوبَةُ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ ٱلْكَلَامِ بِأَنْ يَأْتِيَ فِي صَدْرِ ٱلْمُكَاتَبَةِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى عَجُزِهَا فَإِنْ كَانَ ٱلْكَاتِبُ يُهَنِّئُ أَتَى فِي أَوَّلِ كَلَامِهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى ٱلتَّهْنِئَةِ . أَوْ كَانَ ٱلصَّدَدُ فِي ٱلتَّعْزِيَةِ أَتَى فِي أَوَّلِهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى ٱلتَّعْزِيَةِ أَوْ فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمَعَانِي أَتَى فِي أَوَّلِهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ لِيُعْلَمَ مِنْ مَبْدَإِ ٱلْكَلَامِ مَا ٱلْمُرَادُ . . . ثُمَّ مِنَ ٱلْمُكَاتَبَاتِ مَا يَعْسُرُ مَعَهُ ٱلْإِتْيَانُ بِبَرَاعَةِ ٱلِٱسْتِهْلَالِ فَيَأْتِي بِهَا فِيمَا يَلِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْكَلَامِ فِي مُقَدِّمَةِ ٱلْمُكَاتَبَةِ قَبْلَ ٱلْخَوْضِ فِي ٱلْمَقْصُودِ . . . (ٱلْأَصْلُ ٱلثَّالِثُ) ٱلْمُقَدِّمَةُ ٱلَّتِي يَلْزَمُ أَنْ يَأْتِيَ بِهَا فِي صَدْرِ ٱلْكُتُبِ ٱلْمُشْتَمِلَةِ عَلَى ٱلْمَقَاصِدِ ٱلْجَلِيلَةِ تَأْسِيسًا لِمَا يَأْتِي فِي مُكَاتَبَةٍ . مِثْلَ أَنْ يَأْتِيَ فِي صَدْرِ كُتُبِ ٱلْحَثِّ عَلَى ٱلْجِهَادِ بِذِكْرِ ٱفْتِرَاضِهِ عَلَى ٱلْأُمَّةِ وَمَا وَعَدَ ٱللهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ نَصْرِ أَوْلِيَائِهِ وَخِذْلَانِ أَعْدَائِهِ وَإِعْزَازِ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَقَمْعِ ٱلْمُلْحِدِينَ . وَفِي صُدُورِ كُتُبِ ٱلْفَتْحِ بِإِنْجَازِ وَعْدِ ٱللهِ ٱلَّذِي وَعَدَهُ أَهْلَ ٱلطَّاعَةِ مِنَ ٱلنَّصْرِ وَٱلظَّفَرِ وَإِظْهَارِ دِينِهِ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ . وَفِي صُدُورِ كُتُبِ جِبَايَةِ ٱلْخَرَاجِ بِحَاجَةِ قِيَامِ ٱلْمُلْكِ إِلَى ٱلِٱسْتِعَانَةِ بِمَا يُسْتَخْرَجُ مِنْ حُقُوقِ ٱلسُّلْطَانِ فِي عِمَارَةِ ٱلثُّغُورِ وَتَحْصِينِ ٱلْأَعْمَالِ وَتَقْوِيَةِ ٱلرِّجَالِ وَنَحْوِ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي عَلَى هٰذَا ٱلنَّمَطِ . قَالَ فِي مَوَادِّ ٱلْبَيَانِ : وَعَلَى هٰذَا ٱلسَّبِيلِ جَرَتْ سُنَّةُ ٱلْكُتَّابِ فِي جَمِيعِ ٱلْكُتُبِ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي كَٱلْفُتُوحِ وَٱلتَّهَانِي وَٱلتَّعَازِي وَٱلتَّهَادِي وَٱلِٱسْتِخْبَارِ وَٱلِٱسْتِبْطَاءِ وَٱلْإِحْمَادِ وَٱلْإِذْمَامِ وَغَيْرِهَا لِيَكُونَ

ذٰلِكَ بِسَاطاً لِمَا يُرِيدُ ٱلْقَوْلَ فِيهِ وَحُجَّةً يَسْتَظْهِرُ بِهَا ٱلسُّلْطَانُ لِأَنَّ كُلَّ كَلَامٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ فَرْشٍ يُفْرَشُ قَبْلَهُ لِيَكُونَ مِنْهُ بِمَنْزِلَةِ ٱلْأَسَاسِ مِنَ ٱلْبُنْيَانِ . (قَالَ) : وَيُرْجَعُ فِي هٰذِهِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ إِلَى مَعْرِفَةِ ٱلْكَاتِبِ مَا يَسْتَحِقُّهُ كُلُّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلَّتِي تُشَاكِلُهَا . (ثُمَّ قَالَ) وَٱلطَّرِيقُ فِي إِصَابَةِ ٱلْمَرْمَى فِي هٰذِهِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ أَنْ تُجْعَلَ مُشْتَمِلَةً عَلَى مَا بَعْدَهَا مِنَ ٱلْمَقَاصِدِ وَٱلْأَغْرَاضِ وَأَنْ يُوضَعَ لِلْأَمْرِ ٱلْخَاصِّ مُقَدِّمَةٌ خَاصَّةٌ وَلِلْأَمْرِ ٱلْعَامِّ مُقَدِّمَةٌ عَامَّةٌ وَلَا يُطَوِّلَ فِي مَوْضِعِ ٱلِٱقْتِصَارِ وَلَا يُقَصِّرَ فِي مَوْضِعِ ٱلْإِيجَازِ . وَلَا تُجْعَلَ أَغْرَاضُهَا بَعِيدَةَ ٱلْمَآخِذِ مُعْتَاصَةً عَلَى ٱلْمُتَصَفِّحِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْكَاتِبَ رُبَّمَا قَصَدَ إِظْهَارَ ٱلْقُدْرَةِ عَلَى ٱلْكَلَامِ وَٱلتَّصَرُّفِ فِي وُجُوهِ ٱلنُّطْقِ فَخَرَجَ إِلَى ٱلْإِمْلَالِ وَٱلْإِضْجَارِ ٱلَّذِي تَتَبَرَّمُ مِنْهُ ٱلنُّفُوسُ وَذَوُو ٱلْأَخْطَارِ ٱلْجَلِيلَةِ . أَمَّا ٱلْكُتُبُ ٱلَّتِي لَا تَشْتَمِلُ عَلَى ٱلْمَقَاصِدِ ٱلْجَلِيلَةِ كَرِقَاعِ ٱلتُّحَفِ وَٱلْهَدَايَا وَنَحْوِهَا فَلَا تُجْعَلُ لَهَا مُقَدِّمَةٌ فَإِنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ وَغَيْرُ وَاقِعٍ مَوْقِعَهُ . (ٱلْأَصْلُ ٱلرَّابِعُ) مَوَاقِعُ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلدَّائِرَةِ فِي ٱلْكُتُبِ فَيَلْزَمُ أَنْ يُمَيِّزَ مَوْقِعَ كُلٍّ لِيَضَعَهُ مَكَانَهُ . وَقَالَ فِي ذَخِيرَةِ ٱلْكُتَّابِ : يَجِبُ عَلَى ٱلْكَاتِبِ ٱلرَّئِيسِ أَنْ يَعْرِفَ مَرَاتِبَ ٱلْأَلْفَاظِ وَمَوَاقِعَهَا لِيُرَتِّبَهَا وَيُفَرِّقَ بَيْنَهَا فَرْقاً يَقِفُهُ عَلَى ٱلْوَاجِبِ وَيَنْتَهِي بِهِ إِلَى ٱلصَّوَابِ فَيُخَاطِبُ كُلّاً فِي مُكَاتَبَتِهِ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ ٱلْخِطَابِ . . وَمَتَى ٱسْتَمَرَّ ٱلْكَاتِبُ عَلَى هٰذِهِ ٱلْمُخَالَفَةِ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمُنَاقَضَةِ نَقَصَتِ ٱلْمَعَانِي وَرَذُلَتِ ٱلْأَلْفَاظُ وَسَقَطَتِ ٱلْمَقَاصِدُ وَكَانَ

الْكَاتِبُ قَدْ أَخَلَّ مِنَ ٱلصِّنَاعَةِ بِمُعْظَمِهَا وَتَرَكَ مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ غَايَةَ مُحْكَمِهَا بَلْ يَجِبُ إِنْ بَدَا بِخِطَابِ رَئِيسٍ أَوْ نَظِيرٍ أَوْ مَرْؤُوسٍ أَنْ يَكُونَ مَا يَتَخَلَّلُ مُكَاتَبَتَهُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ عَلَى ٱتِّسَاقٍ إِلَى آخِرِهَا وَٱطِّرَادٍ مِنْ غَيْرِ مُخَالَفَةٍ بَيْنَهَا وَلَا مُضَادَّةٍ وَلَا مُنَاقَضَةٍ . نَعَمْ يَحْسُنُ ذٰلِكَ فِي مُعَاتَبَاتِ ٱلْإِخْوَانِ وَٱلْمُدَاعَبَاتِ ٱلْجَارِيَةِ بَيْنَ ٱلْخُلَّانِ . . . (ٱلْأَصْلُ ٱلْخَامِسُ) ٱلْأَدْعِيَةُ ٱلَّتِي جَرَتْ عَادَةُ ٱلسَّلَفِ وَتَبِعَهُمُ ٱلْخَلَفُ بِٱسْتِعْمَالِهَا فِي ٱلْمُكَاتَبَاتِ.وَٱلنَّظَرُ فِيهَا مِنْ سِتَّةِ أَوْجُهٍ : (ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يَعْرِفَ مَرَاتِبَ ٱلدُّعَاءِ لِيُوقِعَهَا فِي مَوَاقِعِهَا وَيُورِدَهَا فِي مَوَارِدِهَا . وَيَأْتِي ذٰلِكَ فِي عِدَّةِ أَدْعِيَةٍ مِنْهَا : ٱلدُّعَاءُ بِإِطَالَةِ ٱلْبَقَاءِ وَٱلدُّعَاءُ بِإِطَالَةِ ٱلْعُمْرِ . فَٱلدُّعَاءُ بِإِطَالَةِ ٱلْبَقَاءِ أَرْفَعُ مِنَ ٱلدُّعَاءِ بِإِطَالَةِ ٱلْعُمْرِ . وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْبَقَاءَ لَا يَدُلُّ عَلَى مُدَّةٍ تَنْقَضِي لِأَنَّهُ ضِدُّ ٱلْفَنَاءِ وَٱلْعُمْرُ يَدُلُّ عَلَى مُدَّةٍ تَنْقَضِي وَلِذٰلِكَ يُوصَفُ ٱللّٰهُ تَعَالَى بِٱلْبَقَاءِ وَلَا يُوصَفُ بِٱلْعُمْرِ . . (ٱلثَّانِي) أَنْ يَعْرِفَ مَا يُنَاسِبُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ أَرْبَابِ ٱلْمَنَاصِبِ ٱلْجَلِيلَةِ مِنَ ٱلدُّعَاءِ فَيَخُصُّهُ بِهِ فَيَأْتِي بِٱلدُّعَاءِ فِي مُكَاتَبَةِ ٱلْمُلُوكِ بِدَوَامِ ٱلسُّلْطَانِ وَخُلُودِ ٱلْمُلْكِ . وَإِلَى ٱلْأُمَرَاءِ بِٱلدُّعَاءِ بِعِزِّ ٱلنَّصْرِ وَمُدَاوَمَةِ ٱلنِّعْمَةِ . وَإِلَى ٱلْوُزَرَاءِ مِنْ أَرْبَابِ ٱلْأَقْلَامِ بِسُبُوغِ ٱلنَّعْمَاءِ وَتَخْلِيدِ ٱلسَّعَادَةِ وَدَوَامِ ٱلْمَجْدِ.وَإِلَى ٱلْقُضَاةِ وَٱلْحُكَّامِ بِٱلدُّعَاءِ بِعِزِّ ٱلْأَحْكَامِ . وَإِلَى ٱلتُّجَّارِ بِٱلدُّعَاءِ بِمَزِيدِ ٱلْإِقْبَالِ وَشِبْهِ ذٰلِكَ . (وَٱلثَّالِثُ) أَنْ يَعْرِفَ مَا يُنَاسِبُ كُلَّ حَالَةٍ مِنْ حَالَاتِ ٱلْمُكَاتَبَاتِ فَيَأْتِي كُلَّ حَالَةٍ بِمَا يُنَاسِبُهَا مِنَ ٱلدُّعَاءِ فَتَكُونُ ٱلْأَدْعِيَةُ دَالَّةً عَلَى مَقَاصِدِ ٱلْكُتَّابِ

فَإِنْ كَانَ فِي الْهَنَاءِ وَالشُّكْرِ اَوِ التَّعْزِيَةِ اَتَى كُلًّا بِمَا يُنَاسِبُهُ . (اَلرَّابِعُ) اَنْ يَعْرِفَ مَوَاضِعَ الدُّعَاءِ عَلَى الْمَكْتُوبِ اِلَيْهِ ... (اَلْأَصْلُ السَّادِسُ) اَنْ يَعْرِفَ مَا يُنَاسِبُ الْمَكْتُوبَ اِلَيْهِ مِنَ الْأَلْقَابِ فَيُعْطِيَهُ حَقَّهُ مِنْهَا . . كَالْمَقَامِ وَالْمَقَرِّ وَالْجَنَابِ وَالنَّادِي وَالْمَجْلِسِ فِي زَمَانِنَا . . . وَكَذٰلِكَ النُّعُوتَ . (اَلْأَصْلُ السَّابِعُ) اَنْ يُرَاعِيَ مَقَاصِدَ الْمُكَاتَبَاتِ فَيَأْتِيَ لِكُلِّ مَقْصَدٍ بِمَا يُنَاسِبُهُ وَمَدَارُ ذٰلِكَ عَلَى اَمْرَيْنِ : (اَلْأَمْرُ الْأَوَّلُ) اَنْ يَأْتِيَ مَعَ كُلِّ كَلِمَةٍ بِمَا يَلِيقُ بِهَا وَيَتَخَيَّرَ لِكُلِّ لَفْظَةٍ مَا يُشَاكِلُهَا فَإِنْ ذَكَرَ النِّعْمَةَ حَمِدَ اللّٰهَ وَاِنْ ذَكَرَ الْبَلْوَى شَفَعَهَا بِالْاِسْتِعَانَةِ بِاللّٰهِ وَالرُّجُوعِ اِلَيْهِ فِيهَا . وَيَلْتَحِقُ بِذٰلِكَ اَيْضًا اَنَّهُ اِذَا ذَكَرَ الرَّئِيسَ فِي اَثْنَاءِ الْمُكَاتَبَةِ دَعَا لَهُ مِثْلَ اَنْ يَقُولَ عِنْدَ ذِكْرِ السُّلْطَانِ : خَلَّدَ اللّٰهُ مُلْكَهُ وَمِمَّا يَجْرِي هٰذَا الْمَجْرَى . (اَلْأَمْرُ الثَّانِي) اَنْ يَتَخَطَّى التَّصْرِيحَ اِلَى التَّلْوِيحِ وَالْاِشَارَةِ اِذَا اَلْجَأَتْهُ الْحَالُ اِلَى الْمُكَاتَبَةِ بِمَا لَا يَجُوزُ كَشْفُهُ وَاِظْهَارُهُ عَلَى صَرَاحَتِهِ بِمَا فِي ذِكْرِهِ اِطِّرَاحُ مَهَابَةِ السُّلْطَانِ وَاِسَاءَةُ مَا يَلْزَمُ مِنْهُ اِخْلَالُ الْاَدَبِ فِي حَقِّهِ كَمَا لَوْ اَطْلَقَ لِسَانَهُ فِيهِ بِلَفْظٍ قَبِيحٍ يَسُوءُهُ سَمَاعُهُ فَيَحْتَاجُ الْمُنْشِئُ اِلَى اسْتِعْمَالِ التَّوْرِيَةِ فِي هٰذِهِ الْمَوَاضِعِ وَالتَّلَطُّفِ فِي الْعِبَارَةِ عَنْ هٰذِهِ الْمَعَانِي مِنْ غَيْرِ خِيَانَةٍ فِي طَيِّ مَا لَا غِنَى بِهِ عَنْ عِلْمِهِ . وَهٰذَا مِمَّا لَا يَسْتَقِلُّ بِهِ اِلَّا الْمُبَرِّزُ فِي الصِّنَاعَةِ الْمُتَصَرِّفُ فِي تَأْلِيفِ الْكَلَامِ . . (اَلْأَصْلُ الثَّامِنُ) اَنْ يَعْرِفَ مِقْدَارَ فَهْمِ كُلِّ طَبَقَةٍ مِنَ الْمُخَاطَبِينَ فِي الْمُكَاتَبَاتِ مِنَ اللِّسَانِ فَيُخَاطِبَ كُلَّ اَحَدٍ بِمَا يُنَاسِبُهُ مِنَ اللَّفْظِ وَمَا

يصل اليه فهمه من الخطاب (استشهاد من كتاب الصناعتين) . .
(الاصل التاسع) ان يراعي رتبة المكتوب عنه والمكتوب اليه في الخطاب فيعبر عن كل واحد منهما بما يليق به . ويخاطب المكتوب اليه بما يليق بمقامه . فاما المكتوب عنه فيختلف الحال فيه باختلاف منصبه ورتبته فيعبر في الكتب الصادرة عن ابواب الخلافة بامير المؤمنين مثل ان يقال : جرى امر امير المؤمنين في كذا على كذا . واوعز امير المؤمنين الى فلان بكذا واقتضى رأي امير المؤمنين كذا وهلم جرا . وكذلك ان يعرف قدر المكتوب اليه من الرؤساء والنظراء والعلماء والوكلاء ليفرق بين من يكتب اليه . . الا ترى انك لو خاطبت سلطانا او وزيرا بالتعزية عن المصيبة من مصائب الدنيا لما جاز ان تبني الكلام على وعظه وتبصيره وارشاده وحضه على الاخذ بحظ من الصبر . . وانما الصواب ان تبني الخطاب على انه اعلى شأنا وارفع مكانا من ان يعزى بخلاف المتاخر في الرتبة فانه انما يعزى تنبيها وتذكيرا وتبصيرا وتعريفا للواجب في تلقي السراء بالشكر والضراء بالصبر . .
(الاصل العاشر) ان يراعي مواقع الآيات والسجع في الكتب وذكر ابيات الشعر في المكاتبات . . .



الفصل التاسع

في حل الشعر والاحتذاء

البحث الاول

في حسن الاخذ

(من كتاب الصاعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٢٣٩ من علم الادب)

لَيسَ لِاَحَدٍ مِنْ اَصْنَافِ ٱلْقَائِلِينَ غِنًى عَنْ تَنَاوُلِ ٱلْمَعَانِي مِمَّنْ تَقَدَّمَهُ وَٱلصَّبُّ عَلَى قَوَالِبِ مَنْ سَبَقَهُ وَلٰكِنْ عَلَيْهِ اِذَا اَخَذَهَا اَنْ يَكْسُوَهَا اَلْفَاظًا مِنْ عِنْدِهِ وَيُبْرِزَهَا فِي مَعَارِضَ مِنْ تَأْلِيفِهِ وَرَصْفِهِ وَيُوْدِيَهَا فِي غَيْرِ حِلْيَتِهَا ٱلْأُولَى وَيَزِيدَ فِي حُسْنِ تَأْلِيفِهَا وَجَوْدَةِ تَرْكِيبِهَا وَكَمَالِ حِلْيَتِهَا وَمَعْرِضِهَا . فَإِذَا فَعَلَ ذٰلِكَ فَهُوَ اَوْلَى بِهَا مِمَّنْ سَبَقَ اِلَيْهَا وَلَوْلَا اَنَّ ٱلْقَائِلَ يُوْدِي مَا سَمِعَ لَمَا كَانَ فِي طَاقَتِهِ اَنْ يَقُولَ وَاِنَّمَا يَنْطِقُ ٱلطِّفْلُ بَعْدَ ٱسْتِمَاعِهِ مِنَ ٱلْبَالِغِينَ . وَقَالَ اَمِيرُ ٱلْمُوْمِنِينَ عَلِي : لَوْلَا اَنَّ ٱلْكَلَامَ يُعَادُ لَنَفِدَ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : كُلُّ شَيْءٍ ثَنَيْتَهُ قَصُرَ اِلَّا ٱلْكَلَامَ فَاِنَّكَ اِذَا ثَنَيْتَهُ طَالَ . عَلَى اَنَّ ٱلْمَعَانِي مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ ٱلْعُقَلَاءِ فَرُبَّمَا وَقَعَ ٱلْمَعْنَى ٱلْجَيِّدُ لِلسُّوقِيِّ وَٱلنَّبَطِيِّ وَٱلزَّنْجِيِّ وَاِنَّمَا يَتَفَاضَلُ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْاَلْفَاظِ وَرَصْفِهَا وَتَأْلِيفِهَا وَنَظْمِهَا . وَقَدْ يَقَعُ لِلْمُتَأَخِّرِ مَعْنًى سَبَقَهُ اِلَيْهِ ٱلْمُتَقَدِّمُ مِنْ غَيْرِ اَنْ يُلِمَّ بِهِ وَلٰكِنْ

كَمَا وَقَعَ لِلأَوَّلِ وَقَعَ لِلآخِرِ . وَهٰذَا أَمْرٌ عَرَفْتُهُ مِنْ نَفْسِي فَلَسْتُ أَمْتَرِي فِيهِ . وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ مَنْ أَخَذَ مَعْنًى بِلَفْظِهِ كَانَ لَهُ سَالِخًا وَمَنْ أَخَذَهُ فَكَسَاهُ لَفْظًا مِنْ عِنْدِهِ أَجْوَدَ مِنْ لَفْظِهِ كَانَ هُوَ أَوْلَى بِهِ مِمَّنْ تَقَدَّمَهُ . وَقَالُوا : إِنَّ أَبَا عُذْرَةِ الْكَلَامِ مَنْ سَبَكَ لَفْظَهُ عَلَى مَعْنَاهُ . وَمَنْ أَخَذَ مَعْنًى بِلَفْظِهِ فَلَيْسَ لَهُ فِيهِ نَصِيبٌ . عَلَى أَنَّ ٱبْتِكَارَ ٱلْمَعْنَى وَٱلسَّبْقَ إِلَيْهِ لَيْسَ هُوَ فَضِيلَةً تَرْجِعُ إِلَى ٱلْمَعْنَى وَإِنَّمَا هُوَ فَضِيلَةٌ تَرْجِعُ إِلَى ٱلَّذِي ٱبْتَكَرَهُ وَسَبَقَ إِلَيْهِ . فَٱلْمَعْنَى ٱلْجَيِّدُ جَيِّدٌ وَإِنْ كَانَ مَسْبُوقًا إِلَيْهِ . وَٱلْوَسَطُ وَسَطٌ وَٱلرَّدِيءُ رَدِيءٌ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَسْبُوقًا إِلَيْهِمَا . وَقَدْ أَطْبَقَ ٱلْمُتَقَدِّمُونَ وَٱلْمُتَأَخِّرُونَ عَلَى تَدَاوُلِ ٱلْمَعَانِي بَيْنَهُمْ فَلَيْسَ عَلَى أَحَدٍ فِيهِ عَيْبٌ إِلَّا إِذَا أَخَذَهُ بِلَفْظِهِ كُلِّهِ وَأَخَذَهُ فَأَفْسَدَهُ وَقَصَّرَ فِيهِ عَمَّنْ تَقَدَّمَهُ وَرُبَّمَا أَخَذَ ٱلشَّاعِرُ ٱلْقَوْلَ ٱلْمَشْهُورَ وَلَمْ يُبَالِ كَمَا فَعَلَ ٱلنَّابِغَةُ فَإِنَّهُ أَخَذَ قَوْلَ وَهْبِ بْنِ ٱلْحَارِثِ بْنِ زُهَيْرٍ :

تَبْدُو كَوَاكِبُهُ وَٱلشَّمْسُ طَالِعَةٌ

وَقَالَ ٱلنابِغَةُ

تَبْدُو كَوَاكِبُهُ وَٱلشَّمْسُ طَالِعَةٌ   لَا ٱلنُّورُ نُورٌ وَلَا ٱلْإِظْلَامُ إِظْلَامُ

وَأَخَذَ قَوْلَ رَجُلٍ مِنْ كِنْدَةَ فِي عَمْرِو بْنِ هِنْدٍ :

هُوَ ٱلشَّمْسُ وَافَتْ يَوْمَ دَجْنٍ فَأَفْضَلَتْ

عَلَى كُلِّ ضَوْءٍ وَٱلْمُلُوكُ كَوَاكِبُ

فَقَالَ :

فَإِنَّكَ شَمْسٌ وَٱلْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ   إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَسَنَتَّبِعُ ٱلْقَوْلَ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ وَٱلْحَاذِقُ يُخْفِي دَبِيبَهُ إِلَى ٱلْمَعْنَى يَأْخُذُهُ فِي سُتْرَةٍ فَيُحْكَمُ لَهُ بِٱلسَّبْقِ إِلَيْهِ . وَذٰلِكَ أَنْ يَأْخُذَ مَعْنًى مِنْ نَظْمٍ فَيُورِدَهُ فِي نَثْرٍ. أَوْ مِنْ نَثْرٍ فَيُورِدَهُ فِي نَظْمٍ أَوْ يَنْقُلَ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُسْتَعْمَلَ فِي صِفَةِ خَمْرٍ فَيَجْعَلَهُ فِي مَدِيحٍ أَوْ فِي مَدِيحٍ فَيَنْقُلَهُ إِلَى وَصْفٍ . إِلَّا إِنَّهُ لَا يَكْمُلُ بِهٰذَا إِلَّا ٱلْمُبَرِّزُ وَٱلْكَامِلُ ٱلْمُقَدَّمُ مِمَّنْ أَخْفَى دَبِيبَهُ إِلَى ٱلْمَعْنَى وَسَتَرَهُ غَايَةَ ٱلسَّتْرِ أَبُو تَمَّامٍ فِي قَوْلِهِ :

جَمَعْتَ عُرَى أَعْمَالِهَا بَعْدَ فُرْقَةٍ ... إِلَيْكَ كَمَا ضَمَّ ٱلْأَنَابِيبَ عَامِلُ

قَالُوا هُوَ مِنْ قَوْلِ ٱلْجَبَالِ ٱلرَّبَعِيِّ :

أُولَئِكَ إِخْوَانُ ٱلصَّفَاءِ رُزِئْتُهُمْ ... فَمَا ٱلْكَفُّ إِلَّا إِصْبَعٌ ثُمَّ إِصْبَعُ

وَهٰكَذَا قَوْلُهُ وَقَدْ نَقَلَهُ مِنْ مَعْنًى إِلَى آخَرَ :

مَكَارِمُ لَجَّتْ فِي عُلُوٍّ كَأَنَّمَا ... تُحَاوِلُ ثَأْرًا عِنْدَ بَعْضِ ٱلْكَوَاكِبِ

قَالُوا هُوَ مِنْ قَوْلِ ٱلْأَخْطَلِ :

عَرُوفٌ لِحَقِّ ٱلسَّائِلِينَ كَأَنَّهُ ... بِعَقْرِ ٱلْمَتَالِي طَالِبٌ بِذُنُوبِ

وَمِمَّا أَخَذَهُ وَزَادَ فِيهِ عَلَى ٱلْأَوَّلِ قَوْلُهُ :

أَفْنَاهُمُ ٱلصَّبْرُ إِذْ أَبْقَاكُمُ ٱلْجَزَعُ

مِنْ قَوْلِ ٱلسَّمَوْءَلِ :

يُقَرِّبُ حُبُّ ٱلْمَوْتِ آجَالَنَا لَنَا ... وَتَكْرَهُهُ آجَالُهُمْ فَتَطُولُ

أَوْرَدَهُ أَبُو تَمَّامٍ فِي نِصْفِ بَيْتٍ وَٱسْتَوْفَى ٱلتَّطْبِيقَ وَمِنْ هٰذَا ٱلضَّرْبِ قَوْلُهُ :

عَلَّمَنِي جُودُكَ ٱلسَّمَاحَ فَمَا ... أَبْقَيْتُ شَيْئًا لَدَيَّ مِنْ صِلَتِكْ

مِنْ قَوْلِ ٱبْنِ ٱلْخَيَّاطِ :

لَمَسْتُ بِكَفِّي كَفَّهُ ٱبْتَغِي ٱلْغِنَى ... وَلَمْ اَدْرِ اَنَّ ٱلْجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدِي
فَلَا اَنَا مِنْهُ مَا اَفَادَ ذَوُو ٱلْغِنَى ... اَفَدتُ وَاَعْدَانِي فَاَتْلَفْتُ مَا عِنْدِي

وَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ مُسْلِمٍ :

أُحِبُّ ٱلرِّيحَ مَا هَبَّتْ شَمَالًا ... وَاَحْسُدُهَا اِذَا هَبَّتْ جَنُوبَا

قَسَّمَ تَقْسِيمًا حَسَنًا وَمَعْنَاهُ : اَنَّ ٱلشَّمَالَ تَجِيءُ مِنْ نَاحِيَةِ صَدِيقِهِ اِلَيْهِ فَاَحَبَّهَا وَٱلْجَنُوبَ تَهُبُّ اِلَى ٱلْحَبِيبِ فَحَسَدَهَا لِمُبَاشَرَتِهَا جِسْمَهُ وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ جِرَانِ ٱلْعَوْدِ :

اِذَا هَبَّتِ ٱلْاَرْوَاحُ مِنْ نَحْوِ اَرْضِكُمْ ... وَجَدتُّ لِرَيَّاهَا عَلَى كَبِدِي بَرْدَا

وَزَادَ مُسْلِمٌ فِي قَوْلِهِ اَيْضًا :

وَيُغْمِدُ ٱلسَّيْفَ بَيْنَ ٱلنَّحْرِ وَٱلْجِيدِ

عَلَى ٱلسَّابِقِ اِلَى هٰذَا ٱلْمَعْنَى وَهُوَ بَعْضُ ٱلْفُرْسَانِ اِذْ يَقُولُ :

جَعَلْتُ ٱلسَّيْفَ بَيْنَ ٱللَّيْثِ مِنْهُ ... وَبَيْنَ سَوَادِ لِحْيَتِهِ عِذَارَا

لِاَنَّ ٱلْاَغْمَادَ فِيهِ اَشَدُّ تَأْثِيرًا مِنْ وَضْعِ ٱلْعِذَارِ عَلَيْهِ . وَقَدْ زَادَ اَبُو نُوَاسٍ عَلَى جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ :

وَقَدْ اَطُولُ نِجَادَ ٱلسَّيْفِ مُحْتَبِيًا ... مِثْلَ ٱلرُّدَيْنِيِّ هَزَّتْهُ ٱلْاَنَابِيبُ

فَقَالَ اَبُو نُوَاسٍ :

سَبْطُ ٱلْبَنَانِ اِذَا ٱحْتَبَى بِنِجَادِهِ ... غَمَرَ ٱلْجَمَاجِمَ وَٱلسِّمَاطُ قِيَامُ

قَوْلُهُ : غَمَرَ ٱلْجَمَاجِمَ اَحْسَنُ مِنْ قَوْلِ جَرِيرٍ مِثْلَ ٱلرُّدَيْنِيِّ .

وَهٰكَذَا قَوْلُهُ :

أَشَمُّ طُوَالُ ٱلسَّاعِدَيْنِ كَأَنَّمَا يُلَاثُ نِجَادَا سَيْفِـهِ بِلِوَاءِ

أَحْسَنُ لَفْظًا وَسَبْكًا مِنْ قَوْلِ عَنْتَرَةَ :

بَطَلٌ كَأَنَّ ثِيَابَهُ فِي سَرْحَةٍ يُحْذَى نِعَالَ ٱلسِّبْتِ لَيْسَ بِتَوْأَمِ

وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ فِي أَبْنِي عُبَيْدِ ٱللهِ بْنِ طَاهِرٍ :

لَهْفِي عَلَى تِلْكَ ٱلْمَخَايِلِ فِيهِمَا لَوْ أُمْهِلَتْ حَتَّى تَكُونَ شَمَائِلَا

لَوْ يُنْسَبَانِ لَكَانَ هٰذَا غَارِبًا لِلْمَكْرُمَاتِ وَكَانَ هٰذَا كَاهِلَا

إِنَّ ٱلْهِلَالَ إِذَا رَأَيْتَ نُمُوَّهُ أَيْقَنْتَ أَنْ سَيَكُونُ بَدْرًا كَامِلَا

أَحْسَنُ وَأَجْوَدُ مِمَّا أَخَذَ مِنْهُ هٰذِهِ ٱلْمَعَانِيَ وَهُوَ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

وَفِي جَوْفِهِ مِنْ دَارِمٍ ذُو حَفِيظَةٍ لَوَ أَنَّ ٱلْمَنَايَا أَنْسَأَتْهُ لَيَالِيَا

لَا يَقَعُ بَيْتُ ٱلْفَرَزْدَقِ مَعَ أَبْيَاتِ أَبِي تَمَّامٍ مَوْقِعًا . وَأَخَذَ قَوْلَ ٱلْفَرَزْدَقِ :

وَمَا وَامَرَتْنِي ٱلنَّفْسُ فِي رِحْلَةٍ لَهَا إِلَى أَحَدٍ إِلَّا إِلَيْكَ ضَمِيرُهَا

فَشَرَحَهُ وَقَالَ :

وَمَا طَوَّفْتُ فِي ٱلْآفَاقِ إِلَّا وَمِنْ جَدْوَاكَ رَاحِلَتِي وَزَادِي

مُقِيمُ ٱلظَّنِّ عِنْدَكَ وَٱلْأَمَانِي وَإِنْ قَلِقَتْ رِكَابِي فِي ٱلْبِلَادِ

وَإِلَى بَيْتِ ٱلْفَرَزْدَقِ يُشِيرُ ٱلْقَائِلُ :

مَدَحْتُكَ جَهْدِي بِٱلَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ
فَقَصَّرَ عَمَّا فِيكَ مِنْ صَالِحٍ جَهْدِي

فَمَا كُلُّ مَا فِيهِ مِنَ ٱلْخَيْرِ قُلْتُهُ
وَلَا كُلُّ مَا فِيهِ يَقُولُ ٱلَّذِي بَعْدِي

وَكُنتُ إِذَا هَيَّأْتُ مَدْحاً لِمَاجِدٍ
أَتَانِي ٱلَّذِي فِيهِ بِأَدْنَى ٱلَّذِي عِنْدِي

وَمِنْ هَا هُنَا أَخَذَ أَبُو نُوَاسٍ قَوْلَهُ :

إِذَا نَحْنُ أَثْنَيْنَا عَلَيْكَ بِصَالِحٍ   فَأَنْتَ كَمَا نُثْنِي وَفَوْقَ ٱلَّذِي نُثْنِي
وَإِنْ جَرَتِ ٱلْأَلْفَاظُ يَوْمًا بِمِدْحَةٍ   لِغَيْرِكَ إِنْسَانًا فَأَنْتَ ٱلَّذِي نَعْنِي

وَيُشِيرُ إِلَى قَوْلِ ٱلْخَنْسَاء :

وَمَا بَلَغَ ٱلْمُهْدُونَ فِي ٱلْقَوْلِ مِدْحَةً   وَإِنْ أَطْنَبُوا إِلَّا ٱلَّذِي فِيكَ أَفْضَلُ

وَهٰكَذَا قَوْلُهُ :

قَوْمٌ إِذَا لَبِسُوا ٱلدُّرُوعَ لِمَوْقِفٍ   لَبِسَتْهُمُ ٱلْأَحْسَابُ فِيهِ دُرُوعَا

أَتَمُّ وَأَجْوَدُ مِنْ قَوْلِ ٱلْأَوَّلِ :

لَبِسُوا ٱلْقُلُوبَ عَلَى ٱلدُّرُو   عِ مُظَاهِرِينَ لِدَفْعِ ذٰلِكْ

وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ : إِنَّ ٱلنَّدَى حَيْثُ تَرَى ٱلضِّغَاطَا . فَأَخَذَهُ بَشَّارٌ وَقَدْ شَرَحَهُ وَبَيَّنَهُ فَقَالَ :

تَسْقُطُ ٱلطَّيْرُ حَيْثُ يَنْتَثِرُ ٱلْحَبْـ   ـبُ وَتُغْشَى مَنَازِلُ ٱلْكُرَمَاء

وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

يَزْدَحِمُ ٱلنَّاسُ عَلَى بَابِهِ   وَٱلْمَشْرَبُ ٱلْعَذْبُ كَثِيرُ ٱلزِّحَامْ

وَسَمِعَ أَبُو تَمَّامٍ قَوْلَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ لِلْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ : إِنَّكَ إِنْ صَبَرْتَ جَرَى عَلَيْكَ قَضَاءُ ٱللهِ وَأَنْتَ مَأْجُورٌ . وَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَسْلُ ٱحْتِسَابًا سَلَوْتَ كَمَا تَسْلُو ٱلْبَهَائِمُ فَحَكَاهُ حِكَايَةً حَسَنَةً فِي قَوْلِهِ :

وَقَالَ عَلِيٌّ فِي ٱلتَّعَازِي لِأَشْعَثٍ وَخَافَ عَلَيْهِ بَعْضَ تِلْكَ ٱلْمَآثِمِ
أَتَصْبِرُ لِلْبَلْوَى حَيَاءً وَحِسْبَةً فَتُؤْجَرَ أَمْ تَسْلُو سُلُوَّ ٱلْبَهَائِمِ
خُلِقْنَا رِجَالًا لِلتَّجَلُّدِ وَٱلْأَسَى وَتِلْكَ ٱلْغَوَانِي لِلْبُكَا وَٱلْمَآتِمِ

وَٱلْبَيْتُ ٱلْأَخِيرُ مِنْ قَوْلِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ ٱلزُّبَيْرِ لَمَّا قُتِلَ مُصْعَبٌ . وَإِنَّمَا ٱلتَّسْلِيمُ وَٱلسَّلْوَةُ لِحَزْمَاءِ ٱلرِّجَالِ . وَإِنَّ ٱلْهَلَعَ وَٱلْجَزَعَ لِرَبَّاتِ ٱلْحِجَالِ وَسَمِعَ قَوْلَ زِيَادٍ لِأَبِي ٱلْأَسْوَدِ . لَوْ أَنَّكَ ضَعِيفٌ لَأَسْتَعْمَلْتُكَ . فَقَالَ أَبُو ٱلْأَسْوَدِ : إِنْ كُنْتَ تُرِيدُنِي لِلصِّرَاعِ فَإِنِّي لَا أَصْلُحُ لَهُ وَإِلَّا فَغَيْرُ شَدِيدٍ أَنْ آمُرَ وَأَنْهَى فَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ :

تَعَجَّبُ أَنْ رَأَتْ جِسْمِي نَحِيفًا كَأَنَّ ٱلْمَجْدَ يُدْرَكُ بِٱلصِّرَاعِ

وَلَمَّا قَالَ بَشَّارٌ :

مَنْ رَاقَبَ ٱلنَّاسَ لَمْ يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ وَفَازَ بِٱلطَّيِّبَاتِ ٱلْفَاتِكُ ٱللَّهِجُ

تَبِعَهُ سَلْمٌ ٱلْخَاسِرُ فَقَالَ :

مَنْ رَاقَبَ ٱلنَّاسَ مَاتَ غَمًّا وَفَازَ بِٱللَّذَّةِ ٱلْجَسُورُ

فَلَمَّا سَمِعَ بَشَّارٌ هٰذَا ٱلْبَيْتَ قَالَ : ذَهَبَ ٱلْخَبِيثُ بِبَيْتِي . وَمِنْ حُسْنِ ٱلِٱتِّبَاعِ أَيْضًا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ حَيْثُ كَتَبَ : إِذَا كَانَ لِلْمُحْسِنِ مِنَ ٱلثَّوَابِ مَا يُقْنِعُهُ وَلِلْمُسِيءِ مِنَ ٱلْعِقَابِ مَا يَقْمَعُهُ ٱزْدَادَ ٱلْمُحْسِنُ فِي ٱلْإِحْسَانِ رَغْبَةً وَٱنْقَادَ ٱلْمُسِيءُ لِلْحَقِّ رَهْبَةً . أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ عَلِيٍّ : يَجِبُ عَلَى ٱلْوَالِي أَنْ يَتَعَهَّدَ أُمُورَهُ وَيَتَفَقَّدَ أَعْوَانَهُ حَتَّى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ إِحْسَانُ مُحْسِنٍ وَلَا إِسَاءَةُ مُسِيءٍ ثُمَّ لَا يَتْرُكَ وَاحِدًا مِنْهُمَا بِغَيْرِ جَزَاءٍ . فَإِنْ تَرَكَ ذٰلِكَ تَهَاوَنَ ٱلْمُحْسِنُ وَٱجْتَرَأَ ٱلْمُسِيءُ وَفَسَدَ

ٱلْأَمْرُ وَضَاعَ ٱلْعَمَلُ . وَسَمِعَ بَعْضُ ٱلْكُتَّابِ قَوْلَ نُصَيْبٍ :

وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ ٱلْحَقَائِبُ

فَكَتَبَ وَلَوْ أُمْسِكَ لِسَانِي عَنْ شُكْرِكَ لَنَطَقَ أَثَرُكَ عَلَيَّ . وَفِي فَصْلٍ آخَرَ : وَلَوْ جَحَدْتُكَ إِحْسَانَكَ لَأَكْذَبَتْنِي آثَارُهُ وَنَمَّتْ عَلَيَّ شَوَاهِدُهُ . وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ : شَاهِدَاتُ ٱلْأَحْوَالِ أَعْدَلُ مِنْ شَهَادَاتِ ٱلرِّجَالِ . أَخَذَهُ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ فَشَرَحَهُ فِي قَوْلِهِ :

حَالَ ٱلسَّدَادُ فِي عَمَّا يُرِيبُكُمْ   لَكِنْ فَمُ ٱلْحَالِ مِنِّي غَيْرُ مَسْدُودِ
حَالٌ تَصِيحُ بِمَا أَوْلَيْتَ مُعْلِنَةً   وَكُلُّ مَا تَدَّعِيهِ غَيْرُ مَرْدُودِ
كُلِّي هِجَاءٌ وَقَتْلِي لَا يَحِلُّ لَكُمْ   فَمَا يُدَاوِيكُمْ مِنِّي سِوَى ٱلْجُودِ

وَمِمَّنْ أَحْسَنَ ٱلْإِتْبَاعَ أَيْضًا أَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ وَقَدْ سَمِعَ قَوْلَ عَلِيٍّ : لَا تَكُونَنَّ كَمَنْ يَعْجِزُ عَنْ شُكْرِ مَا أُتِيَ وَيَلْتَمِسُ ٱلزِّيَادَةَ فِيمَا بَقِيَ . فَكَتَبَ : أَحَقُّ مَنْ أَثْبَتَ لَكَ ٱلْعُذْرَ فِي حَالِ شُغْلِكَ مَنْ لَمْ يَخْلُ سَاعَةً مِنْ بِرِّكَ فِي وَقْتِ فَرَاغِكَ . وَأَخَذَهُ أَخْذًا ظَاهِرًا أَحْمَدُ بْنُ صُبَيْحٍ فَقَالَ : فِي شُكْرِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ إِحْسَانِ ٱلْأَمِيرِ شَاغِلٌ عَنِ ٱسْتِبْطَاءِ مَا تَأَخَّرَ مِنْهُ . وَأَخَذَهُ سَعِيدُ بْنُ حُمَيْدٍ فَقَالَ : لَسْتُ مُسْتَقِلًّا لِشُكْرِ مَا مَضَى مِنْ بَلَائِكَ فَأَسْتَبْطِئَ دَرْكَ مَا أُؤَمِّلُ مِنْ مَزِيدِكَ . وَمِنْ هٰذَا أَيْضًا قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

لَا تُسْدِيَنَّ إِلَيَّ عَارِفَةً   حَتَّى أَقُومَ بِشُكْرِ مَا سَلَفَا

وَأَخْبَرَ ٱلْأَخْفَشُ قَالَ : قَالَ أَبُو تَمَّامٍ لِٱبْنِ أَبِي دُؤَادٍ لَمَّا غَضِبَ عَلَيْهِ : أَنْتَ ٱلنَّاسُ كُلُّهُمْ وَلَا طَاقَةَ لِي بِغَضَبِ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ . فَقَالَ

ٱبْنُ ٱبِي رُؤَادٍ : مَا ٱحسَنَ هٰذَا مِنْ ايْنَ ٱخَذْتَهُ . قَالَ : مِنْ قَوْلِ ٱبِي نُوَاسٍ وَلَيْسَ عَلَى ٱللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ . ٱنْ يَجْمَعَ ٱلْعَالَمَ فِي وَاحِدِ
وَمَنْ سَمِعَ هٰذَا ٱلْكَلَامَ يَظُنُّهُ مَسْرُوقًا مِنْ قَوْلِ جَرِيرٍ :

إِذَا غَضِبَتْ عَلَيَّ بَنُو تَمِيمٍ ... رَأَيْتُ ٱلنَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا

وَسَمِعَ قُلَيْبٌ ٱلْمُعْتَزِلِيُّ ٱبْيَاتًا لِلْعُتْبِيِّ وَهِيَ :

ٱفَلَتْ بَطَالَتُــهُ وَرَاجَعَهُ ... حِلْمٌ وَٱعْقَبَهُ ٱلْهَوَى نَدَمَا
ٱلْقَى عَلَيْهِ ٱلدَّهْرُ كَلْكَلَهُ ... وَٱعَارَهُ ٱلْإِقْتَارَ وَٱلْعَدَمَا
فَإِذَا ٱلَمَّ بِهِ ٱخُو ثِقَــةٍ ... غَضَّ ٱلْجُفُونَ وَمَجْمَجَ ٱلْكَلِمَا

فَقَالَ لِبَعْضِ ٱلْمُلُوكِ يَسْتَعْطِفُهُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ ٱهْلِهِ : جَعَلَنِي ٱللهُ فِدَاكَ . لَيْسَ هُوَ ٱلْيَوْمَ كَمَا كَانَ ٱمْسِ إِنَّهُ وَحَيَاتِكَ ٱفَلَتْ بَطَالَتُهُ إِيْ وَٱللهِ وَرَاجَعَهُ حِلْمُهُ وَٱعْقَبَهُ وَحَقِّكَ ٱلْهَوَى نَدَمًا ٱلْقَى ٱلدَّهْرُ عَلَيْهِ كَلْكَلَهُ فَهُوَ ٱلْيَوْمَ إِذَا رَاى ٱخَا ثِقَةٍ غَضَّ بَصَرَهُ وَمَجْمَجَ كَلَامَهُ . وَبِهٰذَا يُعْرَفُ انَّ حَلَّ ٱلْمَنْظُومِ وَنَظْمَ ٱلْمَحْلُولِ ٱسْهَلُ مِنِ ٱبْتِدَائِهِمَا لِأَنَّ ٱلْمَعَانِيَ إِذَا حُلَّتْ مَنْظُومًا اوْ نُظِمَتْ مَنْثُورًا حَاضِرَةٌ بَيْنَ يَدَيْكَ تَزِيدُ فِيهَا شَيْئًا فَتَنْحَلُّ اوْ تَنْقُصُ مِنْهَا شَيْئًا فَتَنْتَظِمُ . وَإِذَا اردتَّ ٱبْتِدَاءَ كَلَامٍ وَجَدتَّ ٱلْمَعَانِيَ غَائِبَةً عَنْكَ فَتَحْتَاجُ إِلَى فِكْرٍ يُحْضِرُكَهَا وَٱلْمَحْلُولُ مِنَ ٱلشِّعْرِ عَلَى ٱرْبَعَةِ ٱضْرُبٍ : ضَرْبٌ مِنْهَا يَكُونُ بِإِدْخَالِ لَفْظَةٍ بَيْنَ ٱلْفَاظِهِ . وَضَرْبٌ يَنْحَلُّ بِتَأْخِيرِ لَفْظَةٍ مِنْهُ وَتَقْدِيمِ أُخْرَى فَيَحْسُنُ مَحْلُولُهُ وَيَسْتَقِيمُ . وَضَرْبٌ مِنْهُ يَنْحَلُّ عَلَى هٰذَا ٱلْوَجْهِ وَلَا يَحْسُنُ وَلَا يَسْتَقِيمُ . فَامَّا ٱلضَّرْبُ ٱلْاوَّلُ فَمِثَالُــهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ

صدرِ كلامِ قُلَيبٍ المعتزلي . وَاَمَّا الضَّربُ الثَّاني فمثالُهُ ما ذكرَ بعضُ الكُتَّابِ مِنْ قولِ البحتريِّ :

تَطلُبُ الاكثَرَ في الدُّنيا وقَدْ تَبلُغُ الحاجَةُ فيها بالاقَلْ

ثُمَّ قالَ : فاذا نَثَرتَ ذلِكَ ولَمْ تَزِدْ في الفاظِهِ شيئًا قُلتَ : تَطلُبُ في الدُّنيا الاكثَرَ وَتَبلُغُ مِنها الحاجَةَ بالاقَلِّ . فامَّا الضَّربُ الثالثُ فهُوَ اَنْ توضَعَ الفاظُ البَيتِ في مَواضِعَ لا يَحسُنُ وَضعُها في غَيرِها فيَختَلُّ اذا نُثِرَ بتأخيرِ لَفظٍ وتقديمِ آخَرَ فيَحتاجُ نَثرُهُ الى النُّقصانِ مِنهُ والزِّيادَةِ فيهِ . كقولِ البحتريِّ ايضا :

يُسَرُّ بِعُمرانِ الدِّيارِ مُضَلَّلٌ وَعُمرانُها مُستأنَفٌ مِنْ خَرابِها
ولَمْ ارتَضِ الدُّنيا اوانَ مَجيئِها فكَيفَ ارتِضائيها اوانَ ذَهابِها

فاذا نُثِرَ على هذا الوَجهِ قيلَ : يُسَرُّ مُضَلَّلٌ بِعُمرانِ الدُّنيا وَمِنْ خَرابِها عُمرانُها مُستأنَفٌ ولَمْ ارتَضِ اوانَ مَجيئِها الدُّنيا فكيفَ اوانَ ذَهابِها ارتِضائيها . فهذا نَثرٌ فاسِدٌ فاذا غَيَّرتَ بَعضَ الفاظِهِ حَسُنَ وهُوَ اَنْ تَقولَ : يُسَرُّ المُضَلَّلُ بِعُمرانِ الدِّيارِ وَاِنَّما يُستأنَفُ عُمرانُها مِنْ خَرابِها . وما ارتَضَيتُ الدُّنيا اوانَ مَجيئِها فكَيفَ ارتَضيها اوانَ ذَهابِها . ونَحنُ نَقولُ اِنَّ مِنَ النَّظمِ ما لا يُمكِنُ حَلُّهُ اَصلا بتأخيرِ لَفظَةٍ وتَقديمِ اُخرى مِنهُ حَتَّى يَلحَقَ بِهِ التَّغييرُ والزِّيادَةُ والنُّقصانُ . مِثلُ قولِ الشَّاعِرِ :

لِسانُ الفَتى نِصفٌ ونِصفٌ فُؤادُهُ فَلَمْ يَبقَ الَّا صورَةُ اللَّحمِ وَالدَّمِ

فالمِصراعُ الاوَّلُ يُمكِنُ اَنْ تُؤخَّرَ الفاظُهُ وتُقَدَّمَ فيَصيرُ نَثرًا

مُسْتَقِيماً وَهُوَ أَنْ تَقُولَ : فُؤَادُ ٱلْفَتَى نِصْفٌ وَلِسَانُهُ نِصْفٌ . وَلَا يُمْكِنُ فِي ٱلْمِصْرَاعِ ٱلثَّانِي ذٰلِكَ حَتَّى تَزِيدَ فِيهِ أَوْ تَنْقُصَ مِنْهُ لِأَنَّ ٱلْمِصْرَاعَ ٱلثَّانِيَ إِنَّمَا هُوَ تَذْيِيلٌ لِلْمِصْرَاعِ ٱلْأَوَّلِ فَإِذَا أَرَدتَّ أَنْ تَحُلَّهُ حَلًّا مُقْتَصَرًا بِغَيْرِ لَفْظِهِ قُلْتَ : ٱلْإِنْسَانُ شَطْرَانِ لِسَانٌ وَجَنَانٌ . وَمِمَّا لَا يُمْكِنُ حَلُّهُ بِتَقْدِيمِ لَفْظَةٍ مِنْهُ وَتَأْخِيرِ أُخْرَى أَيْضًا قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

أَلَا يَا ٱبْنَ ٱلَّذِينَ فَنُوا وَبَادُوا ... أَمَا وَٱللّٰهِ مَا ذَهَبُوا لِتَبْقَى

فَتَحْتَاجُ فِي نَثْرِهِ إِلَى تَغْيِيرِهِ وَإِبْدَالِ أَلْفَاظِهِ فَتَقُولُ : أَلَا يَا ٱبْنَ ٱلَّذِينَ مَاتُوا وَمَضَوْا وَظَعَنُوا فَنَأَوْا فَوَٱللّٰهِ مَا ظَعَنُوا لِتُقِيمَ وَمَا رَامُوا إِلَّا لِتَرِيمَ . وَلَا مَاتُوا لِتَحْيَا وَلَا فَنُوا لِتَبْقَى . وَفِي هٰذِهِ ٱلْأَلْفَاظِ طُولٌ وَلَيْسَ بِصَائِرٍ عَلَى مَا خَبَّرْتُكَ فَإِنْ أَرَدتَّ ٱخْتِصَارَهُ قُلْتَ : أَمَا وَٱللّٰهِ إِنَّ ٱلْمَوْتَ لَمْ يُصِبْكَ فِي أَبِيكَ إِلَّا لِيُصِيبَكَ فِيكَ . وَٱلضَّرْبُ ٱلرَّابِعُ أَنْ تَكْسُوَ مَا تَحُلُّهُ مِنَ ٱلْمَنْظُومِ أَلْفَاظًا مِنْ عِنْدِكَ . وَهٰذَا أَرْفَعُ دَرَجَاتِكَ . وَمِنْهُ مَا قَالَ بَعْضُهُمْ لِلرَّبِيعِ بْنِ خُثَيْمٍ وَقَدْ رَأَى ٱجْتِهَادَهُ فِي ٱلْعِبَادَةِ : قَتَلْتَ نَفْسَكَ . فَقَالَ : رَاحَتَهَا أَطْلُبُ . فَقَالَ ٱلشَّاعِرُ :

سَأَطْلُبُ بُعْدَ ٱلدَّارِ مِنْكُمْ لِتَقْرُبُوا ... وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ ٱلدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا

وَمِنْهُ مَا جَاءَ عَنِ ٱلْحَسَنِ ٱلْبَصْرِيِّ فَقَالَ نَثْرًا : إِنَّ ٱمْرَأً لَمْ يَعُدَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ آدَمَ إِلَّا أَبًا مَيْتًا لَمُعْرَقٌ لَهُ فِي ٱلْمَوْتِ . فَأَخَذَهُ أَبُو نُوَاسٍ فَقَالَ :

وَمَا ٱلنَّاسُ إِلَّا هَالِكٌ وَٱبْنُ هَالِكٍ ... وَذُو نَسَبٍ فِي ٱلْهَالِكِينَ عَرِيقُ

وَسَمِعَ بَعْضُ ٱلْكُتَّابِ قَوْلَ أَبِي تَمَّامٍ :

فَإِنْ نَجِدْ عِلَّةً نَعُمُّ بِهَا حَتَّى تَرَانَا نُعَادُ مِنْ مَرَضِهْ

فَكَتَبَ مَنْ نَزَلَ مَنْزِلَتِي مِنْ طَاعَتِكَ وَمُشَارَكَتِكَ كَانَ حَقِيقًا أَنْ يُهَنَّأَ بِالنِّعْمَةِ تَحْدُثُ عِنْدَكَ وَيُعَزَّى عَلَى النَّائِبَةِ تُلِمُّ بِكَ . فَنَقَلَ الْعِيَادَةَ إِلَى الْمُصِيبَةِ وَالتَّعْزِيَةِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : الْكِتَابَةُ نَقْضُ الشِّعْرِ . وَقِيلَ لِلْعَتَّابِيِّ : بِمَ قَدَرْتَ عَلَى الْبَلَاغَةِ . فَقَالَ : بِحَلِّ مَعْقُودِ الْكَلَامِ

وَأَحْسَنَ أَبُو تَمَّامٍ فِي قَوْلِهِ :

إِلَيْكَ هَتَكْنَا جُنْحَ لَيْلٍ كَأَنَّمَا قَدِ اكْتَحَلَتْ مِنْهُ الْبِلَادُ بِإِثْمِدِ

وَزَادَ فِيهِ عَلَى أَبِي نُوَاسٍ وَمِنْهُ أَخَذَ . وَهُوَ قَوْلُهُ :

وَجُنْحُ لَيْلٍ مُكْتَحِلٌ بِقَارِ

لِأَنَّ الِاكْتِحَالَ يَكُونُ بِالْإِثْمِدِ وَلَا يَكُونُ بِالْقَارِ . وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ الْعَبَّاسِ :

لِفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ يَدٌ تَقَاصَرَ عَنْهَا الْمَثَلْ

فَبَسْطَتُهَا لِلْغِنَى وَسَطْوَتُهَا لِلْأَجَلْ

وَبَاطِنُهَا لِلنَّدَى وَظَاهِرُهَا لِلْقُبَلْ

وَأَخَذَ الْمَعْنَى الْأَمِيرُ أَبُو عَزِيزٍ قَتَادَةُ أَمِيرُ مَكَّةَ فَقَالَ مُشِيرًا إِلَى يَدِهِ مِنْ أَبْيَاتٍ :

تَظَلُّ مُلُوكُ الْأَرْضِ تَلْثِمُ ظَهْرَهَا وَفِي بَطْنِهَا لِلْمُجْدِبِينَ رَبِيعُ

فَأَتْبَعَهُ ابْنُ الرُّومِيِّ فَأَحْسَنَ الِاتِّبَاعَ فَقَالَ :

أَصْبَحْتُ بَيْنَ خَصَاصَةٍ وَتَجَمُّلٍ وَالْحُرُّ بَيْنَهُمَا يَمُوتُ هَزِيلَا

فَامْدُدْ إِلَيَّ يَدًا تَعَوَّدَ بَطْنُهَا بَذْلَ النَّوَالِ وَظَهْرُهَا التَّقْبِيلَا

وَمَا أَلطَفَ قَولَ مَنْ قَالَ :

وَمَا ٱلدَّهرُ فِي حَالِ ٱلسُّكُونِ بِسَاكِنٍ
سِوَى أَنَّهُ مُستَجمِعٌ لِوُثُوبِ

وَإِنَّمَا أَخَذَهُ مِنْ قَولِ ٱلنَّابِغَةِ :

وَقُلتُ يَا قَومُ إِنَّ ٱللَّيثَ مُنقَبِضٌ عَلَى بَرَاثِنِهِ لِوَثبَةِ ٱلضَّارِي

وَكَذٰلِكَ قَولُهُ :

كَأَنَّ أَبَاهُ حِينَ سَمَّاهُ صَاعِدًا رَأَى كَيفَ يَرقَى فِي ٱلمَعَالِي وَيَصعَدُ

أَخَذَهُ مِنْ قَولِ ٱلبُحتُرِيِّ :

سَمَّاهُ أُسرَتُهُ ٱلعَلَاءَ وَإِنَّمَا قَصَدُوا بِذٰلِكَ أَنْ يَتِمَّ عُلَاهُ

وَزَادَ أَبُو تَمَّامٍ عَلَى ٱلأَفوَهِ وَٱلنَّابِغَةِ وَأَبِي نُوَاسٍ وَمُسلِمٍ فِي مَعنًى تَدَاوَلُوهُ وَهُوَ قَولُ ٱلأَفوَهِ :

وَتَرَى ٱلطَّيرَ عَلَى آثَارِنَا رَأْيَ عَينٍ ثِقَةً أَنْ سَتُمَارْ

وَقَالَ ٱلنَّابِغَةُ :

إِذَا مَا غَزَوا بِٱلجَيشِ حَلَّقَ فَوقَهُمْ عَصَائِبُ طَيرٍ تَهتَدِي بِعَصَائِبِ

جَوَانِحُ قَدْ أَيقَنَّ أَنَّ قَبِيلَهُ إِذَا مَا ٱلتَقَى ٱلجَمعَانِ أَوَّلُ غَالِبِ

وَقَولُ أَبِي نُوَاسٍ :

تَتَأَيَّا ٱلطَّيرُ غَزوَتَهُ ثِقَةً بِٱلشِّبعِ مِنْ جَزَرِهْ

وَقَولُ مُسلِمٍ :

قَدْ عَوَّدَ ٱلطَّيرَ عَادَاتٍ وَثِقنَ بِهَا فَهُنَّ يَتبَعنَهُ فِي كُلِّ مُرتَحَلِ

فَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ :

أَقَامَتْ مَعَ ٱلرَّايَاتِ حَتَّى كَأَنَّهَا ... مِنَ ٱلْجَيْشِ إِلَّا أَنَّهَا لَا تُقَاتِلُ

وَقَوْلُـهُ : (أَقَامَتْ مَعَ ٱلرَّايَاتِ زِيَادَةٌ) وَزَادَ عَلَيْهِمْ بَعْضُ ٱلْمُحْدَثِينَ فَقَالَ :

حَتَّى تَكَادَ عَلَى أَحْيَائِهِمْ تَقَعُ

وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ :

هِمَّةٌ تَنْطَحُ ٱلنُّجُـومَ وَجِدٌّ ... آلِفٌ لِلْحَضِيضِ فَهْوَ حَضِيضُ

أَخَذَهُ ٱلْبُحْتُرِيّ فَحَسَّنَهُ وَهُوَ قَوْلُهُ :

مُتَحَيِّرٌ يَغْدُو بِعَزْمٍ قَائِمٍ ... فِي كُلِّ نَائِبَةٍ وَجِدٍّ قَاعِدِ

وَمِمَّا أَخَذَهُ مِنْ أَبِي تَمَّامٍ فَقَسَّمَهُ تَقْسِيمًا حَسَنًا قَوْلُهُ :

مَلِكٌ لَهُ فِي كُلِّ يَوْمِ كَرِيهَةٍ ... إِقْدَامُ غِرٍّ وَٱعْتِزَامُ مُجَرِّبِ

هُوَ مِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

وَمُجَرَّبُونَ سَقَاهُمُ مِنْ بَأْسِهِ ... فَإِذَا لَقُوا فَكَأَنَّهُمْ أَغْمَارُ

وَقَالَ أَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ :

كَمْ نِعْمَةٍ لَا يُسْتَقَلُّ بِشُكْرِهَا ... لِلّٰهِ فِي طَيِّ ٱلْمَكَارِهِ كَامِنَهْ

أَخَذَهُ أَبُو تَمَّامٍ فَقَالَ :

قَدْ يُنْعِمُ ٱللّٰهُ بِٱلْبَلْوَى وَإِنْ عَظُمَتْ ... وَيَبْتَلِي ٱللّٰهُ بَعْضَ ٱلْقَوْمِ بِٱلنِّعَمِ

فَزَادَ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ أَتَى بِعَكْسِ ٱلْمَعْنَى وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ :

رَأَيْتُ رَجَائِي فِيكَ وَحْدَكَ هِمَّةً ... وَلٰكِنَّهُ فِي سَائِرِ ٱلنَّاسِ مَطْمَعُ

فَأَخَذَهُ ٱلْبُحْتُرِيُّ فَٱخْتَصَرَهُ فَقَالَ :

ثَنَى أَمَلِي فَٱحْتَازَهُ عَنْ مَعَاشِرٍ ... يَبِيتُونَ وَٱلْآمَالُ فِيهِمْ مَطَامِعُ

فَأَخَذَهُ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ فَقَالَ :

بِهِ صَدَّقَ ٱللهُ ٱلْأَمَانِي حَدِيثَهَا ... وَقَدْ مَرَّ دَهْرٌ وَٱلْأَمَانِي وَسَاوِسُ

وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ :

أَنْضَرَتْ أَيْكَتِي عَطَايَاكَ حَتَّى ... عَادَ غُصْنِي سَاقًا وَكَانَ قَضِيبَا

فَقَالَ ٱلْبُحْتُرِيُّ وَزَادَ :

حَتَّى يَعُودَ ٱلذِّئْبُ لَيْثًا ضَيْغَمًا ... وَٱلْغُصْنُ سَاقًا وَٱلْقَرَارَةُ نِيقَا

وَمِثْلُ هٰذَا كَثِيرٌ وَفِيمَا أَوْرَدْتُ كِفَايَةٌ

البحث الثاني

في قبح الاخذ

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٢٤٣ من علم الادب)

وَقُبْحُ ٱلْأَخْذِ أَنْ تَعْمِدَ إِلَى ٱلْمَعْنَى فَتَتَنَاوَلَهُ بِلَفْظِهِ كُلِّهِ أَوْ أَكْثَرِهِ أَوْ تُخْرِجَهُ فِي مَعْرِضٍ مُسْتَهْجَنٍ. وَٱلْمَعْنَى إِنَّمَا يَحْسُنُ بِٱلْكُسْوَةِ. أَخْبَرَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا قَالَ قِيلَ لِلشَّعْبِيِّ : إِنَّا إِذَا سَمِعْنَا ٱلْحَدِيثَ مِنْكَ نَسْمَعُهُ بِخِلَافِ مَا نَسْمَعُهُ مِنْ غَيْرِكَ . قَالَ : إِنِّي أَجِدُهُ عَارِيًا فَأَكْسُوهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ أَزِيدَ فِيهِ حَرْفًا . أَيْ مِنْ غَيْرِ أَنْ أَزِيدَ فِي مَعْنَاهُ شَيْئًا فَمَا أَخَذَ بِلَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ وَٱدَّعَى آخِذُهُ أَنَّهُ لَمْ يَأْخُذْهُ وَلٰكِنْ وَقَعَ كَمَا وَقَعَ لِلْأَوَّلِ كَمَا سُئِلَ أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ عَنِ ٱلشَّاعِرَيْنِ يَتَّفِقَانِ عَلَى لَفْظٍ وَاحِدٍ وَمَعْنًى . فَقَالَ : عُقُولُ ٱلرِّجَالِ

تَوَافَتْ عَلَى أَلْسِنَتِهَا وَذٰلِكَ قَوْلُ طَرَفَةَ :

وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ　　يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَلَّدِ

وَهُوَ قَوْلُ أَمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ　　يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَمَّلِ

فَغَيَّرَ طَرَفَةُ ٱلْقَافِيَةَ . وَقَالَ ٱلْبَعِيثُ :

أَتَرْجُو كُلَيْبٌ أَنْ يَجِيءَ حَدِيثُهَا　　بِخَيْرٍ وَقَدْ أَعْيَا كُلَيْبًا قَدِيمُهَا

وَقَالَ ٱلْفَرَزْدَقُ :

أَتَرْجُو رَبِيعٌ أَنْ تَجِيءَ صِغَارُهَا　　بِخَيْرٍ وَقَدْ أَعْيَا رَبِيعًا كِبَارُهَا

وَمِثْلُ هٰذَا كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِمْ جِدًّا وَٱلْأَخْذُ إِذَا كَانَ كَذٰلِكَ كَانَ مَعِيبًا وَإِنِ ٱدَّعَى ٱلْآخِرُ أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ قَوْلَ ٱلْأَوَّلِ بَلْ وَقَعَ لَهُ كَمَا وَقَعَ لِذَاكَ فَإِنَّ صِحَّةَ ذٰلِكَ لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَٱلْعَيْبُ لَازِمٌ لِلْآخِرِ . وَإِذَا كَانَ ٱلْقَوْمُ فِي قَبِيلَةٍ وَاحِدَةٍ فَإِنَّ خَوَاطِرَهُمْ تَقَعُ مُتَقَارِبَةً كَمَا أَنَّ أَخْلَاقَهُمْ وَشَمَائِلَهُمْ تَكُونُ مُتَضَارِعَةً وَأَنْشَدَتْ ٱلصَّاحِبَ إِسْمَاعِيلَ بْنَ عَبَّادٍ :

كَانَتْ سَرَاةُ ٱلنَّاسِ تَحْتَ أَظِلَّةٍ

فَسَبَقَنِي وَقَالَ :

فَغَدَتْ سَرَاةُ ٱلنَّاسِ فَوْقَ سَرَاتِهِ

وَكَذٰلِكَ كُنْتُ قُلْتُ : فَعَلَى هٰذَا جَائِزٌ مَا يُدَّعَى لَهُمْ وَٱلظَّاهِرُ مَا قُلْنَاهُ فَهٰذَا ضَرْبٌ . وَٱلضَّرْبُ ٱلْآخَرُ مِنَ ٱلْأَخْذِ ٱلْمُسْتَهْجَنِ أَنْ يَأْخُذَ ٱلْمَعْنَى فَيُفْسِدَهُ أَوْ يُعَرِّضَهُ أَوْ يُخْرِجَهُ فِي مَعْرِضٍ قَبِيحٍ وَكُسْوَةٍ

مُسْتَرْذَلَةٍ . وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ أَبِي كَرِيمَةَ :

قَفَاهُ وَجْهٌ ثُمَّ وَجْهُ ٱلَّذِي قَفَا ه وَجْهٌ يُشْبِهُ ٱلْبَدْرَا

وَإِنَّمَا أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ أَبِي نُوَاس :

يَزِ حُسْنَ ٱلْوُجُوهِ حُسْنُ قَفَانَا

وَأَخَذَهُ أَبُو نُوَاسٍ مِنْ قَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ بِقَوْلِهِ لِلنُّعْمَانِ بْنِ ٱلْمُنْذِرِ : أَيُفَاخِرُكَ ٱبْنُ جَفْنَةَ وَٱللَّاتِ لَأَمْسُكَ خَيْرٌ مِنْ يَوْمِهِ وَلَقَذَالُكَ أَحْسَنُ مِنْ وَجْهِهِ وَلِيَسَارُكَ أَسْمَحُ مِنْ يَمِينِهِ . وَلَعَبِيدُكَ أَكْثَرُ مِنْ قَوْمِهِ وَلَنَفْسُكَ أَكْبَرُ مِنْ جُنْدِهِ وَلَيَوْمُكَ أَشْرَفُ مِنْ دَهْرِهِ . وَلَوَعْدُكَ أَنْجَزُ مِنْ رِفْدِهِ . وَلَهَزْلُكَ أَصْوَبُ مِنْ جِدِّهِ . وَلَكُرْسِيُّكَ أَرْفَعُ مِنْ سَرِيرِهِ . وَلَفِتْرُكَ أَبْسَطُ مِنْ شِبْرِهِ . وَلَأُمُّكَ خَيْرٌ مِنْ أَبِيهِ . وَسَمِعَ بَعْضُهُمْ قَوْلَ مَحْمُودٍ ٱلْوَرَّاقِ :

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ ٱللهِ نِعْمَةً عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ ٱلشُّكْرُ
فَكَيْفَ بُلُوغُ ٱلشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ وَإِنْ طَالَتِ ٱلْأَيَّامُ وَٱتَّصَلَ ٱلْعُمْرُ
إِذَا مَسَّ بِٱلسَّرَّاءِ عَمَّ سُرُورُهَا وَإِنْ مَسَّ بِٱلضَّرَّاءِ أَعْقَبَهَا ٱلْأَجْرُ
وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا لَهُ فِيهِ نِعْمَةٌ تَضِيقُ بِهَا ٱلْأَوْهَامُ وَٱلْبَرُّ وَٱلْبَحْرُ

فَقَالَ وَأَسَاءَ :

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ إِنَّ ٱللهَ ذُو نِعَمٍ لَمْ يُحْصِهَا عَدَدًا بِٱلشُّكْرِ مَنْ حَمِدَا
شُكْرِي لَهُ عَمَلٌ فِيهِ عَلَيَّ لَهُ شُكْرٌ يَكُونُ لِشُكْرٍ قَبْلَهُ مَدَدَا

فَهٰذَا مِثَالُ قُبْحِ ٱلْأَخْذِ فَٱعْلَمْهُ . وَأَخَذَ ٱبْنُ طَبَاطِبَا قَوْلَ عَلِيٍّ قِيمَةُ كُلِّ ٱمْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ . فَقَالَ :

فيَالَائِمِي دَعْنِي أُغَالِي بِقِيمَتِي ۰ فَقِيمَةُ كُلِّ ٱلنَّاسِ مَا يُحْسِنُونَهُ

فَأَخَذَهُ بِلَفْظِهِ وَأَخْرَجَهُ بَغِيضاً مُتَكَلَّفاً . وَٱلْجَيِّدُ قَوْلُ ٱلآخَرِ :
(قِيمَةُ كُلِّ ٱمْرِئٍ عِلْمُهُ) فَهَذَا وَإِنْ كَانَ أَخَذَهُ بِبَعْضِ لَفْظِهِ فَإِنَّ بَيْتَهُ أَحْسَنُ مَوْقِعاً مِنْهُ مِنْ بَيْتِ ٱبْنِ طَبَاطِبَا . وَمِمَّا قَصَّرَ فِيهِ ٱلْبُحْتُرِيُّ قَوْلُهُ :

قَوْمٌ تَرَى أَرْمَاحَهُمْ يَوْمَ ٱلْوَغَى مَشْغُوفَةً بِمَوَاطِنِ ٱلْكِتْمَانِ

أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ عَمْرِو بْنِ مَعْدِي كَرِبَ :

وَٱلضَّارِبِينَ بِكُلِّ أَبْيَضَ مُرْهَفٍ وَٱلطَّاعِنِينَ مَجَامِعَ ٱلأَضْغَانِ

فَإِنَّ قَوْلَهُ (مَجَامِعَ ٱلأَضْغَانِ) أَجْوَدُ مِنْ قَوْلِهِ : مَوَاطِنُ ٱلْكِتْمَانِ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يُطَاعِنُونَ ٱلأَعْدَاءَ مِنْ أَجْلِ أَضْغَانِهِمْ فَإِذَا وَقَعَ ٱلطَّعْنُ فِي مَوْضِعِ ٱلضِّغْنِ فَذَاكَ غَايَةُ ٱلْمُرَادِ . وَأَنْشَدَ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ عَنْ عَمِّهِ :

حَرَامٌ عَلَى أَرْمَاحِنَا طَعْنُ مُدْبِرٍ وَتَنْدَقُّ قِدْماً فِي ٱلصُّدُورِ صُدُورُهَا
مُسَلَّمَةٌ أَعْجَازُ خَيْلِيَ فِي ٱلْوَغَى مُكَلَّمَةٌ لَبَّاتُهَا وَنُحُورُهَا

أَخَذَهُ أَبُو تَمَّامٍ فَقَالَ :

أُنَاسٌ إِذَا مَا ٱسْتَحْكَمَ ٱلرَّوْعُ كَسَّرُوا
صُدُورَ ٱلْعَوَالِي فِي صُدُورِ ٱلْكَتَائِبِ

فَأَحْسَنَا جَمِيعاً وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلآخَرِ :

يَلْقَى ٱلسُّيُوفَ بِنَحْرِهِ وَبِوَجْهِهِ وَيُقِيمُ هَامَتَهُ مَقَامَ ٱلْمِغْفَرِ
وَيَقُولُ لِلطِّرْفِ ٱصْطَبِرْ لِشَبَا ٱلْقَنَا فَهَدَمْتُ رُكْنَ ٱلْمَجْدِ إِنْ لَمْ تُعْقَرِ

وَمِثْلُهُ قَوْلُ بَكْرِ بْنِ ٱلنَّطَّاحِ :

يَتَلَقَّى ٱلنَّدَى بِوَجْهٍ حَيِيٍّ　　وَصُدُورَ ٱلْقَنَا بِوَجْهٍ وَقَاحِ

وَهٰذَا كُلُّهُ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ :

لَا يَقَعُ ٱلطَّعْنُ إِلَّا فِي نُحُورِهِمِ　　لَيْسَ لَهُمْ عَنْ حِيَاضِ ٱلْمَوْتِ تَهْلِيلُ

وَهُوَ دُونَ جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ . وَقَدْ أَتَيْتُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ عَلَى ٱلْكِفَايَةِ . فَقِسْ بِمَا أَوْرَدْتُهُ عَلَى مَا تَرَكْتُهُ فَإِنِّي لَوِ ٱسْتَقْصَيْتُهُ خَرَجَ هٰذَا ٱلْكِتَابُ عَنِ ٱلْمُرَادِ وَزَاغَ عَنِ ٱلْإِيثَارِ وَبِٱللّٰهِ ٱلتَّوْفِيقُ

البحث الثالث

في حلّ الشعر

(عن المثل السائر والوشي المرقوم لابن الاثير)

(راجع صفحة ٢٤٤ من علم الادب)

حَلُّ ٱلْأَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : (ٱلْأَوَّلُ) مِنْهَا وَهُوَ أَدْنَاهَا مَرْتَبَةً أَنْ يَأْخُذَ ٱلنَّاثِرُ بَيْتًا مِنَ ٱلشِّعْرِ فَيَنْثُرُهُ بِلَفْظِهِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَهٰذَا عَيْبٌ فَاحِشٌ . وَمِثَالُهُ كَمَنْ أَخَذَ عِقْدًا قَدْ أُتْقِنَ نَظْمُهُ وَأُحْسِنَ تَأْلِيفُهُ فَأَوْهَاهُ وَبَدَّدَهُ وَكَانَ يَقُومُ عُذْرُهُ فِي ذٰلِكَ أَنْ لَوْ نَقَلَهُ عَنْ كَوْنِهِ عِقْدًا إِلَى صُورَةٍ أُخْرَى مِثْلِهِ أَوْ أَحْسَنَ مِنْهُ . وَأَيْضًا فَإِنَّهُ إِذَا نُثِرَ ٱلشِّعْرُ بِلَفْظِهِ كَانَ صَاحِبُهُ مَشْهُورَ ٱلسَّرِقَةِ فَيُقَالُ : هٰذَا شِعْرُ فُلَانٍ بِعَيْنِهِ لِكَوْنِ أَلْفَاظِهِ بَاقِيَةً لَمْ يَتَغَيَّرْ مِنْهَا شَيْءٌ وَقَدْ سَلَكَ هٰذَا ٱلْمَسْلَكَ بَعْضُ ٱلْعِرَاقِيِّينَ فَجَاءَ مُسْتَهْجَنًا لَا مُسْتَحْسَنًا .

كقوله في بعض ابيات الحماسة :

وَأَلَدَّ ذِي حَنَقٍ عَلَيَّ كَأَنَّمَا   تَغْلِي عَدَاوَةُ صَدْرِهِ فِي مِرْجَلِ
أَرْجَيْتُهُ عَنِّي فَأَبْصَرَ قَصْدَهُ   وَكَوَيْتُهُ فَوْقَ النَّوَاظِرِ مِنْ عَلِ

(فيقال) في نثر هذين البيتين : فكم لقي الألدّ ذا حنق كأنه ينظر الى الكواكب من عل وتغلي عداوة صدره فكواه فوق ناظريه واكبّه لفمه ويديه . فلم يزد هذا الناثر على ان ازال رونق الوزن وطلاوة النظم لا غير . ومن هذا القسم ضرب محمود لا عيب فيه وهو ان يكون البيت من الشعر قد تضمن شيئا لا يمكن تغيير لفظه فحينئذ يعذر ناثره اذا اتى بذلك اللفظ . وكذلك الامثال السائرة فانه لا بد من ذكرها على ما جاءت في الشعر . (واما القسم الثاني) فهو وسط بين الاول والثالث في المرتبة وهو ان ينثر المعنى المنظوم ببعض الفاظه ويعبر عن البعض بالفاظ أُخر وهناك تظهر الصنعة في المماثلة والمشابهة ومؤاخاة الالفاظ الباقية بالالفاظ المرتجلة فانه اذا اخذ لفظا لشاعر مجيد قد نقحه وصححه قرنه بما لا يلائمه كان كمن جمع بين لؤلؤة وحصاة . ولا خفاء بما في ذلك من الانتصاب للقدح والاستهداف للطعن والطريق المسلوك الى هذا القسم ان تأخذ بعض بيت من الابيات الشعرية هو احسن ما فيه ثم تماثله . وساورد هٰهنا مثالًا واحدًا ليكون قدوة للمتعلم (فاقول) : قد ورد هذا البيت من شعر ابي تمام في وصف قصيدة له :

وَحِدَاءٌ تَمْلأُ كُلَّ أُذْنٍ حِكْمَةً وَبَلَاغَةً وَتُدِرُّ كُلَّ وَرِيدِ

فَقَوْلُهُ (تَمْلأُ كُلَّ أُذْنٍ حِكْمَةً) مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْحَسَنِ وَهُوَ أَحْسَنُ مَا فِي ٱلْبَيْتِ فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَنْثُرَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فَلَا بُدَّ مِنِ ٱسْتِعْمَالِ لَفْظِهِ بِعَيْنِهِ لِأَنَّهُ فِي ٱلْغَايَةِ ٱلْقُصْوَى مِنَ ٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْبَلَاغَةِ . فَعَلَيْكَ أَنْ تُؤَاخِيَهُ بِمِثْلِهِ وَهٰذَا عَسِرٌ جِدًّا وَهُوَ أَصْعَبُ مِثَالًا مِنْ نَثْرِ ٱلشِّعْرِ بِغَيْرِ لَفْظِهِ لِأَنَّهُ مَسْلَكٌ ضَيِّقٌ لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلتَّعَرُّضِ لِمُمَاثَلَةِ مَا هُوَ فِي غَايَةِ ٱلْحُسْنِ وَٱلْجُودَةِ . وَأَمَّا نَثْرُ ٱلشِّعْرِ بِغَيْرِ لَفْظِهِ فَذٰلِكَ يَتَصَرَّفُ فِيهِ نَاثِرُهُ عَلَى حَسَبِ مَا يَرَاهُ وَلَا يَكُونُ مُقَيَّدًا فِيهِ بِمِثَالٍ يُضْطَرُّ إِلَى مُؤَاخَاتِهِ . وَقَدْ نَثَرْتُ هٰذِهِ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلْمُشَارَ إِلَيْهَا وَأَتَيْتُ بِهَا فِي جُمْلَةِ كِتَابٍ فَقُلْتُ : وَكَلَامِي قَدْ عُرِفَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱشْتَهَرَ . وَفَاقَ مَسِيرَ ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ . وَإِذَا عُرِفَ ٱلْكَلَامُ صَارَتِ ٱلْمَعْرِفَةُ لَهُ عَلَامَةً . وَأُمِنَ مِنْ سَرِقَتِهِ إِذْ لَوْ سُرِقَ لَدَلَّتْ عَلَيْهِ ٱلْوَسَامَةُ . وَمِنْ خَصَائِصِ صِفَاتِهِ أَنْ يَمْلأَ كُلَّ أُذْنٍ حِكْمَةً . وَيَجْعَلَ فَصَاحَةَ كُلِّ لِسَانٍ عُجْمَةً . وَإِذَا جَرَتْ نَفَثَاتُهُ فِي ٱلْأَفْهَامِ قَالَتْ : أَهٰذِهِ بِنْتُ فِكْرَةٍ أَمْ بِنْتُ كَرْمَةٍ . فَٱنْظُرْ كَيْفَ فَعَلْتُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ فَإِنِّي لَمَّا أَخَذْتُ تِلْكَ ٱلْكَلِمَاتِ مِنَ ٱلْبَيْتِ ٱلشِّعْرِيِّ ٱلْتَزَمْتُ بِأَنْ أُوَاخِيَهَا بِمَا هُوَ مِثْلُهَا أَوْ أَحْسَنُ مِنْهَا فَجِئْتُ بِهٰذَا ٱلْفَصْلِ كَمَا تَرَاهُ . وَكَذٰلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يُفْعَلَ فِيمَا هٰذَا سَبِيلُهُ . (وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّالِثُ) وَهُوَ أَعْلَى مِنَ ٱلْقِسْمَيْنِ ٱلْأَوَّلَيْنِ فَهُوَ أَنْ يُؤْخَذَ ٱلْمَعْنَى فَيُصَاغَ بِأَلْفَاظٍ غَيْرِ أَلْفَاظِهِ . وَثَمَّ يَتَبَيَّنُ حِذْقُ ٱلصَّائِغِ فِي صِيَاغَتِهِ وَيُعْلَمُ مِقْدَارُ تَصَرُّفِهِ

فِي صِنَاعَتِهِ فَإِنِ ٱسْتَطَاعَ ٱلزِّيَادَةَ عَلَى ٱلْمَعْنَى فَتِلْكَ ٱلدَّرَجَةُ ٱلْعَالِيَةُ وَإِلَّا أَحْسَنَ ٱلتَّصَرُّفَ وَأَتْقَنَ ٱلتَّأْلِيفَ لِيَكُونَ أَوْلَى بِذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى مِنْ صَاحِبِهِ ٱلْأَوَّلِ . وَٱعْلَمْ أَنَّ مِنْ أَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِ مَا يَتَّسِعُ ٱلْمَجَالُ لِنَاثِرِهِ فَيُورِدُهُ بِضُرُوبٍ مِنَ ٱلْعِبَارَاتِ . وَذٰلِكَ عِنْدِي شَبِيهٌ بِٱلْمَسَائِلِ ٱلسَّيَّالَةِ فِي ٱلْحِسَابِ ٱلَّتِي يُجَابُ عَنْهَا بِعِدَّةِ أَجْوِبَةٍ - وَمِنَ ٱلْأَبْيَاتِ مَا يَضِيقُ فِيهِ ٱلْمَجَالُ حَتَّى يَكَادَ ٱلْمَاهِرُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنْ لَا يَخْرُجَ عَنْ ذٰلِكَ ٱللَّفْظِ وَإِنَّمَا يَكُونُ هٰذَا لِعَدَمِ ٱلنَّظِيرِ . . . وَإِذَا ٱنْتَهَى بِنَا ٱلْكَلَامُ إِلَى هَا هُنَا فِي ٱلتَّنْبِيهِ عَلَى نَثْرِ ٱلشِّعْرِ وَكَيْفِيَّةِ نَثْرِهِ وَذِكْرِ مَا يَسْهُلُ مِنْهُ وَمَا يَعْسُرُ . فَلْنُتْبِعْ ذٰلِكَ بِقَوْلٍ كُلِّيٍّ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ فَنَقُولُ : مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ كَاتِبًا أَوْ كَانَ عِنْدَهُ طَبْعٌ مُجِيبٌ فَعَلَيْهِ بِحِفْظِ ٱلدَّوَاوِينِ ذَوَاتِ ٱلْعَدَدِ وَلَا يَقْنَعْ بِٱلْقَلِيلِ مِنْ ذٰلِكَ . ثُمَّ يَأْخُذْ فِي نَثْرِ ٱلشِّعْرِ مِنْ مَحْفُوظَاتِهِ . وَطَرِيقُهُ أَنْ يَبْتَدِئَ فَيَأْخُذَ قَصِيدًا مِنَ ٱلْقَصَائِدِ فَيَنْثُرَهُ بَيْتًا بَيْتًا عَلَى ٱلتَّوَالِي . وَلَا يَسْتَنْكِفْ فِي ٱلْٱبْتِدَاءِ أَنْ يَنْثُرَ ٱلشِّعْرَ بِأَلْفَاظِهِ أَوْ بِأَكْثَرِهَا فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ إِلَّا ذٰلِكَ وَإِذَا مَرَنَتْ نَفْسُهُ وَتَدَرَّبَ خَاطِرُهُ ٱرْتَفَعَ عَنْ هٰذِهِ ٱلدَّرَجَةِ وَصَارَ يَأْخُذُ ٱلْمَعْنَى وَيَكْسُوهُ عِبَارَةً مِنْ عِنْدِهِ . ثُمَّ يَرْتَفِعُ عَنْ ذٰلِكَ فَيَكْسُوهُ ضُرُوبًا مِنَ ٱلْعِبَارَاتِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ وَحِينَئِذٍ يَحْصُلُ لِخَاطِرِهِ بِمُبَاشَرَةِ ٱلْمَعَانِي لِقَاحٌ فَيَسْتَنْتِجُ مِنْهَا مَعَانِيَ غَيْرَ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي وَسَبِيلُهُ أَنْ يُكْثِرَ ٱلْإِدْمَانَ لَيْلًا وَنَهَارًا وَلَا يَزَالَ عَلَى ذٰلِكَ مُدَّةً طَوِيلَةً حَتَّى يَصِيرَ لَهُ مَلَكَةً . فَإِذَا كَتَبَ كِتَابًا أَوْ خَطَبَ خُطْبَةً تَدَفَّقَتِ ٱلْمَعَانِي فِي

أثناء كلامه وجاءت الفاظه معسولة مغسولة وكان عليها حدة حتى تكاد ترقص رقصا . وهذا شيء خبرته بالتجربة ولا ينبئك مثل خبير

تم بعونه تعالى



فهرس

المقالات